



تاريخ الرقعة

البداية من قنجهما وحتى دمارهما

دراسة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية شاملة

تأليف الدكتور

محمد صالح حباب

منشورات العصر الحديث

مؤسسة الرسالة

مؤسسة الرسالة

تاريخ الرقة

تاريخ الرقة

ابتداء من فتحها وحتى دمارها
دراسة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية شاملة

تأليف
الدكتور محمد صالح حباب

مؤسسة الرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

منذ بدأت تحرير هذا الكتاب «تاريخ الرقة»، لاحظت أن مدينة الرقة مع شقيقتها (الرافقة) كانت في عهد الرشيد قاعدة المملكة الإسلامية كلها من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، وأن الرشيد استقر فيها مدة تزيد على استقراره في بغداد، ونقل إليها خزائن المملكة ودواوينها، تمثلت فيها الحضارة العربية الإسلامية، مما دعاني إلى الكلام عن بعض مظاهرها وأوردت الأمثلة على ذلك من تاريخ الرقة حتى خرابها.

كما لاحظت أن الرقة «وكذلك الجزيرة الفراتية» كانت في العهد الأموي متميزة عن باقي المملكة منذ عهد معاوية، فعولمت هي وجيشها كجزء لا يتفصل عن الشام، وظلت كذلك في العهد العباسي، إذا عولمت بنفس القسوة والحد الذي عولمت به الشام، ولذلك شرحت كيف بدأت علاقة الأمويين بالشام منذ ما قبل الإسلام ثم علاقتهم بالجزيرة ابتداء من عهد معاوية.

ولفت انتباهي أن أقدم المصادر التاريخية الموجودة جرت كتابتها في العصر العباسي ولذلك حفلت برفع شأن العباسيين، وبالتحامل على الأمويين وعلى العرب البدو، وأطنبت في الرفع من شأن البرامكة وكرمهم وحسن إدارتهم، وجهت النزاع بين الأمين والمأمون وكأن نزاع بين العرب والفرس، وصورت الأمين على أسوأ صورة، فهالفت انتباهي فيما بعد أن ابن حوقل المائي للفاطميين تحامل على الحمدانيين العرب وعلى الأندلسيين العرب تحاملاً شديداً وألصق بهم جميع المساوئ التي اتصف بها ذلك العهد، ولذلك حاولت دراسة جميع ما أمكنني الوصول إليه من المصادر والمراجع كي أتمكن من تسجيل كلمة الحق والعدل في تلك الأمور.

اضطرت إلى حذف فصول كثيرة من مسودة هذا الكتاب (وهذا يبرر وجود قفزات بين أرقام المصادر) وذلك تخفيفاً من حجم هذا الكتاب.

وكتبت أود أن أعيد النظر في هذا الكتاب لولا أنني أهديت مكتبتي كلها الحاوية على جميع المصادر والكثير من المراجع العامة وبعض الكتب الأجنبية المتعلقة بالتراث وعلى معاجم بكل اللغات وهي بذلك تكفي الباحث في موضوع تراثي لو وضعت في مكان واحد ولم يفرق بينها.

الباب الأول

بنو أمية ودورهم في فتح الشام والجزيرة الفراتية

الباب الأول

بنو أمية ودورهم في فتح الشام والجزيرة الفراتية

مقدمة في مركز بني أمية قبل الإسلام ثم بعده

استطاعت القبائل العربية التي استقرت في إقليم الشام قبل الإسلام أن تسيطر على النشاط التجاري الذي كان المحرك وراء الأطماع التي جاشت بها نفوس الفرس والبيزنطيين. وكان الطريق التجاري من اليمن إلى الشام أهم الشرايين التي حملت منتجات الشرق إلى الغرب منذ أقدم العصور، وبعد أن كان ذلك تحت سيطرة اليمنيين انتقلت السيطرة إلى عرب الحجاز وذلك لأن الحبشة سيطرت على اليمن لكنها عجزت عن منافسة السفن الفارسية في المحيط الهندي حيث تجمعت حاصلات الشرق في جزيرة سيلان، ولذلك فمنذ القرن السادس الميلادي أصبح وصول التجارة آمنة إلى الشام رهناً بكسب صداقة عرب الحجاز، الذين لم يكتفوا بحماية التجارة، بل عملوا على أن يقوموا هم بنقلها لدرائتهم بمسالك الصحراء ودروبها، وتركز هذا النشاط التجاري خاصة في أيدي العرب المقيمين في مكة التي أصبحت مركزاً تجارياً هاماً، واحتكر المكيون تقريباً هذا الطريق الأخير. أما الطريق الجنوبي (رحلة الجنوب شتاءً) فشارك فيه الأحباش واليمنيون. وانفردت بهذه التجارة من مكة، قبيلة قريش وعلى رأسها قصي، ثم حفيده هاشم بن عبد مناف بن قصي، وعقد هاشم معاهداً مع البيزنطيين وأمرأ غسان، غدا بمقتضاها لقريش حق التجول في بلاد الشام، وازدهرت حياة مكة التجارية، وبعد موت هاشم في إحدى رحلاته (حوالي سنة ٥١٠ م) كرّس أبناء هاشم جهودهم للإشراف على إدارة مكة وتدبير شؤونها الدينية كالحج والبيت الحرام والسقاية، واختص بنو أمية بن عبد شمس أخي هاشم بالولاء الذي يعتبر صاحبه كبير القواد وله الإشراف على التجارة، وقد تولاه في الأيام الأولى من فجر الإسلام أبو سفيان بن حرب والد معاوية، وبذلك أصبح بنو أمية أكثر فروع قريش ثراءً وأعلاماً نفوذاً في القرن السابع الميلادي حتى اعتبر بنو أمية قادة مكة وأصحاب الحل والربط قبل ظهور الإسلام وقبضوا على زمام الأمور في مكة.

كانت دارة الندوة بمكة تغص بعلية القوم، يتعقد جمعهم حين يأتي ميعاد خروج القافلة إلى الشام. وكانت الإدارة لبني أمية لخبرتهم الواسعة في شؤون المال، وكان يعهد إلى كبيرهم قيادة القافلة وإعدادها، وكان كل فرد في مكة أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادي يساهم بنصيب معين في تكاليف إعداد القافلة التي يشترك فيها الفني والفقير .

وكان العبء الأكبر في القافلة يقع على عاتق بني أمية، ففي القافلة التي أدت إلى غزوة بدر قدم بنو أمية أربع أخماس المبلغ اللازم لإعدادها، وإن ترؤسها من قبل أبي سفيان دليل واضح على علو شأنه وعظيم سلطانه، وبلغ ما احتوته قافلة بدر ٢٥٠٠ بعير و٣٠٠ رجل بين دليل وخفير ويتوقف على حيلة الرئيس وذكائه وبعد نظره، سلامة القافلة. ففي عودة قافلة بدر وتتسم الأخبار، عرف أبو سفيان بخروج الرسول ﷺ لقطع الطريق عليهم فاستأجر شخصاً وبعثه إلى مكة يستنفر أهلها لحماية القافلة، وغير طريقه فنجوا ونجت القافلة «الأمويون والبيزنطيون، العدوي ٢٨» .

لا شك أن بني أمية تمتعوا بمركز رفيع عند حكام الشام البيزنطيين، وحصلوا على رعايتهم، وعرفوا بذلك كيف يرضون أذواقهم، وكيف يسيطرون فيما بعد على قلوبهم، كما عرفوا من

اختلاطهم بأرض الحجاز لجمع مساهماتهم في القافلة أو توزيع أرباحهم، طباع الناس عن قرب ولذا فإنه لما آن الأوان كان لديهم قوائم جاهزة بأسماء من يستطيعون الاعتماد عليهم.

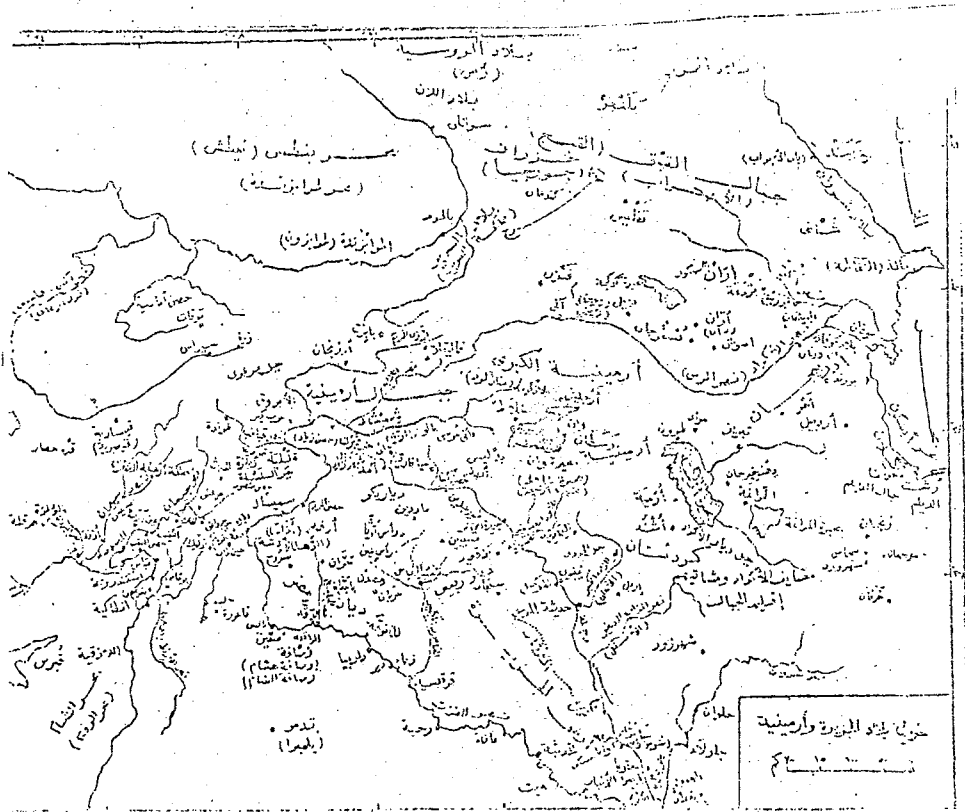
وهكذا استطاع بنو أمية أن يكونوا أصحاب المركز الأول في الحجاز والقابضين على حياته الاقتصادية، وأن يكون لهم مكانة عالية في إقليم الشام، وحرصوا على اقتناء الأملاك فيها فاشترى أبو سفيان مثلاً ضيعة في البلقاء. وعرفوا فيما بعد كيف يستفيدون من كل ذلك في العهد الإسلامي.

يعتبر العقد الأول من القرن السابع الميلادي مشرق ظهور الأمويين على مسرح الأحداث السياسية في بلاد الشام، واتصل البيزنطيون بقبيلة قريش متذرعين بحماية المسيحيين في الحجاز، حيث كان يرأسهم شخص يدعى 'أبو الأمير الأشعب' فانتدبت قريش أحد سادة البيت الأموي وأوسعهم تجارة وهو عثمان بن عفان لمفاوضة السلطات البيزنطية وحملها على الحد من نشاطها في الحجاز على أن يذكرهم بسيادة قريش مكة في الحجاز على سائر القبائل الأخرى، وبما لها من أهمية في النشاط التجاري للإمبراطورية البيزنطية.

ذهب عثمان بن عفان إلى عمال الحدود البيزنطيين «في إقليم الثغور المقيمين» في بصرى وفأوضهم. وأطلقوا عليه لقب (فيلارخ) وهو من أرفع الرتب البيزنطية، ثم عاد إلى مكة وأدرك بثاقب بصره ما آلت إليه الإمبراطورية البيزنطية من ارتباك، وما بدا عليها من علامات الأفول إذ سرعان ما غزا الفرس بلاد الشام سنة ٦١٣م ثم ظهر نور الإسلام (العدوي).

تعتبر سفارة عثمان بن عفان دليلاً على مطلع نفوذ الأمويين السياسي في إقليم الشام قبل الهجرة بزمان قليل. ثم حازوا السبق حين أخذ الرسول الكريم يدعو القبائل العربية الضاربة في شمال الحجاز وجنوب الشام إلى الدخول في دين الإسلام إذ استعان الرسول في تلك البقاع بعمال من بني أمية وبغيرهم ممن عرف بالحظوة عند الأمويين والدخول في دائرة نفوذهم وهكذا جعل الرسول الكريم عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على تيماء وخيبر وتبوك وفدك تلك البلاد الوثيقة الاتصال بالحدود البيزنطية والقبائل العربية الضاربة على تخومها وبعث عمرو ابن العاص - صاحب اليد الطولى على معاوية فيما بعد زمن التحكيم - إلى أرض معان بالقرب من الشام، إذ وجهه إلى تخوم الشام التي نزلت بها أقوام بلى وعذرة التي تربطه صلة القرى بأولئك العرب هناك. وقد رأى الرسول ﷺ بعد غزوة مؤتة ضرورة نشر الإسلام بين عرب الشام وإخراجهم من حظيرة البيزنطيين فأرسل حملة واجهت في مؤتة عند معان من أرض الشام قوات البيزنطيين التي انضم إليها. حال وصولها أرض البلقاء. المستعربة من لحم وحذام وبهراء وبلى في مائة ألف رجل عليهم قائد من بلى وهذا هو السبب في انتداب عمرو بن العاص لكسب ود تلك القبائل.

ولما توفي الرسول، خلفه أبو بكر الذي أثبت أنه الرجل المناسب في الوقت المناسب وأنه وإن بدا في الظاهر لين العريكة، لكنه في الواقع شديد الذكاء، واتقا من نفسه، مؤمناً بالحق، مصيباً في أحكامه، وبدا ذلك أولاً في إصراره على مقاومة المرتدين في الجزيرة العربية الذين رفضوا دفع أموال الزكاة إلى الدولة، رغم كثرة عددهم وتفوقهم الظاهري ورغم أن معظم المسلمين - بمن فيهم عمر بن الخطاب - كانوا من المعارضين لقرار أبي بكر. وكان أبو بكر موفقاً في معاملة قواده «مثل خالد بن الوليد» كما أنه ظل في المدينة مقر القيادة ولم يغادرها. على عكس غيره من الخلفاء. فاستطاع أن يعالج أصعب الأمور وفي الوقت اللازم، كما استطاع أن يجعل الجميع يبذلون أقصى جهدهم لأنه استطاع أن ينقل إليهم إيمانه حتى قضى على الردة.



نقلاً عن الأطلس التاريخي. للعالم الإسلامي
د. عبد المنعم ماجد

ويظهر أن أبا بكر كان مطلعاً على الصراع بين القوتين (الروم والفرس) ومتتبّعاً لمراحله، ولذلك أسرع في الوقت المناسب إلى ملء الفراغ الناجم عن أنهارك الدولتين حيث وحدثت حروب الردة على ما يبدو الجزيرة العربية وأثبتت قوة المدينة المنورة، فأسرع أبو بكر بإرسال ماتييسر لديه من الجند إلى الشام وفراس ليفتحوهما، كما أسرعت القبائل العربية إلى الانضواء تحت قوة المدينة ثقة بها ولم يخطر ببال أحد أن يسأل: هل تستطيع قوة المدينة أن تواجه الروم والفرس في آن واحد فقد امتزج ذلك كله بالحماسة الدينية التي تخفي تحتها أحياناً حماسة قومية «تاريخ بلاد الشام - إحسان عباس» ٧٢. وفي هذا الوقت كشف الأمويون قليلاً عن تطلعاتهم السياسية في إقليم الشام، إذ أبي عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية وأبناءؤه البقاء على عمالتهم في تبوك وفدك وغيرها، ورفضوا طلب أبي بكر للدخول في إدارته وأجابوا: ((نحن أبناء أبي أحيحة «لقب سعيد بن العاص بن أمية» لا نعمل لأحد بعد رسول الله ﷺ أبداً)) وقد فسرت الأيام هذا الكلام بعد ذلك.

وجه بنو أمية نشاطهم نحو إقليم الشام واشتركوا في المغازي التي أرسلت إلى شتى أرجائه بدون استثناء لأنه المسرح الذي اختاروه. فحارب أبناء سعيد بن العاص بن أمية في مغازي الشام وقتل منهم الكثير حتى قيل: ((ما فتحت بالشام كورة من كور الشام إلا وجد عندها رجل من بني سعيد بن العاص ميتاً)) «الأمويون والبيزنطيون، العدوي ٣٧» .

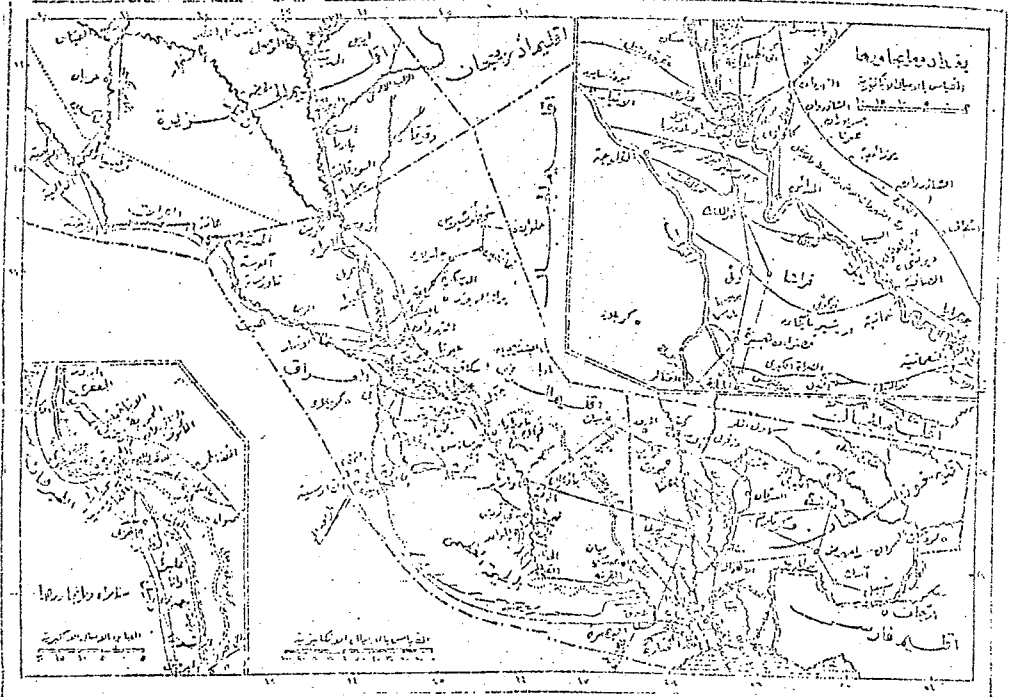
كان نصيب الأمويين هو الأوفر في العمليات الحربية من حيث قيادة الجيوش وعدد الجند في عهد أبي بكر وعمر فبعد حروب الردة جهز أبو بكر أربعة جيوش (لفتح الشام) جعل على أحدها يزيد بن أبي سفيان الأموي وضم جيش يزيد بن أبي سفيان أعظم المحاربين مراًساً وأعزهم نفراً وخرج أبو بكر نفسه مع يزيد بن أبي سفيان يودعه، وسار جيش يزيد في المقدمة يحمل علمه معاوية بن أبي سفيان أخو القائد ومؤسس الدولة الأموية فيما بعد وكان مسيره نحو (البلقاء) إذ كان لأبي سفيان بالبلقاء قرية أو ضيعة تابعة له اسمها «بقيش» مما يبين مدى نشاط الأمويين وخبرتهم (في المنطقة) قبل ظهور الإسلام واشترك أبو سفيان نفسه في جيش ابنه يزيد المحارب في الشام، وصاحبه بعض أفراد بيته من النساء وفي معركة اليرموك الحاسمة اشتركت نساء البيت الأموي في المعركة فعلياً وفيهم جويرية ابنة أبي سفيان مع زوجها، كما اشتركت هند أم معاوية إلى جانب زوجها أبي سفيان الذي فقد عينه في المعركة «الأمويون والبيزنطيون العدوي ٣٩» .

عرف الأمويون كيف يكسبون ثقة الخليفين أبي بكر وعمر في فتوحات الشام ويحتفظون بمركزهم الرفيع في إدارة إقليم الشام في حين ساعدت العلاقات بين الخليفة عمر وبعض قواده، كما أدرك الأمويون منذ البدء أنه لا يمكن فتح الشام والاحتفاظ بها إلا إذا تبع ذلك فتح الجزيرة الفراتية ولذلك سعوا أن يختار الجند الذي سيقوم بفتح الجزيرة الفراتية من الجيش الذي يقوده يزيد بن أبي سفيان كما في رواية الواقدي.

بعد أن تم فتح الشام وخاصة قسمها الشمالي بما فيه: منبج وأنطاكية وحلب، ووصل العرب إلى بالس (مسكنة) واحتلوها وتمركز فيها أبو عبيدة، وأدرب (الدرب: كل مدخل إلى بلاد الروم، أدرب في الغزو: جاوز الدرب إلى العدو) عياض بن غنم وخالد بن الوليد في بلاد الروم، وتم فتح القسم الهام من العراق، وتم ضرب الفرس ضربة قاسمة في معركة القادسية، كان لابد من فتح الجزيرة التي تقع بين الشام والعراق وبيزنطة وأرمينية، وذلك لدفع الروم حتى سلسلة الجبال العرضانية في الشمال «طوروس، قره داغ...» .

وهناك يصل المسلمون إلى خط يمكن الدفاع عنه، إذ يكفي أن تُحْمَى الدروب، وعددها محدود، على أن يتم اختراقها فيما بعد.

وكان سواد العراق أي ما بين البصرة والكوفة وما حولهما من القرى والرساتيق قد سقط في أيدي العرب وكذلك أكثر سورية، وأصبحت منطقة الجزيرة كالمحصورة من جهتين.



إقليم العراق وختان مع قسم من الجزيرة
نقلاً عن كتاب بلدان الخلافة الشرقية.

وجاء الخبر إلى أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» أن الروم قد جمعوا جيشاً عظيماً في منطقة الجزيرة. وقد اجتمعت عدة عظيمة من الفرسان والرجالة ومعهم الآلات والعدد الوفيرة، فجمع عمراً الأنصار والمهاجرين وكبار الصحابة وأخبرهم بما جرى وقال: إن بلاد الشام لا يمكن فصلها عن منطقة الجزيرة، ومالم نحكم الجزيرة فلن يحصل لنا مقصود، وعيشنا سيكون منغصاً^(٢).
اشتهر أن فتح الجزيرة كان عملية سهلة، والواقع أنه كان أسهل من فتح الشام. وذلك لأسباب عديدة:

١. أن الروم كانوا قد امتلئوا رعباً من الجيش العربي بعد أن أصابتهم الهزائم الشديدة على يديه حتى أن هرقل نفسه ينس من النصر بعد سقوط أنطاكية وانسحب قبل أن يتم سقوط الجزيرة، والواقع أنه بانتهاء معركة اليرموك انتهت المعارك الكبيرة في الشام، فقد كانت اليرموك معركة فاصلة، هذا فضلاً عن أن المسلمين عاملوا الروم المستسلمين معاملة طيبة وسمحوا لمن شاء بالعودة إلى وطنه.

٢. إن الحصون والأسوار لم تستطع أن تقف حاجزاً أمام المسلمين الذين استطاعوا أن يتغلبوا عليها بمختلف الوسائل.

٣. إن الأهالي من الأنباط «وهم من غير الجنود» أعجبهم عدل المسلمين، فتعاونوا معهم، وصاروا أدلاء وفيوجاً للمسلمين (الفيوخ: جمع مفردة فيج وهو المسرع على قدميه الذي يحمل الأخبار من بلد إلى بلد).

٤. إن العرب المنتصرة في سوريا وخاصة الغساسنة - وعلى رأسهم جيلة بن الأيهم - كانوا حلفاء للروم حاربوا معهم بل وأمامهم ضد أقاربهم من المسلمين، ولم يفد فيهم أي إغراء، ولكنهم هزموا ودخلوا الأراضي البيزنطية عن طريق الجزيرة، ويقال إن عددهم كان ٣٠,٠٠٠ وبدأت القبائل العربية في الشام تدرك تمام الإدراك أن الروم أقل نجمهم في الشام وأن عليهم أن يتقربوا من المسلمين.

أما الجزيرة فكان سكأنها من القبائل العربية من ربيعة وتغلب، وكانوا قد تلقوا درساً قاسياً على يد «خالد بن الوليد» الذي ردهم إلى صوابهم وأشعرهم بأنتمائهم العربي، وإن العروبة رابطة أقوى من رابطة الدين التي ربطت تغلب بالروم، ولذلك سارت هذه القبائل من العرب - باستثناء إياد - مع المسلمين.

وكانت شيبان قد حاربت منذ البدء مع المشى ضد الفرس، وكانت تغلب توشك أن تهاجر إلى بيزنطة حين طولبت بدفع الجزية لولا أن عمر بن الخطاب تدارك الأمر وحول اسمها إلى «صدقة»، وبعبارة أوضح إن المسلمين في حملتهم على الجزيرة:

١. لم يصطدموا بالقبائل العربية.
٢. لم يستمت الروم في الدفاع عن الجزيرة لأنهم فقدوا حماسهم وثقتهم بأنفسهم بعد هزيمتهم في الشام.

٣. فضل السكان المحليون الوقوف إلى جانب المسلمين بعد أن أيقنوا من عدلهم فتعاونوا معهم.
وكانت الرابطة قوية بين الجزيرة وبلاد الشام والعراق وبيزنطة حتى أن هرقل حين انسحب من الشام إلى بيزنطة لم ينسحب عن طريق أنطاكية إلى آسيا الصغرى، بل انسحب عن طريق الرها وسميساط كي يحضر للدفاع عن بيزنطة جنوبي طوروس.

وكان للجزيرة أهمية استراتيجية للعرب لأنها الحاجز الدفاعي بين العراق والشام اللتين احتلتهما العرب كما أنها كانت بالنسبة للبيزنطيين الطريق إلى أرمينيا التي كانت مليئة من الجنود المدافعين عن البيزنطيين، كما كانت الجزيرة أيضاً هي طريق البيزنطيين إلى استرجاع الشام أو مهاجمة العراق، والطريق للجوء القبائل العربية الصديقة للبيزنطيين، ولذلك توجب على المسلمين فتح الجزيرة أولاً ثم فتح أرمينية.

والواقع أن إحدى الروايات الإسلامية تقول أن ملك الفساسنة جبلة بن الأيهم فر من الخليفة عمر الخطاب إلى هرقل عبر الرقة. وتروي مصادر أخرى أن نحواً من ٣٠,٠٠٠ من العرب من قبيلة الفساسنة رافقوا جبلة وانتهى بهم المقام في قيدوقيا حيث أشار إليهم الجغرافي الاصطخري في القرن العاشر. وكان أحد الحوافز عند الذين كانوا يريدون الفتوح الإسلامية المبكرة هو تثبيت السلطة على القبائل العربية التي لم تكن قد اعتنقت الاسلام بعد، ويؤكد فرار آخر ملوك فارس، إلى أي مدى كان بقاء ميزوبوتايا (خارج السيطرة) خطراً على تثبيت سلطة الخلافة الإسلامية على القبائل العربية وأن ذلك قد يغري عرباً آخرين ممن فتحت بلادهم حديثاً على استعمالها كطريق للهرب بأنفسهم (كما فعلت إباد) أو سبيلاً للحفاظ على المواصلات خارج سلطة الخلافة أو من المحتمل استعمالها لإثارة العرب المسيحيين الذين ظلوا في بلاد الخلافة «بيزنطة والفتوحات الإسلامية - وولتر كيني - ترجمة نقولاً زيادة ص ٢٢٨».

١- روايات فتح الجزيرة

(١) رواية سيف: الفتح في ذي الحجة عام ١٧هـ

اجتمعت جموع أهل الجزيرة فأمدوا هرقل على أهل حمص، وبعثوا جنداً إلى أهل هيت، فأمر عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص، فأرسل عمر بن مالك في جند، فأخذ قرقيسيا عنوة، ثم أخذ هيت وانسحب منها الأعاجم، وكانت وقعة قرقيسيا في رجب عام ١٦هـ^(٣).

وفي عام ١٧هـ خرج الروم، وقد تكاثبوا هم وأهل الجزيرة يريدون أبا عبيدة والمسلمين بحمص فجمع أبو عبيدة مسالحوه «المسلح: القوم المسلحون في ثغر أو مخفر للمحافظة» وكتب إلى عمر فكتب هذا إلى سعد بن مالك «هو نفسه سعد بن أبي وقاص» فسرح القعقاع بن عمرو في جند إلى حمص، وسرح عياض بن غنم إلى الجزيرة، وخرج عمر بن الخطاب من المدينة مغيثاً لأبي عبيدة يريد حمص حتى نزل الجابية فلما بلغ أهل الجزيرة، الذين قدموا حمص، ذلك خافوا على بلدانهم، فعادوا إليها (إلى الجزيرة) وقاتل أبو عبيدة من بقي في حمص من الروم وهزمهم^(٤).

اتجه عياض بن غنم إلى الجزيرة وأرسل سهيل بن عدي على طريق الفراض (طريق الفرات) حتى أتى الرقة فحاصرها حتى صالحوه لأنهم على حد قولهم قد حُصروا بين أهل العراق وأهل الشام، وأرسل عبد الله بن عبد الله بن عتيان على دجلة حتى انتهى إلى الموصل ثم بكد، ثم إلى نصيبين فصالحوه إذ خافوا مثل ما خاف أهل الرقة، ثم ضم عياض إليه سهيلاً وعبد الله وسار إلى حران فصالحوه ثم الرها على نفس المنوال.

ولما فرغ أهل حمص أمد عياض بن غنم بحبيب ابن سلمة، ثم ضمَّ عياض بن غنم إلى أبي عبيدة وخالد بن الوليد إلى المدينة، وصرف سهيل بن عدي وعبد الله بن عبد الله إلى الكوفة ثم المشرق. واستعمل حبيب بن مسلمة على الجزيرة وحربها وكان فتح الجزيرة في ذي الحجة عام سبع عشر^(٥).

ثم أرسل عمر بن الخطاب سهيل بن عدي إلى كرمان وأمدّه بعبد الله بن عبد الله وذلك عام ثمان عشر^(٦) وربما بعد فتح نهاوند عام ٢١هـ^(٧) وفتحت كرمان عام ٢٣هـ^(٨) وفي الرواية أبيات شعر على لسان سهيل بن عدي وعبد الله بن عبد الله في فتح الرقة ونصيبين.

(٢) رواية ابن إسحاق: الفتح عام ١٩هـ

ذكر ابن إسحاق أن الجزيرة افتتحت سنة ١٩هـ من الهجرة، وذكر في سبب فتحها ((حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عنه: أن عمر كتب إلى سعد بن أبي وقاص:))

أن الله فتح على المسلمين الشام والعراق، فابعث من عندك جنداً إلى الجزيرة، وأمر عليهم أحد الثلاثة «خالد بن عرْقُطه - أو هاشم بن عتبة - أو عياض بن غنم» فلما انتهى إلى سعد كتاب عمر قال: ما أمر أمير المؤمنين عياض بن غنم آخر القوم إلا أن له فيه هوى أن أوليه، فبعثه وبعث معه جيشاً، وبعث أبا موسى الأشعري وابنه عمر بن سعد، وهو غلام حدث السن ليس إليه من الأمر شيء، وعثمان بن أبي العاص بن بشر الثقفي، وذلك في سنة تسع عشرة.

فخرج عياض إلى الجزيرة فنزل بجنده على الرها، فصالحه أهلها على الجزية، ثم بعث أبا موسى الأشعري إلى نصيبين، ووجه عمر بن سعد إلى رأس العين في خيل ردءاً «الردء: المعين والناصر، أي يحفظ الطريق وخط الرجعة» للمسلمين وسار بنفسه في بقية الناس إلى داراً، فنزل عليها حتى افتتحها، فافتتح أبو موسى نصيبين وذلك في سنة ١٩هـ ثم وجه عثمان بن أبي العاص إلى أرمينية الرابعة فكان عندها شيء من قتال أصيب فيه صفوان بن المعطل السلمي شهيداً، ثم صالح أهلها عثمان بن أبي العاص على الجزية على كل أهل بيت دينار، ثم كان فتح قيسارية من فلسطين وهرب هرقل^(٩).

(٣) رواية الواقدي عن فتح الجزيرة عام ١٨، ١٩هـ

قال البلاذري: قال محمد بن سعد، قال الواقدي:

أثبت ما سمعنا في أمر عياض، أن أبا عبيدة مات في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة، واستخلف عياضاً، فورد عليه كتاب عمر بتوليته حمص وقنسرين والجزيرة، فصار إلى الجزيرة يوم الخميس للنصف من شعبان سنة ثمان عشرة (توافق ٢١ آب ٦٣٩ م) في خمسة آلاف، وعلى مقدمته ميسرة بن مسروق العبسي، وعلى يمينه سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي، وعلى يسارته صفوان بن المعطل السلمي قالوا: ((فانتهت طليعة عياض إلى الرقة فأغاروا على حاضر «الحاضر: القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرحلون عنه» كان حولها العرب، وعلى قوم من الفلاحين فأصابوا مغنماً، وهرب من نجا من أولئك فدخلوا مدينة الرقة)).

وأقبل عياض في عسكره حتى نزل باب الرها، وهو أحد أبوابها، في تعبئة (تعبئة: تهيئة) للحرب. فرمي المسلمون ساعة حتى جرح بعضهم. ثم أنه تأخر عنهم لثلاث تبلفه حجارتهم وسهامهم، وركب فطاف حول المدينة، ووضع على أبوابها روابط، ثم رجع إلى عسكره وبث السرايا، فجعلوا يأتون بالأسرى من القرى وبالأطعمة الكثيرة وكانت الزروع مستحصدة (أي حان حصادها) فلما مضت خمسة أيام أو ستة وهم على ذلك، أرسل بطريق المدينة إلى عياض يطلب الأمان «ربما كانت هذه السرعة ناجمة عن الخوف بأن يضر مضي الوقت بمحصولاتهم» فصالحهم عياض على أن أمن جميع أهلها على أنفسهم وذرائعهم وأموالهم ومدينتهم، وقال عياض: ((الأرض لنا ووطننا وأحزناها)) فأقرها في أيديهم على الخراج، ودفع منها مالم يردده أهل الذمة ورفضوه، إلى المسلمين.

قالوا: ثم سار عياض إلى حران فنزل بأجدى، وبعث مقدمته، فأغلق أهل حران أبوابهم دونهم ثم اتبعهم. فلما نزل بها بعث إليه الحرانية (أهل حران) من أهلها يعلمونه أن في أيديهم طائفة من المدينة ويسألونه أن يصير إلى الرها، فما صالحوه عليه من شيء فتعوا به، وخلوا بينه وبين النصاري (في الرها) حتى يصيروا إليه، وبلغ النصاري ذلك فأرسلوا إليه بالرضى كما عرض الحرانية وبذلوا. فأتى الرها وقد جمع له أهلها فرموا المسلمين ساعة، ثم خرجت مقاتلتهم فهزمهم المسلمون حتى أنجؤوهم إلى المدينة، فلم ينشبو أن طلبوا الصلح والامان فأجابهم عياض إليه وكتب لهم كتاباً.

قال: ثم أتى عياض حران، ووجه صفوان بن المعطل وحبيب بن مسلمة الفهري إلى سميساط فصالح عياض أهل حران على مثل صلح الرها وفتحوا له أبوابها، وولاهم رجلاً ثم سار إلى سميساط فوجد صفوان بن المعطل وحبيب بن مسلمة مقيمين عليها، وقد غلبا على قرى وحصون من قرأها وحصونها، فصالحه أهلها على مثل صلح أهل الرها. وكان عياض يغزو من الرها ثم يرجع إليها.

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن معمر بن الزهري (١٢٥٠هـ) قال: لم يبق بالجزيرة موضع قدم إلا فتح على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد عياض بن غنم الذي فتح حران والرها والرقعة وميافارقين وقرقيسيا ونصيبين وسنجار.

وحدثني محمد بن الواقدي عن عبد الرحمن بن مسلمة عن فرات بن سلمان عن ثابت بن الحجاج قال: فتح عياض الرقة وحران والرها ونصيبين وميافارقين وقرقيسيا وقرى الفرات ومدائنهم صلحاً، وأرضها عنوة.

وحدثني محمد بن الواقدي عن ثور بن يزيد عن راشد بن سعد: أن عياضاً افتتح الجزيرة ومدائنهم صلحاً وأرضها عنوة^(١٠).

اكتفى الطبري بذكر ما يلي: ((وزعم الواقدي أن الرقة وحران فتحت هذه السنة ١٨هـ على يدي عياض بن غنم، وأن عين وردة فتحت فيها على يدي عمير بن سعد))^(١١) ولم يزد على ذلك شيئاً. وأورد ابن الأثير مختصر رواية الواقدي دون ذكر اسمه^(١٢).

ذكر ابن الأثير نفس رواية الواقدي تقريباً دون ذكر اسمه، مع إضافة شيء من الحشو، والمهم فيما أضافه أن عياضاً خرج بنفس القواد المذكورين آنفاً، وأن جيشه كان خمسة آلاف اختارهم من عسكري يزيد بن أبي سفيان في الشام، وأنه فتح الرقة أولاً ثم الرها، وأن أحد أبواب الرقة يدعى ((باب جروان)) والمفروض أنه هو نفس ((باب الرها)) أي الباب الشمالي.

وإن التأكيد - كما تقدم - بأنه لا يمكن الاحتفاظ بالشام في يد المسلمين إلا إذا تم احتلال الجزيرة الفراتية، التي هي الطريق المناسب للبيزنطيين كي يسترجعوها إلى حكمهم ثم يسلكون منها الطريق إلى استعادة الشام، كان حافزاً للأمويين أن يبذلوا جهدهم لكي يكون الجيش الذي سيقوم باحتلال الجزيرة الفراتية مأخوذاً من جيش يزيد بن أبي سفيان وأن يسعى الأمويون أن يكون لهم النفوذ الأكبر في الجزيرة الفراتية على الدوام، وهذا ما تم تنفيذه.

ومما يذكر هنا أن رواية كتاب فتوح الشام المنسوب للواقدي لا تتوافق أبداً مع رواية الواقدي المتقدمة والتي نقلها عنه البلاذري. وإن الكتاب المذكور ليس من تأليف الواقدي ولا يمكن الوثوق به لأنه حافل بالأخطاء التاريخية وبالكلام الحشو الذي لا طائل منه، فهو كتاب قصصي. وفي روايته عن فتح الجزيرة أنه كان على الرقة بطريق (البطريق: القائد من قواد الروم) اسمه يوحنا، وكان

من قبل صاحب رأس العين. وكان يملك الجزيرة يومئذ ملك من ملوك الروم يقال له (شهرياض بن قرون) ويظهر أن مقره كان في رأس العين، وكان جيشه مائة ألف، وتحت يده وفي عماله العرب المنتصرة: السلطان بن سارية التغلبي وهبيرة وهم ثلاثون ألفاً من الأبطال ... الخ^(١٣). ونلحق برواية الواقدي الحقيقية (التي رواها البلاذري) رواية مكملتها رواها البلاذري أيضاً فقال: وحدثني أيوب الرقي المؤدب، قال: حدثني الحجاج بن أبي منيع الرصافي عن أبيه عن جده (١٥٨هـ) قال:

فتح عياض الرقة ثم الرها ثم حران ثم سميساط على صلح واحد، ثم أتى سروج ورأسكيفا والأرض البيضاء، فغلب على أرضها، وصالح أهل حصونها على مثل الرها ثم أتى قرىات القرات وهي جسر منبج وذواتها فصالحها على ذلك وأتى عين الورد، وهي رأس العين فامتعت عليه فتركها، وأتى تل مؤزّن ففتحها على مثل صلح الرها وذلك في سنة تسع عشر ووجه عياض إلى قرقيسيا حبيب بن مسلم الفهري ففتحها صلحاً مثل الرقة وكل ذلك في سنة تسع عشرة وأيام من المحرم سنة عشرين ثم انصرف إلى الرقة، ومضى إلى حمص وقد كان عمر ولده أياها فمات سنة عشرين^(١٤).

يفهم مما تقدم أن فتح الجزيرة لم يستكمل أجراءه إلا في مطلع سنة عشرين، وقبيل وفاة عياض في حمص حين عاد إليها معجلاً، ولذلك فإنه لم يتح له الوقت كي يبني المساجد كما جرت العادة بعد الفتح، بل بناها خلفه.

قال البلاذري: حدثني عدة من أهل الرقة، قالوا: لما مات عياض بن غنم وولي الجزيرة سعيد بن عامر ابن حزيم بنى مسجد الرقة ومسجد الرها، ثم توفي فبنى المساجد بديار مضر وديار ربيعة عمير بن سعد^(١٥) وذلك لترسيخ الطابع الإسلامي.

٤. رواية سليمان بن عطاء (من أهل الجزيرة)

قال البلاذري: «وحدثني الحسين بن الأسود قال: حدثنا يحيى بن آدم عن عدة من الجزريين، عن سليمان بن عطاء القرشي، قال: بعث أبو عبيدة عياض بن غنم إلى الجزيرة، فمات أبو عبيدة، وهو (أي عياض) بها، فولاه عمر إياها بعد».

وحدثني بكر بن الهيثم قال: حدثني النفيلي عبد الله بن محمد، قال: حدثنا سليمان بن عطاء، قال: لما فتح عياض بن غنم الرها، وكان أبو عبيدة وجهه، وقف على بابها على فرس له كُميت (كُميت: لونه بين الأسود والأحمر) فصالحوه على أن لهم هيكلم وما حوله، وعلى أن لا يُحدثوا كنيسة إلا ما كان لهم وعلى معونة المسلمين على عدوهم، فإن تركوا شيئاً مما شرط عليهم فلا ذمة لهم. ودخل أهل الجزيرة فيما دخل فيه أهل الرها^(١٦).

وذكر القشيري: «حدثنا أبو داود سليمان بن سيف الحراني، حدثنا الحسن بن محمد بن أعين، حدثنا سليمان بن عطاء، عن أبيه، عن من شهد عياض بن غنم حين بعثه أبو عبيدة الجراح عليه السلام إلى الرها، فوقف على بابها الشرقي على فرس له محذوف (مقطوع طرف الذيل) أحمر وقد أجفل (أجفل: مضى وأسرع) ودخل أهل الجزيرة إلى الرها، فدعاهم إلى الإسلام فأجابوا، فدعاهم أن يقرؤا بالصغار، فأقرؤا على أن يشترطوا، قال فاشترطوا! قالوا فإننا نشترط كنائسنا وصليبنا وما لجأ إلى كنائسنا من طير، وسور مدينتنا، وما كان لكنائسنا من غلة على أن يؤدي خراجها، فقال عياض: فإننا نشترط عليكم، قالوا فاشترطوا! قال: فإنني أشرط عليكم أن لا تحدثوا

كنيسة إلا ما في أيديكم، وألا يرفع صليب، ولا يضرب ناقوس إلا في جوف كنيسة، وعلى أن نشاطركم منازلكم ينزلها المسلمون، وعلى أن تحفظوا من ينزل بين أظهركم من المسلمين، وعلى أن تقرؤوا ضيفهم يوماً وليلة، وعلى أن تحملوا راجلهم من رستاق إلى رستاق، وعلى أن تناصحوهم ولا تغشوهم، ولا تمأثروا (تساعدوا) عليهم عدواً، فإن وفيتم لنا وفيالكم ومنعناكم مما نمنع منه أبنائنا ونساءنا، وإن انتهكتم شيئاً من ذلك استحللنا سفك دمائكم وسبي أبنائكم ونسائكم وأموالكم. قالوا: فأشهدناك. فكتب أشهد الله وكفى بالله شهيداً». فدخل أهل الجزيرة فيما دخل فيه أهل الرها^(١٧).

وروى القشيري عن جعفر بن برقان عن معمر بن صالح عن العلاء بن أبي عائشة، قال: «كنت عاملاً لعمر بن عبد العزيز على الرها فجاءني كتابه»: «بلغني أن عند أهل الرها صلح الجزيرة، فابعث به إلى حتى أنظر فيه». قال: فبعثت إلى أسقفهم من أتاني به في درج أو حق، فقرأته فإذا به:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب لأهل الرها وأهل الجزيرة من عياض بن غنم عامل عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أتاهما حتى وقف على بابها الشرقي على فرس أحمر محذوف في أربعة عشر فارساً، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا، فدعاهم إلى الصلح فأجابوه»^(١٨).

وفي ابن عساكر: حدثنا أبو بكر أحمد بن معاوية بن بكر الباهلي، قال سمعت أبا عبيد الله محمد بن سليمان بن عطاء بن قيس يقول: حدثني أبي، سليمان بن عطاء، عن مسلمة بن عبد الله الجهني عن عمه أبي مشجعة بن ربيعي قال: لما نزل أبو عبيدة منبج بعث عياض بن غنم في عشرين فارساً فأتى الرها وقد اجتمع أهل الجزيرة من الأنباط، فأتاهم عياض بن غنم فوقف عند بابها الشرقي على فرس أحمر محذوف، فأخبرنا أحمد بن معاوية عن محمد بن سليمان بن عطاء، قال: حدثني أبي عن جدي عن من سمع عياضاً وهو يدعوهم إلى الإسلام فأبوا عليه، فعرض عليهم الجزية فأقروا، وقد عرفوا شرط عمر بن الخطاب على أهل الشام، فقالوا: نُقِرَ على أن نشترط، قال نعم، فأشترطوا، وأشترط... الخ كما في الرواية السابقة وفي آخرها هذه العبارة. قال: فكتب شهد الله وملائكته وكفى بالله شهيداً ودفع الكتاب إليهم فدخل في شرطهم جميع أهل الجزيرة وأما الأرض ففيه المسلمين وأنتم عمالهم فيها^(١٩).

وتبنى أبو يوسف رواية ليس لها إسناد واضح بل هي عن شيخ لم يسمه من أهل الجزيرة، وهي في مضمونها رواية قريبة من رواية سليمان بن عطاء: فعياض بن غنم أرسله أبو عبيدة الجراح مدينة الروم (أي عاصمة الجزيرة) يومئذ هي الرها فعمد لها عياض ولم يتعرض لشيء مما مرَّ به من القرى والرساتيق، ولم يلق كيداً ولا جنداً حتى نزل الرها وحاصرها، فهرب أكثر من كان فيها من جند الروم وبقي منهم القليل وأهلها من الأنباط وهم كثر فصالحوه ثم سار إلى حران، وكان فيها أهلها الأنباط وقليل من الروم فصالحوه على صلح أهل الرها^(٢٠).

٥. مناقشة روايات فتح الجزيرة

تجمع الروايات الأربعة المتقدمة على أن فتح الجزيرة تم بقيادة عياض بن غنم، ثم تختلف فيما بينها بعد ذلك ويمكن أن نصنف هذه الروايات في زمرتين:

أحدهما: تذكر أن عياض وجيشه جاءوا من الكوفة (رواية سيف ورواية ابن إسحاق).

والثانية: تذكر أنهم جاءوا من الشام (رواية الواقدي ورواية سليمان بن عطاء).

ولبيت في أمر المكان الذي جاء منه عياض بن غنم إلى الجزيرة، علينا أن نتبع حركاته:

١. ففي عام ١٢هـ كان خالد بن الوليد في فتوح العراق ومعه عياض بن غنم^(٢١).

٢. وفي عام ١٣هـ كان عياض بن غنم في الشام في غزوة فحل ثم في معركة اليرموك إلى جانب خالد بن الوليد^(٢٢).

ثم ذهب كما تزعم رواية سيف مع جيش العراق لنجدة سعد بن أبي وقاص^(٢٣) وتقتض روايتا سيف، وابن إسحاق أن عياض بقي مع سعد في العراق، فلا تشيران إليه بأية كلمة إلا حين تذكران إرساله لفتح الجزيرة وذلك من العراق كما تزعمان، ولكن الروايتين الأخريتين تزعمان أن عياضاً كان حينئذ في الشام وأرسل من هناك لفتح الجزيرة.

٣. وفي عام ١٥هـ (وقيل عام ١٦هـ) نجد عياضاً مع خالد بن الوليد في قنسرين (أي أنه عاد إلى الشام) ونجد أنه أدرب مع خالد^(٢٤) (أي أنه غزا بلاد الروم معه)، كما نجد عياضاً على مقدمة أبي عبيدة حين أتجه عام ١٥هـ إلى حلب^(٢٥) ثم قورس ثم منبج^(٢٦).

٤. وفي عام ١٧هـ جرى عزل خالد^(٢٧) وكان على حمص وقنسرين وكانت قنسرين رستاقاً من رساتيق حمص^(٢٨) فودّع خالد أهل قنسرين ثم ودّع أهل حمص، ولا بد أنه عاد إلى حمص فيما بعد لأن الروايات تكاد تجمع على وفاة خالد ودفنه في حمص بما فيها رواية البلاذري^(٢٩). والظاهر أن عياض بن غنم خلف خالداً في ولاية حمص وقنسرين ثم الجزيرة كما هو واضح في رواية الواقدي وبقية المصادر^(٣٠).

وهناك أدلة مقنعة على أن عياضاً وجيشه إنما جاءوا من الشام وليس من العراق ومنها:

١- إن ابن الأثير بعد أن ذكر رواية سيف ورواية ابن إسحاق دون أن يذكر اسميهما، عقب على ذلك بقوله:

«فعلى هذا تكون الجزيرة من فتوح أهل العراق. والأكثر على أنها من فتوح أهل الشام، فإن أبا عبيدة سير عياض بن غنم إلى الجزيرة»^(٣١).

٢- يذكر البلاذري أن كميل بن زياد النخعي حرّض الناس على قتال الحجاج في دير الجماجم، وقال: «إن فتح الموصل واداني الجزيرة وجميع أذربيجان تمت على أيدي أهل الكوفة»^(٣٢) ولم يذكر أبداً أعالي الجزيرة.

٣- جعلت الجزيرة بعد الفتح تابعة إدارياً لولاية حمص كما سيجيء، ولم تتبع العراق أبداً مما يثبت أنها ليست من فتوح العراق.

٤- عاد عياض بعد فتح الجزيرة إلى حمص مركز ولايته ومات فيها وله فيها عقب كما سيجيء.

٥- كان الروم يحتلون الشام والجزيرة وحين أنهزموا من الشام لجأوا إلى الجزيرة ومن المنطقي أن يلاحقهم جيش الشام الموكل بالروم وليس جيش العراق الموكل بالفرس.

وفضلاً عما تقدم فإن رواية محمد بن إسحاق فيها أمور غير مقبولة منها:

(١) أن عمر كتب إلى سعد بن أبي وقاص يأمره أن يختار للقيادة واحداً من ثلاثة قواد، وهو شيء ليس من طبيعة عمر ولم يصنعه مع أحد من قبل أو من بعد، بل كان هو الذي يعطي الأوامر الصريحة ولا يكل ذلك إلى غيره.

(٢) إن القائدين الآخرين اللذين تزعم الرواية أنهما اشتركا في فتح الجزيرة مع عياض، لم تكن لهما أية علاقة بالجزيرة حسب روايات الطبري، فأبو موسى الأشعري كان يتولى البصرة

وهي بعيدة عن فتوح الجزيرة بعداً تاماً، وعثمان بن أبي العاص كان يتولى البحرين وهي إلى أقصى الجنوب في جزيرة العرب، ولم يكن لها أية صلة بفتح الجزيرة.

أما رواية سيف (٨٠٠ هـ) فيكفي أن ننقل رأي النقاد في هذا الراوي:

يقول عنه عبد العزيز الدوري: وهو كوفي ويقدم النظرة العراقية، وأخباره عن الفتوحات (فتوحات العراق) تميمية الميول وتتجه لأن تكون عاطفية على أسلوب الأيام^(٣٣) وقريباً من ذلك ما يقوله شاكر مصطفى^(٣٤) والسيد عبد العزيز سالم^(٣٥) ومن قبلهم احمد أمين الذي نقل ما يشبه ذلك عن ولهاذن وكتاني^(٣٦) وهو رأي جواد علي^(٣٧). هذا فضلاً عما يتخلل رواية سيف من أشعار متكلفة مصنوعة على لسان القادة الفاتحين. بعد أن ثبت لدينا أن عياض وجيشه إنما جاءوا من الشام، فإن روايتي سيف ومحمد بن إسحاق تصبحان غير مقبولتين، وبقي لدينا روايتا الواقدي وسليمان بن عطاء، ونلاحظ عليهما:

١. إن كلاً من الروائتين تقتضيان أن عياض بن غنم سار إلى فتح الجزيرة عام ١٨ هـ التي توفي فيها أبو عبيدة إلا أن رواية الواقدي ترى أنه سار إليها بعد وفاة أبي عبيدة تنفيذاً لكتاب من عمر بن الخطاب في شعبان بينما تؤكد رواية سليمان بن عطاء أنه سار إليها قبل ذلك وفي حياة أبي عبيدة، ثم مات أبو عبيدة وعياض حينئذ في الجزيرة فولاه عمر إياها.

٢. رواية الواقدي تذكر أن عياضاً فتح الرقة أولاً ثم سار إلى حران فالرها بينما لا تذكر رواية سليمان بن عطاء شيئاً عن الرقة بل تذكر أن جيش عياض سار إلى حران ثم الرها.

٦. الرواية المسيحية عن فتح الجزيرة:

في أغابوس: أن عياض بن غنم فتح الجزيرة كلها وأعطاهما الأمان بعد أن صالحوه على أن يحملوا إليه في كل سنة مائة ألف دينار على أن لا يعبر أحد من العرب الفرات بوجه من الوجوه ما دام الوفاء بهذا الشرط قائماً وحمل أهل الجزيرة إلى عياض بن غنم خراج سنة واحدة، وكان ذلك على يد بولس البطريق الذي كان عامل هرقل ملك الروم على الجزيرة. فلما بلغ هرقل ملك الروم هذا الخبر، وجه بعزل بولس عنها، ونفاه إلى أفريقيا، وقلد الجزيرة رجلاً يقال له بطليموس أحد بطارقة (أي: قواد) الروم. وعبر عياض الفرات وقصد الرها، وذلك أنهم لم يحملوا ما وافقوه عليه في السنة الثانية. فلما صار إليها خرج إليه أهلها وسألوه الأمان لهم ولبطليموس (في الأصل بطوطارس) عاملهم وبطريقهم. ودخل عياض الرها فأخرج بطليموس عنها وصرفه إلى الروم، ثم استخرج منها مائة ألف دينار في أيام قلاثل^(٣٨).

وفي ميخائيل نفس الرواية تقريباً فيما عدا أن العامل اسمه ايوانتس^(٣٩) وقيل إن اسمه يؤانس كاتياس^(٤٠) وقيل أن العامل هو الحاكم البيزنطي لإقليم الرها يوحنا كاتياس، وأنه حاول عرض الجزية على المسلمين ولكن الإمبراطور هرقل نحاه عن عمله^(٤١).

ولا يوجد ما يؤيد هاتين الروائتين في المصادر العربية رغم اهتمام هذه المصادر بعهود الصلح.

٧. تعليق على ما ورد في عهود الصلح

١. عن الضيافة في عهود الصلح: عرف المسلمون الضيافة منذ أيام الرسول ﷺ بعد فتح مكة ووردت الإشارة إليها في العهود بين النبي وبين الجماعات وخاصة البعيدة منها عن المدينة المنورة في جنوب وشمال جزيرة العرب^(٤٢). وقد فهم بعض الفقهاء كابن قيم الجوزية أن الضيافة كانت في الدرجة الأولى لغايات تموينية، إذ أن فيها مصلحة لأغنياء المسلمين وفقرائهم.

ففي حالة عدم وجود الضيافة فإن أغنياء المسلمين ((إذا دخلوا بلادهم (أي بلاد الذميين) لا يبيعهم الذميون الطعام قاصدين الإضرار بهم، فإذا فرضت عليهم الضيافة للمسلمين، تسارعوا إلى بيعهم ما يريدون خوفاً من أن ينزلوا عليهم للضيافة فيأكلون بلا عوض وأما مصلحة الفقراء فهي واضحة))^(٤٣) ومهما يكن فلم يرد أي خبر عن أن مثل هذه الضيافة قد استغلت في الرقة أو الجزيرة.

٢. أما مشاطرة المسلمين لأهالي الرقة أو الجزيرة منازلهم، فإن ذلك أيضاً لم يرد أي خبر عن أنه حصل في الرقة والجزيرة لأن من نزحوا عنهما من الجيش الرومي كانوا كثيرين وبقيت منازلهم بلا شاغل. ٣. وعن العقوبات التي يفترض أنها تنزل بالأهالي إذا خالفوا عهد الصلح فإن المسلمين لم يلجؤوا إلى العقوبة بالرغم من أنه على سبيل المثال، عندما نقض أهل عين وردة (رأس العين) عهد الصلح اضطر المسلمون إلى فتحها ثانية ولم يعاقبوا أحداً.

٨. تعليق على فتح الجزيرة

يبدو للوهلة الأولى أن فتح الجزيرة كان أمراً سهلاً، ولكن الواقع لم يكن كذلك، إنما صار كذلك بسبب تصرف المسلمين فقد كان كثير من أهل الجزيرة (الروم والأنباط) يشتركون في الدفاع عن حمص ويحرضون على العرب، لكن المسلمين تظاهروا بأنهم في نفس الوقت يهاجمون الجزيرة، فاضطر الجزيريون إلى مغادرة حمص إلى الجزيرة للدفاع عنها، وبذلك تغلب المسلمون على حمص بصورة أسرع، ثم سقطت أنطاكية وبس هرقل من النصر وانسحب من بلاد الشام والجزيرة سنة ١٧هـ^(٤٤) كما انسحب معظم جيش الروم، ومع ذلك فإن من بقي من الروم في الجزيرة حاولوا ومعهم أهل الجزيرة مقاومة المسلمين، ولكن هؤلاء حاصروهم واضطروهم إلى التسليم، لاسيما وأن سكان الجزيرة خافوا أن يستولي المسلمون على محصولاتهم الزراعية إذ كانت قد تم نضجها في ذلك الحين كما تقدم.

٩. نهاية عياض بن غنم

ما إن أتم عياض بن غنم فتوح الجزيرة تقريباً في مطلع عام ٢٠ هـ حتى عاد إلى حمص، قاعدة ولايته، وعلى عجل وقبل أن يشيد فيها المساجد كما جرت العادة بعد الفتح، وذلك إما لأن عمر بن الخطاب استدعاه وذلك إذا صحت الرواية التالية، أو لأنه كان مريضاً أو جريحاً أو لسبب آخر. وفي الرواية أن عمر بن الخطاب كتب إلى عياض بن غنم أن يستخلف مكانه، ويتوجه إلى الشام فإن يزيد بن أبي سفيان أميرها مريض هناك وينتظر موته، فاستخلف عياض بن غنم عتبة بن فرقد السلمي والياً على الجزيرة وجعل تحت إمرته أربعة آلاف فارس، ثم اتجه ببقية الجيش إلى الشام. وحين وصل إلى حمص غلب عليه المرض ثم انتقل إلى رحمة الله^(٤٥) ولم يكن قد أمضى في حمص إلا فترة قصيرة وكانت وفاته في نفس العام ٢٠ هـ^(٤٦).

ويذكر أن يزيد بن أبي سفيان كان قد توفي سنة تسع عشرة بعد أن افتتح قيسارية التي بساحل الشام ولم يجتمع بعياض بن غنم^(٤٧).

وكان عمر عياض لدى وفاته ستون سنة، ومات وماله ولا عليه دين لأحد. وكان عمر بن الخطاب حين ولي عياض بن غنم جند حمص، رزقه كل يوم ديناراً وشاة ومداً (أي من الحبوب)^(٤٨). وكان رفيقه في الجهاد سيف الإسلام خالد بن الوليد قد استقر في حمص منذ عزل عن عمله عام ١٧هـ^(٤٩).

وفي العام التالي لوفاة عياض أي عام ٢١هـ لحق به خالد بن الوليد إلى عند ربه، وأوصى إلى عمر بن الخطاب^(٥٠). ودفن إلى جانب عياض ثم لحقت بخالد وفي حمص زوجته^(٥١). رحمهم الله أجمعين. لم تنته بذلك قصة حمص والرقة مع هذين البطلين وذريتهما:

إذ تولى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد حمصاً في عهد معاوية بن أبي سفيان ثم مات ودفن فيها أيضاً^(٥٧) وذلك سنة ٤٦هـ^(٥٨) في عهد معاوية بن أبي سفيان وبعد وفاة والده بخمس وعشرين عاماً.

أما عياض بن غنم فقد ترك له عقباً في الرقة، إذ أن عبداً لله بن يحيى الرقي كان قاضياً بفارس وهو من أهل الرقة، وكتبت له أمّه من الرقة، وهي مريّة بنت مروان بن يزيد بن عبد الملك بن عياض بن غنم، وكان هذا في عهد هشام بن عبد الملك ١٠٥-١٢٥هـ^(٥٩) بعد وفاة عياض بن غنم بما يقرب من قرن من الزمن.

ويجدر بالذكر أن أبا عبيدة بن الجراح كان خال عياض بن غنم وابن عمه^(٥٩).

١٠. النتائج المباشرة للفتوح وخاصة فتح الجزيرة

للفتوحات الإسلامية عامة والفتوحات الشامية خاصة، نتائج بعيدة المدى لاتزال تعيش معنا حتى اليوم، فهي التي حققت تعريب مالا يزال عربياً (خارج الجزيرة العربية)، وهي التي نشرت الدين الإسلامي في الأصقاع المترامية، وهي التي كتبت السطور الأولى في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية والفكر العربي الإسلامي، لأنها اللبنة الأولى في كل ما نعدّه عربياً إسلامياً.

وقد أوجد الفتح في الشام والجزيرة (كما في غيرها) تربة صالحة للتعريب ونشر الإسلام معا والتعريب يقصد به هنا تعلم السكان الأصليين للغة العربية والمشاركة في بناء الحضارة العربية، فقد كان في الشام والجزيرة قبل الإسلام عناصر عربية، لكن تخليها عن اللغة سرعان ما جعلها تذوب في التربة المحلية وهذا التعريب يحتاج إلى وقت ليس بالقصير، وإن كان أقصر مما يحتاجه تحول السكان الأصليين إلى الإسلام، وأيسر منه وأسرع قبولهم دفع الجزية^(٥٩) وإن سكان الشام لم يتحول منهم إلى الإسلام في مدى ثلاثة قرون بعد الفتح إلا نسبة ضئيلة^(٥٧).

لقد كان الذهاب إلى الجهاد (وهو ما دعي بالهجرة) يؤدي إلى تقوية الجيوش بعناصر جديدة على نحو مستمر، كما يعني ضمناً جعل الاستيطان في البلاد الجديدة أمراً إجبارياً أو شبه إجباري وقد نشأ قانون صارم يحرم العودة إلى جزيرة العرب، وهو مادعي ((التعريب)) وهو نقيض ((الهجرة)) وقفة الأعراب هم الذين رضوا الإقامة في البوادي، ولم يشاركوا في القتال. والذي يعزز هذا التمييز بين الفريقين هو أن الجندي (المهاجر) يتسلم العطاء لنفسه ولأفراد عائلته ولفرسه إن كان فارساً، والبدوي لا ينال من الدولة عطاءً إلا ما يصيبه من الصدقات إن كان يستحقها.

وقد أدى هذا إلى تعزيز الاستيطان وإلى التفاوت الاقتصادي الكبير بين البادية والمدينة. وبسبب هذه الفتوحات تأثرت تجارة الشام والجزيرة مع آسيا الصغرى والبحر المتوسط، ولكن الزراعة تقدمت كثيراً بسبب الأراضي التي هجرها أهلها أو التي كانت أملاكاً للإمبراطور البيزنطي، ووزعت على مستثمرين جدد، سواء استثمروها بجهودهم أم بجهود فلاحين مستأجرين. وظلت الزراعة هي المجال الذي يسيطر على الحياة الاقتصادية كما كان حالها في العصر البيزنطي^(٥٨).

٢- الأجناد

عمد الخليفة عمر بن الخطاب إلى تقسيم الشام إلى أجناد أربعة وهي:

- **جند حمص:** ويتبعه قسرين والجزيرة واللاذقية وجبلة وبانياس وطرطوس وحلب.

- **جند دمشق:** ويتبعه عرقة وجبيل وصيدا وبيروت وطرابلس.

- **جند الأردن:** ويتبعه صور وعكا.

جند فلسطين: ويتبعه قيسارية وياها وعسقلان وغزة.

وهذه الأجناد الإسلامية: أقاليم أو وحدات ادارية استقرت فيها فرق من الجيش الاسلامي لحمايتها وقبض اعطياتهم من ايراداتها لا من الخزينة المركزية. ويضم كل جند منطقة ساحلية وأخرى داخلية، بحيث تستطيع كل منطقة ان تعتمد على الاخرى حرياً واقتصادياً وبما أنه لم يكن للعرب في البدء أسطول قادر على حماية السواحل، فان مراكز الأجناد كلها كانت مدناً داخلية.

كان من نتائج اهتمام الأمويين بمحاربة البيزنطيين برأ وبحراً أن جعل معاوية بن أبي سفيان قنسرين جنداً مستقلاً عن جند حمص ونقل اليها رافضة العراقيين (أي انصار عثمان بن عفان) وأخذ لهم نصيبهم من فتوح العراق لكي ينزلهم في الشام وصارت قنسرين جنداً مستقلاً يتبعه: الجزيرة وأنطاكية ومنبج وحلب وشمال سورية^(١٤٧) وقيل ان من فعل ذلك هو يزيد بن معاوية. وفي عهد العباسيين تدرجت حلب في العمارة وقنسرين في الخراب حتى صارت مضافة إلى حلب.

ثم جند عبد الملك بن مروان الجزيرة أي أفردها عن قنسرين فصار جندها يأخذون أطماعهم أي أرزاقهم ورواتبهم فيها من خراجها^(١٤٨).

وحين استخلف هارون الرشيد، أفرد عن جند قنسرين: منبج ودلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين وحدها وسماها العواصم وقاعدتها منبج^(١٤٩).

٢- قاعدة (عاصمة) الجزيرة

عند الفتح الاسلامي: كانت قاعدة الجزيرة (أي عاصمتها) للقسم الذي كان في ايدي الروم منها: الرها^(١٥٠). وحين صالحت الرها صالح أهل الجزيرة على مثل صلحها^(١٥١). وأثناء حرب الفتح اتخذ عياض بن غنم الرها قاعدة له فصار يفزومنها ثم يعود اليها^(١٥٢) وفي الفتنة بين معاوية وعلي بن أبي طالب كان بيد معاوية من الجزيرة حران والرقعة والرها وقنسرين فولى عليها الضحاك بن قيس الفهري فجعل مقره بحران^(١٥٣).

ظلت حران مقراً لوائي الجزيرة في زمن محمد بن مروان الذي ولي الجزيرة زمن أخيه عبد الملك بن مروان وصدر خلافة الوليد بن عبد الملك حتى عام ٩٠هـ^(١٥٤) وظلت كذلك في ولاية خلفه ابن أخيه مسلمة بن عبد الملك الذي بنى قصراً بحران^(١٥٥).

وربما صار للرقعة مركز خاص في خلافة هشام بن عبد الملك بسبب استقراره في الرصافة قرب الرقة^(١٥٦) وحين أصبح مروان بن محمد خليفة، نقل إلى حران خزائن الملك من الشام، وأقام فيها فصار بذلك عاصمة المملكة الإسلامية^(١٥٧).

ظلت حران قاعدة الجزيرة في مطلع العهد العباسي في ولاية موسى بن كعب^(١٥٨) وفي ولاية مقاتل بن حكيم العكي الذي قتله عبد الله بن علي عام ١٣٧هـ^(١٥٩).

وحين بنيت الرافقة عام ٦٥٥-١٥٨هـ وحشدت فيها الخراسانية أصبحت هي قاعدة الجزيرة وعلى هذا فان أمير الجزيرة قبل معاوية كان هو أمير حمص وقنسرين والجزيرة وفي الفترة بين معاوية وعبد الملك بن مروان كان أمير الجزيرة هو أمير قنسرين والجزيرة فقط وليس أمير حمص^(١٦٠)، وبعد عبد الملك كان أمير الجزيرة لا يأمر غيرها الا اذا ورد نص يخالف هذا كأن تضم اليه ارمينية أحيانا كما كان الحال في ولاية مروان بن محمد^(١٦١).

وكان العباس بن محمد بن علي العباسي (أخو الخليفة المنصور) أميراً على الجزيرة والثغور والعواصم سنة ١٤٢هـ^(١٦٢) وكان خلفه موسى بن مصعب أميراً على الجزيرة والموصل (١٥٥). ١٥٨هـ^(١٦٣) كانت ديار ربيعة وقصبة مدنها نصيبين تابعة لولاية الجزيرة منذ أن فتحت إلى ان تغلب عليها وعلى داراً حمدان بن حمدون بن حارث بن لقمان بن راشد التغلبي وتحصن بقلعة ماردين، فخرج المعتضد بالله سنة ٢٨١هـ واسترجعها فعادت تابعة لولاية الجزيرة، ولم تنزل كذلك إلى

أن ولي المكتفي بالله الحسين بن حمدان ديار ربيعة سنة ٢٩٢هـ فانفصلت عنها وظلت كذلك فيما بعد (١٦٤).

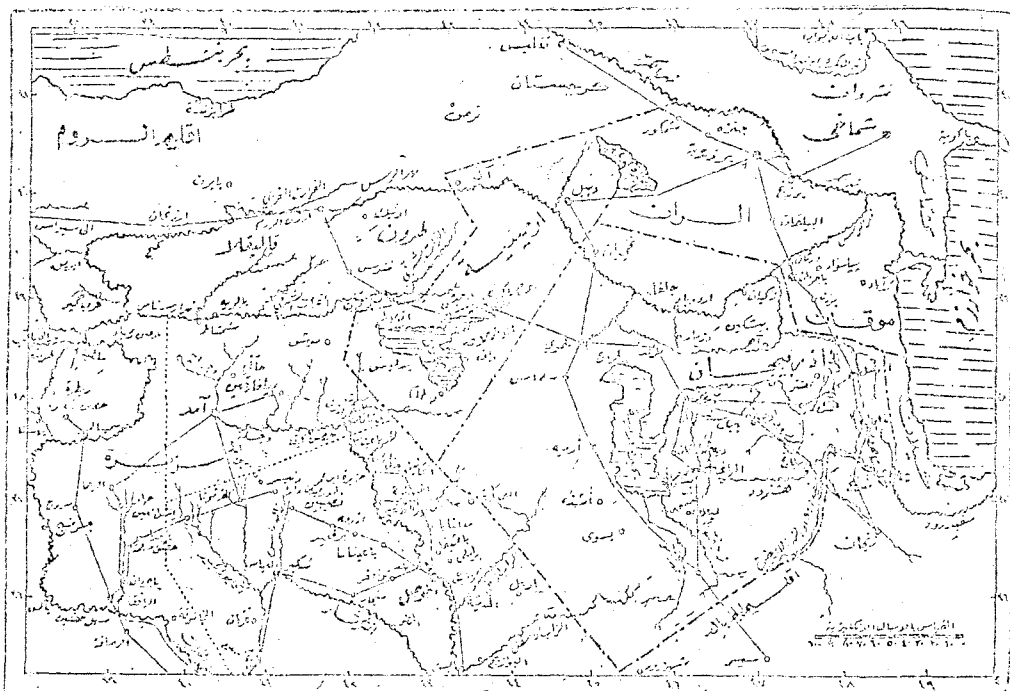
٤- سكان الرقة والجزيرة عامة لدى الفتح الاسلامي

(١) **العرب:** كان للقبائل العربية في الشام والجزيرة الفراتية لدى الفتح الاسلامي حواضر حول المدن يرجع عهدها إلى ما قبل الاسلام.

والحاضر في الأصل: الحي العظيم ونقيضه البادي، والمقصود بالحاضر هنا محلة كبيرة قريبة من المدينة ولكنها خارج سورها (١٧١) أي في الريض أو أبعد منه فكان لتتوخ حاضر قرب قنسرين (١٧٢) وحاضر قرب حلب يجمع أصنافا من العرب من تتوخ وغيرهم (١٧٣) وكان للعرب حاضر في الجزيرة حول الرقة أغارت عليه طليعة عياض بن غنم (١٧٤).

عين عمر بن الخطاب الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة وكانوا من ربيعة وتتوخ (١٧٥) فنهض مع الوليد كل عرب الجزيرة المسلمين وغيرهم وبنو تغلب والنمر بن قاسط وكلاهما من ربيعة، وعاكسته اياد بن نزار بن معد بن عدنان (١٧٦) وكلهم نزارية.

يبدو أنه لم يكن في الجزيرة الفراتية قبل الفتح الاسلامي وجود لقيس كقبيلة وانما جرى استقرارها في الجزيرة وخاصة في ديار مضر اعتبارا من الفتح الاسلامي، كما يبدو أن قواد الجيش الذي فتح الجزيرة حسب رواية الواقدي التي رجحنا صحتها هم من قيس او من قريش، ويبدو أن عددا كبيرا من الجيش الفاتح (وعده حسب ما تقدم خمسة الاف كانوا من قيس على الأغلب).



إقليم الجزيرة وأذربيجان، مع إقليم الحدود الشمالية الغربية

نقلاً عن كتاب بلدان الخلافة الشرقية. التراجم

(٢) **الموالي:** نشأ الموالي كفة بعد الفتح العربي، وهم من غير العرب وقد دخلوا الاسلام فكان عليهم ان ينتسبوا إلى قبائل عربية وقد اعتبروا في البدء مواطنين من الدرجة الثانية^(١٧٧).

(٣) **الأنباط:** مع ان الأنباط عاشوا على المشارف الشمالية من الحجاز فليس لهم ذكر في مصادرنا العربية التي تحدثت عما قبل الاسلام بغض النظر عن كونهم عرباً أو غير عرب، وهذا شيء مستغرب حقاً، فقد عرف العرب في الفتوحات الإسلامية وفيما قبلها وفيما بعدها أن من يدعون النبط هم سواد العراق على وجه الخصوص أو السكان الأصليون في الشام والعراق على وجه العموم وعرفوا أنهم حاذقون في الزراعة وعمارة الأرضين وفي استنباط المياه واستخراج المعادن، وان لهم لغة خاصة بهم هي النبطية (أي الارامية أو السريانية) وكل هذه الخصائص التي ذكرت تنطبق على أنباط بتر. ولكن لا يذهب بنا الظن إلى أن العرب شملوا بهذه الصفات أنباط بتر أو عرفوا موقعهم من التاريخ أو تعرفوا إلى ماثرهم الحضارية وأكبر الظن أن من أطلق عليهم العرب اسم نبط أو نبيط من سكان بلاد الشام الأصليين كانوا يشتملون على عناصر من أنباط بتر، كانت قد ذابت أو انصهرت داخل المجموعة الكبيرة من أولئك السكان، ولعل هذا نفسه أحد الأسباب التي أدت إلى جهل العرب بأنباط بتر وبدولتهم وبكل ما يتعلق بهم وقد كان الأنباط قد فقدوا هويتهم كاملة عند بقطة العرب أقصى الشمال وخاصة أهل مكة والمدينة وتعرفهم على أخبار الأمم من حولهم، وربما لم يتم ذلك قبل القرن الرابع الميلادي حين لم يكن لا للدولة النبطية ولا للهوية النبطية وجود، ولم يكن هذا حظ الأنباط وحدهم بل أن الأمم التي كتبت في الشمال بخط غير الخط العربي كالصفويين واللحيانيين، لا يعرف عرب الحجاز عنهم شيئاً ذابال، اللهم إلا أن يكونوا قد ذكروا تحت أسماء أخرى، إذ أن تسميتهم بأسم ((الأنباط)) إنما مصدرها نقوشهم التي كان يجهلها عرب الحجاز. أن استعمال الأنباط الارامية في الكتابات لا يمكن أن يكون دليلاً على أنهم لم يكونوا عرباً وأجمع الأكثرية من الدارسين على أنهم عرب لا سيما وأنهم عبدوا آلهة عبدها عرب الشمال، كما أن المؤرخين الكلاسيكيين يسمونهم عرباً، وأن حوالي ٩٠٪ من أسمائهم عربية^(١٧٨).

لا يقتصر اسم النبط على الفلاحين فقط وإن شكلوا الأغلبية الساحقة بين النبط. قال ياقوت: وأما النبطي فكل من لم يكن راعياً أو جندياً عند العرب من ساكني الأرض فهو نبطي، ثم اتخذت كلمة الأنباط لتدل على الفلاحين الذي يتكلمون لهجة غير عربية، والأنباط في الأصل فلاحون يرتبطون بالحضارة الارامية (غير العربية).

وكان النبط يتكلمون بلهجات عربية ولكن برطانة أعجمية ولكنها غريبة ظاهرة، وقد ضرب المثل برطانة كلام النبط بالعربية، وقبحه، فقيل: قبح الكلام وصار من كلام النبط^(١٧٩). فالنبط والسريان جنس واحد ولغة واحدة ولا خلاف بينهما إلا في أحرف يسيرة^(١٨٠).

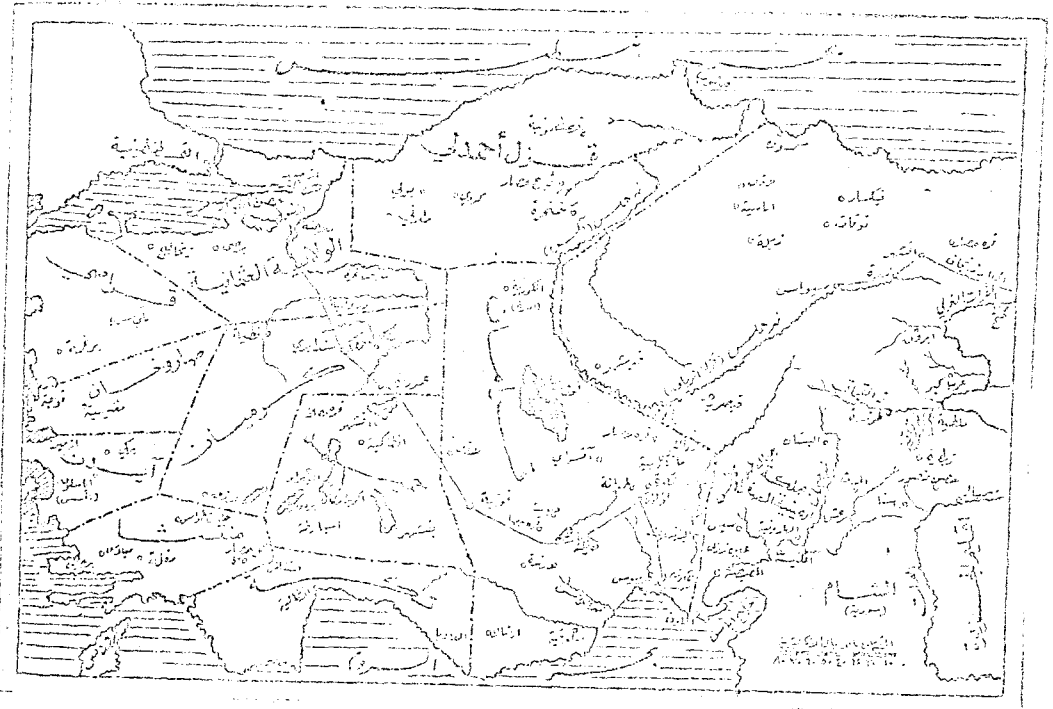
(٤) **الآراميون** الذي تنصروا تركوا أسمهم القديم وتسموا بالسريان المشاركة (أي النساطرة) والسريان المغارية (أي اليعاقبة) ليميزوا عن الآراميين الوثنيين^(١٨١).

(٥) **الجرامقة:** هم آراميون كانوا قد لجؤوا إلى عيلام (إقليم قديم بآسيا شمال الخليج الفارسي وشرق نهر دجلة، وغربي ايران) تحت تأثير الآشوريين، فحلوا في منطقة تعرف بالجرمق في فارس، ثم لما عادوا إلى بلاد آشور حملوا معهم هذا الاسم فعرفوا به فسموا (الجرامقة) وسمى بعض العرب اللغة الآرامية بالجرمقية نسبة إليهم^(١٨٢). والجرامقة طائفة من الكلدانيين أي السريان^(١٨٣) واستعمل الشاعر كلمة ((الجرامقة)) للدلالة على نبط العراق إذ يقول للمعتصم:

أيا ساكن القاطول بين الجرامقة تركت ببغداد الكباش البطارقة^(١٨٤)

ووصف يزيد بن المهلب جيش الشام والجزيرة الذي قاده لحربه مسلمة بن عبد الملك بأنهم «برابرة وجرامية وأنباط وأبناء فلاحين»^(١٨٥) والجراجمة: سكان مدينة الجرجومة على جبل اللكام قرب أنطاكية، كانوا يتأرجحون في ولائهم بين الروم والأمويين.^(١٨٦)

٦) **الروم المحتلون:** نزح معظمهم إلى بلاد الروم بعد أن سهل لهم المسلمون السبيل إلى ذلك وكان في آمد مثلاً لدى هجوم المسلمين عليها عشرون ألفاً من الروم لكن الخلف أوقع بينهم فاقتلوا ثم أخذها المسلمون^(١٨٧) وعاملوا الروم معاملة حسنة أتاحت لهم الانسحاب إلى بلاد الروم^(١٨٨) وليس إلى مدينة في الجزيرة لأن مدنها كانت تسقط في يد المسلمين واحدة بعد أخرى وأما من بقي فإما أن يسلم ويصبح مولى أو يظل على دينه ويصبح ذمياً.



بلاد الروم

نقلا من كتاب بلدان الخلافة الشرقية

(٧) **أقليات:** كان اليونانيون والفرس يشكلون إلى جانب الرومان بعض المجموعات في مدن الجزيرة يضاف إليها تلك الأقليات التي كانت تخرج مع القوافل التجارية منذ أقدم الأزمان ومثلاً: الجورجيون واللازيون والكوديثيون والتموريون والمصريون والحباش والهنود، وطبقاً لذلك كان اللباس متنوعاً وكذلك العادات والتقاليد مختلفة ومتباينة، وكانت أيضاً خليطة اللغات واللهجات التي تتحدث بها جماهير المنطقة في ذلك العصر وكذلك تباينت المعتقدات الدينية والوثنية بكافة المظاهر والأشكال مثل الزرادشتية واليهودية والمسيحية واتجاهاتها^(١٨٨).

٥- الهجرة والاستيطان في الجزيرة في العهد الإسلامي في ديار مصر والرقّة

انطلق الجيش الإسلامي الذي فتح الجزيرة - حسب رواية الواقدي التي اعتمدها في فتح الجزيرة - من الشام من جيش يزيد بن أبي سفيان وعدده خمسة آلاف^(١٩٠) يقوده قادة من قريش أو من قيس، وعلى رأسه عياض بن غنم الفهري (من قريش) وعلى مقدمته ميسرة بن مسرور العباسي (من عباس من قيس، عيلان) وعلى يمينته سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي 'قرشي' وعلى يسارته صفوان بن معطل السلمي (من بني سليم من قيس عيلان) وكان الجند يصحبهم نساؤهم وأولادهم^(١٩١) وذلك كما جرت العادة في تلك الفتوح الإسلامية، كي يستقر الجيش في الأرض التي يفتحها ولا يعود إلى جزيرة العرب.

وجرى الأمر في الجزيرة لدى فتحها على نفس النمط الذي جرى في المناطق الأخرى ومنها بالاس وقاصرين التابعين لفسرين وكانتا لأخوين من أشرف الروم أعطيا القرى التي بالقرب منهم (على شكل أقطاع) وجعلا حافطين لما بينهما من بلاد الروم بالشام فلما نزل بهما المسلمون (وعليهم حبيب بن مسلمة من قبل أبي عبيدة) صالح أبو عبيدة أهلها على الجزية أو الجلاء، فجلأ أكثرهم إلى بلاد الروم وأرض الجزيرة وقرية جسر منبج^(١٩٢) ورتب أبو عبيدة بالاس جماعة من المقاتلة وأسكنها قوماً من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام (أي أن عرباً من سكان الشام القدامى أسلموا بعد الفتح) وأسكن قاصرين قوماً ثم رفضوها أو أعقابهم (أي أسكن قوماً لم يستقروا فيها أو أنهم استقروا ولكن أعقابهم غادروها فيما بعد)^(١٩٣).

سار عياض بن غنم في الجزيرة على هذه السياسة، ففي سنجار أسكنها قوماً من العرب^(١٩٤) وكذلك فعل في عين الوردة رأس العين إذ دخلها المسلمون عنوة ثم صالحوا أهلها بعد ذلك ودفعوا لهم الأرض ووضعت الجزية على رؤوسهم، وجلا خلق من أهلها، واعتمل المسلمون أراضيهم وازدروها باقطاع^(١٩٥).

لا بد أن عياض جرى على سنة أبي عبيدة من قبل، وهي أنه ولى على كل كورة فتحها عاملاً وضم إليه جمعة من المسلمين، وشحن النواحي المخوفة^(١٩٦) للمحافظة على أمنها واستقرارها، ووطن فيها من يهتم بأمورها وزراعتها. وكانت الأراضي التي تركها أصحابها وجلوا منها كثيرة في الجزيرة كما يفهم مما تقدم ولذلك لم يحتج العرب الجدد إلى مشاركة الجزيريين منازلهم، ولا تعطلت زراعة الأراضي أيضاً لكثرة القادمين من الجند ومن غير الجند.

وفي خلافة عثمان جمع لمعاوية الجزيرة مع الشام سنة ٢٦هـ وأمره أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ويأذن لهم في اعتمال الأرض التي لاحق فيها لأحد، فأنزل بني تميم الرابية، وأنزل مازحين والمديبر اخلاطاً من قيس وأسد وغيرهم، وفعل ذلك في جميع نواحي مصر، ورتب ربيعة في ديارها على ذلك، والزم المدن والقرى والمسالح من يقوم بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء (أي المقاتلين من جيش الفتح) ثم جعلهم من عماله (أي ثابتين ومستقرين فيها)^(١٩٧).

ظلت الجزيرة حتى بعد مقتل عثمان عام ٣٥ هـ قليلة السكان (تهذيب ابن عساكر) رغم سعة أراضيها الزراعية وخصوبة تربتها وذلك لكثرة من نزح عنها من الروم كما تقدم.

احتمت المنازعات في البصرة وخاصة في الكوفة أيضاً بين أنصار علي وأنصار عثمان ففر أنصار عثمان إلى معاوية بن أبي سفيان الذي كان يخشى اختلاط الوافدين عليه بأهل الشام فكان يوطنهم في البدء في المنطقة التي تقع تحت سلطانه من الجزيرة وهي: حران والرقعة والرها وقرقيسياً^(٢٠٤) وكان على حران من قبل معاوية الضحاك بن قيس^(٢٠٥) وكانت فيما يبدو قاعدة الجزيرة عند ذلك، وبذلك كفل معاوية أن تكون الجزيرة امتداداً سكانياً للشام من حيث ولائها لبني أمية، واهتم هؤلاء العرب المهاجرون بالزراعة وأقطعوا الأراضي اللازمة لذلك وهو أمر كان متبعاً منذ عهد الروم وكان بين الفارين أو اللاجئين إلى الجزيرة.

١. **بنو أسد**، وعليهم سمالك بن مخزومة الاسدي، وكان قد فارق علياً في نحو مئة رجل من بني أسد ثم أخذ يكاتب قومه حتى لحق به منهم سبعمائة رجل^(٢٠٦).

ومن بين المهاجرين، الصحابي وأبصة بن معبد الاسدي. وقد ذكر القشيري بين سكان الرقة، أيوب بن سليمان الاسدي^(٢٠٧) وقال أنه شيخ من أهل البليخ من تل مجرى. وكان فرات بن سليمان الرقي مولى بني عقيل (توفي سنة ١٠٥ هـ) ينزل في الرقة في بني أسد^(٢٠٨) ولعله كانت لهم قطعة كقطيعة بني سليم (في باجروان).

٢. **قيس ميلان**: جعل الله لقيس عيلان من الكثرة أمراً عظيماً، وكثرة بطونها غلب اسمها على سائر البطون العدنانية فجعل اسمها مقابل اسم عرب اليمن قاطبة، فقيس قيس ويمن^(٢٠٩)، وتدل الاحاديث التي نسبت إلى رسول الله ﷺ على ما بلغته قيس في الدفاع عن الثغور ومنها ما ورد في ابن عساكر عن أبي الدرداء: «يا أبا الدرداء: إذا فاخرت ففاخر بقريش، وإذا كاثرت فكاثر بتميم، وإذا حاربت فحارب بقيس، إن لله فرساناً في سمائه يقاتل بهم أعداءه وهم الملائكة، وفرساناً في أرضه وهم قيس يقاتل بهم أعداءه»^(٢١٠).

بنو عقيل: روى ابن عياش أن قيساً أقبلت، حين قتل عثمان، من الكوفة والبصرة يريدون الشام قال ابن عياش أخبرني أبي قال: أخبرني زفر بن الحارث الكلأبي قال: أتبعنا علي بن أبي طالب خيلاً تبعنا حتى وردنا عانة (بلد مشهور بين الرقة وهيت وتشرف على الفرات وهي نفسها عانة كما في ياقوت). قال: فمررنا بالجزيرة فإذا هي بلاد خصبة ريفية ومزدرع وسعة، وقلة أهل، وإنما كان الفرض والجند بحمص والجزيرة، فتسرين يومئذ من حمص (أي من جند حمص) فقالوا: «من لنا بالمقام في هذه البلاد، ولكن مهاجرنا إلى غيره» (أي إلى الشام وليس إلى الجزيرة) فلما قدموا على معاوية قال «في الحرب والسعة، إنما هاجرتم الي بدينكم، وقد سبقكم أخوانكم من أهل الشام إلى الريف والحدائق، ولكن عليكم بالجزيرة فأنزلوها» فوافق قوله هواهم، فنزلوا على اثناء الفرات والمديبر والمنازين، فيهم: ربيعة بن عاصم العقيلي وزفر بن الحارث وشبابة السلمي^(٢١١). فأسكنهم معاوية^(٢١٢) الجزيرة ومن بين بني عوف بن عقيل أبو صفوان إسحاق بن مسلم ربيعة قائد مروان بن محمد وأخوه إسحاق.

بنو كلاب وعلى رأسهم زفر بن الحارث **بنو سليم** وعلى رأسهم شبابة السلمي: نزلوا على اثناء الفرات والمديبر والمنازين قرب الرقة^(٢١٣) وبنو سليم ابن منصور بن عكرمة. وهم أكبر قبائل

قيس^(٢٣٧) وقال جابر بن أنس الرياحي متكلم بني سليم ((وفينا السلاح والكراع)). والله لقد جاء الاسلام والخيل في بني سليم أكثر مما في الحجاز. لقد بقي فيها منها ما لو بقي مثلها عند عربي لسكنت إليه البادية^(٢٣٨). وكانت لسليم قطيعة على ثلاث فراسخ من الرقة وقد جرت فيها فيما بعد معركة بين خمارويه وإسحاق بن كنداج عام ٢٧١هـ^(٢٣٩) ووصف هذه القطيعة ينطبق على ((باجروان)) وفيها كان ينزل الجحاف بن حكيم السلمي^(٢٤٠). وفيها نزل الأشجع السلمي على قبيلته بني سليم.

بنو غني: ابن أعصر بن سعيد بن قيس عيلان ومن جملة مساكنهم تل بني سيار^(٢٤١).
بنو نمير: ابن عامر بطن من عامر بن صعصعة^(٢٤٢).

٢. **بنو الأرقم** بن النعمان بن عمرو بن وهب بن ربيعة بن معاوية بن الحارث بن كندة كانوا عثمانيين رحلوا من الكوفة إلى معاوية وقالوا لا نقيم ببلد يسب به عثمان، فأنزلهم معاوية الرها، وكان معاوية إذا قدم عليه أهل العراق أنزلهم الجزيرة مخافة أن يفسدوا أهل الشام، فأنزل بني الأرقم نصيبين وأقطعهم قطائع ثم كتب اليهم: ((اني اتخوف عليكم عقارب نصيبين)) فأنزلهم الرقة وأقطعهم قطائع وشهدوا صفين مع معاوية، فضرب عدي بن عميرة يومئذ على يده .
وكان آخر من خرج إليه من الكوفة العرس بن قيس بن سعيد بن الأرقم، فولى الجزيرة، وجبر ابن القشعم بن يزيد بن الأرقم أول من قضى (أي صار قاضياً) بالعراق لعمر بن الخطاب وعدي ابن عدي بن عميرة الكندي كان ناسكاً فقيهاً^(٢٤٣) وقد تولى قضاء الجزيرة^(٢٤٤) وسيرد اسمه بين قضاة الجزيرة.

بنو الأجدم من بني حجر بن وهب بن ربيعة.

٤. **بنو جعفر بن سعد** العشيرة: بن مذحج من القحطانية، وكانوا من العثمانية وقد فر ثمانون رجلاً منهم إلى الرقة ومنهم: الصحابي سلمان بن ثمامة بن شراحيل الشيطان بن الحارث بن الأصهب الجعفي^(٢٤٥) وابن عمه الصحابي عبد الله بن أرطاة بن شراحيل الشيطان بن الحارث بن الأصهب الجعفي^(٢٤٦) والمحتمل بن سماعة بن حصيل بن دينار الجعفي^(٢٤٧) وشمر بن الحارث بن البراء الجعفي^(٢٤٨) والقشعم بن عمرو بن نذير (أو: قدير) بن البراء الجعفي^(٢٤٩).

٥. **عدي بن حاتم:** خرج عدي بن حاتم وجريز بن عبد الله البجلي، وحنظلة الكاتب من الكوفة فنزلوا قرقيسيا وقالوا: لا نقيم ببلد يشتم فيه عثمان وقبورهم بقرقيسيا^(٢٥٠) وهي بلد على نهر الخابور قرب رجة مالك بن طوق.

٦. **قريش:** ومنهم: الوليد بن عقبة بن معيط (أخو عثمان بن عفان من أمه) وهو من العثمانية الذين هربوا من الكوفة إلى معاوية^(٢٥١) وقد خرج سنة سبع وثلاثين (قتل عثمان سنة ٣٥هـ، وكانت حرب صفين في نهاية ٣٦هـ وبداية ٣٧هـ)، حتى نزل الرقة، فكان بها، وكان معه العلاء بن عبد بن أهبان بن جابر بن ضباب ابن عامر بن القري، وكان تحته هند بنت عقبة اخت الوليد، في ناس من قومهم فيهم: عبد الواحد بن أبي سعد بن قيس بن وهب فأقاموا معه (مع الوليد بن عقبة لذلك العهد)^(٢٥٢) وعبد الواحد هذا ولي الرقة، وكان ينزل بها كما في بحث ولادة الرقة في العهد الأموي^(٢٥٣) وابنته رقية بنت عبد الواحد بن أبي سعد وكان يشبب فيها عبيد الله بن قيس الرقيات (وهو من نفس العشيرة)^(٢٥٤) وعثمان بن سفيان بن حرب بن عبد الواحد، أبو عون، هو صاحب خيل مروان بن محمد، قتله عبد الله بن علي وهو أول قرشي قتل في تلك الحرب، وهم ينزلون في الرقة البيضاء في الجزيرة^(٢٥٥).

٧. **بنو تميم**: تقدم ذكر نزول بني تميم في الروابي (وتقدم أنها تابعة للرافقة) كما أنهم وجدوا أيضاً في الرها^(٢٣٦) وفي الصحراء.

يظهر مما تقدم ومما أورده الطبري^(٢٣٧) والمصادر الأخرى عن الهجرة ما يلي: هاجر في زمان الخلاف بين علي ومعاوية (٤١٣هـ) كثير من أهل الكوفة والبصرة من أنصار عثمان إلى معاوية فأسكنهم في أنحاء الجزيرة. وفي عام الجماعة (أي الذي أجمع فيه أهل العراق على خلافة معاوية بن أبي سفيان وهو عام ٤١هـ) بعد مقتل علي وتنازل الحسن بن علي. وأخذ معاوية يجرب مبادلة بين أنصاره وأنصار علي فينقل أنصاره ((المستغرب في أمر علي)) (أي المتحامل عليه والمتعصب ضده). من الكوفة إلى أرض الجزيرة والشام. وينزل في دورهم أنصار علي. ((المستغرب في أمر معاوية من أهل الشام وأهل البصرة وأهل الجزيرة)) وهؤلاء وأولئك هم الذين يقال لهم ((النواقل)) في الأمصار^(٢٣٨) وفي من نقله معاوية من الكوفة: قعقاع بن عمرو بن مائل إلى إيلياء بفلسطين، فطلب إليه أن ينزل منازل بني أبيه بني عقفان. ونقل من الجزيرة: سجاح بنت الحارث التميمية (المتبئة) ومن معها، وكانت تنزل في أخوالها بني تغلب في الجزيرة، إلى بني تميم في الكوفة. وانزلهم منازل بني القعقاع وبني أبيه^(٢٣٩). وبذلك حرص على أن لا يكون في الشام والجزيرة الفراتية إلا أنصار الأمويين.

وجند معاوية قنسرين من هؤلاء النواقل ((رافضة العراقيين)) الذين هاجروا من الكوفة والبصرة وكانت قنسرين رستاقاً من رساتيق حمص، وأخذ لهم نصيبهم (أي أعطياتهم) من فتوح العراق واذربيجان والموصل والباب، فضمها فيما ضم^(٢٤٠).

٢. العهد الأموي بعد معاوية

كانت منازل تغلب على جانبي الفرات عند الفتح أي عانات وغيرها من حصون الفرات^(٢٤١) وقبل أن يستمر الشر بينهم وبين قيسية الجزيرة في خلافة عبد الملك بن مروان كانت منازل تغلب على الخابور (ماكسين، الفدين، سكير العباس) والفرات ودجلة^(٢٤٢) وربما وصلت منازلهم إلى الرقة^(٢٤٣).

وكانت منازل قيس عيلان في هرقيسيا^(٢٤٤) وعلى البليخ بين حران والرقة^(٢٤٥) ويبدو من مراجعة الأيام بين القيسية وتغلب التي حدثت وقائعها قبل عام ٧١هـ أن قبائل قيس عيلان بن مضر بن نزار في ديار مضر كانت تضم:

بني عامر بن صعصعة، وهذا يشمل:

بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من قيس عيلان.

بني قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من قيس عيلان.

بني كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من قيس عيلان.

بني تمير بن عامر بطن من عامر بن صعصعة من قيس عيلان.

بني سليم بن منصور بن عكرمة من قيس عيلان.

وكانت قطيعة سليم في كورة الرقة على بعد ثلاثة فراسخ من مدينة الرقة وقد جرت فيها فيما بعد معركة بين خماروية وإسحاق بن كنداج عام ٢٧١هـ^(٢٤٦) (ولعل هذه القطيعة كانت في باجروان) وفي باجروان كان ينزل الجحاف بن حكيم السلمي^(٢٤٧).

بني غني بن أعصر بن سعيد بن قيس عيلان ومن جملة مساكنهم تل بني سيار^(٢٤٨) والاقطانيون بالرقه^(٢٤٩).

كانت منازل بني أمية في بالس والزيتونة والرصافة وحصن مسلمة^(٢٤٠). وكانت منازل ولد مسلمة بن عبد الملك في بالس والناعورة (موقع بين حلب وبالس فيه قصر لمسلمة)^(٢٤١).

وفي شعر على لسان الحكم بن الوليد بن يزيد (وكان هو وأخوه محبوسين في سجن دمشق في خلافة ابراهيم بن الوليد وقتلا سنة ١٢٧هـ) ذكر لسكان الجزيرة من قريش ومنها: سليم وكعب وتميم.

ألفا قر السلا م على قريش **وقيس بالجزيرة اجمعينا**
فلو شهد الفوارس من سليم **وكعب لم اكن لهم رهينا**
ولو شهدت ليوث بني تميم **لما بعنا تراث بني ابينا**^(٢٤٢)

ومما يذكر أن الهجرة لم تنقطع في العصر الأموي، فمثلاً ورد أن ميمون بن مهران (٤٠هـ - ١١٧ أو ١١٨هـ) من موالي الازد أو بني نصر بن معاوية قيسي وكان بالكوفة وبقي فيها حتى هيج الجماجم (٨٠ - أول ٨٢ هـ) ثم تحول إلى الجزيرة^(٢٤٣) (ربما هرب من الحجاج بن يوسف الثقفي لأنه كان زوج ابنة سعيد بن جبير الخارج على الحجاج في جيش ابن الاشعث) واستقر في الرقة وربما كان عدد الذين هاجروا إلى الرقة وغيرها من مدن العراق في مثل هذه المناسبات كثيراً ولم تشر اليهم المصادر. ولا بد أنه كان بينهم بعض المتشيعين غير الذين هاجروا زمن معاوية، فقد كان ميمون بن مهران في البدء من أنصار علي وخصوم عثمان^(٢٤٤) كما أن ابنه عمرو بن ميمون ابن مهران كان يحن إلى الكوفة وتمنى أن يدفن فيها^(٢٤٥) وقد تحقق له ذلك.

٣. العهد العباسي الاول

ظل التركيب السكاني في الرقة خاصة والجزيرة عامة على ما كان عليه، فقد أشار ربيعة الرقي ١٩٨هـ في شعره إلى وجود قريش وأسد في الرقة
لم تضمّن بلدة، ضمنّت **من جمال في قريش وأسد**^(٢٤٦)

وهناك اشارة إلى نفوذ القرشيين في الرقة عام ١٨٤هـ في عهد الرشيد اذ عملوا على عزل محمد بن مسروق عن قضاء مصر^(٢٤٧) وظل بنو أمية في منازلهم في بالس والزيتونة والرصافة وحصن مسلمة^(٢٤٨) وظل القيسيون باختلاف شعبيهم في الرقة والجزيرة وهب في الرقة بنو أسد وبنو عقيل لقتال أبي غانم الطائي حين تحدى أهل الرقة^(٢٤٩)، ونزل اشجع السلمي، شاعر الرشيد، في بني سليم في الرقة^(٢٥٠). وكان نصر بن شيبث العقيلي التأثير على المأمون متمركزاً في كيسوم واحتل بالس وسروج، واستقر بعض الوقت في الرقة (سيرد الحديث عن ثورته) وخلال ثورة نصر بن شيبث، حاول عبد الأعلى الذي كان يسيطر على الرها أن ينقل إليها كثيراً من عشيرته سليم^(٢٥١) ويظهر أنه نجح في ذلك كما يظهر في العهد العباسي (الثاني) كما حاول حينئذ أبو الشوك (أو ابو الشيخ) أيضاً أن ينقل إلى الرها عدداً من عشيرة بني غني (قيسية)^(٢٥٢). وكان تل سيار (بين رأس العين والرقة قرب تل موزن - معجم البلدان) يسكنه عرب من غني ((قيسية))^(٢٥٣). وكانت تميم تقطع الطريق في البادية^(٢٥٤) زمن الرشيد وان وجود بطون من قيس من ديار مضر، لا يعني ان كل ديار (ديار مضر، وديار ربيعة، وديار بكر) في الجزيرة لا يعيش فيها الا العشيرة المدعوة باسمها، فمثلاً كان إخوان من نزار ((من قيس عيلان)) يخفرون قرية بين آمد وسميساط ويقال لها تل حوم ((من ديار ربيعة)) فطال مقامهما بها حتى أثريا، فحسدهما قوم من ربيعة وقتلوا احدهما (في زمن عبد الملك بن صالح والرشيد)^(٢٥٥).

وكان بعض من بني عامر بن صعصعة (وبينهم من شو من كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة) منتجعين في نواحي نصيبين ((من ديار ربيعة)) وذلك في عهد عبد الملك بن مروان (٢٥٩)

٤. العهد العباسي الثاني

يقول الهمداني (المتوفى عام ٣٣٤هـ) أن شرقي الفرات ديار مضر، ومن مدنها:

الرافقة: يسكنها اخلاط مضر.

حران: لبني تميم ومن يخالط من بني سليم.

الرها: لبني سليم.

مريع والخابور لبني عقيل: (أعلاه في الشمال) لبني مالك وبني حبيب، والباقي (في الجنوب) لبطن تغلب وآخر ديار مضر: رأس العين ((من ديار ربيعة)) للنمر بن قاسط، ومنبج ((من النشام)) مشتركة بين كلب (يمانية) وكراب (قيسية) (٢٥٧) ويذكر القشيري أن في الرقة خراسانية هم آل الزينبي (٢٥٨).

وكان في حصن انزيتونة بعد عام ٣٣٤هـ رجل من بني أمية يكنى بأبي مروان ومعه في الحصن مائتا رجل (٢٥٩). وكان جيش الجزيرة والرقعة في عهد العباسيين يحوي جميع العناصر في الرقة والجزيرة مثل: الخراسانية والأتراك والمغاربة والفراغنة والروم والبربر والسودان. وفي ابن حوقل الذي ألف كتابه بين سنتي ٣٥٦-٣٦٧هـ أن القيسيين غلبوا على مواضع كثيرة من بينها مدن الخابور. والمعروف أنها كانت مساكن لبني تغلب والظاهر أن القيسيين استطاعوا التغلب عليهم واخضاعهم، وهذا ما حاولوه من قبل زمن زفر بن الحارث ففشلوا.

إن الذين استوطنوا ديار مضر معظمهم من قيس وقريش من المحاربين الذي قدموا من جيش الفتح الذي كان يقوده يزيد بن أبي سفيان واصلهم من الحجاز ولديهم خبرة زراعية كبيرة أو من عرب النشام الذين اسلموا حديثاً (٢٦٣) ولا بد أنهم صنعوا كما صنعوا عقب فتح الشام فهناك كرهوا أن يقيموا فيها دون أن يتميزوا بشكل ظاهر عن سكانها، إذ عسكروا في مرج بردى بين المرة إلى مرج شعبان على جانبي بردى، وكانت مروجاً كانت مباحة في ما بين دمشق وقراها وليست لأحد منهم (أي من السكان الأصليين)، فأقاموا بها حتى أوطأ الله بها المشركين ذلاً وقهراً، فأحيا كل قوم محلهم وبنوا فيها، فرفع إلى عمر بن الخطاب فأمضاه لهم فبنوا الدور ونصبوا الشجر ثم أمضاه عثمان ثم أمضاه المنصور (٢٦٤) وكذلك فعلوا في ديار مضر إذ استوطنوا الأراضي على ضفتي الفرات التي ليست لأحد وعمروها وبنوا فيها الدور وغرسوا الأشجار.

بنو أسد بن خزيمه بن مدركة بن الياس بن مضر: قبيلة عربية من قريش تسكن أرضاً رحبة تخترق الجزيرة العربية من المدينة إلى الفرات وأفرادها مع ذلك ليسوا أصحاب السلطان على هذا الإقليم المتسع، لأنهم يعيشون في جماعات متفرقة وليس لهم في الحقيقة نفوذ يتكافأ مع موطنهم الفسيح، كما أن نظرة جيرانهم من القبائل الأخرى اليهم لا تتناسب أيضاً مع سعة إقليمهم (٢٦٠)، وقد اقترح علي بن عيسى أن يلزم خمسة آلاف فارس من بني أسد طريق مكة بعيالهم ويثبت لهم مال الموسم (٢٦١) لخفارة الطريق.

٦. أقسام الجزيرة في العهد الاسلامي

تحد الجزيرة من الغرب الشام، ومن الشمال الغربي ثغور الجزيرة، ومن الشمال والشمال الشرقي أرمينية، ومن الشرق أذربيجان ومن الجنوب العراق، ويبدأ الحد الجنوبي من خط يمتد من الأنبار إلى تكريت (٢٦٢).

وكان هذا الإقليم ينقسم إلى ثلاثة أقسام وهي: ديار ربيعة، وديار مضر، وديار بكر نسبة إلى القبائل العربية التي نزلت هذا الإقليم قبل الاسلام أيام الساسانيين كما تقدم وكان اسم ((ديار

ربيعة) يطلق أحياناً على ديار بكر وديار ربيعة معاً^(٢٧٣). بل إن اسم ديار بكر لم يرد في تاريخ الطبري.

تشمل ديار بكر الأراضي الواقعة على شاطئ دجلة ابتداء من منبعه إلى حيث يبدل سيره، المعترض من الغرب إلى الشرق، ليمتد إلى الجنوب الشرقي، فهي إذاً تشمل الحوض العلوي لدجلة ابتداءً من ناحية سعرت تل فافان إلى ناحية أرقانين في الشمال الغربي من آمد وإلى حصن الحمة (تشموك) غربي آمد. ويذكر ياقوت أن ديار بكر لا تتجاوز هذا السهل^(٢٧٤). وتمتد ديار مضر على جانبي الفرات ابتداءً من سميساط إلى شمالي عانة في الجنوب^(٢٧٥). وقصبته الرقة، ومن مدنها المحترقة والرافقة وخانوقة والحريش وتل محرى وباجروان وحصن مسلمة وترعوز وحران والرها، وأن أصحاب الموصل أو بعضهم يجعلون الموصل هي **(الجزيرة)**^(٢٧٦).

٧ - اللغة العربية والمسلمون عقب الفتح العربي

عند الفتح الإسلامي كانت المجتمعات في أرجاء الامبراطورية (الإسلامية) تتألف من شعوب عديدة، وتتكلم لغات مختلفة، ولم تكن العربية مستعملة في البدء إلا من قبل الحكام والقادة والجنود والمجموعات العربية المهاجرة إلى هذه البلدان أو التي كانت من مواطنيها، ومن قبل غير العرب الذين دخلوا في الإسلام وتكلموا اللغة العربية ولما كانت الدواوين غير معربة فلم يكن أهل البلاد الأصليين في أصقاع الامبراطورية **(من غير العرب)** بحاجة لتعلم العربية، لأنهم أكثرية السكان ويتكلمون بلغتهم التي هي لغة الإدارة أيضاً، إلا أنهم بعد دخولهم الإسلام وبعد تعريب الدواوين، وزيادة الجاليات العربية واختلاطها مع السكان الأصليين، وبدء تحول المجتمع إلى الثقافة العربية الإسلامية، بدأ السكان يتحدثون العربية في لغاتهم المحكية، وأصبحت العربية لغة التفاهم بين الناس في حياتهم اليومية، ثم أصبحت اللغة العلمية والتعليمية فضلاً عن كونها لغة الدواوين، فانتشرت وتوسع انتشارها ونفوذها وصارت لغة معظم السكان باستثناء فئات قليلة في الأرياف والمناطق البعيدة، وسرعان ما أصبحت لغة وحيدة للناس خارج بيوتهم، ولغة الصلوات والخدمة في الكنائس اعتباراً من القرن الثامن الميلادي^(٢٧٧).

هناك ما يدل على أن رجال الكنيسة اليعقوبية كانوا يلجؤون إلى التراجمة حين يتحادثون مع السلطات الإسلامية ثم بدأت اللغة العربية تنتشر بين السريان حتى جاء القرن التاسع الميلادي وظهر فيه سريان يكتبون باللغة العربية. وحين يبدل السرياني النيعقوبي لغته من السريانية إلى العربية يشعر أنه لا يزال في وطنه وبين مواطنيه أما حين يبدل دينه وتبقى لغته سريانية كما كانت فإن هذا لا يمنعه من أن يشعر أنه تغرب عن وطنه.

كان المسلمون اقلية في المراحل الأولى للفتح العربي الإسلامي وبدء قيام الدولة الأموية، لأن سكان الشام والعراق من العرب لم يكونوا قد دخلوا في الإسلام (مثلاً ألف مسلم مقابل ثلاثة ملايين) حسب فيليب حتي والأمر نفسه في البلاد المفتوحة^(٢٧٨).

الباب الأول

بنو أمية ودورهم في فتح الشام والجزيرة الفراتية

- ١- مختصر بن عساكر ١١٢/١٠، ١١٩
- ٢- فتوح بن الأعمش ٢٤٧/١
- ٣- الطبري ٣٧/٤
- ٤- الطبري ٥٠/٤
- ٥- الطبري ٥٣/٤
- ٦- الطبري ٩٤/٤
- ٧- الطبري ١٣٨/٤
- ٨- الطبري ١٨٠/٤
- ٩- الطبري ٥٣/٤
- ١٠- رواية الواقيدي كلها عن البلاذري فتوح ٢٠٤
- ١١- الطبري ١٠١
- ١٢- ابن الأثير ٥٣٤
- ١٣- فتوح الشام للواقدي ٩٧/٢
- ١٤- الفتوح للبلاذري ٢٠٨
- ١٥- ن م ٢١١
- ١٦- ن م ٢٠٤
- ١٧- القشيري الفقرة ١
- ١٨- القشيري الفقرة ٢
- ١٩- ابن عساكر ١٧٧/١٩
- ٢٠- الخراج لأبي يوسف ٣٩٠، ٤٠
- ٢١- الطبري ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٧٢، ٣٧٧/٣
- ٢٢- الطبري ٤٣٥، ٤٤٢/٣
- ٢٣- ن م ٣٩٦/٣
- ٢٤- ن م ٥١/٤
- ٢٥- ن م ٦٠٢/٢، ابن الأثير ٤٩٣/٢
- ٢٦- ابن الأثير ٤٩٥/٢
- ٢٧- ابن الأثير ٤٩٦/٢
- ٢٨- الطبري ٩٦/٤
- ٢٩- الطبري ١٦١/٤
- ٣٠- البلاذري - فتوح ٢٠٤/١
- ٣١- ابن الأثير ٥٣٣/٢
- ٣٢- انساب الأشراف ٣٣٩/٧
- ٣٣- بحث في نشأة علم التاريخ
- ٣٤- التاريخ العربي والمؤرخون ١٨٠/١
- ٣٥- التاريخ والمؤرخون العرب ٦٨
- ٣٦- ضحى الإسلام ٣٤٣/٢
- ٣٧- مجلة الرسالة والرواية ٢٨ نوفمبر ١٩٤٩ ص ١٦٤٤
- ٣٨- اغايبوس ٣٤٤
- ٣٩- ميخائيل ٤٢٦/٢
- ٤٠- دائرة المعارف الإسلامية بالعربية (الرها)
- ٤١- الرها لسيغال ٢١٧
- ٤٢- المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ الشام، الندوة الثانية المفروض العينية لفالج حسين ١٧٧
- ٤٣- ن م نقلا عن كتاب احكام الذمة ٧٨٦
- ٤٤- الطبري ٥٣٤
- ٤٥- فتوح ابن الأعمش الطبعة الجديدة ٢٦٠/١
- ٤٦- ابن الأثير ٥٦٩/٢، البلاذري فتوح ٢٠٩/١
- ٤٧- تاريخ الإسلام للذهبي جزء الخلفاء الراشدين ١٨٠
- ٤٨- طبقات ابن سعد ٣٩٨/٧
- ٤٩- البلاذري فتوح ٢٠٥
- ٥٠- الطبري ١٤٤/٤
- ٥١- ياقوت (حمص)
- ٥٢- ياقوت (حمص)
- ٥٣- تاريخ الإسلام للذهبي وفيات سنة ٤٦
- ٥٤- ابن عساكر ٢٤٤/١٠
- ٥٥- الطبري ٢٨٨/٤، ابن الأثير ١١٧/٣
- ٥٦- تاريخ بلاد الشام - احسان عباس ٢٨٩-٢٩٦
- ٥٧- ن م ١٧٦
- ٥٨- ن م ٢٨٩-٢٩٦
- ٥٩- البلاذري ١٥٦/١، ابن الاديم ١٤١/١
- ٦٠- البلاذري ١٥٦/١
- ٦١- البلاذري ١٥٦/١
- ٦٢- الخراج لأبي يوسف
- ٦٣- ن م القشيري فقرة ١

- ٦٤- البلاذري فتوح ٢٠٧
٦٥- وقعة صفين ١٣
٦٦- الطبري ٢٢٠/٦
٦٧- الاعلاق ١٥/١/٣
٦٨- تاريخ الموصل ٥٠
٦٩- تاريخ الموصل ٦٨، سنة ١٢٨
٧٠- البلاذري ٢٢٢
٧١- الطبري ٤٧٤/٧
٧٢- الأغاني ١٢١/١٣
٧٣- الاعلاق ١٦/١/٣
٧٤- الاعلاق ١٦/١/٣
٧٥- الاعلاق ٢٠/١/٣
٧٦- الاعلاق ١٢٦/١/٣
٧٧- ياقوت معجم البلدان : الحاضر
٧٨- الطبري ١٠٦/٢
٧٩- البلاذري ١٧٢
٨٠- ن.م البلاذري فتوح ٢٠٥
٨١- الطبري ٥٤، ٥١/٤
٨٢- ن.م ٢٨، ٢٥/٤
٨٣- تاريخ بلاد الشام ، الاقتصادي ٢٣
٨٤- احسان عباس - تاريخ دولة الأنباط ١٧
٨٥- الاغاني ١٦/٥
٨٦- المسعودي ٢٣٧
٨٧- تاريخ الموصل - الصائغ ١٣/٣
٨٨- احمد سوسة : العرب واليهود في التاريخ ٤٦٥
٨٩- المسعودي ٤٦٦/٣، التنبيه والاشراف ٧٨
٩٠- المسعودي - ٤٦٦/٣ مروج الذهب
٩١- ابن الاثير ٧٥/٥
٩٢- معجم البلدان: جرجومة
٩٣- الاعلاق ٢٨١/١/٣
٩٤- الخراج لأبي يوسف
٩٥- العلاقات الاقتصادية - د. فرح دراسات تاريخية
٩٦- ابن الاثم
٩٧- فتح الشام - الازدي ٢٦
- ٩٨- ن.م ١٧٧
٩٩- ن.م ١٧٨
١٠٠- ن.م ٢١٠
١٠١- ن.م ٢١٠
١٠٢- ن.م ١٧٥
١٠٣- ن.م ٢١١
١٠٤- تهذيب ابن عساكر ٣٠٤/٥
١٠٥- وقعة صفين ١٣
١٠٦- وقعة صفين ١٤٦، اليعقوبي ٢٨٧/٢
١٠٧- القشيري الفقرة ٢٧٩
١٠٨- الكامل لابن عدي ٢٧٥/٦
١٠٩- ابن عساكر ترجمة ربيعة بن عاصم العتبي
١١٠- جمهرة انساب العرب ٤٢٦
١١١- البلاذري ٢٤٢
١١٢- ابن عساكر ١٤٢/٤
١١٣- ابن سعد ٤٨٠/٧
١١٤- الاصابة لابن حجره ٨١/٥
١١٥- الاصابة ٧٣/٣
١١٦- الاصابة ٨١/٥
١١٧- انساب الاشراف ٢٩٧/٢
١١٨- ن.م ٢٩٧
١١٩- ن.م ٢٩٨
١٢٠- ابن عساكر ٥١٨/٤٦
١٢١- انساب الاشراف ٢٩٧/٢
١٢٢- ديوان ابن قيس الرقيات ٩٧
١٢٣- ابن حزم- التبيين في انساب
القرشيين ٤٩٠
١٢٤- ديوان ابن الرقيات ٩٧
١٢٥- التين في انساب القرشيين ٤٩٠
١٢٦- تاريخ الموصل ٤١
١٢٧- الطبري ٢٧٥/٣، ١٦٢/٤
١٢٨- الطبري ٢٧٥/٣
١٢٩- الطبري ١٦١/٤
١٣٠- البلاذري ٢١٦
١٣١- الولاة والقضاة، الكندي ٢٩٢

- ١٢٢- الذخائر والتحف ٩٥
 ١٣٣- البلاذري انساب الاشراف ١١٠/٣
 ١٣٤- الاغانى ٢١٢/١٨
 ١٣٥- ميخائيل ٣٥/٣
 ١٣٦- ميخائيل ٢١/٣
 ١٣٧- معجم البلدان: تل سيار، الاصطخري ٥٥
 ١٣٨- الاغانى ١٢١/١٣
 ١٣٩- الاغانى ٧٢/١٣
 ١٤٠- صفة جزيرة العرب الهمداني ٢٤٩
 ١٤١- القشيري فقرة ٣٥٩
 ١٤٢- البلاذري ١٧٨/١٧٧
 ١٤٣- مختصر ابن عساكر ١٨٢/١٠
 ١٤٤- دائرة المعارف الإسلامية: قيس عيلان
 ١٤٥- ابن عساكر ١٠٣/٣٢
 ١٤٦- القلقشندي ٣٤٥/١
 ١٤٧- الطبري ٥٨١/٧ سنة ١٤٥
 ١٤٨- تاريخ الموصل ١٨٣
 ١٤٩- دائرة المعارف الإسلامية: بنو اسد
 ١٥٠- صلة تاريخ الطبري ١١٣
 ١٥١- دائرة المعارف الإسلامية: الجزيرة
 ١٥٢- ياقوت: الجزيرة
 ١٥٣- دائرة المعارف الإسلامية: ديار بكر
 ١٥٤- دائرة المعارف الإسلامية: ديار مضر
 ١٥٥- تاريخ الموصل للأزدي
 ١٥٦- حسين العودات - العرب النصاري ٩٥
 ١٥٧- ن ٠ م

الباب الثاني
المهد الأموي

الباب الثاني

العهد الأموي

١- الأمويون في عصر الخلفاء الراشدين

عرف الأمويون كيف يكسبون ثقة الخليفتين أبي بكر وعمر في فتوحات الشام، ويحتفظون بمركزهم الرفيع في إدارة شؤون إقليم الشام، فبينما ساءت العلاقات بين الخليفة عمر والقائدين خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، إذ عزل الأول عن قيادة الجيوش، وحاسب الثاني حساباً شديداً ولم يتح له أن يدعم نفوذه في مصر، نجد أبناء البيت الأموي يزداد مركزهم في عهد عمر في الشام، وهذا أمر لم يحظ به غيرهم. وحين توفي يزيد بن أبي سفيان عام ١٨هـ، عهد الخليفة عمر إلى معاوية بأن يخلفه فيما كان له ففتح المدن الساحلية في الشام والتي عجز من قبله عن فتحها وكان ما أوصى به أبو سفيان وهند ابنهما معاوية يدل بوضوح على آمال الأمويين في البقاء عمالاً على إقليم الشام. وقد حدث أن عمرو بن العاص نظم معاوية على وجهه في مجلس عمر ليصرفه عن ذكر شيء قد يؤثر على موقع عمرو عند الخليفة، فاستاء عمر بن الخطاب من عمرو ابن العاص، فأمر معاوية أن يقتص لنفسه، ولكن معاوية أجاب: «إن أبي أمرني أن لا أقضي أمراً بدونه». فأرسل عمر إلى أبي سفيان الذي أجاب عمر حين حضر: «ألهذا بعثت إلي أخوه وابن عمه، وقد أتى غير كبير، وقد وهبت له ذلك». وحين خرج معاوية في موكب حافل لاستقبال عمر في الشام، فأعرض عنه عمر، فسار معاوية راجلاً إلى جوار الخليفة، فلما سأل الخليفة عما دعاه إلى الخروج في هذا الزهو والموكب الحافل، أجاب معاوية «لأننا في بلاد لا تمتنع فيها من جواسيس للعدو، ولا بد لهم مما يرهيبهم من هيبه السلطان، فإن أمرتني بذلك أقمت عليه، وإن ذهبتني عنه انتهيت». وهكذا استطاع معاوية بلباقته التي افتقر إليها غيره من الولاة أن يفوز برضى الخليفة إذ أجابه عمر: «لئن كان الذي تقوله صحيحاً فإنه رأي أريب، وإن كان باطلاً فإنه خدعة أريب، وما أمرك به، ولا أنهاك عنه».

هكذا دعم الأمويون نفوذهم في هذه المرحلة الأولى في صدر الإسلام في الحملات التي بعثها الرسول ثم أبو بكر وعمر إلى الشام ففتحوا الشام ومكنوا لأنفسهم فيها. واسترعى علو شأنهم المقرزي حيث يقول: «فأنظر كيف لم يكن في عمال رسول الله ﷺ ولا في أعمال أبي بكر وعمر أحد من بني هاشم» «وهذا وشبهه هو الذي حد أنياب بني أمية وفتح أبوابهم». ولما تولى الخلافة عثمان بن عفان الأموي بعد وفاة عمر بن الخطاب سنة ٢٣هـ أتيح للأمويين تثبيت دعائمهم في الشام وقد حاول معاوية حين وفد على عثمان سنة ٢٤هـ في الاضطرابات ضده، أن ينقله معه إلى الشام، ويكون بذلك قد انتقلت الخلافة من الحجاز إلى دمشق. فرفض عثمان. ولكن بعد أن قتل عثمان وخلفه علي بن أبي طالب نقل علي الخلافة إلى الكوفة إذ لم تعد المدينة مركز قوة^(١).

كان معاوية بن أبي سفيان أميراً للشام ولاء عمر بن الخطاب خلاً لأخيه يزيد بن أبي سفيان الذي توفي عام ١٨هـ ثم أبقاء عثمان في ولايته وبعد أن توفي عمير بن سعد ضم إليه الخليفة عثمان حمص وقطرسين والجزيرة الفارتية (لأنها كانت تتبع حمص) وذلك لسنتين من إمارة عثمان. أي عام ٢٥ أو ٢٦هـ لأن خلافة عثمان بدأت في المحرم سنة ٢٤هـ^(٢). افتتح معاوية قبرص سنة ٢٨هـ^(٣) وألف أسطولاً بحرياً وحقق انتصاراً باهراً في غزوة ذات الصواري سنة ٣٤هـ (٣) وغزا مضيق القسطنطينية ومعه زوجه عاتكة^(٤).

وحين قتل عثمان سنة ٣٥هـ (خلافته ٢٤. ٣٥هـ)، ولي معاوية حبيب بن مسلمة بن مالك على حمص وقطرسين، ثم وجهه إلى أرمينية والياً عليها فمات بها سنة ٤٢هـ^(٥) في خلافة معاوية. ثم ولي معاوية الجزيرة والثغور مروان بن الحكم مدة، ثم أشخصه إلى دمشق^(٦) وفي فترة الخلاف بين معاوية وعلي بن أبي طالب (٣٥. ٤٠هـ) ولي معاوية الضحاك بن قيس على ما في

حكمه من بلاد الجزيرة وهو: حران والرها والرقعة وقرقيسيا. وكان مقره حران^(٧) والضحاك من صفار الصحابة^(٨) وقيل أنه كان يقدم رجالاً ويؤخر أخرى (أي أنه كان متردداً). وكان تابعاً مخلصاً لمعاوية فعمل معه كصاحب الشرطة ثم حاكماً لجند دمشق^(٩) وقتل في معركة مرج راهط^(١٠).

كان معاوية عاقلاً في دنياه، لبيباً عالمناً حليماً، ملكاً قوياً، حسن التدبير لأُمور الدنيا، عاقلاً حكيماً فصيحاً، بليغاً، يحلم في مواضع الحلم، ويشدد في مواضع الشدة، إلا أن الحلم كان أغلب عليه وكان كريماً باذلاً للمال محباً للرئاسة مشغولاً بها. وكان يفضل على أشراف رعيته كثيراً، فلا يزال أشراف قريش يفدون عليه دمشق فيكرم مثواهم ويحسن قراهم ويقضي حوائجهم. ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ويحابهونه أقبح الجبه، وهو يدايعهم تارة ويتغافل عنهم أخرى، ولا يعيدهم إلا بالجوائز السنية والصلوات الحسنة وبمثل هذه السيرة صار خليفة العالم، وخضع له من أبناء المهاجرين والأنصار كل من يعتقد أنه أولى منه بالخلافة وكان أدهى الدهاء وقال فيه عبد الملك بن مروان: ((رجل)) كان والله فيما علمته ينطق عن علم، ويسكت عن حلم. كان إذا أعطى أغنى وإذا حارب أقتى^(١١).

وسيجيئ فيما بعد كيف حاول المأمون ثم المعتضد العباسيان أن يحطوا من قيمة معاوية في العالم الإسلامي ومن المحبة له في الشام والعراق والحجاز رغم مرور مدة طويلة على وفاته، ففشلا في ذلك

٢. النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان

قتل عثمان عام ٢٥هـ وخلفه علي بن أبي طالب وبويع بالخلافة وكان لـين عثمان بعد حزم عمر بن الخطاب هو العامل الأول الذي سمح تقريش أن تتساح في الأمصار، وأن يكون كل فرد طامع منها، لنفسه ((شيعة)) وأن يثري بطريقة أو بأخرى، وهكذا بدا عثمان في أنظار المسلمين إنساناً مستضعفاً، ووقف وحده بعد أن تخلى عنه معظم أهل المدينة. وقد وجهت لعثمان اتهامات كثيرة على رأسها إيثاره لقرباته الأمويين بالمال والولايات، مع أن الرسول ﷺ كان قد سبق ووثق بهم قبل عثمان وولاهم وكذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وإلى جانب ذلك فقد وسع عثمان على الرعية في أرزاقهم بعد عمر بن الخطاب. وكان مقتل عثمان ضرباً من ضروب الهول ولعبت الاشاعات والتهاويل دوراً كبيراً في ذلك.

لم يكن بين مقتل عثمان وبيعة العهد لعلي سوى ليلة أو ثلاث ليال. وكان ممن بايعوه، المجموع من الذين شاركوا في الثورة وقتلوا عثمان ومن بينهم ٢٠٠ شخص من أهل الكوفة و١٥٠ من أهل البصرة و٥٠٠ - ٧٠٠ من أهل مصر (أنساب البلاذري ٥٩/٥). ولم يكن باستطاعة علي أن يقتل قتلة عثمان ومعرضيهم قبل المبايعة لاتعدام سلطته حينذاك ولا بعد المبايعة إذ تجاوز عددهم الحصر وتمسك معاوية بأنه لن يبايع قبل عقاب القتلة، ونصب نفسه مطالباً بدم عثمان في الشام، كما كثر عدد المطالبين بدم عثمان في البصرة وضعف نفوذ المدينة.

عزل علي ولاية عثمان وفيهم معاوية بن أبي سفيان والذي كان قد ولاه عمر بن الخطاب وليس عثمان، وانطلق علي من المدينة إلى البصرة ليقمع تمرد طلحة والزبير وعائشة وانتصر في معركة الجمل وكان معاوية قد أحكم الدعاية لتغطيته في الشام وغيرها وظل متشبهاً بطلبة تسليم قتلة عثمان إليه كولي للمقتول بحسب نص القرآن، وقتلة عثمان موجودون في جيش علي ولكن يصعب تحديد أشخاص أولئك القتلة بالذات، فأصبحت الحرب لذلك لا مناص منها^(١٢).

كانت الجزيرة مجالاً للمناوشات الأولية وكانت الجزيرة عثمانية. وقد حرص معاوية على أن يجعلها من حيث الولاء امتداداً للشام وظلت الشام والجزيرة تؤلفان وحدة إدارية زمن الأمويين بحيث ان القوم اذا ذكروا أهل الشام ذكروا معها أهل الجزيرة (البلاذري، انساب قسم ٣ ص ١١١).

سار علي بن أبي طالب إلى البصرة سنة ٣٦هـ وفيها حدثت وقعة الجمل انتصر فيها على طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين وكانوا قد تمردوا عليه وانكروا بيعته ثم انتقل منها إلى الكوفة في نفس السنة. وأقام فيها واستعمل العمال ومن بينهم الاشتر الذي ولي على الموصل ونصيبين وداراً وسنجار وأمد وهيث وعانات وماغلب عليه من أراضي الجزيرة. وبمط معاوية بن أبي سفيان الضحاك بن قيس على ما في سلطانه من أرض الجزيرة وهو: حران والرقعة والرها وقرقيسيا.

خرج الاشتر وهو يريد الضحاك بن قيس بحران، فلما بلغ ذلك الضحاك بعث إلى أهل الرقة فأمدوه وكان جل أهلها يومئذ عثمانية، فجاؤوا عليهم سماك بن مخزومة، وأقبل الضحاك يستقبل الاشتر، فالتقى الضحاك وسماك بن مخزومة بمرج مريتا بين حران والرقعة فرحل الاشتر حتى نزل عليهم فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كان عند المساء وكان ذلك عام ٣٦هـ، وهزم الاشتر، فرجع الضحاك بمن معه، فسار ليلته كلها حتى أصبح بحران فدخلها، وأصبح الاشتر قرأى ما صنعوا فتبعهم حتى نزل عليهم بحران فحصرهم وأتى الخبر معاوية فبعث إليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد في خيل يغنيهم، فلما بلغ ذلك الاشتر كتب كتابه، وعيى جنوده وخيله، ثم مضى الاشتر حتى مر على أهل الرقة فتحرزوا منه، ثم مر على أهل قرقيسيا فتحرزوا منه، وبلغ عبد الرحمن بن خالد انصراف الاشتر فانصرف^(١٣).

سار علي من الكوفة إلى صفين في شوال سنة ٣٦هـ فاجتاز في سيره المدائن ثم أتى الأنبار ثم سار حتى نزل الرقة، ففقد له هناك جسر فعبّر إلى الشام^(١٤) (أي إلى الضفة اليمنى من الفرات) ومنها إلى صفين.

كان كل من جيش علي ومعاوية يضم حوالي ١٥٠ ألفاً. وجرت التعبئة على أن كل قبيلة في الجيشين تقف اختها مقابلها في الجيش الآخر وتقاتل الجيشان في معركة صفين بكل صنوف الأسلحة وبمنتهى الشدة حتى بالحجارة ثم تحاجزوا. استمر هذا النوع من القتال ثلاثة أيام وثلاث ليال مع اقامة طويلة زادت على مئة يوم حتى بلغ بهم الأنهاك والفتور لا سيما أنهم لم يكونوا يرجون الثواب لأنهم كانوا مسلماً يقاتل مسلماً، ولا يأمنون أن يتعرضوا لهجوم ثار من الأمم التي سبق أن غلبوها، لذلك كان رفع المساحف على رؤوس الرماح والاحتكام إلى القرآن سرعان ما وافق رضا الطرفين ولم يعترض عليه أحد.

جرى الاتفاق على اختيار حكمين يمثلان الطرفين وانتهى بهما الأمر إلى أن يكون الأمر شورى بين المسلمين لمن يولون عليهم وبذلك انتهى الأمر إلى خلافات أكبر، وافترق الجيشان وعاد كل شيء إلى وضعه الأول.

٣. خلافة معاوية

اختلف جماعة علي عليه، واعتمد معاوية على الزمن في حل الأمور وأدت الأحداث إلى اغتيال علي بن أبي طالب ومحاولة فاشلة لقتل معاوية بن أبي سفيان وتنازل الحسن بن علي بعد أن قبض مبعوثاً من المال على أن يستخلف بعد معاوية، وبويع معاوية بالخلافة سنة ٤١هـ وسميت تلك السنة ((السنة الجامعة)) وسرى حكمه على جميع الأقطار الإسلامية^(١٥). وأصبحت دمشق عاصمة للخلافة الإسلامية الجديدة التي تحولت إلى ما يشبه الملكية بعد أن هجرت المدينة عاصمة الخلافة القديمة واغتيل الخلفاء الثلاثة السابقون: عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب عليه السلام، وفشلت محاولة اغتيال معاوية بن أبي سفيان.

١) حرب الثغور في عهد معاوية

كانت أعمال الرباط والمثاغرة في تاريخ العرب النضالي، من أجلّ وأنبيل الأعمال لأنها تزود عن الدين وعن الوطن والذين كانوا يقومون بها كانوا يرغبون في الاستشهاد في سبيل ذلك. وكانت الرباطات والثغور في مواقع قريبة جداً من أماكن توضع العدو وعلى تماس مباشر معه وانضمت إلى هؤلاء الرباطين، الجيوش العربية النظامية في حروب دعت بالصوافي (التي كانت تجري صيفاً) والشواتي (التي كانت تجري شتاءً)، وإن كانت الصوائف هي الأكثر حدوثاً لأن المعارك كانت تجري في المناطق شديدة البرودة وانتي تكثر فيها الأمطار والثلوج والجليد وكان العرب يفضلون أجواء الصيف لملاءمتها لطبيعتهم واستعدادهم البدني وكانت الدولة هي التي تقوم ببناء هذه الأربطة (التي قد تصبح مدناً فيما بعد) وإن كان المتطوعون أحياناً يقومون ببناء بعض الأربطة. وكانت بلاد الشام (بما فيها الجزيرة الفراتية) هي السبابة في هذا المجال لمجاورتها للدولة البيزنطية، وهي على ما هي عليه من القوة والخبرة الحربية.

لاشك أن نظام الصوائف والشواتي الذي كان معمولاً به طيلة خلافة بني أمية كان عبارة عن تمرينات ومناورات جماعية جعلت مقاتلة الشام أكفأ المقاتلين، ولكن هذا لم يمنع الراغبين في الجهاد من الاشتراك في هذه الحملات، من الزهاد والعباد والصالحين، وبالإضافة إلى اشتراك الجزيرة في الصوائف والشواتي كانت البعوث تقرض أحياناً على أهل المدينة وغيرها كما فعل الوليد بن عبد الملك في المدينة سنة ٨٨ هـ وهشام بن عبد الملك سنة ١٠٦ هـ^(١٦).

كانت الصوائف تبدأ في منتصف فصل الصيف، وكانت معاركها على الأغلب رهبة عنيفة يكثر فيها الكر والفر وتطول مدتها وتكثر مياديتها. وكان المسلمون يصمدون ويغتمون ويحصنون ثغورهم ويحصدون القمح والحبوب ويعودون. أما في الشواتي فقد كان العرب ينتهزون فرصة تعطل الحركة في بلاد البيزنطيين نتيجة الثلج المتراكم على أرضها وقلة التموين ونفاذه، فيندفعون إلى أرض العدو حيث يجدونه أضعف ما يكون نفساً، ودوابه أكثر ما تكون جوعاً وهزالاً. ويكون الجنود العرب قد حملوا معهم مؤنهم ومؤن خيولهم فإذا أشرف التموين على النفاذ عادوا لبلادهم.

وحين كان معاوية أميراً على الشام من قبل عثمان بن عفان سنة ٢٥ هـ غزا الروم حتى عمورية بجيش من الشام والجزيرة^(١٧). وفي العام نفسه غزا حبيب بن سلمه أرمينية، وأسكن قاليقلا في أرمينية أنفي رجل من أهل الشام والجزيرة وأقطعهم بها القطائع وجعلهم رابطة بها^(١٨) ثم أن حبيب أعاد فتح ملطية، وربط فيها رابطة من المسلمين من أهل الشام والجزيرة وغيرها فكانت طريق الصوائف^(١٩) وذلك كله من قبل معاوية بن أبي سفيان أثناء ولايته من قبل عثمان ابن عفان.

عمل معاوية على احتلال المدن الساحلية في بلاد الشام التي عجز أخوه يزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص عن احتلالها، ثم كون الأسطول البحري القوي، وانتصر في معركة ذات الصواري البحرية سنة ٣٤ هـ وحاول بعدها أن يحتل القسطنطينية وبدأ باحتلال جزر البحر الأبيض المتوسط كي تكون له السيطرة على هذا البحر، ويقضي بذلك على الدولة البيزنطية كما قضى من قبل على الدولة الفارسية، كي تبقى دمشق في مأمن من أي عدوان.

استمال معاوية في الشام القبائل اليمنية أو عرب الجنوب، وكانت أغلبية في بلاد الشام لأنها استوطنتها قبل الإسلام، ولأنها اعتادت على الطاعة، وخاصة منها قبيلة كلب التي كانت أقوى القبائل في الشام ولأنها ورثت مجد الفساسنة، وكان رجالها يملكون غوطة دمشق ومنطة

جنوب جبل حوران وواحة دومة الجندل وتبوك، وبذلك كانت لهم السيطرة على الطرق التجارية وعلى الينابيع المائية، وقد أدرك هذا من قبل عثمان بن عفان فتزوج امرأة من بينهم تدعى نائلة، وكذلك فعل معاوية إذ تزوج ميسون بنت بحدل أحد سادة قبيلة كلب. وقد خدم اليمينيون أيضاً في الميدان البحري، وكان لليمنيين - بما فيهم قبيلة كلب - علاقة ودية مع الآراميين (سكان الشام الأصليين)، ولذلك سكن العرب الذين وفدوا أخيراً في العهد الإسلامي في الشام نفسها، وليس في معسكرات جديدة كما حدث في الكوفة والبصرة في العراق.

أعد معاوية القوات اللازمة لغزو القسطنطينية ودربها أحسن تدريب وأعد السفن اللازمة وذلك سنة ٤٩هـ، وولى القيادة لابنه يزيد بن أبي سفيان ورافق معه الصحابي الجليل أبا أيوب الأنصاري الذي مات وهو في حصار القسطنطينية ودفن قرب أسوارها، وظل قبره يثير حمية المسلمين لاحتلال القسطنطينية، وظل محل تكريم المسيحيين المقيمين بالقرب منه، وتكريم المسلمين أيضاً. وعندما افتتح العثمانيون القسطنطينية سنة ١٤٥٣م بنوا عنده مسجداً وفي صيف سنة ٤٩هـ (٦٦٩م) رفع المسلمون الحصار عن القسطنطينية بعد أن أثبتوا للبيزنطيين أن عاصمتهم ليست بعيدة المنال عن قوات الاسلام، وبدأ البيزنطيون يفقدون الأمل بإمكان استرجاع بلاد الشام ومصر. ثم حدثت حرب السنوات السبع ٦٠٥هـ - ٦٧٤-٦٨٠م وفيها حوصرت القسطنطينية أيضاً واحتلت جزيرة ارواد، واشترك يزيد بن معاوية في القتال واستعمل البيزنطيون النار الغريقية، وكان لها بعض التأثير وليس كله، وانسحب المسلمون بأمر من معاوية وقد دنا أجله^(٢٠).

يقول ميخائيل السوري: أن هيبة معاوية سادت في كل مكان، وفي تلك الفترة من التاريخ لم يعد المسلمون يتطعمون إلى مزيد من الفتوحات لأقطار مثل الشام أو مصر أو فارس. أما تلك الاقطار التي سبق فتحها فقد اعتبرت أجزاء من صلب الدولة. وحول تلك الدولة المترامية الأطراف وجدت أقاليم مدت الدولة إليها نفوذها وقد جمع بينها الزهو بالانتماء إلى هذه الدولة الظاهرة المجيدة مع الحفاظ على الطابع القومي الخاص. وتتابع الصوائف عاماً بعد عام طالما كانت حالة الدولة الإسلامية في الداخل مستقرة وتسمح بذلك^(٢١).

بعد عودة القوات الإسلامية من حصار القسطنطينية المعروف بحرب السنوات السبع، انفجرت الاحداث في جوف العالم الإسلامي وأثرت في مجرى الحرب مع الامبراطورية البيزنطية، وتوفي الخليفة معاوية بن أبي سفيان (٦٠٤-٦١٠هـ)^(٢٢) و تولى الخلافة بعده ابنه يزيد ابن معاوية (٦١٠-٦٢٠هـ).

٢) انشقاق الدولة الأموية

نازع يزيد بن معاوية عرش الخلافة كثير من كبار رجال الدولة الإسلامية، ومن ثم توقفت حملات المسلمين على أرض الدولة البيزنطية فترة مداها خمسة عشر عاماً صرفها أبناء البيت الأموي في تدعيم سلطنتهم على عهد يزيد بن معاوية إلى ثلاثة جهات هي:

١. الشام الباقية على الولاء لبني أمية.
 ٢. العراق حيث كانت الحركة لاقامة خلافة علوية.
 ٣. بلاد الجزيرة العربية وكانت تريد إقامة خليفة عربي منتخب وفق نظام الشورى.
- استطاع يزيد ان يضم العراق إلى بلاد الشام بعد معركة كربلاء ومقتل الحسين بن علي بن أبي طالب فيها، إذ أنهارت آمال أهل العراق في إقامة خلافة علوية، ودخلوا في البيعة لبني أمية

مرة أخرى، ثم اتجه يزيد بعد ذلك إلى إقليم الحجاز الذي نادى بخلافة عبد الله بن الزبير ورفض اعلان ولائه لبني امية. وعجز يزيد عن القضاء على ثورة ابن الزبير.

٤) الخلافة بعد يزيد

خلف يزيد بن معاوية في سنة ٦٢ هـ ابنه معاوية الثاني بن يزيد، وكان حدثاً ضعيفاً ومريضاً ولم تستمر خلافته أكثر من أربعين يوماً توفي بعدما عجز عن مواجهة الموقف وانقسمت القبائل العربية في بلاد الشام إلى طرفين متناقضين هما: اليمينيون أو عرب الجنوب، وعلى رأسهم قبيلة كلب، الموالية لبني امية، والقيسيون أو عرب الشمال؛ وهم موالون لعبد الله بن الزبير. وأصبح الأمويون مهدين بالزوال ولم يكن في البيت السفيناني من يقدر على تولي الموقف فاختر ابناء البيت الأموي احد كبار رجالاتهم وهو مروان بن الحكم، وكان يقيم بدمشق، واشتهر رغم شيخوخته بالدهاء والبراعة، فاستمال إليه خالد بن يزيد بن معاوية، بأن وعده بولاية العهد من بعده ثم كسب أيضاً خال خالد بن يزيد وهو حسان بن بحدل زعيم قبيلة كلب، وبذلك قوي مركز مروان تجاه القيسية التي كان زعيمها الضحاك بن قيس الفهري الذي نصب نفسه والياً على دمشق من قبل عبد الله بن الزبير، فسار مروان على رأس حلفائه إلى دمشق وخرج القيسيون للقاءه في سهل مرج راهط شمال شرقي دمشق، وجرى القتال بين الطرفين وانتصر مروان وبذلك بعث في الخلافة الأموية نشاط جديد وذلك في المحرم سنة ٦٥ هـ آخر سنة ٦٤ هـ^(٢٢).

دامت المعركة عشرين ليلة، فقتل الضحاك وقتل من قيس مقتلة لم يقتل مثلها في موطن قط وكانت الواقعة في المحرم من سنة ٦٥ هـ وقيل بل كانت في اخر سنة ٦٤ هـ.

ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحارث الكلأبي بقنسرين هرب منها فلحق بقرقيسياً وعليها عياض الحرشي، وكان يزيد ولاه إياها، فطاب منه أن يدخل الحمام ويحلف بالطلاق والعناق على أنه حين يخرج من الحمام لا يقيم بها، فأذن له أن يدخل المدينة فدخلها، فغلب عليها وتحصن بها، ولم يدخل حمامها، فاجتمعت إليه قيس.

رأى شيعة الكوفة بعد مقتل الحسين سنة ٦١ هـ وتخلفهم عن دعمه أن غسل عارهم لا يتم إلا بقتل قتلته أو الموت دون ذلك ولذلك سمو بالتوأين. وتزعم حركتهم سليمان بن صرد الخزاعي وسعوا لجمع شمل المناصرين من الشيعة منذ سنة ٦١ هـ إلى سنة ٦٤ هـ حين توفي يزيد بن معاوية. وكانت العراق في يد عبد الله بن الزبير فشجع عامله عليها الشيعة على تنفيذ ما يخططون له. وخرج ابن صرد ومن اجتمع إليه إلى قبر الحسين، ثم إلى قرقيسيا، وكانت بيد زفر بن الحارث الكلأبي الخارج على الأمويين، فآكرمهم وأخبرهم بقدوم عبيد الله بن زياد من دمشق إلى العراق (وابن زياد هذا هو الذي أشرف على قتل الحسين) ونصحهم أن يسيروا إلى عين وردة لملاقاته.

أوفد عبيد الله بن زياد قائده الحصين بن نمير لقتال سليمان بن صرد ومن معه، وانتهى القتال بهزيمة صرد في عين وردة سنة ٦٥ هـ.

كان المختار بن أبي عبيد الثقفي ممن ناصر الشيعة لغاية في نفسه، وكان أبوه ابو عبيد الثقفي هو الذي استشهد في الحرب مع الفرس. ثم انضم المختار إلى ابن الزبير في الحجاز، ثم علم أن أهل الكوفة أخرجوا عامل عبيد الله بن زياد (الأموي) منها، فرجع إلى الكوفة وهو يأمل أن يجمع حوله الشيعة وأن يظفر بالخلافة، وكان الشيعة يبحثون عن زعيم جديد، ووجدوا ضالتهم في المختار الذي كان يدعي أنه موفد من محمد بن الحنفية إلى الكوفيين واستطاع المختار أن يضم إليه ابراهيم بن الاشتر من قواد علي بن أبي طالب.

٥) استعادة وحدة الدولة الأموية وتعريب دواوينها

مات مروان بن الحكم سنة ٦٥هـ وخلفه ابنه عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ).

كان عبد الملك بن مروان قد أرسل عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير، ومعهما أربعون ألفاً وواقعاً إبراهيم بن الأشتر في معركة حاسمة عند نهر الخازر على بعد خمسة فراسخ من الموصل، قتل فيها عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير سنة ٦٧هـ، وكان عبيد الله بن زياد قد شغل قبل ذلك بقتال زفر بن الحارث مدة تقارب السنة.

استولى المختار بذلك على قسم من بلاد الجزيرة، وبقي بيد عبد الملك بن مروان ديار مضر وفيها الرقة وحران وغيرهما بما فيها من النزاع بين قيس وتغلب واليمانية، ولكن أشراف الكوفة نقموا على المختار الثقفي لأنه قرب إليه مواليهم، فاستجدوا بمصعب بن الزبير والي العراق من قبل عبد الله بن الزبير فواقعوه وانتهى بقتله سنة ٦٧هـ.

شغل عبد الملك بن مروان عنهما بقتال مصعب بن الزبير، وتغلب عمير بن الحباب بن جعدة السلمي على تصيبين، ثم أنه ملّ المقام بقرقيسيا، فاستأمن إلى عبد الملك فأمنه ثم غدر به فحبسه عند مولاه الريان، ففر من الحبس، وعاد إلى الجزيرة، ونزل على نهر البليخ بين حران والرقة، فاجتمعت إليه قيس، فكان يغير بهم على كلب واليمانية (أنصار الأمويين)، وكان من معه يسيئون جوار بني تغلب، ويسخرون من مشايخهم من النصارى، فهاج بينهما شر لم يبلغ الحرب، وذلك قبل مسير عبد الملك بن مروان إلى مصعب وزفر (وكانت قيس زبيرية وتغلب مروانية).

ثم إن عميراً أغار على كلب ثم رجع فنزل على الخابور، وكانت تغلب بين الخابور والضرات ودجلة، ثم قتل رجل تغلبي بسبب غنيمات لإمرأة ناكح في تغلب، فثار التغلبيون وأغاروا على بني الحريش (أصحاب عمير) ومعههم قوم من نمير (من قيس) وقتلوا فيهم. واستحكم الشر بين قيس وتغلب وجرى بينهما أيام.

ولما أراد عبد الملك أن يسير إلى مصعب بن الزبير، اتجه إلى قرقيسيا، ونصب عليها المجانيق. ولكن زفر خرج إلى العراء وحاربه، ولم ينتصر عبد الملك، فعرض على زفر وابنه الهذيل الأمان على أنفسهما ومن معهما ومالهما، وأن يعطيا ما أحبا، وعلى أن لا يعين زفر عبد الملك على قتال ابن الزبير وذلك كله عام ٧١هـ^(٢٩).

يبدو للوهلة الأولى أن هذا الصلح مع زفر بن الحارث كان نصراً كبيراً لزفر الذي حصل على ما يريد دون أن يقدم معونة مقابلة لعبد الملك، ولكن الحقيقة أن عبد الملك كان سياسياً محنكاً ويدرك أيضاً قيمة الوقت، فإنه بهذا الصلح:

١. تفرغ لقتال مصعب بن الزبير (صديق عبد الملك القديم) الذي كان يحاول الحصول على الخلافة لآخيه عبد الله بن الزبير وبذلك أمن جانب زفر الذي عرف بميله لابن الزبير. وانتهى الأمر بمقتل مصعب بن الزبير في العام ٧١هـ، ثم قتل عبد الله بن الزبير بعد ذلك على يد الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٧٣هـ.

٢. حصل عبد الملك على انضمام قبيلة قيس العظيمة وكثيرة العدد إلى جيش الشام بعد أن كانت نائية عنه. وكان هذا الجيش يقتصر على القبائل اليمانية، لأن زفر بن الحارث كان زعيم قبائل قيس في شمال بلاد الشام، وكان عبد الملك فيما بعد شديد الاكرام لزفر حتى أنه قبل اجارته لشخص بعد أن رفض إجارة الحجاج بن يوسف الثقفي.

٣. حاول القيسيون في هذه النزاعات اخراج تغلب من أراضيهم الخصبة في الجزيرة بعد أن طردوا كلباً من قسم من أراضيهم وقد عمد عبد الملك إلى إيقاف هذا الصراع خوفاً من الخطر البيزنطي ثم قرر ادماج الموصل بولاية الجزيرة كي يتمكن والي الجزيرة من حصر الصراع، وكان الوالي حينئذ هو محمد بن مروان أخو عبد الملك وذلك سنة ٧٣ هـ.

كانت اليمانية مستوطنة في الشام قبل الاسلام بينما كانت قيس حديثة العهد بالهجرة وزادت الخصومة بين الطرفين حين صاهرت كلب عثمان بن عفان ثم معاوية بن أبي سفيان، فامتلاّت قلوب قيس بالحسد وانضموا إلى ابن الزبير بعد وفاة يزيد بن معاوية، وحافظت كلب (اليمانية) على ولائها للامويين. وادى التعصب الأموي لليمانيين على حساب القيسيين إلى تضعف نفوذ القيسيين مع أنهم اصحاب الفتوح واشتهروا بسد الثغور الرومية مما جعلهم يغيضون بني أمية . وكان لحسان بن مالك بن بحدل الكلبي، خال يزيد بن معاوية، مركز قوي من الدولة إذ كان العماد الأكبر لمعاوية الثاني، كما كان أخوه سعيد بن مالك بن بحدل الكلبي أميراً على قنسرين وتسكنها قيس، فوثب أفرادها عليه وأخرجوه منها وكانت قيس موطورة في معركة مرج راهط ولذلك كانت فيما بعد هي السابقة في الهجمات على كلب التي كانت في موقع الدفاع، واشتركت مع قيس في تلك المعارك قبائل: عامر وسليم وغني وبأهلة. وقاتلت كلب وحدها من اليمانية ثم انضمت إليها تغلب ومما يذكر أن عرب خراسان وشمال فارس وخاصة تميم كانوا من عرب الجنوب أي اليمانية أما القيسية (أو العدنانية أو النزارية) فهم عرب الشمال فهم أكثر عدداً وأغلبهم بدو، في حين أن اليمنية (أو القحطانية أو الكلبية أو الأزديّة) وهم عرب الجنوب سكان السواحل والجبال في الأكثر، وكانت بلادهم أكثر خصباً كما كانت مركزاً تجارياً بين الهند وفارس وشرقي أفريقيا وبين آسيا وشمال أفريقيا وأوروبا، ومن هنا كانوا أرقى ثقافياً لاحتكاكهم بالثقافات الحبشية والفارسية والهندية، فضلاً عما استفادوه من هجراتهم وقد أقاموا دولا متعددة، كما خضع المناذرة لنفوذ الفرس، والغساسنة لنفوذ الروم، بينما كان عرب الشمال لم يؤسسوا أية دولة قبل ظهور الاسلام ولم يألفوا الخضوع لحكم اجنبي. وان تعود عرب الجنوب الخضوع للحكم الاجنبي (الأحباش والفرس والروم) يفسر استعانة الأمويين بهم إلى حد بعيد^(٣٠) وقد ناصر عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف القيسية بينما ناصر سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد بن عبد الملك اليمانية، واعتمد مروان بن محمد آخر خليفة أموي على القيسية بينما ناصر العباسيون اليمانية على القيسية^(٣١).

ملاحظات:

استمرت هجرة القبائل العربية من جزيرة العرب للاستيطان في الجزيرة الفراتية وتغير توزيعها عما كان عليه.

استمرت الصلة قوية بين قيس الجزيرة وقيس نجد، وبين كلب الشام حاضره وباديه.

تزايد عدد قيس بعد الفتوح الإسلامية، وانتشرت في العراق والجزيرة والشام، وهاجر بعضهم إلى مصر واستوطنوها واشغلوا فيها بالزراعة في عهد هشام بن عبد الملك وقد تغلبت قيس فيما بعد على كلب وتغلب يقول ابن سعيد الأندلسي ٦١٠ - ٦٨٥ هـ ((ولم يبق الآن من ربيعة طائل، على ما كان فيها من الكثرة العظيمة، وتفرقت بطونها في الحواضر والدارات. ولقد دوخت بلاد ربيعة بالجزيرة الفراتية فلم أجد فيها من يركب فرساً من تغلب ولا بكر، ولا لهم قائمة وقد

صارت دولة العرب هناك لزييد من طيء ولعبادة بن عقيل المضرية وتغلب ويكر دخلوا في الفلاحين وأنمحو عنهم اسم العرب ((٣٧).

- حاول العباسيون (الخليفة الواثق) على يد بغا كبح جماح قيس في الجزيرة العربية(٣٨) وقد ازدادت هجرة القيسيين إلى الجزيرة وشمال الشام في القرن الرابع الهجري زيادة كبيرة (الهجرة البدوية كما سيجيء) وقد ظهرت العصبية في عشائر قيس في عدة مناسبات.

يعتبر عبد الملك بن مروان صورة حية لما تمتع به بنو أمية من نشاط وذكاء وروح الشجاعة، إذ سار على نهج سياسة معاوية وهي تدعيم الجبهة الداخلية للبلاد الإسلامية للتفرغ للبيزنطيين أعداء المسلمين وتوحيد القوى الإسلامية جميعها، فعقد هدنة مع الامبراطورية البيزنطية، التي كانت جيوشها على حدود الشام الشمالية تنتهز فرصة انشغال المسلمين بمشاكلهم الداخلية، واشترى هذه الهدنة بدفع مبلغ معين للبيزنطيين، ويعتبر هذا المبلغ تأفهاً إلى جانب ما حققه لدولة المسلمين في ظل الهدوء والأطمئنان وكان امام عبد الملك مهمات كبيرة من بينها إنهاء تمرد زهر بن الحارث في العراق والتخلص من عبد الله بن الزبير في الحجاز ومن اخيه مصعب بن الزبير في العراق ومن الخوارج في المشرق.

ارسل عبد الملك إلى الحجاز شخصية هي من اعظم الشخصيات الموالية للبيت الأموي وهي الحجاج بن يوسف الثقفي الذي استطاع ان يعيد إقليم الحجاز إلى التبعية لبني أمية بعد مقتل عبد الله بن الزبير عام ٧٣هـ وبذلك هاجر كثير من مسلمي الحجاز إلى بلاد الشام لينضموا إلى حملات الأمويين المضفرة والتي كانت تعد مرة أخرى لإستئفاف الجهاد ضد البيزنطيين.

كان الامبراطور جوستيان الثاني قد اغتتم فرصة انشغال عبد الملك بالاضطرابات الداخلية فاعتدى على اراضي الدولة الإسلامية، واعتمد في ذلك على جماعة الجراجمة المقيمين في جبال اللكام دون الالتجاء إلى خرق المعاهدة مع عبد الملك التي سبق أن عقدها معه وقبض منه الثمن، ولكن عبد الملك بن مروان كان أذكى منه بكثير، إذ جدد المعاهدة معه وأضاف اليها تعهد الامبراطورية بإبعاد الجراجمة (المردة) من مناطق التخوم الإسلامية مقابل دفع الف دينار سنوياً، وظن جوستيان أنه قد حقق ربحاً عظيماً. وبدأ بنقل ١٢,٠٠٠ من الجراجمة إلى رومانيا، وبعضهم إلى تراقيا، وتشتتت البقية الباقية منهم ودخلت آسيا الصغرى، وكانت الدولة البيزنطية تنظر إلى الجراجمة نظرة شك وريبة لأنهم كانوا على المذهب المونوفيزيقي المفاوض لهم، ولذلك وطمعاً بما يحصل عليه الامبراطور من المال كجزية، ابعد الجراجمة عن حدود المسلمين إلى الأبد وحطم بذلك هذا السhtar الحديدي الذي كان يقف دائماً في وجه الجيوش الإسلامية.

وحين تبين جوستيان خطأ الفاحش ولكي يُحلّ محل الجراجمة من يقوم مقامهم اتجه نظر جوستيان الثاني إلى العناصر السلافية الضاربة في اطراف البلقان. وكانت الدولة البيزنطية تدفع لهم ضريبة سنوية كي تحتفظ بالهدوء والسكينة في الاراضي البيزنطية التي استقروا فيها. فرأى جوستيان الفرصة مؤاتية للتخلص من التزاماته المالية، وأخذ ما يستطيع منهم واسرهم قرب سالونيك، واحلّهم محل الجراجمة في آسيا الصغرى عرضة لهجمات المسلمين في طريقهم لمهاجمة القسطنطينية.

ثم حدث النزاع بين عبد الملك بن مروان وجوستيان حول مسألة القراطيس (الورق) الذي كانت تستورده الامبراطورية البيزنطية من الدولة الإسلامية وتدفع مقابل ذلك دنانير بيزنطية. هي التي كانت العملة السائدة في البلاد الإسلامية - وكانت مصر هي التي تصدر القراطيس

للدولة البيزنطية منذ تبعتها لها قبل الفتح الاسلامي. وجرت عادة اقباط مصر على كتابة اسم المسيح وعبارة التثليث في رؤوس الطوامير او قطع الورق الكبيرة، لكن عبد الملك جعل مكان هذه الصيغة ((قل هو الله احد)).

وصلت هذه القرايطيس الجديدة إلى الامبراطورية البيزنطية وحدثت ضجة كبيرة في البلاط البيزنطي، إذ غضب الامبراطور جوستيان الثاني، وهدد عبد الملك بن مروان بأنه إذا لم يرجع الأمر كما كان فإنه سيدفع القيمة بدنانير ذهبية ويكتب عليها ما يكرهه (كتابة سيئة عن نبي الاسلام) وحينئذ كان دور عبد الملك في الغضب لا سيما ان الدنانير البيزنطية كانت العملة الرسمية للتجار في الاسواق الإسلامية مع الدول الخارجية. فنصح خالد بن يزيد بن معاوية ان يتمسك بالقرايطيس كما هي وأن يبطل العمل بالدنانير البيزنطية وان يصك دنانيراً إسلامية، فاستراح عبد الملك لذلك ورأى أن هذا يصح ليكون خطوة اساسية تصبغ الدولة الإسلامية بصيغة عربية، وخلق وحدة اقتصادية في العملة خاصة بها وهكذا صنع عبد الملك، فإنه صك دنانيراً إسلامية جديدة عليها آيات القرآن وعرفت باسم الدنانير الدمشقية وذلك سنة ٧٤/٧٥ هـ، وارسل منها في هذه السنة التزاماته المالية للدولة البيزنطية نظير ابعاد الجراجمة. فرفض جوستيان قبول هذه العملة الخالية من صورة الاباطرة البيزنطين، وأخذ يهاجم أراضي المسلمين، لكن صادف ذلك انتهاء الخليفة عبد الملك من مشاكله الداخلية كلها فزحف على قليقيا بآسيا الصغرى واصطدم عند مدينة سيواس، التي كانت تضم عدداً كبيراً من العناصر السلافية التي وضعها جوستيان في بند (ثيم) اونيكيون، وجاء الامبراطور نفسه على رأس هذه القوات لمحاربة المسلمين تحديه الآمال في الانتصار عليهم لكنه هزم وانضمت العناصر السلافية فيها إلى المسلمين لأنها كانت تحقد على الامبراطور، ثم دخلت غالبيتها في التبعية للمسلمين حين سنحت لها الفرصة في معركة سيواس، وصارت إلى جانب المسلمين أيضاً ضد من تبقى من قوات جوستيان.

عاد الامبراطور بعد هزيمته هارباً مع فلول جيشه متجهاً إلى البوسفور وكان يصحبه بعض جند السلاف ممن بقي على الولاء له ولكنه ارتكب خطأ فاحشاً مع فلول السلاف لسبب حقنه على خيانة زملائهم إذ جمعهم عند مدينة ليوكاتا وقتلهم جميعاً، وبذلك أصبح جوستيان الثاني موضع كراهية السلاف جميعاً المقيمين بسائر انحاء آسيا الصغرى وغدوا أداة مستعدة لخدمة المسلمين في أي نضال حربي ينشب بينهم وبين البيزنطيين، واستفاد المسلمون كثيراً من ذلك إذ كان السلاف على علم بدروب آسيا الصغرى والمسالك التي تصل بين مدنها المختلفة، فقاموا بوظيفة الادلاء للجيوش الإسلامية، ولذا تابعت الجيوش الإسلامية انتصاراتها وإغاراتها على مدن آسيا الصغرى دون ان تلقى جهداً كبيراً^(٣٦).

وقد ردت بيزنطة على استقلال الدولة الإسلامية الاقتصادي وخروجها من نطاق العملة البيزنطية وتأثيراتها بفرض الحصار الاقتصادي على سواحل الشام، ولكن ذلك أضر ببيزنطة أكثر مما أضر بالدولة الإسلامية لا سيما أن بيزنطة قد فقدت من قبل أغنى ممتلكاتها في الشام ومصر (العلاقات العباسية البيزنطية ٣٥٨).

٦ تعريب الدواوين

كان لعبد الملك بن مروان فضل كبير في نقل الديوان إلى العربية إذ لم يزل ديوان الشام بالرومية حتى ولي عبد الملك بن مروان فلما كانت سنة ٨١ هـ أمر عبد الملك سليمان بن اسعد بنقل الديوان فسأله (سليمان) أن يعينه على خراج الأردن سنة ففعل ذلك وولاه الأردن وذلك

لتزداد خبرته في سجلات الخراج، فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله، وأتى به عبد الملك، فدعا سرجون كاتبه فعرض ذلك عليه ففهمه وخرج من عنده كثيراً، فلقبه قوم من كتاب الروم فقال: اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فتد قطعها الله عنكم^(٣٧). ثم عريت الدواوين في بقية الاقطار العربية. كانت ملطية التي أعاد فتحها حبيب بن مسلمة ورتب فيها رابطة من أهل الشام والجزيرة، قد انتقل منها هؤلاء في أيام عبد الله بن الزبير، فخرجت الروم فشعنتها ثم تركتها، فنزلها النصراني من الأرمن والنبط^(٣٨). وفي عام ٨٣ هـ غزا عبد الله بن عبد الملك طرند (في عهد أبيه عبد الملك) وهي من ملطية على ثلاث مراحل وأغلة في بلاد الروم فنزلها المسلمون وبنو فيها مساكن وكانت تأتيهم طاعة من جند الجزيرة في الصيف فيقيمون فيها إلى أن ينزل الشتاء وتسقط الثلوج، فإذا كان ذلك قتلوا^(٣٩).

٥. خلفاء عبد الملك بن مروان

توفي عبد الملك بن مروان في سنة ٨٦ هـ وخلفه ابنه الوليد (٦٨-٩٦ هـ) وكان من أفضل خلفاء الشام سيرة عند أهل الشام، بنى الجوامع: جامع دمشق وجامع المدينة والمسجد الأقصى وأعطى المجنومين ومنعهم من سؤال الناس، وأعطى كل مقعد خادماً، وكل ضرير قائداً وفتح في خلافته فتوحاً عظيماً منها: الأندلس وكاشغر والهند، وكان شديد الكف بالعمارات والأبنية واتخاذ المصانع والضياع^(٤٠).

كان الوليد خير خلف لأبيه، وتابع الفتوحات التي بدأها أبوه ومعاوية بن أبي سفيان من قبل، واستهل بحصار مدينة طوانة مفتاح الطريق العام بين الشام والبسفور، وكان فتح طوانة (بلد بثغور المصيصة) على يد مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك وذلك سنة ٨٨ هـ، وبعد أن انتصر المسلمون، عادوا فأنهزموا. وبقي العباس ومعه نكير (عدد قليل) منهم ابن محيريز الجمحي. فقال العباس لابن محيريز: ((أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة؟)) فقال ابن محيريز: ((نادهم يأتونك)). فقال العباس: ((يا أهل القرآن!)) فأقبلوا جميعاً. فهزم الله العدو حتى دخلوا (أي المسلمون) طوانة، وشتى المسلمون بها وافتتحوها^(٤١).

وصل المسلمون إلى البسفور في سنة ٧١٣ م، ٩٤-٩٥ هـ وذلك في حملات استطلاعية تمهيداً للزحف على القسطنطينية وكان الإمبراطور البيزنطي حينئذ هو انسطاس الثاني فرأى أن يستعين بقائد بيزنطي جديد يدعى ليون من إقليم ايسوري قضى طفولته في بلد مرعش فكان على معرفة باللغة العربية والتقاليد والطباع العربية.

توفي الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ فخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩ هـ). وكانت أيامه أيام فتوح متوالية^(٤٢).

٦. حصار القسطنطينية

عمل سليمان على الإعداد للحملة بحماسة، فتحركت الجيوش الإسلامية بقيادة مسلمة بن عبد الملك سنة ٩٨ هـ فلما بلغ عمورية ضرب عليها الحصار. وكان ليون السالف الذكر يرمي إلى انتزاع الحكم لنفسه فأظهر للمسلمين أنه انضم إلى جانبهم فساعدوه على الوصول إلى القسطنطينية، وحين دخلها ناصب المسلمين العداة وانتخب فيها إمبراطوراً للروم^(٤٣).

كان للبرد الشديد وثلوج الشتاء تأثيراً سيئاً على المسلمين لم يكونوا معتادين على مثله، وقل القوت فسبب جوعاً شديداً، ودام حصار القسطنطينية أكثر من عام، وهلك جزء كبير من خيل المسلمين وحيواناتهم وجنودهم ودمر قسم كبير من أسطولهم بالعاصفة وبالنار الاغريقية وبالحرافات.

دأبت المصادر العربية على القول بأن الإمبراطور ليون خدع مسلمة بن عبد الملك وبالفؤا في ذلك إلى حد لا يمكن تصديقه على قائد مثل مسلمة وهو القائد الكبير المحنك وصاحب التجارب

الباهرة، حتى أنها ذكرت أن ليون استطاع الحصول على قوت المسلمين بالخديعة ويرضى مسلمة وهو أمر لم تورده حتى المصادر البيزنطية، وقد وصلت نجدات للمسلمين ولكنها متأخرة وتعرضت للتلف والعاصفة، كما ساهم البلغار في الهجوم على جيش المسلمين من الشمال ويقال أنهم قتلوا من المسلمين ٢٢ ألفاً. وقيل أن البطال اشترك في هذه الحرب كما سيجيء.

ومما زاد الطين بلة أن الوباء والطاعون انتشر بين جنود المسلمين^(٤٤) وفي هذه الاثناء توفي الخليفة سليمان بن عبد الملك وتولى مكانه الخليفة عمر بن عبد العزيز (١٠١-٩٩ هـ).

أرسل عمر إلى مسلمة بن عبد الملك يأمره بالعودة فرفع الحصار في ١٥ آب سنة ٩٩ هـ (٧١٨م) أي بعد أكثر من عام على الحصار ولم يصل إلى الشام من الأسطول سوى خمس سفن. ويعلق المؤرخ فيليب حتى على هذه الكارثة بقوله: لقد ضاعت الارمادا العربية. ويرى بعض المؤلفين أن حملة مسلمة هلك فيها ما يزيد عن ١٥٠ ألف رجل، وقد يكون في هذا بعض المبالغة إلا أن الخسارة كانت كبيرة في الجيش الاسلامي على أي حال^(٤٥). وكان هذا آخر هجوم كبير للعرب على القسطنطينية وفشل، وكان بداية للتغير في ميزان القوى في العلاقة بين الامبراطورية البيزنطية التي خرجت من هذه المعركة ظافرة، وكانت بداية النهاية بالنسبة لبني امية^(٤٦).

وفي سنة ١٠٠ هـ قام عمر بن عبد العزيز بترحيل أهل طرندة عنها لإشفاقه عليهم من العدو وأخبرها ثم أنزل أهلها ملطية، وهي متأخرة عن حران، وولى عليها جعونة بن الحارث من بني عامر بن صعصعة^(٤٧). وسيجيء ذكر ابنه منصور بن جعونة.

اقتضت الحال ايجاد فترة استقرار في تيار الفتوحات لتدعيم الصرح الاسلامي العظيم، إذ غدت الدولة الإسلامية تمتد حدودها من الصين شرقاً إلى الاندلس غرباً ومن بحر آرال شمالاً إلى شلالات النيل السفلي جنوباً، وأصبحت بذلك تبتدئ سائر الامبراطوريات الكبرى التي عرفها التاريخ، وتقضي اوضاعها الزمنية توجه الجهود إلى تنظيمها وتأمين رقعتها قبل الاستمرار في الفتح والتوسيع ولذلك أمر عمر بن عبد العزيز بانسحاب القوات الإسلامية من القسطنطينية بعد ان اضطرت البيزنطيون إلى التخلي عن احلامهم باستعادة سالف اراضيهم التي دخلت رقعة الاسلام. وتحققت احلام سليمان بن عبد الملك وبقية الأمويين فيما بعد على يد الاتراك العثمانيين بعد انقضاء سبعة قرون تقريباً وذلك عام ١٤٥٣م.

وقد صرفت أحداث الحصار الأموي للقسطنطينية انظار الاباطرة البيزنطيين عن التفرد لدفع المسلمين عن شمال افريقيا واعتبروا حماية هذا الإقليم في المرتبة الثانية بالقياس إلى الدفاع عن عاصمتهم، وهكذا ربح الأمويون في جهدهم ضد القسطنطينية بأن جعلوا من شمال افريقيا ركناً هاماً من اركان الدولة الإسلامية القوية الاوتاد^(٤٨).

روى سبط بن الجوزي في مرآة الزمان: قال ابن أبي الدنيا: أرسل عمر بن عبد العزيز رسولاً إلى القسطنطينية فخرج يمشي في أزقتها، فسمع قارئاً يقرأ القرآن، فوقف عليه فإذا بأعمى يقرأ القرآن ويطحن في مدار، فسلم عليه فقال: أنى بالسلام في هذه الأرض؟ فأخبره أنه رسول عمر، وقال له: ما الذي أوقعك ها هنا؟ قال: أخذت من بعض الطرق فعرض علي الطاغية الروم النصرانية فأبيت فسملي عيني وسيرني إلى هذا الموضع ويبعث إلي كل يوم بحنطة أطحنها له. فلما عاد الرسول إلى عمر فأخبره. بكى عمر حتى أبكى الأرض من دموعه، وقال له: عد على حالك وقل للطاغية: والله لئن لم تبعث إلي بالطحان لأبعثن إليك جنوداً أولها عندك وآخرها

عندي فلما بلغته (للامبراطور البيزنطي) الرسالة قال: ما كنا لنحوج الرجل الصالح (أي عمر بن عبد العزيز) لهذا، وأقام الرسول عنده أياماً فدخل الرسول عليه (أي على الامبراطور) يوماً، وهو قاعد على الأرض يبيكي. فقال له: مالك؟ فقال أخبرنا سيدنا المسيح أن الرجل الصالح إذا كان بين قوم السوء لم يلبث فيهم إلا قليلاً يسيراً، ثم يخرجهم الله من بينهم. فقال له: وما الخبر؟ قال: مات العبد الصالح. قال (الرسول): فقامت وقد آيست من خلاص الطعان. فقال اذهب فخذ الطعان، ما كنت لأخافه (يخاف عمر) حياً وأخافه ميتاً. وكان الامبراطور المذكور يعجب من عمر لأن الدنيا تحت قدميه وهو يرفضها^(٤٩).

كان عمر بن عبد العزيز يهتم بالرفقة كما يهتم ببقية البلاد وكان يرسل لها من مال الصدقة لتوزع على فقرائها على شرط أن يكون ذلك بحضور رجال الشرطة لينظموا العمل ويمنعوا الازدحام، وإن يجري إلى جانب نهر جار حتى إذا عطش أحد من الناس وجد الماء قريبه. وكان يأمر أن يعطى كل من يمد يده إلى الأخذ دون تحقيق في أمره هل هو فقير أم غير فقير^(٥٠).

وكان من ناحية أخرى معجباً بواليتها من قبله وهو ميمون بن مهران من الفقهاء الكبار والزاهدين وقد حاول ميمون الاستقالة من منصبه، لكن عمر بن عبد العزيز لم يوافق على ذلك وقال عنه: إذا ذهب هذا وأقرأنه صار الناس رجراجة (أي رعاعاً لا عقول لهم)^(٥١).

(٧) مسلمة بن عبد الملك (١٢٠٠ هـ)

كان بنوا أمية كلهم مقاتلين مجيدين واشتركوا في الحروب وفي إدارتها بما فيهم الخلفاء وأبناؤهم ولكن مسلمة بن عبد الملك اشتهر من بينهم لأنه كان عديم المثال من جميع الوجوه، فهو فارس مقاتل بارع في القيادة، وهو شجاع ومؤمن وعائي الهمة وهو مزارع وخبير في المياه وتجفيفها وتحويلها، وهو مستثمر من الطراز الأول. وهو كريم في طليعة الأمراء، وهو أحق بالخلافة من بعض أخوته بشهادة المؤرخين كالذهبي، لكنه لم يصل إليها لسبب خارج عن إرادته وهو أن أمه لم تكن عربية وفضلاً عن ذلك فإنه خطب فتاة أدنى منه منزلة فلم تقبله كزوج بسبب ذلك، ومع ذلك فإن ذلك لم يؤثر عليه، وظل يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الناس.

كانت داره بدمشق في محلة القباب عند باب الجامع القبلي وولي موسم الحج أيام أخيه الوليد بن عبد الملك، وغزا الروم غزوات، وحاصر القسطنطينية. وولاه أخوه يزيد بن عبد الملك أمرة العراقين ثم عزله وولاه أرمينية^(٥٢). مات في ٧ المحرم بموضع يقال له الحانوت سنة ١٢١ هـ وكان له قصور وحصون في نواحي الرقة وعلى البليخ. وهو أحد أربعة قواد عظام اشتهروا في عهد الوليد بن عبد الملك ٨٦ - ٩٦ هـ وهم: محمد بن القاسم الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي وموسى بن نصير ومسلمة بن عبد الملك، وكان لهم أجمل الأثر في الفتوح العربية الإسلامية، وقد ظهرت عزيمة مسلمة في حرب الروم^(٥٣).

بدأ مسلمة بن عبد الملك حياته العسكرية في عهد والده عبد الملك بن مروان فقد ذكر العظيمي في تاريخه ص ١٩٥ أنه في سنة ٨٥ هـ، السنة قبل الأخيرة في حياة عبد الملك، غزا مسلمة بن عبد الملك الروم وكسبرهم وهي أولى غزواته.

وحصن مسلمة في الجزيرة بين رأس عين والرقة، بناء مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، بينه وبين البليخ ميل ونصف وشرب أهله من مصنع فيه. طولاه مائتا ذراع في عرض مثله، وعمقه نحو عشرون ذراعاً، معضود بالحجارة وكان مسلمة قد أصلحه والماء يجري فيه من البليخ

في نهر مفرد في كل سنة مرة حتى يملأه فيكفي أهله بقية عامهم. ويسقي هذا النهر بساتين حصن مسلمة. وفوهته من البليخ على خمسة أميال. وبين حصن مسلمة وحران تسعة فراسخ، وهو على طريق القاصد للرقعة من حران^(٥٤).

وحصن مسلمة يكون أسفله قدر جريب، وارتفاعه في الهواء أكثر من خمسين ذراعاً ويجري البليخ تحته، فإذا خرج من تحت الحصن يسمى بليخا، ويتشعب منه أنهار تسقي بساتينا، ويجري ثم يصب في الفرات تحت الرقة^(٥٥).

كان حصن مسلمة فيما يظهر قرية فيها برج شاهق لمسلمة كان يستريح فيه بطريق ذهابه إلى حدود الروم وعودته منها وجيشه الذي كان يسير من الرقة. وروى القشيري عن عدة اشخاص من أهل حصن مسلمة^(٥٦).

وكانت طائفة من بني أمية تسكنه وكان شرب أهله من السماء وأرضه مباخس (أي يسقيها المطر)^(٥٧). ويظهر من استعمال ابن حوقل كلمة ((كان)) أن حصن مسلمة كان قد خرب في عهد ابن حوقل أي في القرن الرابع الهجري. ويبعد حصن مسلمة عن البليخ ٦ كم، وقد خرب، ويدعى اليوم مدينة الفار.

إن اهتمام مسلمة بالري وإصلاح الأراضي والزراعة والبناء طبيعة متأصلة فيه لم يصرفه عنها اهتمامه بالحرب ضد البيزنطيين والخوارج، فقد اثبتت البثوق أيام الحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠ - ٩٥ هـ) فكتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) يعلمه أنه قدر لسدها ثلاثة آلاف درهم، فاستكثرها الوليد، فقال له مسلمة بن عبد الملك (أخوه): أنا انفق عليها على أن تعطيني الأراضي المنخفضة التي بقي فيها الماء بعد أنفأق ثلاثة آلاف ألف درهم (ثلاثة ملايين درهم) يتولى أنفأقها ثقتك ونصيحك الحجاج فأجابه الوليد إلى ذلك، فحصلت له أرضون من طساسيج متصلة، فحفر السيبين (كورتين من سواد الكوفة، وهما سيان أعلى وأسفل) وتآلف (استمال) الأكره (مفرده: أكار أي حراث) والمزارعين، وعمر تلك الأراضي، وألجأ إليه الناس ضياعاً كثيرة للتعزز به، فلما جاءت الدولة المباركة (أي الدولة العباسية) وقبضت أموال بني أمية، أقطع جميع السيبين داود بن علي بن عبد الله بن العباس، ثم ابتيع ذلك من ورثته بحقوقه وحدوده، فصارت من ضياع الخلافة^(٥٨).

ومثل هذا حصل مع مسلمة في بالس، وكانت بالس والقرى المنسوبة إليها في حدها الأعلى والأوسط والأسفل أعزاء عشرية (أعزاء: أرض تروى من المطر فقط). فلما كان مسلمة بن عبد الملك متوجهاً غازياً للروم من نحو الثغور الجزرية، عسكر ببالس، فأتاه أهلها وأهل بوليس وقاصرين وعابدين وصفين وهي قرى منسوبة إليها، فأتاه أهل الحد الأعلى فسألوه جميعاً أن يحفر لهم نهراً من الفرات يسقي أراضيهم على أن يجعلوا له الثلث من غلاتهم بعد عشر السلطان الذي كان يأخذه، ففعل وحفر النهر المعروف بنهر مسلمة، ووفوا له بالشرط، ورم سور المدينة وأحكمه^(٥٩).

وكانت بغرأس (مدينة في لحف جبل اللكام بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ)^(٦٠) على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب) لمسلمة بن عبد الملك فوقها في سبيل البر. وكانت عين السلور وبحيرتها التي تعرف ببخيرة السلور (هو السمك الجري)^(٦١) له أيضاً ثم صارت لرجاء مولى المهدي إقطاعاً، فورثه منصور وإبراهيم ابنا المهدي، ثم صارت لإبراهيم بن سعيد الجوهري ثم لأحمد بن أبي دؤاد، ثم انتقل ملكها إلى أمير المؤمنين المتوكل^(٦٢).

أنشأ مسلمة بن عبد الملك قصراً في الناعورة في حلب سنة ٩٠ هـ، كان ينزله حين تولي حلب من قبل أخيه الوليد (٩٦٨٦هـ)، ثم خرب القصر فاستخدم حجارة أبراجه الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب سنة ٦٥٤ هـ في تجديد برج كان إلى جانب باب قنشرين في حلب^(٦٣).

وفي خلافة عمر بن عبد العزيز قام مسلمة في سنة ١٠٠ بمحاربة الخوارج الحوارية في العراق بجيش جهزه من الرقة.

روى أحمد بن يوسف الكاتب (ت ٣٤٠هـ) في كتابه المكافأة: أن أبا عبد الله محمد بن علي أبا الخلفاء العباسيين، ألقى فأقام برصافة هشام بن عبد الملك ثلاثة أشهر لا يأذن له هشام عليه ثم اتفق أن قدم إلى الرصافة مسلمة بن عبد الملك فشكا إليه أبو عبد الله وضعه فوعده أن يكلم هشام بن عبد الملك عنه ولكنه حين أخفق في استرضاء هشام عنه وكذا قد بقي مع مسلمة بن عبد الملك لنفقتة ١٢٠٠ دينار فقام عليه فأعطاه ألف دينار وأبقى لنفسه ثلاثمائة فقط.

وحين ذكر ذلك لهارون الرشيد في حديثه الموصل بكى وترحم على مسلمة وأصر على أن يكافئ أسرة مسلمة وحين وصل حصن مسلمة أحصى من فيه من ولده فوجده أربعين، فأمر لهم بأربعين ألف دينار.

وحين صالح مسلمة بن عبد الملك أهل جيزان في ولايته على أرمينية من قبل هشام بن عبد الملك، وهدم حصنها، اتخذ لنفسه ضياعاً^(٦٤).

ولما غزا مسلمة بن عبد الملك عمورية حمل معه نساءه، وحمل أناس ممن كانوا معه نساءهم، وكان بنو أمية يفعلون ذلك إرادة الجد في القتال للغيرة على الحريم^(٦٥).

وكان مسلمة قد ولي الجزيرة من قبل الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك ومطلع عهد عمر بن عبد العزيز. وفي عهد هشام بن عبد الملك لم يكن أحد يسير في موكب غير الخليفة هشام بن عبد الملك وأخوه مسلمة بن عبد الملك^(٦٦).

٨- خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥ هـ)

يعتبر هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥ هـ)، (٧٢٤-٧٤٣ م) ثالث الساسة الكبار بعد معاوية وعبد الملك. كان أكثر الخلفاء الأمويين اهتماماً بالمنشآت المعمارية والفنون والري والبساتين، ولهشام قصر في الزيتون (قصر الحيرة الغربي) وقصر في الرصافة وذلك عدا قصر الحيرة الشرقي وغير ذلك^(٦٧).

٩- الرصافة هشام بن عبد الملك

تقع الرصافة في البادية السورية وتبعد عن الرقة مسافة ٤٢ كم إلى الجنوب من الفرات، ويصل المرء إليها حالياً على طريق مسافته ٢٥ كم يتفرع من قرية الشديين (المنصورة حالياً) على يمين الطريق الرئيسية بين حلب والرقة. وتكمن أهمية الرصافة في أنها تقع على طريق القوافل القديمة الذي ينطلق من موقع سورية (سورا أو الحمام حالياً) على الفرات ويخترق البادية الشامية باتجاه دمشق^(٦٨). ولا يوجد عند الرصافة نهر ولا عين جارية، إنما شريهم من صهاريج عندهم داخل السور وربما فرغت أثناء الصيف^(٦٩). وذكر ابن الفقيه الرصافة بين مدن ديار مضر^(٧٠). وكان الخلفاء يتبدون ويهربون من الطاعون فينزلون البرية خارجاً عن الناس، فنزل هشام بن عبد الملك الرصافة^(٧١). والواقع أن نزول الخلفاء الأمويين في البادية لم يكن بسبب التبدي لأن الشام لم يكن فيها وباء أكثر من غيرها من المدن، بل لأسباب عسكرية وأمنية وزراعية واقتصادية.

قال الإدريسي: و الرصافة: قصور بناها خلفاء بني أمية وحولها مساكن وقرى عامرة، ولها أسواق فيها بيع وشراء وأخذ وعطاء^(٧٢). وقال عنها صاحب الروض المعطار: وفيها قصور هشام وقصور

ولده^(٧٣) وقد تقدم أن كسرى انوشروان هاجم الرصافة عام ٥٤٠م. وذكر البلاذري أن الرصافة مدينة بنتها الروم وفيها أبار وقناة للماء تأتيها من الصحراء، وقد تخربت وأصلحها هشام وبنى فيها قصرين. وقامت كاترينا أوتوردورين بحفريات في سيرجيوبوليس (الرصافة) للبحث عن أقدم الآثار فيها، فاكتشفت قصراً تعتقد جازمة أنه أحد القصرين الذين بناهما هشام. وهو قصر مخصص لإقامته، أما القصر الثاني الذي لم يكشف بعد، فهو على الأغلب القصر الذي كان هشام يستقبل فيه زائريه جالساً تحت قبة خضراء. وهذا القصر يشبه القصور الأموية الأخرى مثل قصر الحير الشرقي وغيره. ويبدو هذا الشبه في المخطط وفي مادة البناء. (الطوب والأجر والحجارة) وفي الزخرفة^(٧٤).

كانت الرصافة تحمل اسم ((رصافة هشام)) في كتب التاريخ وذلك لأن هشام أصلح ما خربه الفرس من المدينة القديمة وبنى حولها مدينة كبيرة ولكن قصر هشام لم يكن ضمن الرصافة المسيحية التي ماتزال أثارها باقية حتى اليوم (سيرجيوبوليس) لأن هذه الحاضرة الدينية استمرت مركزاً للأسقفية حتى آخر القرن الحادي عشر، فكان لا بد من وجود قصره خارج الحاضرة. ولقد تمكنت الصور الفوتوغرافية الجوية من الاهتمام إلى قصر هشام خارج الحاضرة، وهو عبارة عن شبه حصن طول ضلعه ٧٤/٨٠ م يقوم حول باحة مركزية ويحيط به أبراج مدورة فقامت بالكشف عنه كاترينا أوتوردورين عام ١٩٥٢م وهو مبني من الطوب واللبن والأجر المشوي والحجر واستمرت رصافة هشام مسكونة حتى القرن العاشر^(٧٥).

وفي عام ١٠٤٨م زار الطبيب ابن بطلان الرصافة وامتدح قصورها^(٧٦).
وكان هشام في البدء ينزل قصر الزيتونة في الرصافة^(٧٧).

ويرى شلومبرج أنها قصر الحير الغربي بينما يرى الريحاوي أنها قصر الحير الشرقي^(٧٨).
اعتبر القشيري الرصافة تابعة للرقعة إذ ترجم لعبيد الله بن أبي زياد أبي المنيع الرصافي^(٧٩).
انتقل هشام بن عبد الملك من قصر الحير الشرقي إلى مدينة الرصافة التي أسهم في أحياء عمرائها وازدهار نهضتها العمرانية. وكان يتجه إليها كبار الشعراء مثل الفرزدق وجريمر يمدحون بقصائدهم هشام المعروف بحبه للعمران.

تحدث الشعراء عن الحياة الاجتماعية والترف في الرصافة في عهد الأمويين. ويذكر المؤرخون ما قام به عبد الله بن علي العباسي عام ٧٤٩م بالرصافة وبمباني الأمويين فيها وبالأحياء والموتى في قبورهم^(٨٠).

وفي العهد العباسي ظلت الرصافة والزيتونة وحصن مسلمة، فيها منازل بني أمية وأقام الرشيد عام ١٩٠هـ وليمة في الرقة احتفالاً بتولية أبنائه ولاية العهد ودعا الرشيد إليها من كان في تلك المنازل من الأمويين رجالاً ونساءً وكرهمهم. وجرت في المجلس عريدة لطيفة كما وصفها الرشيد وضحك حتى أمسك بيده على بطنه، وأعاد إقطاع الزيتونة لصاحبة تلك العريدة زينب بنت أحمد بن محمد بن سعيد بن هشام بن عبد الملك، وذلك أنها أحسنت الرد على فتاة من وند سليمان ابن صالح بن عبد الله بن العباس حاولت أهانتها^(٨١).

كان الفقراء في ضواحي الرصافة يشربون من الابار، أما أهل الثروة فيرسلون عبيد قم يستقون على الحمير من ماء نهر الفرات الذي يبعد عنهم ثلاثين كم إلى الشمال. وماء الفرات أعذب من ماء الصهاريج وكان هؤلاء الأثرياء تجاراً ومالكين. وكان مصدر ثرواتهم من حماية

القوافل وإيوائها، ومن نقل البضائع ومن مشاركة اللصوص، وكان سكان المدينة في الغالب نصارى، وكان الرجال يغزلون الصوف، وتشتغل نساؤهم بالنسيج، فيصنعن كسوة جميلة مشهورة وكانت صناعة الاقمشة الكتانية مزدهرة فيها، وكانوا يصنعون مختلف انواع الاكياس لأن التجارة والعمل في القوافل تتطلبها. وكان الخزف يصنع فيها وهو من نوع خزف الرقة المشهور .

وصف هشام بن عبد الملك

كان هشام بن عبد الملك غزير العقل عفيفاً، جيد السياسة، مقتصدًا حتى وصف بشدة البخل. وفي زمن العباسيين كان أبو جعفر المنصور يتحدث معجبا ويقول اذا ذكر خلفاء بني امية: فهشام رجل القوم، (مقدمة ابن خلدون ص ١٧٢ فصل ٢٨) يريد ان يشبه به وكان أكثر الخلفاء عناية بالناحية المالية، ويتفقد الامور بنفسه، ولذا كانت إدارته دقيقة منتظمة. قال غسان بن عبد الحميد (الطبري ٢٨٥\٨): لم يكن احد من بني مروان اشد في الحرص من هشام. وقال عبد الله بن علي العباسي نظرت دوواين بني مروان، فلم أر ديوانا اصح ولا اصلح للعامة والسلاطان من ديوان هشام (ضياء الدين الرئيس ٢٥١).

٢. انجازات هشام بن عبد الملك

اهتم هشام بن عبد الملك اهتماماً شديداً بالزراعة حتى ان مؤرخاً مصرية حديثاً استنتج ان المساحة المزروعة بلغت في أيام هشام بن عبد الملك ثلاثة ملايين فدان اما في عهد المأمون (١٩٨هـ - ٢١٨هـ) فبلغت مليونين وثمان وعشرين الف فدان فقط^(٨٢) أي نقصت الاراضي المزروعة في عهد المأمون عما كانت عليه زمن هشام بن عبد الملك بمقدار ٢٩٪ - ٣٢٪.

أولى هشام مشاريع الري عناية خاصة انبثقت من اهتمامه بالأرض من اجل إحيائها واعمارها، وتشير المصادر السريانية والعربية إلى ابرز مشاريع الري من حفر أنهار وقنوات ساعدت على استصلاح اراضي الموات وعلى توسيع مساحة الاراضي المزروعة في المنطقة.

أمر هشام في البدء بحفر قنوات امتدت احداها من الفرات إلى الرقة لإرواء الاشجار والمزروعات، كما أمر بحفر أنهار من ابرزها نهر الزيتون، وقيل الزيتون، فازدادت غلة خراج الولاية كلها وأشار ديونيسيوس إلى ان هشاماً بنى على ضفتي نهر الفرات مدناً وقلاعاً وقرى عديدة وزأنها باغراًس وفيرة من مختلف الاشكال. وأشار صاحب الشذرات الربانية إلى هذا النهر بقوله: شق (هشام) من الفرات نهراً يسقي الاشجار والبساتين التي نصبها عليه^(٨٣).

وفي الموصل كانت دجلة بعيداً عن المدينة بحيث يجد الناس مشقة من الاستفادة من مائه فأمر هشام بحفر نهر من دجلة وايصاله إلى وسط المدينة وجرى العمل في ذلك من سنة ١٠٨هـ حتى سنة ١٢١هـ أي ١٣ سنة، وعمل فيه خمسة آلاف رجل واستهلك فيه جميع جباية الموصل وأمر هشام ان يجعل على هذا النهر المكشوف عشرين رحاً فعمل عليه ١٨ حجراً وقفها هشام على نفقة هذا النهر^(٨٤). فهل يقال عن خليفة مثله أنه بخيل! أم يقال أنه حكيم يضع كل شيء مكانه اللازم!

وقف هشام يوماً بحائط بستان له فيه زيتون ومعه عثمان بن حيان فسمع هشام نفض الزيتون فقال لعثمان: انطلق اليهم فقل لهم: القطوه لقطاً ولا تنفضوه نفضاً فتفقؤا عيونه وتتكسر غصونه^(٨٥).

كان في موكب هشام ثمانمائة فارس: اربعمائة من الشرطة، واربعمائة من الحرس ولم يكن احد يسير في موكب (في عهد هشام) إلا مسلمة بن عبد الملك^(٨٦) والخليفة هشام بن عبد الملك.

وكان سليمان بن هشام ولي الرقة لأبيه هشام بن عبد الملك في سنة ١٢٠ أو ١٢١ هـ^(٨٧).

اتخذ هشام بن عبد الملك مستغلات كثيرة في أكثر المدن التي في سلطانه والخانات والخوانيت والحجر والضياع والمزارع. وهو أول من اتخذ الضياع لنفسه من العرب وشق أنهاراً كثيرة غزيرة، وهو الذي استخرج النهر الذي فوق الرقة وغرس غرساً كثيراً بالجزيرة والشامات، فبلغت غلته أكثر من خراج مملكته^(٨٨) كما أنشأ في الرقة سوق هشام.

٣. الهني والمري

الهني والمري هما نهران بإزاء الرقة والرافقة حضهما هشام بن عبد الملك واستخرج الضيعة التي تعرف بالهني والمري^(٨٩)، فالهني والمري اسمان للنهرين اللذين جرهما هشام من الفرات وكانت آثارهما قرب المقصر (جنوب الجسر القديم للرقة) كما هما اسمان للضيعة التي يسقيانها. وقد يطلق على الضيعة اسم ((الهني)) فقط كما في شعر جرير ويظهر أنها كانت ضيعة كبيرة إذ اشتملت على رقة واسط أيضاً وعلى خمارة بشرة (زمن الرشيد) وعلى قرى أخرى.

ويقع الهني والمري في الجانب الغربي من الفرات^(٩٠) ويدعي موزيل أن قناتي الهني والمري موجودتان من قبل وان هشام بن عبد الملك قام بتعزيلهما فقط^(٩١)، وشعر جرير الآتي يثبت أن هشاماً هو الذي شق نهر الهني، كما أن البلاذري قال أن هشاماً حفر الهني والمري^(٩٢) وقال ميخائيل: أن هشاماً شق اقنية للفرات أعلى الرقة فزادت وإرادته^(٩٣).

يقول جرير بمدح هشام بن عبد الملك:

جَوَارِي قَدْ بَلَّغْنَ كَمَا تَرِيدُ	شَقَقْتَ مِنَ الْفَرَاتِ مَبَارِكَاتِ
يُقَطِّعُ فِي مَنَاجِبِهَا الْحَدِيدُ	وَسُخِّرَتْ الْجِبَالُ وَكُنْ خَرَساً
هَنَّاكَ وَسَهْلَ الْجَبَلِ الصَّلُودِ	بَلَّغْتَ مِنَ الْهَنِيِّ قَلْبَكَ شُكْرًا
عِنَّا قَيْدَ الْكُرُومِ فَهَنْ سَوْدِ	بِهَا الزَّيْتُونَ فِي غُلُلٍ وَمَالَتْ
فَقَالَ الْحَاسِدُونَ هِيَ الْخُلُودِ	فَتَمَّتْ فِي الْهَنِيِّ جَنَانُ دُنْيَا
بَسَاتِينًا يُوَازِرُهَا الْحَصِيدُ	الْأَنَامُ لَئِنْ يَعْفُونَ رَوْوَهَا
يَكُونُ تَحْمِلُهُ طَلْعُ نَضِيدُ ^(٩٤)	وَمِنْ أَزْوَاجٍ فَاكْهَةٍ وَتَخْلُ

الغُلل: الماء الجاري تحت الشجر على وجه الأرض.

يقول جرير: إن هشاماً شق نهري الهني والمري من الفرات، وقطع من اجلهما الصخر، وتسهّل الجبل الصلود، فأثبت بهما في ضيعة الهني والمري: الزيتون والكروم والحصيد والفاكهة والنخل. ونهرا الهني والمري يعودان ليصبأ في نهر الفرات بعد أن يرويان رقة واسط والهني والمري. يقول الدمشقي شيخ الربوة عن الهني والمري: ((وهما نهران عليهما انقري مشتبكة العمائر وهي من انزه بقاع الدنيا))^(٩٥).

واهتم هشام أيضاً باستخراج العسل في الهني والمري^(٩٦).

وفي الهني حصن الكامل الذي تحصن به موالي سليمان بن هشام بن عبد الملك ضد مروان بن محمد^(٩٧) وأحدث هشام بن عبد الملك عند الهني والمري جسراً على الفرات^(٩٨) ويظهر أنه جسر قوارب.

ثم إن الهني والمري، قبضت في أول الدولة العباسية ثم صارت فيما بعد لأم جعفر زبيدة زوجة الرشيد فبنت فيها القطيعة التي تتسبب اليها وأكملت عمارتها^(٩٩).

وبلغ من غلاء قيمة الهني والمري ووفرة غلاتها حدا دفع الخليفة موسى الهادي حين اراد ان يخلع اخاه هارون من ولاية العهد سنة ١٦٩هـ كي يوليها ابنه جعفر بن موسى الهادي، إلى ان يعرض على اخيه هارون اعطاءه الهني والمري من أعمال الرقة - وكاد هارون ان يقبل - حسب الرواية - بذلك، وقال: اذا نزلت على الهني والمري وخلوت بابنة عمي - يعني ام جعفر زبيدة - وكان متزوجاً بها - وكان يجد بها وجدا شديداً - فما اريد شيئاً^(١٠١).

وفي احد مجالس اللهو طرب الرشيد - وهو خليفة - من ابراهيم الموصللي وشرب، فوهب له ((الهني والمري)) ولكنه حين أصبح عوضه عنها مائتي ألف درهم^(١٠٢).

ويذكر الصنوبري الهني والمري فيقول أنه بستان الرافقة:

وأما لرافقة الجنوب محلة حسنت بها أنهارها وجنائها

أما الفرات فإنه ضحضاها أما الهني فإنه بستانها^(١٠٣)

الجنوب: ريح تهب من الجنوب، وإذا جاءت الجنوب جاء معها الخير، وتقول العرب للآتين إذا كانا متصافين: ريحهما جنوب، وإذا تفرق قيل: شملت ريحهما.

الضحضاح: ما رق من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين أو أنصاف الساقين، وماء ضحضاح أي قريب القعر أي ضحل، ولعل وصف الفرات هكذا كان في فصل الصيف.

رقة واسط

كان أول من استحدثها هشام بن عبد الملك لما حفر الهني والمري، وهي مقابل الرقة^(١٠٤) على الجانب الغربي من الفرات، وكانت على الطريق من الرصافة إلى الرقة قال^(١٠٥) الصنوبري:

ومنار واسط كالنجوم منيفة فوق المنار^(١٠٦)

منار الأولى: جمع منارة، وهي المنارة فوق الطريق، ومنار الثانية: محجة الطريق^(١٠٧، ١٠٨).

وفي رقة واسط استقر الحافظ الكبير محمد بن شهاب الزهري (ت ٢٥٥هـ) فترة من الزمن، فعبر إليه شيوخ الرقة، يروون عنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١٠٩).

وفي رقة واسط سكن سعيد بن أبي سعيد مسleme بن ثابت الواسطي وهو خراساني في الأصل ومات سنة ٢٤٢هـ^(١١٠) ويظهر أن عبد الرحمن بن خالد بن يزيد القطان، ابو بكر الرقي ويقال الواسطي^(١١١) منسوب إلى واسط الرقة.

٤. حرب الثغور

اشتهر في حرب الثغور في العهد الأموي اثنان:

أحدهما: مسleme بن عبد الملك وقد تقدم الحديث عنه.

والثاني: مجاهد مخلص وصل إلى البطولة فلم يقف عندها بل تجاوزها حتى أصبح أسطورة عند العرب والترك والبيزنطيين وهو ((البطال)).

كان البطال عبد الله ابو يحيى ينزل أنطاكية، وقد ولاه عبد الملك بن مروان المصيصة^(١١٢) وبعث البطال سرية إلى أرض الروم فغاب عنه خبرها فلم يدر ما صنعوا، فركب نفسه وحده على الفرس، وسار حتى وصل عمورية وطرق بابها ليلاً واطمأن إلى أن السرية بخير. ويرد في هذه الرواية أن البطال تزوج بنت بطرق عظيم، مما يدل على أن هذه الحادثة - بفرض صحتها - وولايته على المصيصة حدث قبل سنة ١١٣هـ التي ورد فيها أنه كان متزوجاً ابنة البطريق.

ولما أراد عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦ هـ) أن يوجه مسلمة بن عبد الملك على بلاد الروم كقائد عام، ولى البطال على رؤساء أهل الجزيرة والشام، وأقبل على مسلمة فقال: ((جند على طلائعك البطال، ومرة فليعس بالليل العسكر، فإنه أمين ثقة مقدم شجاع)) وهذا يدل على أنه كان للبطال شهرة وخبرة في حرب الثغور قبل ذلك وموثوق به. ثم عقد له مسلمة على عشرة آلاف من المسلمين سيارة (أي: مشاة) بين عسكر المسلمين وما يليهم من حصون الروم^(١١٣) أي جعل البطال طليعة كما أوصى بذلك عبد الملك.

وفي حصار القسطنطينية في عهد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨ و٩٩ هـ بقيادة مسلمة بن عبد الملك أبلى البطال بلاءً حسناً أكسبه لقب ((زعيم الأبطال)). وكان كبير حراس مسلمة بن عبد الملك^(١١٤). وبعد ذلك لا نجد ذكراً للبطال حتى سنة ١١٢ هـ في عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥ هـ) وفي خلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥ هـ) غزا عمر بن هبيرة الفزاري، وكان على الجزيرة قبل أن يلي العراق عام ١٠٢ هـ، بلاد الروم فهزمهم وأسر منهم خلقاً كثيراً قيل أنهم سبعمائة أسير^(١١٥) ثم غزا الصائفة معاوية بن هشام بن عبد الملك عام ١٠٧ هـ في خلافة هشام وعلى جيش الشام ميمون بن مهران الجزري (من الرقة) فقطعت البحر حتى عبر إلى قبرص. وغزا البر مسلمة بن عبد الملك^(١١٦).

ثم حدثت موقعة عظيمة هائلة بأرض الروم في عام ١١٣ هـ انكسر فيها المسلمون وكانوا ثمانية آلاف عليهم مالك بن شبيب الباهلي فقتل وقتل معه جماعة كثيرة منهم: عبد الوهاب بن بخت مولى بني مروان، وكان موصوفاً بالشجاعة والاقدام، كما قتل ابو يحيى عبد الله الانطاكي البطال أحد الشجعان الذين يضرب بهم المثل، وله مواقف مشهورة، وكان طليعة جيش مسلمة، وله أخبار في الحملة، لكن كذبوا عليه وحملوه من الخرافات والكذب ما لا يحد ولا يوصف^(١١٧). والواقع أنه لم يقتل إلا عبد الوهاب بن بخت أبو بكر ويقال أبو عبيدة مولى مروان، مكي سكن الشام ثم تحول إلى المدينة وكان سمحاً جواداً^(١١٨). لكن القلقشندي ينسب عبد الوهاب إلى بني كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة^(١١٩) أما مالك بن شبيب فنذكر القشيري أنه من أهل الرقة وأنه خطب على منبر الرقة^(١٢٠) وذكر أنه كان أميراً على ملطية من قبل هشام بن عبد الملك^(١٢١) وغزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى، وسليمان بن هشام الصائفة اليمنى وذلك سنة ١١٤ هـ، وذكر أن معاوية بن هشام أصاب ريبض أقرن، وأن عبد الله البطال التقى وقسطنطين (ابن الامبراطور ليون) في جمع فهزمهم وأسر قسطنطين. وبلغ سليمان بن هشام قيسلرية^(١٢٢) ويبدو أن الرواية التبست بالرواية التي حدثت عام ١٢٢ هـ. وقد قام ابنا هشام بن عبد الملك بغزوة مشابهة عام ١١٧ هـ^(١٢٣).

ثم عاد العرب إلى اندفاعهم داخل آسيا الصغرى في احدى انتفاضاتهم النشطة سنة ١١٩ هـ ٧٢٧م، فسارت حملتان من الثغور الشامية والجزرية. وكانت أهمهما بقيادة سليمان بن هشام بن عبد الملك وكانت قد قصدت برجامة pergamen في أقصى غرب آسيا الصغرى بالقرب من شواطئ بحر الارخبيل، ولم تكن هذه الاندفاعات الأموية، رغم تقدمها البعيد، أكثر من إغارة استنفذت طاقاتها بوصولها إلى برجامة، وإن كان هذا لا يمنع ما صاحب ذلك من سلب ونهب لصالح المسلمين. ربما كان السر في اندفاع المسلمين إلى تلك المسافة البعيدة ابتداءً من سنة ١١٩ هـ داخل آسيا الصغرى يرجع إلى أن أعباء جبهة أرمينية قد خفت وتحسن مركز المسلمين هناك بعد أن توطدت الامور لمروان بن محمد وفي العام التالي غزا سليمان بن هشام آسيا الصغرى. وفي

السنة التالية أيضاً ١٢١هـ غزا مسلمة بن هشام آسيا الصغرى وهاجم عدداً من الحصون. ومع ذلك فإن البيزنطيين لم يقفوا بلا حركة^(١٢٤).

لم ينقطع النشاط العسكري في مناطق الحدود بين الدولتين المتصارعتين. ويذكر استمرار هشام بن عبد الملك في نشاطه محاولاً إحياء أعمال الحملات رغم الأحوال الداخلية للخلافة التي كان عليه مواجهتها بالجهد المضاعف الذي امتنع ولا شك كثيراً من طاقته العسكرية والإدارية وأذا كان قد حاول جاهداً مواجهة هذه المشكلات الداخلية، إلا أنها كانت تختفي من مكان لتظهر في آخر وقد كانت هذه المشكلات مقدمة لنهاية الخلافة الأموية، ولكن الخليفة هشام لم يستسلم واستمر في نشاطه السياسي. اندفع المسلمون في سنة ١٢٢هـ - ٧٣٩ م أو ٧٤٠ م، في حملة كبيرة داخل آسيا الصغرى. وتروي المصادر البيزنطية أن الجيش الإسلامي بلغ ٩٠ ألف مقاتل، وكان تحت قيادة قواد أكفاء أربعة، واندفع أحد هؤلاء القادة على رأس عشرة آلاف إلى الجزء الغربي من طوروس وقاموا بالسلب والنهب، بينما قاد سليمان بن هشام ستين ألف رجل إلى إقليم قبدوقية (في الشرق من آسيا الصغرى). وفي نفس الوقت كان عبد الله البطال ومالك بن شبيب على رأس عشرة آلاف فارس مقاتل في الاتجاه الشمالي الغربي خلال التيم Theme أو البند الاناضولي، وهو نظام يقوم على أن الإقليم يشكل وحدة عسكرية وإدارية ومالية واحدة تخضع لسيطرة واحدة أيضاً (العلاقات العباسية البيزنطية. موفق سالم نوري ١٣٥). وبسرعة تم القاء الحصار على إقليم أكرونيون (أقيوم قره حصار) (يقع إلى الجنوب من دوريليوم بالقرب من شيمي الأوبسوق والاناضول). إلا أن الإمبراطور ليون الثالث أسرع بنفسه هو وابنه قسطنطين على رأس مائة ألف مقاتل. وفي أكرونيون استطاع هزيمة المسلمين هزيمة كاملة. وقد أجبرت هذه الهزيمة المسلمين على إخلاء الجزء الغربي من آسيا الصغرى نهائياً، فضلاً عن وسط هذا الإقليم، والتقهقر إلى الشرق. أما بقية الجيش الإسلامي فإنه نهب ساحل البحر الإيجي وقبدوقية، وعاد إلى بلاد الشام بالعديد من الأسرى. (ولا تبعد أكرونيون كثيراً عن عمورية وتعتبر من أعمال إقليم فريجية).

وأرجع بعض المؤرخين الغربيين المحدثين انتصار ليون من ناحية إلى المساعدة التي قدمها له الخزر في ذلك الوقت حين أزججوا المسلمين في القوقاز وربما كانت شهرة موقعة أكرونيون في تاريخ العلاقات الأموية البيزنطية أكثر مما تستحقه. وعلى أية حال فقد اقترن بها اسم البطال ذلك القائد المسلم الذي قتل فيها^(١٢٥). ويبدو أن شهرة البطال في قتال البيزنطيين جعلته العدو الأكثر خطورة بالنسبة لهم. وتروي المصادر تفصيل مقتل عبد الله البطال في موقعة أكرونيون فتقول: وكان سبب استشهاد أن ليون ملك الروم خرج من القسطنطينية في مائة ألف فارس، فبعث البطريق الذي سبق أن تزوج البطال ابنته يخبر البطال بذلك، فأخبر البطال أمير عساكر المسلمين بذلك وكان الأمير مالك بن شبيب من الرقة، وقال له: المصلحة تقتضي أن نتحصن في مدينة حران فنكون بها حتى يقدم علينا سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية فأبى عليه ذلك. ودهمهم الجيش البيزنطي فاقتتلوا قتالاً شديداً، والأبطال تحوم بين يدي البطال ولا يتجاسر أحد أن يتفوه باسمه خوفاً عليه من الروم، فاتفق إن ناداه بعضهم وذكر اسمه دون أن يدري فلما سمع ذلك فرسان الروم حملوا عليه حملة واحدة فاقتلعوه من سرجه برماحهم فألقوه إلى الأرض وراح الناس يقتلون ويأسرون، وقتل الأمير الكبير مالك بن شبيب وانكسر المسلمون. وتمضي الرواية قائلة: وأصبح ليون فووق على مكان المعركة، فإذا البطال على آخر رمق. فقال ليون: ما هذا يا أبا يحيى! فقال (البطال): هكذا تقتل الأبطال. فاستدعى ليون الأطباء ليدواوه، فإذا جراحه قد وصلت إلى مقاتل. فقال له ليون: هل من حاجة يا أبا يحيى؟ فقال (البطال): نعم! تأمر من معك من المسلمين أن يلووا غسلي والصلاة علي ودفني. ففعل الملك ليون ذلك، وأطلق

لأجل ذلك، أولئك الأسرى. وانطلق ليون إلى جيش المسلمين الذين تحصنوا فحاصروهم. فبينما هم في تلك الشدة والحصار إذ جاءتهم البرد (جمع بريد) بقدم سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية، ففر ليون في جيشه هارباً راجعاً إلى بلاده فدخل القسطنطينية وتحصن بها^(١٢٧).

كانت المعركة في بدايتها لصالح المسلمين حتى أن قسطنطين (ابن ليون الامبراطور) وقع في الأسر ولكن المعركة تحولت بعد ذلك إلى صالح البيزنطيين وجرح البطل ثم مات، وفك أسر ابن الامبراطور. وكان جيش البطل عشرة آلاف مقاتل وجيش الامبراطور مئة ألف مقاتل فساعد التفوق العددي لقوات ليون على تحول دفة المعركة وكذلك تدريب الفرسان البيزنطيين تدريباً عالياً^(١٢٨).

تتميز هذه الرواية العربية في ابن كثير بأهميتها ففيها تفصيل وتتفق مع رواية ثيوفانيس لكن الرواية العربية بالغت بعض الشيء في ذلك التصوير المسرحي الخاص بمقتل البطل وقيام ليون الثالث بإرسال الأطباء إليه، كما أن الرواية العربية ذكرت أن ليون وابنه انسحب حين وصل سليمان بن هشام والواقع أن ليون وابنه قسطنطين انتصرا في تلك المعركة وانسحب الجيش الإسلامي وأن كان محملاً بالغنائم. وكان من المتوقع أن ينهزم جيش البطل بسبب سوء تصرف مالك بن شبيب وقلة عدد جيشه (عشرة آلاف مقابل مئة ألف). لكن معركة اكرونيون شهرت الامبراطور ليون الثالث وأدت إلى توقف القوة الإسلامية عن أن تكون خطيرة على الامبراطورية البيزنطية. وانتزعت بيزنطة زمام المبادرة بعد وفاة ليون الثالث، وساعد على ذلك تلك الاحوال المضطربة التي أخذت تعصف بالدولة الأموية وأفضت إلى القضاء عليها^(١٢٩).

وتقدم في الرواية أن البطل كان في حالة احتضار (جراحه وصلت إلى مقاتله ولم ينفع فيه الطب) وطلب أن يقوم المسلمون بغسله والصلاة عليه ودفنه وهذا مخالف للشرع إذ المعروف أن الشهيد الذي يقتل في الحرب لا يغسل ولا يكفن ولا يصلى عليه بل يدفن كما هو وفي ثيابه التي عليه وفي مكان مصرعه^(١٣٠). ونلاحظ أن هناك تداخلاً بين ما روى سنة ١١٤هـ ثم سنة ١٢٢هـ في امرين أولهما: والأهم هو أن قسطنطين ابن الامبراطور ليون ورد أسره في الروايتين والثانية: أن الغزوتين استهدفتا اكرونيون فلعل غزوة ١١٤هـ لم يكن لها وجود.

٥- البطل في القصص الشعبي

تجسدت شهرة البطل في قصص بطولية شعبية رائعة تشبه الاساطير، وعده الاتراك بطلاً قومياً وسموه 'السيد غازي' وقد أنشئ على قبره بالقرب من اسكي شهر تكية ومسجد لابناء الطريقة البكتاشية (فرقة صوفية تركية، تنسب إلى السيد محمد بن ابراهيم آغا، الشهير بالحاج بكتاش (توفي سنة ٣٣٦هـ) وهو ولي تركي من اتباع الشيخ احمد اليسوي (الموسوعة العربية الميسرة). ويذكر أن البيزنطيين طبعوا صورة البطل على بعض كنائسهم لتذكير الناس بما له من بأس وشجاعة يجب أن تحتذى^(١٣١).

قال السعودي ١٢٦٤: أخبرني بعض الروم - ممن كان قد أسلم وحسن اسلامه - أن الروم صورت عشرة أنفس في بعض كنائسها من أجل البأس والنجدة والمكايد في النصرانية والحيلة من المسلمين وقد ذكر من بينهم البطل^(٣١).

ورد ذكر البطل في اثنتين من القصص الشعبي:

احدهما سيرة الأميرة ذات الهمة ويظهر فيها السيد البطل لا كرجل من أرباب السيف بل كرجل من أرباب الحيل والخداع إلى درجة تتجلى فيها سعة الخيال وإن كان العصر حينئذ يتطلب من المقاتل أن يعتمد على الحيلة إذا كانت تغني عن السيف. ويمكن أن يعتبر البطل المحرك الأول لحوادث الأميرة ذات الهمة.

والسيرة الثانية تركية وهي مغامرات السيد البطل التركية.

لفت فريز، واضع أسس الاستعراب الروسي خاصة في ميدان الجغرافيا، الانظار إلى الرواية الآتية في مصدر متأخر. وذلك في كتابه الكلاسيكي عن ابن فضلان إذ كتب: وكان للخلفاء العباسيين جواسيس من الرجال والنساء، وكان عبد الله الشهير بالسيد غازي يتجسس الاخبار من بلاد الروم عشرين سنة، وكان يسأله هارون الرشيد عن عجائب الامور فكان يخبره كما حكى الامام الدمشقي في فضائل الجهاد^(١٣٢).

وبالطبع فإن ما تقدم روايات شعبية غير صحيحة لأن البطال كان على عهد خليفتي الأمويين عبد الملك وهشام بن مروان وليس على زمن العباسيين بما فيهم هارون الرشيد تعتبر سيرة الأميرة ذات الهمة من أضخم ما وصلنا من ادب شعبي عربي، إن لم تكن أضخمها من ناحية الحجم على الإطلاق إذ تقع في ٧٠ جزءاً ضخماً من القطع الكبير. وتعتبر صدى روائياً للأحداث الهامة التي دارت بين العرب والروم في صراعهما الطويل كما تقدم صورة مشرفة للمرأة العربية التي تحافظ على عرضها وتبقى على وفائها وتقود الحيوش وتتزعم الفرسان. تبرز القصة قبيلة بني كلاب التي زاحمتها عناصر دخيلة في أرضها ووجدت هذه العناصر من الحاكمين عوناً ونصيراً، فنزحت إلى منطقة 'الثغور' حيث اتخذت 'ملطية' موطناً لها، وهذا ما تؤيده روايات المؤرخين مثل القلقشندي في صبح الاعشى.

تبدأ السيرة بذكر الأجداد، فتتحدث عن سيرة الحارث الكلابي ومن بعده جنديته ثم الصحصاح، وأعمالهم البطولية في قلب الجزيرة وخارجها، ثم تروي رؤيا الصحصاح التي شبأت بأنه سيرزق بولدين أحدهما ظالم والآخر مظلوم. وتحققت الرؤيا، وولد لظالم (الحارث) الذي ورث عن أبيه ظلمه وغشمه، وولدت لمظلوم بنت اقصاها أبوها خشية شماته أخيه. وفي منفاها بين الغرياء ولدت 'فاطمة' فعرفت أهلها وانضمت إلى قومها في صراعهم ضد 'ظالم' ووقع ابن عمها 'الحارث' بن 'ظالم' في غرامها ولكنها رفضت الزواج منه، ولكنه تزوج منها بالحيلة وعرفت بسبب إبانها بلقب ذات الهمة' ووضعت منه ولداً سمته 'عبد الوهاب' فأكره أبوه الحارث لكن ذات الهمة استطاعت أن تثبت صحة نسبه، ثم رحلت إلى ملطية على رأس جيش كبير لتشرع في جهادها العظيم ضد عدو الخارج بعد بلانها ضد عنها الظالم.

ولقيت بنو كلاب نعم الظهير والنصير في محمد البطال من بني سليم التي تشير المراجع التاريخية إلى بطولته، كما تحكي المراجع البيزنطية أن الروم كانوا يعلقون صورته في الكنائس والاديرة حتى يبدو شكله معروفاً فلا يتسلل بين عدوه وينفذ فيه حيله. وأثر محمد البطال الجهاد في صفوف بني كلاب بعد أن شهد تواصل قومهم مع منافق عدو الاسلام ودولته يدعى عقبة السليمي وهو فقيه مسلم ارتضى أن يبيع آخرته بدنياه ويستتر بالدين والعلم في حين يوالي العدو. وكان السيد البطال من أهل الكيد لا من أهل الضرب، وتروي عنه السيرة قوله: أنا ما صناعتني الحرب والطعن والضرب، وإنما صناعتني الحيل والخداع في حصن أو قلعة وقد كان يجيد التكر والتحدث بلغة الروم وتلاوة الانجيل. وهكذا اجتمع لبني كلاب 'همة' الزعيمة وقوة شخصيتها وشجاعتهما وشجاعة ابنها عبد الوهاب في القتال، إلى دهاء البطال وكيدة وحيلته. وقد أصر بنو كلاب أن يكون جزاء المنافق عقبة السليمي أن يصلب على باب الذهب أحد أبواب القسطنطينية، وكأنهم يضعون أمامهم من قريب رمز الأمل المنشود. وقد تحقق في السيرة الهدف المزدوج، وإن كان فتح القسطنطينية بالفعل في وقائع التاريخ لم يحدث إلا على يدي محمد الفاتح سنة ١٤٥٣م^(١٣٣).

٦- تنمة حرب الثغور

خرج عشرون ألفاً من الروم سنة ١٢٣هـ (في عهد هشام بن عبد الملك) فنزلوا على ملطية فأغلق أهلها أبوابها وظهر النساء على السور، عليهن العمائم (ليوهمن الروم أن رجالاً تقتاتلهم)^(١٣٤)

فقاتلن فبعث هشام بن عبد الملك خيلاً لترابط وغزا هشام نفسه، ثم نزل ملطية وعسكر فيها حتى بنيت، فكان ممره بالرقعة فدخلها متقلداً سيفاً، ولم يتقلده قبل ذلك في أيامه^(١٣٥).
توقفت حملات الصوائف والشواتي تماماً عند عام ١٢٦ هـ بسبب تدهور الأوضاع الداخلية في الدولة الأموية.

وفي عهد مروان بن محمد (١٢٧-١٢٢ هـ) بنى منصور بن جعونة بن الحارث العامري من قيس عيلان حصن منصور، وكان مقيماً به أيام مروان ليرد العدو، ومعه جند كثيف من أهل الشام والجزيرة، وكان منصور هذا على أهل الرها حين امتنعوا في أول الدولة العباسية. وقد أمتنه المنصور ثم قتله فيما بعد سنة ١٤١ هـ^(١٣٦) كما سيجئ.

خلافة مروان بن محمد (١٢٧-١٣٢ هـ)

تمرد سليمان بن هشام بن عبد الملك على الخليفة مروان بن محمد في سنة ١٢٧ هـ فسار إليه مروان وهو في حصن الكامل في الرصافة فحصر جيش سليمان ومثل بهم، فأخذهم أهل الرقة فداؤوا جرحاهم، فهلك بعضهم وبقي أكثرهم وكانت عدتهم ثلاثمائة^(١٣٧)
واستولى الضحاك بن قيس الخارجي على الموصل وكورها سنة ١٢٨ هـ وأرسل قائدين من قواده في أربعة آلاف أو خمسة آلاف حتى وردوا الرقة فقاتلهم من بها من خيل مروان وهم نحو من خمسمائة فارس. ووجه مروان حين بلغه نزولهم الرقة خيلاً من روابطه، فلما دنوا منها، انقشع اصحاب الضحاك منصرفين إليه (أي إلى الضحاك) فاتبعتهم خيل مروان وقتل الضحاك^(١٣٨).
اعتمد مروان في جيشه على القيسية فتخلفت عنه اليمانية وناصبته العداء كما أن نقل عاصمته إلى حران جعلته يفقد محبة أهل الشام ودبت الفرقة والنزاع بينه وبين القلة من بني أمية فنكا آخر الخلفاء الأمويين.

كانت أيام الخليفة مروان بن محمد كلها فتناً وحروباً فلم تكن فتن الشام والعراق والخوارج وغيرها هي كل هموم مروان بن محمد بل لعلها أقل همومه خطورة إذا ما قورنت بالخطر العباسي الذي استطاع أن يستقطب كل عوامل الضعف والاضطراب، ليفجرها ثورة عارمة دقت المسمار الأخير لافي نفس الخليفة مروان بن محمد بل في نفس البيت الأموي كأسرة حاكمة.
لقد كانت معركة الزاب (قرب الموصل) التي جرت في سنة ١٣٢ هـ والتي هزم فيها مروان، الصفحة الأخيرة في سجل حياة هذا الخليفة الذي حفل عهده بالأحداث الجسام فكانت الخاتمة البائسة لحياته وحياة الاسرة الأموية التي ينتسب إليها وتمت ملاحقته حتى مصر وقتله فيها سنة ١٣٢.

١٠- الجزيرة الفراتية في اواخر العهد الأموي

ظهرت بلاد الشام تاريخياً على أنها المركز التقليدي لنفوذ وسيطرة اليمانيين بسبب غلبة القبائل ذات الأصول اليمانية على صيغة الاستيطان السكاني فيها منذ ما قبل الاسلام فقد استقرت لحم وجدام في فلسطين والأردن، وغسان في الجابية في هضبة الجولان، وكلب في الصحراء السورية، وتتوخ حول حمص، كما مثلت الفتوح الإسلامية شبه هجرة سكانية جماعية يمنية كبرى إلى الشام. ونشأ نوع من التحالف بين الأمويين والكلبيين واليمنيين الذين كانوا يمثلون أغلبية سكان دمشق والمكون الرئيسي للجيش الأموي والمستفيدين الأساسيين من ازدهار دمشق، لكن دمشق بدأت تخسر كثيراً من ازدهارها الاقتصادي منذ عهد هشام بن عبد الملك نتيجة الحصار البحري والتجاري الذي فرضته بيزنطة ضد المسلمين في السواحل التي تخضع لها، وخلف ميناء طرابزون على البحر الاسود ليكون ثغراً لدخول التجارات العربية إلى بيزنطة، وهكذا أخذت التجارة تتحول من الموانئ العربية على سواحل البحر المتوسط إلى طرق داخلية عبر العراق وارمينيا لا سيما وإن الأعمال العسكرية مع البيزنطيين تحسنت في عهد هشام، وانتقل مقر الخلافة في عهد هشام إلى الرصافة في ولاية الجزيرة ثم اختار مروان الثاني فيما بعد حران (قرب الموصل) لتكون مقراً لسكنه وحكمه معاً.

إن أهمية الجزيرة الجغرافية السياسية برزت بروزاً حاداً في عهد هشام الذي ركز سياسته التوسعية، من ضمن أمور أخرى، على منطقتين متجاورتين هما: أرمينيا في الشمال ومن هناك عبر نهر الرس (أراكيس) إلى أرض الخزر وأذربيجان في الشرق لنقل نفوذ الخلافة منها إلى طبرستان، وهكذا كانت سواحل بحر قزوين الجنوبية والغربية تعويضاً عادلاً لهشام عن فشل أسلافه في فتح بيزنطة. كما أدرك مروان الثاني أهمية الجزيرة بارتباطاتها بهذه الأقاليم ففي حملة واحدة فقط قادها مروان إلى ما وراء نهر الرس تمكن من الحصول على أكثر من مائتي ألف مدي من الحبوب على شكل جزية بالإضافة إلى ٢٧٥٠ رأساً من الرقيق.

ونستخلص من هذا:

أن أهمية الجزيرة الاقتصادية والسياسية والجغرافية المتنامية كانت العامل الرئيسي في التوجه نحوها. فهي على طريق القوافل التجارية، ومن حيث هي البوابة الرئيسية التي يمكن العبور منها لافتتاح مزيد من الأراض وبالتالي لزيادة دخل الخزينة، احتلت موقعاً مركزياً في سياسات هشام ومروان الثاني الذي جذبته المنطقة ليكون أقرب ما يكون إلى هذا المركز الجديد للقوة الاقتصادية^(١٣٩).

الباب الثاني المهد الأموي

- ٣- الطبري ٨٩/٤ سنة ٢٨
- ٤- ن.م ٢٨٨/٤ سنة ٣١
- ٥- ابن سعد ٤١٠/٧
- ٦- الاعلاق الخطيرة ١١/١/٣
- ٧- وقعة صفين ١٢
- ٨- أعلام النبلاء ٢٤١/٣
- ٩- الأغاني ١١١/١٧
- ١٠- دائرة المعارف الإسلامية
- ١١- الفخري - ابن طباطبا ١٠٧
- ١٢- تاريخ بلاد الشام - احسان عباس ٩٨
- ١٣- وقعة صفين ١٣٣
- ١٤- مروج الذهب ٣٧٤/٢، وقعة صفين ١٤٨، ١٥١
- ١٥- تاريخ الشام احسان عباس
- ١٦- الشام في صدر الاسلام - نجدة خماش ٣٥٠
- ١٧- ابن الاثير ٨١/٣
- ١٨- البلاذري ٢٢٤، ابن الاثير ٨٤/٣
- ١٩- البلاذري ٢٢١
- ٢٠- الأمويون والبيزنطيون ، العدوي ٤٦
- ٢١- فتحي عثمان ٥٢/٢
- ٢٢- الأمويون والبيزنطيون - العدوي
- ٢٣- ن.م ص ١٧١
- ٢٩- ابن الأثير ٣٣٧/٤
- ٣٠- الحدود الإسلامية البيزنطية فتحي عثمان ٥٥/٢
- ٣١- الأمويون والبيزنطيون- العدوي
- ٣٢- نشوة الطرب- ابن سعيد ٦٠٢/٢
- ٣٣- البيعقوبي ٤٨٠/٢
- ٣٦- الأمويون والبيزنطيون- العدوي ملخص ١٧٣-١٨٠
- ٣٧- فتوح البلدان- البلاذري ٢٣٠
- ٣٨- ن.م ٢٢١
- ٣٩- ن.م ٢٢١، ابن الأثير ٥٤/٥
- ٤٠- ابن طباطبا ١٢٨
- ٤١- الطبري ٤٣٤/٦
- ٤٢- ابن طباطبا ١٢٨
- ٤٣- الأمويون والبيزنطيون- العدوي ١٨١
- ٤٤- العلاقات بين الدولة البيزنطية-
- وسام عبد العزيز ١٤٩
- ٤٥- ن.م ١٦٧
- ٤٦- ن.م ١٧٤
- ٤٧- ابن الاثير ٥٤/٥ سنة ١٠٠ البلاذري ٢٢١
- ٤٨- الأمويون والبيزنطيون العدوي ١٩١-١٩٤
- ٤٩- ن.م ١٩٢
- ٥٠- القشيري الفقرة ٨
- ٥١- القشيري الفقرات ٥٩، ٦٠، ٢٤١
- ٥٢- ابن عساكر ٢٧/٥٨
- ٥٣- ن.م ٤٦/٥٨
- ٥٤- ياقوت: حصن مسلمة
- ٥٥- ياقوت: البليخ
- ٥٦- حضارة وادي الفرات ٢٦٢
- ٥٧- ابن حوقل ٢٠٦
- ٥٨- البلاذري ٣٦٠
- ٥٩- ن.م ١٧٨
- ٦٠- ياقوت بفراس
- ٦١- البلاذري ١٧٦
- ٦٢- الاعلاق الخطيرة ٩١/١/١
- ٦٣- ن.م ٦٩/١/١
- ٦٤- البلاذري
- ٦٥- ن.م ١٩٨
- ٦٦- البلاذري، انساب الاشراف ٣٨٢/٨
- ٦٧- الفن الإسلامي- عفيف بهنسي ١٢٧
- ٦٨- الحوليات الأثرية السورية ١٢٨/٢٣
- ٦٩- معجم البلدان: الرصافة
- ٧٠- ابن الفقيه ١٣٣
- ٧١- معجم البلدان: الرقة
- ٧٢- الادريسي ٦٤٩/٢
- ٧٣- الروض المعطار ٢٦٩
- ٧٤- التصور الشامية - البهنسي -
- الحوليات الاثرية ٢٨/٢٥
- ٧٥- الفن العربي الاسلامي - البهنسي
- ١٢٨ وفيه تفصيلات فنية
- ٧٧- الحوليات الاثرية ٨٦/٣٦
- ٧٨- الرصافة - بشير زهدي ٢٢
- ٧٩- القشيري ٨٠

- ٨١- الذخائر والتحف
٨٢- الخراج ١٦٧
٨٣- تاريخ الموصل للأزدي ٢٧ - ٤٣
٨٤- انساب الاشراف ٤١١/٨
٨٥- ن. م. ٢٨٢/٨
٨٦- تاريخ الموصل للأزدي ٤٠
٨٧- تاريخ المنجي ٣٢٩
٨٩- البلاذري ٢١٣
٩٠- قدامة ٢٤٦
٩١- موزيل. الفرات الاوسط ٣٣٠
٩٢- البلاذري ٢١٣
٩٣- تاريخ ميخائيل ٤٩٠/٢
٩٤- ديوان جرير ٢٩١/١
٩٥- نخبة الدهر- شيخ الربوة ١٩١
٩٦- البلاذري انساب الاشراف ٢٧٦/٨
٩٧- الطبري ٣٢٤/٧
٩٨- موزيل ٣٣٠
٩٩- تاريخ ميخائيل ٤٥٧/٤
١٠٠- البلاذري ٢١٣
١٠١- الجهشيارى ١٢٨
١٠٢- الأغاني ١٦٦/٥
١٠٣- ديوان الصنو
١٠٤- آثار البلاد للقرظيني ٤٦٢
١٠٥- معجم البلدان، الرقة
١٠٦- ديوان الصنوبري ٥٦
١٠٧- عن منارة الطريق أنظر المؤتمر الدولي
الرابع لبلاد الشام، الندوة الثانية ٤٧٢
١٠٨- الطبري ٣٢٤/٧
١٠٩- القشيري فقرة ٦٤
١١٠- القشيري فقرة ٣٣٢
١١١- القشيري فقرة ٣٣٣
١١٢- البداية والنهاية لأبن كثير ٣٣١/٩
١١٣- الطبري
١١٤- الأميون والبيزنطيون - العدوي
١٩١، العيون والحدائق ٤٨/٣ وفيه أن
البطل كان على شرطة مسلمة
١١٥- ابن الاثير ٨٢/٥
١١٦- الطبري ٤٠/٧
١١٧- تاريخ الاسلام للذهبي ٢٢٧/٤ سنة ٣
١١٨- البداية والنهاية لابن كثير ٣٠٥/٩
١١٩- الفلفشندي ٣٠٤/١
١٢٠- تاريخ الرقة للقشيري
١٢١- ابن عساكر ٤٥٦/٥٦
١٢٢- الطبري ٩٠/٧، خليفة ٥٠٧
١٢٣- ابن الأثير ١٩٥/٥
١٢٤- العلاقات بين الامبراطورية
البيزنطية وسام فرح ٢٣١
١٢٥- العلاقات السياسية بين بيزنطة
والشرق - وديع فتحي ١٤٤
١٢٦- البداية والنهاية لابن كثير ٣٣/٩
١٢٧- العلاقات السياسية بين بيزنطة
والشرق - وديع فتحي ١١٤
١٢٨- ن. م. ٢٣٧
١٢٩- الموسوعة الفقهية: الكويت ٢٧٨/٢٦
١٣٠- تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين -
فيليب حتيالمسعودي ١٢٦/٤
١٣٢- تاريخ الادب الجغرافي - كراتشكوفسكي
١٣٣- فتحي عثمان ٢٨٤/٣ - ٢٨٧
١٣٤- البلاذري فتوح ٢٢١
١٣٥- ن. م. ٢٢٨
١٣٦- انطبري ٣٢٣/٧
١٣٧- الطبري ٣٤٥/٧
١٣٨- خلافة بني امية في الميزان - خماش ١٠٠
١٣٩- العباسيون في سنوات التأسيس -
د عصام سخنيني ٢٥. ٢١

الباب الثالث
العصر العباسي الاول

الباب الثالث

العصر العباسي الاول

• هوية النظام العباسي

كان العصر العباسي الاول الذي يبدأ بخلافة أبي العباس السفاح وينتهي بموت الخليفة ائوائق ابن المعتصم آخر عصر يجمع معظم بلاد المسلمين وجماعاتهم تحت لواء واحد، وبعد ذلك تبدأ اجزاء من الدولة في الانفصال عنها وإن احتفظت بالطاعة الاسمية والدعاء والخطبة في معظم الاحيان لخليفة بني العباس. ويبدأ بذلك عصر الأقاليم، ولا تعد الدولة العباسية في مجموعها من الدول الفاتحة فهي لم تقم بفتوح ولم توسع رقعة الاسلام في اية جهة من الجهات. وعندما أنشأ الرشيد جند العواصم والثغور بين الدولة العباسية ودولة الروم في آسيا الصغرى كان معنى ذلك وقف تقدم الدولة العباسية وتأمين دولة الروم، وبذلك اتيح لها الفرصة لمحاربة البلغار الذين كانوا اتراكاً بل مسلمين، فأدخلوهم المسيحية كما ادخلوا الروس فيها. وكل هذه الحقائق لها ابعاد الاثر في التاريخ الاسلامي بل العالمي^(١). واقتصر الجهاد هنا على ضربات تخريبية سريعة وهي المعروفة بالشواتي والصوائف، وبدلاً من ان تملك منطقة الدروب لتدع الباب امامها مفتوحاً للجهاد، اسكنت في المنطقة جماعات من المجاهدين ما بين جند رسمي ومتطوعة، وهذا في حد ذاته دليل الضعف العسكري لدولة الاسلام عامة، حتى أنه حين أغار المعتصم على بلاد الروم وخرب عمورية انتقاماً لعدوان الروم على زبطرة عام ٢٢٢هـ اعتبرته الدولة ذلك نصراً عظيماً أشاد به الشاعر ابو تمام وكذلك المؤرخون، مع ان هذه الغارة لا تقاس إلى انتصارات المسلمين الكبرى في عصر الفتوح، ثم انقلبت الاوضاع وجرو الروم في عصر الدولة المقدونية على اجتياح منطقة العواصم وجند الثغور واستولوا على أنطاكية وغيرها^(٢).

تغيرت بقيام الدولة العباسية سنة ١٢٢هـ وانتقال عاصمة الدولة الإسلامية من دمشق إلى بغداد تغيرت وجهة الدولة الإسلامية فقد كانت وجهتها في العهد الأموي إلى البحر المتوسط حتى تحول البحر المتوسط إلى بحيرة اسلامية، أما وقد أصبحت عاصمتها بغداد غير بعيدة عن طيسفون (المدائن) عاصمة الكاسرة فقد احتوتها آسيا وتغيرت طبيعتها بتغير البيئة وأصبحت اهتماماتها آسيوية، وخرجت منها الاندلس ومعظم بلاد المغرب. ثم ان قيام الدولة العباسية في وسط فارس أدى من لقاء نفسه إلى ان أخذت الدولة طابعاً فارسياً آسيوياً، وأصبحت اهتماماتها آسيوية وأهملت بلاد الشام بعض الشيء، وتركت مصر لولاء الذين كانت تبعثهم اليها، وأصبحت مصر بعيدة عن مركز الدولة، وتحولت شيئاً فشيئاً إلى قاعدة جديدة للدولة الإسلامية، فقامت فيها الدولة الطولونية ثم الاخشيدية ثم الفاطمية، وكلها حاولت بسط نفوذها على ما استطاعت السيطرة عليه من بلاد الشام، وتحولت إلى ما عرف في المصطلح التاريخي بدولة ثم سلطنة مصر والشام، وهي وحدة سياسية كبيرة أصبحت منافسة للدولة العباسية منذ انتقال الدولة الفاطمية الشيعية اليها سنة ٢٥٢هـ، وهكذا قلت اهتمامات الدولة العباسية بالبحر المتوسط^(٣).

وبهذا الانتقال زانت اهم الامتيازات العربية، وأصبح طابع الدولة اسلامياً أكثر منه عربياً، وتعايشت فيها وفي الدويلات التي نشأت من تفتتها جنسيات مختلفة كالعرب والترك والفرس والبرابرة وغيرهم، وتخوف دعاة بني العباس من مناهضة العنصر العربي، وهم يعتمدون على غيره، ويطمعون نوازعهم وامنياتهم، حتى قيل ان كتاباً لإبراهيم بن محمد إلى أبي مسلم الخراساني وقع في يد مروان بن محمد، فقرأ فيه امر ابراهيم لأبي مسلم بقتل كل من يتكلم بالعربية في خراسان^(٤).

يمثل العصر العباسي الاول مرحلة النضج السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي للدولة العربية الإسلامية. وقد اعتمدت الثورة العباسية على الخراسانيين، عرباً كانوا (ومعظمهم

يمانية) أم فرساً. ولم يكن للعروبة في عهدهم أي امتياز خاص بها، بل كان الامتياز للخراسانيين وقد استغلهم العباسيون لكي يعملوا ما يشاؤون ويحتجوا بأن الخراسانيين أرادوا هذا كما في نزع ولاية العهد عن عيسى بن موسى مثلاً. وقد اهتم العباسيون في البدء في عهد السفاح (١٣٢-١٣٦هـ) أولاً بالقضاء على الأمويين، بالقتل والشنق والمصادرة واخراج الجثث من قبورها، ثم القضاء على العلويين.

٢- الرقة في العصر العباسي الأول

(١) خلافة أبي العباس السفاح

دخل أبو العباس السفاح عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ١٣٦.١٣٢هـ، بعد أن سلم عليه أبو سلمة وغيره بالخلافة، قصر الإمارة بالكوفة يوم الجمعة في ربيع الآخر عام ١٣٢هـ، ثم دخل المسجد من دار الإمارة، ثم استخلف على الكوفة وغيرها^(٧) وانتدب من يسير إلى مروان من العباسيين فتطوع عبد الله بن علي^(٨)، وكانت هزيمة مروان بالزباب^(٩)، وقتل مروان يوم الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ١٣٢هـ^(٩). وكان مسير مروان ثم مسيرة عبد الله بن علي خلفه بعد معركة الزاب إلى الموصل ثم بلد عبر دجلة إلى حران ثم دمشق^(١٠) وأظهر عبد الله بن علي ما لأمزيد عليه من القسوة والتشفي فقتل من استطاع من الأمويين^(١١) ووضع يده على أموالهم، واضطهد القيسيين واستغل العصبية بينهم وبين اليمنية في بلاد الشام أسوأ استغلال.

وكان من أوائل المتمردين على العباسيين أبو الورد واسمه مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلبي، وكان في قنسرين عندما احتل الجزيرة الفراتية عبد الله بن علي عم الخليفة أبي العباس فبايع أبو الورد، وكان ببالس والناعورة ولد لمسلمة بن عبد الملك، فقدم قائد من قواد عبد الله بن علي ومعه مائة وخمسون فارساً، الظاهر أنهم خراسانيون، فأسأوا إلى ولد مسلمة بن عبد الملك ونسائهم، فلما علم أبو الورد بذلك خرج وقاتل القائد وقتله وأظهر التبييض والخلع وانضم إليه كثيرون (الطبري ٤٤٣/٧).

وجه أبو العباس في العام المذكور أيضاً أبا جعفر المنصور والياً على الجزيرة وأذربيجان وأرمينية^(١٢) وكان ذلك في ذي القعدة، ومضى إلى الرقة فدعاهم فلم يجيبوه فخلف عليها موسى ابن كعب (أي كان واليها من قبل المنصور وليس من قبل السفاح كما ورد في لائحة ابن شداد) وغلب عليها وسار المنصور في مدن الجزيرة يصلح من دخل في طاعته ويخلف على من التوى عليه، حتى فتحها فكان ممن صالح: أهل الرها وأهل نصيبين وأهل دار^(١٣). وكان على الرها منصور بن جعونة صاحب حصن منصور، فهرب ثم أمناه المنصور فظهر^(١٤).

خروج الجزيرة بقيادة إسحاق بن مسلم العقيلي

كان إسحاق بن مسلم عاملاً لعمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠٠هـ) على خراج الأردن^(١٥) وكان قائداً لمروان بن محمد وولاه أرمينية^(١٦) وفي سنة ١٢٠هـ غزا وافتتح قلاع ترما نشاء وخرب أرضها^(١٧) وفي سنة ١٢٦هـ كان على رأس قيس فوجهه مروان بن محمد إلى أهل الباب في أرمينية^(١٨) وفي سنة ١٢٧هـ تولى إسحاق على قيس أثناء مسيرة مروان من أرمينية نحو الشام^(١٩). وفي سنة ١٢٨هـ كان على مسيرة مروان أثناء قتاله مع الخبيري في نصيبين^(٢٠) ثم بيض أهل الجزيرة سنة ١٣٢هـ بما فيها: قرقيسية والرقة وحران ونصيبين وماردين وداراً ونقضوا حين بلغهم خروج أبي الورد وانتقاض أهل قنسرين وساروا إلى حران وبحران يومئذ موسى بن كعب في ثلاثة آلاف من الجند فتشبث بمدينةها وساروا إليه مبيضين من كل وجه وحاصروه ومن معه وأمرهم

مشتت وليس عليهم رئيس يجمعهم وقدم على تقيته (أي عقبه أو بعده) إسحاق بن مسلم من أرمينية، وكان شخص عنها حين بلغه هزيمة مروان، فرأسه أهل الجزيرة عليهم وحاصر موسى بن كعب نحواً من شهرين، ووجه أبو العباس أبا جعفر فيمن كان معه من الجنود التي كانت بواسطة محاصرة ابن هبيرة، فمضى حتى مر قرقيسيا وأهلها مبيضون وقد أغلقوا أبوابها دونه.

ثم قدم مدينة الرقة وهم على ذلك، وبها بكار بن مسلم (أخو إسحاق بن مسلم) فمضى نحو حران، ووصل إسحاق بن مسلم إلى الرها وذلك سنة ١٢٣هـ. وخرج موسى بن كعب ومن معه من مدينة حران فلقوا أبا جعفر. وقدم بكار على أخيه أسحق بن مسلم فوجهه إلى جماعة ربيعة وداراً وماردين، ورئيس ربيعة يومئذ رجل من الحرورية يقال له (بُرَيْكَة) فصمد إليه أبو جعفر فلقبهم فقاتلوه بها قتالاً شديداً وقتل بريكة في المعركة، وانصرف بكار، إلى أخيه إسحاق بالرها، فخلفه إسحاق بها ومضى في معظم العسكر إلى سميساط فخذق على عسكره وأقبل أبو جعفر في جموعه حتى قابله بكار بالرها وكانت بينهما وقعات.

وكتب أبو العباس إلى عبد الله بن علي في السير بجنوده إلى إسحاق بسميساط فأقبل من الشام حتى نزل بإزاء إسحاق بسميساط، وهم (جماعة إسحاق)، في ستين ألفاً أهل الجزيرة جميعها، وبينهما الفرات. وأقبل أبو جعفر من الرها، فكاتبهم إسحاق كتاباً ووثقوا له فيه، فخرج إسحاق إلى أبي جعفر، وتم الصلح بينهما وكان عنده من أثر أصحابه فاستقام أهل الجزيرة وأهل الشام وولي أبو العباس أبا جعفر الجزيرة وأرمينية وأذربيجان فلم يزل على ذلك حتى استخلف.

وقد ذكر أن إسحاق بن مسلم هذا أقام بسميساط سبعة أشهر، وأبو جعفر محاصره وكان يقول: في عنقي بيعة وأنا لا أدعها حتى أعلم أن صاحبها مات أو قتل، فأرسل إليه أبو جعفر أن مروان قد قتل، فقال: حتى أتيقن ثم طلب الصلح وقال قد علمت أن ابن مروان قد قتل فأمنه أبو جعفر وصار معه، وكان عظيم المنزلة عنده، وقيل أن عبد الله بن علي هو الذي أمنه^(٢١).

قال عنه ابن قتيبة: كان أثيراً عند أبي جعفر جليلاً وعظيم القدر أيام مروان، سائم فسالمت العرب، وحارب فحاربت العرب، وولي أرمينية. وأخوته بكار وعبد العزيز والحارث وعبد الله أشراف سادة، وأعقابهم بالجزيرة^(٢٢). وذكره اليعقوبي بين سمار المنصور وأرسله المنصور^(٢٣) رسولاً إلى أبي مسلم الخراساني^(٢٤) وذكره الحافظ وذكر قصة رواها إسحاق للمنصور قبل أن يقدم على قتل أبي مسلم^(٢٥) كما ذكره الطبري بين صحابة المنصور^(٢٦). وذكرت لإسحاق نصيحته للمنصور عند وفاة أبي العباس السفاح^(٢٧) وكلامه للمنصور حين خاف أن يتأخر عن الحج^(٢٨). وتقدم وصف الطبري له بأنه رأس قيس^(٢٩).

استخلف أبو جعفر مقاتل بن حكيم العكي على عمله في الجزيرة عام ١٣٦هـ. وقدم على أبي العباس فاستأذنه في الحج، وحج في نفس العام أبو مسلم الخراساني وكان أبو العباس قد عقد لأخيه أبي جعفر الخلافة من بعده وجعله ولي عهد المسلمين ومات أبو العباس بالأنبار يوم الأحد لثلاث عشر خلت من ذي الحجة عام ١٣٦هـ^(٣٠) فبوع للمنصور بالخلافة وهو في مكة^(٣١).

١- أهداف النظام العباسي

تمكنت الثورة العباسية من تطبيق برامجها لفترة لم تزد كثيراً عن أربع سنوات (عهد السفاح). وكان التوجه العام للثورة العباسية يهدف إلى إيجاد نمط من العلاقة بين قطاعات المجتمع المختلفة تتسامى فوق المحددات القومية والقبلية والمتأصلة، وقد تجسد هذا التوجه بشكل ملحوظ في عهد السفاح قصير الأجل، عندما وضعت بعض الاسس التي كانت صالحة وإلى حد بعيد لإقامة نظام جديد تتحقق فيه المساواة السياسية. فقد تم الاعتراف بالقطاعات غير العربية في المجتمع الاسلامي، والتي كانت ممثلة برجال اقوياء ودهاة كانوا جزءاً من النظام الجديد، على

أنها شريك في السلطة وبأن لها نصيباً في وظائف المركز وحقاً في هاتيه. وقد جرى التأسيس لهذا الوضع بإعادة تشكيل البلاط، أو الحكومة المركزية، بإدخال الوزير في بيته كمنصب تال لمنصب الخليفة مباشرة، ولا يعلوه بذلك إلا منصب الخليفة، ويشغله دائماً شخص غير عربي يضيف بحكم موقعه شرعية على وجود القطاعات المهمة (التي كانت تنتمي للمحيط سابقاً) في قلب المركز الذي أصبحت تشارك في سلطاته السياسية والإدارية. وكان الإسلام في هذه الحالة وسيلة ضرورية لصيانة المساواة بين الجماعات الاثنية (العرقية) المختلفة التي تشكل منها الأمة الإسلامية، بينما كان آل البيت العباسي، كجهاز حكم، هو الضمان المعتمد به للمحافظة على مثل هذه المثل.

وكانت نظرية الثورة العباسية هي أنها شأن إنساني دينوي يقرر مصيرها مجتمع المسلمين، فالأمة هي التي تختار لمنصب الخلافة شخصاً من آل البيت العباسي تجده مؤهلاً ومناسباً ينال الرضا والقبول والموافقة من جانبها. وكان قادة الثورة يعبرون عن مصالح قطاعات عريضة من الناس وعن طموحاتهم في تغيير النظام السياسي والاجتماعي الذي كان سائداً في العصر الأموي الذي اعتبرته جائراً، وهم الذين رفعوا العباسيين إلى الخلافة. وكان يمثلهم منصب الوزارة الذي مثله أبو سلمة الخلال، وقد طبق هذا زمن السفاح.

وكانت نقطة الضعف القاتلة في هذا النظام هي وجود انعاسيين في الحكم الذين لم يستوعبوا روح الثورة التي رفعتهم إلى منصب الخلافة. فمن جهة أولى كانوا يجهلون كنه مفاهيمها التي تطورت على امتداد المرحلة السرية من العمل والتي دامت أكثر من ثلاثين سنة. وانتهت الثورة المسلحة، ومن جهة ثانية كانوا على غير تماس بالعوامل السياسية والاجتماعية في خراسان التي بلورت آراء الثورة ومفاهيمها. وكان الشيء الوحيد الذي ارادوا رؤيته من هذه الحركة هو أن الأرواح التي أزهقت في الصراع الدموي مع الأمويين إنما أزهقت من أجل وصولهم إلى الحكم، ومن أجل أن يعاد لهم حق لم يكونوا يتصورون من قبل أنه حقهم، إلا بعد أن أعلنت الثورة أحد رجالهم خليفة.

واستأداً إلى ذلك لا يمكن الظن بأن العباسيين كانوا على استعداد لتشجيع مشروع قائم على مفاهيم مشاركة السلطة والحقوق المتساوية، والمساهمة المستقلة في السيادة، فهذه المفاهيم لم تكن غريبة فقط عن تجاربهم الشخصية السابقة واهتماماتهم، بل كانت أيضاً، إن طبقت، تهدد بتقليص حجم سيادتهم، وتتناقض مع ما كانوا يشتهون من احتكار السلطة.

٢) خلافة أبي جعفر المنصور

ولكن حين جاء المنصور وهو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (١٣٦-١٥٩ هـ) تمكن من تأسيس نمط من الحكم كان فيه الرئيس الأعلى في الدولة أي (الخليفة) هو المصدر الوحيد للسلطة والصلاحيات والشرعية، وهو الوحيد الذي يملك الحق في أن يضيف على مساعديه ومن هم أدنى منزلة منه في الحكم وضعاً معترفاً به وكانت المعايير في اختياره للموظفين شخصية بحتة، يشترط فيها على الموظف الاستعداد الكامل لتلبية متطلبات الخليفة ورغباته، ويتصرف الموظف بصفته وكيلاً للخليفة شخصياً، يمثل مصالح الخليفة، وينفذ سياسته. وتخلص المنصور من الوزير أبي سلمة على يد القائد أبي مسلم الخراساني ثم تخلص من أبي مسلم مباشرة، وبذلك استطاع أن يرفع مقام الخليفة إلى أقصى ما يمكن ويعطيه جميع الصلاحيات. وأصبحت الأسرة العباسية مؤسسة أعمال مجدية مالياً واقتصادياً، ولجأ الخليفة باعتباره الممثل لهذه المجموعة إلى استخدام العنف لضمان مقامه في السلطة من جهة وحماية الامتيازات التي حازتها أسرته الحاكمة من جهة أخرى. وفي هذا السبيل نكل مبتدئاً بقيادة الثورة، وبجميع الأطراف التي كانت قد تمثل قياداً على تصرفاته، فتوفرت له الفرصة الكاملة لممارسة حريته الكاسحة في التصرف بالحكم والتفرد بالسلطة، واحتكر مصادرها جميعاً. واستقطبت

الاسرة الحاكمة أفراداً قدموا من مختلف شرائح المجتمع ليقدموا خدماتهم اليهم، وأدركوا ان شرط بقائهم في مناصبهم يكمن في استعدادهم الكامل للاستجابة إلى متطلبات الخليفة حفاظاً على رضاه عنهم وكسب الحظوة عنده، وتحولوا إلى أدوات قمعية شديدة التبطش في يده لإخضاع المحكومين بكفاءة عالية عندما يتطلب الأمر ذلك.

ومما ساعد على حصول ذلك أن قادة الثورة لم يكن لديهم خطة واضحة موضوعة قبل انتصارهم تكفل كبح جماح العباسيين عن الاستبداد بالسلطة بل أنهم سرعان ما اختلفوا فيما بينهم بعد انتصارهم، مما سهل الخلاص منهم.

لم يكن المنصور ينظر إلى الناس من جهة انتماءاتهم القومية ومثل هم عرب أم غير عرب بل ينظر إليهم في ضوء قابليتهم لتقوية نمط الحكم الذي أنشأه، ولتعزيز طريقته في ممارسة السلطة كحاكم مطلق، وعلى هذا فعندما وجد المنصور أن قادة الثورة المستقلين عنه من غير العرب يمكن أن يشكلوا قيداً على توجهه نحو الاستئثار بالسلطة، استبدل بهم اجراء من الموالي لا جذور سياسية لهم. وفي الوقت نفسه اختار من بين الرجال العرب لإدارته أولئك الذين كانوا يظهرون استعداداً للتسليم لمتطلباته أو أولئك الذين كان يرتجى منهم أن يكونوا ذوي فائدة لهيئته الكاسحة. وهم لذلك لم يكونوا في الحكم بصفتهم ممثلين لجمهور عربي معين، بل يعينون بصفتهم أفراداً تربطهم برأس النظام الاعلى روابط شخصية يمكن المحافظة عليها طالما كانوا ولاة وقادة عسكريين وصحابة يلبون طلبات سيدهم.

وبهذا المعنى نفسه كان النظام القبلي العربي، الذي ميز العهد الأموي، بعيداً عن مشروع المنصور، فهو (أي المنصور) لا بد أن يكون قد تعلم درساً من الكوارث التي سببها هذا النظام للأمويين وكان من الأسباب التي أودت بحكمهم في النهاية وبالإضافة إلى ذلك فإن هيمنة المنصور ما كانت لتتيح لمثلي هذه الكتل القبلية الحرية لتشاركه السيادة أو تأخذ جانباً من المكانة المتميزة التي كان المنصور يحتلها. وهكذا فإن تطلعه ليكون له حزب خاص به قاده إلى اتجاه مختلف عن الطريق الذي سار فيه أسلافه الأمويون الذين لجؤوا إما إلى النقيسين وإما إلى اليمينيين ليكونوا مادتهم الحربية، فكان أن اتجه المنصور إلى الخراسانية الذين استقروا خارج خراسان ورفعهم إلى مرتبة القاعدة الشعبية لحكمه. والخراسانية بالتأكيد هنا تعني الخراسانيين غير العرب وتحديدأ الفرس منهم إلا أنه لا يجوز الاستنتاج أن النظام أصبح فارسياً أو أنه صبغ بالصيغة الفارسية، فالخراسانية لم تزد عن كونها أداة تحت اليد ذات تكوين عسكري يمكن الاعتماد عليها عندما يجد الخليفة ضرورة لذلك، وهي بذلك سلاح في يده لتعزيز قبضته على مقاليد الحكم. وإلى جانب هذا فليس هناك من دليل على أن الخراسانية بهذا المعنى كانت تؤثر في خيارات المنصور كما لم يكن لها وجود متميز في أجهزة النظم الوظيفية.

وجرى المنصور على ضرب كل القبائل العربية بالأخرى، فحين اتخذ مدينة بغداد مقراً له ونزل بها وتفرق جنده من الخراسانية في الكور والثغور وخلف على بابيه من قبائل العرب من نزار واليمن، وشغب عليه هؤلاء العرب، عمد المنصور إلى دس الفتنة بين الطرفين مستعيناً بمحمد بن جعفر بن عبد الله بن العباس وبنى لولي عهده المهدي الرصافة في شرقي دجلة ومعه الخراسانية ليلجأ اليهم في وقت الحاجة (لطف التدبير. محمد بن عبد الله الخطيب في ص ٩٥).

وكان المنصور لا تأخذه سنة إذا نمي إليه أن أمراً غير فارسي (أي خراساني) عربياً كان أم سريانيا يمارس شكلاً من أشكال السيادة أو الاستقلال الذاتي، حتى يقضي عليه (ديونيسوس ١٥٦).

وكانت هذه السياسة تجاه العرب قد اتبعها ابو العباس السفاح من قبل إذ ذكر أنه وثب أهل الموصل على عاملهم فانتبهوه وأخرجوه (أي لم يقتلوه) فولى ابو العباس اخاه يحيى بن محمد على

الموصل وضم إليه أربعة الاف رجل من أهل خراسان، فقدمها في سنة ١٢٣هـ فقتل من أهلها خلقا عظيما، وقيل أنه اعترض الناس يوم الجمعة فقتل ثمانية عشر ألف انسان من العرب، ثم قتل عبيد قديم ومواليهم حتى أفتنهم، فجرت دماؤهم فغيرت ماء دجلة (اليقوي ١/٣٦٧، تاريخ الموصل للأزدي ١٤٥، ديونيسوس ١٠٢). وهذا يدعى الآن (عقوبة أو تصرف استباقي).

وإلى ذلك فإن التشديد في عهد المنصور خاصة على المكون الديني للشرعية العباسية من جهة وللمضمون سلطات الخليفة وصلاحياته من جهة أخرى وفر للنظام قاعدة يبدو معها نظاماً إسلامياً يحقق المساواة والفرص المتكافئة للأجناس المختلفة التي تعيش في ظلّه وهذا ينفي بالتأكيد أن يكون لأي من هذه الأجناس، عرب وغير عرب، أي أثر في تشكيل هوية قومية للنظام أو مضمون قومي لتوجهاتها. وهذا ما سار عليه الخلفاء العباسيون بعد المنصور مثل المهدي ثم الهادي ثم الرشيد ثم الأمين ثم المأمون ... إلخ أي لم تكن للقومية، عربية كانت أم غير عربية، قيمة بل كانت القيمة لمقدار خضوع الفرد لرغبات الخليفة وأخلاصه لها^(٤).

وإذا كانت الخلافة العباسية لاقت مشاكل مع أنصار الأمويين فإنها لاقت أيضاً مشاكل مماثلة مع العباسيين وخاصة في الثغور ولذا كان المنصور ومن بعده من الخلفاء يخافون منطقة الثغور بما فيها الرقة فقد ظهرت فيها ثلاثة تمردات ذات طبيعة أسرية أي كان إبطالها من العباسيين وهي: **أولاً** ثورة عبد الله بن علي عم المنصور ولجؤته إلى أخيه عبد الصمد بن علي زمن المنصور، **وثانياً** المؤامرة المزعومة لعبد الملك بن صالح سليل عم آخر للمنصور وذلك في عهد هارون الرشيد الذي اكتفى بسجنه حتى مات (مات الرشيد)، **والثالثة** مؤامرة العباس بن المأمون الذي تآمر على عمه المعتصم، وكانت هذه الثورات كلها في سوريا الشمالية لأن هذه الناحية كانت نقطة انطلاق للبعوث إلى الحرب ولأن الجيوش كانت تحتشد فيها، ولم يذكر أن أية واحدة من هذه الحوادث الثلاث تلقت دعماً فعالاً من الشعب (المؤتمر الدولي الأول لبلاد الشام- سوريا في عهد الخلفاء العباسيين- سورديل ص ٢٣٥ بالفرنسية).

وكانت الرقة وإلى جانبها الرافقة التي بناها المنصور تشكّلان جزءاً من الجزيرة، لكنهما كانتا قريبتين جداً من أراضي سوريا بحيث لا يمكن اغفالهما. وكان للرقة أهمية استراتيجية. وكان على الخراسانيين الذين اقيموا هناك أن يراقبوا سوريا وأن يدافعوا عن الثغور أيضاً (ن م ص ٢٣٩). وقدم عبد الله بن علي على أبي العباس في نفس العام ١٢٦هـ (قبل موته) في الأنبار ف عقد له أبو العباس على الصائفة في أهل خراسان وأهل الشام والجزيرة والموصل فسار حتى بلغ دلوک (بليدة من نواحي حلب) ولم يدرّب (أي لم يجتز الحدود سالكاً الدرب إلى الروم) حتى آتته وفاة أبي العباس^(٣) سنة ١٢٧هـ، وهو بدلوک، وبيعة أبي جعفر المنصور.

(١) خروج عبد الله بن علي

جمع عبد الله بن علي القواد والجند ودعا إلى نفسه وادعى أن أبا العباس السفاح كان قد وعده بالخلافة حين أرسله لتعقب مروان بن محمد والقبض عليه وقتله وأنضم إليه أهل الشام والجزيرة رغم ما فعله فيهم مكيدةً للعباسيين ولرمي الشقاق بينهم لكنهم فيما بعد فروا من جيشه وتركوه لمصيره. ارتحل عبد الله بن علي إلى حران وبها مقاتل العكي وكان أبو جعفر استخلفه لما قدم على أبي العباس السفاح فلم يبايع مقاتل عبد الله وانتهى الأمر بقتل مقاتل.

شرح أبو جعفر أبا مسلم لقتال عبد الله بن علي لأنه رغب في إبعاد أبي مسلم عن خراسان مصدر قوته، واحتاج ذلك من أبي جعفر جهوداً كبيرة واحتمالات كثيرة لإقناع أبي مسلم بذلك فلما بلغ عبد الله أقبال أبي مسلم أقام بجران، فسار إليه أبو مسلم وكان عبد الله بن علي خاف أن لا ينصحه أهل خراسان فقتل منهم نحواً من سبعة عشر ألف (حسب الرواية).

أقبل أبو مسلم فنزل ناحية ولم يعرض لعبد الله وأخذ طريق الشام وادعى لعبد الله أنه لم يجرى لقتاله بل للمسير إلى الشام التي ولاء عليها أمير المؤمنين ففرغ من كان مع عبد الله من أهل الشام وأصروا على المسير إلى الشام لإنقاذ أهاليهم وحررهم فاضطر عبد الله أن يسايرهم وخرج من معسكره الحصين متوجهاً نحو الشام فتحول أبو مسلم ونزل معسكر عبد الله بن علي الذي أخلاه، ثم تقاتل الطرفان خمسة أو ستة أشهر، وأخيراً أنهزم جيش عبد الله وهرب عبد الله نفسه إلى البصرة حيث احتمى بأخيه سليمان بن علي وكان عاملها يومئذ^(٣٣).

كان أبو مسلم قد خرج من العراق في أربعين ألفاً أما عبد الله بن علي فجمع الناس ووضح لهم الأرزاق وأعطاهم وقد جمع خمسين ألفاً من أهل الشام والجزيرة ثم سار حتى وصل إلى مدينة حران وترك أمواله وخزائنه بالرقعة.

سار أبو مسلم حتى دخل الرقة واحتوى على جميع أموال عبد الله وخزائنه وما كان أخذ من أموال بني أمية فاحتوى على ذلك كله ثم صار إلى البصرة فعاصر عبد الصمد أخاً عبد الله بن علي وكان قد خرج مع أخيه^(٣٤) وحمل عبد الله إلى المنصور^(٣٥).

كان عبد الله بن علي (عم السفاح والمنصور) من القواد العباسيين الأوائل الذين حاربوا مروان بن محمد وعمل على قتله وأمعن في قتل الأمويين إلى حد تجاوز انقراضهم حتى أنه قتل عبدة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية زوج هشام بن عبد الملك مع أن العرب لم تكن تجيز قتل النساء لأي سبب كان، وقيل أنه قتلها حتى لا تخبر أبا العباس السفاح أن عبد الله بن علي أخذ بدنتها المرصعة بالجواهر ليطالبها بها رغبة بإعطائها لزوجته أم سلمة^(٣٦) يضاف إلى هذا السبب أيضاً أن عبدة رفضت الزواج بعبد الله بن علي عندما تقدم لخطبتها^(٣٧). وقام عبد الله بن علي بنبش قبور الأمويين فقد نبش قبور معاوية ويزيد وعبد الملك والوليد وسليمان ومسلمة وقبر هشام الذي وجدت جثته صحيحة لقرب مدة دفنه سنة ١٢٥هـ فضربه بالسياط ثم أحرقه^(٣٨).

٢) تصفية أبي مسلم الخراساني سنة ١٣٧هـ

ظهر أبو مسلم الخراساني على المسرح السياسي قائداً عسكرياً منذ عام ١٢٩هـ ٧٤٧م حين أمره إبراهيم الإمام بإعلان الثورة في خراسان فتمكن بفضل نقيب النقباء سليمان بن كثير الخراساني وبمساعدة بقية النقباء العرب العباسيين أن يوصل الثورة العباسية إلى النجاح وأصبح الزعيم الذي لا منازع له. وقد لعبت الكراهية بين أبي جعفر المنصور وأبي مسلم دورها في التخلص منه. فضلاً عن ذلك فقد تأخر في إعطاء البيعة لأبي جعفر بعد وفاة أبي العباس وهما في طريقهما في العودة من الحج، كما أنه عرض على ولي العهد الثاني عيسى بن موسى أن يتعاونوا على تتحية الخليفة الجديد (أبي جعفر) وإلى جانب هذا كله فقد طرح أفكاراً شعوبية بعيدة عن الدين الإسلامي، وإن اعتبار أبي مسلم من قبل الفرس إماماً وادعاءهم أن روح الله حلت فيه دليل على مدى تأثيره عليهم ومدى ارتباطهم به ولذلك جرت تصفيته من قبل أبي جعفر المنصور شخصياً^(٣٩).

ظل المنصور قبل خلافته مستشاراً لأخيه أبي العباس (السفاح). وصفه إسحاق بن مسلم العقيلي بقوله: 'والله قد سبرته ولمست عوده فوجدته خشناً، وغمرته فوجدته صلباً، وذقته فوجدته مرا' وعرف عنه سرعة البديهة وجرالة القول فضلاً عن اقتصاده في النفقات حتى لقب بالدواثيق (جمع دائق) وبأبي الدواثيق ويرى ابن طباطبا: أنه كان رجلاً حازماً يعطي في موضع العطاء ويمنع في موضع المنع وكان المنع أغلب^(٤٠). ويعتبر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية.

عمل المنصور على أن تظل الخلافة وولاية العهد في نسله وأظهر غاية الكرم مع الأسرة العباسية فكان يوليهم ويغلق عليهم الأموال الطائلة ولكنه لا يطيل بقاء أي أمير منهم في نفس الولاية، ويظل على هذا طالما لم يتجاوزوا الحد.

تفقد المنصور الشام والجزيرة أكثر من مرة وقتل اثنين من كبار العهد الأموي في جولاته هذه، وفي الرقة خاصة، وهما منصور بن جعونة وعبد الله بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان صهر إسحاق بن مسلم العقيلي.

ورغم محاربته للأمويين واضطهاده لهم فقد اقتدى بهم في كثير من أعمالهم وخاصة بهشام ابن عبد الملك، وأعجب بعبد الرحمن الداخل وسماء صقر قريش وبالحجاج بن يوسف الثقفي وتمنى لو اتبع له مثلهما.

٣) خروج منصور بن جعونة ومقتله

هو منصور بن جعونة بن الحارث بن خالد (ويقال بن جعونة) النميري العامري من قيس عيلان، من الرها.

روى عن عمر بن عبد العزيز^(٤١) واستعمله عمر على الدروب. وذكروا أن الحارث جد منصور هاجر إلى الجزيرة فنزل وادي بني عامر ثم انتقل منه إلى الرها فاتخذها منزلاً. وعظم قدر جعونة (والد منصور) حتى اختصه عمر بن عبد العزيز واستعمله على ملطية^(٤٢). وكان الحارث قد أرسله محمد بن مروان لقتال شبيب الخارجي عام ٧٦ هـ^(٤٣). ومنصور هذا هو الذي نسب إليه حصن منصور، وذلك أنه تولى بناءه ومرمته، وكان مقيماً به أيام مروان ليرد العدو، ومعه جند كثيف من أهل الشام والجزيرة وكان المنصور هذا على أهل الرها حين امتنعوا في أول الدولة العباسية فحصرهم أبي جعفر المنصور وكان عامل أبي العباس على الجزيرة، وأرمينية، فلما فتحها هرب منصور ثم أمّن فظهر. فلما خلع عبد الله بن علي أبا جعفر المنصور سنة ١٣٧ هـ ولاه شرطته. ولما هرب عبد الله بن علي إلى البصرة استخفى منصور فدلّ عليه سنة ١٤١ هـ فأُتي به المنصور وقتله بالرقة منصرفه من بيت المقدس. وقوم يقولون أنه امن بعد هرب عبد الله بن علي، فظهر ثم وجدت له كتب إلى الروم بغش الاسلام (وهي تهمة يصعب تصديقها على مجاهد مثل منصور بن جعونة له تاريخ مجيد في الجهاد) فلما قدم المنصور الرقة من بيت المقدس سنة ١٤١ هـ في طريق عودته من الحج وجه من آتاه به فضرب عنقه بالرقة، ثم انصرف إلى انهاء شمية بالكوفة. واعاد الرشيد بناء حصن منصور وشحنه في خلافة المهدي^(٤٤). وذكرت بعض المصادر أن مقتل منصور بن جعونة كان سنة ١٤٠ هـ.

وهناك رواية متأخرة ومختلفة قليلاً عما سبق تذكر أن منصوراً أصبح من وجوه قواد عبد الله بن علي الذي خلف عنده أمواله ونقلته. فلما هزم عبد الله وانحل امره، امتنع منصور على أبي مسلم بالرها، فحاصره مدة، فلم تكن له فيه حيلة إلا بالأمان فأمنه على نفسه وماله. فلما حصل في يد المنصور نقله عنها إلى ملطية، وهدم سور مدينة الرها وسائر أسوار الجزيرة من أجل ما كان من امتناع منصور بها وذلك سنة ١٤٠ هـ^(٤٥).

وكان أبو جعفر المنصور يتفقد أنحاء مملكته، ففي سنة ١٤٠ هـ خرج إلى الحج ثم مر ببيت المقدس وصلى في مسجدها وأقام في القدس شهراً ثم انطلق للرقة، وفيها اعدم منصور بن جعونة كما تقدم ثم غادر الرقة سنة ١٤١ هـ عائداً إلى الكوفة.

أما مقتل عبد الله بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، فإن المنصور خرج إلى الشام عام ١٥٤ هـ وسار إلى بيت المقدس وعزم على بناء الرقعة، واستقرى المنصور الجزيرة والشام مدينة مدينة. وقدم الرقة وكان ضحيته هذه المرة عبد الله بن معاوية فقتله وصلبه، وكانت زوج عبد الله ابنة إسحاق بن مسلم العقيلي، وكان له من أبي جعفر المنصور ناصية وكان من خاصته، ومع ذلك عجز عن التوسط حتى لإنزال جثته من على الخشبة أو ستر سواته، ولما أنزلت ابنة إسحاق زوجها عبد الله ودفنته ليلاً، هدد المنصور بأشد العقوبات لولا أن اعترفت الزوجة بأنها هي التي قامت بذلك الأمر.

استعان المنصور ومن تبعه من الخلفاء العباسيين بفئتين من الناس:

الفئة الأولى: فئة أطلق عليها اسم ((الموالي)) ولكن أفرادها كانوا من نوع جديد عرفت باسم موالى الاصطناع وهم مجموعة من الناس يصطنعهم الخليفة في أعماله. وكان لهم المركز الأعلى حتى على الخراسانيين، وكان لهم أقطاع في مدينة بغداد، ومنهم عمارة بن حمزة وتيه، والنريغ بن يونس ومقاليه (الجهشيارى ٦٠٩٦)، ولا يمكن أن تشمل هذه الفئة اترাকা لأنهم في الأصل موالى وليسوا الأحرار ولا عرباً (مقدمة ابن خلدون ٢٣٧) وقد اعتبر البرامكة من ضمن هؤلاء الموالى.

وكان أبو الأزهر يكتب عن نفسه: ((مولى أبو جعفر وعبد)) (الطبري ٥٤٨٧). وكان عبيد الله بن يحيى بن خاقان يكتب عن نفسه ((مولى أمير المؤمنين)) (اليقوي ٤٨٨٢).

الفئة الثانية: هي ما سمي ((الخدم)) التي أطلقت على الخصيان، كما أطلق على الخصي أيضاً كلمتا ((استاذ)) و ((معلم)). وكان للخصي مكانة كبيرة عند البيزنطيين، إذ أخصى الأمباطور ميخائيل الأول يوم سقوطه ابنه الصغير نيكاس فأدى ذلك إلى أنه أصبح البطريرق اغناطيوس ووصل غيره من الخصيان إلى قيادة الجيش أو الأسطول، وذلك لأنهم لا ينجبون ولذلك يأمن الأمباطور أن يكون لهم مطامع يورثونها، كما لم يثبت أن المخصي أكثر فساداً أو تآمراً، أو أقل عزماً أو وطنية من كامل التكوين (الحضارة البيزنطية لأنسيمان ٢٤٣\١٠٢). وأضيفت إلى وظائف الخصيان في العهد الإسلامي وظيفة ((خدمة الحريم)).

وهناك فئة ثالثة كانت موجودة في العهد الأموي استفاد منها العباسيون وهي 'الصحابة' وهي: حاشية السلطان. وقد الفت فيها كتب ورسائل مثل رسالة الصحابة لإبن المقفع في صحابة المنصور، وكتاب أسماء الخلفاء وكتابتهم والصحابة لأحمد بن الحارث الخزاز (ت ٢٥٨هـ) (الفهرست ١١٥) وكتاب السلطان لأبي الحسن علي بن نصر من القرن الرابع الهجري (الفهرست ١٤٥). وكان الزهري في صحابة عبد الملك بن مروان (ابن عساكر ٣٢٤\٥٥)، وعمرو بن ميمون في صحابة مروان بن محمد (القشيري فقرة ١١٦). وكان في صحابة أبي جعفر المنصور سبعمائة رجل يدخلون عليه كل يوم حسب مراتبهم ومن بينهم قواد مثل معن ابن زائدة وإسحاق بن مسلم العقيلي، وادباء وفقهاء (الطبري ٦٤٨، ٧٧، ٨٨). فكانوا من سائر قبائل العرب (البلدان. اليقوي ٢٤٣). وجعل المنصور لابنه المهدي صحابة أجرى لكل منهم خمسمائة درهم. وحين انتقل الرشيد إلى الرقة نقل صحابته معه (الأغانى ١٧\١٣). وكان هناك تنازع في النفوذ عند الخليفة بين الصحابة والخراسانية وموالى الاصطناع (العباسيون الأوائل ٣٧\٢، ٥٣).

من المعروف أن المنصور هو المؤسس الحقيقي للدولة العباسية وهو الذي وضع السياسة التي سار عليها من جاء بعده، وتبدو هذه السياسة واضحة في وصيته في آخر حياته لولي عهده ولده المهدي (الطبري ١٠٣\٨ وما بعد سنة ١٥٨هـ) إذ وصاه:

١- ببغداد وبالأموال أنظر هذه المدينة 'بغداد' فأياك أن تستبدل بها، وقد جمعت لك فيها من الأموال...

٢- ثم بالهاشميين (العباسيين) أن تظهر كراماتهم وتقدمهم.. وتوطئ الناس عقابهم.

٣- ثم بموالى العباسيين: (موالى الاصطناع) فأحسن إليهم واستكثر منهم.

٤- ثم بالخراسانية: فأنهم انصارك. وتخلف من مات منهم في أهله وولده.

٥- ثم حذره من بعض القيسية.

٦- ومن النساء (ولعله يشير إلى الخيزران زوج المهدي وأم الرشيد).

٧- واستعمل حسن الظن بريك واسئ الظن بعمالك.

والتواضح أنه لا مكان في هذه الوصية للعرب وأن المنصور كان رجل سياسة يسعى للمحافظة على نفسه وسلطانه، وجمع الأموال وتكديسها، وتأمل بقاء ولاية العهد في عقبه ويزيد ذلك ما سيرد من سوء معاملته لأخيه مظلوماً، واغداق الأموال على اقربائه من العباسيين وتولييتهم

الولايات واخضاع الناس لهم ثم إلى موالي الاصطناع ثم الخراسانية، ثم استعباد الناس عرباً كانوا أم غير عرب وضرب العرب بعضهم ببعض. وخاطب المنصور اليمانية، حين حرصهم على المضربة في حربه مع ابن هبيرة بقوله: السلطان سلطانكم والدولة دولتكم (تاريخ الموصل ١٤٥)، ولذلك قرر الجاحظ أن دولة العباسيين اعجمية خراسانية ودولة الأمويين عربية (البيان والتبيين ٢٠٦-٣).

اتهم العباسيون أهل الشام والجزيرة أنهم انصار الأمويين كما في كلمة الرشيد، وقال ابن حوقل عن أهل الجزيرة: وفي أهلها ولاء لبني أمية شديد (ابن حوقل ٢٠٣).

وكان العباسيون أو معظمهم على الأقل يحقدون على الأمويين أشد الحقد ويحسدونهم اعظم الحسد وذلك طبقاً لما جرت العادة بين ذوي القرى كما قال الشاعر:

((وظلم ذوي القرى أشد مضاضة))

وظل عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ورغم كثرة من قتل من الأمويين ومن نبش من قبور موتاهم لا يزال يتوق لقتل المزيد منهم حتى وهو شريد في محنته بعد خروجه وفراره إلى البصرة (مختصر ابن عساكر ١٣٨/١٠).

وعلى المنصور قسوة العباسيين وهجومهم بالعقوبة ونسيانهم العفو بقوله: ان بني أمية لم تبلى رحمهم، وآل طالب لم تغمد سيوفهم، ونحن بين قوم قد رأونا أمس سوقة، واليوم خلفاء فليس تتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة (ابن عساكر ٣٨/٣٣٢) (أي باضطهاد الأمويين وإذلالهم).

تزوج أبو العباس السفاح أم سلمة التي كانت زوج مسلمة بن هشام بن عبد الملك وذلك قبل ان يتولى السفاح الخلافة (ابن عساكر جزء النساء ٥٢٥). ولم يتورع العباسيون عن إلحاق أكبر الأذى بالأمويين فقد صادروا أملاكهم وعبيدكم ووزعوها على انفسهم وعلى آلهم (البلاذري ١٧٨) كما صلبوا كثيراً منهم (المحبر ٤٨).

وأكرم المنصور إكراماً شديداً آل حزم الذين أسأوا إلى مروان بن محمد واشتركوا في مقتل عثمان فرد عليهم ضياعهم وغلاتهم (الطبري ٨٥/٨).

وحين سئل المنصور عن الأكفاء من قريش للزواج من بنات بني هاشم قال:

عبد شمس كان يتلو هاشماً وهما بعد لأم أولاب

ثم قال: أكفاؤنا أعداؤنا (وكيع ١٢٧/٣) والمعروف أن هاشم كان خا لعبد شمس.

وكان المنصور يحسد الأمويين على الحجاج وكفايته وأمانته ويتمنى لو كان لديه مثله ويقول عنه: رجل استكفاه قوم فكفاهم، والله لوددت اني وجدت مثل الحجاج حتى استكفيه أمري، وانزله أحد الحرمين ان الحجاج ائتمنه قوم فأدى إليهم الأمانة (الطبري ٦٩/٨).

وكان المنصور كثير الإعجاب ببعض خلفاء الأمويين ورجالهم، وبإخلاص الناس لهم، وقد ذكر له تدبير هشام بن عبد الملك في حرب كانت له، فبعث إلى رجل كان معه ينزل الرصافة (رصافة هشام) يسأله عن تلك الحرب، فقدم عليه وشرح له ما طلب لكنه ترحم وترضى كثيراً على هشام فأحفظ ذلك المنصور، ولكنه أعجب مع ذلك أشد الإعجاب بنيل هذا الرجل وطيب أصله ووفائه، وقال له: لله أم نهضت عنك وليلة أدتك، أشهد انك نهضت حرةً وغراس كريم. ثم قال: عند مثل هذا تحسن الصنعة أو يوضع المعروف، ويجاد بالمصون، وأين في عسكرنا مثله (الطبري ٧٨/٨).

وبالغ المنصور في وصف عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك أول ملوك بني أمية في الأندلس ولقبه بصقر قريش (العقد الفريد ٤٨٨/٤).

كما اعجب بمرwan بن محمد وقواده، فدعى أبا جعفر بن حنظلة البهراني، وكان اعلم الناس بالحرب وشهد مع مروان حروبه، واستشاره في قتال محمد بن عبد الله بن حسن الذي خرج بالمدينة (الطبري ٥٧٧/٨).

وأمن المنصور إسحاق بن مسلم العقيلي بعد حصار دام سبعة أشهر، وكان عنده أثر أصحابه (الطبري ٤٦٦/٧). كما ذكرنا في حينه. كما أمن آل إسحاق وولاهم القيادة مثل بكار بن مسلم العقيلي^(٦٨) الذي ولاه فيما بعد على أرمينية (الطبري ٤٣٨/٨) ولم يندم المنصور على ذلك إذ كانوا عند حسن ظنه رغم أنهم ظلوا مخلصين للأمويين مهما كلفهم ذلك، فقد عرض عبد العزيز بن مسلم العقيلي حياته للخطر حين ادعى أنه هو الذي قتل سهلة الأشعري بأمر من مروان بن محمد، وبذلك أنقذ حياة عبد الله بن مروان بن محمد الذي اتهم بقتله، وكاد يُقتل بسبب ذلك (الطبري ١٣٥٨/٨). وقدّر المهدي هذا الوفاء من عبد العزيز بن مسلم العقيلي فلم يتعرض له.

ورغم إيثار المنصور لإسحاق بن مسلم فأثمه لم يقبل وساطته انزال جثة صهره المصلوب، والقصة هي كما يلي: لما صار أبو جعفر المنصور إلى الرقة دعا بعبد الله بن معاوية بن هشام بن عبد الملك فضرب عنقه وصلبه. وكانت امرأة عبد الله بن معاوية صفية بنت إسحاق بن مسلم العقيلي، ولم يستطع إسحاق هذا أن يتوسط عند أبي جعفر. رغم منزلته عنده. كي ينزل جثة صهره عبد الله من على الخشبة. وحين أقدمت صفية امرأة عبد الله ابنة إسحاق بن مسلم على انزال جثة زوجها هذا ودفنها ليلاً، هدد أبو جعفر المنصور بضرب رقاب وجوه أهل الرقة وأشرافها أن لم يجيئوه بخبر الجثة (مختصر ابن عساكر ١٢/١١).

بطش المنصور بالأمويين لكنه لم يخجل من أن يثي على بعض رجالهم ويستفيد من أعمالهم وتصرفاتهم، ولكن هذا تغير عند خلفاء المنصور.

حاول المهدي أن يُنقّس عن حقه على الأمويين فدفع هشام بن الكلبي أن يملّي كتاباً في مثالب بني أمية (الكبري ١٧٣/٨) كما أخرج آل زياد (ابن أبيه أو ابن أبي سفيان) من قریش وديوانهم، وألحقهم بأبيهم عبّيد عبد آل علاج بن ثقيف وأمهم سميّة (الطبري ١٧٠/٨).

لقد تقدم كيف وصف الرشيد حبّ أهل الجزيرة للأمويين ببارات قاسية ومرة فقال: أنهم أهل الشقاق والنفاق والبغض لأئمة الهدى (يقصد الخلفاء العباسيين) والحب لشجرة اللعنة (يقصد بني أمية) (الطبري ٣١٧/٨). وربما كان من أسباب حقد الرشيد على عبد الملك بن صالح وتحامله عليه وشكه فيه أنه اتهم بأنه من ولد مروان بن محمد (ابن حزم - جمهرة أنساب العرب ٣٦). كما تقدم.

أما المأمون فقد ذكرنا عنه ما يكفي في شخصية المأمون.

٤، الثغور في العهد العباسي الاول، قبل خلافة الرشيد

أقبل قسطنطين الخامس الطاغية في سنة ١٢٣هـ (السنة الاولى من العهد العباسي) عاملاً لمطية. وكمخ يومئذ في يد المسلمين وعليها رجل من بني سليم (من قيس عيلان) فبعث أهل كمخ الصريخ إلى أهل ملطية، فخرج منهم إلى الروم ثمانمائة فارس فواقعتهم خيل الروم فهزمتهم ومال الرومي فأناخ على ملطية فحصر من فيها، والجزيرة يومئذ مفتونة، وعاملها موسى بن كعب بجران، فوجهوا رسولا لهم اليه، فلم يمكنه إغاثتهم. فأخرجهم الروم من ملطية، فتوجهوا نحو الجزيرة فتفرقوا. وهدم الروم ملطية فلم يبقوا فيها الا هرباً (الهرّي: بيت كبير تجمع فيه الاغذية) فأنهم شعّثوا منه شيئاً يسيراً وهدموا حصن قلونية^(٦٩).

ثم نزل الطاغية مرج الحصن في نفس العام ١٢٣هـ فوجه كوسان الارمني حتى اناخ على قاليقلا (أرمينية) وكانت منذ افتتحت ممتعة بمن فيها من أهلها فقتل وسبى وهدمها وساق ماسبى إلى الطاغية وفرق السبي على أصحابه (اصحاب كوسان)^(٦٧).

وكانت الخلافة العباسية مشغولة بالتخلص من عبد الله بن علي ثم من أبي مسلم ثم بالفتن الداخلية الأخرى.

حظيت منطقة الثغور برعاية كبيرة من قبل السلطة المركزية، حيث جعل المنصور من الجزيرة والثغور إقليماً ادارياً مستقلاً ولاء أقاربه، وكان يتم في العادة تولية الثغور لأفراد البيت العباسي، وأعرب الخلفاء بذلك عن مدى اهتمامهم بأمور هذه الثغور بوصفها الدرع الواقعي من أي خطر تتعرض له الأمة الإسلامية من قبل البيزنطيين، وفضلاً عن هذا فإن منطقة الثغور كانت تعيش حالة ازدهار اقتصادي واضح. وإن معظم مدن الثغور وصفت بخصوبتها ووفرة انتاجها الزراعي، فضلاً عن أن السلطات المركزية كانت تعمل باستمرار على التخفيف من الضرائب التي كانت تجبى من هذه المنطقة^(٤٨).

وحين حلت سنة ١٢٩هـ كتب المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ) إلى عمه صالح بن علي يأمره ببناء ملطية وتحسينها، ثم رأى أن يوجه عبد الوهاب بن ابراهيم الامام والياً على الجزيرة وثغورها، فتوجه سنة ١٤٠هـ ومعه الحسن بن قحطبة في جنود من أهل خراسان، فقطع البعوث على أهل الشام والجزيرة فوافى معه سبعون الفاً. فعسكر على ملطية وقد جمع الفعلة من كل بلد فأخذ في بنائها فجذب الناس في العمل حتى فرغوا من بناء ملطية ومسجدها في ستة اشهر، وبنى للجند الذين اسكنوها، لكل عرافة بيتان سفليان وعليتان فوقهما، واصطبل. والعرافة عشرة نفر إلى خمسة عشر، وبنى لها مسلحة على ثلاثين ميلاً منها، ومسلحة على نهر يدعى قباقيب يدفع في الفرات واسكن المنصور ملطية اربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة لأنها من ثغورهم^(٤٩).

وتختلف رواية الطبري وفيها (أي سنة ١٢٨هـ) غزا العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أخو المنصور. في قول الواقدي. الصائفة مع عمه صالح بن علي بن عبد الله، فوصله صالح باريعين الف دينار، وخرج معهم عيسى بن علي بن عبد الله فوصله (أخوه صالح) أيضاً باريعين الف دينار، فبنى صالح بن علي ما كان صاحب الروم هدمه من ملطية. وقد قيل ان خروج صالح والعباس إلى ملطية كان سنة ١٣٩هـ^(٥٠) وإقاما عليها حتى استتم بناؤها ثم غزا الصائفة بدرج الحدث، فوغلوا في أرض الروم. وغزا مع صالح اختاه: ام عيسى ولبابة عمتا المنصور، وكانتا نذرنا إن زال ملك بني أمية أن تجاهدا في سبيل الله. وغزا من درب ملطية جعفر بن حنظلة البهراني^(٥١).

تحركت الخزر بناحية أرمينية ووثبوا بيزيد بن أسيد السلمي، فكتب إلى أبي جعفر المنصور يعلمه ان رأس طرخان ملك الخزر قد أقبل اليه في خلق عظيم وان خليفته قد أنهزم. فوجه اليه ابو جعفر جبريل بن يحيى البجلي (في الطبري: الخراساني) في عشرين الفا من أهل الشام وأهل الجزيرة وأهل الموصل، فواقع الخزر، فقتل خلق من المسلمين. وأنهزم جبريل ويزيد بن أسيد حتى أتيا خرس (حصن بأرمينية) فلما انتهى الخبر إلى أبي جعفر بما جرى. وظهور الخزر ودخولهم بلاد الإسلام، اخرج سبعة آلاف من أهل السجون، وبعث فجمع من كل بلد خلقاً عظيماً، ووجه بهم وبفعله وبنائين، فبنى مدينة كمخ، ومدينة الحمدية، ومدينة باب وان، وعدة مدن جعلها رداءً للمسلمين، وانزلها المقاتلة، وقوي المسلمون بتلك المدن^(٥٢).

والخبر مختلف في الطبري إذ يقول في حوادث سنة ١٤٧هـ فما كان فيها من ذلك: إغارة استرخان الخوارزمي في جمع من الترك على المسلمين بناحية أرمينية، وسببه من المسلمين وأهل الذمة خلقاً كثيراً، ودخولهم تفليس، وقتلهم حرب بن عبد الله الراوندي. وكان ابو جعفر حين بلغه تحزب الترك فيما هناك، وجه جبرائيل بن يحيى، وكتب إلى حرب يأمره بالمسير معه، فسار معه حرب، فقتل حرب وهزم جبرائيل، واصيب من المسلمين من ذكرت^(٥٣).

تحدث البلازري عن كمخ وكيف ان الروم غلبوا عليه ففتحه مسلمة بن عبد الملك، ولم يزل بفتح وتغلب الروم عليه، فلما كانت سنة ١٤٩هـ شخص المنصور من بغداد حتى نزل مدينة الموصل،

ثم أغزى منها الحسن بن قحطبة، وبعده محمد الأشعث وجعل عليهما العباس بن محمد (ابن علي بن عبد الله بن العباس) أخا أبي جعفر المنصور، وكان على الجزيرة والثغور والعواصم ١٤٢هـ. ١٥٥هـ وأمره أن يغزو بهم كمخ فمات ابن الأشعث بآمد، وسار العباس والحسن حتى سارا إلى ملطية فحسلا الميرة منها، ثم أناخا على كمخ، وأمر العباس بنصيب المنجنيق عليها، فجعلوا على حصنهم خشب العرعر لئلا تضربه حجارة المنجنيق، ورموا المسلمين فقتلوا منهم بالحجارة مائتي رجل، فاتخذ المسلمون الدبابات، وقاتلوا قتالاً شديداً حتى فتحوه. ثم إن الروم أغلقوا كمخ^(٥٥).

يظهر أن هذه الغزوة هي التي ذكرها ديونيسيوس ص ١٢٢ ولكن بتاريخ وشكل مختلفين عن الرواية العربية، إذ كتب: في عام ١٠٧٨ (٧٦٦-٧٦٧ م أي ١٤٩-١٥٠ هـ) تحركت عساكر الفرس (أي: الخراسانية) والعرب باتجاه الغرب، وغزا العباس أمير الجزيرة وأخو الملك (أي أخو المنصور) مدن الرها: وطور عبيد وتل كوم، وزحف قحطبة بجيش آخر يعاونه ابن الأشعث على نواحي امد وأهل دجلة، ومات ابن الأشعث في حصار امد. كانت هذه العساكر خليطاً من أمم شتى يتباينون في سيمائهم وعاداتهم، فمنهم من عبد النار، ومنهم من عبد الشمس، هؤلاء يسجدون باتجاه المشرق عند بزوغ الشمس وباتجاه الجنوب عند الظهيرة، ونحو الغرب وقت صلاة العشاء، وأولئك يركعون للقمر والنجوم والدواب، ويحملون اصناماً مختلفة الأشكال والأحجام يتعبدون لها. ودعي هذا النسيج المتلاحم بـ 'موالي الملك' وكانوا أمماً شتى: سنديون، الآثيون، خزريون، ماديون، فرس، عاقوليون، عرب، خوزيون، وإتراك (أي كان جيش المنصور يضم فئات من الصابئة أيضاً).

جمع العباس الصناع من أنحاء الجزيرة وأوكل إلى كل فريق منهم تشييد حصن له يقال له ((حصن زياد)) (يعرف اليوم باسم ((خربوط)) وضرب حصاراً على حصن كان يقوم في تلك النواحي يدعى ((قمح))، (وهو قلعة على حوض الفرات الغربي وهو ((كمخ)) عند الروم ديونيسيوس ص ١٢٩) وحلت الهزيمة بالجيش العربي وانسحب من بقي منهم حياً.

وبنى المنصور حصن زبطرة، وكان قد فتحه حبيب بن مسلمة الفهري ثم أخريته الروم أيام الوليد بن يزيد فبنى بناء غير محكم، فأناخت الروم عليه في أيام فتنة مروان بن محمد فهدمته، فبناه المنصور، ثم خرجت إليه الروم فشعثته^(٥٦).

ثم غزا يزيد بن أسيد السلمي الصائفة سنة ١٥٥هـ ووجه سناناً مولى البطال إلى بعض الحصون فسبى وغنم.

وفي خلافة المهدي محمد بن عبد الله أبي جعفر المنصور (١٥٨-١٦٩هـ) غزا يزيد بن أسيد السلمي سنة ١٦٢هـ من باب قالقلا في أرمينية، ففتح ثلاث حصون وأصاب سبياً كثيراً وأسرى^(٥٧).

لم يكن الخليفة المهدي يقل عن أسلافه من حيث الكفاءة أو النظرة الحاسمة لاتجاه الخطر البيزنطي، لذا استمر في سياسة سلفه ووالده المنصور، فلم يتخل عن سياسة بناء وترميم الحصون وحشد الجنود فيها، كما واصل التصدي بقوة لحملات ليون الرابع على مناطق الثغور والحدود الإسلامية، هذا على الرغم أنه واجه في نفس الوقت بعض الحركات الفكرية المتطرفة، وحركات التمرد وهجمات البيزنطيين.

وكان عهد المهدي أكثر ترفيهاً على الناس من عهد المنصور الذي ضيق على الناس وأثقلهم بالضرائب، كما أن المهدي أطلق الكثيرين من سجن المنصور وجلس للمظالم واعتنى بالعمران واهتم بالصوائف.

جهز الخليفة المهدي في رجب سنة ١٦٣هـ، مارس ٧٨٠ م جيشاً كبيراً لغزو الحدود البيزنطية بلغ عدد أفرادها مائة وخمسين ألفاً وسار بالحملة حتى عسكر بالبردان نحواً من شهرين للاستعداد، ثم سار إلى الموصل ماراً في طريقه بالجزيرة، وعبر الفرات إلى حلب التي اتخذ منها مركزاً لأعماله الحربية، وفي حلب شيع المهدي ابنه هارون (وكان عمره ١٤ سنة) الذي كان قد اصطحبه وجعله

قائداً على الحملة التي لعب فيها دور القائد الفعلي والمباشر وذلك في سن مبكر، إذ جرت العادة بأن أولاد الخلفاء العباسيين تبدأ فترة دراستهم من الخامسة وتنتهي بسن الخامسة عشرة، وعندها يتسلم الأمير أول مهمة (كلو-٢٧)، ومعه أكبر قادة الخلافة العباسية. فقد صحبه أربعة من اسرة البرامكة هم: خالد بن برمك وابنه يحيى وأخوه خالد والحسن ابنا برمك، بالإضافة إلى القائد عيسى بن موسى العباسي، وعبد الملك بن صالح، والربيع ابن يونس، والحسن بن قحطبة (لكن الحسن هذا استعفى فاعفاه المهدي) وقد توغلت الحملة في قلب آسيا الصغرى، ووصلت إلى حصن سمالو (بين المصيصة وطرسوس) الهام وحاصرت حتى استسلم وعقد معاهدة سلام في المحرم سنة ١٦٤هـ وفي وفي طريق عودته إلى بغداد مر هارون ببيت المقدس، وصلى في مسجده، وهذه الحملة من أهم حملات الخليفة المهدي الذي كافأ ابنه هارون على هذا النجاح بأن ولاه على المغرب كله واذربيجان وارمينيا ليكسبه مزيداً من الخبرة.

هذا وقد تغيرت سياسة الخلافة الإسلامية بعد ما كانت هي الاحتلال الدائم في عهد الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية، صارت الغزوات ترمي إلى هدف ديني فحسب بعيداً عن أي احتلال (العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الاسلامي د. ديع فتحي عبد الله ص ١٩٣ وما بعد).

ارسل المهدي قائده العباسي عبد الكبير بن عبد الحميد بن زيد بن الخطاب في نفس العام ١٦٤هـ، فخرج من درب الحدث، وتصدى له جيش بيزنطي في مواجهته في شمال ممر الحدث. وكان عدد أفراد الجيش البيزنطي حوالي ٩٠ ألف مقاتل. وتجمع المصادر على ان القائد العباسي خشي حجم الجيش البيزنطي وانسحب دون مواجهة ويشكل مخزي، مما اغضب عليه المهدي وكاد يقتله عقاباً. وكان هذا الغضب باعثاً كي يجهز المهدي في عام ١٦٥هـ ٧٨٢م جيشاً لم يعيئ مثله في الاسلام كما يقال، قوامه ٩٥٧٩٣ مقاتل وصرف في ذلك مبالغ طائلة، وجعلت قيادته لابنه هارون. ومعه عدد من اتباعه ومستشاريه المقربين ومنهم الربيع بن الفضل ويزيد بن مزيد الشيباني وقد بلغ هارون من العمر ستة عشر سنة وقد يدل هذا الحشد من المستشارين على أن هارون لم يؤد دوراً قيادياً في هذه الحملة والحملة السابقة سنة ١٦٣هـ أي قبل سنتين. ثم تحركت القوات الإسلامية في ١٧ جمادى الآخرة (سنة ١٦٥هـ، ٩ فبراير ٧٨٢ م) بقيادة هارون الذي عبر بوابات قاليقلا، وتوغل داخل الحدود البيزنطية، ثم هاجم قلعة ماجدة، وهي اول القلاع على الحدود السورية وفيها مخازن القمح تحت الأرض، ثم توغل إلى فريجيا في ثيم الاناضول حيث ترك القائد الربيع بن يونس ومعه جيش لحصار ناكوليا. واستمر هارون في السير جاعلاً الربيع بمثابة المؤخرة لجيشه حماية لظهره. اتسمت حركات المسلمين بالمفاجأة والسرعة. وأرسل يحيى البرمكي على رأس قوة نحو ثيم قرقيسيا حيث وقعت معركة بينه وبين جيش هذا الثيم في موقع يسمى دارينو على الحدود الشرقية للثيم. وقد مني القرقيسيون بهزيمة فادحة بلغت نصف تعداد الجيش الذي كان يتألف من ثلاثين ألف مقاتل .

تابع هارون تقدمه ومعه الفرق الرئيسية للجيش، وتبين أن هدفه القسطنطينية، فدخل أراضي ثيم الايوسكيون وهزم كونتها نيكيثاس على يد أحد قادة هارون وهو يزيد بن مزيد الشيباني، وساروا إلى دمستق وهو صاحب المسالح فحمل لهم ١٩٤٤٥٠ ديناراً، ومن الورق (أي الفضة) ٢١٤١٤٨٠٠ درهم. ثم وقف للدفاع في وجه الحملة حرس القيصر (التجماتا الامبراطورية) الذي سد الطريق أمام هارون وأوقف تقدمه. وحوصرت قوات هارون من جميع الجهات. وبذلك سدت في وجهه جميع الجهات وتعذرت النجاة.

تشير المصادر اليونانية إلى أن العرب استمالوا القائد تاتزاتيس (طازاد الارميني) البيزنطي الذي وضع لهم خطة الخلاص التي مرت بالمرحل الآتية: طلب هارون التفاوض مع البيزنطيين وتم توصيل هذا المطلب إلى القادة الامبراطوريين الموجودين في ميدان المعركة، وتدخل طازاد لديهم ليجعل هؤلاء القادة يوافقون على طلب هارون التفاوض ولأن للقائد طازاد مركزه واحترامه لديهم، وافق القادة على ذلك ودبروا لقاء مع هارون لمناقشة طلبه الخاص بالتفاوض.

ونظراً للنشوة التي أخذت هؤلاء القادة واطمئنأتهم، ظنوا أنهم سيفاضون من مركز القوة وأنه لن يكون أمام الرشيد سوى الرضوخ لشروطهم، فيحققون بذلك ما لم يحلموا بتحقيقه، فاستخدموا الترتيبات اللازمة للمفاوضات بسرعة أنستهم واجبههم الأول في أن يتخذوا الاجراءات الامنية، فما كادوا يدخلون معسكر هارون حتى قبض عليهم وكبلوا بالقيود، وأصبحوا أسرى، وتحولت كفة الحملة كلها لصالح هارون بعد أن أصبحت القوات البيزنطية بدون قائد، لأن القائد الوحيد الذي بقي خارج الأسر كان تاتزاتيس (طازاد الذي أصبح موالياً لهارون). أما تقدم مأخوذ من تاريخ ثيوفانس. ولم يعد أمام الامبراطورة إيرين ماتفعله إلا طلب الصلح من هارون والخضوع لشروطه. وعقدت معاهدة الصلح في سنة ١٦٦هـ ٧٨٢ م. بدأ العرب بالانسحاب من الاراضي البيزنطية في ١٧ محرم سنة ١٦٦هـ ١ أيلول ٧٨٢ م. وقد اصطحب هارون معه القائد البيزنطي تاتزاتيس الذي أحضر معه زوجته ومؤيديه. ودخل هارون بغداد وسط الاحتفالات، ومعه أيضاً رسل الامبراطورة إيرين يحملون الجزية من الذهب، ونفذ هارون تعهدهات لتاتزاتيس، وأكرم وفادته، ورتب له لقاء الخليفة المهدي الذي منحه هدايا أخرى، وكرمه أحسن تكريم إذ عهد إليه بقيادة أرمينية (وهو أرميني).

وسبب هذا التصرف من تاتزاتيس هو تصرف الامبراطورة إيرين ضد القادة الكبار الذين كانوا في خدمة ليون الرابع الذي كان يعتمد عليهم ويحسن معاملتهم حتى أن البعض يعتبر تاتزاتيس لاجئاً للعرب وليس هارباً^(٥٨).

كانت أهم بنود الصلح:

١. إقامة الأدلاء والأسواق في طريق عودة الجيش العباسي.
٢. يقدم البيزنطيون جزية سنوية مبلغها ٩٠ ألف دينار تؤدي في نيسان وحزيران من كل عام.
٣. تسليم الاسرى وكان أسرى البيزنطيين ٥٦٤٣ أسير.
٤. هدنة للسلام أمدها ثلاث سنين.

هناك عدة ملاحظات على كيفية إتمام الصلح المتقدم ذكره:

١. ان الذي طلب الصلح هو الامبراطورة إيرين وليس العرب، وإلا كان الوفد العربي هو الذي يذهب للتفاوض إلى المعسكر البيزنطي.
٢. إن دور طازاد في الصلح المذكور غير منطقي ولا معقول، فإن لجوئه إلى العرب يمنعه من استخدام نفوذه لصالح العرب، كما لا يتيح له أن يستعمله لمصلحة البيزنطيين، بل أنه لم يعد له أي نفوذ.
٣. إن الجانب الذي طلب الصلح هو بالتأكيد الجانب البيزنطي وإلا لما تنازل في شروط الصلح إلى هذا الحد.

٤. أما احتجاز الرشيد لوفد القواد البيزنطيين المفاوض فهو أكذوبة واضحة لتسويق بنود الصلح المهينة، وإلا فكيف جرت المفاوضات إذا كان الوفد محتجزاً وبدون أن يرسل وفد آخر بعد

ضمان سلامته برهائن من العرب. وفضلاً عن ذلك فهذا أمر لا ينسجم مع ما عرف عن العرب و المسلمين من سماحة وكرم ضيافة وهم الذين عرف عنهم ضمان الامان للرسول دون شروط مسبقة (٥٩). كان الجيش العباسي قد قتل من الروم في الوقائع ٥٤٠٠٠ رومياً، وقتل من الاسرى صبراً ٢٠٩٠٠ أسيراً. ومما افاء الله على المسلمين من الدواب الحية ٢٠٠٠ دابة. وذبح من البقر والغنم ١٠٠٠٠٠ رأس. وكانت المرتزقة سوى المتطوعة وأهل الاسواق مائة ألف، ويبيع البرذون بدرهم والبغل بأقل من عشرة دراهم، والدراع بأقل من درهم، وعشرين سيفاً بدرهم^(٦٠) (وجميع هذه الارقام مبالغ فيها على الأرجح).

(١) الرشيد والرقعة

نال الرشيد شهرة واسعة وشعبية كبيرة، سواء في التاريخ أم في القصص والأساطير، ويرجع السبب في ذلك إلى ما واجهه الرشيد منذ ولايته للعهد من محاولة خلعه منها، إلى ما قاده من غزوات كبيرة في بلاد الروم، وما أسسه من بلاط يطفح بالرفاهية والأدب والشعر، وإلى ما وهبه من هبات وخلع، وإلى قصته مع البرامكة الفرس وتصفيتهم بعدما استولوا على ما لا يحصى من الأموال واشتروا أسنة ما لا يحصى من الأدباء والشعراء، وإلى كثرة ما حيكت حول الرشيد وآله وندمائهم وشعرائه وولاي عهده الأمين والمأمون من قصص وأساطير اختلط، فيها الحق بالباطل والواقع بالخيال.

من الثابت أن الرشيد أمضى في الرقعة ثلاثة عشر عاماً (١٨٠-١٩٣هـ) أي أكثر مما أمضى في بغداد (عشرة أعوام ١٧٠-١٨٠هـ). وبنى في الرقعة القصور الفخمة، وجعلها قاعدة للملكة وخزانة لأمواله، واحتسب فيها البرامكة بعد نكبتهم، ولذا وجب أن ندرس حياة الرشيد بالتفصيل، ونغربل أخباره بدقة لنصل إلى السبب في:

١. مفارقتها بغداد إلى الرقعة واستيطانها.

٢. نكبتة للبرامكة بعد أن احتملهم ستة عشر عاماً .

٣. أنه ولى العهد لاثنتين من أولاده الأمين والمأمون ثم لولد ثالث بعد ذلك، فكان ذلك سبباً بعد وفاة الرشيد في قيام حرب بين الأمين والمأمون ثم استكمال نفوذ العناصر غير العربية.

(٢) الرشيد ولياً للعهد

ولد هارون بن محمد المهدي بن عبد الله (أبي جعفر المنصور) بن محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس، في نهاية عام ١٤٩هـ في الري في خلافة المنصور. وترغم البرامكة أن هارون ولد في مطلع عام ١٤٩هـ، وكان الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي قد ولد قبله بسبعة أيام أي في نهاية عام ١٤٨هـ، فجعلت أم الفضل بن يحيى ظئراً (أي مرضعة) للرشيد وهي زينب بنت منير، فأرضعت الرشيد بلبان الفضل، وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد^(٦١).

وكان المهدي، حين ولادة ابنه هارون، ولياً للعهد أرسله والده المنصور إلى الري في مهمة عسكرية للقضاء على تمرد فيها. وكانت الخيزران والدة هارون وأخيه الهادي هي بنت عطاء الحريشي (الحريشي: من مخاليف اليمـن) فهي أمة تزوجها المهدي فغلبت عليه وأنجبت له ولديه موسى الهادي وهارون الرشيد والأول أكبر بعامين. وقد ولد هارون في شتاء عام ١٤٨هـ، وكان الابن الثالث للمهدي بعد موسى الهادي وعلي بن ربيعة الهاشمية. أي كان الابن الثاني من الخيزران. وكان يحيى بن خالد البرمكي حينئذ من رجالات الدولة العباسية الذين كانوا في معية المهدي في الري. ويدل تفضيل ولدي الخيزران في ولاية العهد على الابن الآخر عريي الام على

نفوذ الخيزران عند المهدي^(٦٢). يؤيد ذلك أيضاً وبشكل غير مباشر، أن المنصور نصح ولده المهدي في وصيته أن لا يدخل النساء في مشورته في أمره^(٦٣). ويصف الطبري الخيزران بأنها كانت تستبد بالأمر والنهي^(٦٤). ويظهر مما سيجيء فيما بعد أن هارون كان مفضلاً لدى والدته الخيزران وبالتالي لدى والده المهدي .

ولى المهدي ابنه الرشيد في عام ١٦٣هـ، وكان عمره أربعة عشر عاماً (١٦٣-١٤٩=١٤) المغرب كله وأذربيجان وأرمينية.

وعزم المهدي في آخر أمره على تقديم ابنه هارون على ابنه الأكبر موسى الهادي، ولكنه فشل في ذلك وعاجلته المنية عام ١٦٩هـ في ٢١ المحرم^(٧٠).

وكان عيسى بن موسى بن محمد بن علي هو ولي العهد بعد المهدي وذلك منذ خلافة المنصور، ولكن المهدي خلعه من ولاية العهد ودفع له عشرة آلاف درهم، وباع لابنه موسى بولاية العهد من بعده ثم لابنه هارون بعد أخيه وذلك عام ١٥٩هـ^(٧١).

فلما تولى موسى الهادي سنة ١٧٠هـ الخلافة بعد أبيه المهدي ضغط على أخيه هارون وكتبه يحيى بن خالد بن برمك وهدهما بالسجن كي يتنازل هارون عن الخلافة لجعفر بن موسى الهادي^(٧٢)، وحاول مرة أن يغريه فغرض عليه أن يعطيه الهني والمري شرط أن يتنازل عن ولاية العهد لكن يحيى البرمكي أقنعه برفض ذلك ثم أن موت موسى الهادي المفاجئ أنقذ هارون من هذه الورطة، وربما كان للخيزران ضلع في موت الهادي وذلك لكي تحافظ على نفوذها^(٧٣). وقد مات الهادي بصورة مفاجئة وكان في مطلع الشباب (ابن ثلاث وعشرين سنة) وكانت خلافته قصيرة جداً (سنة وشهراً وثلاثة وعشرين يوماً)^(٧٤).

وكان هارون، وهو ولي العهد، ينزل قصر الخلد، ويحيى بن خالد معه نازلاً في داره يلقيه في ليله ونهاره^(٧٥).

(٣) الرشيد خليفة (١٧٠-١٩٣هـ)

بويع للرشيد هارون بالخلافة ليلة الجمعة للنصف من شهر ربيع الأول سنة ١٧٠هـ وهي الليلة التي توفي فيها أخوه موسى الهادي، وكانت سنة اثنين وعشرين سنة وقيل احدى وعشرين سنة^(٧٦). وقد وجد الرشيد حينئذ نفسه في وضع صعب إذ أنه يواجه امامه البرامكة الفرس الذين كانوا كالاخطبوط يمد أذرعه الطويلة في كل الاتجاهات كما بدا ذلك بوضوح فيما بعد، فهم من جهة لهم علاقة وطيدة بالخيزران صاحبة الصولة وذلك منذ عهد المنصور، ومن ناحية ثانية كانوا وثقي الصلة بالأمراء الهاشميين مثل موسى بن عيسى وعبد الملك بن صالح، ومن ناحية ثالثة كانوا متفاهمين مع الطالبين ويعملون سراً على إيقائهم أقوى، ومن ناحية رابعة كانوا لا بلجؤون إلى يد من الحديد لضرب الخوارج والمتمردين على الخلافة مثل نصر بن شبث والعتاف وغيرهما، ومن ناحية خامسة ظل البرامكة يصبرون على العصبية العربية بل ويعملون على تقويتها بالتعاون مع الأمراء الهاشميين. وإزاء هذا كله كان الرشيد مسلوب الإرادة أمام والدته الخيزران، وكانت سلطته محدودة وما يصله من مال الدولة قليل بالنسبة لخليفة مثله، (ولا شك أن في هذا الأمر مبالغة كبيرة وغير قابلة للتصديق إذا درسنا أخباره التالية بدقة)، وأكبر ولده وهو المأمون ولد في ليلة توليه الخلافة أي أنه لم يكن له ولي عهد. ونتيجة لذلك كله لم يجد الرشيد أمامه طريقاً يسلكه إلا أن يسلم أمره إلى البرامكة ويأتمنهم على كل شيء إلى أن يتدبر أمره على نار هادئة. فالبرامكة كانوا أقوى من جميع الاطراف السابقة لأنهم عرفوا أن يسلكوا الطريق لبلوغ ذلك. ومثل هذا الطريق اتبعه المأمون فيما بعد مع الفضل بن سهل ثم المعتصم مع قائده الافشين.

لما جلس هارون للخلافة، قلّد يحيى بن خالد الوزارة^(٧٩) وقال له: 'قد قلّدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك، فأحكم في ذلك بما تراه من الصواب' ودفع إليه خاتمه (أي خاتم الوزارة)^(٨٠). وربما كان في ذلك مبالغة، لأن السلطة كانت حينئذ في يد الخيزران وهي متفاهمة مع البرامكة وكان الرشيد يخاطب يحيى بن خالد بالأبوة لأنه كان أباه فعلاً بالرضاعة. وكان يحيى وابناه الفضل وجعفر يجلسون للناس جلوساً عاماً في كل يوم إلى انتصاف النهار، وينظرون في أمور الناس وحوائجهم لا يحجب أحد، ولا يلقي لهم ستر^(٨١) (أي أنهم جلسوا للنظر في المظالم وغير المظالم)^(٨٢). وكانت الخيزران هي الناظرة في الأمور. وكان يحيى يعرض على الخيزران، ولا يورد ولا يصدر إلا عن أمرها^(٨٣). وكان وضع يحيى بن خالد وأولاده وما تمتعوا به من السلطة (وكانهم كلهم وزراء) شيئاً لم يسبق لأحد أن حظي به من قبل، إذ أنه جرد الرشيد من كل شيء تقريباً، أو أن الأقرب إلى الحقيقة أن يكون الرشيد نفسه قد ترك. وبرضاه - قسماً من سلطته كخليفة تنعم بها والدته ومرؤوسوها البرامكة لا سيما وأنه عاش فترة النزاع بين والدته وإخيه الهادي الخليفة السابق الذي اشتبه في موته السريع شاباً، هذا بالإضافة إلى الحب الذي كان متبادلاً بين الرشيد ووالدته والذي ظهر بوضوح عند وفاتها. لكن الرشيد بدأ بعد فترة من الزمن يظهر عليه الضيق من ذلك^(٨٤).

وكانت الصلة قديمة بين الخيزران والبرامكة، إذ غضب المهدي على خالد بن برمك، فحبسه وألزمه مالا فشفت الخيزران في أمره، بالرضاع الذي كان بين هارون ابنها وبين الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك، فرضي عنه ورده إلى منزله^(٨٥).

وقبل ذلك كان أبو جعفر المنصور قد صرف خالداً (البرمكي) من فارس ونكبه، فوجهت الخيزران بجوهر قيمته ألف ألف درهم ومائتا ألف درهم رعاية للرضاع بين الفضل وهارون ابنها. ولد المأمون في الليلة التي استخلف فيها الرشيد، وولد له محمد بن هارون (الأمين) بعده بستة أشهر (أي ولد الولدان عام ١٧٠هـ) وبذلك صعد الرشيد درجة في سلم طموحه فقد ولي الخلافة بعد أن كاد أخوه ينجح في حرمانه منها ورزق بطفلين يمكن أن يكونا وليين للعهد. وجه الرشيد موسى ابن عيسى في الليلة التي ولي فيها الخلافة (أي ليلة الجمعة للنصف من شهر ربيع الأول سنة ١٧٠هـ) ليقوم الحج للناس (أي قبل حوالي تسعة أشهر من موعد الحج!!) ثم بدا له في الخروج (كتعبير عن شكره لله تعالى عن توقيفه في بلوغ الخلافة ورزقه بوليين للعهد) فخرج ولحق بموسى في الطريق، فأقام بنفسه الحج (وكانت حجته الأولى) وأعطى أهل مكة والمدينة عطايا كثيرة، وفرق فيهم أموالاً، ثم انصرف فصار إلى قبر المهدي والده بماسيدان (شرقي المدائن) فتصدق عنه بأموال عظيمة وجعلها رسماً في كل سنة^(٨٦). لعل هذا الخبر عن اتفاق الرشيد الأموال الكثيرة منذ توليه الخلافة وفي حياة والدته يدل على أن الروايات التي وردت عن أن البرامكة تصرفوا بأموال الدولة - في حياة زبيدة على الأقل - ولم يوصلوا إلى الرشيد إلا القليل مبالغ فيها. وستجد فيما بعد أن الرشيد حج تسع حجّات كانت كل منها أثر تحقيق هدف أو أكثر من الأهداف التي كان يطمح إليها، ولم يحج بعده أي خليفة عباسي^(٨٧).

أجرى الرشيد في عام ١٧٠هـ. وهو أول عام له في الخلافة - عدة إصلاحات فقد عزل الثغور كلها عن الجزيرة وقسرين وجعلها حيزاً واحداً وسميت العواصم^(٨٨) أي صارت ثغور الشام مع ثغور الجزيرة معاً بعد أن كانتا منفصلتين، وقد أمر الرشيد يحيى بن خالد أن يكتتب العمال عن نفسه (أي باسمه لا باسم الخليفة)، وأمر كاتبه (أي كاتب يحيى) أن يكتب عنه في المهم، وأن يؤرخ الكتب باسم الكاتب^(٨٩)، ثم اجتمع ليحيى خاتمي الوزارتين (أي خاتم الوزارة وخاتم الخلافة) وذلك عام ١٧١هـ^(٩٠).

استثقل الرشيد مدينة السلام، فكان يسميها 'مدينة البخار' (البخار والبخر: كل رائحة سطعت من نتن وغيره)، فخرج في عام ١٧٢هـ إلى مرج القلعة (بينه وبين حلوان منزلة وهو من حلوان إلى جهة همدان) فاعتل بها، فأنصرف، وسميت تلك السفرة 'سفرة المرتاد' ^(٩٥)، والعذر المذكور لا يكفي وحده لتعليل خروج الرشيد، إن لم تتضمن إليه اسباب أخرى كضيقه من سيطرة امه ودعمها للبرامكة، وضعفه امامها لا سيما أنه كان يعلم طبعاً بما سبق ان اصاب اخاه الهادي منها. وأنها كانت مسيطرة في عهد زوجها الخليفة المهدي (بما في ذلك ولاية العهد).

١. وفاة محمد بن سليمان زوج العباسية ووفاة الخيزران والدة الرشيد

توفي محمد بن سليمان بن علي العباسي بالبصرة في عام ١٧٢هـ، فوجه الرشيد إلى كل نوع مما خلفه رجلاً أمره باصطفائه. فأخذوا جميع ما كان لمحمد بن سليمان مما يصلح للخلافة من الصامت (الصامت من المال: الذهب والفضة) والكسوة والفرش والرفيق والدواب من الخيل والأبل، والطيب والجوهر، فأدخل جميع ذلك خزائن الرشيد إلا المال، كما أمر الرشيد بصكاك (النصك: وثيقة بمال) للندماء والمغنين، فاستلموا ما أمرهم به من السفن مباشرة ^(٩٦)، إن تملك الرشيد لهذه المبالغ الضخمة من المال وتوليه صرفها كما يريد، ينفي كل الروايات التي تدعي أن البرامكة كانوا يضيّقون عليه مالياً ويستأثرون بالأموال لأنفسهم. واصطفى الرشيد أيضاً ضياع محمد بن سليمان (أي اتخذها لنفسه وتدعى الصوافي). وكان محمد بن سليمان يغل كل يوم مائة ألف درهم ^(٩٧) وكان أميراً على البصرة والبحرين والفرس وعمان واليمامة، وكور الاهواز وفارس ^(٩٨). وفي عام ١٧٣هـ أيضاً توفيت الخيزران والدة الرشيد، وقيل أن وفاتها ووفاة محمد ابن سليمان كانتا في يوم واحد، فخرج الرشيد وهو أخذ بقائمة سريرها حافياً يعدو في الطين حتى أتى مقابر قريش ففسل رجله ثم دعا بخف، وصلى عليها، ودخل قبرها، وهذا يدل على شدة تعلقه بامه. فلما خرج من المقبرة، وضع له كرسي فجلس عليه، ودعا الفضل بن الربيع، وقال له: 'وحق المهدي (وكان لا يحلف به إلا إذا اجتهد) إني لأهم لك في الليل بشيء من التولية وغيرها فتمنعني امي فاطمعة امرها، فخذ الخاتم (أي خاتم الوزارة من جعفر). وكان البرامكة قد فارقوا الرشيد على شيء مقطوع يطلقونه له ^(٩٩) أي راتب مقطوع. ويظهر ان ذلك حدث في حياة والدة الرشيد (وإن كنت أشك في هذا الخبر كما تقدم شرحه لغرابته).

ولي الفضل بن الربيع في العام ١٧٣هـ نفقات العامة والخاصة وبادوريا والكوفة، وهي خمس طساسيج، فأقبلت حاله تنمى إلى سنة سبع وثمانين ومائة ^(١٠٠) وهي السنة التي نكب فيها البرامكة. وعلى هذا فمن المستبعد ما ذكره الجهشاري اذ قال: 'وقلد يحيى بن خالد الفضل بن الربيع ديوان النفقات سنة ١٧٢هـ ^(١٠١) (أي قبل وفاة الخيزران بعام)، الا اذا كانت محرفة عن سنة ١٧٣هـ. وتدل سرعة تولية الرشيد للفضل بن الربيع وحديثه معه فور دفنه والدته على شدة ما كان يعاني من الغيظ من امه ومن البرامكة وأنه استعاد بعض سلطته.

وفي هذا العام ١٧٣هـ. أيضاً حج هارون حجته الثانية، وذكر أنه خرج محرماً من مدينة السلام ^(١٠٢) حتى وصل مكة، وقد استغرق هذا وقتاً طويلاً بالطبع، مما يدل على مبالغته في التواضع لله وشكره، فقد نجاه الله من ضغط والدته ومن نفوذ محمد بن سليمان. وحصل على حقه في التعيين والعزل، كما حصل على مال وفير، واعدوا وكرر ان الرشيد سيقوم بالحج كلما حقق هدفاً عظيماً وليس كما زعموا أنه كان يحج سنة ويغزو سنة، ودليلي على ذلك أن حجاته لم

تتعدى التسعة، والتاسعة قام بها سنة ١٨٨هـ كما سيجئ وكان قد حقق جميع اماله من بلوغ ولاية عهده، والتخلص من البرامكة وغير ذلك ولم يحج بعدها .

وفي سنة ١٧٤هـ خرج الرشيد إلى باقردي وبازيدي، وبني بياقردي قصرا، فقال الشاعر في ذلك:

ببباقردي وبازيدي مصيف ومرتع وعذب يحاكي السلسبيل برود
ويغداد ما بغداد؟ اما ترابها فخره، واما حرها فشديد^(١٠٨)

٢- العصبية الأولى في الشام بين القيسية واليمانية

ظهرت بالشام عصبية^(١٠٩) (أي قتال قبلي بين القيسية واليمانية) في عام ١٧٤هـ. ومع ان الطبري اكتفى بأن يذكر عنها كلمات قليلة، وان ابن الاثير اهمل الاشارة اليها، فقد كان لها اهمية كبيرة لما تلاها في السنوات اللاحقة من عصبيات بلغ عددها - مما وصلنا خبره - اربعة اخرى وذلك في السنوات ١٧٦ و١٨١ و١٨٧ و١٩١هـ زعزعت استقرار الخلافة ووضح منها ان بعض الهاشميين عملوا على اثارها نكاية بالرشيد، وربما ساعدهم في ذلك بعض البرامكة. وكادت العصبية هذه ان تدفع الرشيد إلى الذهاب بنفسه لإخمادها، وكانت بالتأكيد من بين الأسباب التي حدت بالرشيد إلى الاستقرار فيما بعد في الرقة على مقربة من الشام والعراق والروم. وقد حج الرشيد في هذه السنة حجته الثالثة^(١١٠) بعد انتهاء العصبية في الشام هذا العام.

٣- ولاية العهد لمحمد الأمين

ظلت الخلافة العباسية حتى عام ١٧٥هـ بدون ولي عهد، ولا بد أن الرشيد ساوره قلق كبير من جراء ذلك لأن أولاده صغار لا يتجاوز أكبرهم الخامسة من عمره، وقد درج الناس وخاصة الهاشميين أن لا يقبلوا بولاية العهد لصغار السن^(١١١) (إلا إذا كان دوره بعد ولي عهد بالغ قبله). ويذكر اليعقوبي أن الرشيد بايع لابنه محمد (الأمين) بالعهد سنة ١٧٥هـ وأعطى الناس على ذلك اعطيات جمّة، وأنه أخرج محمداً إلى القواد، فوقف على وسادة (وكان عمره خمس سنوات) فحمد الله وصلى على نبيه. وقام عبد الصمد بن علي فقال: أيها الناس! لا يغرنكم صغر السن، فإنها الشجرة المباركة، أصلها ثابت وفرعها في السماء. وجعل الرجل من بني هاشم يقول ذلك حتى انفض المجلس، ونثرت عليهم الدراهم والدنانير وفأر المسك (فأر المسك: وعاءه الذي يجتمع فيه) وبعض العنبر^(١١٢). ولم تحمل الدراهم اسم الأمين إلا سنة ١٧٧هـ^(١١٣).

أما عبد الصمد بن علي فكان عم المنصور وشيخ آل العباس، وكان عمره زمن بيعة الأمين إحدى وسبعين سنة (١٠٦-١٨٥هـ)^(١١٤)، وسبق له أن ذاق طعم السجن من سنة ١٦٣هـ حتى سنة ١٦٦هـ^(١١٥) زمن المهدي لتقصيره في استقبال المهدي، كما أنه كان قد خرج مع أخيه عبد الله بن علي على المنصور ثم تولى الجزيرة^(١١٦) ولعله كان يطمع بالخلافة، ويتولى الرشيد ابنه الأمين ولاية العهد أدرك أنه خطأ خطوة كبيرة نحو هدفه فانطلق إلى حجته الرابعة في نفس العام ١٧٥هـ شكراً لله تعالى^(١١٧).

أما ما ذكره الطبري من أن الرشيد ولى الفضل بن يحيى خراسان كي يحتال ليأخذ البيعة هناك للأمين بعد أن يغدق الأموال على أهلها لما للخراسانية من مقام مميز في الخلافة العباسية لا سيما وأن المنصور سبق له أن نزع ولاية العهد من عيسى بن موسى (بن محمد بن العباس) وولاه ابنه المهدي مدعياً أن الخراسانية الحوا في طلب ذلك (الطبري ١٦٨) فإن هذه الرواية لا صحة لها لأن ولاية العهد للأمين تمت عام ١٧٥هـ أما ولاية الفضل بن يحيى فلم تحدث إلا عام ١٧٧هـ (الطبري ٢٥٥/٨). ولكن رواية (١١٣) فيها: وكانت جماعة من بني العباس قد مدوا

اعناقهم إلى الخلافة بعد الرشيد لأنه لم يكن له ولي عهد، فلما بايع له، انكروا بيعته لصغر سنه (الطبري ١٦٨).

على أن ولياً واحداً للعهد لا يكفي كي يطمئن الرشيد إلى بقاء الخلافة في ذريته، وعليها أن تتوقع أن يعتمد الرشيد فيما بعد إلى تولية العهد لولد ثانٍ ثم لولد ثالث وذلك بعد أن فتح الطريق لذلك نجاحه بتولية العهد للولد الأول رغم صغر سنه، وبذلك يتاح للرشيد أن يطمئن تمام الاطمئنان.

٤- الرشيد والطالبيين والبرامكة

هذا عن المشكلة الأولى، ولاية العهد التي لم يشترك البرامكة في حلها إلا لدعم المأمون. أما عن المشكلة الثانية وهي مشكلة الطالبيين ودعمهم من قبل البرامكة، ففي ما يلي مثال على ذلك: كان يحيى بن عبد الله بن الحسن بن عيسى بن أبي طالب قد أدعى الخلافة فأستمر مدة يطلب موضعاً يلجأ إليه، وعلم الفضل بن يحيى البرمكي مكانه فأمره بالانتقال وقصد الديلم وذلك سنة ١٧٦هـ وكتب له منشوراً ألا يتعرض له أحد، وبلغ الرشيد خبره، فولى الفضل بن يحيى نواحي المشرق وأمره بالخروج إلى يحيى الذي قوي (مقاتل الطالبيين ٢٩٠) وأرسل الفضل جيشاً من خمسين ألف رجل وحملت معه الأموال ففرقها على قواده وعلى الشعراء وعلى هدايا ليحيى بن عبد الله وعلى صاحب الديلم، كما أحضر ليحيى أماناً بخط الرشيد (الطبري ٢٤٢٨) وانتهى الأمر بيحيى بن عبد الله أخيراً إلى السجن في الرافقة (مقاتل الطالبيين ٤٠٣) ومات فيه (ابن الأثير ١٥٥٦). وكان الرشيد قد حبس يحيى بن عبد الله ثلاث مرات وأوصل إليه أربعمائة ألف دينار، وكانت إحدى الحبسات عند جعفر بن يحيى البرمكي الذي أطلقه دون علم الرشيد (الطبري ٣٨٩٨).

كان الرشيد مغرٍ بالسؤال عن أمر آل أبي طالب وعن من له ذكر ونباهه منهم (وذلك ليعمل على سجنه أو قتله من قبيل الحيلة والحذر)^(١٣٥) وهذا هو القتل الاستباقي. وكان هاجس البرامكة أن يدعموا الطالبيين من وراء الستار ليدعموا مركزهم عند الرشيد حين ينجحون فيما بعد بقتله أو بوضعه بين يدي الرشيد^(١٣٦). وإشير هنا إلى مثالين على ذلك وردا في الأرقام (١٣٧، ١٣٨، ١٣٩).

أما عن الهاشميين والرشيد فنورد المثال التالي: بلغ الرشيد أن موسى بن عيسى (بن محمد ابن علي بن عبد الله بن عباس) عازم على الخلع. وكان على مصر. فولى جعفر بن يحيى بن خالد ابن برمك مصر، فولى عليها عمر بن مهران الذي توجه إلى مصر، واستطاع أن يزيله عن إمرة مصر بأيسر سبيل^(١٤٠).

هذا ما جرى عام ١٧٦هـ من الطالبيين والهاشميين أما ما هو أخطر من ذلك وجرى عام ١٧٦هـ فهو العصبية في الشام وهي العصبية الثانية في عهد الرشيد.

٥- العصبية الثانية في الشام في عهد الرشيد

وبالرغم من أن الطبري لم يهتم كثيراً بهذه العصبية ولم يذكر عنها إلا النزر من الأخبار^(١٤٣) فإن ابن الأثير (٥٥٥-٦٣٠هـ) توسع في التفاصيل وسماها 'الفتنة بدمشق' فقال: 'وفي سنة ١٧٦هـ هاجت الفتنة بدمشق بين المضرية واليمانية، وكان رأس المضرية أبو الهيثام واسمه عامر بن عمارة ابن غطفان المري، أحد فرسان العرب المشهورين. وكان سبب الفتنة أن عاملاً للرشيد بسجستان، وكانت تدخل في ولاية الفضل بن يحيى البرمكي كما تقدم، قتل أخاً لأبي الهيثام، فخرج أبو الهيثام بالشام، وجمع جمعاً عظيماً.

ويذكر الطبري أن هذه الفتنة هاجت بالشام وعامل السلطان بها موسى بن عيسى، فقتل بين النزارية واليمانية على العصبية من بعضهم لبعض بشر كثير، فولى الرشيد موسى بن يحيى بن

خالد البرمكي الشام، وضم اليه من القواد والأجناد ومشايخ الكتاب جماعةً فلما ورد الشام أقام بها حتى أصلح بين أهلها، وسكنت الفتنة واستقام أمرها، فانتفى الخبر إلى الرشيد بمدينة السلام، ورد الرشيد الحكم فيها إلى يحيى، فغضى عنهم، وعما كان بينهم، وأقدمهم بغداد^(١٤٥).

تبين مما تقدم أن الأمراء الهاشميين هم الذين أثاروا الفتنة بين القيسية واليمانية بان تحاملوا على القيسية وحرصوا عليهم اليمانية، وكلما خمدت اججوا نيرانها، وربما كان للبرامكة يدٌ لا يستهان بها في ذلك، إذ أن موسى بن يحيى أصلح بين الفريقين بدون حرب كما تقدم ويعلم الله كم انفق في سبيل ذلك من أموال المسلمين. وتتضح أهمية هذه الفتنة عند الرشيد حتى أنه كان على وشك أن يذهب لإخمادها بنفسه.

وقد اشترك في هذه الفتنة حسب رواية ابن الأثير (وهي الأصح عندي لأنه ينقلها على الأغلب عن ابن عساكر الدمشقي وهو مؤرخ موثوق ومدقق) دمشق وقراها وحواران والأردن وحمص، ولو استمرت لشملت بلاداً أخرى.

٦. ولايات للبرامكة

تنازل الخليفة هارون الرشيد في عام ١٧٦هـ لجعفر عن الاشراف عن السكة فصار جعفر بن يحيى يكتب اسمه بمدينة السلام والمحمدية والري، على الدنانير والدراهم واستمرت النقود تحمل اسمه حتى سنة ١٨٦هـ^(١٤٧).

وفي العام التالي أي عام ١٧٧هـ عزل الرشيد جعفر بن يحيى عن مصر وولاه إسحاق بن سليمان (هاشمي) وعزل حمزة بن مالك عن خراسان وولاه الفضل بن يحيى إلى جانب أعماله السابقة (الري وسجستان)^(١٤٨). فصار للفضل المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك، لكن الفضل لم يشخص إلى عمله إلا سنة ١٧٨هـ^(١٤٩)، وظل حتى ذلك الحين قريباً من الرشيد وتحت رقابته. وبعد انتهاء فتنة أبي الهيثم حج الرشيد كالعادة حجته الخامسة^(١٥٠).

وكان الرشيد في هذا العام ١٧٨هـ قد فوض أموره كلها إلى يحيى بن خالد بن برمك^(١٥٢) وفي هذه السنة ١٧٨هـ دخل الرشيد بغداد ثم خرج إلى الرقة، وعاد إلى بغداد وحج بالناس محمد ابن ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس^(١٥٣). وفيها شخص الفضل بن يحيى إلى خراسان والياً عليها، فاحسن السيرة بها، وبنى المساجد والرباطات، وغزا ما وراء النهر، فخرج اليه خافره ملك اشروسنة. وكان ممتعاً. وذكر أن الفضل بن يحيى اتخذ بخراسان جنداً من العجم سماهم العباسية، وجعل ولاءهم له، وإن عددهم بلغ خمسمائة ألف رجل، وأنه قدم منهم بغداد عشرون ألف رجل، فسموا ببغداد الكرنية، وخلف الباقي منهم بخراسان على اسمائهم دون دفع شيء لهم، وقد مدحه مروان بن أبي حفصة وذكر أن عدد هؤلاء المجندين خمسمائة ألف وأن ولاءهم للخليفة وأن من جندوا فعلاً وانتقلوا إلى بغداد عشرون ألفاً فقط، والظاهر أن هذه الرواية كلها غير صحيحة، أولاً أن عدد الجيش العربي أو البرزنطي لم يصل إلى مائتي ألف فكيف بخمسمائة ألف، وثانياً لم ترد فيما بعد أي إشارة تدعم ذلك. وأمر الفضل لمروان بن أبي حفصة بمائة ألف درهم، وكساه وحمله على بغلة، وسمع مروان يقول 'أصبحت في قدمتي هذه سبعمائة ألف درهم' وعقد الفضل لابراهيم بن جبريل على سجستان، ووهب له خراجها وزاده خمسمائة ألف درهم فوصل لابراهيم في ذلك الوجه سبعة آلاف الف درهم، وكان عنده مال الخراج أربعة آلاف الف درهم فوهبها له الفضل وأبى أن يأخذ منها شيئاً^(١٥٤). أي وصل لابراهيم هذا ١١١ مليون درهم وهذا مبالغه كبيرة بدون شك.

وفي خراسان احرق الفضل دفاتر البقايا، ووصل الزوار والكتاب في سنة ١٧٩هـ بعشرة الاف الف درهم وانصرف في آخر سنة ١٧٩هـ إلى العراق فتلقيه الرشيد ببستان أبي جعفر^(١٥٥) وتلقاه بنو هاشم والناس من القواد والكتاب والاشراف، فجعل يصل الرجل بالآلف الف، (أي مائة كيس بدره) والخمسمائة الف (أي خمسين كيس بدره) وذكر عن حفص بن مسلم أنه قال: دخلت على الفضل بن يحيى مقدمه من خراسان وبين يديه بدر (البدره: كيس فيه عشرة الاف درهم) تفرق بخواتيمها، فما فضت بدره منها^(١٥٦). وأما مطمئن تماما بأن هذه الأرقام مبالغ فيها جداً.

٧. خروج الوليد بن طريف الشيباني الشاري في الجزيرة

كان الوليد بن طريف الشيباني رأس الخوارج واشدهم بأساً وصولة، واشجعهم. فكان من بالشماسية أعلى بغداد لأيام طروقه اياه واشتدت شوكته وطالت أيامه^(١٥٧) والشاري: واحد الشراة، وهم الخوارج وانما سموا بذلك لقوتهم إنا شربنا انفسنا في طاعة الله أي بعناها بالجنة حين هارقنا الأئمة الجبابرة^(١٥٨).

وكان الشراة يكفرون الرشيد ويعملون على خلعه ان تمكنوا أو على قتله، وقد كفروا جميع الخلفاء إلا خلافة أبي بكر وعمر وست سنوات من خلافة عثمان، وفترة من خلافة علي قبل التحكيم وفي سنة ١٧٨هـ خرج الوليد بالجزيرة وحكم بها ففتك بإبراهيم بن خازم بن خزيمه بنصيبين ثم مضى منها إلى ارمينيا^(١٥٩).

خرج الوليد في البدء في شاطئ الفرات في ثلاثين رجلاً، وأقبل إلى رأس العين ثم اتى الوليد داراً فباعها بعشرين ألفاً واتي آمدا فباعها بعشرين ألفاً، ثم اتى ميفارقين ففدوها بعشرين ألف، ثم عبر سربط (واديأ يجيء من ارمينيا) فعبه إلى ارزن فاقام بها ففدوها بعشرين ألف ثم اتى خلاط وحاصره عشرين يوماً ففدوا انفسهم بثلاثين ألفاً، ثم أخذ إلى اذربيجان، ثم اتى حلوان ثم اتى أرض السواد التي على طريق الموصل من بغداد فعبه إلى غربي دجلة واتي بلد، فافتدوا منه بمائة الف درهم، ثم اتى نصيبين. وإباح الوليد نصيبين خمسة أيام، فقتل بها خمسة الاف واصاب متاعاً كثيرة ودواباً، ثم باع المدينة بخمسين ألفاً^(١٦٠).

خرج الوليد بن طريف ببلاد الجزيرة بين الفرات والموصل سنة ١٧٨هـ وكثر جمعه من الشراة حتى انتشروا في تلك البلاد، ونهض اليهم عامل ديار ربيعة وقتلوه وصاروا إلى ديار مضر فحاصروا عبد الملك بن صالح بن علي العباسي بالرقعة. واستشار هارون الرشيد يحيى بن خالد البرمكي في من يوجهه لحرب الوليد بن طريف فقال له يحيى 'وجه موسى بن خازم التميمي، فإن فرعون كان اسمه الوليد، ففرقه موسى عليه السلام، فوجهه اليه الرشيد في جيش كثيف، فلاقاه الوليد في اصحابه، فهزمه الوليد وقتله. فلما بلغ الرشيد ذلك وجه اليه معمر بن عيسى العبيدي، فكان بينهما عدة وقائع بناحية داراً من ديار ربيعة، فلما اتصل ذلك، وكثرت جموع الوليد فظهر هذا الظهور العظيم، قال الرشيد: ليس لها إلا الاعرابي يزيد بن مزيد الشيباني^(١٦١) وهو من قبيلة الوليد بن طريف.

ولما انصرف يزيد بالظفر حجب برأي البرامكة، وظهر الرشيد السخط عليه، فقال يزيد: 'وحق أمير المؤمنين! لاصيفن واشتون على فرسي او ادخل'. فأرتفع الخبر بذلك، فاذن له فدخل. فلما راه أمير المؤمنين ضحك وسر وأقبل يصيح: 'مرحباً بالاعرابي' حتى دخل، واجلس وأكرم وعرف بلاؤه، ونقاء صدره، ومدحه الشعراء بذلك^(١٦٢) (واضح هنا مقدار الفرق الهائل بين معاملة القواد العرب المنكرة وبين معاملة غيرهم الذين تقام لهم الاحتفالات وينالون ما يتعذر تصديقه من الهبات والاموال والخلع).

كان مقتل الوليد بن طريف في شهر رمضان عام ١٧٩هـ، واعتمر الرشيد في هذا الشهر (شكراً لله على انتصاره على الوليد بن طريف الشاري) فلما قضى عمرته انصرف إلى المدينة، فاقام بها إلى وقت الحج. ثم حج حينئذ (حجته السادسة) فمشى من مكة إلى منى ثم إلى عرفات، وشهد المشاهد والمشاعر ماشياً 'شكراً لله' ثم انصرف على طريق البصرة^(١٢٧).

كانت ثورة الوليد بن طريف من الشدة والسعة والامتداد على درجة عظيمة، فقد استمرت عامي ١٧٨ و١٧٩هـ وشملت آرمينية والجزيرة، وهددت حتى بغداد، ولم يبد على البرامكة أنهم أخذوها مأخذ الجد. وبلغ من سرور الرشيد بانتهاؤها أنه كما تقدم ابتداء بالعمرة ثم قضى معظم حجته مشياً على قدميه، مع أنه في حجة سابقة شهد المشاهد على الحمار ورفقة الواقدي كدليل^(١٢٨). وكانت هذه الثورة أحد الأسباب التي دفعت الرشيد إلى الاستقرار في الرقة من الجزيرة في العام التالي ١٨٠هـ بعد نهاية حجته وإن كانت النية في الاستقرار هناك قد خالجت من قبل.

ففي عام ١٧٩هـ انصرف الفضل بن يحيى من خراسان وانفق الأموال الطائلة على الشعراء والاتباع واحتمل له الرشيد كل ذلك كما تقدم. ثم عزل الرشيد الفضل بن يحيى عن خراسان، وولى مكانه منصور بن يزيد بن منصور الحميري الذي كان عامل المهدي على اليمن، كما عزل محمد بن خالد بن برمك عن الحجابة وولاه الفضل بن ربيع^(١٢٩) عدو البرامكة الأول والذي اشتهر بالدس عليهم.

وفي عام ١٨٠هـ صار الرشيد إلى البصرة منصرفه من مكة فقدمها في المحرم منها (أي من سنة ١٨٠هـ)، فنزل المحدثه بناحية البصرة أياماً، ثم شخص إلى الحيرة فسكنها وبنى فيها المنازل، واقطع من معه من المخطوط، واقام نحواً من أربعين يوماً، فوثب به أهل الكوفة وأساؤوا مجاورته، فارتحل إلى مدينة السلام، ثم شخص من مدينة السلام إلى الرقة واستخلف بمدينة السلام حين شخص إلى الرقة محمد الأمين (وكان عمره عشر سنوات) وولاه العراقيين^(١٣١) وفي عام ١٨٠هـ أيضاً ولى الرشيد جعفر بن يحيى خراسان وسجستان عوضاً عن منصور بن يزيد بن منصور الحميري (وكان سلفه في حكم خراسان الفضل بن يحيى) واستعمل جعفر عليهما محمد بن الحسن بن قحطبة^(١٣٢).

٨- الرشيد في طريقه إلى الرقة على طريق الموصل كي يستقر فيها فتصبح عاصمة المملكة العربية بأجمعها

١) الرشيد يعزل الفضل بن يحيى عن خراسان ويعين واليا برمكي غيره

شخص الرشيد إلى الرقة على طريق الموصل عام ١٨٠هـ، فلما نزل البردان (بلدة على ضفة الدجلة الشرقية بين بغداد وسامراء) ولى عيسى بن جعفر خراسان وعزل عنها جعفر بن يحيى فكانت ولاية جعفر بن يحيى عشرين ليلة. وفيه أيضاً ولى جعفر بن يحيى الحرس فاستخلف هرثمة بن أعين على الحرس^(١٣٣). لكن الجهشيارى يذكر ما يخالف ذلك، إذ يقول: 'رد الرشيد إلى هرثمة بن أعين الحرس، وكان إلى جعفر، فقال له (أي لهرثمة) جعفر: 'ما نقلت عني نعمة صارت إليك'^(١٣٤) وفيه أيضاً أخذ الرشيد الخاتم (خاتم الوزارة) من جعفر بن يحيى فدفعه إلى أبيه يحيى بن خالد^(١٣٥). كما عزل الفضل بن يحيى عن طبرستان والرويان وولى ذلك عبد الله بن خازم، وعزل الفضل أيضاً عن الري وولاهما محمد بن يحيى بن الحارث بن شخير، وولى سعيد ابن مسلم الجزيرة^(١٣٦).

أصبح الفضل بن يحيى الآن بلا عمل كما يبدو، إذ صرف الرشيد الفضل بن يحيى عن المهام التي كان يتقلدها واحدة بعد الأخرى، ثم ظهر من الرشيد سنة ١٨٢هـ سخط على الفضل بن يحيى^(١٣٧) وسيجيء ذلك في موضعه، وقد أدى ذلك إلى حدوث تباعد بين الأخوين: الفضل وجعفر، وكان يحيى بن خالد يميل إلى الفضل، والرشيد يميل إلى جعفر وكان الرشيد كثيراً ما

يقول ليحيى: أنت للفضل وأنا لجعفر. وغلب جعفر على الرشيد غلبة شديدة حتى صار لا يقدم عليه أحد، وأنس به كل الأنس، وأنزله بالخلد بالقرب من قصره^(١٧٨). ومن أسباب التباعد بين الفضل وجعفر، ان الفضل كان يلتبس من جعفر أن يعطيه - بعد اختصاص الرشيد إياه - من نفسه مثل ما كان يعطيه قبل ذلك، فخرجوا إلى أن صار أحدهما يسبغ الآخر (أي يقع فيه)^(١٧٩) ولعل هذا التقريب لجعفر والتباعد للفضل خطة اصطنعها الرشيد ليوثق بين الأخوين، لأن ما تبين فيما بعد من أن الرشيد أعدم جعفرًا ولم يعد الفضل كما يدل على أن غضبه على جعفر وحقه عليه أكثر بكثير مما يضمه للفضل.

استعمل الرشيد على خراسان علي بن عيسى بن ماهان فولئها عشر سنين^(١٨٠). وكان الرشيد صرف الفضل بن يحيى عن خراسان لتكثير (تبذير) وقع عنده على الفضل في الأموال. وحين تولى علي بن عيسى، قتل وجوه أهل خراسان وملوكها، وجمع أموالاً جلييلة، فحمل إلى الرشيد ألف بدرة معمولة من ألوان الحرير، وفيها (أي في كل بدرة) عشرة آلاف درهم، فلما وصلت إليه سر بها، واحضر يحيى بن خالد، فقال له: يا أبت! أين كان الفضل من هذا؟ قال يحيى: يا أمير المؤمنين! إن خراسان سبيلها أن تحمل إليها الأموال ولا تحمل منها، والفضل أصلح نيات رؤسائها واستجلب طاعتهم، وعلي بن عيسى قتل صناديد أهل خراسان وطراختها، وحمل أموالهم^(١٨١). ويعني هذا الكلام أن البرامكة كانوا يتساهلون مع الخراسانية خاصة وكانوا منذ بدء الخلافة العباسية درعاً لهم، ویرشونهم (أي الخراسانية) ليكونوا سنداً لهم. وقد سار على هذا الطريق أيضاً وفيما بعد تلميذهم الفضل بن سهل حين عمل على إيصال الخلافة إلى المأمون وقتل أخيه الأمين، وسنرى فيما بعد أن المأمون سيقول الفضل بن سهل بعد أن بلغ منه ما يريد ولنفس السبب الذي قتل الرشيد من أجله البرامكة ورغم أن الأرقام المذكورة منذ قليل عن الأموال التي جبيت عام ١٨٠هـ يحتمل أن فيها كما في كل الأرقام في المصادر العربية مبالغة كبيرة ورغم أن ما ذكر منذ قليل من أن يحيى ابن خالد انتقد جباية هذه الأموال (عشرة آلاف ألف درهم) واستكثرها، فإن الأموال التي سبق أن قدم بها الفضل بن يحيى من خراسان قبل عام واحد أي عام ١٧٩هـ وانفقها على زواره وشعرائه وغيرهم تعادل أو تفوق الأموال التي جبيت مؤخراً.

٢) الرشيد يخمد التمرد في الموصل وهو في طريقه إلى الرقة

كان العطف بن سفيان الأزدي، قد خالف على هارون الرشيد، وكان من أهل الموصل وذلك سنة ١٧٧هـ، واجتمع إليه صغاليك البلاد، فجبى الخراج وحبس العمال، وكان فارساً، فمنع عمال هارون من الجباية واستخرج هو المال. وكان معه عبد العزيز بن معاوية وببرويه ومنتصر وغيرهم، فأقام على هذا سنوات ١٧٧ - ١٨٠هـ، والوالي على الموصل على صلاتها وحريها محمد بن العباس الهاشمي، ويقال: عبد الملك بن صالح، وعلى الخراج منجاب. والعطف بن سفيان غالب على الأمر كله، وظل الأمر على هذا الحال حتى عام ١٨٠هـ ففيها شخص هارون الرشيد يريد الرقة بطريق الموصل، فلما وافى الحديثة (كانت بلدة على الجانب الشرقي من دجلة قرب الزاب الأعلى، وهي حد العراق من جهة الموصل وهي غير حديثة الفرات) عزم العطف واصحابه أن يبيتوا عسكره (أي عسكر الرشيد) ليلاً إذا نزل مرج جهينة، فاجتمع شيوخ البلدة وصلحاؤه وناشدوه في ذلك، وسألوه الانصراف عن ذلك، وذكروا له ما يحذرونه من فعله، فخرج في أربعة آلاف رجل نحو أرمينية، وبلغ أهل الموصل عن هارون الرشيد ونما إليهم أنه حلف أن يقتل أهلها،

فلما بلغ مرج جهينة ونزلها، خرج إليه نفر من وجوه أهلها ومن كان بها من أهل العلم فلقوا أبا يوسف القاضي الانصاري، وكان مائلاً إلى أهل الموصل، فاحتال لهم على الرشيد حتى أمنهم إلا العطف بن سفيان وبضعة من أصحابه، وهدم سور المدينة، وأصطفى ضياع العطف بن سفيان وصحبه (١٨٢). كان ما جرى من استبداد العطف بالموصل القريبة من بغداد وسكوت البرامكة على ذلك طيلة السنوات الثلاث الماضية ١٧٧-١٨٠م ثم تدخل الرشيد شخصياً للقضاء على تمرد العطف والتخلص منه، نقطة سوداء كبقية النقاط السوداء في الإدارة البرمكية.

٢) وصول الرشيد إلى الرقة

وأخيراً وصل الرشيد إلى الرقة (أو الأصح: الرافقة مدينة السلطة) في نفس العام ١٨٠م، وكان قد استخلف بمدينة السلام ابنه محمد الأمين وولاه العراقيين كما تقدم وكان سنه عشر سنوات. وكان هارون الرشيد قد ولي الموصل يحيى بن سعيد الحرشي على الحرب والخراج، وعسف الحرشي أهل الموصل عسفاً شديداً وظالبهم بخراج سنين مضت، فجلا عن البلد كثير من أهله إلى أذربيجان... وجبى الحرشي من الموصل ستة آلاف ألف درهم، فحملها إلى الرشيد إلى الرقة، فأمر بدفعها إلى خالصة (جارية أم جعفر زوج الرشيد - عن الأخبار الطوال ٢٨٧). فلما بلغ الحرشي ذلك قال: 'إنا لله وإنا إليه راجعون هلك الناس والصبيان على يدي، وتدفع إلى مملوكة! فبلغها انكلام، فلم تقبلها منه شهراً، ثم أمرت، فابتيع ببعضه جوهر نفيس وسحق في هاون، وأحضرته فنفخ في لحيته^(١٨٣) (أقول: ومثل هذا يصعب تصديقه فهو من التهذير والاستهتار المخالف للشريعة والأرجح أن لا يقبل به الرشيد).

تقدم في عام ١٧٢م أن الرشيد كان يستقل مدينة السلام ويسمىها 'مدينة البخار' وأنه خرج منها إلى 'مرج القلعة' فلم تصلح له^(١٨٤)، وأنه في عام ١٧٤م خرج إلى باقردي وبازبدي، وبنى في باقردي قصراً ولم يستقر فيه. وأخيراً كان الرشيد إذا ضجر من المقام في بغداد خرج يتنزه بالقاطول، وقد بنى فيها مدينة أثارها وسورها قائم، وقد كان خاف من الجند ما خاف المعتصم بعد الرشيد. فلما وثب أهل الشام سنة ١٨٠م وعصوا، خرج الرشيد إلى الرقة فأقام بها، وبقيت مدينة القاطول لم تستتم^(١٨٥)، وما أشار إليه الطبري عن المعتصم عاد فأوضحه فيما بعد فقال: إن سبب خروج المعتصم إلى سامراء (ناحية القاطول) هو جفاؤهم (أي جفاء الجند) وتعرضهم للجرح من قبل الابناء في بغداد^(١٨٦)، أي أن الرشيد أراد لجيشه مدينة مستقلة حفاظاً عليه واحتراراً منه. ويقول ابن الجوزي: 'وسأل المعتصم (في خلافته) مسروراً الخادم: 'أين كان الرشيد يتنزه إذا ضجر من المقام؟ فقال: 'بالقاطول'^(١٨٧)، وكان بنى هناك مدينة أثارها وسورها قائم، وقد كان خاف من الجند أيضاً (لعله شك في اخلاص الجند وأنه يوالي البرامكة) ولذلك فإن إقامة الرشيد في الرقة كانت لأسباب عسكرية ولأسباب أمنية.

وفي الرافقة يكون الرشيد وسطاً بين الشام والعراق وتلغفور وأرمينية. وكان الرشيد يستحسن الرافقة ويستطيبها^(١٨٨)، لكنه يحز في نفسه وفاء أهل الجزيرة للامويين ويدعوها ناحية أهل الشقاق والنفاق والبغض لأئمة الهدى أي العباسيين) والحب لشجرة اللعنة (يقصد الأمويين)^(١٨٩) وفي هذه السنة ١٨٠م بعد أن استقر الرشيد في الرافقة أو قبيل ذلك بقليل، هاجت العصبية في الشام وهي العصبية الثالثة فيما نعلم، وتفاقم أمرها، فاغتم الرشيد لذلك، وعقد لجعفر بن يحيى، من الرقة، على الشام، وقال له: 'إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا' فقال جعفر: 'بل أقيك بنفسي'. فشخص (جعفر) في جلة القواد والكراع (الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح) والسلاح

وجعل على شرطته محمد بن المسيب بن زهير، وعلى حرسه شبيب بن حميد بن قحطبة. فأتاهم فأصلح بينهم وقتل زواقيلهم (أي القيسية المتعصبة) والمتلصصة منهم، ولم يدع بها رمحاً ولا فرساً، فعادوا إلى الأمن والطمانينة وأطفأ تلك الثائرة (أي: كالعادة باضطهاد القيسية وعدم معالجة الأسباب الحقيقية للنزاع). وولى جعفر بن يحيى، صالح بن سليمان البلقاء وما يليها، واستخلف على الشام عيسى العكي، وانصرف، فازداد له الرشيد إكراماً. فلما قدم جعفر على الرشيد، دخل عليه فقبل يديه ورجليه ثم مثل بين يديه (١٩٠). وكان شخوص جعفر من الرقة يريد الشام وشيعه الرشيد. وخرج معه من بحضرة الرشيد من الوجوه والأشراف وفيهم عبد الملك بن صالح (١٩١). يظهر مما تقدم من الروايات أنه في عام ١٨٠هـ حدثت العصيبة في الشام أو بدايتها على الأقل. وكان قتل الرشيد عظيماً، فخرج إلى الرقة ومن هناك أرسل جعفر بن يحيى في موكب عظيم وجيش حاشد.

كما وجه هارون من الرقة موسى بن عيسى على الحج (١٩٢) في هذا العام ١٨٠هـ. والآن وقد استقر الرشيد في عاصمته الجديدة - الرافقة أو الرقة. فإنه سرعان ما بنى مباني للسكان ولقواده (١٩٣)، كما بدأ ببناء القصور لنفسه في الريض خارج الرافقة. وسنرى أن قصر الخشب كان جاهزاً في عام ١٨١هـ. أما قصر الامارة في الرافقة فكان ينزله والي الجزيرة. وكان والي من قبل الرشيد عام ١٨٥هـ العباس بن محمد بن علي، فأمر الرشيد ففرش له (أي للوالي) في قصر الإمارة واتخذت له الآلات وشحن بالرقيق (١٩٤).

وتدل الصور المأخوذة من الجو واللقى الأثرية التي عثر عليها على أن الرشيد أنشأ شمال مدينتي الرقة البيضاء والرقة السوداء، والرافقة مدينة يمكن أن يطلق عليها 'مدينة الرشيد' وتقع خارج الأسوار وتمتد من الشرق إلى الغرب بطول حوالي ١٠ كم، تكن هذه المدينة قد خربت في القرن الرابع الهجري وتحولت إلى أرض زراعية كما خربت مدينة الرقة، وتقدر مساحة مدينة الرشيد بنحو ١٥٠ كم^٢ (الحوليات الأثرية السورية ١٩٥٧).

إذا أردنا أن نلخص ما حققه الرشيد حتى هذا العام وجدنا أنه:

- صرف الفضل بن يحيى شيئاً فشيئاً عما بيده من الأعمال، وعين عدوه الفضل بن الربيع حاجباً له منذ عام ١٧٩هـ.
- تخلص من الشاري الوليد بن طريف بعد أن بلغ القمة من القوة.
- أخضع الموصل بنفسه وقضى على تمرد لها، وهدم سورها.
- قضى على العصيبة في الشام، وإن بدا في ذلك تحاملاً من السلطة على القيسية كما جرت عادة العباسيين.

- نقل خاتم الوزارة من جعفر بن يحيى إلى أبيه يحيى بن خالد.
- أخرج خراسان نهائياً من يد البرامكة ونقلها إلى عدوهم علي بن عيسى بن ماهان.
- قطع شوطاً في الحد من نفوذ البرامكة وأمن وصول أموال الخلافة إليه مباشرة من خراسان وغيرها.

- أمن وجود جيش مقره الرافقة يتبع له مباشرة وبدون واسطة.
- استقر في الرافقة فأمن وجود مقر - عاصمة - له ولجيشه بعيداً عن بغداد وعن جميع الضغوط التي يتعرض لها في بغداد، بعد أن أدرك أنها خير من الحيرة والكوفة والقاطول وجميع مدن العراق. ومع أنه لم يجاهر بغضبه على البرامكة ولم يقاطعهم فقد بدأ بالتضييق عليهم وتقليص نفوذهم.

٩. حجة الرشيد قبل الأخيرة ومعه البرامكة واعادة تولية العهد لأولاده ثم نكبة البرامكة

وسجن عبد الملك بن صالح

نجد الرشيد في عام ١٨١هـ وكأنه منشرح الصدر أكثر من قبل، ونجد يحيى بن خالد ضيق الصدر وكأنه يتوقع شراً، ولذلك حج الرشيد بالناس في هذه السنة الحجة السابعة شكراً لله على ما أنهى تحقيقه. فأقام الحج ثم صدر معجلاً وتخلّف عنه يحيى بن خالد، ثم لحقه بالغمرة (منهل من مناهل طريق مكة يقع شمال شرقي مكة) فاستغفاه (المستغني هو يحيى بن خالد) من الولاية، فأعفاه (الرشيد)، فرد إليه الخاتم (خاتم الوزارة) وسأله الإذن في المقام (المجاورة)، فأذن له. فأنصرف إلى مكة^(١٩٤).

وفي العام التالي ١٨٢هـ انصرف الرشيد من مكة بعد حجة، وتوجه إلى الرقة، كما انصرف يحيى بن خالد من مكة إلى مدينة السلام^(١٩٥).

وفي هذا العام (أو العام الذي يليه حسب رواية الطبري) قام الرشيد بأخذ البيعة لابنه الثاني عبد الله المأمون بعد ابنه الأول محمد الأمين، وعمره اثنا عشر أو ثلاثة عشر سنة، وذلك على الجند بالركة (مقر الرشيد). وكان هذا سهلاً بعد نجاح تولية العهد للأمين في عام ١٧٥هـ أي قبل سبع سنوات على الأقل.

ضم الرشيد ابنه المأمون إلى جعفر بن يحيى، ثم وجهه إلى مدينة السلام ومعه من أهل بيته جعفر بن أبي جعفر المنصور وعبد الملك بن صالح، ومن القواد علي بن عيسى، فبوع له بمدينة السلام. وولاه أبوه الرشيد خراسان وما يتصل بها إلى همدان وسماء (المأمون)^(١٩٦) وكانت هذه التولية قد زادت عصية المشرق للمأمون ولا سيما وأنهم هناك يعتبرونه ابن أختهم (لأن أمه فارسية).

وكان الرشيد عقد لابنه محمد ولاية العهد. فيما ذكر محمد بن يزيد عن إبراهيم بن محمد الحجي. يوم الخميس في شعبان ١٧٣هـ (بينما الرواية المشهورة سنة ١٧٥هـ) وسماء الأمين. وضم إليه الشام والعراق في سنة ١٧٥هـ، ثم بايع لعبد الله المأمون بالركة في سنة ١٨٣هـ، وولاه من حد همدان إلى آخر المشرق^(١٩٧).

أما اليعقوبي فيقول: بايع الرشيد لابنه المأمون بعد محمد بولاية العهد في هذه السنة وهي سنة ١٨٣هـ، وأخذت له البيعة على الناس كلهم من أهل الأسواق، فكان بين البيعة للمأمون والبيعة لمحمد ثماني سنين^(١٩٨).

وكان المأمون في حجر محمد بن خالد بن برمك، فنقله الرشيد إلى حجر ابن عمه جعفر بن يحيى، فأشار جعفر على الرشيد ببيعته بعد محمد، وأقام بالأمر حتى عقد له، وشخص به معه من الرقة إلى مدينة السلام، حتى أكد البيعة له، وأخذ الإيمان على بني هاشم والجموع بها، وكاتب العمال في جميع النواحي بذلك ثم انصرف إلى الرقة^(١٩٩)، أي أن جعفر هو الذي اقترح على الرشيد تولية المأمون العهد تقريباً منه.

نقل ابن الأثير خبر مبايعة المأمون وعلق عليه بقوله: (هذه من العجائب، فإن الرشيد قد رأى ما صنع أبوه وجده المنصور بعبسى بن موسى حتى خلع نفسه من ولاية العهد، وما صنع أخوه الهادي ليخلع الرشيد من العهد، فلو لم يعاجله الموت لخلعه، ثم هو (أي الرشيد) يبايع للمأمون بعد الأمين، وحبك الشيء يعمي ويصم)^(٢٠٠).

صرف الرشيد الفضل بن يحيى عما بيده من الأعمال أولاً بأول كما تقدم، ثم ظهر من الرشيد في سنة ١٨٣هـ سخط على الفضل بن يحيى، فشخص (الفضل اليه إلى الرقة، ومعه أمه

زبيدة بنت منير، فتظاهر بالرضى عنه، وأقره مع الأمين لحضائنه (وكان عمر الأمين ١٣ سنة) ولم يرد للفضل شيئاً من أعماله^(٢٠١) وكان عمر الأمين لا يجيز له تولي عهد الخلافة.

وكان محمد (الأمين) بن الرشيد في حجر جعفر بن محمد بن الأشعث، وكان يكتب في الزمام محمد بن يحيى بن خالد، ثم صرف الرشيد جعفر بن الأشعث، وجعل محمداً في حجر الفضل بن يحيى، وأسكنه معه في قصره المعروف بالخلد، وضم إليه أعماله ودواوينه وشخص الرشيد إلى الرقة^(٢٠٢) إن نقل حضانة الأخوين الأمين والمأمون إلى الأخوين جعفر والفضل ولدي يحيى البرمكي لهُو عمل ذكي من الرشيد ليعث الاطمئنان في البرامكة لا سيما بعد أن ترك الفضل بن يحيى دون عمل.

كتب الرشيد في العام ١٨٣هـ إلى علي بن عيسى بن ماهان وهو بخرسان بالمصير اليه، وكان سبب كتابه اليه بذلك، أنه كان حمل اليه أنه قد أجمع على الخلاف (التمرد) والعصيان فاستخلف علي بن عيسى ابنه يحيى على خرسان فأقره الرشيد. فوافاه علي وحمل اليه مالاً عظيماً، فرده الرشيد إلى خراسان نيابة عن ابنه المأمون (وكان قاصراً) لحرب أبي الخطيب، فرجع^(٢٠٣) أي ان الرشيد كان يتصرف في المشرق كخراسان، ويولي ويعزل رغم أنها داخلية في سلطان ولي عهده القاصر المأمون، وأنه كان في حجر جعفر بن يحيى البرمكي، وأن علي ابن عيسى بن ماهان كان عدو البرامكة جميعاً، وكان يدس عليهم عند الرشيد كما كانوا يدسون عليه. وفي العام نفسه ولي أحمد بن يزيد السلمي ليحيى بن خالد الموصل ثم أرمينية، مما يدل على أن يحيى أنهى انسحابه من الحكم سنة ١٨٠هـ (مما يدل على بقاء بعض نفوذ للبرامكة، خاصة في الموصل وأرمينية) فلما قدم السلمي من أرمينية رجمه الناس ببغداد، ذلك لأنه تحامل على أهل خراسان، فبعث الفضل اليهم فنهاهم عن رجمه، فكفوا عنه^(٢٠٤).

قدم هارون الرشيد مدينة السلام في جمادى الآخرة من عام ١٨٤هـ منصرفاً إليها من الرقة في الفرات في السفن (وهو سهل نسبياً لجريانه مع تيار الماء) فلما صار إليها أخذ الناس بالبقايا (بقايا الرسوم) وولى استخراج ذلك. فيما ذكر عبد الله بن الهيثم بن سام بالحبس والضرب^(٢٠٥) وشمل ذلك العمال والتتاة^(٢٠٦) والدهاقين، وأصحاب النضياغ، والمتعهدين وغيرهم، وكان عليهم أموال مجتمعة. واعتل الرشيد في تلك السنة علة شديدة وشفي منها، فدخل عليه الفضل بن عياض، فرأى الناس يعذبون في الخراج فقال: ارفعوا عنهم! فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من عذب الناس في الدنيا، عذبه الله يوم القيامة) فأمر الرشيد ان يرفع العذاب عن الناس في تلك السنة^(٢٠٧).

ولعل هذه الحادثة هي السبب في ان الرشيد طلب من القاضي أبي يوسف، يعقوب بن ابراهيم صاحب الإمام أبي حنيفة، ان يؤلف له كتاباً جامعاً: (إن أمير المؤمنين الرشيد أيدته الله تعالى سألتني ان اجمع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج .. وانما اراد بذلك رفع الظلم عن رعيته واصلاح أمرهم) (من مقدمة كتاب الخراج للقاضي ابو يوسف).

يبدو من لائحة المطالبين بالبقايا أنها تشمل كبار المكلفين من عمال وزراع ومتعهدين، وإن تدخل الرشيد شخصياً وذهابه من الرقة إلى بغداد للإشراف على تحصيل بقايا الضرائب المتراكمة، كأنه تأنيب للبرامكة وإظهار لتقصيرهم وتبذيرهم، وسبق ان ذكرنا ان الفضل بن يحيى في ولايته لخرسان ١٧٧-١٧٩هـ أحرق دقائر البقايا^(٢٠٨).

شخص الرشيد إلى الرقة على طريق الموصل في عام ١٨٥هـ بعد أن أمضى عدة شهور في بغداد، وتوفي في غيابه محمد بن إبراهيم المعروف بالإمام، ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ببغداد لإحدى عشرة بقيت من شوال سنة ١٨٥هـ، فصلى عليه الأمين^(٢٠٩).

وفيها أيضاً استأذن يحيى بن خالد في العمرة والجوار، فإنَّ له الرشيد فخرج في شعبان، واعتمر عمرة شهر رمضان ثم رابط بجدة إلى وقت الحج ثم حج^(٢١١). وإذا كان الرشيد يكرر حجه شاكراً لله على أنه يحقق له رغباته وتمنياته تدريجياً فإنَّ يحيى البرمكي يكرر حجه مستغفراً لله وتائباً إليه لأنه شعر أن الحظ بدأ بالتراجع عنه تدريجياً وأن أيامه البيضاء اشرفت على الانتهاء وأن نهايته قد قربت. وحين انصرف من الحج نزل دي العمر^(٢١٢). الذي قتل فيه جعفر بن يحيى فيما بعد - وكانت هذه الحجة هي الثانية ليحيى، وكانت الأولى في عام ١٨٠هـ مع الرشيد كما تقدم.

وحج بالناس هارون الرشيد وكانت حجته الثامنة، وكان شخوصه من الرقة للحج في شهر رمضان، فمر بالأنبار، ولم يدخل مدينة السلام، ولكنه نزل على شاطئ الفرات في الدارات وبينه وبين مدينة السلام سبعة فراسخ وخلف بالرقة إبراهيم بن عثمان بن نهيك العكي^(٢١٣) وذلك على الحرم والخزائن والأموال والعسكر في الرقة^(٢١٤) وأخرج معه ابنه محمد الأمين وعبد الله المأمون وليي عهده^(٢١٥) وجل بني هاشم والقواد والكتاب، فلم يتخلف منهم أحد له ذكر وقدر^(٢١٦) وحج مع الرشيد الفضل وجعفر ابني يحيى البرمكي ويحيى نفسه، فلما صار الرشيد بالمدينة جلس ومعه يحيى، وأعطى أهل المدينة العطاء ثم جلس محمد الأمين بعده ومعه الفضل بن يحيى فأعطاهم العطاء ثم جلس بعده عبد الله المأمون ومعه جعفر بن يحيى فأعطاهم العطاء، فأعطوا في تلك السنة ثلاثة أعطية فكان أهل المدينة يسمون ذلك العام (عام الثلاث أعطية)^(٢١٧).

ثم صار الرشيد إلى مكة فلم يفعل مثل ذلك^(٢١٨) ولكن الطبري يخالف ذلك ويقول: ثم صار الرشيد إلى مكة فأعطى أهلها فبلغ ذلك ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار^(٢١٩). وأشخص الرشيد القاسم ابنه إلى منبج فأمر له بمن ضم إليه من القواد والجند، فلما قضى الرشيد مناسكه كتب لعبد الله المأمون كتابين، أحدهما الفقهاء والقضاة آراءهم فيهما، أحدهما على محمد الأمين بما أشرت على من انوفاء بما فيه تسليم ما ولي عبد الله (المأمون) من الأعمال، وصير إليه من الضياع والجواهر والأموال، وفيه أيضاً تسليم الأمين بولاية العهد بعد المأمون القاسم بن الرشيد^(٢٢٠)، والآخر نسخة الشرط الذي كتبه عبد الله المأمون بخط يده في مكة. وبعد أن أخذ البيعة على محمد الأمين وأشهداه عليه بها الله وملائكته ومن كان في الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم، جعل الرشيد الكتابين في البيت الحرام، وتقدم إلى الحجة فيه في حفظهما، ومنع من أراد إخراجهما والذهاب بهما^(٢٢١). وأورد الطبري صورة عن الكتابين المذكورين^(٢٢٢) كما أوردتهما البقوي وفيها أسماء الشهود على الكتابين ومن بينهم: يحيى بن خالد والفضل بن الربيع والعباس بن الفضل^(٢٢٣).

وكان جعفر بن يحيى طالب محمد الأمين، لما حلف للمأمون في البيت الحرام أن يقول: (خذلني الله إن خذلته). فقال ذلك ثلاثاً^(٢٢٤) وفرغ الرشيد من توطيد ما قصد له من بيعة ابنه، وأخذ الإيمان لكل واحد منهما على صاحبه، وعلى الناس لهما. قال موسى بن يحيى: (فخرج أبي إلى الطواف وأنا معه من بين ولده، فجعل يتعلق بأستار الكعبة ويردد هذا الدعاء: (اللهم إن دنوبي جمة لا يحصيها غيرك، ولا يعرفها سواك، اللهم أن كنت معاقبي فأجعل عقوبتي في هذه الدنيا وإن أحاط ذلك بسمعي وبصري ومالي حتى تبلغ رضاك)^(٢٢٥) وذلك (إذا صبح) يدل على أن آخرة البرامكة قد دنت وأنهم شعروا بذلك. وأمر هارون الرشيد لعبد الله المأمون بمائة ألف دينار وحملت له من بغداد إلى الرافقة^(٢٢٦).

بهذا بلغ كل من الرشيد كطريف والبرامكة كطريف آخر غاية ما يصبون إليه. فالبرامكة وصلوا إلى قمة الثروة والأملاك والجاه، وامنوا لجانبهم المأمون ولياً للعهد مضموناً. والرشيد نجح في تولية العهد لأبنائه الثلاثة (الأمين والمأمون والقاسم) وأمن مخالفة العباسيين، واطمأن

إلى عاصمة هادنة (الرافقة) وإلى جيش مخلص، ومال جاهز، وانقضت حاجته إلى البرامكة واستراح ضميره إلى أنه قدم للبرامكة أضعاف مضاعفة المكافأة التي ربما استحقوها لقاء مساعدتهم له على الحفاظ على حقه في إرث الخلافة من والده، من مال ونفوذ وجاء وأنه وصل الآن إلى الوقت الذي عليه أن يسترد كافة مستحقات الخلافة لنفسه فقط دون شريك وأن يحاسبهم على معاملتهم السيئة ودسائسهم مع الهاشمين والعباسيين والعلويين ضد الرشيد.

تقدم في عام ١٧٦هـ أن الدنانير ظلت منذ عام ١٧٦هـ حتى هذه السنة تحمل اسم جعفر بن يحيى البرمكي، وكان جعفر قد سك دنانير للصلة (أو ميداليات) يزن الواحد منها مائة مثقال ومثقال وقيل ثلاثمائة مثقال في حين كان الوزن الشرعي للدinar مثقال واحد (المثقال = ٤,٢٥ غرام) ونقش صورته على تلك الدنانير، وذكر ذلك علي بن الجهم في أبيات له. ولا يستبعد أن يكون سك تلك الدنانير لاستقطاب الأنصار حول البرامكة لتنفيذ مآربهم ومؤامرتهم، وربما كانت هذه الدنانير وغيرهما من توابع البذخ والتبذير بأموال الدولة العربية الإسلامية من الأسباب التي جعلت الرشيد يتخلص من البرامكة.

١٠- تنكر الرشيد للبرامكة ثم نكبتهم وسجن عبد الملك بن صالح

يذكر المقرئزي أنه تم تصيب السندي بن شاهك كمشرف على دار السك من الحج^(٢٢٧) وكان جعفر بن يحيى يتخذ للرشيد طعاماً كلما حج، بعسافان (منهلة على طريق مكة المدينة وهي من مكة على مرحلتين) فيقره إذا انصرف شاخصاً من مكة إلى العراق، فلما كان هذا العام اتخذ جعفر الطعام كما كان يتخذه هنالك، ثم استزاره، فاعتل عليه الرشيد، ولم يحضر طعامه^(٢٢٨).

وإلى الرشيد الحيرة في المحرم سنة ١٨٧هـ، وأقام في قصر عون العبادي أياماً، وفيها جاءه موسى بن يحيى متخفياً من بغداد. كما سيجيء فيما بعد- ثم شخص الرشيد في السفن حتى نزل في دير يقال له العمر بناحية الأنبار^(٢٢٩).

وفي الأنبار دعا الرشيد صالحاً صاحب المصلى، حين تنكر للبرامكة، فقال له: أخرج إلى منصور بن زياد فقل له: (قد صحت عليك عشرة آلاف ألف درهم، فأحملها الي في يومك هذا، فإن هو دفعها اليك كاملة قبل مغيب الشمس من يومك هذا، والا فأحمل رأسه الي) وإياك مراجعتي في شيء من أمره. فأعان البرامكة منصوراً حتى جمعوها له، ومن جملة ما دفعوه له عقد كان الرشيد وهبه لدنانير جارية يحيى بن خالد بن برمك^(٢٣٠).

كان الولاة في العهد العباسي الأول يتمتعون بحرية مالية كبيرة، إذ كانوا يجمعون أموال الجباية وغيرها من الموارد ويوصلونها إلى الخليفة بعد أن يحتفظوا بقسم لا بأس به منها، وكان الخليفة يدرك هذا ويسكت عنه، لكنه حين يظن أنهم تجاوزوا الحد المعقول والمحتمل أو حين يلزمه مال إضافي، كان يفرض على الواحد منهم مبلغاً يظن أنه يستنزف ما احتجزه من مال الدولة، وقد يصرفه عن العمل، وقد فعل المنصور ذلك حين صرف خالد بن برمك من فارس وألزمه دفع ثلاثة ملايين درهم كما تقدم، وفعلها المهدي حين غضب على خالد بن برمك أيضاً وألزمه بدفع مال جليل كما تقدم أيضاً.

وحين جاء دور الرشيد ورغم كثرة عدد البرامكة وكثرة ما استولوا عليه من الأموال علنا، وقد مر الحديث عن بعض ذلك، وعلى رأس من فعل ذلك الفضل بن يحيى البرمكي، فلم يفرض الرشيد على أي واحد منهم دفع أي مبلغ من المال تحاشياً لما قد يجر عليه ذلك من سوء. إلا أنه كلما كبر سن أولاده وتحسنت ظروفه (أعمار أولياء العهد، المال الكثير، الجند التابع له مباشرة، المركز البعيد عن سلطة البرامكة والخراسانية في الرافقة)، كلما زاد شعور الرشيد بقوته وتحرره وقدرته على تنفيذ ما يريد، فكان اجتراؤه سنة ١٨٧هـ على ما فعل مع منصور بن زياد المحسوب

على البرامكة ومطالبته بدفع مبلغ كبير في نفس اليوم وهذا يعتبر نذيراً أخيراً للبرامكة، والواقع أنه بطش بهم في نفس العام ولم يفرض عليهم مبلغاً بل صادر كل أموالهم ما عدا عدداً من البرامكة الذين لم يسيروا في ركاب يحيى البرمكي وأولاده.

وفي العمر نزل الرشيد ومعه وليا العهد الأمين والمأمون، ونزل الفضل مع الأمين، وجعفر مع المأمون، ويحيى في منزل خالد بن عيسى كاتبه، ومحمد بن يحيى في منزل نوح صاحب الطراز (الطراز: ما ينسج من الثياب للسلطان، أو مكان هذا النسج)، ونزل محمد بن خالد مع المأمون بالعمر مع الرشيد. قال: (وخلا الرشيد بالفضل ليلاً، ثم خلع عليه، وقلده، وأمر أن ينصرف مع محمد الأمين، ودعا بموسى بن يحيى فرضي عنه، وكان قد غضب عليه بالحيرة - كما تقدم - لأن علي بن عيسى بن ماهان اتهمه عند الرشيد في أمر خراسان، وأعلمه طاعة أهلها له، ومحبتهم إياه، وأنه يكتبهم على الوثوب به معهم. فوقر ذلك في نفس الرشيد وأوحشه منه. وكان موسى أحد الفرسان الشجعان، فلما قدح علي بن عيسى فيه أثر ذلك في الرشيد، وعمل فيه القليل منه، ثم ركب موسى دين (نعل هذا صعب التصديق لما كان للبرامكة من الأموال الطائلة والنفوذ القوي) واختفى عن غرماثه، فتوهم الرشيد أنه صار إلى خراسان كما قيل له، فلما صار قرب العمر في هذه الحجة، وإفاه موسى من بغداد، فحبسه الرشيد عند العباس بن موسى بالكوفة، فكان ذلك أول ثمة ثلموها بها، فركبت أم الفضل بن يحيى في أمره، ولم يكن الرشيد يردّها في شيء، فقال: (يضمنه أبوه، فقد رفع الي فيه)، فضمنه يحيى ودفعه إليه، ثم رضي عنه، وخلع عليه^(٣٣١).

ظل الرشيد حتى آخر لحظة لا يقطع صلته بأي واحد من كبار البرامكة قطعاً نهائياً، وإنما بغضب عليه ثم يرضى عنه ويبالغ في الرضى والأنعام، ويولي الواحد منهم ثم يعزله ثم يوليّه إمارة أخرى. وينقل خاتم الوزارة من أحدهم إلى الآخر بين يحيى وأولاده، وكأن الرشيد يهز العصا دون أن يضرب بها. وأخذ الجو يتوتر بين الرشيد والبرامكة سنوات طويلة ولا بد أن البرامكة أدركوا أن نهايتهم قريبة، ولكن كياسة الرشيد ومجاملته وكرمه المتزايد من وقت لآخر جعلهم عاجزين عن التنبؤ بموعد نهايتهم.

ذكر الكرمانى أن بشار التركي حدثه أن الرشيد خرج إلى الصيد وهو بالعمر، في اليوم الذي قتل جعفر في آخره. وكان ذلك اليوم يوم الجمعة، وجعفر بن يحيى معه، قد خلا به دون ولاية العهد، وهو يسير معه، وقد وضع يده على عاتقه، وغلفه بالغالية بيده، ولم يزل معه لا يفارقه حتى انصرف مع المغرب. فلما أراد الرشيد الدخول إلى القصر الذي كان ينزله بالانبار قال له: (لولا أني على الجلوس الليلة مع النساء، لم افارقك، فأقم أنت في منزلك واشرب أيضاً وأطرب، لتكون أنت مثل حالي). فقال جعفر: (لا والله! ما اشتهي ذلك إلا معك) فقال الرشيد: (بحياتي لما شربت). فأنصرف جعفر عنه إلى منزله، فلم تزل رسل الرشيد عنده ساعة بعد ساعة تأتيه بالأنفال (الأنفال: جمع مفردة نفل، الغنيمة والهبّة والمعنى الثاني هو المقصود هنا) والابخرة والرياحين حتى ذهب الليل^(٣٣٢).

وفي العشيّة التي كانت آخر أمر البرامكة، صار يحيى بن خالد إلى أمير المؤمنين في حرافته، فدخل عليه من باب صاحب الخاصة، فكلّمه في حوائج الناس وغيرها من إصلاح الثغور، وغزو البحر ثم خرج فقال للناس: (قد أمر أمير المؤمنين بقضاء حوائجكم، وبعث إلى أبي صالح يحيى بن عبد الرحمن (الكاتب) يأمره بأنفذ ذلك^(٣٣٣)). وهذا ومع ما تقدم يبين كيف أن الرشيد بذكائه وتحمله وصبره استطاع أن يطمئن البرامكة ويفاجئهم ما حل بهم فيما بعد إلى آخر حد.

وارسل الرشيد مسروراً ومعه حماد بن سالم ابو البصمة في جماعة من الجند، فأحاطوا بجعفر بن يحيى ليلاً، ودخل اليه مسرور وعنده ابن بختيشوع الطبيب، وابوزكار الاعشى المغني، فحبسه (أي: حبس جعفرًا) وقيدته بقيد حمار، وأخبر الرشيد بأخذه إياه ومجيئه به، فسأمر (الرشيد) بضرب عنقه، ففعل (مسرور) ذلك^(٢٣٤) وكان قتل جعفر بن يحيى في ليلة السبت أول ليلة من صفر سنة ١٨٧ هـ وهو ابن سبع وثلاثين سنة^(٢٣٥).

الح جعفر على مسرور ان يؤجل قطع رأسه ويراجع الرشيد في امره، وكرر ذلك أكثر من مرة، ولكن الرشيد هدد مسروراً بقطع رأسه ان لم ينفذ امره فوراً، ففعل^(٢٣٦).

امر الرشيد في تلك الليلة بتوجيه من احاط بجعفر بن خالد وجميع مواليه وولده، ومن كان منهم بسبيل، فلم يفلت منهم احد كان حاضراً، وحول الفضل بن يحيى ليلاً فحبس في ناحية من منازل الرشيد، وحبس يحيى بن خالد في منزله، وأخذ مالهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك، ومنع أهل العسكر من ان يخرج منهم خارج إلى مدينة السلام أو إلى غيرها. ووجه (الرشيد) من ليلته رجاء الخادم إلى الرقة فقبض أموالهم وما كان لهم، وأخذ كل ما كان من رقيقهم ومواليهم وحشمتهم وولادة أمورهم. وفرق الكتب من ليلته إلى جميع العمال في نواحي البلدان والأعمال بقبض أموالهم وأخذ وكلائهم. فلما أصبح بعث بجثة جعفر بن يحيى مع شعبة الحفطاني وهرثمة ابن اعين وابراهيم بن حميد المروزي، واتبعهم عدة من خدمه وثقاته منهم:

- مسرور الخادم إلى جعفر بن يحيى.

- ابراهيم بن حميد وحسين الخادم إلى الفضل بن يحيى.

- يحيى بن عبد الرحمن الكاتب ورشيد الخادم إلى منزل يحيى (بن خالد) ومحمد بن يحيى،

وجعل معه هرثمة بن اعين.

وامر (الرشيد) بقبض جميع مائهم وعقاراتهم وضياعهم بالعراق^(٢٣٧).

وكتب (الرشيد) إلى السندي الحرشي بتوجيه جثة جعفر إلى مدينة السلام ونصب رأسه على الجسر الاوسط (من دجلة) وصلب كل قطعة منها على الجسر الاعلى والجسر الاسفل. ففعل السندي ذلك، وأمضى الخدم ما كانوا وجهوا اليه، وحمل عدة من اولاد الفضل وجعفر الاصاغر إلى الرشيد فأمر بإطلاقهم، وأمر بالتداء في جميع البرامكة، لا أمان لمن اواهم إلا محمد بن خالد (بن برمك وولده وأهله وحشمتهم، فإنه استثناهم، لما ظهر من نصيحة محمد له، وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة)^(٢٣٨). وقيل ان محمداً كان يسعى بهم^(٢٣٩).

ارسل الرشيد كتاباً بخطه إلى السندي بن شاهك في بغداد، فلما حضر اليه واصحابه، وكان الرشيد في الزو (سفينة عظيمة) أي جاهزة للتحرك وليس في منزل في الفرات، قال له: قد بعثت إليك بأمر لو علم به زر قميصي رميت به في الفرات، (يلاحظ هنا ان الكتاب الذي ارسله الرشيد إلى السندي كان بخط يد الرشيد مبالغة في الحذر) ياسندي! من اوثق قوادي عندي؟ (قلت: هرثمة) قال: صدقت، فمن اوثق خدمي عندي؟ (قلت: مسرور الكبير) قال: صدقت (امض من ساعتك هذه، وجد في سيرك حتى توافي مدينة السلام، فأجمع الثقة من اصحابك وارباعك، فإذا انقطعت الرجل (أي توقف مرور الناس) فصر إلى دور البرامكة، فوكل بكل باب من ابوابهم صاحب ربع (الربع: المحلة)، وأمره ان يمنع من يدخل ويخرج، خلا باب محمد بن خالد، حتى يأتيك امري). ولم يكن حرك البرامكة في ذلك الوقت. قال السندي: فجئت اركض حتى جئت مدينة السلام، فجمعت اصحابي، وفعلت ما امرني به. قال السندي: فلم البث ان قدم علي بن اعين، ومعه جعفر ابن يحيى على

بغـ بلا برذعة، مضروب العنق، وإذا كتاب أمير المؤمنين يأـ رني أن اشطره بأثنين وأن اصلبه على شجرة جسر). قال: ففعلت ما امرني به^(٢٤٠).

والسلب والقتل والحرق نفذه العباسيون كثيراً في الأحياء والاموات، وخاصة مع الأمويين مثل عبد الله بن معاوية بن هشام ومثل جثة جده هشام وغيرهما.

أحلى الرشيد سبيل يحيى بن خالد قبل شخوصه من العمر، ووكل بالفضل ومحمد وموسى أبناء يحيى بن خالد وصهرهم المهدي، حفظة من قبل هرثمة بن أعين إلى أن وافى بهم إلى الرقة، فأمر الرشيد بقتل أنس بن أبي الشيخ يوم قدم الرقة. وتولى قتله إبراهيم بن عثمان بن نهيك، ثم صلبه^(٢٤١) وكان قتل أنس بسبب الزندقة^(٢٤٢).

واقيم لولد يحيى ما يحتاجون إليه من مطعم ومشرب وملبس، ولم يقيد أحد منهم، وقيد جميع كتابهم وقهارتهم وحاشيتهم وأسبابهم، ولم يحبس يحيى وبقي في منزله موكلاً به^(٢٤٣). وكان يحيى يشاهد في الرقة وهو يسير في الطرق^(٢٤٤) على أن يحيى أصر على أن يحبس مع أسرته. وهكذا كان^(٢٤٥).

حبس يحيى فيما بعد مع الفضل ومحمد بن يحيى في دير القائم، وجعل عليهم حفظة من قبل مسرور الخادم وهرثمة بن أعين، ولم يفرق بينهم وبين عدة من خدمهم، ولا ما يحتاجون إليه، وصير معهم زينب بنت منير أم الفضل، ودنانير جارية يحيى، وعدة من خدمهم وجواريهم^(٢٤٦).

وصل الرشيد أم الفضل بن يحيى بثلاثمائة ألف درهم، ووجه إليها ثياباً مرتفعة، وكان أحياناً يوسع عليهم، وأحياناً يضيق عليهم، على حسب ما يرقى إليه أعداؤهم ويمسكون عنه^(٢٤٧).

وفي إحدى المرات قال الرشيد لمسرور الخادم: (أحمل اليهما (لـ يحيى وابنه الفضل) مائدة في كل يوم، وأذن لرجل ممن يأمن به أن يدخل عليهما فيحدثهما). فقال لهما مسرور ذلك، وسأل لهما عن يختارانه، فاختراروا سعيد بن وهب الشاعر، وكان لهما خادماً، فإذا له بالدخول عليهما، فكان يصير اليهما في كل يوم فيتغذى معهما، ويحدثهما وينصرف^(٢٤٨). وكان الفضل بن يحيى يحب سعيد بن وهب كثيراً^(٢٤٩).

ولم تزل حالتهم سهلة حتى سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح (في نفس هذا العام ١٨٧هـ كما سيجيء) فعمهم بالتحقيق (التتقيق: إقامة المعوج) بسخطه (أي أخذهم بذلك) وجدد لهم التهمة عند الرشيد، فضيق عليهم^(٢٥٠).

قال محمد بن اسحق: فلم يزل جعفر مصلوباً حتى أراد الرشيد الخروج إلى خراسان (عام ١٨٩هـ أي بعد عامين^(٢٥١))، فمضيت فنظرت إلى الرشيد، فلما صار بالجانب الشرقي على باب خزيمة بن خازم، دعا بالوليد بن جشم الشاري من الحبس، وأمر ابن الجنيد الختلي. وكان سياقه - فضرب عنقه، ثم التفت إلى السندي فقال: (ينبغي أن يحرق هذا يعني جعفرأ) فلما مضى (الرشيد)، جمع السندي له شوكا وحطباً^(٢٥٢) وأحرقه.

وبقاء جعفر البرمكي مصلوباً عامين أو أكثر ينفي ما زعم أن الرشيد ندم على قتله أو على نكبة البرامكة، ولا بد أن من بين أسباب استمرار حبس الرشيد للبرامكة هو أنه لم يعد يأمن لهم بعد أن قتل فرداً هاماً منهم هو جعفر بن يحيى، لا سيما أنه لم يفارقه الظن بأنهم كانوا يتآمرون عليه مع الطالبين والشرأة وغيرهم. وقد جرت حادثة مشابهة في عهد المهدي والد الرشيد إذ أن الربيع صاحب المهدي نقم على وزير المهدي أبي عبيد الله معاوية بن عبيد الله بن يسار الأشعري الكاتب لأنه لم يفه حقه من الاحترام - حسب ما ظن - فندس على المهدي أن محمد بن الوزير أبي

عبيد الله متهم في بعض حرم المهدي، فأمر المهدي - بأقتراح الربيع - أن يقتل ابنه المذكور ففجز الوزير عن تنفيذ ذلك بسبب شفقة الوالد. فأخرج الابن محمد وضربت عنقه، وحينئذ قال الربيع للمهدي: قتلت ابنه، وليس ينبغي أم يكون معك، ولا أن تثق به، فأوحش ذلك المهدي، وكان الذي كان من أمر أبي عبيد الله الوزير، وبلغ الربيع ما أراد واشتفى وزاد^(٢٥٢) والذي كان يدس على البرامكة عند الرشيد هو الفضل بن الربيع المذكور وقد دس على المأمون عند الأمين.

إن قتل جعفر لم يكن نزوة طارئة. بل تدل جميع الدلائل على أن الرشيد كان قد عزم عليه منذ وقت طويل لكنه كان ينتظر الوقت المناسب (بلوغ ولاية العهد، وتوفير عاصمة بعيدة عن نفوذ البرامكة كالرافقة، وتوفير جيش مخلص الخ..). وإلى أن حان ذلك الوقت كان الرشيد يتظاهر بمحبه الشديدة لجعفر ويتجاوز عن جميع سيئاته وبذلك كسب أمرين وهما: أولاً إخفاء كرهه الشديد لجعفر وثانيهما الإيقاع بين جعفر وأخيه الفضل، وفضلاً عن ذلك فإن الرشيد لم يعاقب جميع البرامكة بل اكتفى بالذين اشتروا في الدولة، هذا عدا عن أنه لم يتعرض لمحمد بن خالد ابن برمك وكل من يلوذ به لاشغاله بالعلم وثقة الرشيد ببراءته وظل بقية البرامكة أميين، وقد استعان المأمون ببعضهم في عهده مثل محمد بن يحيى والي البصرة.

وإن سجن الرشيد للبرامكة كان من قبيل الحيلة فقد كانوا ينعمون في سجنهم بكل التسهيلات أو يفقدون بعضها حسب الظروف. وهذا السجن أو حتى القتل هما عقوبة استباقية درج عليها العباسيون منذ عهد أبي جعفر المنصور.

بعد أن أوقع الرشيد بالبرامكة اهتم بمن شك أنهم مناوؤه من العباسيين فسجن عبد الملك بن صالح كما سيجيء. ومات عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور من نفسه سنة ١٩٢هـ^(٢٥٤).

غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح في سنة ١٨٧هـ وحبسه عند الفضل بن الربيع وذلك بعد نكبة البرامكة وحبسهم، وذلك أن بن عبد الملك واسمه عبد الرحمن وكتب عبد الملك قمامة سعيًا بعبد الملك إلى الرشيد، وقال له أنه يطلب الخلافة ويطمع فيها، وأنه يرأس رؤساء القبائل والعشائر بالشام والجزيرة (والواقع أنه كان لعبد الملك نفوذ بالشام والجزيرة كما سيجيء) وقال الرشيد لعبد الملك بن صالح: (أما والله لولا الإبقاء على بني هاشم، لضربت عنقك) أضف إلى ذلك أن عبد الملك بن صالح كان مربياً للمؤمن ابن الرشيد وكان الرشيد يخشى من أن أحد مربي أولاده قد يلجأ إلى الدس بينهم. وشهد قائد شرطة الرشيد وهو عبد الله بن مالك، وقال: (ما علمت عبد الملك إلا ناصحاً). قال الرشيد: (ويحك بلغني عنه ما أوحشني، ولم آمنه أن يضرب بين ابني هذين - ويعني الأمين والمأمون) واقترح عبد الله بن مالك أن يحبس عبد الملك بن صالح محبساً كريماً يشبه محبس مثله. وهذا يناقض خبراً جاء فيه أن الرشيد أغرز ابنه القاسم الصائفة سنة ١٨٨هـ ومعه عبد الملك بن صالح الهاشمي^(٢٥٦) إلا إذا كان في هذا العام أو قبله.

وكان عبد الملك بن صالح نبيلًا، فصيحاً حسن البيان^(٢٥٧) وكانت أم عبد الملك بن صالح جارية لمروان بن محمد، فلما قتل مروان بمصر، أخذ صالح بن علي جارية مروان فولدت له عبد الملك بن صالح، فبعض الناس يقول أنها كانت حاملاً من مروان، ولذلك قال له الرشيد: (ما انت منا) فقال عبد الملك: (ما أبالي لأي الفحلين كنت أئلفك بن علي أم لمروان بن محمد) وكان عبد الملك ذا هيئة^(٢٥٨). وكان لعبد الملك نفوذ كبير في الجزيرة والشام، يؤيد ذلك أنه استطاع في وقت وجيز أن يجمع قبائل الشام والجزيرة في سبيل أن يؤلف منها جيشاً عربياً يدعم الأمين^(٢٥٩).

وفي هذه السنة ١٨٧هـ أيضاً هاجت العصبية بدمشق بين المضربة واليمانية (وهي العصبية الرابعة) فوجه الرشيد محمد بن منصور بن زياد فأصلح بينهم^(٢٦٠). وقد تقدم في هذا العام كيف أن الرشيد طالب أباه منصور بن زياد بعشرة آلاف ألف درهم.

١١- غزو الرشيد لنقفور ملك الروم لأنه نقض العهد

نقض صاحب الروم نقفور في سنة ١٨٧هـ (الصلح الذي كان جرى بين الملكة التي سبقت نقفور وبين المسلمين، ومنع ما كانت ضمنته الملكة لهم قبله، والروم تقول ان نقفور هذا من اولاد جفنة بن غسان). ولما علم الرشيد بذلك استفزّه الغضب، وكتب جواباً قال فيه: (الجواب ما تراه دون ان تسمعه). ثم شخص من يومه، وسار حتى اناخ على باب هرقله، ففتح وغنم واصطفى وافاد وخرب وحرق واصطدم، فطلب نقفور المودعة على خراج يؤديه كل سنة فأجابه إلى ذلك فلما رجع الرشيد من غزوته، وصار بالرقه، نقض نقفور العهد، وخان الميثاق. وكان البرد شديداً فيئس نقفور من رجعته (أي رجعة الرشيد). فلما علم الرشيد بنكث نقفور، كر راجعاً في أشد محنة، واغلظ كلفة، حتى اناخ بفنائها.

فلم يبرح الرشيد حتى رضي وبلغ ما اراد^(٢٦١). ويروي الجهشيارى الخبر ويذكر ان يحيى بن خالد احتال بشاعر كي ينبئ الرشيد بنكث نقفور وان الرشيد افتتح هرقله^(٢٦٢). ويصعب تصديق وجود يحيى بن خالد في هذه الرواية عن الحرب مع نقفور عام ١٨٧هـ لأن نكبة البرامكة تمت في مطلع هذا العام، وقبل ان يحدث شئ آخر، اذ كان قتل جعفر بن يحيى في ليلة السبت اول ليلة من صفر سنة ١٨٧هـ كما تقدم.

وبعد نكبة البرامكة بسنة أي سنة ١٨٨هـ امر الرشيد اسماعيل بن صبيح ان يكتب إلى جميع العمال بما عقد بين اولاده محمد الأمين وعبد الله المأمون والقاسم من العهد، وأخذ عليهم من الايمان، فكتب في ذلك كتاباً مشهوراً^(٢٦٣) وحج الرشيد بالناس في هذه السنة (حجته التاسعة) فجعل طريقه على المدينة فأعطى أهلها نصف العطاء. وهذه الحجة هي آخر حجة حجها الرشيد فيما زعم الواقدي وغيره^(٢٦٤). ولم يحج بعده أي خليفة عباسي^(٢٦٥). وكان على نفقات الرشيد وتدبير اموره في هذه الحجة وإلى ان مات الرشيد عام ١٩٣هـ الفضل بن الربيع^(٢٦٦).

شخص الرشيد إلى الري في سنة ١٨٩هـ اذ عاث علي بن عيسى بخراسان ووتر اشرافها، وأخذ أموالهم. واستخف برجالهم، فكتب رجال من كبرائها ووجهها إلى الرشيد، وكتبت جماعة من كورها إلى قرابتهم واصحابهم يشكون سوء سيرته، وخبث طعمته، ورداءة مذهبه، وسألوا أمير المؤمنين ان يبدلهم من احب من كفاة انصاره وابناء دولته وقواده. فدعا يحيى بن خالد، وشاوره في رجل يوليه مكان علي بن عيسى بن ماهان، فأشار عليه بيزيد بن مزيد، فلم يقبل مشورته^(٢٦٧).

وهذه الرواية غير صحيحة لأسباب منها: ان يحيى بن خالد والبرامكة قد ولى زمانهم في ذلك الحين وأصبحوا في السجن كما تقدم، ومنها ان البرامكة كانوا يتحاملون على يزيد بن مزيد كما تقدم في خروج الوليد بن طريف الشاري. فضلاً عن هذا كله فان يزيد بن مزيد قد مات ببرذعة عام ١٨٥هـ^(٢٦٨). (أي قبل تاريخ ما حدث بخراسان بأربع سنين). والظاهر ان الروايات المزيفة وغير الصحيحة زادت نسبتها في اخبار الرشيد بعد نكبة البرامكة وبعد موت الرشيد وظهور الخلاف بين الأمين والمأمون.

وكان قد قيل للرشيد (أن علي بن عيسى قد اجمع على خلافتك). فشخص الرشيد إلى الري من اجل ذلك منصرفه من مكة، فعسكر بالنهروان لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الاولى ومعه ابناه عبد الله المأمون والقاسم، ثم سار إلى الري، فلما صار بقرماسين (شمالي شرقي بغداد بين حلوان ونهاوند)، وشخص اليه جماعة من القضاة وغيرهم، وأشهدهم أن جميع ماله في عسكره من الاموال والخزائن والسلاح والكرع وما سوى ذلك لعبد الله المأمون، وأنه ليس له فيه قليل ولا

كثير. وجدد البيعة له علي من كان معه، ووجه هرثمة بن أمين صاحب حرسه إلى بغداد، فأعاد أخذ البيعة على محمد (الأمين) بن هارون الرشيد وعلى من بحضرته لعبد الله المأمون والقاسم. وجعل أمر القاسم في خلعه وإقراره إلى عبد الله المأمون إذا أفضت الخلافة إليه، ثم مضى الرشيد. عند انصراف هرثمة إليه إلى الري. فأقام بها نحو أربعة أشهر حتى قدم عليه علي بن عيسى من خراسان بالأموال والهدايا والطرف من المتاع والمساك والجواهر وآنية من الذهب والفضة والسلاح والدواب، وأهدى بعد ذلك إلى جميع من كان معه من ولده وأهل بيته وكتابه وخدمه وقواده على قدر طبقاتهم ومراتبهم، ورأى منه الرشيد خلاف ما كان ظن به، وغير ما كان يقال فيه. فرضي عنه ورده إلى خراسان، وخرج وهو مشيع له، فذكر أن البيعة أخذت للقاسم بولاية العهد بعد أخويه محمد وعبد الله، وسمي المؤتمن حين وجه هارون هرثمة بذلك إلى مدينة السلام يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من رجب من هذه السنة ١٨٩هـ^(٢٦٩).

كان أول من حض الرشيد على البيعة للقاسم عبد الملك بن صالح بأبيات شعر كتبها للرشيد، وكان القاسم في حجره^(٢٧٠).

والواقع أن القاسم قد بويع بولاية العهد بعد الأمين ثم المأمون في الكتائب الذين كتبهما الأمين والمأمون وعلقاً في الكعبة عام ١٨٦هـ كما تقدم، ثم أكدت البيعة للمأمون والقاسم عام ١٨٩هـ كما تقدم وكما في اليعقوبي^(٢٧١)، ولكن المسعودي يذكر أن البيعة للقاسم كانت سنة ١٨٧هـ^(٢٧٢).

إن جعل أمر القاسم منوطاً بالمأمون حين يتولى الخلافة فإن شاء أبقاء وإن شاء خلعه، يدل على أن الرشيد يأمل أن يكون للمأمون حينذاك ابن بالغ بحيث يستطيع أن يختار بين ابنه وأخيه، وتدل إعادة أخذ البيعة في عدة مناسبات على قلق الرشيد وعدم اطمئنائه إلى ما سيجري بين الأخوين: الأمين والمأمون (وإن كانت أخبار ولاية العهد هذه ملأى بالتزوير كما سيجئ).

انصرف الرشيد، بعد ارتحال علي بن عيسى إلى خراسان عن الري بأيام، فأدركه العيد الاضحى بقصر اللصوص (في همدان)، فضحى بها، ووصل مدينة السلام يوم الاثنين ليلتين بقيتا من ذي الحجة، فلما مر بالجسر أمر بإحراق جثة جعفر بن يحيى - كما تقدم - وطوى بغداد ولم ينزلها، ومضى من فوره متوجهاً إلى الرقة. فنزل السيلحين (طسوج قرب بغداد بينه وبينها مقدار ثلاثة فراسخ - مرصد الاطلاع). وذكر عن بعض قواد الرشيد أنه قال لما ورد بغداد: 'والله إنني لأطوي (أي أتجاوز) مدينة ما وضعت بشرق ولا غرب مدينة أيمن ولا أيسر منها، وأنها موطني ووطن آبائي، ودار مملكة بني العباس ما بقوا وحافظوا عليها، وما رأى أحد من آبائي سوءاً ولا نكبة منها، ولا سيء بها أحد منهم قط، ونعم الدار هي! ولكن أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق والبغض لأئمة الهدى - أي العباسيين - والحب لشجرة اللعنة - أي بني أمية - مع ما فيها من المارقة والمتلصصة ومخيفي السبيل، ولولا ذلك ما فارقت بغداد ما حييت، ولا خرجت عنها أبداً'^(٢٧٣). وهذا يناقض ما تقدم من أنه كان يسمي بغداد (مدينة البخار)^(٢٧٤) (البخار: أي الرائحة التي تسطع من النتن).

يتضح مما تقدم:

- ١- أن الرشيد قضى عام ١٨٩هـ منذ عودته من الحج بعيداً عن بغداد.
- ٢- أنه ثبت علي بن عيسى بن ماهان (عدو البرامكة) على ولاية خراسان رغم جميع ما بلغه عنه من شكاوى.

ظهر ليث بن نصر بن سيار بسمرقند مخالفاً لهارون وخالفاً له^(٢٧٥) في عام ١٩٠هـ، وفيها حدثت أمور كثيرة منها: غزا الرشيد الصائفة واستخلف ابنه عبد الله المأمون بالرقة وفوض إليه الأمور، وكتب إلى الافاق بالسمع والطاعة، ودفع إليه خاتم المنصور، يتيمن به، وهو خاتم الخاص^(٢٧٦) وفيها فتح الرشيد هرقله^(٢٧٧).

اسلم الفضل بن سهل على يد المأمون وسيكون له شأن في عهده.

خلع أهل حمص ووثنوا على واليهم فخرج الرشيد نحوهم، فلما صار بمنبج، لقيه وفدهم يعطون بأيديهم (أي: يرفعون) ويسألون الاقالة، فغفا عنهم، ونفذ إلى بلاد الروم فغزا (الصائفة)، وفتح هرقلة والمطامير (بلد الثغور الشامية)^(٢٧٨).

توفي يحيى بن خالد حنط انفه في الحبس بالرقعة، بعد انصراف الرشيد إلى الري فاغتم الرشيد وقال: (اليوم مات أعقل الناس). ودفن بالرقعة على شاطئ الفرات، وبنى على قبره بناء عال^(٢٧٩).

حجت أم جعفر بنت جعفر بن المنصور (زبيدة)، فنال الناس عطش شديد، وغارت زمزم حتى لم يوجد فيها من الماء الا القليل، وحضرت زمزم^(٢٨٠).

وفي سنة ١٩١هـ عزل الرشيد علي بن عيسى بن ماهان عن خراسان وولاه هارثمة بن اعين، فقيد علي بن عيسى وقيد ولده وأهل بيته وكتابه وعماله، واستخرج منهم الاموال التي احتجزوها من أموال الخليفة، وفيه المسلمين، واستخرج الودائع التي كانت لهم عند الناس^(٢٨١) وقدم بعلي بن عيسى بغداد سنة ١٩٢هـ فحبس في داره^(٢٨٢).

وكان الرشيد قد كتب إلى علي بن عيسى كتابا جاء فيه: يا ابن الزانية! رفعت من قدرك، ونوهت باسمك، وأوطأت سادة العرب عقبك، وجعلت أبناء العجم خولك (أي: عبيدك) واتباعك، فكان جوأبي أن خالفت عهدي... (الطبري ٣٢٧/٨ سنة ١٩١) فأين هي انعصية العربية عند الرشيد وهو يصرح أنه وضع سادة العرب تحت قدم علي بن عيسى الأعجمي، بل وأين المساواة بين العرب والعجم على الأقل كما تقضي الشريعة الإسلامية التي يتبجح بها العباسيون.

١٢- خروج الرشيد إلى خراسان لحرب رافع ووفاته

وافى الرشيد من الرقة في السفن مدينة السلام يريد الشخصوص إلى خراسان لحرب رافع بن ليث بن نصر بن سيار، وكان مصيره ببغداد يوم الجمعة لخمس ليال بقين من شهر ربيع الآخر من ١٩٢هـ، واستخلف بالرقعة ابنه القاسم، وضم إليه خزيمة بن خازم، ثم شخص من مدينة السلام عشية الاثنين لخمس خلون من شعبان ثم سار إلى النهروان فعسكر هناك واستخلف ابنه محمد الأمين بمدينة السلام. وذكر عن ذي الرياستين (الفضل بن سهل) أنه قال: قلت للمأمون لما أراد الرشيد الشخصوص إلى خراسان لحرب رافع: (لست تدري ما يحدث بالرشيد وهو خارج إلى خراسان، وهي ولايتك، ومحمد (الأمين) المقدم عليك، وأن احسن ما يصنع لك ان يخلعك، وهو ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم، وزبيدة وأموالها، فاطلب اليه ان يشخصك معه) فسأله الإذن فأبى عليه. فقلت له: (قل له، انت عليل، وإنما اردت ان اخدمك، ولن اكلفك شيئا. فإذا له وسار)^(٢٨٥). وكان على كتابة المأمون وأمره كله الفضل بن سهل^(٢٨٦).

يبدو من ذلك أن الفضل بن سهل بدأ يخطط كي يضمن للمأمون (ولنفسه بالطبع) مستقبلاً مضموناً، ومركزاً قوياً وحصيناً، ونقل الطبري عن الرشيد أنه قال في هذه السفارة: (لكل واحد من ولدي علي رقيب، فمسرور رقيب المأمون، وجبريل بن بختيشوع رقيب الأمين وسمى الثالث فذهب عني اسمه، وما منهم واحد إلا ويحصي أنفاسي، ويعد أيامي، ويستطيل عمري)^(٢٨٧). ووافى هارون في جرجان سنة ١٩٣هـ علي بن عيسى على ألف وخمسمائة بعير^(٢٨٨).

توفي الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي في الحبس في الرقة يوم السبت لخمس خلون من المحرم في نفس السنة أي سنة ١٩٣هـ. وكان بدء علته - فيما ذكر - ثقل أصابه في لسانه وشقه ثم

صلح، فجعل يتحدث، ثم اشتد عليه فعقد لسانه وطرفه (أي: أصابه فالج) ووقع لمأبه (أي دخل النزاع الأخير والاحتضار) فمكث في تلك الحال يوم الخميس ويوم الجمعة، وتوفي مع أذان الغداة (ما بين أذان الفجر وطلوع الشمس) قبل وفاة الرشيد بخمسة أشهر وهو في خمس وأربعين سنة، وجزع الناس عليه، وصلى عليه أخوانه في القصر الذي كانوا فيه قبل إخراجهم، ثم أخرج فصلى الناس على جنازته ودفن إلى جانب قبر أبيه يحيى بن خالد^(٢٨٨). وفيها (أي سنة ١٩٣هـ) كتب إلى عيسى بن جعفر (ابن أبي جعفر المنصور) بالخروج إليه، فخرج إليه عيسى، فلما صار في بعض الطريق توفي، فلما بلغ الرشيد خبر وفاته، اشتد حزنه عليه، فدخل على جارية، فقالت: (يا أمير المؤمنين! إن عيسى كان يريد لك ما صار إليه (أي الموت)، فأحاقه الله به، وهذا مسرور وحسين خادما الرشيد) يعلمان ذلك) فقالا: صدقت. فتسلى (الرشيد) ودعا بالطعام^(٢٩٠).

وهذا يظهر، أن صح، حقد الهاشميين على الرشيد بسبب الخلافة وحسدهم وطمعهم فيه وقد ذكرنا ذلك أكثر من مرة، وعيسى بن جعفر (ابن المنصور) هو ابن عم هارون الرشيد.

صار هارون إلى طوس فنزل قرية يقال لها (سناباد) (قرية بينها وبين طوس نحو ليلة صار فيها فيما بعد قبر علي بن موسى الرضا: مراصد الاطلاع) وهو شديد العلة. وتوفي في جمادى الأولى أو الآخرة سنة ١٩٣هـ. وهو ابن ست وأربعين سنة^(٢٩١). وكان جميلاً وسيماً أبيض جعداً، وقد وخطه الشيب^(٢٩٢). وكان الرشيد من أدق الخلق ذهنًا، وأصعهم فكراً^(٢٩٣).

١٣- البرامكة

بعد أن تحدثنا عن الرشيد، علينا أن نتحدث قليلاً عن البرامكة لنعرف سبب نكبتهم. البرامكة أسرة فارسية كان من أبنائها الوزراء الفرس الأولون للخلافة العباسية. وكلمة 'برمك' ليست اسم شخص بل لقب يطلق على المويذ (منصب ديني وراثي) في نوبهار (ومعناها بالسفسكرية: المعبد الجديد، إشارة إلى معبد بوذي). وكان برمك (الجدي) مبرزاً في الفلك والفلسفة والطب، وهو الذي عالج الأمير مسلمة بن عبد الملك من داء ألم به في عهد أبيه الخليفة عبد الملك بن مروان. وقد انضم خالد بن برمك تحت لواء أبي مسلم (الخراساني) وقائده قحطبة بن شبيب، واستعمل على طبرستان (١٤٨-١٥٢هـ) واستولى على سمالو من حصون الروم سنة ١٦٣هـ، واشترك في تخطيط بغداد، واستعمل على الموصل^(٢٩٤).

وأشرك يحيى في الحكم والسلطة أولاده وعلى رأسهم الفضل وجعفر، ودامت دولتهم سبعة عشر عاماً ١٧٠-١٨٧هـ. وكان يحيى في البدء يعرض الأمور على الخيزران والدة الرشيد إلى أن ماتت عام ١٧٣هـ. وقد وضع يحيى بدار الرشيد من ولده خمسة وعشرين رئيساً بين صاحب سيف وصاحب قلم^(٢٩٦) وتصرف في كل شيء في المملكة حتى قال صالح الأعرابي بعد نكبة البرامكة:

لقد خان هذا الدهر أبناء برمك وأي الملوك لم تخنها دهورها
الم يك يحيى والي الأرض كلها فأضحى كمن وارثه منها قبورها^(٢٩٧)

وكان يحيى بن خالد يتجنب مجابهة الرشيد بل يحتال عليه حتى ينال ما يريد، إذ كان إذا رأى من الرشيد شيئاً ينكره لم يستقبله بالإنكار، وضرب له امثالاً وحكما له عن الملوك والخلفاء ما يوجب مفارقتهم ما أنكره ويقول:

في النهي إغراء له وهو من الخلفاء فإنك إن لم تقصد إغراء، إذا نهيت، فقد اغريته^(٢٩٨).
ومع ذلك فإنه وأبناءه:

١- استبدوا بالحكم فولوا من شاؤوا، ورفضوا أحياناً أن يطيعوا الرشيد - وذلك خاصة في بدء خلافته - في تولية من اراد. كما جرى مع الفضل بن الربيع حين طلب الرشيد من جعفر أن يوليه بريد ناحية يأخذ رزقها ويستعين بها على خدمة الرشيد، فرفض يحيى بن خالد^(٣٩٩)، وكذا حين طلب الرشيد عام ١٧٣هـ أن يدفع خاتم الوزارة إلى الفضل بن الربيع. ويذكر الاستاذ كلود كاهن ما معناه أن الوزير المسلم أصبح له في ذلك العهد، من كثرة الاتباع وبما يتصرف به من الاموال وما لديه من السلطة ما تجاوز الوزير الساساني، وباتت سلطة الوزير المسلم خطراً يهدد الخلافة، ومن ثم نشأت نكبة هارون الرشيد المؤثرة للبرامكة^(٣٠٠).

٢- استبدوا بالاموال، وفارقوا الرشيد على شئ يطلقونه له من المال للحوادث، سوى نفقاته وما يحتاج إليه هو وعياله. ومن امثلة ذلك، أن الرشيد عزم على الفصد، فطلب عشرة الاف درهم من جعفر فلم يدفع له إلا خمسة الاف واضطر الرشيد إلى أن يستهدي جلساءه، فرفض الفضل بن الربيع (عدو البرامكة) عقاراً، وأخذ مئة ألف درهم اهداها للرشيد^(٣٠١). وخبر مشابه^(٣٠٢) وكلاهما غريب وبعيد عن التصديق. ورفض البرامكة أن يتنازلوا للرشيد، بعد أن كثر أولاده، عن شيء من ضياعهم، رغم أنهم نصحوا بذلك^(٣٠٣)، وبنو البيوت الفخمة كبيت جعفر بن يحيى الذي تكلف عشرين الف ألف درهم^(٣٠٤) وربما كانت هذه الاخبار وامثالها بعيدة عن التصديق أو مبالغ فيها لأسباب تقدم ذكرها أكثر من مرة..

٣. طلبوا الرشاي من العمال، كطلب شراء جارية من خليفة صاحب مصر قبل أن يقضوا حاجته واعلام صاحب الجارية إسحاق بن إبراهيم الموصلی أن لا يبيعها بأقل من الف دينار وحين استلموا الجارية اعادوها إلى إسحاق ثانية كي يطلبوا شراها من جديد من خليفة صاحب فارس ثم ارجعوها إلى إسحاق واعادوا القصة^(٣٠٥). ومن بين تحاليلهم أنهم كانوا يدخلون شريكاً بدون رأسمال مع التجار حين يبيعون غلات الدولة^(٣٠٦). وانتشرت الرشوة في عهدهم حتى أن الرشيد امر لحمدونة ابنته بإقطاع، فذهب كاتبها بالتوقيع إلى ديوان الضياع ولم يبرهم (أي يرشوههم)، فزوروا له الكتاب ولم يعطوه ما أمر به الرشيد، ولما اشتكت حمدونة للرشيد أمرها أن تبرهم^(٣٠٧) (أي: ترشوههم).

٤. بذروا الاموال وانفقوها على انفسهم وعلى الشعراء والجواري وغير ذلك كما تقدم^(٣٠٨) وعلى شراء الوجهاء كما أوصى بذلك يحيى بن خالد^(٣٠٩) وقد عزل الرشيد الفضل بن يحيى عن خراسان لاتهامه بتبذير الاموال^(٣١٠) وهبوا الخراج وأكثر منه للولاء^(٣١١) وسامحوا الخرسانيين ببقايا الضرائب، إذ أحرق الفضل دفاتر البقايا في خراسان^(٣١٢).

٥- عمل البرامكة وعلى رأسهم يحيى بن خالد على تحريض العلويين وغيرهم على الخروج على الخليفة، كما فعلا مع يحيى بن عبد الله وقد تقدم ذلك.

٦- اتهموا بتآمرهم مع كبار الهماشميين مثل عبد الملك بن صالح وعيسى بن جعفر بن المنصور منصور وغيرهما..

٧- تراخوا في قمع حركات الثائرين حتى تستفحل، ليجعلوا الرشيد في خوف دائم منها، حتى إذا أنهوها صلحاً وبدفع الاموال الطائلة، ارتفعت منزلتهم عند الرشيد وذاع ذكركم عند الناس، واطنبت الشعراء في مدحهم، كما تقدم في حركة يحيى بن عبد الله وغيره. واهملوا على سبيل المثال في قمع حركة الوليد بن طريف الشاري حتى قارب أن يصل بغداد، وحركة العطاف بن سليمان رغم احتلاله الموصل وجباية امواله ثلاث سنوات... الخ. ويمكن القول بأن سياسة البرامكة قامت دائماً لا على القضاء على الثائرين والمتمردين بل على تهدئة الاوضاع مؤقتاً كي يستطيعوا أن يعملوا على اثارها عند اللزوم.

تولى الفضل بن يحيى المشرق كله وسأسه بدون حرب بل بالمال، والرشوة. ولم يكن الفضل يصلح للمنادمة لأنه كان لا يشرب النبيذ^(٣١٤) كما كان فيه تكبر ظاهر^(٣١٥) وربما تبختر في مشيته^(٣١٦) وكان جعفر بن يحيى اقرب إلى قلب الرشيد وكان يساعده في كل شيء^(٣١٧) وكان ينادمه ولا يكاد يفارقه وكان جعفر بليغاً^(٣١٨) وكان يتلطف في الكلام أكثر من الفضل، وقلما كان يخرج إلى عمله (أي ولايته) (وذلك ليبقى إلى جانب الرشيد) بعكس الفضل، وكثيراً ما تولى جعفر المغرب فأتاب عنه وظل قريب الرشيد. وكان البرامكة يفصلون في الأمور دون الرجوع إلى الرشيد، ولكن جعفر تجاوز ذلك إلى أنه على سبيل المثال كفل لعبد الملك بن صالح الهاشمي أن يرضى عنه الرشيد وكان عليه غاضباً، وإن يفي عنه دينه، وإن يزوج ابنته (ابنة الرشيد) لابن عبد الملك^(٣١٩).

وهذه جرأة عظيمة جاوزت كل حد، لا سيما أن الرشيد كان يشك في أن عبد الملك بن صالح كان يسعى إلى الوصول إلى الخلافة أو على الأقل لاثارة الفتنة بين أولاد الرشيد. وقد ضرب جعفر دنائيراً وزن الواحدة منها ثلاثمائة مثقال^(٣٢٠) وربما كانت معدة لاعطائها كمكافآت، وهو أمر لم يصنعه الرشيد. وجلس جعفر للمظالم مثل أبيه وأخيه^(٣٢١).

وكان الرشيد يسمى جعفرأ أخى، ويدخله معه في ثوبه (وهو أمر لا يصدق ويشير السخرية)، وقلده بريد الافاق ودور الضرب والطرز (أي الدور التي تتسج فيها الثياب للسلطان) في جميع الكور^(٣٢٢) وغلب جعفر على الرشيد غلبة شديدة حتى صار لا يقدم عليه أحداً^(٣٢٣).

قصر جعفر حين ارتفعت حظوته عند الرشيد في حق أخيه الفضل كما تقدم^(٣٢٤) وكان أبوه يحيى بن خالد يخشى أن تؤدي تجاوزات جعفر إلى هلاك البرامكة^(٣٢٥). وقد حمل جعفر لقب أمير في نفس الوقت الذي حمل فيه والده^(٣٢٦). يضاف إلى ما تقدم:

٨- أن الرشيد نقل إليه أن موسى بن يحيى البرمكي كان يكتاب أهل خراسان للخروج على الرشيد كما تقدم.

٩- أن الرشيد داخله الشك في أن جعفر كان يحتال لقتله^(٣٢٧).

١٠- أنه دخل في ظنه أن البرامكة تعاونوا مع عبد الملك بن صالح كي يستولي على الخلافة^(٣٢٨) وربما تعاونوا مع غيره من الهاشمين، فقد ارتاب الرشيد في عدة أشخاص آخرين من الهاشمين ومنهم. كما مر. موسى بن عيسى سنة ١٦٧هـ^(٣٢٩) وعيسى بن جعفر عام ١٩٣هـ^(٣٣٠).

١١- أنه خشي أن تدس البرامكة وغيرهم بين وليي عهده، كما خاف الخليفة المعتز فيما بعد^(٣٣١). وفضلاً عن ذلك كله يجب أن لا ننسى:

١٢- كيد الكائدين من اعداء البرامكة مثل الفضل بن الربيع، وعلي بن عيسى بن ماهان.

١٣- ملل الخليفة بسبب طول مدة سيطرة البرامكة وكثرة عددهم كما قال مسرور الكبير^(٣٣٢) وسعيد بن سالم^(٣٣٣).

(١) قصة العباسة أكنوية

أن ماذكر (عن قصة العباسة بنت المهدي اخت الرشيد وأن الرشيد لا يصبر عن مفارقتها، أو مفارقة جعفر بن يحيى، فزوجه له زواجاً صورياً، لكن جعفر نام معها وأولدها). لهو كلام تافه لا يستحق أن نقف عنده. وقد نفاه ابن خلدون، ونفاه كاتب مادة البرامكة في دائرة المعارف الإسلامية هذا عدا عن أن العباسة كانت متزوجة من قبل وتزوجت عدة مرات وفي كل مرة يتوفى زوجها عنها حتى أن أبا نواس ذكرها في شعره وذكر أن أزواجها ماتوا الواحد بعد الآخر، ولم يشر هذا الشاعر ولا أشار أحد من المؤرخين أو الشعراء إلى زواج العباسة من جعفر بن يحيى. وأن

الرشيد لا يمكن ان ينحط إلى عقد زواج صوري على شقيقته وهو يعرف تماماً أنه عقد باطل شرعاً. وكيف يعقد الرشيد هذا العقد كي لا يفارق أحداً منهما وإذا به يفارق الاثنين معاً فيرتكبا مثل هذه الغلطة. وفوق هذا فإن أحداً لم يكن يجزئ على عقد قران أميرة هاشمية عباسية على فارسي مهما بلغت منزلته سواء كان عقداً صورياً أم عقداً حقيقياً، هذا وإن العقود الصورية لم تكن معروفة في ذلك الزمان. وقد أورد الطبري^(٣٣٤) تلك القصة بدون أي اسناد على خلاف عادته، وكأنه يقصد أنها شائعة. وقد ناقش هذه القضية عمر فروخ^(٣٣٥) من وجوه أخرى ودعاها خرافة وناقشها الجومرد في كتابه عن هارون ودعاها خرافة.

ولابد ان الرشيد بدا يضيق بتجاوزات البرامكة منذ بدء خلافته وهذا الضيق كان يشتد يوماً بعد يوم منذ عهد والدته المسيطرة، وأنه قررّ التخلص من البرامكة قبل ان يفعل ذلك بزمان طويل^(٣٣٦).

والسؤال الهام:

رغم كثرة الاخبار عن عليّة بنت المهدي (أخت الرشيد والعباسة) وعن النحائنها وغنائها في كتب الادب والتاريخ وأهليتها لحضور مجالس الرشيد فلم يذكر أي خبر عن حضورها أي مجلس منها فكيف تحضر العباسية مثل هذه المجالس ولم يرد أي خبر عن أهليتها لذلك كما لا يوجد أي خبر عن مجلس انس حضرته العباسية مع اخيها الرشيد مما يدل على أنها لا تملك أية موهبة تؤهلها لحضور مجالس الانس، فهل يعقل ان يهجر الرشيد كل ما في قصره من الجواري الفاتحات والمغنيات البارعات كي يجالس أخته العباسية ويشرب امامها وهي لا تتقن شيئاً يشتهي في المجالس.

كان الرشيد من اشد الناس غيرة على نساء أسرته، وكان يغضب اذا سمع جارية من جواري أخته عليّة تغني بصوت أو شعر من نظم سيدتها امام الناس وذكر ان الاصمعي حين أمره الرشيد بتقبيل مؤاسة بنت الرشيد وهي طفلة صغيرة، وضع الأصمعي كفه على رأس الطفلة وقبل كفه خوفاً من غيرة الرشيد ويطشه، وصرح الرشيد أنه لو قبل الاصمعي ابنته لقتله، فكيف يصح القول ان الرشيد كان لا يصبر عن مجالسة أخته العباسية بحضور رجل غريب عنها وإن كان زوجها.

وكانت العباسية متزوجة محصنة ولكنها منكوبة منكودة الحظ في زواجها وحياتها الخاصة، فقد تزوجت في حياة أبيها المهدي بالأمير محمد بن سلمان الهاشمي والي البصرة فمات عنها سنة ١٧٣هـ ثم تزوجت ثانية بوالي مصر ابراهيم بن صالح الهاشمي، فمات هو أيضاً، وقيل تزوجت بأمير ثالث ثم رابع، ماتوا كلهم عنها، فشاع شؤمها بين الناس، وقالوا: من اراد الموت فليتزوج العباسية، ونظموا في ذلك الاشعار ومنهم ابو نواس كما تقدم، فكيف تستطيع هذه البائسة الكئيبة التي ما خرجت من ترمل وحزن الا لتدخل في ترمل وحزن جديد، أن تحضر مجالس الانس والسمر مع الرشيد وجعفر؟

وفضلاً عن ذلك فقد كانت العباسية نظراً لتعدد أزواجها من قبل، كبيرة السن في الوقت المفروض أنها تزوجت فيه جعفر، والمفروض أيضاً حسب الرواية المزعومة أنها اكملت الحمل حتى الولادة فكيف لم ينتبه الرشيد إلى بطنها الذي انتفخ كثيراً رغم كثرة جلساته معها ومع جعفر لأنه لم يكن يستطيع أن يصبر عنهما حسب الرواية

(٢) لماذا صبر الرشيد على البرامكة

لا بد ان الرشيد بدأ يضيق بتجاوزات البرامكة سبعة عشر عاماً قبل ان يبطش بهم. حين ولي الرشيد الخلافة كانت امه هي المسيطرة، وكان القرار لها بالتعاون مع البرامكة، وحين ماتت سنة ١٧٣هـ كان كل شيء بيد البرامكة كثيري العدد، وكان أبناء الرشيد اكبرهم في السنة الثالثة من العمر، ولا يمكن ان يتولى ولاية العهد في وجود رجال أقوياء من الهاشميين الطامعين في الخلافة والذين ينتظرون مثل هذه الفرصة بفارغ الصبر، والذين يرون أنهم احق من غيرهم

بوراثة الخلافة، ما دام الرشيد ليس له ولي عهد بالغ، وذلك لئلا تخرج الخلافة عنهم، وكان العلويون من ناحية أخرى يرون أنهم أحق بالخلافة لأنهم أحفاد النبي، وكان الرشيد بالغ الخوف منهم^(٣٣٧) لا سيما بعد أن أركى البرامكة هذا الخوف فيه. وكان الخوارج يرون أن العباسيين استولوا على الخلافة دون مبرر شرعي ولا كفاءة شخصية، ومنهم الوليد بن طريف وغيره وكانت القبائل من قيسية ويمنية في نزاع في الشام لأن الولاة الهاشميين كانوا يتعمدون إثارة الفتنة بينها بأن يناصروا أحدهما ضد الآخر كما حدث في عصبيات الشام فيصل النزاع إلى حد مخيف. لهذا كله كان الرشيد في أمس الحاجة إلى طرف قوي، ولم يكن حينذاك أقوى من البرامكة ولذلك اطلق لهم العنان ينعمون بالسلطة لأن الجيش المعول عليه هو من فارس مكان نضود البرامكة، إلى أن يؤمن أخذ ولاية العهد لأولاده ويؤمن الاموال اللازمة والمكان الذي يناسبه أكثر من بغداد، ويضمن ولاء الهاشميين والطلالبيين ولو إلى حد ما وهذا يتطلب سنوات طويلة لا سيما بالنسبة لولاية العهد، اضم إلى ذلك أن ولي العهد يجب أن يكون بالغاً لأنهم لم يعرفوا في ذلك الوقت منصب الوصي على ولي العهد.

وبعد أن أخذ العهد للأمين عام ١٧٥هـ ثم المأمون سنة ١٨٢هـ خلافا للعرف كان عليه أن يصير على البرامكة لأنهم اخف ضرراً عليه من الهاشميين والعلويين إلى أن يبلغ أولاده الرشيد. وخلال ذلك:

١. كان ينقل خاتم الوزارة بين يحيى بن خالد وابنائهم، وأوقع تدريجياً بين جعفر وإخيه الفضل ابن يحيى، وصار يغضب على الواحد منهم دون أن يبلغ ذلك حد القطيعة ثم يرضى عنه ويؤليه الولاية ثم ينقلها إلى غيره ثم يعيدها إلى الأول، كما أوقع بين محمد بن خالد البرمكي وبين بقية البرامكة.

٢. اغفل أمر الجيش وعدده (٥٠٠.٠٠٠) الذي تقدم ان الفضل بن يحيى جمعه له في خراسان، لعدم ثقته به، وهذا الخبر غير صحيح لأن جيش العباسيين لم يبلغ هذا الرقم قط، ورغم أن هذا الرقم ورد في شعر ابن أبي حفصة.

٣. ادخل في بلاطه الفضل بن الربيع عدو البرامكة اللدود، وأخرج خراسان من نفوذ البرامكة، وولأها علي بن عيسى بن ماهان الذي بطش بأنصار البرامكة بقسوة شديدة، وجمع الاموال الغفيرة وحملها إلى الرشيد، وهذا يدل على أن الرشيد كان يتمتع بالسلطة الكاملة، لكنه لا يستطيع أن يبطش بالبرامكة قبل أن تتأمن له بعض الأمور.

٤. اخضع خراسان والموصل والشام لسيطرة الخلافة بعد أن كادت تخرج منها باهمال البرامكة أو تعمدهم ذلك،

٥. نقل مقره وامواله وبلاطه بعيداً عن بغداد إلى الرقة التي يبدوا ان نفوذ البرامكة فيها اضعف كثيراً منه في بغداد وذلك سنة ١٨٠هـ. فلما جاء عام ١٨٦هـ كان الامين والمأمون بالغين في السادسة عشرة من العمر (يبلغ الغلام في سن الثانية عشرة من عمره)^(٣٣٨) فحج الرشيد حجته الثامنة وكانت قبل الاخيرة وعقد لهما في مكة، ثم رجع في عودته مطلع العام التالي ١٨٧هـ فحضر ضربه الكبرى في الانبار بعيداً عن بغداد وعن الرقة، بعد ان احتاط على اموال البرامكة وعقاراتهم ومنع ان ينتشر أي خبر قبل ان يتم كل شيء ومنذ ذلك التاريخ والناس وفيهم المؤرخون يتخبطون في أيضاً سبب نكبة البرامكة.

كان البرامكة يشعرون ان الرشيد بدأ يتغير من ناحيتهم بطريقة غير نظامية، ويتوقعون الشر منه، ولكنهم لم يكونوا متأكدين من ذلك ولم يستطيعوا أن يعينوا وقت نهايتهم ولا كيفيته، وهناك قصص عديدة عن هذا الشعور مثل: دخل يحيى على الرشيد ورجع^(٣٣٩)، دخل يحيى على

الرشيد بغير اذن فأنه الرشيد خلافاً لعادته^(٣١٠) الغلمان عند الرشيد لا يقومون ليحيى^(٣١١) اختلاف حديث الرشيد في مناسبتين عن قيام البرامكة بالنظر في المظالم^(٣١٢) وهكذا .
 قطع رأس جعفر وصلب بعد ان قطعت جثته . والصلب طبق عادة على الخارجين على الخلافة، لكن هذه العقوبة قد تطال بشراً لم يخرجوا على الخلافة . وذلك حين تكون الخلافة هي المدعية وهي الحاكمة وهي المنفذة ، فقد سبق للعباسيين أن قاموا بذلك كثيراً .
 أما صبر الرشيد واحتماله للبرامكة زمناً طويلاً قبل ان يبطش بهم، فما احسن كلمة الجاحظ في ذلك: ليس نفس تصبر على مضض الحقد ومطاوله الأيام صبراً للملوك، أشهد لكنت من الرشيد وهو متعلق بأستار الكعبة بحيث يمس ثوبي ثوبه ويدي يده، وهو يقول في مناجاته اللهم اني استخيرك في قتل جعفر ثم قتله بعد ذلك بست سنين^(٣١٣)، قتل جعفر مطلع عام ١٨٧هـ، وكانت مناجاة الرشيد المشار إليها قبل ست سنوات أي سنة ١٨١هـ، والواقع ان هذا صحيح فإن الرشيد حج سنة ١٨١هـ حجته السابعة والحجة التي قبلها أي السادسة كانت ١٧٩هـ أي قبل ثماني سنوات والحجة التي بعدها أي الثامنة كانت سنة ١٨٦هـ أي بعد خمس سنوات وكان الجاحظ قد عاش في (١٦٣ - ٢٥٥هـ) وعمره حينذاك ١٨١ - ١٦٣ = ١٨ سنة، وعاش الرشيد (١٤٩ - ١٩٣هـ) وكان عمره حين قام بتلك المناجاة سنة ١٨١ - ١٤٩ = ٣٢ سنة.

(٣) سبب نكبة البرامكة

لم يوجه اتهام صريح وواضح إلى جعفر بن يحيى، وربما كانت التهمة مما لا يستطيع إقامة الدليل عليها، ولذلك لم يجر التصريح بها، وهذا أمر أشار اليه المأمون بعد ذلك حين قال: ويستطيع الناس ان ينصفوا الملوك من وزرائهم، ولا يستطيعون أن ينظروا بالعدل بين الملوك وحماتهم وكفاتهم، وبين صنائعهم وبيطانتهم، وذلك أنهم يرون (في أولئك الحماة) ظاهر حرمة وخدمة، واجتهاداً ونصيحة، ويرون ايقاع الملوك بهم ظاهراً، حتى لا يزال الرجل يقول: ما أوقع به الا رغبة في ماله، او رغبة في بعض ما لا توجد النفس به، ولعل الحسد والملازمة وشهوة الاستبدال، اشتركت في ذلك. وهناك خيانات في صلب الملك، او في بعض الحرم، فلا يستطيع الملك ان يكشف للعامة موضع العورة في الملك، ولا ان يحتج لتلك العقوبة بما يستحق ذلك الذنب، ولا يستطيع الملك ترك عقابه لما في ذلك من الفساد على علمه بأن عذره غير مبسوط للعامة، ولا معروف عند أكثر الخاصة^(٣١٤). وكان المأمون يدافع عن نفسه عما فعل بالفضل ابن سهل وزيره.

ان احتمال الرشيد للبرامكة زمناً طويلاً رغم موافقهم منه، وشكّه فيهم، واستمرار الحاقدين على البرامكة في الكيد لهم عند الرشيد، عمل عمله فأدرك العامل النفسي المشترك بين جميع الناس، بما فيهم الملوك والخلفاء، فان الانسان يستطيع ان يحتمل الفضل ممن هو أعلى منه مرتبة، ويعجز عن احتماله ممن هو ادنى منه منزلة ويظل محتفظاً بسكينته. وقد ساعد يحيى بن خالد الرشيد وصبره إلى ان تولى الخلافة، فكافأه الرشيد بان جعله بمثابة أبيه لا قولاً بل فعلاً، وحكمه في كل شيء فحكم يحيى أولاده وأقاربه الكثر وأنصاره في كل شيء أيضاً وكانهم هم الذين ورثوا الخلافة والرشيد مجرد متفرج وخاصة قبل ان تتوفى والدته ولم يستطع الرشيد فيما بعد وبعد ان عانى الكثير من امثال كبر الفضل وتجاوز جعفر وغير ذلك، ان يقنع نفسه بأن يحيى وبرامكته يقدرون النعمة التي اسبغها عليهم، بل ايقن أنهم يرون ذلك كله أقل مما يجب لوفاء حقهم، وان لهم في الخلافة نصيباً كنصيب الرشيد وربما أكبر. ولم يكن هذا الشعور قد ساور عمر بن عبد العزيز مثلاً ضد رجاء بن حيوة (ت ١١٢هـ). شيخ أهل الشام، وهو الذي اشار على سليمان بن عبد الملك باستخلاف عمر، ولم ينقم عليه (أي على عمر) فيما بعد، لان عمر ابن عبد العزيز لم يسع للخلافة ولم ينظر إليها حين جاءت على أنها نعمة بل رأى أنها نقمة، كما

ان رجاء لم يفعل ذلك لغاية شخصية بل فعله خدمة للمسلمين. وليس لمنفعة زائلة. وقد فعل المأمون ثم العتصم مثلما فعل الرشيد كما سيجيئ الكلام فيما بعد.

حدث قبل الرشيد وبعده حالات مشابهة اذ قتل المنصور أبا مسلم لنفس السبب بعد ان وطأ الملك للعباسيين، واستمال لهم قلوب الناس، واستهتر المنصور بأبي مسلم وادعى ان أي رجل كان يستطيع ان يفعل ما فعله أبو مسلم الذي اعتمد . كما يقول المنصور . على رصيد العباسيين في قلوب الناس، وهو ادعاء بعيد عن الصحة. وأبو مسلم الخراساني كان رجلاً مفرداً ولم يكن اسرة كبيرة كالبرامكة. وبعد الرشيد قام ابنه المأمون بتصفية الفضل بن سهل (١٥٤. ٢٠٢هـ) بعد ان وصل على كتفيه إلى الخلافة. ولم ينبج طاهر بن الحسين من القتل، بعد ان خلص المأمون من اخيه الأمين بقتله، الا بالابتعاد عن بغداد إلى خراسان، ورغم ذلك يقال ان طاهر بن الحسين مات مسموماً بإيعاز من المأمون.

واذا كان المنصور قد قتل أبا مسلم في قصر الخلافة، ورشا أصحاب أبي مسلم بالاموال، فإن الرشيد كان أكثر حذراً اذ قتل جعفرأ بعيداً عن بغداد وعن الرقة وذلك في العمر من الانبار في طريق عودته من الحج، وارسل جثته لتصلب في بغداد في غياب الرشيد عنها فلم يصل اليها الا بعد فترة، وكانت جميع الاحتياطات اللازمة والمشددة قد اتخذت من قبل.

وكان المأمون فيما بعد اشد حرصاً ممن سبقه حين عمل على قتل الفضل بن سهل في الحمام ثم أسرع في قتل قتلته. وذلك في الطريق بين مرو وبغداد.

وفي عام ٣٢٢هـ قتل القاهرة بالله، إسحاق بن اسماعيل النوبختي، وهو الذي اشار باستخلافه، فكان إسحاق . كما يقول ابن الاثير. كالباحث عن حقه بظلمه^(٣٤٥).

علق ابن طباطبا في كتابه الفخري على قتل المنصور لأبي مسلم الخراساني فقال:

وقد دل الاستقراء على ان من اخترع دولة وأحدثها (مثل أبي مسلم الخراساني والفضل بن سهل) لم يستمتع بها في اغلب الاحوال وكان المخترع للدولة يكون عنده من الدالة (الدالة: الجراة) والتبسط مما تأنف من احتماله نفوس الملوك، فكلماً زاد تبسطه زادت الانفة (الانفة: العزة والحمية) عندهم (أي عند الملوك) حتى يوقعوا به^(٣٤٦) (أي بالذي ساعدهم حتى أوصلهم إلى كرسي الملك) وبمثل هذا المعنى نصح إسحاق بن مسلم العقيلي المنصور وضرب له مثلاً يحرضه على قتل أبي مسلم^(٣٤٧).

وبمثل هذا المعنى تكلم المأمون أيضاً كما تقدم. وعلى هذه السياسة سار الملوك منذ القدم ففي كتاب للهند: اذا كان الوزير يساوي الملك في المال والهيبة والطاعة من الناس، فليصرعه الملك، وان لم يفعل فليعلم أنه هو المصروع^(٣٤٨).

كان الفضل بن سهل تلميذاً لبرامكة. واحتل زمن المأمون مركزاً عسكرياً وإدارياً مثلما احتل البرامكة وحاول ان يبسط نفوذه على كل المملكة الإسلامية^(٣٤٩) لكنه لقي مصيراً مثل مصير جعفر ابن يحيى البرمكي وفي المصادر العربية تفسيرات كثيرة لنكبة البرامكة كل منها ينظر اليها من ناحية واحدة مثل: سئل سعد بن سالم عن جناية البرامكة الموجبة لغضب الرشيد فقال: والله ما كان منهم ما يوجب بعض عمل الرشيد بهم، طابت أيامهم، وكل طويل ممل، والله لقد استطال الناس الذين هم خير الناس (أي رجال الصحابة) أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وما رأوا مثلها عدلاً وامتناً وسعة اموال وفتوح، وكذا أيام عثمان بن عفان حتى قتلوهما ورأى الرشيد انس النعم بهم (بالبرامكة) وكثرة حمد الناس لهم، ورميهم بآمالهم دونه، والملوك تتنافس بأقل من هذا،

فتحت عليهم، وتجنى وطلب مساوئهم، ووقع بعض الأدلال خاصة من جعفر والفضل، دون يحيى، فإنه كان أحكم خبرة، وأكثر ممارسة للأمور، ولذا اعداؤهم، مثل الفضل ابن الربيع وغيرهم، فستروا المحاسن، وأظهروا القبايح حتى كان ما كان^(٣٥٠).

اضيفت إلى قصة الرشيد ذيول تافهة منها:

١- ندم الرشيد على فعله^(٣٥١)، وينفي ذلك، أنه أبقى رأس جعفر مصلوباً مدة عامين، ثم أحرقه بعدها، فهل هذا فعل نادم؟

٢- إن رسائل البريد تراكت عند الرشيد ودون أن يطلع عليها^(٣٥٢)، يراد بذلك القول إن الرشيد فقد توازنه، ولم يعد يهتم بأمور الدولة. وتناسوا أن المؤامرات والتجسس كان محكماً على الرشيد حتى من أولياء عهده واتباع البرامكة^(٣٥٣) ومن كل الجهات.

ورغم كل هذا فإن الرشيد ظل يثابر على نشاطه فقد غزا الصائفة بعد نكبة (البرامكة) وشخص إلى الري وإلى منبج وهدم هرقله^(٣٥٤) واتجه إلى خراسان^(٣٥٥) وتزوج في الرقة أم محمد ابنة صالح (المسكين) وأعرس بها بالرقة في ذي الحجة سنة ١٨٧هـ (٣٥٦). أي في آخر العام الذي قتل فيه جعفر البرمكي (قتل في أول صفر عام ١٨٧ هـ، وكان عمر الرشيد ٣٨ سنة).

١٤- العلاقات السياسية مع بيزنطة في عهد الرشيد

بدأت من عام ١٨٧هـ ٨٠٢-٨٠٣ م العلاقات السياسية والعسكرية بين الدولتين تتأزم بشكل خطير جداً، واستمر ذلك حتى عام ١٩٠هـ ٨٠٥-٨٠٦ م، وشهدت هذه الفترة اعتلاء نقفور العرش الامبراطوري (٨٠٥-٨٠٦ م) وأرسل رسالة إلى الرشيد طالبه بإعادة الأموال التي أدتها إليه ايرين أو إعلان الحرب. أما جواب الرشيد فتضمن تهديداً بقوله 'والجواب ما تراه دون أن تسمعه'. وفي نفس السنة ١٨٧هـ قاد الصائفة القاسم بن الرشيد من درب الصفصاف وحاصر حصن قرّة فاضطر نقفور إلى إطلاق سراح (٢٢٠) أسيراً من أسرى المسلمين مقابل انسحاب القاسم من الأراضي البيزنطية. كما أن القاسم ولي في هذه السنة أمر العواصم ولا بد أن تكون صائفة القاسم بسبب أحد أمرين:

١. أن الدولة العباسية عدت اتفاقها مع الامبراطورة ايرين ملغياً بمجيئ نقفور إلى الحكم. فأعطى العباسيون الحق في الإغارة على الأراضي البيزنطية.

٢. أن نقفور نقض في هذه السنة ١٨٧هـ الاتفاق الأخير بين ايرين والرشيد قبل قيام القاسم بصائفة هذه وأرسل بذلك رسالته المعروفة إلى الرشيد وتمثل رد الفعل بصائفة القاسم المذكورة. أن نقفور نقض الاتفاق في مطلع (سنة ١٨٧هـ) وليس هناك أية علاقة بين رسالته وبين فتح هرقله عام ١٩٠هـ ٨٠٥-٨٠٦ م لأنه ليس معقولاً أن يقوم الرشيد بالرد العملي على هذه الرسالة بعد ثلاث سنوات من وصولها ولا بد من أسباب ودوافع أخرى لفتح هرقله.

ففي عام ١٨٧هـ وعقب نقض نقفور الصلح الأخير بين الرشيد وايرين أرسل الرشيد ابنه القاسم على الصائفة رداً على هذا النقض وفي عام ١٨٨هـ وجه القاسم، ابراهيم بن جبريل قائداً للصائفة ورابط القاسم في دابق فدخل ابن جبريل من درب الحدث وانتصر على البيزنطيين في مرج عذرا واصيب نقفور بثلاث جروح وقتل من الروم ٤٠٧٠٠ مقاتلاً. وفي عام ١٨٩هـ هاجم البيزنطيون عين زيبا والكنيسة السوداء واذنة ثم كانت هناك حملة قادها الفضل بن العباس. وفيها أيضاً جرى تبادل الاسرى بين الطرفين وأن القاسم ما زال مرابطاً في دابق. واضطر الرشيد إلى المسير إلى خراسان لترتيب الأوضاع هناك وكانت الأوضاع على التخوم عموماً طبيعية.

أما في عام ١٩٠هـ ٨٠٥-٨٠٦ م فقد جرى ما يلي:

١. قرر الرشيد في هذه السنة قيادة الصائفة على الأراضي البيزنطية.

٢. أغار البيزنطيون على عين زربة والكنيسة السوداء وأسروا عددا من المسلمين انقذهم أهل المصيصة فضلاً عن مهاجمتهم (أي البيزنطيين) لأذنة كما أسلفنا.

٣. فتح الرشيد حصن هرقله.

ويتضح من هذا التسلسل أن قيام البيزنطيين بعمل عسكري واسع في منطقة الثغور أشار نقمة الرشيد وسخطه الشديد، فقرر أن ينزل بالبيزنطيين ضربة شديدة تؤذيهم وتقض مضاجعهم.

ان فتح الرشيد لهرقله كان الرد الطبيعي والمحتم على سلسلة الأعمال العدائية التي بدأها نقفور منذ أن بدأ بنقض الاتفاق الأخير بين الرشيد وإيرين وحتى غارته الأخيرة من مناطق الثغور. أما الاتفاق الذي جرى بين الرشيد ونقفور عقب فتح الحصن فتضمن:

١. أن تترك قوات الرشيد حصون: ذي الكلاع وصملة وسانان دون تدميرها.

٢. أن يقدم نقفور مبلغاً قدره ٣٠٠ ألف دينار لبغداد جزية سنوية.

٣. أن لا يقوم نقفور بتعمير هرقله.

ورداً على اغارة البيزنطيين المذكورة قرر الرشيد الانتقام، فجهز جيشاً من ١٣٥ ألف من الجند غير التابع والمطوعة، وترك ابنه المأمون في الرقة مفوضاً إليه الأمور. وأثناء سيره فتح واحرق عدداً من الحصون حتى وصل إلى مدينة هرقله الحصينة (تقع على الشاطئ الشمالي لبحر مرمرة وهي اليوم قرية للصيادين اسمها التركي 'اسكي ارجيل': محاطة بخرائب - كتاب العرب والروم - فازيليف ترجمة). وفرض عليها الحصار ولكن أهلها استماتوا في الدفاع عنها، إذ كان بابها يطل على واد، وخندقها يجيئ بها مما جعل اقتحامها عسيراً، فاستخدم الرشيد المجانيق والسهام والعرادات (أي منجنيقات صغيرة). وأمر الرشيد قادته بوضع الكبريت والنفط الأبيض على الحجارة ولفها بالمشاقفة (أي ما سقط من الشعر والكتان) وأشعلها ثم رفعها في كفة المنجنيق والقائها على هرقله. فكانت النار تلتصق بالحجارة وتأخذ بالتصدع، فلما أحاطت النيران بالمدينة قام الأهالي بفتح الباب طالبين الأمان، فدخلها الرشيد في شوال ١٩٠هـ بعد حصار دام ثلاثين يوماً وسبى حوالي (١٦٠٠٠) شخص وغنم ما فيها من خيرات، خاصة وأنها كانت مركزاً لتخزين القمح، ثم توجه إلى مناطق أخرى ليواصل غاراته الانتقامية. (العلاقات السياسية بين بيزنطة - وديع فتحي عبد الله ص ٢٩٥). وفي نفس الوقت وصل الأسطول العباسي بقيادة حميد بن معيوف إلى قبرص وأعمل فيها الحرق والتدمير كما سبى كثيراً من أهلها، وبلغت جملة الأسرى حوالي سبعة عشر ألف أسيراً نقلوا إلى الرقة لبيعهم، ويذكر أن كبير أساقفة قبرص الأسير بيع بمبلغ ألفي دينار (ن.م. ٢٩٨).

وفي أعقاب عودة الرشيد من هرقله، نقض نقفور هذا الاتفاق. أما كيفية ذلك وكيف جرى اخبار الرشيد بالأمر فهو مما لفة الغموض في الروايات. أما بخصوص كيفية الخرق فتمثل بامتناع نققفور عن أداء الجزية ولا يبدو أن الأمر يتعلق بتعمير هرقله فلو كان الأمر كذلك لتوجه الرشيد في حملته التالية إليها لتدمير ما عمر منها وليس إلى الطوانة كما سنرى ثم أن المدة الزمنية بين عقد الاتفاق وخرقه غير كافية لإعادة اعمار المدينة. أما بخصوص الطريقة التي جرى فيها اخبار الرشيد بنقض نقفور للاتفاق فإن الطريقة التي أوردتها الروايات تبدو عارية عن الصحة وهي الروايات التي ذكرت أنه احتيل للرشيد بشاعر ألقى عليه قصيدة تضمنت نقض نقفور للاتفاق وبشأن هذه الروايات الشعرية يمكن ملاحظة:

١- ان بعض هذه الروايات لا تحدد شخصاً قام بتكليف هذا الشاعر لالقاء شعره على الرشيد، هي حين ذكر الجهشيارى أن يحيى بن خالد البرمكي هو الذي اشار على الرشيد بعقد هذا الاتفاق لذا فإنه احتمال لادخال هذا الشاعر على الرشيد ليخبره بالنقض من قبل نقفور غير ان الرشيد كان قد وجه ضربة قاضية للبرامكة (كانت نكبتهم سنة ١٨٧هـ) قبل هذه الحادثة بعدة سنوات.

٢- ان السبب الذي حال دون اخبار الرشيد بهذا النقض تراوح بين البرد الشديد ومرض الخليفة أو الخوف من النقمة، وهذا كفيل باثارة الشكوك حول صحة هذه الروايات.

٣- وما يزيد الشكوك حول الطريقة التي جرى بها اخبار الرشيد ان الطبري اورد مقطعين شعريين للشاعر التيمي الذي اخبر الرشيد بهذا النقض حسب الروايات، وهذان المقطعان يختلفان في القافية والوزن، ولا يعقل ان يكون هذا الشاعر اعد أكثر من قصيدة لهذا الغرض فقصيدة واحدة كافية لهذا الغرض، كما ان اقحام قصيدة أبي العتاهية اظهر الأمر وكأنه مباراة شعرية امام الخليفة الرشيد، ويبدو ان الأمر كان كذلك فعلاً ولكن بعد ان علم الخليفة بنقض نقفور للاتفاق. وان قصيدة التيمي تضمنت بيتاً يمكن ان يكون مفتاحاً لحل هذه المسألة الذي جاء فيه:

فلقد تباهرت الرعية أن أتى بالنقض عنه وافد وبشير

وفيه اشارة واضحة إلى رسول قادم من نقفور ليخبر الرشيد بتخلي نقفور عن الاتفاق: ومن المحتمل جداً أن رسول نقفور دخل بنفسه على الخليفة واخبره رسمياً بنقض الاتفاق، سواء كان ذلك مشافهة أو برسالة خطية قدمها للخليفة كما حدث في المرة السابقة.

وفي نفس السنة ١٩٠هـ توجه الرشيد إلى الاراضي البيزنطية وسيطر على الطونة، وأعلن ذلك. وعقب الصلح بين نقفور والرشيد ارسل الامبراطور مع اثنين من بطاركتيه خطاباً إلى الرشيد بخصوص طلب جارية من سبي هرقله خطيبة لابنه ومع السفيرين عدد من الهدايا الطبية فامر الرشيد بتزيين الجارية واجلاسها على فراش في مضرب الرشيد وتسليمها مع المضرب بما فيه من متاع إلى سفارة نقفور مع مجموعة من الهدايا الطبية.

وهكذا تأكد بعد معركة هرقله وتوقيع عقد الصلح تفوق ميزان القوى لصالح الخلافة العباسية علماً بأنه لم يكن في استراتيجية الخلافة تطلعات توسعية بل فيها الاحتفاظ بما في حوزتها^(٢٥٧).

١٥- بلاط الرشيد في الرقة

للرقة في عهد الرشيد وضع خاص تميزت به عن وضعها في جميع العهود. وذلك لأن الرشيد اختص عن بقية الخلفاء بشهرته التاريخية والشعبية والقصصية، فاحتل مركزاً بارزاً في التاريخ وفي كتب السير وفي ألف ليلة وليلة. بالإضافة إلى مركزه في كتب الأدب والشعر، كما ان الرقة أصبحت للمرة الأولى والأخيرة، وذلك في عهد الرشيد، قاعدة (عاصمة) للخلافة الإسلامية التي كانت تمتد من الاطلسي إلى أواسط آسيا.

وبقيت كذلك ثلاثة عشر عاماً، ولذلك وجب ان نتبسط في الكلام عن الرشيد وبلاطه في الرقة خاصة، ودفاعه عن الثغور.

استقر الرشيد في الرقة عام ١٨٠هـ حتى عام ١٩٣هـ أي مدة ثلاثة عشر عاماً بينما لم تتجاوز إقامته في بغداد عشر سنوات، واناب عنه في بغداد ابنه الامين وكان عمره عشر سنوات وولاه على العراق بما فيه بغداد، وجعل في الرقة خزائنه وأقدم معه حرمه وأهله ومن يشاق اليه، وربما أبقي بعضهم في بغداد فاشتاق اليه فعمل على حمله اليه او بالعكس اذا كان ببغداد وكذا

بالنسبة لأصحابه ولم تدعو الحاجة اليه. وكان معه في الرقة زوجته زبيدة وقدمت إلى بغداد بعد وفاته ومعها خزانته وامواله. واتفق على سبيل المثال ان اشتاق الرشيد إلى اخته عليّة بنت المهدي فأحضرها من بغداد إلى الرقة وهذا ما جرى للفقهاء مثل محمد الحسن والأدباء مثل الأصمعي والمغنين. انتقل مع الرشيد إلى الرقة قواده ووزرائه والبرامكة وأطبائهم وجميع من يحتاج الرشيد لهم، وبنوا في الرقة القصور وجميع ما يلزم.

وكان الرشيد يتحرك في موكب خاص فحين ورد الرقة عام ١٨٠هـ خرج يوسف بن نصيف، وكمن له في نهر جاف على طريقه. وكان لهارون خدم صغار يسميهم بالنمل يتقدمونه، بإيديهم قسي البندق، يرمون بها من يعارضه في طريقه. فلم يتحرك يوسف حتى وافته قبة هارون على ناقّة (القبة مثل هودج النساء والتقيب يصنع من العصي ثم يجعل فوق الخشب فيقرب، لسان العرب) فوثب إليه يوسف، وأقدم الخدم الصغار يرمونه، فصاح بهم الرشيد: كفوا عنه! فكفوا، وصاح به يوسف يقول:

أغشىاً تحمّل النسا	قبة أم تحمل هاروناً
أم الشمس أم البدر	أم الدنيا أم الدين
الأكمل السني عدد	تأقعد أصبح مقرون
عنسى مفروق هارون	فستداه الأدميون

فمدّ الرشيد يده إليه، وقال له: مرحباً بك أبا يوسف! كيف كنت بعدي؟ أدنّ مني! فدنا. وأمره بفرس، فركبه، وسار إلى جانب قبة ينشده ويحدثه، والرشيد يضحك. وكان (يوسف) طبيب الحديث. ثم أمر له (الرشيد) بمال وأمر ان يغني في الأبيات^(٣٧) وكانت الشرطة تحشد الناس لاستقبال الرشيد، ومع جلاله موكب الرشيد في الرقة، فأنه لم يضاها موكب الفقهاء والزهاد. فحين ورد عبد الله بن المبارك الرقة في طريقه إلى غزو الثغور، ورأت أم ولد الرشيد كيف احتشد الناس لرؤيته قالت: هذا والله الملك لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس الا بشرط واعوان^(٣٨).

كان اول من كان يدخل على الرشيد في كل غداة طبيبه جبريل بن بختيشوع الذي يقول: ((فاتعرف على حاله في ليلته، فإن كان انكر شيئاً وصفه، ثم ينسبط فيحدثني بحديث جواريه وما عمل في مجلسه، ومقدار شربه، وساعات جلوسه، ثم يسألني عن اخبار العامة وحوالها))^(٣٩).

وكانت صحابة الرشيد على بابه حسب ما رسم لها، فإذا احتاج احداً منهم استدعاء. قال السلولي: حدثني أبي، قال: بينا نحن بالرافقة على باب الرشيد وقوفاً، وما افقد احداً من وجوه العرب من أهل الشام والجزيرة والعراق، اذ خرج وصيف كأنه درة، فقال: يا معشر الصحابة، إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول لكم: من كان يروي قصيدة الاسود بن يعفر:

نام الخلي وما احس رقادي والههم مختصر لدي وسادي

فليدخل فينشدها أمير المؤمنين وله عشرة آلاف درهم^(٤٠).

ولكل فئة ممن تقدم نظام خاص ومواعيد خاصة في الحضور والغياب إلا ان يحصل على اذن من الرشيد او ان الرشيد يغير المواعيد. وهذا ينطبق على الفقهاء، والفئات الاخرى.

وكان للرشيد أيضاً حاشية من الفقهاء وعلى رأسهم ابو يوسف الذي عينه الرشيد قاضياً للقضاة فكان اول من شغل هذا المنصب، ومنهم محمد بن الحسن وقد عينه الرشيد قاضياً في

الرخة ثم عزله واصطحبه إلى الريّ في السفرة التي مات فيها الرشيد. وهؤلاء الفقهاء كانوا يتكفلون بحل جميع المشاكل الدينية له بالاحتتيال عليها وإن كان الحل لا يرضي المؤمن المخلص الإيمان، حتى أنه تكون جزء من الفقه يدعى ((الحيل)).

وكان للشافعي مناظرة مع محمد بن الحسن في مجلس الرشيد سيرد ذكرها في المكان المناسب.

وكان الرشيد يحسن للفقهاء حتى أنه إذا حجّ، حجّ معه مائة من الفقهاء وابنائهم، وإذا لم يحجّ أحج ثلاثمائة فقيه بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة^(٣٧١)، ومن المعروف أن الرشيد حج تسع مرات.

وكان للرشيد ندامى من بينهم ابن أبي مريم المدني وكان مضحكاً له محدثاً فكها، فكان الرشيد لا يصبر عنه ولا يمل محادثته. وكان ممن جمع إلى ذلك، المعرفة بإخبار أهل الحجاز وألقاب الأشراف ومكاييد المجان فبلغ من خاصة الرشيد أن تبوأ منزلاً في قصره، وخطبه بخدمة ويطانته ومواليه وغلماً^(٣٧٢).

وله قصة مع الرشيد حين أراد الرشيد أن يشرب الدواء، فشرط عليه ابن أبي مريم أن يكون له حاجباً حين يأخذ الرشيد الدواء وكل ما يكسبه يتقاسمه مع الرشيد فكان لا يدخل أحداً على الرشيد إلا يومه بأنه يدخله قبل غيره، وبلغ دخله يومها ستين ألف دينار وقد سامحه الرشيد بنصيبه^(٣٧٣). ولابن أبي مريم قصة أخرى تضحك الثكلى، وخلاصتها أن العباس بن محمد أهدى الرشيد غالبية (نوع من الطيب سيبحث في فصل ((الطيب)) فأطنّب العباس في وصفها ومدحها بشكل ممل فقال ابن أبي مريم للرشيد يا أمير المؤمنين! هبها لي، ففعل الرشيد. فاغتاظ العباس وقال: ويليك عمدت إلى شيء منعت نفسي وأثرت به سيدي، فأخذته. فقال ابن أبي مريم أمّه فاعله إن دهن بها إلا استه! فضحك الرشيد. ثم أخذ ينفذ ما قال وأخذ يدهن بها جسمه من استه إلى وجهه ثم نادى غلامه وأعطاه ما بقي من الغالية وأمره أن يعطيها لزوجته ويقول لها أن تدهن بها وتنتظر قدومه والرشيد يضحك. ثم قال ابن أبي مريم للعباس: والله أنت شيخ أحق، تجيء إلى خليفة الله فتمدح عنده غالبية؟ أما تعلم أن كل شيء تظطره السماء، وكل شيء تخرجه الأرض له الخ .. وكأن الرشيد بقال أو عطار أو تمار؟ قال: فضحك الرشيد حتى كاد ينقطع نفسه، ووصل ابن أبي مريم في ذلك اليوم بمائة ألف درهم^(٣٧٤).

وكان الأصمعي من بلاط الرشيد وكان له دار في الرقة^(٣٧٥) وله مجالس مع الرشيد، وحمل مرة إلى الرقة ليمتحن جارتين أهديتا إلى الرشيد^(٣٧٦).

وكان للقضاة والفقهاء والأدباء مجالس خاصة في عهد الرشيد وكذلك للأمراء والولاة.

وصار الرشيد يجلس للمظالم في الرافقة^(٣٧٧) بعد أن كان البرامكة قبل نكبتهم هم الذين يجلسون لذلك.

وكان كمن سبقه من الخلفاء متعصباً للدين وضد التطرف فيه، وكان أبوه من قبله يتعقب الزنادقة وخاصة حين يكون بعيداً عن العاصمة أو على الحدود وكذلك فعل المأمون فيما بعد حين ابتدع مسألة المحنة وهو على حدود بيزنطة أو داخلها. وبلغ من قسوة الرشيد في هذا السبيل أن سلم ابن سالم البلخي كان مرجئاً خفيفاً في مدينة المدينة، لكنه كان صارماً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكانت له رئاسة بخراسان، فلم يشفع له هذا، وبعث له هارون الرشيد فأقدمه عليه

فحبسه ولم يزل محبوساً إلى أن مات هارون الرشيد. ثم أخرجه الأمين -- كما أخرج فيما بعد عبد الملك بن صالح أيضاً، وذلك حين ولي الخلافة -- فقدم بغداد فاقام فيها قليلاً ثم خرج إلى خراسان فمات فيها^(٣٧٨) وهذا الأسلوب من التعامل الاحترازي اتبعه العباسيون في كل من شكوا فيه أنه خطر على الخلافة سواء كان علوياً أو عباسياً أو غير ذلك مثل عبد الملك بن صائغ مثلاً.

وكان الرشيد يجد وقتاً لممارسة جميع ألعاب اللهو والرياضة: فكان يجري الخيل في الرقة^(٣٧٩)، ويلعب الشطرنج في الرقة أيضاً ويخرج إلى الصيد^(٣٨٠).

وتان الرشيد اول خليفة لعب بالصولجان في البلاد، ورمى بالنشاب في البرجاس (الحياة الاجتماعية في العهد العباسي ٢٥٥)، ولعب الأكرة والطيطاب، وقرب الحذاق في ذلك الفعل، واول من لعب الشطرنج من خلفاء بني العباس، وبالترد^(٣٨١) وقدم اللغاب وأجرى عليهم الرزق فسمى الناس أيامه لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها أيام المروس وكثيراً مما يتجاوز النعمت ويتفاوت فيه الوصف^(٣٨٢). وأمر الرشيد ذات مرة فحمل إليه الاصمعي إلى الرقة ليمتحن جارتين أهديتا إلى الرشيد^(٣٨٣) كما تقدم^(٣٨٤).

وللأصمعي مجلس مع أبي عمر الشيباني عند سعيد بن مسلم بن قتيبة الباهلي في الرقة^(٣٨٥). وفي ((مجالس العلماء للزجاجي)): مجلس للكسائي في الرقة حضره الفراء ويغلب أن يكون ذلك في عهد الرشيد^(٣٨٦). وسعيد بن مسلم الباهلي الوالي في الرقة مجلسه الخاص به وكان والياً للرشيد في الرقة منذ عام ١٨٠هـ^(٣٨٧).

(١) مجالس الشعر

ليس الرشيد اول خليفة نظم الشعر، ولكنه كان أكثر الخلفاء عناية به وتقديماً وإكراماً له. وقد اجتمع في بابه عدد كبير من نوابغ الشعراء لم يجتمع مثله لخليفة آخر، ونالوا من الحظوة عنده، ومن فيض كرمه ما لم يكن له مثل من قبل. وفي الاخبار ان جماعة من شيوخهم كانوا يختصون بمدحه، ولا يمدحون غيره إلا بإذن منه. وهم يتقاضون لأجل ذلك راتباً سنوياً ضخماً بلغ المائة الف درهم، كمروان بن أبي حفصة، وأبي العتاهية وغيرهما، هذا عدا الهبات والعطايا التي تأتيهم منه في المناسبات.

ويمكننا تصنيف الشعراء الذين يرتادون بابه وينتجعون موارد كرمه إلى اصناف: فمنهم من كان يقيم ببغداد ويردد على بلاطه فيحضر مجالسه الادبية كلما عقدت برغبة منه: وهؤلاء هم زعماء الشعر في ذلك العهد، مثل أبي العتاهية ومسلم بن الوليد ومروان بن أبي حفصة وأبي نواس ومن على شاكلتهم. ومنهم من يقصد بغداد في الأعياد والمواسم والمناسبات، فيدخل مجلسه بعد الإذن، وينشده ما قاله في مدحه، ثم يعود إلى بلده محملاً بالعطاء والجوائز اذا كان من المجيدين، مثل: كلثوم بن عمرو العتابي، ومنصور النعمري، واشجع السلمي وأشباههم.

على ان للرشيد مجالس سمر وآنس. كما نرى يحضرها الأصدقاء والمقربون اليه، من شيوخ الأدب والرواية والشعر والطرافة وكل من تأنس به نفسه، فيستطيع امثال هؤلاء ان يذكروا له شاعراً مغفوراً يجيد المديح ويحسن عذب البيان، فيأمر بإدخاله إلى حضرته، وينشده ويصنفي إلى إنتاجه الأدبي، وربما استحسن منه ما سمع، فيغنى عليه من كرمه او يأمره بلزوم بابه، وانشاده في المواسم حين يجلس للشعراء.

ومواسم الشعر عند الرشيد هي: الأعياد المعروفة، وعند عودته منتصراً من الجهاد في بلاد الروم، وحين رجوعه من الحج. او قفوله من سفر بعيد.

وكانت العادة في مثل هذه المناسبات أن يعلن من قبل عن موعد هذا المجلس باليوم والساعة، وفي الموعد المعين يجلس الرشيد على كرسیه وبين يديه اصحاب الأعمدة على سباطين

ثم يقدم لانشاد شعره شاعر شاعر حسب سنه، الأكبر ثم الأصغر فالأصغر (مختار الأغاني ١٨١).
فيقال كل منهم جائزته التي يقدرها له، حسب إبداعه وأجادته... ويصبح ذلك المجلس أشبه بسوق
عكاظ، في الجاهلية، يوم كانت تشد العلاقات، ولكن أهداف المنشدين هنا مدح الخليفة لا غير.

ويبلغ حب الرشيد للشعر حباً عظيماً، حتى أصبح غذاءً روحياً له، فصار لا يرفض سماعه
في أي حال أو مكان كان. في مرض أو صحة، وفي قصره أو أثناء مسيره في موكبه أو في غزوة
وأثناء طعامه وشرابه، اللهم إلا في موسم الحج فإنه كان يبتعد عن الشعراء خوفاً من انشغاله
وابتعاذه عن ذكر الله في تلك الساعات المخصصة للعبادة والاستغفار.

وكان ذواقة للشعر ملماً بدقائقه ويعرف أخطائه وقد نظم فيه مقطوعات مختلفة الجودة.

ولم تكن صلة الرشيد بشعرائه سطحية تستند إلى كسب المال مقابل المديح والدعاية
السياسية فحسب بل كانت أمتن من ذلك واقرب إلى الروح فكان الرشيد يقرب بعضهم يجالسهم
ويناقشهم ويتفقد شؤونهم أثناء غيابهم عنه ويقدم لهم المال كلما تعثرت الأيام ببعضهم. وكان
الكثير منهم يبادلونه هذا الشعور^(٣٨٨).

وكان حين يعود من سفره إلى الرقة يدخل عليه الشعراء يمدحونه مثل الشاعر العماني
واسمه محمد بن ذؤيب بن محجن بن قدامة^(٣٨٩).

وكان إذا لم يمثل الشاعر لأمره وينشده ما يريد حين يريد امر بسجنه كما جرى لأبي
العتاهية^(٣٩٠). الذي امتنع عن قول الشعر بسبب زهده حسب ما زعم ...

وكان الرشيد يتتبع أخبار الشعراء وما مدحوا به غيره حتى إذا كانت مدائحهم في غيره ابلغ
من مديحهم فيه طردهم، ويمنع شعراء ان يمدحوا أحداً غيره إلا بإذنه^(٣٩١).

وكان الوصول إليه في غير المواعيد المخصصة لذلك يحتاج إلى وسيط عالي المقام،
فالنعماني مثلاً دخل عليه في الرقة بوساطة من عبد الملك بن صالح^(٣٩٢).

٣) مجالس الرشيد غير الشعرية

كان هارون الرشيد من أشهر الخلفاء المسلمين وكثرت فيه الاقاويل والشهادات بين التاريخ
والقصص وألف ليلة وليلة وتنوعت جوانب البحث فيه فهو الخليفة القوي والمحارب الشجاع
والمتدين المبالغ والسابق في اللهو والالعب وفي الجهاد والحج والانتقام والعفو كل هذا وأكثر منه
اجتمع في الرشيد إلى جانب الثروة الطائلة ووجود جميع طبقات الناس في مجالسه منهم الفقهاء
والشعراء والعلماء والقراء والمغنون وأهل اللهو قال الخطيب البغدادي عنه

اجتمع للرشيد مالم يجتمع لأحد من جد وهزل، وزراؤه البرامكة، لم يرمثلهم سخاءاً وبرا، وقاضيه
ابو يوسف، وشاعره مروان بن أبي حفصة وكان في عصره كجريح في عصره، ونديمه عم أبيه العباس بن
محمد، وحاجبه الفضل بن الربيع أتته الناس وأشدّهم تعاظماً، ومغنيه ابراهيم الموصلي واحد عصره في
صناعته، وضاربه زلزل، وزامره برصوما، وزوجته ام جعفر (زبيدة)، أرغب الناس في خير، وأسرعهم إلى
كل بروهي أسرع الناس في معروف، أدخلت الماء الحرم بعد امتناعه من ذلك (٤١٦).

٤) مجالس الخلفاء

كانت مجالس الخلفاء الراشدين تتم في المسجد أو المنزل وعلى الحصر أو الجلد ويدخل
الناس عليهم بدون رسميات أو تكلف ثم في عهد الأمويين دخلت بعض الرسميات والقيود منذ
عهد معاوية بن أبي سفيان وواليه زياد بن أبي سفيان متأثرين بتقاليد الفرس خاصة بعد أن
تعرض معاوية لمحاولة اغتيال، ومع ذلك فقد كان معاوية والمنصور يشغلان كل أوقاتها في الإدارة

والسياسة والمطالعة والمفاوضة. اصطنع الخلفاء القصور والأسرة والكراسي والطنافس والستور والحجاب وغير ذلك. وكان المجلس ينعقد في قاعة أو بهو كبير، على جدرانها صور ممثلة بالذهب والفضة والستائر وتنتشر في الأرض البسط والشموع والسرير، والسرير أو السدة يجلس عليها الخليفة وهي من العاج والأبنوس أو الصندل ينزل بالذهب وقد جعل فيما بعد للوفاة على الخليفة منازل بجوار دار العامة يقيمون فيها ريثما يؤذن لهم وذلك ابتداء من عهد المنصور. وكانوا يقبلون يد الخليفة ثم صاروا يتقبلون يد الخليفة وقدمه وحافر دابته.

وبعد الخلفاء الراشدين احتجب الخلفاء عن الناس وكان الحجاب شائعاً عند الفرس فكانوا ينصبون في مجلس الملك ستارة بينها وبينه عشرة أذرع فقلدهم العباسيون ثم ضاعفوا الحجاب في بعض الأحيان فاتخذوا عدة أستار الواحد وراء الآخر إلى ثلاثة أو أربعة وفعل ذلك وزرأهم البرامكة أيضاً، وجعلوا قصورهم عدة أبواب الواحد وراء الآخر وكان الخلفاء العباسيون يحتجبون غالباً من الندماء والمغنين وسائر الطبقات العامة وليس عن الخاصة إلا أحياناً فكانوا يقيمون عند الستارة حاجباً يسمونه صاحب الستارة يتوسط في نقل ما يريد الخليفة أو بلاغة إلى جلساته أو ندمائه (٤١٧).

٥) الموسيقى والغناء في عهد الرشيد

كان عصر هارون الرشيد من أزهى العصور العباسية، فلقد بلغت الحضارة والمدنية العربية وحياة الرفاه الاجتماعي أوجها على عهده الذي طال ثلاثة عشرين سنة (١٧٠-١٩٣هـ) منها ثلاثة عشرة في الرقة ١٨٠-١٩٣هـ وكان الرشيد بالذات من بين الخلفاء محط الأنظار وقد صور بطلاً للكثير من القصص الخيالية في ألف ليلة وليلة وغيرها أفلا يمكن أن يكون الرشيد مثلاً ذا قلب كبير ولسان شاعر يحب ويتغزل سيما وأن العصر الجديد الذي أخذ بكل مجالات التطور لم يكن يجد حرجاً في التحدث عن العشق والغرام والحب والغزل وقول الشعر. وأن التحدث في هذه الأمور كان مظهراً حضارياً عندهم وموضوعاً مهماً دار في حلقات الفلاسفة والمتكلمين، وفي مجالس الأدباء والعلماء. ألا يجوز أن يكون هذا الخليفة، رغم سلطانه وجبروته الذي ظهر من خلال بعض صفحات من سيرة حياته، رقيقاً مرهف الحس في حياته الخاصة مع نسائه وجواريه، يعجبه فيهن ما يعجب غيره فيصدر عنه ما يصدر ويقول فيهن شعراً من رقيق الغزل ويستقدم الشعراء ليمدحوه!

ان من يقرأ كتاب الأغاني مثلاً يخرج منه في كثير من الأحيان على صورة للرشيد يخلل إليه معها أنه عاكف على اللهو والطرب لا عمل له الا ان يسمع الغناء، ويخالط الندماء ويثيب الشعراء ويستمتع بأصوات المغنين والمغنيات، وربما كان لصاحب الأغاني كل العذر في ذلك، لأنه لم يؤلف كتابه تاريخاً يصف فيه أعمال الخلفاء المختلفة، إنما ألف كتابه في الغناء فمن الطبيعي ان يقصر قوله على هذا الضرب وما إليه. ولكن الرشيد رجل دولة بكل ما لهذه الكلمة من معنى، وأن الجانب اللاهني في حياته لم يكن ليمنعه من ان يقوم بواجباته كخليفة تقوم على أكتافه أعباء الحكم. فالرجل يساير التطور فقد انتقل الناس في عهده إلى الإسراف في الترف وحياة اللهو.

يقول ابن خلدون ان دخل المملكة في عهد الرشيد كان في كل سنة ٧٠١٥ قنطاراً والقنطار في حسابيه عشرة آلاف دينار، فيكون مجموع ذلك سبعين مليوناً ومائة وخمسين ألف دينار، وهي ميزانية ضخمة تدلنا، مهما بولغ فيها، على غنى الدولة وتمكنها من حياة النعيم. وسمى الناس أيام الرشيد أيام العروس لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها (٤١٨).

ازدهر فن الغناء العربي في عهد الرشيد ورسخت قواعده ووضع للموسيقى علامات وتعددت آلات الطرب وانتشرت ودخلت كل بيت، حتى ان هارون الرشيد كان يفخر بأخيه إبراهيم بن المهدي لأنه من كبار المغنين، ولا يجد في ذلك منقصة له.

وقد اختار إبراهيم الموصلي وإسماعيل بن جامع وفليح بن العوراء، وهم أساتذة الغناء في القرن الثاني الهجري، للرشييد مائة صوت 'لحن' من عيون الشعر العربي، وهذا دفع الأديب المشهور أبا الفرج الأصفهاني، في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، إلى تأليف كتاب الأغاني في أربعة وعشرين مجلدا ضخما، كلها في الغناء والمغنين وكل ما يتصل بذلك من أدب وتاريخ وغير ذلك .

جعل الخلفاء للمغنين نوبات يدخلون في مجالسهم، وفرضوا لهم الرواتب كما فرضوها للشعراء، وعهدوا بهم إلى بعض أهل البلاط أو الحاشية ينظرون في أمورهم. وكانوا يصطحبونهم في خروجهم للصيد أو نحوه، ويجزونهم الجوائز الكبرى وهم اقرب إلى ذلك من الشعراء لما يتفق في مجالسهم من طرب الخلفاء لأنهم قلما كانوا يسمعون الغناء من غير شراب، فإذا طربوا بذلوا الأموال بلا حساب على أنهم كانوا إذا أهمهم أمر الدولة وخافوا سقوطها، ابعداً المغنين ليتفرغوا لمهامهم. وكان لكبار المغنين منزلة رفيعة في الدولة كإبراهيم الموصلي وابنه إسحاق. وكان زرياب المغني في الأندلس يركب في ٢٠٠ غلام ويملك ٣٠.٠٠٠ دينار غير الخيل والضياع والرقيق^(٤١٩).

والمآمل في تاريخ الحضارة العربية لا يلبث أن يتبين أن انصراف القوم عن التصوير، بانقضاء الوثنية، أعقبه اهتمام متزايد بالألحان، فكان القوم كلما ارتقوا في الحضارة وأفادوا من ترف العيش لطافة الحس، ارتقى تبعاً لذلك ذوقهم الجمالي، وزاد طلبهم للفنون المعبرة عن الجمال. وتعرف المتقدمون من فحول المغنين العرب وأكابرهم إلى الحان الروم واقتبسوا من الطرب والغناء الفارسي (٤٢٠).

صار الغناء محترماً في العصر الأموي ينهض به ويقبل عليه من لا يطعن في دينهم. وتحولت دور بعض المغنين والمغنيات إلى ما يشبه دور الغناء التي يقصدها من يحب الغناء وسماعه. وأن المغنية جميلة غنت أمام عبد الله بن جعفر وجماعة كانوا معه بدون ستارة فظهرت هي وجواربها، وأن المغنية عزة الميلاء قد غنت في بيت سكينه بنت الحسين أمام الجمهور بدون ستارة^(٤٢١).

وبعد أن كان المغني يصطحب آلة منفردة معه، صار من الممكن أن يرافقه عدد من العازفين (جوقة أو فرقة أو تخت) على الآلات الوترية والهوائية والإيقاعية، كما اقترن الغناء بالرقص.

وارتفع ثمن القيان حين صاروا يتقنون الغناء، وأقبل كبار القوم على شرائهم وخاصة بعد أن توفر للناس الغنى والترف وظهرت طبقات جديدة من الشعراء يكيفون أشعارهم لأغراض الغناء (الشعر الغنائي) بأوزانه القصيرة الخفيفة، ومعانيه القريبة، ولغته السهلة، مثل عمر بن أبي ربيعة.

وفي العهد العباسي وفد إلى بغداد (ثم إلى الرقة فيما بعد) من كل حذب وصوب كبار العلماء والفنانين، واختلطت الحان الحضار والبدو والأغاني القديمة والحديثة. وتغيرت أذواق الجمهور^(٤٢٢).

وتعرف الفنانون على كتاب بطلميوس في اللحن الثمانية الذي ترجم في عهد المنصور وتقسيمات اقليدس التي ألم بها إسحاق الموصلي في رسالته المطولة في الغناء وأضافوا إلى ذلك الكثير مما وضعوه وزادوا عليه حتى بلغ الفن الجديد أوجه في عصر هارون الرشيد، فهو بلا مرأى العصر الذهبي للموسيقى العربية وارتفع قدر الغناء بعد أن أقبل عليه حتى الخلفاء والأمراء والأميرات ومنهم: إبراهيم بن المهدي وعليه بنت المهدي، وأبو عيسى بن الرشيد، وعبد الله محمد الأمين وعبد الله بن المعتز والواثق. وكان الخلفاء وكبار القوم يتأثرون بالموسيقى والغناء تأثراً شديداً حتى أنهم كانوا يجلسون مع ندمائهم وخاصتهم بعيداً عن المغنين وبين الطرفين ستارة.

أما الرشيد فكان يلزم أبهته ووقاره، فإذا ملكه الطرب تحرك حركة بين الحركتين في القلة والكثرة. وقد نشأت في العصر العباسي مدرستان في الغناء والموسيقى هما:

مدرسة الموصلي إبراهيم وابنه إسحاق ومدرسة إبراهيم بن المهدي الأخ الأصغر لهارون الرشيد.

فالموصللي يحافظ، على أصول الغناء القديم أي يحافظ على تناسق وزن الشعر (العروضي) مع الوزن الموسيقي بينما يتساهل إبراهيم بن المهدي في أدائه (بان يمسك بعض الحروف من غير حروف العلة) بما يناسب ذوقه، فهو يقول: أنا ملك ابن ملك أغني كما اشتهي.

ومما انتقده إسحاق الموصلي من الحان إبراهيم بن المهدي لحنه لهذا الشطر: (ذهبت من الدنيا، وقد ذهبت مني) فكان لحن إبراهيم بن المهدي يقتضي أن يمسك الناء من ذهباً فتصبح 'ذهبتو' وهذا قبيح ويشبه كلام النبط أو يعيد غناء كلمة 'ذهبت' مرتين، وإلا انقطع اللحن والغناء، وكلام إسحاق الموصلي هذا يتسق مع قول الجاحظ: العرب تَقْطَعُ الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة، والعجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في وزن اللحن فتضيع موزوناً (اللحن) على غير موزون^(٤٣٣) (كلمات الشعر).

كان إبراهيم وابنه إسحاق من أنصار القديم والمتعصبين لطرائق معبد وأسلوب المدرسة القديمة في الغناء، وطالما بذلا الجهود في الدفاع عن مذهبهما بحضرة الرشيد لمقاومة المدرسة الجديدة التي يتزعمها إبراهيم بن المهدي^(٤٣٤).

وكان إبراهيم الموصلي يستهل الأغنية بالطبقات الحادة من اللحن ثم يتدرج نزولاً إلى الصوت الفليط إلى أن يصل إلى قرار الصوت، ثم يعود مرة أخرى (صاعداً) إلى الطبقات الحادة، ثم يعود إلى المنخفضة. وهو في نزوله وصعوده ينتقل من القوة إلى العذوبة البالغة وهكذا حتى النهاية^(٤٣٥). أما إسحاق ابنه فأحدث تغييراً في أسلوب الأغنية، التي كانت تتبع قبله خطأ تقليدياً هو الخط النازل، وأبتدع الخط الصاعد، وكان هذا ثورة على الأسلوب الخاص لأبيه إبراهيم، ثم طوره^(٤٣٦).

إن سر نبوغ إبراهيم الموصلي يكمن في ثقافته الموسيقية التي جعلته يهضم كل الموسيقى العربية وأسرارها ويتأثر بالفنانين الكبار السابقين وخاصة معبد دون أن يكون مقلداً جامداً أو مقيداً. ودخل إبراهيم الموصلي إلى السجن لمعاقرته الخمر، عدة مرات في عهد الخليفتين المهدي والهادي. وكان يخرج منه بأمرهما، إذ لم يكن بمقدور الخلفاء، بالرغم من أوامر الدين، الاستغناء عن خدمات إبراهيم، فضلاً عن التعويضات الحارة للغين الذي كان يلحقه في السجن، وقد بلغت مرة في عهد الخليفة الهادي ١٥٠ ألف دينار وفي يوم واحد^(٤٣٧).

والقيمة الحقيقية لمن إبراهيم الموصلي لا تكمن بتضلعه العميق بفنون الموسيقى وحسب، بل في التكنيك العالي الذي يضعه للأغنية، وفي الآلات التي يستعملها، ويتمتع بأذن موسيقية مرهفة الحس إلى آخر حد. يقول ابن جامع أنه قد زار إبراهيم الموصلي يوماً، فأخرج إليه ثلاثين جارية، فضرين جميعاً طريقة واحدة، وغنين. فقال ابن جامع: في الأوتار وتر غير مشدود. فأشار إبراهيم لجارية من الجواري وقال لها: 'شدي مشاك' (المشي: الوتر الثاني من العود) فشده الجارية فاستوى. وحدثوا أنه كان يستطيع أن يعزف عزفاً موزوناً على عود غير موزون^(٤٣٨) (أي غير مدوزن).

وكان إبراهيم موفقاً في اختيار أبيات الشعر التي يلحنها بحيث تعجب الرشيد فقد أخبره جعفر ابن يحيى البرمكي أن الرشيد يحفظ شعر ذي الرمة (من العهد الأموي ٧٧-١١٧هـ) حفظ الصبا، ويعجبه ويؤثره، فإذا سمع غناءً بشعره أطربه أكثر مما يطربه غيره ممن لا يحفظ شعره، ونصحه أن يطلب من الرشيد أن يقطعه شعر ذي الرمة يغني فيه ما يختاره ويحظر على المغنين جميعاً أن يداخلوه فيه وإذا غنوا منه أن لا ينالوا أية جائزة وامتلئ إبراهيم الموصلي لتلك النصيحة وغنى مائة صوت وزيادة من شعر ذي الرمة، أخذ عليها من الرشيد ألف ألف درهم^(٤٣٩) والسبب

في ذلك ان الرشيد كان يقدس البداوة وشعر البداوة ووصف صحرائها وحيواناتها وطبيعتها ويسمع فيها الشعر الجميل وفي جلسة له مع الأصمعي وكان معه الفضل بن يحيى البرمكي انشد الأصمعي قصيدة للعجاج، أو رؤية وأطال في رواية وصف الجمل فيها فقال الفضل: مالك تضيق علينا كل ما اتسع لنا من مساعدة السهر في ليلتنا هذه بذكر جمل أجرب؟ جزه إلى امتداح المنصور حتى تأتي على آخره. فقال الرشيد: اسكت! هي (أي الجمال) التي أخرجتك من دارك، وأزعجتك من قرارك، وسلبتك تاج ملكك، ثم ماتت، فعملت جلودها سياطاً تضرب بها قومك ضرب العبيد! ثم هقهه وقال: لا تدع نفسك والتعرض لما تكره. فقال الفضل: لقد عوقبت على غير ذنب^(٤٣٠).

وكان ذو الرمة أبو الحارث غيلان بن عقبة ٧٧-١١٧هـ نشأ في البادية وكان ذو الرمة أكبر شاعر يتغنى بالصحراء العربية، وحقاً كان الشعراء قبله وحوله يصفونها، ولكنه امتاز منهم بأنه عشقها، عشق أيامها ولياليها ورمالها وكثبانها وأجاصها وأعشابها وأشجارها وحيوانها الأليف والنوحشي وكل ما تحويه من آبار وسمائم وسراب وطير ورياح وكل ما يلعب في سمائها من كواكب وسحاب وغيوم، فإذا هو ينقل مناظرها إلى شعره في لوحات رائعة^(٤٣١).

وإلى جانب هذه الخاصة في وصف الطبيعة الحية نجد له خاصة أخرى في وصف الطبيعة الصامتة، إذ ملأها بالحياة والحركة فقد استعان في النهار بالسراب فإذا ذرى الجبال تتحرك كأنها خيل طالعة أو إبل أو سفن تجري في الفرات أما إذا جن الليل فحسبه النجوم يرى فيها صورة بقر الوحش والظباء ... الخ^(٤٣٢).

وألّف إسحاق بن إبراهيم الموصلي كتاب أخبار ذي الرمة، كما ألّف ابنه حماد بن إسحاق الموصلي كتاباً آخر مثله^(٤٣٣) (ديوان ذي الرمة). وكان الذي دفع أسرة الموصلي إلى وضع كتابين في أخبار ذي الرمة هو إقبال المغنين على شعره وافتتانهم به حتى قال حماد بن إسحاق: ما غنى جدي (إبراهيم الموصلي) في شعر أحد من الشعراء مثل ما غنى في شعر ذي الرمة والعباس بن الأحنف، فقد وضع إبراهيم الموصلي مائة صوت من ديوان ذي الرمة^(٤٣٤).

أما عن ثقافة إسحاق بن إبراهيم الموصلي فيقول هو نفسه: بقيت دهرأ أقلس (أي يذهب في ظلمة الصباح) في كل يوم إلى هشيم فأسمع منه، ثم أصير إلى الكسائي أو الفراء فأقرأ عليه جزءاً من القرآن، ثم أتى منصور زلزلاً فيضاربني (أي يعزف معي) مرتين أو ثلاثة ثم أتى عاتكة بنت شهدة فأخذ منها صوتاً أو صوتين، ثم أتى الأصمعي وأبأ عبيدة فاناشدتهما وأحدثهما فاستفيد منهما، ثم أصير إلى أبي فأعلمه ما صنعت وما لقيت وما أخذت، أتغذى معه. فإذا كان العشاء رجعت إلى أمير المؤمنين الرشيد^(٤٣٥).

من العجيب ان إسحاق لم يكن أحسن المغنين صوتاً، وإنما كان تفوقه عليهم بحسن صناعته وحدقه في فنه. سئل زرزور الكبير، وكان من فطاحل المغنين المعاصرين له: كيف كان إسحاق يتغلب عليكم عند الخلفاء، وانت وإبراهيم بن المهدي ومخارق أطيّب أصواتا وأحسن نغمة؟ قال: كنا والله نحضر معه ونجتهد في الغناء، ونقيم الوهج (نوقد النار) فيه، ويقبل علينا الخلفاء حتى نطمع في إسحاق ونظن انا غلبناه، فإذا غنى عمل في غنائه أشياء من مداورته وحدقه ولطفه حتى يسقطنا كلنا، ويقبل عليه الخليفة دوننا، ويصغي إليه ويجيزه^(٤٣٦).

وكان إبراهيم بن المهدي أسوداً شديداً السواد، وينصف وجهه شامة، سمج المنظر، وكانوا يدعونه عنقوداً لذلك (اليعقوبي ٤٥١) وإلى جانب ثقافته اشتهر بأمرين هما: جمال صوته، واتساع مداه.

أما جمال الصوت فقال مخارق: أحسن الناس غناء وأحسنهم صوتاً، إبراهيم بن المهدي أحسن الجن والانس والوحش والطيور صوتاً: وقد ذكروا أنه حين يغني تصغي إليه الوحوش وتمد أعناقها، فإذا سكّت نفرت.

وهذا أمر مدهش ولكن مثل هذا حدث في العصر الحديث بشهادة شاهد موثوق فقد نقل كمال النجمي عن لسان المطرب المشهور محمد عبد الوهاب قوله: في ليلة من صيف ١٩٣٧ (وكان عمره حوالي ٢٤ سنة بفرض أنه ولد عام ١٩٩٧) كنت والشيخ محمد رفعت مدعوين إلى حفلة في القناطر الخيرية على مقربة من القاهرة وكانت الحفلة في حديقة ذات أزهار، فبدأ الشيخ رفعت القراءة وإذا بالعصافير التي كانت تزقزق على فروع الأشجار تسكت وتلتزم الصمت التام، فلما سكّت الشيخ رفعت، بعد تلاوة أول آية عادت الطيور إلى الزقزقة والغناء. ثم عاد الشيخ يتلو فصمتت الطيور من جديد حتى سكّت فعادت لتغني وهكذا كانت الأطيوار تسكت كلما رفع الشيخ صوته بالتلاوة كأنها تستمع إليه، ثم تعود لتغني إذا سكّت الشيخ حتى ضج الحاضرون بالتهليل والتكبير لهذا المشهد العجيب النادر الذي انضمت فيه عصافير الحديقة إلى مستمعي الشيخ رفعت. قلت (القائل كمال النجمي) لعبد الوهاب: ماذا صنعت العصافير في تلك الليلة عندما غنيت أنت؟ فضحك وقال: 'أبدأ لم تسأل عني، ومضت في زقزقتها كأنها لا تسمعي'. وعلق عبد الوهاب على ذلك بقوله: وكان صوت الشيخ رفعت حينذاك في أوج اكتماله ومن لم يسمعه في تلك الأيام (الثلاثينات الأولى من القرن الماضي) لم يعرفه على حقيقته^(١٣٧).

أما سعة صوت إبراهيم بن المهدي فقدرها الأستاذ الحفني اعتماداً على الرواية التالية:

روى يحيى بن المنجم بن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عن إسحاق بن عمر بن بزيغ قال: كنت اضرب على إبراهيم المهدي ضرباً فغناه (أي: غنى الصوت) على أربع طبقات: على الطبقة التي كان العود عليها، وعلى ضعفها (الجواب)، وعلى أسجاحتها (أي: جواب الجواب) وعلى أسجاح الأسجاح. وقال بعضهم: هذا ما حكى لنا عن أحد غير إبراهيم، وقد تعاطاه بعض الحذاق فوجدوه صعباً متعذراً لا يمكن بلوغه إلا بالصوت القوي، لأن الضعف نفسه لا يمكن بلوغه إلا بصوت قوي دقيق حاد، فإذا دق الصوت حتى كان في مكنته ان يبلغ هذه الأضعاف لم يقدر على تأدية الأسجاح فضلاً عن أسجاح الأسجاح^(١٣٨) فمن الطبقة التي يغني عليها إلى جوابها: ديوان، ومن جوابها إلى جواب جوابها: ديوان ثان، ومن جواب جوابها إلى جواب جواب جوابها: ديوان ثالث.

ولكي أوضح عظمة صوت إبراهيم بن المهدي وسعة مساحة صوته أذكر أن صوت أم كلثوم له مساحة يمكن قياسها بأوكتافين (ديوانين) أي ست عشرة نغمة^(١٣٩). ويمتلك وديع الصافي صفة لم تتسنى لغيره من المطربين هي اتساع مساحة صوته التي تتعدى ديوانين ونصف وهي طبقة لم تعرفها الأصوات الرجالية لدى المطربين العرب، سوى صوت الشيخ سلامة الحجازي الذي كانت مساحة صوته تغطي ثلاثة دواوين، أي نصف مساحة البيانو كاملة^(١٤٠). وكانت أم كلثوم حتى نهاية الثلاثينات يصل صوتها إلى سبع عشرة درجة موسيقية، وفي الخمسينات كان يصل بسهولة إلى خمسة عشر مقاماً واحتفظ في الستينات بأربعة عشر مقاماً سليمة.

وكان صوت عبد الوهاب في رحلته الذهبية لا يقل عن أربعة عشر مقاماً ذهبياً خالصاً^(١٤١). وأذكر هنا أن الأصوات الرجالية هي: الباص والباريتون والتينور، والأصوات النسائية هي: السبرانو والميزو سبرانو والألتو.

كان إبراهيم بن المهدي من أحنق الناس بفنون الموسيقى علماً وأداءً في النغم والأوتار والإيقاع، واطبعهم في الغناء وأحسنهم صوتاً، وهو في ذلك يجيد العزف بالآلات الوترية والمزامير والدفوف ولم يشأ أن يحتذي في صناعته الأمثلة الغنائية الموروثة، إذ كان يكره التكلف والتعقيد،

ودين بوجوب أخذ الفن من أيسر منأهله وأقربه إلى النفس، فكان يحذف نغم الأغاني الكثيرة العمل (المعقدة) حذفاً، ويخففها ليسهل أدائها. وتلت تلك الخطوة خطوة أخرى هي مزجها بالموسيقى الفارسية ليخرج منها طابعاً خاصاً ولوناً جديداً^(٤٤٢).

دعا إبراهيم بن المهدي ذات يوم كل مطرب محسن من المغنين، وجلس يلاعب أحدهم الشطرنج، فترنم أحدهم بصوت وهو متكئ، فلما فرغ منه ترنم به مخارق فأحسن فيه فأطرب الحاضرين، فأعاده إبراهيم وزاد في صوته فعفى على غناء مخارق. فلما فرغ رده مخارق وغنى فيه بصوته كله، وتحفظ فيه، فكاد الجميع يطير سروراً. فاستوى إبراهيم جالساً، وكان متكئاً، فغناه بصوته كله ووفاه نغمة وشذورا. وكانت كتفاه تهتران وبدنه أجمع يتحرك حتى فرغ منه، ومخارق شاخص نحوه يرتعد وقد امتقع لونه، واختلجت أصابعه. وقد خيل للحاضرين أن الإيوان يسير بهم. فلما فرغ إبراهيم من الصوت، تقدم إليه مخارق فقبل يده وقال: جعلني الله فداك، أين أنا منك! ثم لم ينتفع مخارق بنفسه بقية يومه^(٤٤٣). ويظهر أن حركات جسم إبراهيم مع النغم حين يرفع صوته معتادة منه. وكان المغنون يسجلون الألحان في دفاتر: وقد خلف إبراهيم ابن المهدي وراءه دفاتر الغناء، وبذلك قدم مصدراً مدوناً عن الغناء والموسيقى^(٤٤٤). وقد أمر علي بن يحيى النجم أن يجمع غناء عريب الذي صنعه فأخذ منها دفاترها وصحفها التي كانت سجلت فيها اصواتها وكتب ذلك، فكان ألف صوت بارع^(٤٤٥).

يرجع إلى منصور زلزل الفضل في إضافة وترين جديدين إلى العود، وتطويل قبضته وتوسيع تجويفه وهكذا اختلف عن العود الشرقي^(٤٤٦).

أما زرياب فقد أضاف إلى العود وترأ خامساً وسماه 'العود الشبوط' وخفف وزنه إلى الثلث من وزن عود إسحاق الموصلي وجعل له أوتاراً من حرير وجعل اليم والثالث (أي الوتر الأول والوتر الثالث، من مصران شبل أسد)^(٤٤٧).

وكان المغنون الكبار يتقنون في الدعاية لأنفسهم ولألحانهم، فينسيون اللحن إلى أن إبليس جالسه بدون أن يشعر به أحد واسمعه هذا اللحن وأعاده عليه حتى حفظه. ومثال على ذلك ما رواه إبراهيم الموصلي عن تجربته مع إبليس^(٤٤٨): وقد يخلتق المغني قصة عن لحن غناه وأنه أخذه من جارية لقاء دراهم معدودة وتنبأت له بأنه سيجيئه من غنائه كذا وكذا ألف دينار. وكانوا يزاوجون بين أنواع آلات الطرب على غرار الفرس، فيتخذون مع العود الناي، ومع الطنبور الدناي (الناي المزدوج) ومع الطبل السرناي.

وكان المغني يحذف مع الغناء آلة من آلات الطرب يغني عليها. فكان سائب خاثر من الأوائل الأقدمين يوقع بالقضيب، وكان طويس يتقر بدف معه مربع. ثم غلب أن يضرب المغنون بالعود حين يغنون. وكان منهم من يمارسون هذه الآلات جميعاً: فيضربون بالعود، ويوقعون بالقضيب، وينفرون بالدف على هواهم وكما يتفق لهم. وكانت الآلات تضبط (تدوّن) قبل المجلس. وقد يكون المغني مع جودة غنائه وحسن صنفته، أحد الضراب الموصوفين. بيد أنه لم يلبث أن ظهر التخصص في أيام الرشيد، فكان إبراهيم الموصلي يغني على ضرب نابغة العوادين منصور زلزل وكان يزلزل المجلس بحسن نغمة، وكان من المصاحبين له في مجالس الرشيد برصوم الزامر وكان ابرع الناس زمراً بني حتى لكأنه في فيه ينطق بلسان آدمي. وكان أمر الإيقاع إلى جعفر الطيال أحسن من أوقع على الطبل والكوبة (آلة موسيقية). وقد جعل الرشيد للمغنين والملحنين مراتب وطبقات:

وفي الطبقة الأولى: كان إبراهيم الموصلي وهو أشدهم تصرفاً في الغناء. وابنه إسحاق، وإسماعيل بن جامع وهو أحلاهم نغمة، ومنصور زلزل الضارب في الطبقة. وفي الطبقة الثانية: سليم بن سلام، وعمر بن نابه الغزال، ومسكين المدني، ويحيى المكي، وأبو زكار، وهاشم بن سليمان.

وفي الطبقة الثالثة: أصحاب المعازف والونج والطنابير^(١١٨). والعود عند القوم: أجل الملاهي خطراً وأبلغها في النفوس أثراً. وما يزال العود حتى عصرنا الحاضر صاحب الشأن الأول في تحت الغناء العربي. وكان الزامر إذا كان من الطبقة الثانية لا يزمر لنفسه من الطبقة الأولى. إلا إذا رفعت درجته إلى الدرجة الأولى. وكان الرشيد خبيراً بفن الموسيقى ويناقش المغنين فيها ويحكم بينهم إذا اختلفوا. وكان من يحضر مجالس الرشيد من المغنين لتسلية هم من الشخصيات المحترمة المثقفة. فإسحاق الموصلي كان ملماً بجميع العلوم الدينية والدنيوية كما تقدم، وإسماعيل بن جامع كان حافظاً للقرآن عارفاً بالفقه وأخبار الفقهاء والمحدثين، وهكذا. وكثيراً ما كان بعض هؤلاء المغنين من ندامى الرشيد بدون غناء.

وكان هناك في عهد الرشيد من المغنين من يطارح جوازي القصر في الغناء وكان على أمرتهم الاشك (المغني: ولم يرد اسمه في الأغاني) الاشك المغني: كان رجلاً من أهل حران. وكان الرشيد قد أقره على المغنين، وكان منقطعاً إلى الفضل بن الربيع أقدمه مع مطارحي (طارحه وبادله الحديث: حاوره وبادله ولعل المعنى هنا أن المغنين من الجنسين يتدربون على الأغاني) الجوازي في الغناء. فغمز بعضهم جارية، فنظر إليه الاشك. فقال (المغني): ما تنظروا إنما غمزتها بصوت، فقال الاشك: وأحرى بما أنا أمير المغنين، ألا أعرف غمز الغناء من غمز الزناء! ثم أمر به فضرب مائة مكرمة. فبلغ ذلك الفضل فوصله وأحسن إليه^(١١٩). وأحرى بما: الحَرْب: نهب مال الإنسان وتركه لا شيء له.

وأكتفي هنا بإيراد قصة واحد عن أحد مغني الرشيد وهو: إسماعيل بن جامع السهمي مع الرشيد: اشتد الحال بإسماعيل بن جامع فانتقل بعياله من مكة إلى المدينة وأصبح يوماً لا يملك إلا ثلاثة دراهم فإذا بجارية على رقبته جرة تريد البئر وتترنم بصوت شجي أخذ بقلب إسماعيل فطلب إعادته حتى حفظ لحنه وأعطاه ما معه من الدراهم فقالت له: أحسبك ستأخذ بالصوت ألف دينار ثم ألف دينار ثم ألف دينار. ثم أنه خرج يريد بغداد فدخل مسجداً وبقي فيه إلى ما بعد صلاة المشاء وهناك رآه أحد الأشراف وعرف أنه غريب وأنه مغنٌ فأكرمه وأوصله إلى دار الخلافة وفيها بهو فيه مغنون ينتظرون دورهم ويحجبهم عن الخلافة ستار وبدأ الخادم يخرج من وراء الستار ويطلب المنتظرين من المغنين أن يغني صاحب الدور وفيما غنوه أصوات لابن جامع ولم يتقنوها كما يجب، ولما جاء دوره غنى بصوته المتميز ولم يلبث أن يخرج الخادم من وراء الستار ويسأله لمن الصوت فيقول: لي فيقول له: كذبت هذا لابن جامع وفي كل دورة يجري الأمر كذلك ولكن في المرة الأخيرة، قال: لي، فقال له الخادم: كذبت هذا لأبن جامع أجابه: أنا ابن جامع. وكان صوت ابن جامع حاداً حتى أنه كان يزلزل الدار، وإذا بالخليفة الرشيد وجعفر بن يحيى قد أقبلوا من وراء الستار. ولما طلب منه الغناء غنى بصوت الجارية الذي سبق الإشارة إليه فطرب الرشيد وأمر له بألف دينار ثم صار يغني بأصوات أخرى ثم يطلب الرشيد منه إعادة صوت الجارية ويعطيه ألف دينار وتكرر ذلك ثلاث مرات ووصله ثلاث ألف دينار، وهنا تبسم وذكر قصة الجارية وما تتبأت له به، وحين انتهت الجلسة أمر له الرشيد بدار ينزل فيها وفيها كل ما يلزم من آلة جلساء الملوك وندمائهم من الخدم^(١٢٠). ولا يبعد أن تكون قصة الصوت قد وضعها ابن جامع للتشويق، فهكذا كان دأب المغنين والأدباء.

(١) الجواري المغنيات

لما كانت دور الرقيق طافحة بالجواري، وقد حط من الثمأنهن ما بلغت إليه كثرتهن، فقد فكر أصحاب المصلحة في الأمر أن يخصوا صفوة من لديهم من الجواري - على حسب استعدادهن - بالتعليم وحسن الثقافة، والتخريج في صناعة من الصنائع المطلوبة أو فن من الفنون المحببة المرغوب فيها لترتفع بذلك أقدارهن. ولقد كان من استتباب الدولة للمسلمين، وتدفق الأموال إلى أيديهم، أن أفضت أحوالهم إلى الترف والقصف، ووافق ذلك نهضة الفناء وخاصة في الحجاز. في مكة والمدينة). بما دخل عليه من فنون الفناء العجمي والتغم الرومي كما قدمنا - وبلغ من افتتان القوم بالفناء العربي المنقول عن الفارسي أن كانوا يسمونه 'الفناء المتقن' تمييزاً له عما ألفوه من ساذج الفناء، من حذاء ونشيد.

ولم يلبث أصحاب التجارة في الجواري أن التفؤوا إلى ما يكون في الجمع بين حسن الصوت وحسن الصورة مع الصنعة المحكمة من فتنة لا تغالب. فكان ما كان من إقبال أصحاب هذه التجارة على الجواري الحسان المثلثات. يدفعونهن إلى المعلمين من أهل الصناعة يتولونها بالتعليم والتلقين وحسن التخريج، وقد وجدوا أنهم بهن أقدر ما يكونون على فتنة الشارين واستنزاف الأموال الجسام من أهل الثراء منهم والمترفين.

وقد كان لرجال الفن من هذه الحال فرصة مواتية، فلم يقنعوا بما يكون للمعلم من جعالة بل جعلوا إلى انفسهم أمر التجارة كذلك، فكان منهم من يشتري بالثمن الذي لا حيف (ظلم) فيه، مائتين من الدنانير أو ثلاثمائة، ثم لا يزال بالجارية يعلمها حتى تخرج على يديه من المتقدّمات المحسنات، فيتطلب بها الألوف. وقد شاع ذلك وعظم الربح منه، حتى كانت تعقد الشركة فيه كالذي كان بين يزيد حوراء وإبراهيم الموصلية^(٤٥٧).

كان الناس قبل إبراهيم (الموصلية) يعلمون جواريهم الفناء على قدر لياقتهم واستعدادهن. وكان ذلك مقصوراً على السود وأشباههن. وقد رفع إبراهيم قيمة هذه المدرسة، فكان أول من علم الجواري والقيان البيض هذا الفن، فجمع لهن بين الجمال من طرفيه: حسن المنظر، وحسن الشدو في النغم، وبذلك أعلى مكانه الموسيقي بقدر ما رفع من شان القيان.

وكان إبراهيم لا يقتصر في تعليم جواريه على تثقيفهن في ضروب الموسيقى وفنون الفناء، إنما يلقنهن كذلك دروساً في ألوان الملابس ومناسبة بعضها لبعض، ومناسبتها لعصائب الرأس وكسوة القدم، ومناسبات هذا كله في الاجتماعات والحفلات، كما يلقنهن دروساً في التعطر والتطيب، وفي تصنيف الموائد والأطعمة، وفي آداب الأكل، من وجوب تصغير اللقمة والتحرز من الشره وعدم تلطيخ الأصابع وعدم تجاوز ما بين أيديهن، وعدم إفساد رائحتهن بأكل الثوم والبصل وما إليهما، وعدم التخلل - وهو استخراج بقايا الأكل من بين الأسنان - على المائدة قبل أن تفرغ، ونحو ذلك.

وكان يلقنهن كذلك دروساً أخرى في الزهور والورد والرياحين، وتنظيم الطاقات والباقيات. ثم يتجاوز إبراهيم تلك الماديات إلى المعنويات فيعلمهن كيف يتحدثن فيحسن الحديث، وكيف يجب ألا يداخلن أحداً في حديثه ولا يتطلعن إلى مكتوب يقرؤه قارئ، ولا يقطعن على متكلم كلامه، ولا يحاولن أن يستمعن إلى أحد يتحدث عن سر، ولا يسألن عما ووري عنهن علمه وخفي واستتر، ولا يتكلمن فيما عجز عليهن فهمه، ولا يتتأبن في المجلس، ولا يتمطين ولا يمددن أرجلهن، ولا يمسسن أنوفهن بأيديهن، ثم يعلمهن كيف يكتبن الكتب الظريفة وما يصلح أن ينقش على الخواتيم والفصوص وما ينقش على أواني الفضة والذهب والكاسات والأقداح وعلى آلات الموسيقى من العيوان والطبول والدفوف والنايات. وهكذا كان يعلم إبراهيم جواريه قوانين التظرف وآداب السلوك

إلى جانب قوانين الموسيقى والغناء وكانت هذه القوانين تنتقل مع هؤلاء الجوّاري إلى بيوت الأمراء والأشراف وغيرهم فكان مدارس منتقلة لنشر فن الاتكيت ونعيم آدابه^(٢٥٣).

وكان للجوّاري في هذا الجو المشبع بالموسيقى والغناء أثر كبير في شيوخ الطريف واللفظ والرقّة، إذ دفن الشباب والشيوخ إلى تمثيل كثير من العواطف والمشاعر التي تملأ قلوبهم لبناً وبراً وعطفاً ووداً، وقد خلبن ألبابهم بحديثهن الساحر الذي يصب في القلوب نارة رحيقاً وتارة حريقاً، حديث العشق وما يشيع فيه من العواطف والمواجد ونور الأمل وظلام اليأس.

وما فعله إبراهيم الموصلي (١٥٥ - ٢٢٥هـ) فعل مثله زرياب (علي بن نافع المتوفى سنة ٢٢٠هـ) المغني والموسيقي البغدادي المشهور حين هرب إلى قرطبة في الاندلس خوفاً من إبراهيم الموصلي الذي خاف أن يناهسه زرياب في بلاط الرشيد فهده بالقتل. وقد علم زرياب القرطبيين والقرطبيات الغناء والموسيقى وكيف يلبسون حسب الفصول. وفن الحلاقة والتجميل، واستعمال معاجين الأسنان الخ... وفن تأثيث الغرف والمنازل، وفن الطبخ، والفن الرفيع في آداب المائدة وانتقل هذا كله إلى الأسبان (كلو. هامش ص ٧٩).

٢) بيوت القيان

كان الكبراء أهل النعمة والثراء، قلما يوجد أحد منهم إلا وهو يقتني لنفسه جارية أو أكثر من الجوّاري المغنيات، تغنيه على الشراب حين يخلو في حريمه، وإلى جانب تلك المغنيات الخاصة، قامت مغنيات شائعات، فاشتهرت في المدن الكبرى دور عامة للسمع، يسمونها بيوت القيان. وكان الذين يقومون على هذه البيوت نخاسون وغير نخاسين، والقيان على كل حال قيانهم، ومرجع ما يدر عليهن من مال إليهم.

وأجل من اشتهر من هؤلاء المقينين (أصحاب دور القيان) عبد الملك بن رامين في الكوفة. ومن جواريه سلامة الزرقا وسعدة وربيعه، وكان يغشى بيته الكثيرون من أصحاب الأمانة وفتيان أهل الكوفة وظرفائهم وأدبائهم. ويناكس جوّاري ابن رامين في الكوفة جوّاري زريق بن منيح مولى عيسى بن موسى، وكان شيخاً كريماً ويجتمع إليه أشراف الكوفة من كل حي.

وقد ذاع في الكوفة وغيرها ما كان يقوله ويتغنى فيه محمد بن الأشعث في جوّاري ابن رامين، وكان محمد هذا ملازماً لابن رامين وجاريتيه سلامة الزرقاء فشهر بذلك وكان رجلاً قصافاً (قصاف: يقبل على الطعام والشراب واللهو) فلامه قومه على فعله، فلم يحفل بمقالتهم وطال ذلك منه، حتى رأى بعض ما كره في منزل ابن رامين، فمال إلى صحيفة جارية زريق بن منيح ولازم بيته وقال في ذلك شعراً تناقله الناس فلم يدع ابن رامين شريفاً في الكوفة إلا تحمل به على ابن الأشعث أن يرضى عنه ويعاود زيارته، فلم يفعل، حتى تحمل عليه بمحمد بن مبشر الحجواني، وكان يومئذ على الكوفة، فكلمه، فرضي الشاعر عن ابن رامين ورجع إلى زيارته، ولم يقطع منزل زريق.

وهذا الحرص على ترضي الشعراء وذوي اللسان شاهد على دراية أصحاب هذه المنازل بفن الدعاية فلم يكن شيء أفعّل في لفت الأنظار إلى المنزل من منازل الاقيان، وأدعى إلى كثرة من يغشونه من تغزل الشعراء بقيانته وإشاعة الفتنة بهن. والكساد رهين بإغفال الشعراء لهن أو اشتغالهم بغيرهن. وأما البلاء كل البلاء ففي تعرضهن لقبيح الهجاء^(٢٥٤).

٣) الرقص

لقد استتبع التقدم في الغناء والموسيقى تقدماً مثله في الرقص حتى صار من الفنون التي وضعت لها القواعد، وشرعت لها الأصول، وحتى اتفق على مستلزماته جميعاً. والراقص يحتاج إلى أشياء في طباعه، وأشياء في خلقته وأشياء في عمله، فإما ما يحتاج إليه في طباعه فخفة الروح، وحسن الطبع على الإيقاع، وأن يكون طالبه مرحاً حسن التدبير في رقصه والتصرف فيه،

وأما ما يحتاج إليه في خلقته: فطول العنق والسوالف، وحسن الدل والشمائل، والتمایل في الأعطاف، ورقة الخصر، والخفة وحسن أقسام الخلق، وواقع المناطق واستدارة الثياب من أسافلها، ومخارج النفس والإراحة، والصبر على طول الغاية، ولطافة الأقدام، ولين الأصابع، وإمكان لينها في نقلها وفيما يتصرف فيه من أنواع الرقص من: الإبل، ورقص الكرة، وغيره. ولين المفاصل وسرعة الانتقال في الدوران ولين الأعطاف. وأما ما يحتاج إليه في عمله فكثرة التصرف في ألوان الرقص وأحكام كل حد من حدوده وحسن الاستدارة وثبات القدمين على مدارهما^(٤٥٥). ولم يكن الرقص مقصوراً على المحترفين دون غيرهم فإنه كان فيما يبدو شائعاً عند الجميع في حال الطرب مع الفارق في الكم والكيف بين مجاهرة مسرف، وخلوة معتدل^(٤٥٦).

١٦. ولاية العهد لأبناء الرشيد

عقد الرشيد ولاية العهد لابنه الأمين سنة ١٧٥هـ، وكان عمره خمس سنوات في مدينة السلام وأخذ بيعة القواد والجند، وسماه الأمين وذلك رغم صغر سنه وانكر ذلك بعض بني العباس^(٤٥٨) ونشرت عليهم الدنانير والدرهم ووافق هذا الخبر خبر آخر وهو أن الفضل بن يحيى البرمكي هو الذي عمل على أخذ البيعة للأمين أولاً في خراسان التي ولاء عليها الرشيد لهذا السبب وأمدّه بالأموال لينفقها في سبيل ذلك، وهذا غير صحيح لأن الفضل بن يحيى لم يولى خراسان إلا بعد ذلك أي سنة ١٧٨هـ (وقد تقدم ذكر ذلك).

تالت الروايات المغلوطة وكلها تحط من قيمة الأمين وتتهمه بجميع المخازي كأنهماكه في اللهو والمنذات، ومشاركة النساء في رأيه، وتبذير الأموال رغم أن الأمين لم يكن جاوز الخامسة من العمر حين تولى العهد ومن تلك الروايات رواية للدينوري^(٤٥٩) تشير إلى أن الرشيد استشار الفضل بن الربيع بخصوص البيعة للأمين والمأمون، ورواية للمسعودي^(٤٦٠) أنه استشار يحيى ابن خالد البرمكي، والجواب من كليهما كان طعناً في الأمين مع أن ذلك يفترض أنه جرى قبل توليه العهد للأمين الذي لم يكن قد تجاوز الخامسة من عمره.

وهناك تبيؤات تسيء إلى الأمين قبل أن يولد ومنه على سبيل المثال: كان الرشيد يعرف (بالفراسة) ما سيجري بين الأمين والمأمون حين يكبران فقال (الرشيد) للأمين:

محمد لا تبغض أخاك فإنه يعود عليك البغي ان كنت باغيا
فلا تعجل فالدهر فيه كفاية إذا مال بالأقوام لم يبق باقيا^(٤٦١)

أضف إلى ذلك ما روي عن الفضل بن يحيى البرمكي (الذي ورد أن الأمين وضع في رعايته فيما بعد) أنه كان يتبأ بمحنة الأمين مع المأمون، فيبادر إلى القول مخاطباً هيثم بن بشير الواسطي (الذي يظهر أنه كان بين المشرفين على تأديب الأمين وهو صغير)، ليكون أكثر ما تأخذ به ولي العهد (الأمين) تعظيم الدماء، فاني أحب أن يشرب الله قلبه الهيبة لها والعفاف عن سفكها^(٤٦٢). بهذا يتحدث الفضل عن الأمين (ولي العهد) وهو قيد التربية صغير السن وتبأ بأنه سيكون من سفاكي الدم، فأية قيمة لهذه النبوءة! ولا سيما وأن الأمين هو الذي تم سفك دمه!

وحتى والد الأمين: الرشيد وزبيدة، أسندت لهما مثل هذه الروايات فقد روى كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إلى ابن قتيبة (وهو كتاب ظاهر التزييف وحافل بالروايات ظاهرة البطلان) وخلاصة روايته أن الرشيد ذكر البيعة لابنه المأمون فعاتبته زبيدة واشتدت في العتاب فاستدعى الرشيد ولديه واحداً بعد الآخر، وظهر الفرق الشاسع بين أدب المأمون واحترامه، وعجرفة الأمين

وسوء تصرفه، حتى ان زبيدة وافقت الرشيد على ان المأمون أحق بولاية العهد، لكن الرشيد قال لزبيدة حينئذ 'فإذ أقررت بالحق وانصفت ما رأيته، فانا اعهد إلى ابني المأمون ثم إلى ابنك الأمين' فولى العهد للمأمون ثم للأمين^(٤٦٣) وهي رواية مغلوطة فالولدان كانا حينئذ صغيرين في الخامسة من عمرهما والواقع ان الرشيد ولى الرشيد العهد للأمين أولاً ثم للمأمون من بعده وذلك بعد ثمانية سنوات. وكان البرامكة يتوجسون من الأمين إذا تولّى الخلافة^(٤٦٤).

ظل الأمين ولي العهد الوحيد مدة ثماني سنوات أي حتى سنة ١٨٢هـ واستمرت في هذه الفترة وقبلها وبعدها تختلق الروايات التي تحط من قدر الأمين وترفع من قدر المأمون ومن بينها رواية على لسان الرشيد ترفع من قيمة المأمون إلى أعلى عليين إذ قال: 'والله اني اعرف في عبد الله (المأمون) حزم المنصور وتسلك المهدي، وعزة نفس الهادي، ولو شئت ان أشبهه في الرابعة بنفسي، لفعلت، والله اني لأرضى سيرته، وأحمد طريقته، واستحسن سياسته، وارى قوته وذهنه، وآمن ضعفه ووهنه، ولولا أم جعفر وميل بني هاشم إلى محمد 'الأمين' لقدمت عبد الله 'المأمون' عليه'^(٤٦٥). ويفترض ان هذا الكلام قيل بمناسبة تولية العهد للأمين وهو صغير (ومن المؤكد أنه موضوع مثل بقية الروايات).

وفي رواية أخرى غير معقولة: قال الرشيد لولده أبي عيسى وهو صبي: 'ليت جمالك لعبد الله (المأمون) فقال: أبو عيسى: 'على ان حظه منك لي'^(٤٦٦).

وقال الرشيد للمأمون: (يا عبد الله! أحب المحاسن كلها لك، حتى لو أمكنني ان أجعل وجه أبي عيسى لك، نفعلت)^(٤٦٧). وهذا كلام لا أظن أنه يصدر عن شخص عادي فكيف يصدر عن شخص مثل الرشيد في ثقافته ودينه وعاطفته مميّزاً بين أولاده. هذا ولم يرد في أي نص ان وجه المأمون كان مشوهاً حتى يمكن ان يجري التمني لاستبداله.

في المصادر اخيار عن خلاقات بين الرشيد وزبيدة، أم الأمين، بينما لا يذكر عن مراجل، أم المأمون، وهي جارية إلا أنها لعبت الرشيد عدة مرات وغلبته، وكانت المكافاة التي تشترطها أمرا جنسياً، حتى أنه أغرم بها، وهذا أمر لا تتقنه الحرائر ولا ترضاه. وقد وصفت للمتوكل (الخليفة) ريطة بنت العباس بن علي فحملت إليه فتزوجها، ثم سألها أن تطم شعرها (أي تعقصه بأن تلوي الخصلة من الشعر ثم ترسلها) فرفضت التشبه بالجواري وطلبت الطلاق. (التزين والحلي عند المرأة. المحاسن والاضداد للجاحظ ١١٨).

وواضح في الخبر ان جعفر بن يحيى هو الذي ألح في تولية العهد للمأمون ففي سنة ١٨٠هـ قام الرشيد بأخذ البيعة لابنه المأمون على الجند بالركة (التي كان قد استقر فيها)، وكان المأمون في حجر محمد بن خالد بن برمك، فنقله الرشيد إلى حجر ابن عمه جعفر بن يحيى، فأشار جعفر على الرشيد ببيعته بعد محمد (الأمين) وقام بالأمر حتى عقد له وشخص به إلى مدينة السلام حتى أكد البيعة له، ثم رجع إلى الرقة. وقد تقدم ذكر ذلك.

بل ان الروايات والتعليقات المعادية للأمين والمهينة له قد تناولت الفترة التي سبقت ولادته بل وحتى الحمل به. فقد ذكر المسعودي: كانت أم جعفر لا تعلق من الرشيد، فشاوور بعض مجالسيه من الحكماء. وشكا ذلك إليه، فأشار عليه بان يغيرها (أي يجعلها تغار بزواجه من امرأة أخرى مثلاً)، فان ابراهيم الخليل كانت عنده ساره فلم تكن تعلق منه، فلما وهبت له هاجر علت منه باسمايل، فغارت سارا عند ذلك فعلفت بإسحاق. فاشترى الرشيد أم المأمون مراجل، فاستخلاها (أي اجتمع بها في خلوة) فعلفت بالمأمون، فغارت أم جعفر عند ذلك فعلفت بمحمد (الأمين)^(٤٦٨). وولد الأمين بعد المأمون بستة أشهر كما تقدم. وعلى حسب هذه الرواية لم تحمل زبيدة بالأمين إلا بدافع الغيرة، وكأن أمر الحمل بيدها.

وأن أبا جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ) ومعه بنو هاشم أيضاً كانوا يعرفون - حسب الرواية التالية - وقبل أن يولد حتى هارون الرشيد بقصة الأمين الاسطورية التالية إذ روى المسعودي: وحكى أن للمنصور جلس ذات يوم، ودخل إليه بنو هاشم من أهله، فقال لهم وهو مستبشر: أما علمتم أن محمد المهدي ولد البارحة له ولد ذكر، وقد سميناه موسى؟ فلما سمع القوم ذلك وجموا، وكأنه حثا في وجوههم الرماد، وسكتوا ولم يجيروا جواباً، فنظر إليهم المنصور فقال لهم: هذا موضع دعاء وتهنئة، وأراكم قد سكتكم. ثم استرجع، فقال لهم: كاني بكم لما أخبرتكم بتسميتي إياه موسى اغتمتم به، لأن المولود السمي موسى بن محمد هو الذي على رأسه تختلف الكلمة وتسفك الدماء، وتنتهب الخزائن، ويضطرب الملك، ويقتل أبوه، وهو مخلوع من الخلافة، وليس هو ذا، ولا هذا زمانه، والله أن جد هذا المولود (أي هارون الرشيد) لم يولد بعد. قال: فدعوا له وهنؤوه^(٤٦٩). وكان المقصود بالكلام موسى بن الهادي بن المهدي بن المنصور ولكي يصح هذا الكلام يجب أن يكون المنصور وبنو هاشم يعرفون الغيب. وأن يتتزه بنو هاشم عن الحسد والتأمر. أخذ الرشيد البيعة للمأمون في سنة ١٨٠هـ كما تقدم. وفي عام ١٨٦هـ خرج الرشيد ومعه الأمين والمأمون وجملة بني هاشم والقواد والكتاب إلى المدينة ثم إلى مكة. وبعد المناسك كتب الرشيد لعبد الله المأمون كتابين أجهد الفقهاء والقضاة آراءهم فيهما: أحدهما على محمد الأمين بما أشرط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ما ولي عبد الله المأمون من الأعمال وصير إليه من الضياع والغلات والجواهر والأموال، وكان الكتاب الآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله المأمون على محمد الأمين وعليهم، وجعل الكتابين في البيت الحرام بعد أخذ البيعة على محمد الأمين وإشهاده عليه بها الله وملائكته، ومن كان في الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم^(٤٧٠) وكان هذا كله بتدبير جعفر ابن يحيى البرمكي، حتى أنه بعد الانتهاء من تعليق العهد على جدران الكعبة، والقسم الذي أداه الأمين بهذا الخصوص. أملى عليه جعفر قوله: فإن غدرت بأخيك خذلك الله حتى فعل ذلك ثلاثاً، في كلها يحلف له^(٤٧١)، ثم أثر جعفر التوجه مع المأمون من الرقة إلى بغداد لأخذ البيعة على بني هاشم والوجوه فيها، ثم كتب إلى العمال في الولايات بهذا الخصوص، ثم عاد بعد ذلك إلى الرقة^(٤٧٢). وبعد اكمال مراسيم ذلك، كتب الرشيد إلى ولاة الأقاليم كتاباً تضمن النقاط الرئيسية الواردة في هذه العهود^(٤٧٣). وأمر هارون الرشيد لعبد الله المأمون بمائة ألف ألف دينار (مائة مليون) دينار حملت له من بغداد إلى الرقة^(٤٧٤).

بعد نكبة البرامكة بسنة أي سنة ١٨٨هـ أمر الرشيد اسماعيل بن صبيح أن يكتب إلى جميع العمال بما عقد بين أولاده: الأمين والمأمون والقاسم من العهد، وأخذ عليهم من الايمان، فكتب بذلك كتاباً مشهوراً، ولما صار الرشيد بقرماسين سنة ١٨٩هـ ومعه ابنه المأمون والقاسم، أشخص إليه جماعة من القضاة، وأشهدهم أن جميع ماله في عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكرع وما سوى ذلك للمأمون، وأنه ليس له فيه قليل ولا كثير، وجدد البيعة له على من كان معه، ووجه هرثمة بن أعين صاحب حرسه إلى بغداد، فأعاد البيعة على محمد الأمين وعلى من بحضرته لعبد الله المأمون والقاسم، وجعل أمر القاسم في خلع وإقراره إلى عبد الله المأمون (إذا أفضت الخلافة إليه)^(٤٧٥).

ثم غزا الرشيد الصائفة سنة ١٩٠هـ واستخلف عبد الله المأمون ابنه بالرقعة، وفوض إليه الأمور، وكتب إلى الأفاق بالسمع والطاعة، ودفع إليه خاتم المنصور يتيمن به (وهو الخاتم الخاص). وفي ذلك العام أيضاً أسلم الفضل بن سهل على يد المأمون وسيكون له شأن كبير فيما بعد (٤٧٦).

ثم وأهى الرشيد من الرقة في السفن مدينة السلام وذلك سنة ١٩٢هـ، يريد الشخصون إنى خراسان، واستخلف بالرقعة ابنه القاسم (٤٧٧).

وللعهد الذي كتبه كل من الأمين والمأمون على نفسه روايتان: أحدهما في الطبري والآخرى في اليعقوبي: قام بتحليلهما د. عبد المنعم رشاد وموفق سالم نوري في كتابهما 'الأمين الخليفة المفترى عليه' ص ٢٦، انقله بتصريف:

رواية الطبري:

١- يفترض ان الأمين كتب كتاب العهد بنفسه وبالصيغة التي يتكلم فيها عن نفسه، ولكن ترد أحيانا ألفاظ تنافي ذلك مثل: 'التي سماها أمير المؤمنين في كتابه هذا'.

٢- قبول الأمين ان يكون المأمون ولياً للعهد بعده فضلاً عن ولايته على خراسان وكل ما يتعلق بها.

٣- قبول الأمين بكل ما حوله الرشيد للمأمون من أموال نقدية أو عينية أو عقارات.

٤- تعهد الأمين عند وفاة الرشيد بأن ينفذ المأمون إلى ولايته في خراسان مع ما ضم إليه الرشيد من أهل بيته وقواده وموظفيه بحسب ما هو مقرر في عهد قمراسين.

٥- تعهد الأمين بعدم عزل المأمون من ولايته هذه ولا يصرف عنه من ضمه الرشيد إليه من أشخاص.

٦- يتعهد الأمين ان لا يمارس أية سلطة أو نفوذ على مجال عمل سلطات المأمون بأي شكل يتمتع أصحاب المأمون من أهل بيته وصحابته وقضاته بحصانة خاصة، وكذا أقرباء هؤلاء ومواليهم.

٧- إذا لحق أي واحد من هؤلاء بالأمين فعليه ارجاعه للمأمون ليرى رأيه.

٨- إذا عمل الأمين على خلع المأمون أو عزله، أو حبس أحد عماله خسر الخلافة.

٩- لا يحق للأمين أو المأمون خلع القاسم عن ولاية العهد حتى تؤول الخلافة إلى المأمون.

على المسلمين كافة الالتزام بهذا العهد وتنفيذه (الطبري ٨ / ٢٧٨).

رواية اليعقوبي:

١- لهجة الأمين تشير إلى أنه كان يتكلم عن نفسه مثل: ((وجعل لي البيعة شرطت لعبد الله أخي)) ((فان اختلفنا في شيء)).

٢- اختلاف واضح بين نص الطبري ونص اليعقوبي.

٤- اكتفى بالإشارة إلى خراسان بثغورها وكورها، وهي أضيق مما نص عليه الطبري. أشار الطبري مرتين إلى قمراسين وهو ما لم يرد في نص اليعقوبي، علماً بأن عهد قمراسين حصل عام ١٨٩هـ أي بعد ثلاث سنوات من عهد الكعبة.

١٠- لم يذكر القاسم في نص اليعقوبي والواقع ان ولايته العهد حدثت بعد تعليق الكتابين في الكعبة.

١١- الأيمان هنا اختصت بالأمين ولم تشمل المسلمين عامة (اليعقوبي ٢ / ٤١٦).

ان ما نخلص به من هذا التحليل ان نص العهد الذي أخذه الأمين على نفسه برواية الطبري هو نص محرف بدون أدنى شك يهدف إلى إضفاء السلبية وعدم الوفاء على الأمين أو تسويقاً لخروج المأمون على سلطة الخلافة ولتصرفاته واجراءاته بهذا الخصوص^(٤٧٨).

وفي وصية الرشيد لقاداته الذين كانوا في حضرته في طوس سنة ١٩٣ هـ: **أوصيكم باجتماع كلمتكم، والمناصرة لأئمتكم، أنهاكم عن الفرقة والقطيعة والغش والغفل والحدق، وأنظروا ابني محمد وعبد الله ، فمن بغى منهما على صاحبه، فردوه عن طريقه، وأيدوا أثبتهما حجة ...** ثم أقبل على الفضل بن الربيع فقال: **يا فضل! إذا مت فخذ القضيب والبردة والخاتم والحق بابني محمد الأمين وكن معه حتى تكافئه وتؤازره على أمره** (ابن الاعثم الكوفي الفتوح ٨/ ٢٠٨٢).

فإذا صحت هذه الوثيقة، وليس هناك ما يشير إلى عكس ذلك، فإن هذا يعني ان بقية ما صدر عن الرشيد حسب الروايات الأخرى في قرماسين ثم في طوس ليس صحيحاً ، لأن الرشيد لم يطلب من الفضل بن الربيع في تلك الوثيقة اللحاق بالمأمون، في حين ان عهد قرماسين ثم طوس كان يشير إلى ضرورة لحاق كل من كان مع الرشيد والمأمون، بالمأمون ويفترض ان يكون الفضل بينهم، في حين جاءت الإشارة هنا صريحة في ضرورة لحاق الفضل بالأمين^(٤٧٩).

ان الكتاب الذي كتبه المأمون على نفسه لا يوجب عليه أي شيء نحو الأمين مع ان الأمين حسب كتابه يخسر الخلافة لأي سبب تافه ويرفع سلطانه عن كل ما يتصل بالمأمون وآله ومن معه وأقارب من معه حتى ولو كانوا في بغداد، وحتى لو لجأ بعض من كانوا مع المأمون إلى الأمين لوجب على الأمين ان يرجعهم إلى المأمون وإلا خسر الخلافة وعلى المسلمين نقض عهدهم له، وبذلك فاني أجزم بان كل الروايات حول هذين الكتائبين وما حصل في مجالس أخرى مزور وضعه انصار المأمون من الخراسانيين وغيرهم فيما بعد، ولأن ما جرى في تولية العهد هذه لم يحدث مثله أو شبيهه في جميع العصور حسب ما أعلم فلم يحدث من قبل أو بعد ان يكون الخليفة مقيداً بمثل هذه القيود وأن أي أمر تافه يقدم عليه يعرضه لسقوط الخلافة عنه برضاه أو بضغط المسلمين وأن يكون ولي العهد متمتعاً بكامل حريته وبكثير من حرية الخليفة، ويكون غير قابل للعزل.

ومن جهة أخرى فاني لا أصدق ان الرشيد يقدم على تدبير مثل هذا وقد جرب من قبل ما جرى معه نفسه من قبل ففي الجهشيارى: كان الرشيد كتب ليحيى بن خالد كتاباً بخطه يحلف له فيه بأيمان مغلظة أنه لا يبدأ بسوء، ولا يناله مكروه في نفسه ولا ولده، ولا في شيء من ماله وحاله وأشهد بذلك على نفسه جميع أهله ووجوه قواده وأصحابه، فدفع يحيى بالكتاب إلى الفضل ولده، وأمره بحفظه، فكان عنده إلى ان أخذ فيما أخذ من خزائنه^(٤٨٠). ورغم هذا فان الرشيد لم يترفع عن نكبة البرامكة وقتل جعفر بن يحيى وصلبه مدة طويلة رغم الأيمان والشهادات أما في حالة ابنائه فوجد الرشيد أن الحل هو ان يزيد من التثبيت فانتهز كل الفرص وثبت الأمر عدة مرات وعلق الكتائبين بالكعبة ونسي ان كل هذا لا يفيد .

وأن تنفيذ ما في كتابي العهد المكي المزيفين يفضي إلى ان يخلق في خراسان ولي عهد مستقل تماماً ويتصرف تصرفاً كاملاً بمنطقة كبيرة من الأرض هي المشرق ولا سلطة عليه من احد بل له سلطة على املاك وعقارات وجند وبشر وأقاربهم سواء كانوا في خراسان أم في مكان آخر ولا يستطيع الأمين

أن يطالب المأمون بأي شئ إلا بدوام الاعتراف به (أي بالأمين) خليفة على المسلمين ولكن بشروط معينة، فهل يعقل أن يكون الرشيد خطط لهذا كله!

٥- خلافة الأمين (١٩٣-١٩٨هـ)

وهناك في نفس الوقت وفي بغداد شخص يدعى خليفة ولكنه مهذب، لدى أي مخالفة تافهة، إلى انتقال الخلافة عنه إلى ولي العهد ودعوة المسلمين كافة إلى تنفيذ ذلك بالوسائل المتاحة وأنني لا أستطيع أن أصل إلى الكشف عما فعله الرشيد حقيقة لأن ما ذكر حول تولية العهد للأمين والمأمون غير معقول ويؤكد أنه سيؤدي إلى وقوع الكارثة التي انتهت إليها ويحمل الرشيد المسؤولية الكبرى في وقوع ذلك الغموض ولأن جميع الحقائق الموجودة أمامنا تؤدي إلى قتل الخليفة وظهور الخلافات، هذا بالرغم أن الرشيد قد مر من قبل بمثل هذه المحنة مع البرامكة، ومما زاد الطين بلة أن الرشيد ضم الفضل بن سهل إلى المأمون كوزير ومستشار له وضم الفضل بن الربيع إلى الأمين وشتان بين الرجلين.

وحتى بعد مقتل الأمين لم تقف الإشاعات والأكاذيب التي تمس بالأمين وحتى من أقرب الناس إليه وهو عمه إبراهيم بن المهدي الذي كان يجالسه والأمثلة على هذا ما ورد في الطبري ٤٧٦ و٤٧٧ هـ ، ولافتراء إبراهيم عذر وهو أن إبراهيم بن المهدي كان قد بوع بالخلافة أثناء غياب المأمون في خراسان وحين قدم المأمون بغداد هرب إبراهيم بن المهدي واختفى إلى أن عفا عنه المأمون فأراد إبراهيم أن يشكره ويرد له الجميل فبدأ باختراع القصص السيئة عن الأمين بعد مقتله ليحط من شأنه وقيمته ويبرئ ساحة المأمون من دم الأمين.

واعود فأكرر أن جميع الروايات عن ولاية العهد قد وضعت أما بعد مقتل الأمين أو حين كان طفلاً.

(١) شخصية المأمون :

تعلم المأمون من المنصور والخلفاء من بعده، أن يفعل ما يشاء وبجميع الوسائل الممكنة كي يصل إلى هدفه، ولكنه تفوق على المنصور والمهدي والرشيد:

١- قضى على أخيه بالقتل وتصل من المسؤولية عن ذلك، ثم قضى على الفضل بن سهل بقتله في الحمام على يد مأجورين ثم قتلهم، وتخلص من الحسن بن سهل الذي فقد عقله، ثم تخلص من ولي عهده العلوي علي الرضا بالسم أيضاً كما يقال، وتم كل ذلك في طريق رحلته من المرو إلى بغداد وذلك كله سنة ٢٠٢هـ، وعين طاهر بن الحسين (قاتل أخيه الأمين) على خراسان سنة ٢٠٥هـ ثم تخلص منه بالسم حسب الرواية مدعياً أنه لم يعلن اسم المأمون على المنابر وقد تكون هذه التهمة غير صحيحة.

٢- خلق مسألة المحنة كي يتخلص من سلطة رجال الدين كما جاء في الفصل الخاص بذلك، ولم تكن المحنة مسألة دينية بل مسألة سياسية وخالف بذلك الرشيد والأمين واضر بكثير من رجال الدين وأسرى المسلمين وخالف خلفاء العباسيين من قبله الذي احترمو الفقهاء والمحدثين ولم يتدخلوا بشؤونهم.

٣- تدخل في القضاء وطلب من القاضي الحكم على أحد الكبار عبد الله بن مالك الذي اتهمه الفضل بن سهل بأنه شتم امه وجاء بشاهدين لم يرهم القاضي عدلين يؤخذ بشهادتهما وانسحب من القضية مطروداً فحكم المأمون بنفسه وأمر بضرب عبد الله بن مالك. وهو أمر لم يحدث من قبل. وكان عبد الله بن مالك قائدا للشرطة زمن الرشيد. (الجهشياري ٢٥٧، ٢٥٨ الطبري ٣٧٢٨)

٤- كان عبد الله بن علي قد جاوز الحدود بقتل الأمويين ونبش قبورهم ونهب املاكهم لكن المأمون لم يقنع بذلك بل أراد تحقيرهم فقام بمايلي:

(١) أمر بلعن معاوية بن أبي سفيان الذي انتقد الخلافة الإسلامية بعد أن قتل على التوالي من الخلفاء الراشدين ثلاثة وهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وأسس الدولة الأموية وأكمل فتح الساحل السوري الذي عجز عن فتحه - يزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، وكون أسطولاً وبحارة واحتل قبرص - وواصل الفتوحات الإسلامية، وابتدع الصوافي والشواتي على الحدود البيزنطية وحاول احتلال القسطنطينية. كما أمر المأمون بإزالة المقصورة من المساجد الكبرى بحجة أنها من ابتداع معاوية بن أبي سفيان (كما في يعقوبي ٢/٤٦٨) مما يدل على سياسة المأمون نحو الأمويين الناجمة عن حقد عليهم وشعوره بصغره أمامهم^(٤٨٣).

(٢) أمر المأمون سنة ٢١١هـ منادياً فنادى: برئت الذمة (أي أهدر دمه) ممن ذكر معاوية بخير أو فضله على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ وذلك بعد وفاة معاوية بمائة واحد وخمسين سنة.

وذكر المأمون بني أمية فوضع منهم وتقصصهم (الطبري ٨/٦٥٧) وحاول أن يتعالى عليهم، ورغم ذلك كان يحسدهم على ما نالوه في جميع الميادين. وكان يقول: كان معاوية بعمره (عمرو بن العاص) وعبد الملك بحجاجة (الحجاج بن يوسف الثقفي) وأنا بنفسي (ابن عساكر ٧٩/٢٥٥) وكان المأمون يتعصب للأوائل من الشعراء ويقول: انقضى الشعر مع ملك بني أمية (ابن عساكر ٣/٢٧١).

وقد تناسى المأمون الفضل بن سهل والحسن بن سهل وطاهر بن الحسين وعبد الله ابن طاهر بن الحسين وكثيرين غيرهم ممن خاطروا بأنفسهم وأوصلوه إلى الخلافة ثم جازاهم أسوأ جزاء كما تتصل من قتل أخيه الأمين.

(٣) بنى عبد الملك بن مروان قبة الصخرة ونقش عليها اسمه ووحد المملكة وصان الحدود وعرب الدواوين وسك النقود الإسلامية، فعمل المأمون على تغيير الكتابة على القبة ولم يكمل هذا التغيير لأسباب فوق إرادته ووضع أمر التزوير لأن الكتابة أصبحت هكذا، بنى هذه القبة في سنة ٧٢هـ عبد الله (اسم المأمون) عبد الملك أمير المؤمنين^(٤٨٤) وهذا شيء مضحك.

(٤) سمح المأمون سنة ١٩٠هـ (حين ناب عن والده الرشيد في سفره) لعم أبيه سليمان بن أبي جعفر المنصور أن يبقي إسحاق بن وهب بن سماعة المعيطي (الشاعر الأموي الذي هجاه) في السجن إلى أن مات (راجع ترجمة إسحاق بن وهب المعيطي في هذا الكتاب)

(٥) أمر بتحويل جثة عبد الملك بن صالح العباسي من قبره في الرافقة سنة ٢١٦هـ وهو شيء لم يقدم عليه أي خليفة عباسي في جثة أمير عباسي، وسبب ذلك أن عبد الملك بن صالح كان من انصار الأمين، وكان والياً على الجزيرة في عهد الأمين فدفن في قصر الامارة في الرافقة.

(٦) وإذا تجاوزنا عن مهاجمة المأمون للأمويين ووصلنا إلى نظرته للعرب على وجه العموم، فوجدنا بأنه يرفع نفسه إلى منزلة عمر بن الخطاب، ولكي يبلغ ذلك عمد إلى الحط من قيمة الرعية في عصره نسبة إلى الرعية الذين كانوا زمن عمر بن الخطاب، إذ قال: (انما نسوس أهل بزوفر قرب واسط وبغداد وخامية قرية من قرى واسط وهي المقصودة هنا) ودستميان كورة جليلة بين واسط والبصرة والأهواز ومن اشبه هؤلاء الذين إذا جاعوا أكلوك وإن شبعوا ازدروك وإن دلوا عليك استعبدوك، وكان عمر ابن الخطاب يسوس قوما قد تأدبوا بأخلاق نبيهم ﷺ الطاهرة، وصانوا أحسابهم الشريفة وما أثله (أي: أعزه بمال ورجال) لهم أبأؤهم في الجاهلية والاسلام من الأفعال والنشيم الكريمة، ونحن نسوس ما ذكرنا لك من هؤلاء الأقوام الخبيثة). (كتاب بغداد لابن طيفور ٤٤).

وقد فات المأمون أن يذكر الفارق بينه وبين عمر بن الخطاب الذي كان يسهر على راحة المسلم ولو كان في أقصى البلاد والذي أوصى النعمان بن مقرن أن لا يعرض من معه من الجند للخطر (فإن رجلاً من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار) (الطبري ١١٥٤)، وأن عمر كان يعيش حياة أقرب إلى حياة الفقر ويفترش الأرض أحياناً وينال راتباً أقل من أي وال من عماله. وأن أحوال الرعية التي كانت في زمن عمر بن الخطاب ومدحها المأمون هي التي رمت أم المؤمنين بالافك زمن الرسول ﷺ وذكر ذلك في القرآن الكريم وهي التي اغتالت عمر بن الخطاب نفسه ثم عثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب عليه السلام ثم حاولت قتل معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص. وقد ذم المأمون جميع العرب فقال: (والله ما انزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبقى في بيت مالي درهم واحد، وأما اليمن فما أحببتها قط، وأما قضاة فسادتها تنتظر السفيناني وخروجه لتكون من اتباعه، وأما زبيعة فساخطة على الله تعالى منذ أن بعث نبيه في مضر، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شارباً) (الطبري ٦٥٢٨).

ونسى المأمون أنه إذا لم يحب العرب الذين ذكرهم ولم يعمل شيئاً لأنصافهم، فهل هو أمر إلهي أن يحبوه لسواد عيونه، وقد انفق خزانة الدولة على عرسه من بوران وعلى غير ذلك من أمور الدنيا وغاب عنه أيضاً - رغم ذكائه - أنه إذا صح كلاًمه فمعناه أن العرب كلهم أو معظمهم على الأقل غير راضين عنه وأنه صار خليفتهم رغماً عنهم فخلافته لذلك باطلة.

(٧) وأخيراً هل ما تقدم يؤيد ما قيل في المأمون أنه جعل ولاية العهد من بعده للامام الرضى العلوي لغاية في نفسه وهي ان يأمن العلويون على انفسهم فيظهرون أمام الناس وتبدو عيوبهم بوضوح أمام الناس فيشرعون في الانفضاض عنهم وعندئذ تحط مكانتهم عند الناس!

ومن الغرائب ان المأمون قتل أخاه وتتصل من مسؤوليته في ذلك ثم أخذ البيعة لأخيه المعتصم كولي للعهد من بعده (وليس لابنه العباس) لشدة محبته له، وتلا ذلك ان المعتصم حين صار خليفة حبس ابن أخيه العباس بن المأمون في السجن حتى مات بتهمة التآمر على حياته (حياة المعتصم).

(٢) شخصية الأمين

رغم كل الانباء التي تحدثت عن لهو الأمين وعبثه فلم يثبت أي خبر صحيح يؤيد ذلك، بل وكان في مضمار اللهو أقل من جميع الخلفاء الذين سبقوه أو لحقوا به ومراجعة اخباره في كتاب الأغاني تثبت ذلك.

وكان مستقيماً في كل شيء ولم يكن يشبه المنصور أو المهدي أو الرشيد في ان يستعمل جميع الطرق للوصول إلى غايته، وكان ببغداد ابناً لعبد الله المأمون وهما مع أمهم أم عيسى بنت موسى الهادي، ونزلا في قصر المأمون ببغداد، وحين عرض عليه أسد بن يزيد بن مزيد (سنة ١٩٦هـ) ان يسمح له بوضع ولدي المأمون بالأسر لديه أجابه: 'تدعوني إلى قتل ولدي، وسفك دماء أهل بيتي! ان هذا للخرق والتخليط! وبقي الولدان في قصرهما فلما ظفر المأمون ببغداد خرجا مع أمهم إلى خراسان فلم يزا بها حتى قدموا بغداد وهما أكبر ولده. ولما غضب محمد الأمين على أسد بن يزيد، وأمر بحبسه، قال: هل في أهل بيت هذا من يقوم مقامه؟ فاني أكره ان استفسدهم مع سابقتهم، وما تقدم من طاعتهم ونصيحتهم' (٤٨٥). وقد اعتذر الأمين عن حبسه بعد ذلك ^(٤٨٦) وهو أمر لم يصدر عن خليفة عباسي غيره.

وفي وصيتين للأمين وجههما إلى قادمته، يظهر الخلق العالي الذي تميز به الأمين احدهما: 'امنع جندك من العبث بالرعية والغارة على أهل القرى، وقطع الشجر، وانتهاك النساء ومن خرج

عليك من جند أهل خراسان ووجوهها فأظهر اكرامه ولا تعاقب أخاً بأخيه، وضع عن أهل خراسان ريع الخراج^(٤٨٧).

وفي الوصية الثانية لأحمد بن مزيد: 'إياك والبغي، فإنه عقاب النصر، ولا تقدم رجلاً إلا باستخارة، ولا تهز سيفاً إلا بعد إعدار، ومهما قدرت باللين فلا تتعده إلى الخرق والشر، وأحسن صحبة مع من معك من الجند^(٤٨٨). واهتم بتحسين الثغور^(٤٨٩) (البلاذري فتوح ٩٩).

كان من سوء حظ الأمين أنه اعتمد على الفضل بن الربيع وهو رجل عرف بالمكر والانانية والحق من شخصه ووراثته من أبيه الربيع الذي قضى على وزير المهدي أبي عبيد الله. وأدى إلى قتل ابنه وتسريحه من الوزارة لأنه لم يحسن استقباله^(٤٩٠) على زعمه وقد تقدم تفصيل ذلك في (تتكر الرشيد للبرامكة).

وابنه الفضل رعى على هذه النفسية ودس على المأمون عند الأمين كي يحافظ على مركزه عند الأمين ثم تخلى عن الأمين عند أول فرصة عندما أدرك أنه هو الخاسر.

أما علي بن عيسى بن ماهان فقد تقدم سوء تصرفه في خراسان وكيف تمرد على الأمين ثم قبض على الأمين ووالدته وحبسهم حتى أخرجهما الجند، ثم بايع للمأمون.

وعلى كل فإن صلة الأمين بالفضل بن الربيع وعلي بن عيسى بن ماهان قد ورثها الأمين عن والده الرشيد فكانت السبب في خسارته ملكه وحياته.

٣) الصراع بين الأمين والمأمون

مات الرشيد قرب طوس عام ١٩٣هـ أي في المنطقة التي تدخل تحت حكم المأمون، وهي منطقة واسعة ومواردها غزيرة وكان برفقته المأمون والقائم بأمره الفضل بن سهل وأخوه الحسن بن سهل والجيش الكبير المرافق للرشيد والذي يؤول بحكم الوصية المزعومة إلى المأمون هو والأموال وكل شيء كان في تلك الحملة، إلى جانب خراسان والولايات الشرقية ولكن قسماً كبيراً من الجيش عاد إلى الأمين. وكان هذا، إذا صح، تخطيطاً سيئاً من الرشيد الذي كان بإمكانه التنبؤ بما سيؤول إليه هذا التخطيط. وعمل الفضل بن سهل والخراسانيون على مناصرة المأمون بجميع الوسائل وذلك كما فعل أبو مسلم الخراساني في نهاية عهد الأمويين حتى انتهى الأمر بمقتل الخليفة الأموي مروان بن محمد، وحاول الأمين أن يجعل المأمون يتنازل عن قسم من الجيش والأرض والمال وأن يحول ولاية العهد إلى ابنه موسى وهو طفل، ولكنه فشل في تحقيق ذلك، ولم يجد له دليلاً وافياً وذكياً وناصحاً مثل الفضل بن سهل عند المأمون: أما من كان حول المأمون فقد أحسنوا التصرف وقاموا بدعاية دينية ممتازة، وردوا المظالم، وأظهروا التقشف وخففوا الخراج، وحافظوا على موقعهم في خراسان.

أما الأمين فإنه أخطأ في مسيرته، وغشه مستشاره ووزيره الفضل بن الربيع واتجه إلى تولية ولده موسى العهد، وانقص مما كان بيد أخيه الآخر القاسم (المؤتمن) من الولاية ثم بدأ في السنة الثانية ١٩٥هـ فدعا في خطبة الجمعة لابنه موسى بولاية العهد وكان لا يزال طفلاً إلى جانب الدعوة بعده لأخيه المأمون.

كان الأمين العوبة بين التقاليد التي كانت توحى للخليفة أن يعزل تاليه في الخلافة ليستخلف ابنه ويجد حوله من الهاشميين والقواد من يشجعه ويحض على ذلك (وقد حدث هذا مرتين من قبل، أحدهما مع المنصور وقد نجح في مسعاه ثم مع الهادي ففشل). ووجد المأمون مصعب بن الحسين والفضل بن سهل يشجعانه منذ البدء على التمرد على أخيه وكان انصار

المامون اذكى من انصار الامين ودعاتهم اقوى وقواد المامون ابعد نظرا، ولما بدأت الكفة تميل نحو المامون بادر الهاشميون والقواد وكل اصحاب المطامع إلى الانحياز نحو المامون.

قابل المأمون (أو نصيره الفضل بن سهل) ذلك بأن أسقط أسم الأمين من الطراز ومن النفوذ وقطع البريد عن الأمين ووضع مراقبة شديدة على رسله ومنعهم أن يختلطوا بأحد في مملكته ورفض أن يتنازل عن أي شيء في تصرفه أو أن يذهب بشخصه لمقابلاته لئلا يتعرض للضغط، وقشلت جميع جهود الأمين والفضل بن الربيع في التأثير على خراسان والولايات التابعة لها.

استطاع الفضل بن سهل أن يكسب رضا الولايات التابعة له ويكسب رضى بعض الأمراء العباسيين مثل موسى بن عيسى (الذي كان ولي العهد قبل المهدي وأجبر على أن يتنازل عن ذلك (أي كان في نفس موقع المأمون) الذي قبل أن يرأسه بالأخبار الهامة من بغداد. وهكذا سددت في وجه الأمين جميع الوسائل التي قد تعود عليه بالفائدة فلجأ في أوائل سنة ١٩٥هـ إلى خلع المأمون من ولاية العهد وأخذ البيعة لأبنه موسى بدلاً منه ولقبه (الناطق بالحق) وابطل التعامل بالنقود التي كان المأمون ضربها في حياة الرشيد وعمل على سرقة كتابي العهد له وللمأمون من الكعبة ومزقهما وكلف علي بن عيسى بن ماهان بالسير إلى خراسان للقبض على المأمون، وكان هذا أسوء اختيار ممكن لأن علي بن عيسى هذا تولى خراسان من قبل فأساء السيرة وأبتر الأموال حتى عزله الرشيد، وربما قصد الأمين من اختياره هذا أن يكيد أهل خراسان به فأخطأ. سار علي ابن عيسى بن ماهان على رأس ٥٠ ألف رجلاً إلى الري حيث كان طاهر بن الحسين قائد المأمون يتأهب للدفاع. والظاهر أن الغرور استولى على علي بن عيسى فاستهان بأمر طاهر وأهمل اتخاذ ما يلزم فلم يقيم بالاستطلاعات اللازمة ولا بأي استعداد ضروري، ثقة منه أن طاهر لا يستحق مثل هذا وأن مجرد ظهوره في الميدان يجعل الخراسانيين يبادرون بالهزيمة. وعلى عكس ذلك حسب طاهر حساب كل شيء وكانت النتيجة أن جيش علي بن عيسى أنهزم بسهولة وقتل قائده، وتحول طاهر من الدفاع إلى الهجوم. وبحث الفضل بن الربيع عن قائد عربي فأختار أسد بن يزيد الشيباني ليقا تل به طاهر بن الحسين لكن أسد كانت له مطالب مالية ضرورية رفضها الأمين (مع أنه كان يوزع الأموال على غير العرب يميناً وشمالاً دون فائدة) وأمر بحبسه، وأخيراً نجح الفضل بن الربيع بتسيير عم أسد وهو أحمد بن مزيد لحرب طاهر وسير معه عبد الله بن حميد بن قحطبة ومعه الأبناء لكن القائدين العربي وغير العربي اختلفا في الطريق وتقاتلا ورجعا.

كان الأمين حين أصبح خليفة قد أطلق عبد الملك بن صالح من السجن حيث سجنه الرشيد من قبل، وقد حاول أن يساعد الأمين فدخل عليه وشرح له أن جيشه طمع فيه ولن يفيد معه السخاء ولا البخل، وأنه امتلأ رعباً من جيش طاهر بن الحسين، وطلب منه أن يولي الشام والجزيرة فيجهز له جيشاً من أهلها يكونون طوعاً أمراً فأجابته إلى ذلك فسار عبد الملك إلى الرقة، وكتب إلى انحاء الشام ووجوه الجزيرة، وبسط لهم الأمل، فقدموا إليه تباعاً، واثاء أهل الشام والزواقل والأعراب من كل فج. وفشل هذا التدبير لأن أهل الشام اختلفوا مع الأبناء من الخراسانيين وتقاتلوا معهم وكان عبد الملك مريضاً فصاح: (واويلاه! تستنضم العرب في دارها ومحلها وبلادها!) وأنهزم العرب وعادوا إلى وطنهم، ومات عبد الملك بن صالح عام ١٩٦هـ وكان الأمين قد أرسل الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان إلى الشام للقضاء على حركة السفيناني بدمشق التي جرت عام ١٩٥هـ لكن الحسين وصل إلى الرقة فبقي فيها ولم يكمل طريقه، ثم عاد إلى بغداد وعندما أراد الأمين أن يحاسبه على فعله تمرد على الأمين، وأعلن خلعه، ثم بايع المأمون ثم أسر الخليفة الأمين هو وأمه زبيدة وحبسهما، لكنه حين عجز عن دفع أرزاق الجيش، ثاروا عليه وأطلقوا سراح الأمين ووالدته وأعيد إلى كرسي الخلافة.

وانتهى أمر الأمين بأن قتل على يد طاهر بن الحسين وأرسل رأسه إلى المأمون وكان ذلك سنة ١٩٨هـ. ولم يكن قتله ضرورياً بعد أن وقع في أيديهم، وهرب الفضل بن الربيع وقتل الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان قبل ذلك، وبذلك أعيد تمثيل الرواية القديمة ولكن بتغيير الممثلين: إذ حل طاهر بن الحسين محل أبي مسلم الخراساني والخليفة الأمين مكان الخليفة مروان بن محمد وسيحل الفضل بن سهل وأخوه الحسن بن سهل محل البرامكة.

ظل الأمين حتى آخر أيامه يعتمد على الأبناء ويوليهم ثقته حتى أنه جمع في آخر أيامه كل من كان معه من القواد والجند وخاطبهم بقوله: أما بعد يا معشر الأبناء! وأهل السيق إلى الهدى! فقد علمتم غفلتي كانت أيام الفضل بن الربيع وزير ومشير علي من ذلك توجيهي إليكم علي ابن عيسى بن ماهان شيخكم وكبيركم ... (الطبري ٤٩٣/٨). ولم يشر الأمين بأية كلمة إلى العرب، وكأنه لم يكن لهم وجود في حسابه، ولعل هذا ما دفع الشاعر إلى هجاء الأمين بقوله:

لم تكن تصلح للملك ولم تعطك الطاعة بالملك العرب

(الطبري ٥٠٠/٨)

ومما يذكر أنه خلافا لما يروى في بطن المصادر والمراجع أن العربي القح نصر بن شيث بدأ ثورته زمن الأمين وليس زمن المأمون لشعوره بأن العرب تساء معاملتهم، أما الذين دافعوا عن بغداد من العامة فلم يكونوا من العرب على وجه الخصوص وكانت لهم دوافع لا مجال لبحثها هنا. وكمثال على معاملة الأمين للعرب نشير إلى ما صنع واليه على حمص عام ١٩٤هـ من ضرب المدينة بالنار وضرب اعناق عدد من سكانها وحبس آخرين (الطبري ٣٧٤/٨) عوضاً عن أن يستمع إلى شكاوى أهلها وينصفهم كما فعل والده الرشيد قبله عام ١٩٠هـ.

واعتمد الفضل بن سهل زمن الفتنة بين الأمين والمأمون نفس الخطة التي كان قد سلكها أبو مسلم الخراساني حين اعتمد على اليمانيين ثم على ربيعة وتميم والخراسانيين ومناهم بالوعود ليضرب بهم المضربين. وحط عن خراسان ربع الخراج فكانوا يقولون: (المأمون) ابن اخت وابن عم رسول الله ﷺ (الجهشياري ٢٢٥، الطبري ٣٧٢/٨).

٦. خلافة المأمون عبد الله بن هارون (١٩٨ - ٢١٨هـ)

نشأ المأمون وترى على محبة الفرس ثم بوع بالخلافة سنة ١٩٨هـ وهو بخراسان، ولهذا لم ينتقل إلى بغداد مقر الخلافة العباسية، بل ظل مقيماً في مدينة مرو بخراسان مدة ست سنوات تقريباً، انتقل بعدها إلى بغداد سنة ٢٠٤هـ ويقال أن السبب في ذلك هو أن المأمون كان يخشى أهل بغداد وانصار أخيه الأمين، وقيل كذلك أن وزيره الفضل بن سهل هو الذي أقنعه بذلك كي يكون مركز الدولة بين الفرس في خراسان.

وكيفما كان الأمر فإن بقاء المأمون في مكان بعيد عن العاصمة قد تسبب عنه بعض الأزمات السياسية خصوصاً وأنه فوض إدارة البلاد إلى وزيره الفضل بن سهل وأخيه الحسن بن سهل الذي ولأه المأمون على العراق وتزوج ابنته بوران. ومعروف عن بني سهل أنهم كانوا فرساً ولهم ميول فارسية. ولقد أثار تحيز المأمون للفرس غضب أهل بغداد من بني هاشم ووجوه العرب، فأشاعوا أن بني سهل حجبوا الخليفة واستبدوا بالرأي دونه.

أما من جهة سياسة المأمون نحو العلويين فقد أتى المأمون سنة ٢٠٢هـ وهو بمرور بأمر علوي هو الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق وهو الإمام الثامن عند الأمامية

الأثني عشرية، وبإيعه بولاية عهده وزوجه أبنته أم حبيب وزوج ابنه محمد (ابن الإمام علي) أبنته الأخرى وهي أم الفضل واتخذ رايات العلويين الخضر شعاراً بدلاً من رايات العباسيين السود، وذلك لكسب رضى العلويين والخراسانيين على السواء وحين بلغ الخبر للعراقيين هاجوا وثاروا ورفضوا مبايعة علي الرضا، وقالوا: لا تخرج الخلافة من ولد العباس، وخلصو المأمون وبإيعه عمه إبراهيم بن المهدي خليفة عليهم. وقد كتم الفضل بن سهل خبر ذلك عن المأمون وحاول القائد هرثمة بن أعين ان يصل إلى المأمون بمرو ليطلععه على حقيقة الأحوال بالعراق ولكن الفضل بن سهل تأمر على قتله. لكن ولي العهد الجديد علي الرضا تجرأ على إخبار المأمون بالواقع الخطر. فخرج المأمون من مرو إلى طوس ليستمد القوة من الصلاة على ضريح والده الرشيد، وفي خلال الطريق قتل وزيره الفضل بن سهل وهو في الحمام بمدينة سرخس سنة ٢٠٢هـ وحين وصل إلى مدينة طوس مات صهره الإمام علي الرضا سنة ٢٠٣هـ من جراء اضطراب في الجهاز الهضمي ويظن أنه قتل مسموماً بتدبير المأمون، ودفن إلى جانب الرشيد في طوس. وعاد المأمون من هناك إلى بغداد فوصلها سنة ٢٠٤هـ فبويغ بالخلافة من جديد، وعفا من عمه إبراهيم بن المهدي، ثم عزل الحسن بن سهل واعيدت بذلك قصة البرامكة والرشيد. وعادت الدولة إلى لبس السواد. لكن المأمون ظل متعلقاً بطاهر بن الحسين فارسي الأصل (قاتل أخيه الأمين) وولاه خراسان سنة ٢٠٥هـ واستمر الحكم فيها في أولاده من بعده فقامت بذلك أول إمارة شبه مستقلة في الدولة العباسية وهي الدولة الطاهرية. وكان طاهر بن الحسين قد قطع ذكر الخليفة على المنابر وسرعان ما قضى عليه بالسم كما في الروايات التاريخية وقد لا يكون قطع ذكر الخليفة على المنابر حقيقة، وإنما اتخذ كذريعة للخلّاص منه لاتهامه بقتل الأمين بدون الحصول على موافقة المأمون.

ان قرار البيعة (بولاية العهد للإمام علي بن موسى الرضا) كانت له آثار خطيرة على الوضع السياسي والاقتصادي فقد أشار الأزدي إلى ذلك فقال: أشد ذلك على بني هاشم وعلى أهل بغداد (وقل الطعام وغلا السعر) في الوقت الذي وقعت مجاعة في خراسان والري واصبهان) وأن القرار من وجهة نظر سياسية هو نقل السلطة إلى أسرة أخرى مع ما يتبعه من فقدان العباسيين وشيعتهم لامتيازاتهم فضلاً عن ان بقاء الخليفة في مرو ومعه الفضل بن سهل الفارسي معناه نقل قصر الخلافة من بغداد والعراق إلى مرو وخراسان، وهو ما عارضه أهل بغداد لذلك اختاروا عم الخليفة إبراهيم بن المهدي ليكون خليفة، وذلك في محرم عام ٢٠٢هـ ولقب بالمبارك وهرب الحسن بن سهل من بغداد إلى واسط (الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي (د. عبد الجبار ناجي ورفاقه ١٢٠).

المرحوم العلامة السيد حسن الصدر له رسالة سماها (كشف الظنون في خيانة المأمون) أثبت فيها جريمة المأمون في تسميم أبي الحسن علي الرضا بن الإمام موسى الكاظم. (دائرة المعارف الشيعية).

تتبع ظاهرة الفضل بن سهل وما حدث له مع المأمون وتصفية الأمين من داخل المجتمع العباسي ومن واقع العناصر الفارسية الصاعدة نحو النفوذ، فقد فعل الفضل بن سهل في عهد المأمون ما فعله البرامكة في عهد الرشيد إذ مهد للمأمون الطريق إلى الخلافة وعمل على تكتيل الخرسانية خلف قضية المأمون وبهذا أحب أهل خراسان المأمون وكانوا يقولون عنه أبن أختنا وأبن عم الرسول، وكان من الجهود التي بذلها الفضل: حسن اختيار القواد وحسن إعداد الجيش بما يلزمه، واستمال الخراسانية بأن ذكرهم بظفرهم في هزيمة الأمويين فكان يقال للتميمي:

تقديمك مقام موسى بن كعب وللربيعي: تقييمك مقام أبي داود خالدين ابراهيم. كما حظ عن خراسان ريع الخراج، وردت المظالم (الطبري ٣٧٢/٨ سنة ١٩٣هـ).

ولما آلت الخلافة إلى المأمون واستقر الأمر له في بغداد وفى للفضل بن سهل كما وفى الرشيد ليحيى ابن خالد البرمكي من قبل فقد وعده وزارة التفويض وأمر بأن يخطب له بعده وولاه المشرق كما تولى الفضل بن يحيى من قبل، ورتب له أجراً قدره ثلاثة ملايين من الدراهم في السنة ولقبه 'ذا الرئاستين' رئاسة الحرب ورئاسة التدبير ومنحه لقب الإمارة، فكان أول وزير يجمع اللقبين وكتب له توقيعاً يدل على مدى تعظيمه له، أما الحسن بن سهل أخوه فقد تولى كور الجبال والعراق والحجاز واليمن وبلغ من تأثير بني سهل على المأمون أن الفضل بن سهل أغراه بتولية علي بن موسى الرضا ولاية العهد من بعده وأراد تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين.

ويبدو أن عقدة الظهور التي وجهت البرامكة كانت من وراء بني سهل توجههم إلى نفس المنصير فقد أخذ الفضل يمكن لنفسه في خراسان ليعيد تمثيل دور أبي مسلم القديم بل حاول أن يبسط نفوذه على بغداد نفسها للوقعية بظاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين رجلي المأمون، بل أراد أن يطيح بالخلافة العباسية نفسها، وقد ذكر الجهشيارى على لسان نعيم بن حازم قوته للفضل: انك إنما تريد أن تزيل الملك من بني العباس إلى ولد علي ثم تحتال عليهم فيصير الملك كسروياً.

وقد أحست الخلافة بالخطر وانقلاب التوازن وخافت ضياع هيبتها وتعاليتها، كما تحركت من قبل في عهد المنصور والرشيد. وقد سار المأمون من مرو ومعه حاشية كبيرة على رأسها الفضل ابن سهل ومعه كذلك بعض الجنود، وظل الركب يسير حتى وصل سرخس فحط الركب رحاله وفيها تخلص المأمون من الفضل بالحمام في شعبان سنة ٢٠٢هـ).

والغريب كما تقدم أن الرشيد كان قد كتب ليحيى بن برمك كتباً على نفسه أن لا يؤذيه ولا يضر به وأشهد على نفسه ثم بطش به وبأسرته من البرامكة وجاء المأمون فأعاد تمثيل هذا الدور فقد كتب لذي الرئاستين وزيره الفضل بن سهل الكتاب الذي سماه كتاب الشرط والحياة يصف فيه طاعته ونصيحته وعظته وعنايته، وذهب نفسه عن الدنيا، وارتقاعه (هذه الكلمات كلها تشير إلى الفضل بن سهل) عما بذل من الأموال والقطائع والجواهر والعقد ويشترط المأمون له على نفسه كل ما يسأل) ووقع فيه المأمون وأشهد على نفسه. فلما صار المأمون بطوس قتل الفضل بن سهل (بتدبير من المأمون طبعاً والتاريخ يعيد نفسه).

اختلف في سبب خلع ولاية العهد على علي الرضا وذلك سنة ٢٠١هـ ثم وفاته المفاجئة والتي قيل عنها أنها مصطنعة بالسّم. وكان ظاهرها مسابرة للخراسانيين الذين يفضلون العلويين وباطنها حسب أبْن القفطي في كتابه أخبار العلماء والحكماء أن المأمون قد رأى آل علي بن أبي طالب متخفين من خوف المنصور ومن جاء بعده من بني العباس ورأى العوام قد خفيت عنهم أمور العلويين بسبب اختفائهم فظنوا بهم ما يظنون بالانبياء وتفوهوا في وضعهم بما يخرجهم عن الشريعة من التعالي، فأراد معاقبة العامة على هذا العمل، ثم فكر أنه إذا فعل هذا بالعوام زادهم إغراءً بهم فنظر في هذا الأمر نظراً دقيقاً وقال: لو ظهوروا للناس وظهر فسق الفاسق منهم وظلم الظالم لسقطوا من أعينهم ولا تقلب شكرهم لهم ذماً، ثم قال: إذا أمرناهم بالظهور خافوا. وأستتروا وظنوا بنا سوءاً وإنما الرأي أن تقدم أحدهم ونظهره لهم إماماً فإذا رؤوا هذا انسوا وظهروا وأظهروا ما عندهم من الحركات الموجودة في الادميين وتحقق للعوام حالهم وماهم عليه مما خفي بالاختفاء، فإذا تحقق ذلك ردت الأمر إلى حاله الأولى. وقوي هذا الرأي عنده، وكتب

باطنه عن خواصه، وأظهر للفضل بن سهل أنه يريد أن يقيم ولي عهد من آل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وفكر فيمن يصلح، فوقع اجماعهما على علي الرضا واندمج الفضل بن سهل في تقرير ذلك وترتيبه وهو (الفضل) لا يعلم باطن الأمر وأخذ في التحضير لبيعة الرضى^(٤٩١).

١. ثورة نصر بن شيب

ظهر في الفتنة بين الأمين والمأمون ١٩٣-١٩٨هـ كثير من الثائرين في الجزيرة، وعلى رأسهم عمرو السلمي الذي كان مسجوناً بالرقعة لجرم كان ارتكبه في سميساط، ففر من السجن وذهب إلى سميساط، فقتل الأمير ونهب وسلب، ثم ذهب إلى الشام^(٤٩٢) واعترض الجيش الذي أرسله الأمين عام ١٩٥هـ بقيادة سليمان بن أبي جعفر المنصور الذي كان عامل الأمين بدمشق لقتال السفيناني^(٤٩٣) وكان نصر بن شيب في أرمينة فلما سمع عن عمرو السلمي انضم إليه^(٤٩٤). ونصر هذا هو نصر بن شيب بن أبي بكر بن كعب بن عامر بن عقيل^(٤٩٥). وكان جده أبو بكر من بين فرسان قيس الذين قتلوا غدرًا مع يزيد بن عمر بن هبيرة بواسطة عام ١٣٢هـ حين انتصر العباسيون على جيش مروان بن محمد^(٤٩٦). وكان يسكن كيسوم شمال حلب^(٤٩٧).

وتقدم ان الأمين أطلق سراح عبد الملك بن صالح من سجن الرشيد، فجمع له عبد الملك جيشاً من أهل الشام، الزواquil والأعراب ثم دبّ خلاف بين الخراسانية والأبناء من جهة، والعرب من جهة أخرى، من أجل دابة تحت أحد الزواquil أدعى أحد الأبناء أنها كانت لأبيه وأخذت منه في حرب سابقة في الشام، وتلاحم الطرفان واشتد بينهما القتال، وقتل من الزواquil عدد كبير وأنهزموا. وكان على رأسهم نصر بن شيب الربيعي وعمر بن عبد العزيز السلمي والعباس بن زفر الكلّابي. وكان الأبناء هم الذين أهاجوا الشر، وهم الذين انتصروا. وكان على قيادتهم الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان (من الأبناء) وذلك لأن شيخهم وفارسهم محمد بن أبي خاند لم يردان يتورط في الأمر، كما أن طوق بن مالك التغلبي صاحب الرحبة لم يرد أن يتدخل أيضاً لأنه تغلبي وليس من قيس ولا يمن على حد قوله^(٤٩٨) والزواquil كما سيجيء هم من صعاليك قيس الشام.

وفي هذه الواقعة كان أكثر القتل والبلاء لكثير بن قدارة وأبي الفيل وداود بن موسى بن عيسى الخراساني وأنهزمت الزواquil^(٤٩٩) ولم يكن بالجزيرة أفرس من داود بن موسى بن عيسى، وأبي الفيل وعيسى بن منصور من ساكني الرافقة. وأبو الفيل هو محمد بن إبراهيم الرافقي الفارسي النجيد (أي الشجاع الماضي في ما يعجز غيره) مولّي بني نصير بن معاوية، وله كنية أخرى هي أبو جعفر وقد قتله نصر بن شيب^(٥٠٠). يشير ميخائيل إلى القتال السابق الذكر ويبين أن نصر بن شيب وزميله كانا في ذلك الوقت من الثائرين على السلطة زمن الأمين، وأن عبد الملك بن صالح كان يفأوضهما في الصلح لكنه كان يضمّر الغدر بهما، وقد أعد القيود لتكبيلهما، وأنهما قاما أثناء ذلك القتال بإضرام النار في الريض بين الرقة والرافقة، كما أحرقا دير العمود ولذا بالفرار وقد توفي عبد الملك بن صالح في نفس العام ١٩٦هـ بسبب مرضه ودفن في الرقة.

بدأ خروج نصر قبل ذلك. كما تقدم. وانضم إلى عمرو السلمي، لكن أمير الجزيرة حينذاك - خزيمة (لعله: خزيمة بن خازم) الذي ولاه الأمين على الجزيرة (١٩٣-١٩٦هـ) هب لملاقاته وهزمه فلاذ نصر بالفرار^(٥٠١).

اضطرب البلد عقب موت عبد الملك بن صالح وصار الناس حزبين حزب يظاهر محمد الأمين. وحزب يظاهر المأمون فلم يبق بلد إلا وفيه قوم يتحاربون ولا سلطان عليهم^(٥٠٢).

استأنف الثائران نصر وزميله أعمال الأسر والنهب وامتلاك البلاد. وقد أعاد عمرو بناء سور سميساط وأعاد أبو الشوك (في تاريخ الزمان أبو الشيخ) الغنوي بناء سور الرها، ونقل إليها قسماً من عشيرته من بني غني. وتولى نصر على رأس كيفا وسروج و كيسوم، وبني ثلاثة أسوار حول كيسوم^(٥٠٣).

أرسل الخليفة الأمين عبد الله (الظاهر: أنه عبد الله بن سعيد الحرشي أو عبد الله بن حميد بن قحطبة)، أميراً على الجزيرة، فاتحد الثائرون لقتاله، لكن عبد الله لم يقيم بما تمليه عليه ولايته، ولم يتعرض للثائرين، وترك كلاً منهم في البلد الذي استولى عليه وفتح خزائن الخلافة التي كانت في الرافقة، وأخذ الأموال لنفسه. وبعد ذلك اتحد الثائرون من جديد ليحتلوا حران، فلم يقدروا على ذلك بسبب سورها وقفلوا راجعين.

أعتقد الثائرون أنهم إذا استولوا على مدينة الرافقة انسحب الخراسانيون من الجزيرة، فاندفع نصر وجميع الثائرين إلى حشد القيسية والذهاب إلى الرافقة، وحين وصلوها استقروا في الرقة في منازل المسيحيين فأرهبوهم بنفقاتهم الجسيمة. وكان الوالي في الرافقة داوود بن عيسى فحاصروا المدينة، لكن من في داخلها استخدموا المنجنيقات والمرايات لرمي المحاصرين بالحجارة. واحتبس داخل الرافقة قرياقوس البطريك وثيودوسيوس مطران الرها وحين أشدت عليهما الجوع أكلاً خبز الأرز والخضار وجرى بذلك صلح وبقي العقيليون (أي جماعة نصر بن شبت) سادة على الرقة والخراسانيون سادة على الرافقة^(٥٠٤).

وربما كان داوود بن عيسى قد قتل أثناء هذه المعركة. يشير الأزدي إلى ذلك فيقول (في عام ١٩٧هـ انقذ الامين داوود بن عيسى لقتال نصر فقتله نصر^(٥٠٥) وقد تقدم قول الجاحظ فيه.

أتحد نصر وعباس بعدئذ فهاجما التتوخيين الذين كانوا ينزلون على طريق نهر قويق قرب حلب، حيث أقاموا مدينة لهم، وبعد قتال دام عشرة أيام فر التتوخيون ليلاً تاركين منازلهم وثرواتهم، فاستولى عليها المهاجمون القيسيون والحلبيون^(٥٠٦).

وكان التتوخيون قد حاولوا فيها مضى أن يحتلوا حلباً^(٥٠٧) وكان عمل القيسيين لتسوية ثارات قديمة بين القيسيين واليمانيين. ويهمل ابن الأثير ذكر ما تقدم من أعمال نصر وحروبه أيام الأمين ويذكر أنه خرج عام ١٩٨هـ بعد مقتل الأمين، فيقول وكان في عنقه بيعة للأمين، وله فيه هوى، فلما قتل الأمين أظهر نصر الغضب لذلك، وتغلب على ما جاوره من البلاد وملك سميساط وأجتمع عليه خلق كثير من الأعراب وأهل الطمع وقويت نفسه وعبر الفرات إلى الجانب الشرقي لأن سميساط تقع على الجانب الغربي من الفرات وحدثته نفسه بالتغلب عليه فلما رأى الناس ذلك منه كثرت جموعه وزادت عما كانت^(٥٠٨) ورواية ميخائيل أخرى بالثقة لأنه معاصر ولأن روايتي الطبري والأزدي تؤيدانه والواقع أن نصراً لم يكن مع الأمين ولا مع المأمون بل كان ضد الخراسانية كما يظهر من أقواله وضد اليمانية وكان مع العرب الذين تخلى عنهم كل من الأمين والمأمون وقد تقدم ذكر صيحة عبد الملك بن صالح بهذا المعنى.

كتب المأمون إلى طاهر بن حسين سنة ١٩٨هـ أن يشخص إلى الرقة وجعل إليه حرب نصر ابن شبت وولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب^(٥٠٩). شخص طاهر إلى الرقة في جمادى الأولى من سنة ١٩٩هـ ومعه عيسى بن محمد بن أبي خالد^(٥١٠)، ومع طاهر أربعة آلاف شخص، لكن نصراً لم يستسلم، وتعجل القائد محمد بن جعفر العامري فغير الفرات لملاقاة نصر ولم يتمهل لإراحة جيشه قبل بدء القتال، فأنهزم جيشه شر هزيمة، وقتل هو مع عدد كبير من رجاله. وقد فاجأ

نصر مع عشرين رجلاً من رجاله طاهر بن الحسين فلم يفلت طاهر منهم إلا بصعوبة، ولكن الخراسانية انقضوا فيما بعد على معسكر العرب وأعملوا فيهم القتل بدون رحمة^(٥١١). زاد طاهر بن الحسين الضرائب، وأساء معاملته أهل سروج والرها فضلاً عن أن أصحابه تأمروا على قتله لأنه منع عنهم عائداتهم لعدم توفر المال لديه كما سيجيء. ولما شعر طاهر بذلك، أسرع وهو في الرها، إلى سورها ليلاً ولأذ بالفرار، واقتطعه أصحابه في الصباح فلم يجده، فتوهموا أن نصراً قد وصل إليهم ففروا هم أيضاً، وبذلك تحرر الرهاويون من الضرائب الثقيلة، وكان الخراسانيون يفرون وينهبون كل ما يجدونه أمامهم. لكن نصراً واتباعه انقضوا عليهم وراحوا بأسرونهم خمسين بعد خمسين أو مائة بعد مائة، فكانوا يجردونهم من أموالهم ثم يذبحونهم كالنعا^(٥١٢).

يقول ابن العديم: أتى طاهر بن الحسين لقمع نصر بن شيبث فأنهزم وعاد مفلولاً^(٥١٣) وعاد طاهر شبه المهزوم إلى الرقة^(٥١٤). وفي المعارف: وسار طاهر بن الحسين إلى الرقة فالتقى هو ونصر بن شيبث فقاتله نصر وأثخن في أصحابه، ولم تزل الحرب بينهما إلى أن ورد المأمون ببغداد فقدم طاهر إليه^(٥١٥) كان نصر بن شيبث يسكن مدينة يقال لها كيسوم (قرية من أعمال سميساط وفيها حصن كبير على قلعة كانت لنصر بن شيبث تحصن فيها من المأمون) فتغلب على البلاد وكسر الخراج، فسار إليه طاهر بن الحسين في عسكر لجب، فقاتله نصر عن كيسوم، ووقعت الهزيمة على طاهر بن الحسين وأصحابه وأنهزموا من باب مدينة كيسوم إلى باب مدينة الرقة زهاء الأربعين ميلاً ويقال أربعين فرسخاً^(٥١٦).

يذكر أن طاهر بن الحسين لم يكن جاداً في حرب نصر بن شيبث لأنه كان ساخطاً على الفضل ابن سهل لأنه أرسله في هذه المهمة لحرب نصر بن شيبث التي اعتبرها طاهر أقل من همته بعد أن قتل الأمين وأمن الخلافة للمأمون، ولأنه خاف إذا انتهى من الجزيرة أن ينقل منها إلى مصر^(٥١٧). حاول نصر بعد ذلك أن يفتح الرها لكن أسوارها صمدت أمامه وقتل عمرو السلمي بطعنة نافذة^(٥١٨). تقدم أن علي بن موسى بن جعفر العلوي أخبر المأمون بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه الأمين وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار، وتقصيل ذلك أن أهل بيته والناس بايعوا لعمه إبراهيم ابن المهدي بالخلافة وأن الفضل بن سهل قد كذب عليه وغشه وأن هرثمة بن أعين إنما قتل لأنه جاء لينصح المأمون وليبين له ما يعمل عليه، وأن المأمون إذا لم يتدارك أمره خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته، وأن الفضل دس إلى هرثمة من قتله وأن طاهر بن الحسين أبلى في طاعته ما أبلى. حتى إذا وطأ الأمر أخرج من ذلك كله، وصير في زاوية من الأرض بالرقة قد حظرت عليه الأموال حتى ضعف أمره فشغب عليه جنده، فلما تحقق ذلك عند المأمون، أمر بالرحيل من مرو إلى بغداد^(٥١٩).

ولما وصل المأمون إلى النهروان وإفاء طاهر بن الحسين بناءً على طلبه وذلك في صفر من عام ٢٠٤هـ. وفي سنة ٢٠٥هـ. ولى المأمون طاهر بن الحسين مدينة السلام إلى أقصى عمل المشرق (خراسان والمشرق)^(٥٢٠) وفي هذه السنة ورد عبد الله بن طاهر بن الحسين ببغداد منصرفاً من الرقة، وكان أبوه طاهر قد استخلفه عليها، وأمره بقتال نصر بن شيبث وقدم يحيى بن معاذ فولاه المأمون الجزيرة^(٥٢١).

ازدادت قوة الثائرين، واشترى نصر مدينة بيت بالس، وجمع جيشه وانحدر نحو النهر القريب من الرقة والمسمى (الهني) وهزم عيسى بن أبي خالد وقتله (الظاهر أنه لم يقتله)، وكان عيسى بن محمد بن أبي خالد قد ولاه المأمون أرمينية وأذربيجان ومحاربة بابك سنة ٢٠٥هـ^(٥٢٢) فأرسل المأمون شبيباً

(شبيب البلخي الذي هزمه نصر)^(٥٣٣) مع سبعة آلاف رجل من النخبة الممتازة، لقتال نصر، فرأسل نصر المأمون وأبدى له الطاعة لكن المأمون أصر على أن يطاء نصر بساطه (أي أصر على حضوره لديه) وصاح نصر حين بلغه ذلك بالخیل صيحة فجالت ثم قال: (ويلي عليه! هو لم يقو على أربعمئة ضفدع تحت جناحه - يعني الزط - ليقوى على حلبة العرب)^(٥٣٤).

وكانت صيحة نصر تعني العودة إلى القتال. والزط هو قوم من اخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاشوا فيها، وأفسدوا البلاد وهم المعروفون بالنور، وأصلهم من هنود آسيا^(٥٣٥).

قسم نصر جيشه، ومنع المؤن عن شبيب والخراسانية وحين أنهك الجوع هؤلاء اندفعوا إلى القتال فأنهزم نصر بهم معه، ثم تبين أن هذه الهزيمة كانت خديعة من نصر، إذ عاد فأرشد عليهم حين اطمأنوا فأخذهم على حين غرة وهزمهم شر هزيمة وعاد شبيب مع فلوله إلى بغداد مخزياً وقتل من الخراسانية أكثر من ثلاثة آلاف كما أوقع نصر باليمانية الذين كانوا في منبج، وأجتاح القرى الواقعة على نهر الساجور^(٥٣٦) ونهبها ثم مات يحيى بن معاذ سنة ٢٠٦ هـ واستخلف ابنه^(٥٣٧).

حين علم المأمون بما فعله نصر بن شبيب، أرسل عبد الله بن طاهر بعد أن وعده بكل خير، ومعه عشرون ألفاً إلى الرقة فخضع له جميع رؤساء الخراسانية، وراح عبد الله يطارد نصراً ولكن هذا كان ينتقل من مكان إلى آخر ثم هاجم عبد الله بالأسا وأحتل قلعة نصر التي كانت فيها مؤنه وأسرها ثلاثمئة رجل أرسلهم إلى سجن الرافقة ثم جاء عبد الله إلى سروج، وعانت الجزيرة كلها من أنواع الاضطهاد ومن الطرفين (عبد الله بن طاهر ونصر بن شبيب) وأرغموا على حصاد الحبوب قبل نضجها لتموينها، وكانت المحاصيل تتعرض للحرق أيضاً^(٥٣٨).

وكان طاهر بن الحسين كتب إلى ابنه عبد الله وهو في الرقة ذلك الكتاب المشهور الذي جمع فيه كل ما يحتاج إليه الأمراء في الأدب والسياسة والحث على الكلام والخلق ومحاسن الشيم، مما لا يستغني عنه أحد من ملك وسوقة وقد تناقل الناس هذا الكتاب وشاع أمره وبلغ المأمون خبره فدعى به وقرئ عليه، فقال: ما أبقى أبو الطيب (يعني طاهر بن الحسين) شيئاً من أمر الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكم وأوصى به، وأمر فكتب به إلى جميع العمال والنواحي (الطبري).

واخيراً تمكن عبد الله بن طاهر أن يتقب تحت سور بالس وأن يحتلها ويقبض على بعض الثائرين ويرسلهم إلى بغداد وحين علم بذلك عثمان بن ثمامة الذي كان يسيطر على قنسرين وسوريا المجوفة وحمص وقيليقية، استسلم لعبد الله بن طاهر الذي أحسن استقباله^(٥٣٩).

تهيا عبد الله لحصار كيسوم حصن نصر، وبنى بيوتاً للاشتاء، ونصب منجنيقات تقذف حجارة يزن الواحد منها حمل حمار، وكان لكيسوم خمسة أسوار وخندق وكانت الحجارة في البدء تقذف على الأسوار وعلى وسط المدينة ثم أمر عبد الله بقذفها على الأسوار فقط رحمة بالسكان.

نهاية نصر بن شبيب

استسلم نصر لعبد الله بن طاهر فتركه في مدينة كيسوم على أن يوافيه إلى الرقة بعد ٢٥ يوماً لكن نصراً أعاد تحصين مدينة كيسوم وعاد إلى العيصان فرجع عبد الله إلى حصار كيسوم مرة ثانية، وتعرض الأهالي من جديد إلى الاضطهاد كي يموتوا المعسكر. واخيراً استسلم نصر فهدم عبد الله أسوار كيسوم وأوكل نصراً وصحبه من جديد إلى حرس قادوهم على البغال إلى بغداد، وكان هذا عام ٢٠٩ هـ^(٥٤٠).

استمرت ثورة نصر في الجزيرة أربعة عشر عاماً ١٩٦-٢٠٩ هـ^(٥٤١) وكانت مدة حصار عبد الله بن طاهر لنصر بن شبيب ومحاربه خمس سنين ٢٠٥-٢٠٩ هـ^(٥٤٢) ودخل نصر بن شبيب بغداد سنة ٢١٠ هـ^(٥٤٣).

أورد اليعقوبي: تفصيلات هامة عن محادثات نصر بن شبيب مع عبد الله بن طاهر بن الحسين^(٥٣٤) وفي الديارات تفصيلات عن الأيام الأخيرة في ثورة نصر بن شبيب وموقفه مع عبد الله بن طاهر، ومحاصرة عبد الله، ثم هرب نصر، ثم استثنائه وتوجيهه مع محمد بن الحسن بن مصعب إلى حضرة المأمون. قال: وكان نصر قد كبر (في السن) فلما رآه المأمون وغلما من له يحملانه على السرج قال له المأمون: نصر يحمله اثنان! فقال نصر: نعم يا أمير المؤمنين! ولا ينزله إلا مائتان^(٥٣٥).

ذكر الجاحظ أن نصراً كان مصاباً بالنقرس مثله مثل هرثمة بن أعين وأن مثلهما يكون أسوأ حالاً إذا تكلف المشي، من الأعرج^(٥٣٦)، وأنهما كانا من الرؤساء والمحاربين الذين كان يمنهم (داؤهم النقرس) من المشي ولكنهم كانوا على ظهور الخيل أمثال العقبان^(٥٣٧).

مما يجدر ذكره هنا أن نصر بن شبيب لم يكن يريد تغيير حكم العباسيين ولم يقبل أن يبايع أحداً رغم أنه عرض عليه ذلك فقال عن العلويين (أوالي بني السوداوات؟ إذن كان يقول من واليته منهم أنه خلقتي وأنه يرزقني) قال: فبعض بني أمية؟ فقال (أوالي المدبر! أن المدبر لا يقبل أبداً، ولو سلم رجل على مدبر لأعداه أدباره) قال فتني أي الاحماس (يعني أي فرع من قریش) رأي الأمير؟ قال: (في بني العباس، وإنما محاربتني إياهم محاربة عن العرب لأن بني العباس يقدمون عليهم (أي على العرب) العجم^(٥٣٨)).

حاول ميخائيل أن يطعن في نصر وثورته ویتهمه باستغلال المسيحيين وغير ذلك، لكنه عاد بعدئذ ليناقض نفسه ويؤكد بصراحة أن نصراً كان يحب المسيحيين، وكان يزيد في ضريبة من يخرج عن دينه من المسيحيين ولا يرحمه، وأنه كان يرى أن كل إنسان حر في اختيار عقيدته، كما كان يعاقب من يفتصب أية امرأة بقطع رأسه حتى لو كان من أصحابه كما يذكر أن كاتب نصر كان مسيحياً^(٥٣٩).

ويقول أيضاً أن نصر كتب رسالة إلى المطران امانويل كما لو أنه يريد الانضمام إلى الروم فأرسل إليه الإمبراطور ميخائيل السفراء إلى كيسوم. وكان نصر حينئذ في سروج، لكن أصحابه خوفوه من غضب الله، فأرسل إلى السفراء من قتلهم، وذكر أن طاهر بن الحسين بنى سورا بين الرقة والرافقة وتحصن^(٥٤٠) ولا شك أن في تاريخ ميخائيل تحاملاً كثيراً وأنه مع ذلك مصدر الكثير من الأخبار عنه.

كان نصر بن شبيب يظفر حين ينقض على أعدائه على حين غرة ثم بفلت من بين أيديهم أو حين يهاجمهم في العراء أما حين يكون محاصراً فإنه لا ينجح لأنه لا يملك العدة اللازمة لانجاح الحصار، وكذلك حين يكون محاصراً لأنه يقاسي من الجوع والشدة. وقد استطاع زفر بن الحارث من قبل أن يقاوم عبد الملك بن مروان وجيشه لأنه لم يسمح لنفسه أن يقع في الحصار بل دفع عبد الملك إلى معركة في العراء.

ومما يذكر أن المأمون لم يبد أي تساهل مع نصر بن شبيب العربي القح، مما اعتاد الخلفاء العباسيون قبل المأمون وبعده أن يبده مع العصاة من غير العرب عادة.

حفظت الملحمة الرومية ثورة نصر بن شبيب هذه لأن منطقتها كانت منطقة البطل الرومي (وهي إقليم سميساط). ويشير مخطوط الأسكوريال عن هذه الملحمة الرومية أن أم الأمير ذكرت ما يساورها من الخوف من القيسية على الرها. كما تذكر الملحمة منصوراً وتصوره على أنه صعلوك خطر، كما تذكر صعلوكاً آخر من أعداء ديجينيس هو عنقولاس ومن المعروف أن نصر بن شبيب كان رأس القيسية وأنه حاصر الرها كما تقدم ذكره. أما منصور فقد ذكر ميخائيل أنه أسم

نصر بن شبت. أما عنقولاس فيظهر أنه أسم لقبيلة عنقولا التي ذكرها ميخائيل أكثر من مرة ولعلها قبيلة عقيل وهي قبيلة نصر بن شبت^(٥٤١).

٢- المأمون في الثغور ووفاته

بعد ان تخففت الدولة من أعباء الفتن تأهب المأمون لغزو بلاد الروم وشرع في جمع قطعان الإبل فانتصبت الكوارث على اصحاب تلك الحيوانات، والحق المأمون كثيرا من الضرر بالناس، فصاروا جميعهم يلعنونه، وجعل ابنه العباس امر جباية الضرائب في البلاد منوطا بولاتها، ويقدر ما يزيد الوالي في جبايته تزدد مقدرته على ان يفعل ما يريد (ميخائيل ٧٥٣). وشخص المأمون في آخر المحرم سنة ٢١٥هـ لغزو الروم فسلك طريق الموصل إلى منبج ثم دابق فأنطاكية فالمصيصة وخرج منها إلى طرسوس فدخل بلاد الروم في جمادى الأول ودخل العباس بن المأمون من ملطية بينما دخل المأمون من درب قيليقية فوقعت المصادمات في كبادوكيا وخاصة في البند المتاخم لقيليقية حيث تكثر الكهوف الأرضية التي كانت ملجأ لأهالي الإقليم ويسمىها العرب (مطامير) واستسلمت الحصون الرومية الضعيفة وأولها ماجدة في إقليم المطامير ثم فتح المأمون حصن قرة (ولعله حصن قورن) وكان افتتاحه عنوة ووجه أشناس إلى حصن سندس ووجه عجيفا وجعفر الخياط إلى حصن سنان قرب هرقله ثم ووجه الأفشين إلى مصر للقضاء على فتنتها ثم شخص المأمون بعد خروجه إلى دمشق. وفي السنة التالية ٢١٦هـ كرّ المأمون إلى أرض الروم لأن ملك الروم تيوفيل قتل ألفا وستمائة من أهل طرسوس والمصيصة أو لأن تيوفيل كتب للمأمون كتابا بدأ فيه بنفسه وكان دخوله في جمادى الأول وبقي فيها إلى النصف من شعبان فوافاه رسل تيوفيل بأذنه ووجه بخمسمائة أسير من المسلمين إليه، وخرج إليه أهل انتغوا وأهل هرقله على صلح ووجه أخاه ابا أسحق المعتصم فافتتح ثلاثين حصناً كيسوم ومطمورة. ووجه يحيى بن أكتم من طوانه. فأغار وقتل وحرق ورجع. ثم خرج المأمون إلى كيسوم فأقام بها يومين أو ثلاثة ثم ارتحل إلى دمشق فشخص منها إلى مصر في ذي الحجة ودخل المأمون مصرًا في المحرم سنة ٢١٧هـ ثم انصرف إلى الشام بعد أن بقي في مصر تسعة وأربعين يوماً وفي هذه السنة دخل المأمون أرض الروم فأناخ على لؤلؤة مائة يوم ثم رحل عنها وخلف عليها عجيفاً فخذعه أهلها وأسروه وبقي أسيراً ثمانية أيام ثم أخرجوه واستأمنوا إليه. وسار المأمون إلى سلعوس (حصن في الثغور وراء طرسوس) فأقام بها وقتاً ثم في سنة ٢١٦هـ شخص المأمون من سلعوس إلى الرقة وأمضى فيها الصيف وفيها أمر بتفريغ الرافقة لينزلها حشمه فضح من ذلك أهلها فأعفاهم. وكتب إلى إسحاق بن إبراهيم في امتحان القضاة والمحدثين وأمر بأشخاص جماعة منهم إليه إلى الرقة، وحول المأمون وهو بالرقة قبر عبد الملك بن صالح، ذلك ان عبد الملك كان والياً للأمين وحلف ان لا يعطي المأمون طاعة فمات قبل الأمين وتولى المأمون فلما خرج المأمون إلى انغزة ووجد جثة عبد الملك ابن صالح في دار الأمارة فأرسل إلى ابن عبد الملك وقال له: حول أباك من داري فتبشيت عظامه وحول. ثم جدد المأمون مسيره إلى الحدود البيزنطية فأصابه الحمى في البندنون وتوفي ودفن في طرسوس وذلك سنة ٢١٨هـ في ١٨ رجب^(٥٤٢). تولى الجزيرة في عهد المأمون خزيمة بن خازم وكان خزيمة مثل أبيه خازم من أوائل قادة العباسيين^(٥٤٣)، وهو الذي جاء بجعفر بن موسى الهادي لدى وفاة الخليفة الهادي وهدده حتى تنازل عن البيعة ويابح الرشيد^(٥٤٤) تولى الشرطة عدة مرات ووظائف أخرى^(٥٤٥) كان في الفتنة مع الأمين ثم انضم إلى المأمون ويظهر أنه كان من المعمرين إذ كان بين القواد العباسيين عام ١٣٠هـ^(٥٤٦) وتوفي عام ٢٠٣هـ^(٥٤٧) وعقد الرشيد لولده القاسم بن الرشيد على الجزيرة والشام عام ١٨٦هـ فأقر خزيمة بن خازم على الجزيرة وعزله المأمون سنة ١٩٨هـ وعين طاهر بن حسين بن مصعب (١٥٩-٢٠٧هـ) على الجزيرة والشام (١٩٨-٢٠٥هـ) وعزله المأمون سنة ٢٠٥هـ وولاه خراسان^(٥٤٨).

وفاة المأمون في الرقة

غزا المأمون الروم سنة ٢١٨هـ وفتح خمسة عشر حصناً وانصرف من غزاته فنزل على عين البندنون المعروفة بالقشيرة ومعناها (مد رجلتك) فأقام هناك حتى عاد رسله من الحصون، وأعجبه برد ماء عين البندنون وصفاءه وبياضه وكثرة الخضرة ثم وضع له جسر فوق العين جلس عليه ثم انتابته نوبة برد شديد فتحول إلى المضرب (المضرب أي الفسطاط العظيم) وأشعلت النيران حوله وهو يصيح البرد البرد وغشي عليه ثم أفاق من غشيته وفتح عينيه من رقده وسأل عن اسم الموضع بالعربية ف قيل (الرقة). وكان فيما عمل من مولد المأمون (تنجيم) أنه يموت بالموضع المعروف بالرقة، وكان المأمون كثيراً ما يحيد عن المقام بمدينة الرقة خوفاً من الموت، فلما سمع هذا من الروم علم أنه الموضع الذي وعد فيه وأنه فيه وفاته وفيها مات ١٧ رجب سنة ٢١٨هـ وحمل إلى طرسوس شدفن فيها فهو لم يمّ في مدينة الرقة المعروفة ولكنه مات في بلدة رومية أسماها بالعربية (الرقة) أيضاً^(٥٩).

٣- المحنة التي أصطنعها المأمون، واستمرت حتى خلافة المتوكل، والتي أدارها المأمون من

الرقة وليس من بغداد

يراد بالمحنة هنا محنة أحمد بن حنبل والمسلمين أي البلاء الذي تعرضوا له. ونعرض هنا للمحنة لعلاقة الرقة بها إذ جهر المأمون بخلق القرآن في الرقة إذ نزلها عام ٢١٧هـ وهو في طريقه إلى غزو الروم (تاريخ العظمي ٢٤٩) وأليها شخص الفقهاء.

اعتقد المأمون عن إيمان وربما بتأثير المعتزلة أيضاً إلى حد ما، أن القرآن مخلوق، وذهب بعيداً في الانتصار، لهذه الفكرة لأنها في رأيه متصلة بالتوحيد وانكارها انكار للتوحيد.

كتب الكتاب الأول بهذا الصدد إلى عامله على بغداد إسحاق بن إبراهيم الخزاعي - وهو ابن عم طاهر بن الحسين - والكتاب يطلب المأمون فيه امتحان القضاة والمحدثين في موضوع خلق القرآن. وكان هذا الكتاب في شهر ربيع الأول ٢١٨هـ، قبل أن يخرج المأمون للمرة الأخيرة إلى غزو الروم وقبل وفاته بنحو أربعة أشهر. ثم كتب كتاباً ثانياً إلى إسحاق في إشخاص سبعة نفر من وجوه المحدثين ببغداد حتى يمتحنهم بنفسه، وقد أقرؤا جميعاً بأن القرآن مخلوق، بفضل ما استخدمه المأمون معهم من وسائل الضغط، وحينئذ لم يتردد المأمون في أن يكتب كتاباً ثالثاً لإسحاق كي يحضر عدداً أكبر من الفقهاء والحكام والمحدثين بما فيهم أحمد بن حنبل، ففعل إسحاق ذلك، فكان منهم من أقر بخلق القرآن ومنهم من رفض. فكتب إسحاق مقالة كل منهم وبعث بها إلى المأمون. ولم يلبث أن ورد إلى إسحاق الكتاب الرابع من المأمون وهو يشنع على الرافضين ويشهر بهم واحداً واحداً. وحين قرأ هذا الكتاب على العلماء أقرؤا جميعاً بخلق القرآن ما عدا أحمد بن حنبل وثلاثة آخرين، فقيدهم إسحاق ووضعهم في السجن. ثم أقر اثنين منهم فأطلقا من السجن. وبقي أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح، فورد كتاب بإشخاصهما إلى طرسوس (ليقيماني فيها إلى أن يفرغ المأمون من غزو الروم) فأشخصا. فلما وصلا إلى أدنا وإفاهما نعي المأمون، فأعيدا إلى الرقة ثم إلى إسحاق بن إبراهيم في بغداد^(٥٠) وأوصى المأمون قبل موته أخاه المعتصم بمواصلة السعي لحمل الفقهاء والعلماء على الإقرار بخلق القرآن. وخضع أحمد بن حنبل لامتحان طويل وتعذيب شديد فلم يغير رأيه.

استمرت هذه المحنة ستة عشرة سنة ٢١٨-٢٣٤هـ إذ أمر المتوكل حينئذ بترك الجدل في

هذا الأمر وأمر المحدثين بإظهار السنة.

وهكذا اجتهد المأمون في إقامة دين الله في الأشهر الأخيرة من حياته سنة ٢١٨هـ فلم يهتد إلى الطريق الصحيح وعاجلته النية وهو يجاهد الروم بالسلاح، ويجاهد أهل السنة لا بالعقل

وحده كما كان ينتظر منه، بل بالتعذيب والاضطهاد والسجن وسيف السلطان^(٥٥١) وهناك رأي مخالف لما تقدم يرى ان القضية لم تكن قضية دينية بل قضية سياسية، وأن إثارة المأمون لها لم يكن بدافع من المعتزلة، بل بدافع شخصي للتخلص من نفوذ بعض رجال الدين ذوي النفوذ الواسع عند العامة مثل أبي مسهر وأحمد بن حنبل وممن كان على هذا الرأي 'د. محمد ارشيد العقيلي' اذ كتب يقول ما خلاصته: كانت بداية المحنة هي مسألة 'خلق القرآن' وتقجير المحنة بدأ في دمشق في أعقاب زيارة المأمون لها بين عامي ٢١٥ و ٢١٧هـ. فالمأمون أعلن بدء الامتحان في خلق القرآن بعد تحركه من دمشق لحرب الروم وهو في قمة حربه لهم، فتصبح المعركة معركتين: معركة مع الروم في الخارج ومعركة خلق القرآن في الداخل انطلقت من دمشق عام ٢١٧هـ مع محدثها المعروف أبي مسهر الدمشقي، فامتحن وسبق إلى السجن في بغداد. ثم أعقب ذلك بامتحان رؤساء الفقهاء ببغداد ومصر. والجدير بالذكر أن دمشق لم تحفل بالمأمون كثيراً، كما أن عالمها أبا مسهر كان يؤازر السفيناني (أي العميطر) الذي ثار على الحكم العباسي عام ١٩٥هـ (في عهد الأمين ١٩٦ - ١٩٨هـ) وطرد العامل العباسي منها. وكان المأمون على علم بذلك وقد ذكر به أبا مسهر، كما أن المأمون يدرك سلطة هذا العالم وتأثيره على العامة في دمشق وسلطة أمثاله من رؤساء الفقهاء والمحدثين على العامة في بغداد، وعلى رأسهم أحمد بن حنبل الذي كانت ميوله غير عباسية، ورأى أن امتحانهم بخلق القرآن يقضي على نفوذهم عند العامة بسلاح ديني وهو أقوى من أي سلاح سياسي.

والحقيقة أنه لم يكن بمقدور المأمون أن يقضي بزج أبي مسهر في السجن حتى الموت لمؤازرته السفيناني التأثير قبل أكثر من عشرين عاماً بمسوغ سياسي عفا عليه الزمن، وكذلك فإن الخليفة الواثق لم يكن يستطيع أن يدين أحمد بن نصر الخزاعي بالتآمر عليه، لكنه من السهل عليه أن يقتله بسبب ديني هو خلق القرآن، وهو عذر مقنع عند العامة، وكذلك الأمر بالنسبة لأحمد بن حنبل. سار المعتصم محمد بن هارون (٢١٨ - ٢٢٧هـ) ثم الواثق بالله بن المعتصم (٢٢٧ - ٢٣٢هـ) على سياسة المأمون بعد وفاته بناء على الوصية حفاظاً على أمن الدولة وسلامة الحكم ودوامه. أما الخليفة المتوكل فإن ظروف حكمه حتمت عليه وقف المحنة، ورفع اليد عن أصحاب الحديث والسنة وعن تيارهم عند العامة لتضييق الخناق على المؤسسة العسكرية التركية المناهضة له، لكنه لم يرفع المحنة كلياً عن أحمد بن حنبل أعظم رموز هذه المحنة، رغم أنه إمام أهل السنة، بل ألزمه بيته، وأن لا يخرج إلى جامع أو جماعة بحجة أنه كان قد أخفى في بيته علويين يحيكون مؤامرة ضد المتوكل. وهي ذريعة مختلفة لا دليل عليها، والحقيقة أن أحمد بن حنبل بنظر المأمون فالمعتصم فالواثق يشكل سلطة داخل سلطة الدولة، وإذا تركت تتنامى فسوف تشكل دولة داخل الدولة.

وهكذا يتبين أن 'محنة خلق القرآن' كانت قضية سياسية مأمونية عباسية أملت لها الظروف وفرضتها مصلحة الدولة العباسية في البقاء والدوام. ورغم صلة المأمون بالمعتزلة المناصرين لقضية خلق القرآن فإن المأمون اتخذ قراره لمصلحته الخاصة ومصلحة الدولة العباسية لكبح المعارضة الدينية في دمشق وبغداد ممثلة بأهل الجماعة والسنة وبالقاعدة العريضة في العامة^(٥٥٢).

وجدير بالذكر أن هارون الرشيد والد المأمون، وكان أكثر منه تديناً وأوسع سلطة، قد عاقب القائل بخلق القرآن بالقتل. قال بعضهم: دخلت على الرشيد وبين يديه رجل مضروب العنق والسياف يمسح سيفه في قفا الرجل المقتول، فقال الرشيد: قتلته لأنه قال: القرآن مخلوق، فقتلته على ذلك قرية إلى الله عز وجل^(٥٥٣) فهل لم يطلع المأمون على ذلك؟ أم تغير الدين الإسلامي في الفترة بين خلافة الرشيد وخلافة ابنه المأمون؟ أم أن السياسة صارت توجه الدين في زمن المأمون؟

وكان الفضل بن عياض (أحد الزهاد الكبار) يقول: ليس موت أحد أعز علينا من موت الرشيد، لما نخوف بعده من الحوادث، وإني لأدعو الله أن يزيد في عمره من عمري. قالوا: فلما مات الرشيد وظهرت تلك الفتن والحوادث والاختلافات، وظهر القول بخلق القرآن، عرفنا ما كان نخوف الفضل من ذلك^(٥٥٤). وحتى الأمين كان يرفض القول بخلق القرآن الذي اعتقد به المعتزلة^(٥٥٥).

ويتلخص قضية خلق القرآن في أنه إذا كان القرآن غير مخلوق (أي قديم) وهو كلام الله فإنه يكون مع الله غير المخلوق اثنين غير مخلوقين والأيمان بهما معاً هو من باب الشرك بالله ويكون الإسلام كالمسيحية تماماً لأن عيسى بن مريم في القرآن كلمة الله أي أنه غير مخلوق.

على أن هذا الأمر لم يكن يخطر ببال المسلم العادي، وحتى الآن لا يسأل المسلم نفسه هذا السؤال فهو من باب السفسطة ومن قبيل شيء لا ينفع العلم به ولا يضر الجهل به ولكنه موضوع سياسي فإن الدين وزعماء كانت لهم الكلمة الأولى في الحياة وقيل السلطة السياسية حتى أن المنصور ومن بعده المأمون اشتها أن يعقدا مجلساً يتحدثان به الحديث مثل المحدثين، وفشلا في ذلك. وقد تقدم أن زوجة الرشيد حين رأت الزحام في الرقة وسألت عن السبب قيل لها لرؤية عبد الله بن المبارك (عالم فقيه ومحدث كان في طريقته إلى الجهاد في الثغور). فقالت هذا هو والله الموكب، وليس الموكب (مثل موكب الرشيد) الذي تعمل على صناعته رجال الشرطة.

وجه الوثائق عام ٢٢١هـ اثنين بين لجنة فداء الأسرى كي يمتحن كافة الأسرى علماء كانوا أم جهلاء، فكلما مر مسلم من الأسرى امتحنه فمن قال بخلق القرآن وأن الله تعالى لا يرى في الآخرة، نودي به، وأعطى دينارين، ومن أبي ترك في أيدي الروم. وذكر المسعودي أن جماعة من الأسرى رفضوا القول بخلق القرآن واختاروا العودة إلى الأراضي البيزنطية على الخضوع لتلك المحنة، وبلغ الأمر أن هذه اللجنة اقتصت ثلاثين رجلاً كانوا مسلمين ثم ارتدوا عن الإسلام بينما رفضت مفاداة مسلمين لم يقولوا بخلق القرآن^(٥٥٦). علماً أن المأمون أوصى بحمل الفقهاء والعلماء والمحدثين فقط (وليس العامة) على الإقرار بخلق القرآن.

علق مؤلف (العلاقات العباسية البيزنطية) على ذلك فقال: ليس مشروعا استغلال أوضاع الأسرى السيئة، لقرض موقف سياسي معين عليهم، لإنقاذ أنفسهم من الأسر، أو أن يقضوا في الأسر أمداً غير محدود.

يرى فازيليف أن التشابه بين الحركة الايقونية والحركة العقلية في الإسلام في القرنين الثامن والتاسع واضح جلي، وعلى ذلك فإن دراسة هاتين الحركتين من ناحية تأثير أحدهما على الأخرى قد يؤدي إلى نتائج عظيمة الأهمية لتاريخ الإمبراطوريتين الثقافي^(٥٥٦).

٧- تسرب الأتراك إلى الجيش

توفي المأمون، وكان قد أوصى بالخلافة لأخيه المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ) لمحبه الشديدة له ولم يوص بها لأبنه العباس.

وفي الرقة القديمة قصر للمعتصم وهو على شكل مستطيل من اللبن والاجر ومكسو بملاط أبيض مع اتحراف قليل في الجهة الجنوبية، وتقدر مقاييسه بـ ١٦٨م طولاً و٧٤م عرضاً (وقائع الندوة الدولية ص ٤٥).

وقد حقق المعتصم في عهده ما يلي:

- ١- حافظ على التشديد على من لم يقر بأن القرآن مخلوق تنفيذاً لوصية أخيه.
- ٢- زاد في عهده الاعتماد على الترك في الجيش، وكانوا موجودين في عهد أخيه من قبل ولكنهم كانوا أقلية، وبدأ نفوذ الفرس والأرمن يتلاشى تدريجياً حتى انتهى الأمر في عهد المقتدر إلى غلبة الأتراك على الخليفة وصار كل شيء بيدهم.

٣- قضى على حركة الزط في جنوب العراق.

٤- جعل له حرساً أكثره من المغاربة (أي الخوف من مصر وسماهم المغاربة) وجزء من الترك (من سمرقند وأشروسنة وفرعانة وسماهم الفراعنة) وفرق من الترك البربر والصقالبة والسودان. وألبس حراسه أعلى الملابس واضطر فيما بعد إلى بناء مدينة سامراء والانتقال إليها مع جيشه.

٥- اخمد خروج محمد بن القاسم بالطالقان من أرض خراسان.

٦- ثارت ثورة بابك الخرمي باذريجان فقضى عليها بقيادة الافشين، واستمرت الثورة ومقاومتها من سنة ٢٢٠هـ حتى أوائل السنة ٢٢٢هـ.

٧- ثار ملك طبرستان (جنوب بحر قزوين ضد عبد الله طاهر وانتهى الأمر بأسره وقتله في سامراء).

٨- خرج بالرملة من نواحي فلسطين سنة ٢٢٧هـ من اطلق عليه اسم المبرقع اليماني ولم يقض على هذه الثورة إلا بعد وفاة المعتصم في عهد ابنه الواثق بالله خليفته^(٥٥٧).

بدأت خلافة المعتصم وهو في الثغر حين توفي المأمون، ثم انشغلت الدولة بحرب بابك فخف ضغطها على حدود بيزنطة، واغتمت تيوفيل ذلك فهاجم زبطرة وملطية سنة ٢٢٢هـ وقتل من أسره، وكان الافشين قد انتهى من بابك واستعد المعتصم استعداداً عظيماً وسار سنة ٢٢٤هـ وقيل سنة ٢٢٥هـ حيث عزم على مهاجمة اعظم حصن للبيزنطيين في وسط آسيا الصغرى وهو حصن عمورية ودخلت جيوش المعتصم آسيا الصغرى من كل الجهات وسبوا ثم احرقوها. وقد جاء أبو تمام إلى الرقة والمعتصم بها ومدحه بقصيدة بمناسبة فتحه عمورية سنة ٢٢٢هـ مطلعها:

السيف اصدق انباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وقد اتهم المعتصم العباس بن المأمون بالتآمر عليه وقبض عليه وانتهى الأمر بموته في السجن^(٥٥٧) ثم شك المعتصم بالافشين فاتهمه بالزندقة وانتهى أمره بالموت في السجن أيضاً، ثم اخرج وصلب واحرق بالنار وهكذا انتهى كما انتهى البرامكة والفضل بن سهل والحسن بن سهل وربما كان ذلك من الأسباب التي دفعت المعتصم أن يتخلى عن بغداد ويزيد اعتماده في الجيش على الأتراك وينقل بهم إلى سامراء. تدهورت الخلافة العباسية وانحطت هيبتها إلى الحضيض بعد ان اسقط المعتصم العرب من الديوان وشك في نوايا الفرس، فوجدت الخلافة نفسها امام استبداد الترك ووقفت موقف المتفرج من الصراع بين المتغلبين على املاكها فتبارك المنتصر منهم، فأولا الطاهريون في خراسان ثم السامانيون ثم الغزنويون في المشرق وعند اضمحلال اسرة منها تحل محلها اسرة أخرى فترث املاك السابقة في المشرق كما ترث نفوذها وسلطانها في بغداد، اما الخلافة فأنها ستنتهي فعلاً بعزل المقتدر على يد أمير الأمراء ثم بتغلب البويهيين وفرض وصايتهم على الخليفة ثم يحل محلهم السلاجقة وهكذا.

كان على ولاية الجزيرة والثغور في خلافة المعتصم ابن اخيه العباس بن المأمون الذي تولاه منذ عهد أبيه المأمون (٢١٤-٢١٨هـ)، فولى العباس نيابة عنه عيسى بن علي بن صالح الهاشمي، وكان يلقي المأمون، حين يقود الصائفة، بالرقعة ويصاحبه حتى يغزو الثغور ثم يعود إلى عمله^(٥٥٨). ومات العباس بن المأمون في السجن في منبج سنة ٢٢٣هـ^(٥٥٩). ثم ولي الرقة عنبسة بن إسحاق^(٦٠٠) ثم اشناس التركي^(٦٠١).

كان المعتصم شديد الرأي شديد القوة يحمل الف رطل ويمشي بها خطوات، وكان موصوفاً بالشجاعة وسمي المثنى من احد عشر وجهاً، فهو الثامن من ولد العباس، وثامن الخلفاء العباسيين وتولى الخلافة وعمره ثمانى عشر سنة، وكلنت خلافته ثمانى سنين وثمانية اشهر، وتوفي وله ثمان واربعون سنة وولد في شعبان وهو الشهر الثامن، وخلف ثمانية ذكور وثمانى

بنات، وغزا ثماني غزوات، وخلف ثمانية الف الف درهم^(٦٠٢) وللرواة العرب ولع ببذل الجهد على إيجاد مثل هذه المصادقات. وحين ملت المعتصم خلفه ابنه الواثق (٢٢٧-٢٣٢).
كان الواثق من افاضل الخلفاء وكان ليبيبا فصيحاً شاعرا وكان يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته. ولما ولي الخلافة احسن إلى بني عمه الطالبين وبرهم. ولم يقع في أيامه من الفتوح الكبار والحوادث المشهودة ما يؤثر^(٦٠٣).

مضى الواثق في سياسة المأمون في قضية خلق القرن. وقد قام بغيا (تركي) في عهده بحملة تأديبية كبيرة استمرت قرابة عامين ضد قيس عيلان في الجزيرة العربية بحجة أنها خرجت على السلطة وأغارت على قوافل الحجاج وغير ذلك من التهم السلطحية التي لم تحقق السلطة في اسبابها أبداً، ولا نظرت في مظالم اولئك الاعراب كي تصفهم وتمينهم على مصاعب حياتهم وتسد جوعهم بل قتلت عدداً كبيراً منهم، ولم تقبل منهم إلا الإستسلام والخضوع التام، ثم ساقتهم إلى بغداد مصنفين بالحديد والسوط ينهش ظهورهم (الطبري ١٣٠٩، البيهقي ٤٨٠٢).

واستمر الواثق يعيش في سامراء متبعاً سياسة أبيه المعتصم في الاعتماد على الاتراك وتكاثر عددهم وتولوا كثيراً من المناصب الكبرى في الدولة وبرز منهم في عهده اشناس الذي منحه الواثق لقب (سلطان) سنة ٢٢٨هـ، وألبسه وشاحين مجوهرين وتاجاً مجوهرًا، وولاه أعمال الجزيرة والشام ومصر والمغرب.

بدأ ضعف الحكومة المركزية وتخلخل الجهاز الاداري وانتشرت الرشوة والفساد بين رجال الدولة. وتولى الجزيرة في عهده عبيد الله بن عبد العزيز الفضل بن صالح الهاشمي من قبل اشناس أو من قبل الواثق بعد وفاة اشناس سنة ٢٣٠هـ^(٦٠٤) ثم ولي الواثق محمد بن صالح قنسرين وحلب والعواصم فكانت سيرته غير محمودة، وكان أحمر اشقر فلقب أسماقة لشدة حمرة. ويقال أنه اول من أظهر البرطيل بالشام ووقع عليه هذا الاسم، وكان لا يعرف قبل ذلك إلا الرشوة على غير اكراه. وقد مات سنة ٢٣١هـ^(٦٠٥).

ثم تولى احمد بن سعيد بن قتيبة الباهلي الجزيرة والثغور والعواصم ثم خلفه نصر بن حمزة الخزاعي.

صار الأمر بيد الاتراك فلم يولوا الرياط والمثاغرة أي اهتمام، واكتسبت معركة عمورية شهرة كبيرة رغم أنها كانت مجرد غزوة وتدبير وحصول على الغنائم والسبي وليست فتحاً، ودعمت ببنزلة حصونها وانتقلت إلى الهجوم بدلا من الدفاع.

وتوقف الصراع الدموي على الحدود بين المسلمين والبيزنطيين بعد ان استمر تسعين سنة، واتفق الطرفان سنة ٢٣١هـ على تبادل الاسرى وقل اهتمام العباسيين بالبحر المتوسط وبامور الشام وانصرف اهتمامهم الاكبر إلى وسط آسيا، وكانت الحصون قد تم بناؤها وشجنت عتادا ورجالا من المرباطين، وصار بإمكانها الدفاع، وثار القيسية بدمشق وزادت ثورات العرب بعد اسقاطهم من العطاء وزادت مشاكل الاتراك. وكانت الدولة البيزنطية من ناحيتها اشد رغبة في التفاهم^(٦٠٦). وفي هذا العام حدثت مفاداة الاسرى بين المسلمين والبيزنطيين.

توفي الواثق سنة ٢٣٢هـ وانتهى العصر العباسي الاول وبدأ العصر العباسي الثاني حسب التقسيم المتفق عليه.

- ١- أطلس مؤنس ٢٨٦
- ٢- ن. م. ١٥١
- ٣- ن. م. ٢٨٦
- ٤- الحضارة العباسية - وليم الخازن ١٩
- ٥- العباسيون في سنوات التأسيس ٢٠٨
- ٦- الطبري ٧ / ٤٣١
- ٧- ن. م. ٧ / ٤٣٢
- ٨- ن. م. ٧ / ٤٣٥
- ٩- ن. م. ٧ / ٤٤٢
- ١٠- ن. م. ٧ / ٤٢٩
- ١١- اليعقوبي ٢ / ٣٥٥
- ١٢- الطبري ٨ / ٤٥٨
- ١٣- انساب الاشراف ٣ / ١٥١
- ١٤- ن. م. ١ / ٢٨٨
- ١٥- ابن عساكر ١ / ٥٨٧
- ١٦- جمهرة ابن حزم ٢٩١
- ١٧- الطبري ٧ / ١٣٩
- ١٨- الطبري ٧ / ٢٩٦
- ١٩- تاريخ الموصل ٦١
- ٢٠- الطبري ٧ / ٢٤٧
- ٢١- ن. م. ٧ / ٤٤٧
- ٢٢- المعارف ٤١٨، جمهرة ابن حزم ٢٩١
- ٢٣- اليعقوبي ٢ / ٣٨٩
- ٢٤- اليعقوبي ٢ / ٣٤٦-٣٦٦
- ٢٥- البيان والتبيين ٣ / ٣٦٧
- ٢٦- الطبري ٧ / ٦٢١
- ٢٧- لطف التدبير ١٧٦
- ٢٨- انساب الاشراف ١٣ / ١٩٠
- ٢٩- الطبري ٧ / ٢٩٦
- ٣٠- ن. م. ٧ / ٤٧٠
- ٣١- ن. م. ٧ / ٤٧١
- ٣٢- ن. م. ٧ / ٤٧٢
- ٣٣- ملخص عن الطبري ٧ / ٤٧٤
- ٣٤- الفتوح - ابن الأعم ٨ / ٢١٥
- ٣٥- مختصر ابن عساكر ١٥ / ١٢٥
- ٣٦- الزبيرى - نسب قريش ١٣٢، الأنساب
- ١- للبلاذري ٢٠١ / ٣، ابن حزم - جمهرة ٩٣، ابن عساكر - معجم النساء ٣٥٥
- ٢٧- البلاذري - انساب ٢٠١ / ٣
- ٣٨- ن. م. ١٠٤٣
- ٣٩- الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي - عبد الجبار معروف ٢٧
- ٤٠- ابن طباطبا
- ٤١- مختصر ابن عساكر ١٠٧ / ٦
- ٤٢- ابن الأثير ٥٤٥، البلاذري ٢٢١ / ١
- ٤٣- ابن الأثير ٣٩٥ / ٤، الطبري ٢٢١ / ٦
- ٤٤- البلاذري ١ / ٢٢٨ ونقله ياقوت
- مادة حصن منصور الطبري ٥٠٤ / ٧
- ٤٥- مختصر ابن عساكر ١٠٨ / ٦
- وورد مقتل منصور بن جعونة
- باختصار في اليعقوبي ٢٧٠ / ٢ سنة ١٤٠، الطبري ٥٠٤ / ٧
- ٤٦- البلاذري ٢٢٢
- ٤٧- ن. م. ٢٣٦
- ٤٨- العلاقات السياسية البيزنطية - موفق سالم نوري ٧٧
- ٤٩- البلاذري ٢٢٧
- ٥٠- ن. م. ٢٣٧
- ٥١- الطبري ٧ / ٤٩٧
- ٥٢- ن. م. ٧ / ٥٠٠ سنة ١٣٩
- ٥٣- اليعقوبي ١٢ / ٣٧١
- ٥٤- الطبري ٨ / ٧٨ سنة ١٣٩
- ٥٥- البلاذري - فتوح ٢١٩
- ٥٦- ن. م. ٢٢٨
- ٥٧- الطبري ٨ / ١٢٨
- ٥٨- ما تقدم مختصر عن العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق - د. وديع فتي عبد الله ٢١٩
- ٥٩- العلاقات العباسية البيزنطية - موفق سالم نوري ١٩٢
- ٦٠- الطبري ٨ / ١٥٢
- ٦١- ن. م. ١١ / ٢٣٠، وهناك روايات أخرى في خليفة ٧٤٠ / ٢
- ٦٢- هلرون الرشيد - فاروق عمر فوزي

- ٦٣- الطبري ١٠٣/٨
٦٤- الطبري ٢٠٥/٨
٧٠- ن. م. ١٦٨/٨
٧١- اليعقوبي ٣٩٥/٢
٧٢- الطبري ٢٠٥/٨
٧٣- ن. م. ٢١٣/٨
٧٤- ن. م. ٢١٠/٨
٧٥- ن. م. ٢١٣/٨
٧٦- ن. م. ٢٣٠/٨
٧٩- ن. م. ٢٣٠/٨
٨٠- ن. م. ٢٣٣/٨ سنة ١٧٠
٨١- ن. م. الجهشيار ١٣٤
٨٢- الجهشيار ١٧٨
٨٣- الجهشيار ١٣٤، الطبري ٢٣٤/٨ سنة ١٧٠
٨٤- ن. م. ١٧٨
٨٥- ن. م. ١١١
٨٦- ن. م. ٦٧
٨٨- اليعقوبي ٤٣٠/٢
٨٩- ن. م. ٤٣٠/٢
٩٢- الطبري ٢٩٤/٨
٩٣- الجهشيار ٢٥
٩٤- الطبري ٢٣٥/٨
٩٥- ن. م. ٢٣٦/٨. مرج القلعة هو في إيران حالياً.
المرتاد، يرتاد، أي ينظر ويطلب ويختار
٩٦- الطبري ٢٣٧/٨
٩٧- المسعودي ٣٢٧/٣ وفيه ان اموال محمد بن
سليمان كانت ثيفاً وخمسين الف درهم سوى
الضياع والدور والمستغلات
٩٨- الطبري ٢٣٤/٨
١٠٣- الجهشيار ٢٠٠
١٠٤- الطبري ٢٣٨/٨
١٠٥- الجهشيار ١٤٥
١٠٧- الطبري ٢٣٨/٨
١٠٨- ن. م. ٢٣٩/٨. قردي هي جزيرة ابن عمر كما
قال ابن حوقل. وهي على الحدود السورية
العراقية عند نهر دجلة (الحوليات الاثرية ٥٠/١٩
في مقال عن حضارة الجزيرة لعبد القادر
الريحاوي
١٠٩- الطبري ٢٣٩/٨
١١٠- ن. م. ٢٣٩/٨
١١٨- اليعقوبي ٤٠٨/٢
- ١٢٢- العبر ٢٩٠/١
١٢٣- الطبري ١٦٣/٨ ، ١٤٨
١٢٤- انساب الاشراف ١٠٦/٣
١٢٥- الطبري ٢٤١/٨
١٣٥- ن. م. ٤١٠
١٣٦- الجهشيار ١٩٤
١٣٧- مقاتل الطالبين ٣٣٥ بتصريف
١٣٨- الطبري ٢٧١/٨ ابن خلكان ١٧٣/٢
١٣٩- مقاتل الطالبين ٣٢٨ - سورديل ١٦٦
١٤٠- الطبري ٢٥٢/٨ سنة ١٧٦
١٤٣- الطبري ٢٥١/٨
الطبري ٢٥٧/٨، وورد معظمه في الجهشيار ١٤٦.
وبستان جعفر هو في بغداد كما هو واضح من
خبر الجهشيار وخبر في الطبري ٣٣٨/٨
(٤٩٩- ٥٧١) وابسن الاثير (٥٥٥-٦٣٠) أي أن
ابن عساكر متقدم في الزمن وقد نقل عنه ابن
الاثير في مواضع أخرى.
١٤٤- كل ما تقدم عن أبي الهيثم من ابن الاثير
١٢٧/٦ باختصار شديد وهو حتماً ينقل عن ابن
عساكر (جزء عاصم - عايد) ترجمة عامر بن
عمارة .. أبي الهيثم ص ٣٩٣ وابسن
عساكر
١٤٥- الطبري ٢٥١/٨ سنة ١٧٦ صالح بن علي بن
عبد الله بن عباس هو عم المنصور وأمير الشاه
توفي عام ١٥١ او ١٥٢ (العبر ١٥١/١) والعبارة
هنا مشوشة وغير دقيقة .
١٤٧- المسكوكات وكتابة التاريخ - ناهض عبد
الرزاق نقلاً عن المقرئ
١٤٨- الطبري ٢٥٥
١٤٩- الجهشيار ١٤٦
١٥٠- الطبري ٢٥٥/٨
١٥٢- ن. م. ٢٥٦/٨
١٥٣- تاريخ العظمي ٢٢٣
١٥٤- ما تقدم عن الفضل بن يحيى في خراسان
عن
١٥٥- الجهشيار ١٤٧
١٥٦- الطبري ٢٥٩/٨
١٥٧- الاغانى ٩٤/١٢. والشماسية: محله كانت
قرية من بغداد وكان فيها منزل للفضل بن
يحيى البرمكي ومنازل البرامكة ١٥٨- ابن
خلكان ٢٤/٦

- ١١٩- المسكوكات، ناهض عبد الرزاق ٩٥
الجزيرة (تاريخ الزمان لابن العبري ١٢) ولكنه جعل
الخروج عام ٧٨٩م أي عام ١٧٢- ١٧٣ هـ)
١٦٠- تاريخ خليفة ٧٢١/٢ تاريخ الموصل ٢٨١
١٦١- ابن خلكان ٢٢٧/٦ وبعضه في اليعقوبي ٤١٠/٢ .
وعبد الملك بن صالح كان يتولى الجزيرة وبعض
الشام كما في اليعقوبي ٤١٠/٢
١٦٢- ابن الاثير ١٤١/٦
١٦٣- الاغانى ٩٥/١٢
١٦٤- تاريخ الموصل ٢٨٢
١٦٦- الاغانى ٩٦/١٢
١٦٧- الطبري ٢٦١/٨ ، تاريخ الموصل ٢٨٢
١٦٨- ابن سعد ٤٢٦/٥
١٦٩- الطبري ١٥١/٨ ، ٢٦١
١٧١- الطبري ٢٦٦/٨ ، ٢٤٧
١٧٢- الطبري ٢٦٦/٨
١٧٣- ن . م . ٢٦٦ / ٨
١٧٤- الجهشيارى ١٦١
١٧٥- الطبري ٢٦٥/٨
١٧٦- ن . م . ٢٦٦ / ٨
١٧٧- الجهشيارى ١٧٩
١٧٨- ن . م . ١٤٥١٧٤
١٧٩- ن . م . ١٤٥
١٨٠- ابن الاثير ١٥٠ / ٦
١٨١- الجهشيارى ١٨٠ ، كثر عليه عنده أي كثر
الوشايات ضده أنه اقتطع مالا كثيرا من مال البلد
كما في الجهشيارى ١٧٩ ، ٢١٩ ، وهو معنى مولد
الطرخان: الرئيس الشريف وهي لغة خرا سانية
١٨٢- تاريخ الموصل ٢٧٩ / ٢٨٠ / ٢٣٨ / ٢٨٤
١٨٣- ن . م . ٢٨٧ سنة ١٨٠ ، وقد اختصر هذا الموضوع
اختصاراً شديداً في ابن الاثير ٦ / ١٥٢ اما الطبري
فقد اغفل ذكر العطاء بن سفيان تماماً
١٨٤- الطبري ٢٣٦ / ٨
١٨٥- الطبري ١٧ / ٩
١٨٦- ن . م . ١٧ / ٩
١٨٧- المنتظم ٥٥ / ١١
١٨٨- طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٤٦ ، الاخبار
الطوال ٣٩٠
١٨٩- الطبري ٢١٧ / ٨
١٩٠- ن . م . ٢٦٢ / ٨
١٩١- الجهشيارى ١٦٢
١٥٨- ابن خلكان ٢٤١/٦
١٥٩- الطبري ٢٥٦/٨ . وخزيمة كان والياً على
١٩٣- ميخائيل ١/٣ البغدادي ١٢٤/١٢
١٩٤- الطبري ٢٦٨/٨
١٩٥- ن . م . ٢٦٩/٨
١٩٦- ن . م . ٢٦٩/٨
١٩٧- ن . م . ٢٧٥/٨
١٩٨- اليعقوبي ٤١٥/٢
١٩٩- الجهشيارى ١٦٥
٢٠٠- ابن الاثير ١٦١/٦
٢٠١- الجهشيارى ١٧٩
٢٠٢- ن . م . ١٤٨ . قصر الخلد في مدينة السلام
٢٠٣- الطبري ٢٧٠/٨
٢٠٤- تاريخ الموصل ٢٩٥
٢٠٥- الطبري ٢٧٢/٨
٢٠٦- القساة : ارباب الضياع ، الملاكون الكبار
للأراضى
٢٠٧- اليعقوبي ٤١٥/٢
٢٠٨- الجهشيارى ١٤٧
٢٠٩- الطبري ٢٧٤/٨
٢١١- الطبري ٢٧٤/٨
٢١٢- اليعقوبي ٤٢٢
٢١٣- الطبري ٢٧٥/٨
٢١٤- ن . م . ٢٧٧/٨
٢١٥- ن . م . ٢٧٥/٨
٢١٦- اليعقوبي ٤١٥
٢١٧- الجهشيارى ١٧٥
٢١٨- اليعقوبي ٤١٦/٢
٢١٩- الطبري ٢٧٥/٨ سنة ١٨٦
٢٢٠- ن . م . ٢٨٠/٨
٢٢١- ن . م . ٢٧٨/٨
٢٢٢- ن . م . ٢٧٨/٨
٢٢٣- اليعقوبي ٤١٩/٢
٢٢٤- الجهشيارى ١٧٥
٢٢٥- اليعقوبي ٤١٦/٢
٢٢٦- الطبري ٢٧٥/٨ سنة ١٨٦
٢٢٧- المسكوكات وكتابة التاريخ - د. ناهض عبد
الرزاق ٤٢
٢٢٨- الطبري ٢٩٤/٨
٢٢٩- ن . م . ٢٩٤ ، وفي اليعقوبي ٤٢١/٢ أنه مضى
على طريق البرية .

- ٢٣٠- الجهشيارى ١٧٥
٢٣١- الطبرى ٢٩٣/٨
٢٣٦- ن. م. ٨/ ٢٣٦
٢٣٧- ن. م. ٨/ ٢٣٧
٢٣٨- ن. م. ٨/ ٢٣٨
٢٣٩- ابن الاثير ٦/ ١٧٨
٢٤٠- الطبرى ٨/ ٢٩٨
٢٤١- ن. م. ٨/ ٢٩٦
٢٤٢- ن. م. ٨/ ٢٩٧، الجهشيارى ١٩٠
٢٤٣- الجهشيارى ١٩٥
٢٤٤- ن. م. ٢٠٧
٢٤٥- ن. م. ١٩٥، ١٩١
٢٤٦- الطبرى ٨/ ٢٩٧
٢٤٧- الجهشيارى ١٩٦ رقى في الحديث: زاد عليه
٢٤٨- الجهشيارى ١٩٧
٢٤٩- ن. م. ١٩١
٢٥٠- الطبرى ٨/ ٢٩٧
٢٥١- الطبرى ٨/ ٣١٤
٢٥٢- ن. م. ٨/ ٢٩٨
٢٥٣- ن. م. ٨/ ١٢٧، ١٣٩ سنة ١٦١
٢٥٤- اليعقوبى ٢/ ٤٢٩
٢٥٦- اليعقوبى ٢/ ٤٢٣
٢٥٧- ن. م. ٢/ ٤٢٤
٢٥٨- الجهشيارى ٢١٢
٢٥٩- الطبرى ٨/ ٤٢٥ سنة ١٩٦
٢٦٠- ن. م. ٨/ ٣٠٢
٢٦١- ن. م. ٨/ ٣٠٧
٢٦٢- الجهشيارى ١٦١
٢٦٣- ن. م. ٢١٤
٢٦٤- الطبرى ٨/ ٣١٣
٢٦٥- اليعقوبى ٢/ ٤٣
٢٦٦- الجهشيارى ٢١٨، ٢٢٣
٢٦٧- الطبرى ٨/ ٣١٤
٢٦٨- ن. م. ٨/ ٢٧٣
٢٦٩- ن. م. ٨/ ٣١٤
٢٧٠- ن. م. ٨/ ٢٧٦
٢٧١- اليعقوبى ٢/ ٤٢٥
٢٧٢- المسعودى ٣/ ٣٥٤
٢٧٣- الطبرى ٨/ ٣١٧
٢١٦- ن. م. ١٥٣
٢١٧- ن. م. ١٧٧

٢٣٠- الجهشيارى ١٧٥
٢٣١- الطبرى ٢٩٣/٨
٢٣٦- ن. م. ٨/ ٢٣٦
٢٣٧- ن. م. ٨/ ٢٣٧
٢٣٨- ن. م. ٨/ ٢٣٨
٢٣٩- ابن الاثير ٦/ ١٧٨
٢٤٠- الطبرى ٨/ ٢٩٨
٢٤١- ن. م. ٨/ ٢٩٦
٢٤٢- ن. م. ٨/ ٢٩٧، الجهشيارى ١٩٠
٢٤٣- الجهشيارى ١٩٥
٢٤٤- ن. م. ٢٠٧
٢٤٥- ن. م. ١٩٥، ١٩١
٢٤٦- الطبرى ٨/ ٢٩٧
٢٤٧- الجهشيارى ١٩٦ رقى في الحديث: زاد عليه
٢٤٨- الجهشيارى ١٩٧
٢٤٩- ن. م. ١٩١
٢٥٠- الطبرى ٨/ ٢٩٧
٢٥١- الطبرى ٨/ ٣١٤
٢٥٢- ن. م. ٨/ ٢٩٨
٢٥٣- ن. م. ٨/ ١٢٧، ١٣٩ سنة ١٦١
٢٥٤- اليعقوبى ٢/ ٤٢٩
٢٥٦- اليعقوبى ٢/ ٤٢٣
٢٥٧- ن. م. ٢/ ٤٢٤
٢٥٨- الجهشيارى ٢١٢
٢٥٩- الطبرى ٨/ ٤٢٥ سنة ١٩٦
٢٦٠- ن. م. ٨/ ٣٠٢
٢٦١- ن. م. ٨/ ٣٠٧
٢٦٢- الجهشيارى ١٦١
٢٦٣- ن. م. ٢١٤
٢٦٤- الطبرى ٨/ ٣١٣
٢٦٥- اليعقوبى ٢/ ٤٣
٢٦٦- الجهشيارى ٢١٨، ٢٢٣
٢٦٧- الطبرى ٨/ ٣١٤
٢٦٨- ن. م. ٨/ ٢٧٣
٢٦٩- ن. م. ٨/ ٣١٤
٢٧٠- ن. م. ٨/ ٢٧٦
٢٧١- اليعقوبى ٢/ ٤٢٥
٢٧٢- المسعودى ٣/ ٣٥٤
٢٧٣- الطبرى ٨/ ٣١٧
٢١٦- ن. م. ١٥٣
٢١٧- ن. م. ١٧٧

- ٣١٨- ن. م. ١٥٨
٣١٩- ن. م. ١١٦
٣٢٠- ن. م. ١٩٢
٣٢١- ن. م. ١٥٨
٣٢٢- ن. م. ١٥٨
٣٢٣- البيان والتبيين للجاحظ ١/ ١٩٠
٣٢٤- الجهشاري ١٤٥
٣٢٥- ن. م. ١٩٩
٣٢٦- جوائياتين ١٩٨
٣٢٧- الجهشاري ٢٠٩
٣٢٨- الطبري ٣٠٢/٨-٣٠٥، اليعقوبي ٤٢٤/٢
٣٢٩- الطبري ٨/ ٢٥٢
٣٣٠- اليعقوبي ٤٢٩
٣٣١- ن. م. ٢/ ٥٠٣
٣٣٢- الجهشاري ٢٠٤
٣٣٣- ابن خلكان ١/ ٣٣٥ ترجمة جعفر بن يحيى
٣٣٤- الطبري ٨/ ٢٩٤
٣٣٥- تجديد التاريخ - عمر فروخ ١٥٢
٣٣٦- الجهشاري ١٦٩، ١٧٨، ١٨٠
٣٣٧- مقاتل انطالبيين ٣٢٧
٣٣٨- الموسوعة الفقهية الكويت ٢٢/ ٢١٨ (رشد)
٣٣٩- الجهشاري ١٨٠
٣٤٠- الطبري ٨/ ٢٨٧
٣٤١- ن. م. ٨/ ٢٨٨
٣٤٢- الجهشاري ١٧٨
أبي نواس طبع المستشرقين، وابو الغتاهية. محمد
احمد برانق ١٢٥
٣٤٣- التذكرة الحمدونية ١٤٣/٢
٣٤٤- البيان والتبيين للجاحظ ٣/ ٣٧٧
٣٤٥- ابن الاثير ٨/ ٢٩٥ سنة ٣٢٢
٣٤٦- الفخري ١٧١
٣٤٧- البيان والتبيين ٣/ ٣٦٧
٣٤٨- عيون الاخبار ١/ ٤٥ - الجهشاري ٨٥
٣٤٩- ابن خلكان ١/ ٣٣٥
٣٥١- الجهشاري ٢٠٧
٣٥٢- ن. م. ٢١٤
٣٥٣- الطبري ٨/ ٣٣٩ - ٢٩١
٣٥٤- ن. م. ٨/ ٣٠٨ سنة ١٨٧
٣٥٥- ن. م. ٨/ ٣٣٨ سنة ١٩٢
٤٠٥- مختار الاغانى ٥/ ١٦٤
٤٠٦- اشعار أبي الشيص الخزاعي ٦، شوقي ضيف
- ٣١٤- الطبري ٨/ ٢٩٣
٣١٥- الجهشاري ١٥٢
٣٥٦- ن. م. ٨/ ٣٥٩
٣٥٧- العلاقات السياسية البيزنطية. موفق سالم نوري
٢٠٨
٣٦٧- الاغانى ٢٣/ ٢١٨
٣٦٨- البغدادي ١٠/ ١٥٦
٣٦٩- الطبري ٨/ ٣٤٢
٣٧٠- الاغانى ١٣/ ١٧
٣٧١- الطبري ٨/ ٣٤٧
٣٧٢- ن. م. ٨/ ٣٤٩ - الاغانى ١٩/ ٢٨٩
٣٧٣- الطبري ٨/ ٣٥٠
٣٧٤- ن. م. ٨/ ٣٤٩
٣٧٥- البغدادي ١٠/ ٤١١
٣٧٦- البغدادي ١٠/ ٤١١
٣٧٧- الاغانى ١٤/ ١٧٤
٣٧٨- ابن سعد ٧/ ٣٧٤
٣٧٩- مروج الذهب ٣/ ٣٦٢ الجهشاري ١٦١
٣٨٠- ابن الاثم ٢٧٧. الطبري ٨/ ٣٥٨
٣٨١- دراسات في الحضارة ٢٢٣/ ١٢٥
٣٨٢- المسعودي ٤/ ٢٢٥
٣٨٣- البغدادي ١٠/ ٤١١
٣٨٥- مجالس العلماء للزجاجي ١٨
٣٨٦- ن. م. ٢١١
٣٨٧- انباه الولاة ٢٢٣. ابن خلكان ٤/ ٨٨
٣٨٨- هارون الرشيد. الجومرد ١/ ٢٥٢
٣٨٩- الاغانى ١٨/ ٣١١ - ٣١٦
٣٩٠- الاغانى ٤/ ٣٥
٣٩١- الطرب والظرف ١٢٨
٣٩٢- الاغانى ١٨/ ٢٥٤
٣٩٣- هذا البحث مختصر من كتاب الاشجع
السلمي - خليل بيان الحسون ١٩. ٥٢، ومختار
الاغانى لابن منظور ١/ ٤١٨
٣٩٤- تاريخ الادب العربي - فروخ ٢/ ١٤٤
٣٩٧- تاريخ الادب العربي شوقي ضيف - للعصر
العباسي الاول ٢٢٧
٣٩٨- تاريخ الادب العربي - فروخ ٢/ ١٩١
٣٩٩- كتاب مروان بن حفصة
٤٠٠- فروخ ٢/ ١٣٢
٤٠١- ابو نواس- عبد الرحمن صدقي ١٣١، وديوان
٤٠٢- فروخ ٢/ ٢٩٠

العصر العباسي الأول ٢٤٦

٤٠٧- فروخ ١٤٨ / ٢

٤٠٨- شوقي ضيف . العصر العباسي الاول ٣٤٨

٤٠٩- طبقات الشعراء لابن المعتز ، ديوان العباس بن
الاحنف

٤١٠- فروخ ١٤٢ / ٢

٤١١- شوقي ضيف . العصر العباسي الاول ٣١٤

٤١٣- الاغانى ١٢ / ٢٠

٤١٤- فروخ ١٤٠ / ٢

٤١٥- شوقي ضيف ٣ / ٤١٩

٤١٦- البغدادى ١١ / ١٤

٤١٧- الطرب والظرف في مجالس الرشيد ٥٨

٤١٨- ن . م . ٣٩

٤١٩- ن . م . ٧١

٤٢٠- الحان الحان - عبد الرحمن صدقي ٣٢٢

٤٢١- موجز تاريخ الموسيقى . صبحي ابو رشيد ١٧٣

٤٢٢- الحان الحان ٣٢٢

٤٢٣- موجز تاريخ الموسيقى والغناء العربي ١٧٣

٤٢٤- الموسيقى العربية واعلامها . الحفني ١٧٠

٤٢٥- الموسيقى العربية . جارجي ٣٣

٤٢٦- ن . م . ٧٧

٤٢٧- الطرب والظرف ١٠٠

٤٢٨- الموسيقى العربية - الخفي ٢٨١

٤٢٩- الموسيقى العربية . الحفني ٢٧٢

٤٣٠- الطرب والظرف والنشيد ٢٤٢

٤٣١- تاريخ الادب العربي- شوقي ضيف ٢ / ٣٩١

٤٣٢- ن . م . ٢ / ٣٩٣

٤٣٣- ديوان ذي الرمة ١ / ٢٣ نقلاً عن الفهرس ١٤٣

٤٣٤- ن . م . ١ / ٢٣

٤٣٥- الحفني ٢٧٢

٤٣٦- الحفني ٢٧٠

٤٣٧- محمد عبد الوهاب مطرب المائة عام النجمي

٤٣٨- الموسيقى العربية . الحفني ٢٤٥

٤٣٩- ام كلثوم . رتيبة الحفني ١٦٨

٤٤٠- وديع الصافي . فكتور سحاب ٣٢٣

٤٤١- محمد عبد الوهاب مطرب المائة عام . النجمي ١٣٢ ،

١٣٩

٤٤٢- الحفني ٢٤٠

٤٤٣- الحفني ٢٤٦

٤٨٨- ن . م . ٨ / ٤٢٢

٤٨٩- البلاذري . فتوح ١٩٩

٤٠٢- شوقي ضيف . العصر العباسي الاول ٢٥١

٤٠٤- فروخ ٤ / ١٧٧

٤٤٤- الخليفة المغني ابراهيم بن المهدي ١٥٩

٤٤٦- حضارة العراق ٩ / ٣٥٥

٤٤٧- حضارة العراق ٩ / ٣٥٥

٤٤٨- الموسيقى العربية . الحفني ١٦٨

٤٤٩- الحان الحان ٣٥٥

٤٥٠- الوافي بالوفيات ٩ / ٢٧٧

٤٥١- الطرب والظرف ٢٠٢

٤٥٢- الحان الحان ٣٢٨

٤٥٣- ن . م . ٣٢٣

٤٥٤- ن . م . ٣٢٣

٤٥٥- المسعودي ٤ / ١٣٧

٤٥٦- الحان الحان ٢٤٥

٤٥٨- الطبري ٨ / ٢٤٠ . اليعقوبي ٢ / ٤٠٨

٤٥٩- الاخبار الطوال ٣٨٩

٤٦٠- مروج الذهب ٣ / ٣٥٢

٤٦١- فوات الوفيات لابن شاکر ٤ / ٤٧

٤٦٢- المحاسن والمساوي للبيهقي ٢ / ٤٠٢

٤٦٣- الامامة والسياسة

٤٦٤- مقاتل الطالبيين ٤١٤

٤٦٥- ثمار القلوب . النيسابوري ٩٠ . الاغانى ١٧ / ٨٠

٤٦٦- ن . م . ١٨٩

٤٦٧- ن . م . ١٨٩

٤٦٨- المسعودي ٣ / ٣٩١

٤٦٩- المسعودي ٣ / ٣٩٥

٤٧٠- الطبري ٨ / ٢٧٧

٤٧١- الجهشاري ١٧٥

٤٧٢- الجهشاري ٢١١

٤٧٣- الطبري ٨ / ٢٨٣

٤٧٤- الطبري ٨ / ٢٧٥ سنة ١٨٦

٤٧٥- الطبري ٨ / ٢٨٦ . ٣١٥

٤٧٦- الطبري ٨ / ٣٢٠

٤٧٧- ن . م . ٨ / ٣٢٨

٤٧٨- الامين الخليفة المفتري عليه ٢٦

٤٧٩- الامين الخليفة ٢٤

٤٨٠- الجهشاري ١٩٢

٤٨٢- المأمون ومنافسته لعمر بن الخطاب

٤٨٣- امر المأمون بازالة الغرف من المساجد

٤٨٤- تاريخ الدولة الأموية ٢٠٦ ، تاريخ سور-

ولبنان وفلسطين . فيليب حتى ٢ / ١٣٠

- ٤٨٥- الطبري ٨ / ٤٢٠
٤٨٦- ن . م . ٨ / ٤٢٢
٤٨٧- ن . م . ٨ / ٤٠٦
٥٣٠- الطبري ٨ / ٥٩٨
٥٣١- ميخائيل ٣ / ٥٣
٥٣٢- ابن الاثير ٦ / ٣٩٠ . الطبري ٨ / ٦٧٠ سنة ٢٠٩
٥٣٣- الطبري ٨ / ٦٠٢
٥٣٤- اليعقوبي ٨ / ٤٦٠
٥٣٥- الديارات . الشايشتي ٨٦
٥٣٦- البرصان والعرجان للجاحظ ٣٢٠
٥٣٧- ن . م . ٢٨
٥٣٨- ابن الاثير ٦ / ٣٠٨ سنة ١٩٩
٥٣٩- ميخائيل ٣ / ٦٠
٥٤٠- ن . م . ٣ / ٢٥
٥٤١- العرب والروم . فازيليف هامش صفحة ٨٧
٥٤٢- الطبري سنة ٢١٨
٥٤٣- ن . م . ٧ / ٣٦٠
٥٤٤- ن . م . ٨ / ٢٣٢ سنة ١٧٠ . تاريخ الموصل ٢٦٢
٥٤٥- المحبر ٣٧٥
٥٤٦- الطبري ٧ / ٣٨٦
٥٤٧- تاريخ الموصل ٣٥٢ . تاريخ بغداد ٨ / ٣٤١
٥٤٨- الطبري ٨ / ٥٧٧
٥٤٩- المسعودي ٣ / ٤٥٥
٥٥٠- الطبري ٨ / ٦٣٠ . ٦٣٤ . ٦٤٠ . ٦٤٤ . ٦٤٥
٥٥١- المأمون . محمد مصطفى هداره ١٤٢
٥٥٢- دراسات تاريخية العددان ٤١ . ٤٢ مقال
المعتزلة : محمد ارشيد العقيلي ١٠٦
٥٥٣- البداية والنهاية لابن كثير ١٠ / ٢١٥
٥٥٤- تاريخ السيوطي ٣٠٣
٥٥٥- الطبري سنة ٢٣١
٥٥٦- العرب والروم . فازيليف . ترجمة شعيرة ١٣
٥٥٧- تاريخ الدولة العباسية . نبيلة حسن محمد ١٩٧
٥٥٨- ابن العديم ١ / ٦٧
٥٥٩- الطبري ٨ / ٧٧
٦٠٢- ابن طباطبا ٢٢٩
٦٠٣- كتاب الفخري . ابن طباطبا ٢٣٦
٦٠٤- ابن العديم ١ / ٦٩ . الاعلاق الخطيرة ٣ / ٢٦
٦٠٥- ابن العديم ١ / ٧٠ . الاعلاق ٣ / ٢٦
٦٠٦- العالم الإسلامي في العصر العباسي . د .
حسن احمد محمد ورفيقه ١٦٨
٦٠٠- الطبري ٨ / ٦٤٥
٦٠١- ابن العديم ١ / ٦٩
- ٤٩١- الطبري ٨ / ٤٧٦ . ٤٨٠
٤٩٢- ميخائيل . الترجمة الفرنسية ٣ / ٢١
٤٩٣- الطبري ٨ / ٤١٥
٤٩٤- ميخائيل ٣ / ٢١
٤٩٥- جمهرة ابن حزم ٢٩١
٤٩٦- الطبري ٥٥٥
٤٩٧- ابن الاثير ٦ / ٢٩٧
٤٩٨- الطبري ٨ / ٤٢٤
٤٩٩- ابن الاثير ٦ / ٢٥٨
٥٠٠- الحيوان للجاحظ ٧ / ٨٥ ، ويذكر أن الرفاقة كان
يسكنها حينئذ الخراسانية وفيها المطران
والبطريرك أيضاً وكانت الرقة للعامّة
٥٠١- ميخائيل ٣ / ٢١ . ٢٢
٥٠٢- اليعقوبي ٢ / ٤٤٠
٥٠٣- ميخائيل ٣ / ٢٧
٥٠٤- ن . م . ٣ / ٣٠
٥٠٥- تاريخ الموصل ٣٢٨
٥٠٦- ميخائيل ٣ / ٣١
٥٠٧- البلاذري ١٧٣
٥٠٨- ابن الاثير ٦ / ٢٩٧
٥٠٩- الطبري ٨ / ٥٢٧
٥١٠- ن . م . ٥٢٨
٥١١- ميخائيل ٣ / ٢١
٥١٢- عن هرب طاهر : اليعقوبي ٢ / ٤٥٥
٥١٣- ابن العديم ١ / ٦٥
٥١٤- ابن الاثير ٥ / ١٧٢
٥١٥- المعارف لابن قتيبة ٣٨٧
٥١٦- الفتوح لابن الاثم ٨ / ٤١٧ . ٤١٩
٥١٧- ميخائيل ٣ / ٢٥
٥١٨- ميخائيل ٣ / ٢٧
٥١٩- الطبري ٨ / ٥٦٤
٥٢٠- ن . م . ٨ / ٥٧٧
٥٢١- ن . م . ٨ / ٥٨٠
٥٢٢- ن . م . ٨ / ٥٨٠
٥٢٣- المعارف لابن قتيبة ٣٩٠
٥٢٤- الطبري ٨ / ٥٩٩
٥٢٥- تاريخ الاسلام . حسن ابراهيم حسن ٢ / ٦٩
٥٢٦- ميخائيل ٣ / ٤٦
٥٢٧- الطبري ٨ / ٥٨٨
٥٢٨- ميخائيل ٣ / ٥٢ . ابن العديم ١ / ٦٦
٥٢٩- ميخائيل ٣ / ٥٢

الباب الرابع
العصر العباسي الثاني

الباب الرابع العصر العباسي الثاني

امتاز العصر العباسي الأول بقوة الخلافة وتمركز السلطة زمن الخلفاء العظام، وكانوا ذوي شخصيات قوية، وساسة مهرة، وحافظوا على وحدة الحكومة المركزية ما عدا الأندلس وجزء من الشمال الأفريقي.

أما في العصر العباسي الثاني الذي بدأ مع خلافة المتوكل ويرى بعض المؤرخين الحديشين أنه يبدأ في سنة ٢٤٧هـ أي بعد نهاية خلافة المتوكل، فقد انتقلت فيه الدولة من المركزية إلى اللامركزية في نظام الحكم وإلى قيام دول وإمارات مستقلة استقلالاً كاملاً أو جزئياً مع الاعتراف بسلطان الخلافة ثم وصول شعوب جديدة إلى مركز الدولة وتسلمها على الحكم ثم وقوع الخلفاء انفسهم تحت نفوذها مما أزال عن الخلفاء نظرة الاحترام.

قامت الثورة العباسية على اساس المساواة بين الشعوب معتمدة على الخراسانيين فاحتلوا لذلك مكان الصدارة وزالت السيادة عن العرب وصارت الشعوب العربية وغير العربية في مستوى واحد. وكذا المسلمون من البويهيين والسلاجقة وغيرهم. ورغب المأمون الترك بالإسلام لا تحقيقاً لهدف ديني بل حاجة إلى جند أقوىاء، وتوسع المعتصم من بعده في هذه السياسة وذلك لتوفر الصفات الحربية والقوة في الأتراك لأنهم شعوب بدائية ومحاربون بطبيعتهم وهذا لم يتوفر في الفرس من قبل. وهذه المساواة بين العرب وغيرهم من الشعوب المغلوبة، أحييت الاحساس بالقومية وخلقت الشعبية وبعثت على استقلال الشعوب لاعتدادها بشخصياتها ومواطنها، فظهرت إلى الوجود اللامركزية والامارات الإسلامية واعترف بها الخلفاء، لكن تلك الامارات ظلت تعترف بالروابط الإسلامية بين تلك الامارات وأن الخلافة هي التي تمثل الروابط بينها، فكانت الخلافة فكرة متأصلة في النفوس تجمع العالم الاسلامي في حضارة واحدة وهكذا نشأت تدريجياً الدول الطاهرية والصفارية والسامانية ثم ظهرت شعوب اخرى بربرية مثل البويهيين والسلاجقة، وهكذا بقيت العراق وحدها في يد الخلافة وربما بغداد وأعمالها فقط.

وظهر التحول إلى الرأسمالية وازدادت الحدة بين الاحتكاريين من كبار الملاك وكبار التجار وبين الطبقات الكادحة ومع ذلك لم يحدث الرخاء الاقتصادي وارتفاع الدخل وضعفت موارد بيت المال فانتشرت الثورات ذات الطابع الاشتراكي كثورة الزنج والقرامطة وعمل القواد الاتراك على تمكين سلطانهم حتى على الخليفة نفسه وتولوا الولايات الواسعة لكنهم انابوا عنهم وظلوا مقيمين حول الخليفة ليحتفظوا بنفوذهم لديه وصاروا بذلك هم أصحاب الحل والعقد.

مات الواثق ولم يعين ولياً للعهد من بعده، وكان الاتراك هم اللذين انتخبوا الخليفة الجديد (المتوكل) وبايعوه، فضضعت إلى جانبهم شخصيات الوزراء، ولجأ كثير منهم إلى الرشوة للوصول إلى منصب الوزير. وعند بلوغه الوزارة يقبل على جمع الاموال للتعويض عما انفق في سبيل منصبه. ولم ينته النفوذ التركي إلا حين جاء الديلم 'البويهيون' وحلوا محل الاتراك^(١) وقد تولى الخلافة في هذه الفترة التي تدعى 'عصر نفوذ الاتراك' ثلاثة عشر خليفة وكونت فترة الخلفاء الخمسة الاوائل عهد التفوق التركي (بين ٢٣٥ - ٣٢٠هـ) حيث قام القواد الاتراك بقتل هؤلاء الخمسة واحداً بعد الآخر.

وأول هؤلاء الخمسة المتوكل على الله

المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧هـ)

كان المتوكل على الله اول خليفة تساق الخلافة اليه، وبدلاً من ان يتولى بناءً على بيعة بولاية العهد في عهد سلفه واخيه الواثق بالله، فقد شهدت خاتمة العصر العباسي الاول تحولات

سياسية خطيرة، خلقت مراكز قوة جديدة أصبح في أيديها مقاليد الأمور، وأصبح في قدرتها التحكم في مسار الخلافة وفي اختيار الخليفة، مما جعل الواثق لا يعهد بالخلافة بعده لأحد من أبنائه أو لفرد من أبناء الأسرة العباسية. وكان المتوكل قوياً فكان لا بد من اصطدامه بالأتراك.

ولم يكن للأتراك ما كان للفرس من حضارة عريقة أصيلة، ولذا اضطربت الأحوال السياسية والإدارية والاقتصادية في عهدهم، وظهر نظام المصادرات وذلك منذ عهد الواثق. ورأى المتوكل أن يحفظ التوازن بين العناصر التركية والفارسية والعربية، وأنشأ فرقة عسكرية فيها عرب ومرتقة ومتطوعة (لعلها فرقة الشاكزية)، ثم رحل إلى دمشق سنة ٢٤٢هـ العاصمة الأموية لتكون عاصمته ومقراً لخلافته، لكنه فشل في هذه الخطة فأنشأ عاصمة جديدة له في العراق سماها مدينة المتوكلية أو الجعفرية على اسمه وعهد بولاية العهد لابنائه الثلاث: المنتصر والمعتز والمؤيد، وبشبه عمله هذا عمل الرشيد حين نقل إقامته إلى الرقة.

كان المتوكل يحب جمع المال ويسرف في أنفاقه، وخاصة على العمران وبناء القصور والجوامع والأسواق ودامت خلافته خمسة عشر عاماً^(٢).

اتخذ المتوكل جملة من الإجراءات للتخلص من نفوذ وسيطرة القادة الأتراك، وإيقاف حالة التدهور وبدايات ضمور دور الخلفاء العباسيين في الحياة السياسية للبلاد، فبعد فترة من توليه الخلافة أقصى المعتزلة بأنوائه الجدل في خلق أو قدم القران وأشخص الفقهاء والمحدثين إلى سامراء وأجرى عليهم الأرزاق، وأمرهم أن يجلسوا للناس وأن يحدثوا بالأحاديث التي فيها الرد على المعتزلة والجهمية (البغدادى ٣٤٤/٢ و ٦٧٦/١٠). وكان هدفه من ذلك اكتساب الشعبية والتأييد من عامة الناس الذين كانوا لا يتعاطفون مع المعتزلة. كما أنها كانت في الوقت نفسه ضريبة للأتراك الذين حظوا بتأييد المعتزلة. أن خطوته هذه كانت سياسية أكثر منها دينية وفي عام ٢٣٥هـ تخلص من أيتاخ.

عمل المتوكل سنة ٢٤٧هـ على سحب الامتيازات الاقتصادية من القادة الأتراك لضعاف نفوذهم الاقتصادي الأمر الذي يؤدي إلى الإيقاع بينهم وبين جندهم، إذ أن اقطاعات القادة كانت المورد لدفع مرتبات الجند، وسحب هذه الاقطاعات يعنى عدم قدرة القادة على الدفع مما يبعد جنودهم عنهم، وبذلك تحيى المتوكل الفرصة ليضرب ضربته بقتل هؤلاء القادة الأتراك والتخلص منهم نهائياً. لكن هؤلاء القادة أدركوا ذلك واستمالوا المنتصر (ابن المتوكل وولي العهد) الذي تعاون معهم على اغتيال أبيه المتوكل سنة ٢٤٧هـ^(٣) وبذلك يكون المتوكل قد خطط ليحذو حذو المنصور والرشيد والمأمون ولكنه تباطأ أكثر من اللازم فدارت الدائرة عليه ودفع حياته ثمناً لذلك.

وفي كتاب الذخائر والتحف للمقاضي الرشيد بن الزبير، أنه بعد مقتل المتوكل على الله وجدت قائمة نفقاته، وانقل منها ما يتعلق بلهوه فقط:

خزانة الشراب	٢٠٠٠,٠٠٠ درهم مليوني درهم
أرزاق الندماء	٥٠,٠٠٠ خمسون ألف درهم
أرزاق الكلابزين والبازدارية والفهادين	٥٠,٠٠٠ خمسون ألف درهم
نفقات الحراقات وما أشبهها	٥٠٠٠,٠٠٠ خمسة ملايين درهم
ما يبتاع من الرقيق	١٠٠,٠٠٠ مائة ألف درهم
ما يبتاع من الجواهر	٣٠٠,٠٠٠ ثلاثمائة ألف درهم
أرزاق الصفاة والمضحكين والكباشين	{ ٥٠٠,٠٠٠ خمسمائة ألف درهم ^(٤)
والدياكين وأصحاب كلاب الهراش والضراطين	

عقد المتوكل لابنه المنتصر على الجزيرة والشام عام ٢٣٥هـ فولى المنتصر فيهما من قبله بغا الكبير ٢٣٥ - ٢٤٧هـ^(٥).

قال المسعودي: وكانت أيام المتوكل احسن أيام وانضرها من استقامة الملك، وشموله الناس بالامن والعدل، ولم يكن المتوكل يوصف بغطائه وبذله بالجوهر ولا بتركه وامساكه باليغل، ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني عباس ظهر في مجلسه اللعب والمضاحك والهزل مما قد استفاض في الناس تركه الا المتوكل فإنه السابق لذلك^(٦).

وكان الخلفاء العباسيون التسعة قبل المتوكل يعيشون حياتهم الخاصة رغم ما فيها من نهو ولعب بعيداً عن عيون رعاياهم^(٧).

يقول المسعودي أيضاً: وجفا (المتوكل) الموالي من الاتراك واطرحهم وحط مراتبهم وعمل على الاستبداد بهم والاستظهار عليهم. وضم إلى وزيره عبید الله بن خاقان نحواً من اثني عشر ألفاً من العرب والصعاليك وغيرهم برسم المعتز وكان في حجره^(٨) وأرجح أنهم ممن كان يطلق عليهم اسم (الشاكرية).

استخلف المنتصر بالله (٢٤٧-٢٤٨هـ) بعد مقتل أبيه المتوكل ولكن لم يتمتع بالخلافة أكثر من ستة أشهر ثم مات. وقد ولى على الجزيرة بغا الكبير (ابن طباطبا ٢٤٠).

بعد وفاة المنتصر بايع الاتراك المستعين بالله (٢٤٨-٢٥١هـ) وقالوا: (ان ولينا واحداً من ولد المتوكل طالبتنا بدم أبيه وأهلكنا). وكانت أيامه أيام فتنة وحروب وخوارج وكان المستعين في بغداد ومعه أهلها فانشق عليه الاتراك. وكان المعتز محبوباً في سامراء فاطلقه الاتراك وانضموا اليه وناصروه. وجرى القتال بين الطرفين في بغداد (ابن طباطبا ٢٤٠) وذلك في العام الاخير من خلافته أي سنة ٢٥١هـ.

وقدم محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني وكان المستعين قدده الثغور الجزرية، وكان مقيماً بمدينة بلد ينتظر من يصير اليه من الجند والمال. فلما كان من اضطراب أمر الاتراك ودخول المستعين بغداد وما كان، لم يمكنه المسير إلى بغداد الا عن طريق الرقة، فصار إليها بمن كان معه من خاصته وأصحابه وهم زهاء اربعمائة فارس وراجل، ثم انحدر منها إلى مدينة السلام فدخلها يوم الثلاثاء ١٨ صفر، فسار إلى دار محمد بن عبد الله بن طاهر، فخلع عليه خمس خلع ديبقي (نسبة إلى ديبق في مصر) وملحم وخز ووشى وسواد ثم وجهه في جيش كثيف لمحاربة أيوب بن أحمد، فأخذ على ظهر الفرات (أي بالسفن)^(٩).

ولاربع عشرة خلت من ربيع الاول من عام ٢٥١هـ قدم بغداد من ناحية الرقة مزاحم بن خاقان، وأمر القواد وبنو هاشم وأصحاب الدواوين بتلقيه، وقدم معه من كان معه من أصحابه من الخرسانية والاتراك والمغاربة، وكانوا زهاء ألف رجل معهم عتاد الحرب من كل صنف، ودخل بغداد، ووصيف عن يمينه وبغا عن شماله، وعبید الله بن عبد الله بن طاهر عن يمين بغا، وإبراهيم ابن إسحاق خلفهم، ومزاحم يبدو بوقار ظاهر، فلما وصل خلع عليه المستعين سبع خلع، وقلده سيفاً وخلع على ابنه على كل واحد منهما خمس خلع ثم أمر ان يفرض له ثلاثة آلاف رجل من الفرسان والرجالة سنة ٢٥١هـ^(١٠).

وفي يوم السبت لخمس خلون من ربيع الآخر سنة ٢٥١هـ وافى بغداد حبشون بن بغا الكبير ومعه يوسف بن يعقوب قوصرة مولى الهادي فيمن كان مع موسى بن بغا من الشاكرية، وانضم إليهم عامة الشاكرية المقيمين بالرقة وهم في نحو ألف وثلاثمائة، فخلع عليه خمس خلع وعلى يوسف أربع خلع، وعلى نحو من عشرين من وجوه الشاكرية فانصرفوا إلى منازلهم^(١١). ووافت الانبار في طريقها إلى بغداد، سفن من الرقة فيها دقيق، واطواف فيها زيت وغير ذلك لتزويد

بغداد وفيها المستعين فصادره الاتراك من انصار المعتز الذين قدموا من بغداد، ووجهوه إلى سامراء ومعه رؤوس من قتلوههم وأجسام من أسروهم^(١٢) وأخيراً أسر المستعين ثم قتل^(١٣).
 بويغ بالخلافة عقب خلع المستعين المعتز بالله بن المتوكل (٢٥٢-٢٥٥هـ)، وكان المعتز جميل الشخص حسن الصورة، ولم يكن بسيرته ورأيه وعقله بأس، إلا أن الاتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في يدهم كالأسير ان شاؤوا أبقوه وأن شاؤوا خلعه وأن شاؤوا قتلوه.

ولما جلس المعتز على سرير الخلافة قعد خواصه واحضروا المنجمين وقالوا لهم: أنظروا كم يعيش؟ وكم يبقى في الخلافة؟ .. وكان بالمجلس أحد الظرفاء، فقال: أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره في خلافته. فقالوا له: فكم تقول أنه يعيش؟ وكم يملك؟ قال لهم: مهما أراد الاتراك فلم يبق في المجلس أحد إلا ضحك^(١٤) وعذبه الاتراك حتى مات عام ٢٥٥هـ وأشهدوا عليه أنه خلع نفسه^(١٥).
 وكان على الجزيرة في خلافة المعتز أحمد المولد ثم عزله المعتز وولاه حلباً ثم عزله بعد أيام قلائل وأعادته إلى الجزيرة ثم عزله وولى مكانه أبا الساج ديوداد الاشروسي على الجزيرة والشام^(١٦).

٥- خلافة المهدي بالله أبو عبد الله محمد بن الواثق (٢٥٥ - ٢٥٦هـ)

كان من أحسن الخلفاء مذهباً وأجملهم طريقة وسيرة وأظهرهم ورعاً وأكثرهم عبادة، يتشبه بعمر بن عبد العزيز، وكان يجلس للمظالم فيحكم حكماً يرتضيه الناس. وكان يتقلد في مأكوله وملبوسه وكان المهدي قد أطرح الملاهي وحرم الغناء والشراب، ومنع أصحابه من الظلم والتعدي. وكان المهدي قد قتل بعض الموالي فشغب عليه الاتراك وهاجوا وأخذوه أسيراً وعذبوه ليخلع نفسه فلم يفعل، فخلعوه هم ومات سنة ٢٥٦هـ^(١٧).

وفي عهده ظل على ولاية الشام والجزيرة أبو الساج ديوداد الاشروسي، ونزعت عنه أئشام حين تغلب عليها عيسى بن الشيخ، ومات أبو الساج بجند نيسابور عام ٢٦٦هـ^(١٨).
 وفي عهد المهدي كانت الولايات تؤخذ بالقوة ويتنازع الولاة بعضهم مع بعض، ومن لا يملك القوة الكافية لا يتحكم في ولايته حتى ولو صدر الأمر بولايته عليها.

كان لهذا كله (مقتل المنتصر والمستعين والمعتز والمهدي) نتائج وخيمة على الخلافة العباسية، فقد انحط مركزها وضاعت هيبتها، وصار الخليفة مسلوب السلطة، إن شاء الاتراك أبقوه، وأن شاؤوا قتلوه، وقد سجل عبد الله بن المعتز الحالة في أرجوزته فيقول:

وكل يوم ملك مقتول	أو خائف مروع ذليل
أو خالع للعقد كيما يفنى	وذاك ادنى للردى وأدنى
وكم أمير كان ورأس جيش	قد نغصوا عليه كل عيش
وكل يوم شغب وغصب	وانفس مقتولة وحرب

والغريب أن ابن المعتز هذا صار خليفة ليلة واحدة سنة ٢٩٦هـ وقتل بعدها، كما قتل أبوه المعتز قبله. قال الصولي: 'عندما ولي المعتز لم تمض مدة حتى احضر الناس وأخرج المؤيد (أخو المعتز) وأشهدوا أنه دعي (للتنازل عن الخلافة) فأجاب، وليس به أثر. ثم مضت عدة أشهر فأحضر الناس وأخرج المستعين، وقالوا: إن منيته أتت عليه وهو لا أثر به فأشهدوا. ثم خلع المعتز واستخلف المهدي، ولم يمض إلا مدة حتى أخرج المعتز ميتاً، وقال أشهدوا أنه مات حتف أنفه ولا أثر به. ثم لم تكتمل السنة حتى استخلف المعتمد فأخرج المهدي، وقالوا أشهدوا أنه مات حتف أنفه من جراحه ولا أثر به. فعجب الناس من تلاحقهم في هذه المدة اليسيرة حوالي أربع سنوات

٢٥٢-٢٥٦ هـ والملاحظ في تاريخ هذه الفترة ان تدهور الخلافة العباسية فيها لم يكن ناشئاً من ضعف الخلفاء انفسهم، بل كان نتيجة اعتمادهم على الجند الاتراك دون غيرهم، وانعدام التوازن بين العناصر التي تتألف منها الدولة، وطغيان الروح العسكرية على الروح السياسية. هذا وكان هناك خلفاء أقوياء ظهوروا في هذه الفترة، إلا ان الظروف القاسية لم تمكنهم من استغلال مواهبهم وقابلياتهم في سبيل تقوية الدولة.

أما الوزارة فلم يكن لها شأن يذكر في هذا العهد، وهذا أمر طبيعي، لان الوزير يستمد قوته من الخليفة، فكان عمل الوزير في هذه الفترة مجرد جباية الضرائب، وكان همه ان يسد أفواه كبار قادة الاتراك بالمال، فإذا وافق هواهم ورضوا عنه أبقوه، وأن خالفهم في شيء أزالوه وأقاموا غيره. أما بيت المال فقد أصبح خاوياً^(٢٢)

٦- خلافة المعتمد على الله (٢٥٦-٢٧٩هـ)

كان المعتمد على الله رجلاً ضعيفاً مولعاً باللهو والترف، ولم يكن له من مؤهلات الخلافة، سوى أنه أكبر أبناء المتوكل من الاحياء، ولما وجد نفسه عاجزاً عن تدبير الأمور وتحمل مثل هذه الاعباء اتجسام، استدعى أخاه الموفق من مكة ليرتق هذا الفتق الذي أصاب الدولة العباسية ويتخذ ما يمكن انقاذه.

وكان الموفق من رجالات بني العباس القلائل، وكان يلقب بحق 'المصور الثاني' فقد كان سياسياً محنكاً قديراً عارفاً بالحرب وقيادة الجيوش، غزير العلم، حسن التدبير، محبباً إلى الناس. وقد شارك في كثير من الأحداث، وكانت له اليد الطولى في انتصار المعتز على المستعين في حصار بغداد.

أصبح الموفق الحاكم الفعلي للدولة العباسية. أما المعتمد فلم يكن إلا صورة وظلاً لأخيه. وقد أظهر الموفق مقدرة إدارية واهتماماً بالزراعة والري وجباية الأموال، فظهرت بوارق أمل في عودة السلطة والازدهار إلى الدولة العباسية المفككة^(٢٣).

خدمت الظروف أحمد بن طولون بسبب انشغال الخلافة العباسية بصراعها مع الجند الاتراك، وثورة الزنج التي تسببت بمقتل نيف ومليون ونصف من المسلمين، وقتل من البصرة في يوم واحد ثلاثمائة ألف، ولم تنته حتى قتل صاحب الزنج على يد الموفق بالله سنة ٢٧٠هـ مما سبب للخلافة الحاجة الشديدة للمال. وكون إمارة وراثية تضم مصر والشام والفرج، ولكن الموفق وقف ضد اطماع ابن طولون، وتطور الصراع بينهما بحيث لعن كل واحد منهما الآخر على المنابر. وقد توفي أحمد بن طولون والعلاقة سيئة بينه وبين الموفق لم يطرأ عليها إلا تحسن ضئيل^(٢٤).

الجزيرة بين بغداد والقاهرة

كان أحمد بن طولون والي مصر جاداً ومستقيماً ومترفاً عن كثير من سفاهات زملائه من الجنود الاتراك، وقد رفض القيام بنفسه بقتل الخليفة المستعين.

١) النزاع بين الموفق وابن طولون

ناب أحمد بن طولون عن بايكباك في ولاية مصر، ثم خلفه عليها. وكان يدرك الوشائج الوثيقة بين الشام والجزيرة وبين مصر، ويدرك ان استيلاءه على الثغور يجعله على حدود البيزنطيين، ويتيح له الجهاد، ويحظى بمحبة المسلمين في جميع الاقطار، ويجذب إليه المطوعين والأموال، وكان يحتاج إلى الأموال الطائلة كي يحقق ذلك وكي يدافع عن مصر وينمي اقتصادها.

وفي نفس الوقت كان الموفق، وهو الحاكم الفعلي في عهد أخيه الخليفة المعتمد في حرب مديدة وشديدة مع صاحب الزنج (٢٥٥-٢٧٠هـ) الذي خرب البصرة واحتل جنوبي العراق، وقطع الطرق التجارية. فكان الموفق في أمس الحاجة إلى الجند والسلاح والأموال. وكان يأمل ان يحصل على ذلك من مصر، لان الشرق كان مسرحاً لاضطرابات كثيرة منها ما أحدثه الصفار،

لكن ابن طولون خيب أمله، ولم يقدم له ما يرجو، فوقع الخلاف بينهما واستحكم، وحدثت بينهما منازعات كانت الجزيرة وخاصة الرقة مسرحاً لكثير منها.

كان موسى بن بغا ينوب عن جعفر بن المعتمد في حكم القسم الغربي من الخلافة، وجعفر هو ولي عهد الخليفة المعتمد، وكان لا يزال صغيراً. فتقدم الموفق إلى موسى بن بغا في صرف أحمد بن طولون عن مصر وتقليدها أما جور التركي، فكتب موسى بذلك إلى أما جور. وكان والي دمشق حينئذ فتوقف لعجزه عن مقاتلة أحمد بن طولون، فخرج موسى بن بغا فنزل الرقة، وبلغ ابن طولون أنه (أي موسى بن بغا) سائر إليه، وأنه مجد في محاربته، فعمل أحمد بن طولون في الحذر منه وابتدأ في بناء حصن الجزيرة الذي بني بين الجسرين، ورأى أن يجعله معقلاً لماله وحرمة وذلك في سنة ٢٦٣هـ. وأقام موسى بن بغا في الرقة عشرة أشهر وأحمد في إحكام أمره، فاضطرب أصحاب موسى بن بغا عليه، وضاق بهم منزلهم، وطالبوا موسى بالمسير (إليه) أو الرجوع إلى العراق، فبينما هو في ذلك توفي موسى بن بغا في صفر سنة ٢٦٤هـ ويظهر أنه خلفه في ولايته ابنه أحمد بن موسى بن بغا^(٦٥).

تقلد أحمد بن طولون أعمال الشام في سنة ٢٦٤هـ من قبل المعتمد، وفيها أماجور مقطع دمشق، وولي ابنه مكانه، فتجهز ابن طولون ليسير إلى الشام فيملكه، فكتب إلى ابن أماجور يذكر أن الخليفة قد أقطعه الشام والثغور، فأجاب بالسمع والطاعة. وسار أحمد واستخلف بمصر ابنه العباس، فملك دمشق وحمص وحلب، فأقر قواد أماجور على إقطاعهم، وملك أنطاكية عنوه، وأظهر أنه أنهزم عن طرسوس لاشهار قوتها أمام العدو. وأتاه خبر عصيان ولده العباس (وهو الذي استخلفه بمصر). فترك بحران عسكرياً وبالرقة عسكرياً مع غلامه لؤلؤ وكانت حران لأحمد بن أتامش، وكان شجاعاً فأخرجه لؤلؤ عنها، وهزمه هزيمة قبيحة، واتصل خبره بأخيه موسى بن أتامش، وكان على ديار ربيعة. كما في الفقرة التالية. وكان شجاعاً بطلاً. فجمع عسكرياً كثيراً وسار نحو حران وبها عسكر ابن طولون ومقدمهم أحمد بن جيعويه، فلما اتصل به خبر مسير موسى ألقاه ذلك وازعجه، لكن رجلاً من الأعراب يقال له أبو الأغر استطاع بعشرين رجلاً أن ينصب كميناً لموسى بن أتامش ويأسره، فأرسله إلى أحمد بن طولون فاعتقله وعاد إلى مصر، وكان ذلك في سنة ٢٦٥هـ^(٦٦).

وفي سنة ٢٦٦هـ فارق إسحاق بن كنداج، أحمد بن موسى بن بغا سنة ٢٦٦هـ، لأن أحمد لما سار إلى الجزيرة ولي موسى بن أتامش ديار ربيعة فانكر ذلك إسحاق بن كنداج، وفارق عسكره، ثم استولى على نصيبين وديار ربيعة، ووصل إليه من الخليفة المعتمد عهد بولاية الموصل^(٦٧).

وهناك رواية أخرى لأسر موسى بن أتامش هذا العام ٢٦٦هـ، وذلك أن لؤلؤا كان مقيماً برابية بني تميم (قرب الرقة)، وكان موسى بن أتامش مقيماً برأس العين، فخرج ليلاً سكراناً ليكبسهم، فكمنا له، فأخذوه أسيراً، وبعثوا به إلى الرقة، ثم لقي لؤلؤ أحمد بن موسى (ابن أتامش) وقواده ومن معه من الأعراب في شوال، فهزم لؤلؤ وقتل من أصحابه جماعة كثيرة، ورجع ابن صفوان العقيلي والأعراب إلى عسكر أحمد بن موسى لينهبوه، وأكب عليهم أصحاب لؤلؤ، فبلغت هزيمة المنفلت منهم قرقيسيا، ثم صاروا إلى بغداد وسامراء، فوافوها في ذي القعدة، وهرب ابن صفوان إلى البادية^(٦٨).

بدأ الموفق يكيد لابن طولون، بتأليب ولاته عليه، ومن هؤلاء لؤلؤ الذي كان ابن طولون يثق به كثيراً وأثمنه على كل شيء من أموال وامتعة وأسلحة، وبدأ لؤلؤ تمرد به بسك اسمه على العملة إلى جانب اسم ابن طولون، ثم كشف عن نواياه الحقيقية حين قطع الدعاء لسيدته في كافة المناطق التابعة له، وكان ذلك سنة ٢٦٨هـ^(٦٩).

(٢) انضمام لؤلؤ غلام ابن طولون إلى الموفق

كان بيد لؤلؤ حين خالف أحمد بن طولون في سنة ٢٦٩هـ، حمص وحلب وقنسرين وديار مضر، فسار لؤلؤ إلى بالس، وأسر سعيداً وأخاه ابني العباس الكلأبي عاملي أحمد بن طولون، ثم كاتب أبا أحمد الموفق في المصير إليه ومفارقة ابن طولون ويشترط لنفسه شروطاً، فأجابه أبو أحمد إلى ما سألته. وكان لؤلؤ مقيماً بالرقعة فشخص عنها، وحمل جماعة من أهل الرافقة وغيرها معه، وصار إلى قرقيسيا وفيها ابن صفوان العقيلي، فحاربه فأخذ لؤلؤ قرقيسيا وسلمها إلى أحمد بن مالك بن طوق، وهرب ابن صفوان، وأقبل لؤلؤ يريد بغداد^(٦٥). وورد كتاب لؤلؤ صاحب ابن طولون مع بعض قواده على الموفق يسأل فيه الأذن له في القدوم عليه، ليشهد معه حرب الفاسق (صاحب الزنج) فأجابه إلى ذلك، وأذن له في القدوم عليه، وآخر ما كان عزم عليه من مناجزة الفاجر انتظاراً منه قدوم لؤلؤ. وكان لؤلؤ مقيماً بالرقعة في جيش عظيم من الفراغنة والاتراك والروم والبربر والسودان وغيرهم من نخبة أصحاب ابن طولون فلما ورد كتاب أبي أحمد الموفق بالأذن له في القدوم عليه، شخص من ديار مضر حتى ورد مدينة السلام في جميع أصحابه، وأقام بها مدة^(٦٦).

اتفق الخليفة المعتمد على أن يخرج خلصة من بغداد هرباً من سيطرة أخيه الموفق ويلجأ إلى ابن طولون. وخرج المعتمد من العراق كمتصيد ثم ركب إلى الرقة. وبلغ أبا أحمد الموفق مسيره وهو إذ ذاك مواقف العلوي (صاحب الزنج) بالبصرة، فكتب أبو أحمد إلى إسحاق بن كنداج الخزري وإلى صاعد بن مخلد يخبرهما أن المعتمد قد مضى إلى أحمد بن طولون، وأن تم له هذا لم يبق من الموالي أحد، ويأمر إسحاق أن يلحقه فيرده، ووعدته على رده أموالاً واقطاعات. فلما سار المعتمد إلى الحديثة. مدينة الموصل. أتاه إسحاق بن كنداج بهدايا وألطاف، وأحدره إلى سرمن رأى يوم الأحد لخمس خلون من شعبان سنة ٢٦٩هـ (٦٧).

في غمرة هذه الأحداث خرج ابن طولون بأمر آخر على الناس، فقد بنى على قبر معاوية بن أبي سفيان أربعة أروقة، ورتب عند القبر اناساً يقرؤون القرآن ويوقدون الشموع عند القبر، ومن المرجح أن يكون ذلك تحدياً لبني العباس لكرههم التقليدي للامويين (٦٨). ويبدو أن ما استحدثه ابن طولون استمر في عهد ابنائه، مما دعى الخليفة المعتضد - ابن الموفق - إلى الرد على احياء ذكرى معاوية على المنابر، وقام بإنشاء كتاب يقرأ على الناس، ولكنه توقف عن التنفيذ لتحذير بعض رجاله له (٦٩) (كما سيجيء فيما بعد).

ولى المعتمد إسحاق بن كنداج على أعمال ابن طولون في نفس العام، وفوض إليه من جانب الشمامسية إلى افريقيا، وولاه شرطة الخاصة^(٧٠). ويظهر أنه لم يستلم تلك البلاد عملياً بل ظلت في يد ابن طولون.

(٣) وفاة ابن طولون وولاية ابنه خمارويه

توفي أحمد ابن طولون صاحب مصر والشام والثغور الشامية في سنة ٢٧٠هـ، وولي بعده ابنه خمارويه (٧١). كان إسحاق بن كنداج على الموصل والجزيرة، فطمع هو وابن أبي الساج في الشام واستصغرا أولاد (أحمد بن طولون وكاتب الموفق) (٧٢). وفي شوال من العام ذاته كانت وقعة بين إسحاق بن كنداج وابن ذو غباش. وكان ابن ذو غباش على الرقة وأعمالها وعلى الثغور والعواصم من قبل ابن طولون، وابن كنداج على الموصل من قبل الموفق (٧٣) وفي الفترة بين سنة ٢٧٣هـ وسنة ٢٨٥هـ ظلت الرقة وربما ديار مضر كالرقعة تقع تارة في يد إسحاق بن كنداج وتارة في يد ابن أبي الساج وينضم كل منهما تارة إلى بغداد وتارة إلى القاهرة ويكون أداة لخمارويه، وفي التفاصيل: فسد الحال سنة ٢٧٣هـ بين محمد بن أبي الساج وإسحاق بن كنداج وكانا متفقين في الجزيرة، وسبب ذلك أن ابن أبي الساج نافس إسحاق في الأعمال، وأراد التقدم، وامتنع عليه إسحاق، فأرسل ابن أبي الساج إلى خمارويه بن أحمد بن طولون صاحب مصر، وأطاعه، وصار معه،

وخطب له بأعماله في قنسرين وسير ولده ديوداد إلى خمارويه رهيئة، فأرسل إليه خمارويه مالأً جزيلاً له ولقواده، وسار خمارويه إلى الشام، فاجتمع هو وابن أبي الساج ببالس، وعبر ابن أبي الساج الفرات إلى الرقة، فلقاه ابن كنداج، وجرى بينهما حرب أنهزم فيها ابن كنداج. واستولى ابن أبي الساج على ما كان لابن كنداج، وعبر خمارويه الفرات ونزل الرافقة (٧٤) وجرى الحرب في موضع يعرف بقطيعة سليم على ثلاث فراسخ من الرقة. (بغية الطلب ٣٢٨٣٧).

وقوي ابن أبي الساج وظهر أمره، واستولى على الجزيرة والموصل، وخطب لخمارويه فيها ثم لنفسه^(٧٥).

ويذكر الطبري وابن الأثير وقعتين بين إسحاق بن كنداج ومحمد بن أبي الساج: الأولى بالرقة يوم الثلاثاء لتسع خلون من جمادى الأولى والثانية لأربع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، دون أن يعينا مكانها، وقد أنهزم ابن كنداج في الوقعتين وكلاهما في سنة ٢٧٣هـ^(٧٦).

توطد نفوذ خمارويه في الجزيرة، وضرب نقوداً في مدينة الرافقة بهذه المناسبة سنة ٢٧٣هـ^(٧٧). وقيد أبو أحمد الموفق لؤلؤا القادم عليه (من قبل) بالآمان سنة ٢٧٣هـ، واستصفي ماله لثمان بقي من ذي القعدة^(٧٨). وصالح خمارويه المعتمد والموفق ودعا لهما. في سلخ رجب من نفس السنة^(٧٩) جمع إسحاق بن كنداج سنة ٢٧٤هـ جمعاً كثيراً وسار نحو الشام، فبلغ الخبر خمارويه فسار إليه وقد عبر إسحاق الفرات، فالتقيا، وجرى بين الطائفتين قتال شديد أنهزم فيه إسحاق بذلك هزيمة عظيمة لم يرد شيء حتى عبر الفرات وتحصن به، وسار خمارويه إلى الفرات وعمل جسراً. فلما علم إسحاق بذلك سار من هناك إلى قلاع له قد أعدها وحصنها، وأرسل إلى خمارويه يخضع له ويبدل له الطاعة في جميع ولايته وهي الجزيرة وما والاها فأجابته خمارويه إلى ذلك^(٨٠) والآن جاء دور ابن أبي الساج في التمرد، فصالح إسحاق بن كنداج، وجمع جمعاً كبيراً وسار إلى الشام قاصداً منازعة خمارويه، حيث كان أبعد إلى مصر، فقدم خمارويه إلى الشام، وكان القتال بينهما في المحرم من عام ٢٧٥هـ عند ثنية العقاب بقرب دمشق، فأنهزم ابن أبي الساج إلى حلب ثم منها إلى الرقة، فتبعه خمارويه، ففارق ابن أبي الساج الرقة، فعبر خمارويه الفرات، وسار في أثر ابن أبي الساج حتى وصل إلى مدينة بلد (مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل اسمها بالفارسية شهر ياز) فأقام فيها. أما ابن أبي الساج فأنهزم إلى الموصل ثم إلى الحديثة.

سير خمارويه مع إسحاق بن كنداج جيشاً كبيراً وجماعة من القواد، ووصل إسحاق يطلب ابن أبي الساج، وتبعه إلى تكريت ثم الموصل، ثم تقاطلا عند قصر حرب فأنهزم ابن كنداج رغم كثرة جنده، وسار إلى الرقة، فتبعه ابن أبي الساج إليها وكتب إلى أبي أحمد الموفق يعرفه ما كان منه. ثم عبر ابن كنداج الفرات إلى خمارويه فسير معه جيشاً فوصلوا إلى الفرات. فكان إسحاق ابن كنداج على الشام (أي الضفة اليمنى من الفرات) وابن أبي الساج بالرقة (أي في الضفة اليسرى ويفصل بينهما الفرات). ووكل ابن أبي الساج بالفرات من يمنع عبوره، فبقوا كذلك مدة. ولكن ابن كنداج عبر الفرات من موقع آخر، وأوقع بعسكر ابن أبي الساج، فانسحب هذا من الرقة إلى الموصل، ثم إلى بغداد، فاتصل بأبي أحمد الموفق في ربيع الأول من ٢٧٦هـ، فاستصحبه معه إلى الجبل وخلع عليه ووصله بمال. وأقام ابن كنداج بديار ربيعة وديار مضر وأرض الجزيرة^(٨١) من قبل خمارويه إلى أن توفي سنة ٢٧٨هـ، وولي ماكان إليه من أعمال الموصل وديار ربيعة ابنه محمد^(٨٢)، ولكن خمارويه ذبحه على فراشه بعض خدمه من الخاصة سنة ٢٨٢هـ في خلافة المعتضد^(٨٣) فوافى محمد بن إسحاق بن كنداج بغداد عام ٢٨٣هـ في جماعة من القواد من مصر في الآمان^(٨٤).

٧- خلافة المعتضد بالله (٢٧٩-٢٨٩هـ) وصحوة الخلافة الإسلامية

كان المعتضد بالله ابن الموفق بالله (ابن اخي المعتمد) شهما عاقلاً فاضلاً حمداً سيرته، ولي والدنيا خراب والثغور مهملة، فقام قياماً مرضياً حتى عمرت مملكته وكثرت الاموال، وضبطت الثغور. وكان قوي السياسة شديداً على أهل الفساد حاسماً لرد اطماع سفاكره عن اذى الرعية، محسناً إلى بني عمه من آل أبي طالب، وكانت أيامه أيام فتن وخوارج. وقد مات وفي خزائنه أكثر من عشرة ملايين دينار. (ابن طباطبا).

انتهت في سنة ٢٧٩هـ حرب الطولونيين مع الخلافة. وعادت الرقة إلى الخلافة. وتولى المعتضد بالله الخلافة وتزوج من قطر الندى ابنة خمارويه الذي قتل فيما بعد على فراشه سنة ٢٨٢هـ على يد بعض خدمه من الخاصة، فوافى بغداد سنة ٢٨٣هـ إسحاق بن كنداج، وكلن يلي ديار ربيع ومضر وأرض الجزيرة لخمارويه، في جماعة من القواد في مصر في الأمان، فتولى نفس الولاية من قبل المعتضد بالله^(٢٧) ثم تولاها فاتك مولى المعتضد بين علمي ٢٨٥-٢٨٦هـ ثم المكتفي بن المعتضد ثلاث سنوات ٢٨٦-٢٨٩هـ سكن الرقة خلالها.

وبعودة إسحاق بن كنداج عادت مرابطة الثغور وحرب البيزنطيين على عاتق الخليفة العباسي المعتضد بالله مباشرة سنة ٢٨٤هـ بعد ان كان قد تولى عنها الخليفة المعتمد لاحمد بن طولون في فترة ضعف الخلافة وأنشغالها بمقاومة ثورة الزنج، علماً بان مجاهدة الكفار وحماية الحدود العربية الإسلامية ضد الروم، كان يكسب الخلفاء شهرة عظيمة، فالرشيد والمأمون والمعتصم مثلاً لم يكسبوا شهرتهم العريضة لأعمالهم العمرانية أو الثقافية فحسب، بل لانتصاراتهم العظيمة على الروم والتوغل في بلادهم. وبذلك عادت الرقة إلى حكم الخلافة العباسية.

وفيها أي عام ٢٨٤هـ عزم المعتضد على لعن معاوية بن أبي سفيان (الذي توفي قبل ٢٢٤ سنة) على المنابر، وأمر بإنشاء كتاب يقرأ على الناس، وهو كتاب طويل قد أحسنت كتابته، إلا أنه قد وردت فيه أحاديث كثيرة غير صحيحة نسبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ونصت على وجوب لعن معاوية. كما أن الكتاب تعرض لذكر يزيد بن معاوية وغيره من بني أمية، وعملت منه نسخ قرئت بجانب بغداد، ومنع القضاة والعامّة من القعود بالجامعين ورحابهما، ونهي الذين يسقون الماء في الجامعين ان يترحموا على معاوية أو يذكروه. وقد خشي عبيد الله بن سليمان بن وهب من أن يسبب هذا الكتاب اضطراب العامة، ونصح القاضي يوسف بن يعقوب المعتضد أن لا ينشر هذا الكتاب (الذي كان المأمون قد أمر بإنشاء أصله) لأن فيه اطرأ للطالبيين، وهم من كل ناحية يخرجون، ويميل إليهم كثير من الناس لقربلتهم من الرسول ومآثرهم، فإذا سمع الناس هذا الكتاب كانوا إليه أميل. وهذا الحب لمعاوية في غير الشام فكيف حبه في الشام والجزيرة. (ابن الأثير ٤٧٥\٧ سنة ٢٨٤، الكبرى ٥٤\١-٦٨).

سار فاتك مولى المعتضد في سنة ٢٨٥هـ إلى الموصل ينظر في أعمالها وأعمال الجزيرة والثغور الشامية والجزيرة وأصلحها، مضافاً إلى ما كان يتقلده من البريد في هذه النواحي^(٢٨).

وجه هارون بن خمارويه إلى المعتضد سنة ٢٨٥هـ يسأله ان يقاطعه على ما في يده ويد نوابه في مصر والشام، ويسلم قنشرين وغيرها إلى المعتضد، ويحمل كل سنة ٤٥٠ ألف دينار، فأجابه المعتضد إلى ذلك، وسار من أمد (التي كان قد سار إليها مع المكتفي ابنه ليؤدب أحد الولاة) واستخلف فيها ابنه المكتفي ووصل إلى الرقة ثم تسلم قنشرين والعواصم وحلب فتسلمها من اصحاب هارون سنة ٢٨٦هـ وضمها إلى الجزيرة وجعلها ولاية قائمة بذاتها تحت امرة ابنه المكتفي وكتبه النصراني واسمه الحسين بن عمرو (على اسم المسلمين) وكان ينظر في الاموال، فقال الخليفة فيه أبياتاً ستأتي في جهاز الجباية.

وبذلك بدأت صفحة جديدة من الصراع المباشر بين البيزنطيين والخلافة العباسية التي تتمتع بإمكانيات مادية وروحية تفوق إمكانات الأمراء الطولونيين (الطبري سنة ٢٩٠هـ).
سار المعتضد بالله في مطلع سنة ٢٧٨هـ إلى بغداد فدخلها بعد إقامة في الرقة تقرب من ستة أشهر كان الخليفة خلالها يراقب أحوال مملكته من جانبها الغربي ويعالج شؤونها.

٨- خلافة المكتفي بالله (٢٨٩-٢٩٥هـ) واسترداد الجزيرة الفراتية

كتب الوزير القاسم بن عبيد الله سنة ٢٨٩هـ إلى المكتفي بالرقعة يعلمه ب وفاة الخليفة المعتضد بالله وأخذ البيعة للمكتفي ابنه ببغداد، ووجه إليه بالبردة والقضيب. فأخذ المكتفي البيعة له في الرقة على من عنده من الأجناد ووضع لهم العطاء، وسار إلى بغداد ووجه إلى النواحي من ديار مضر ونواحي العرب من يحفظها ودخل بغداد في ٨ جمادى الأولى سنة ٢٩٠هـ^(٣٠).

المكتفي بالله هو أبو محمد علي بن المعتضد بالله، كان من أفاضل الخلفاء وقد ظهرت القرامطة في أيامه. فقد ظهر في الشام رجل من القرامطة يدعى يحيى بن زكرويه المكنى أبا القاسم والملقب بالشيخ فجمع في سنة ٢٨٩هـ جموعاً من الأعراب وأتى دمشق، وأميرها طفج بن جف من قبل هارون بن خماروية بن أحمد بن طولون. وكان بينهما وقعت، وكان أبوه زكرويه بن مهرويه سعى إلى استغواء من قرب الكوفة من أعراب أسد وطئ وغيرهم، فلم يجبه أحد منهم، فأرسل أولاده إلى كلب بن بره فلم يجبه منهم إلا الفخذ المعروف ببني العليص، في آخر سنة ٢٨٩هـ بناحية السماوة^(٣١).

كانت قبائل كلب التي كانت دعامة الحكم الأموي في السابق قد تحولت إلى نقلة للسلع عبر طريق القوافل بين الكوفة ودمشق مروراً بتدمر على جانب الصحراء فكانت هي التي ناصرت يحيى بن زكرويه، بينما رفضت ذلك القبائل الأخرى المجاورة للكوفة من بني أسد وطئ وتميم والتي لا مصلحة لها في تلك الطريق فقد أكد شعبان على أهمية ذلك بالنسبة لخروج القرامطة وربطها بفرض ضريبة جديدة قدرها دينار واحد على الرجل في السنة، كما حدث في منطقة الكوفة، فآدى إلى ظهور قرامطة الكوفة وكان الحسين ذو الخال (أخو يحيى بن زكرويه) أضفى على نفسه لقب أمير المؤمنين بالإضافة إلى تسعة ألقاب دينية أخرى منها المهدي^(٣٢).

وورد الخبر في عام ٢٩٠هـ أن يحيى القرمطي بن زكرويه هو في الرقة في جمع كبير، فخرج إليه جماعة من أصحاب السلطان ورئيسهم (عامل الرقة) سبك الديلمي^(٣٣)، والتقى به في ناحية الرصافة غربي الفرات من ديار مضر، فقتله القرامطة وأخذوا جميع ما في عسكره وأحرقوا مسجد الرصافة، وأحرقوا كل قرية اجتازوا بها، وحاصروا دمشق، فأنفذ الطولونيون من مصر القائد بدر الجمالي فقتل زعيمهم يحيى بن زكرويه على باب دمشق، وتولى القرامطة بعده أخوه الحسين صاحب الشامة^(٣٤) الذي خرب كثيراً من بلاد الشام وقتل الكثيرين.

تعاظم خطر القرامطة من سنة ٢٩٠هـ وهاجموا معظم المدن السورية دون أن تكون للطولونيين قدرة فعالة لصدهم وحماية المدن منهم، واستجاب المكتفي إلى كتب أهل الشام ومصر في الشكوى إليه وسار المكتفي إلى الرقة عن طريق الموصل لأشئ عشرة ليلة من شهر رمضان عام ٢٩٠هـ. وذلك ليكون أقرب إلى ميدان القتال مما يدل على أهمية الوضع، ومنها سرح الجيوش إلى القرمطي جيشاً بعد جيش^(٣٦). وتوجهت الجيوش إلى قتال صاحب الشامة، فهزموه وقرامطته قرب حماة ثم قبض عليه في الدالية المعروفة بدالية بن طوق من أعمال طريق الفرات وذلك عام ٢٩١هـ^(٣٧). وكان قد استولى على حمص وحماة ومعرة

النعمان وحلب وبادية الشام، وهزم قرب حلب جيشاً من عشرة آلاف بقيادة أبي الأغر السلمي (٣٨). وقد قاد الحرب على صاحب الشامة محمد بن سليمان الأنباري الكاتب وأصله من الرقة (٣٩).

أدخل صاحب الشامة إلى الرقة ظاهراً للناس على فالج (جمل ذي سناسين) عليه برنس حرير ودراعة وديباج، وبين يديه المدثر والمطوق (رجلين من أعوانه) على جملين وذلك في نهاية المحرم ٢٩١هـ حتى صير بهم إلى دار أمير المؤمنين بالرقة، فأوقفوا بين يديه ثم أمر بهم فحبسوا. وعندئذ عاد المكتفي إلى بغداد، بعد أكثر من أربعة أشهر من رحلته إلى الرقة ومعه خاصته وغلماً أنه وخدمه ووزير القاسم بن عبيد الله والقرمطي وبقية الأسرى من القرامطة^(٤٠)، مستهل صفر في الحراقات في الفرات، فأدخل القرمطي بغداد وأعدم مع من كان معه من أصحابه^(٤١) وقد مدح عبد الله بن المعتز الخليفة المكتفي بالله بهذه المناسبة^(٤٢).

وقبل أن يغادر المكتفي بالله الرقة، أرسل قائده محمد بن سليمان الكاتب في جيش ضخيم إلى مصر فدخل القسطنطينية ومدينة القطائع عاصمة الطولونيين دون مقاومة تذكر، وقبض على الأسرة الطولونية وبعثهم مع مواليتهم أسرى إلى بغداد سنة ٢٩٢هـ.

ولا شك أن المكتفي بالله خلال توليه لأمر الجزيرة قد اكتسب خبرة واسعة ساعدته على مقاومة البيزنطيين بسبب احتكاكه المباشر بهم، وجعلته موفقاً في معظم حروبه معهم، مما أجبر ملكهم إلى إرسال الرسل والوفود والهدايا طالبا الصلح وفداء الأسرى، فلما تولى المكتفي بالله الخلافة استطاع أن يسترجع بلاد الشام ومصر كاملة إلى حظيرة الخلافة العباسية في بغداد، وتدارأً مباشرة من قبل عمال الخليفة كما تقدم.

علاقة الخليفة المكتفي بالله مع حفيدة شارلمان ملكة الفرنجة

ومثلما ربطت بين هارون الرشيد وملك الفرنج شارلمان صلات وتبادل السفراء والهدايا، فقد ربطت مثل هذه الصلة بين الخليفة، المكتفي وملكة الفرنجة (برتا فيليبا لو تاري) حفيدة شارلمان. غير أن الصلة بين هارون الرشيد وشارلمان أمر مشكوك بصحتها، وقد تكون من نسج خيال الكتاب اللاتين لتضفي على شارلمان أهمية وعظمة، لأن المصادر العربية القديمة، تخلو منها تماماً، في حين أن الصلة التي ربطت بين الخليفة المكتفي وحفيدة شارلمان وردت في المصادر العربية الإسلامية وأفاضت في تفاصيلها.

كان المكتفي بالله محباً للغناء، إذ أنه لما كان ولياً للعهد مقيماً في الرقة، أخرج بيتين من شعر أبي تمام وأمر أن يصنع القاسم بن زرزور فيهما لحناً^(٤٥). كما كان وهو في الرقة من لعب الناس بالشطرنج^(٤٦).

٩- خلافة المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠هـ)

هو أبو الفضل جعفر بن المعتضد بالله، كان كريماً سمحاً كثير الأنفاق. رد رسوم الخلافة من التجميل وسعة الإدارة والمعاش والخلع والصلوات. كان في داره أحد عشر ألف خادم وخصي من الروم والسود. وكانت خزانة الجوهر في أيامه مليئة بالجواهر النفيسة، فمن جملةتها الفص الياقوت الذي اشتراه الرشيد بثلاثمائة ألف دينار، الدرة اليتيمة، التي كان وزنها ثلاثة مثاقيل، إلى غير ذلك من الجواهر النفيسة. ففرقها جميعها وأتلفها في أيسر مدة^(٤٧).

ظلت الجزيرة في عهده في ولاية مؤنس الخادم نيابة عن ابن المقتدر فتولى عنه الحسين بن حمدان الذي خرج عن طاعة المقتدر بالله فسار مؤنس وقبض عليه وحمله إلى بغداد راجباً على جمل سنة ٣٠٣هـ. وبينما كان الجنود متشاغلين بأمر الحسين بن حمدان أغارت الروم على الثغور الجزرية وقصدوا حصن منصور وسبوا من فيه وجرى على الناس أمر عظيم.

وفي سنة ٣٠٥هـ مات العباس بن عمر الغنوي، وكان يتقلد أعمال الحرب بديار مضر فجعل في مكانه وصيف البكتمري، فلم يقدر على ضبط العمل فعزل وجعل مكانه جني الصفواني فضبطه أحسن ضبط (٥١). وغزا بلاد الروم ففتح ونهب وسبى وعاد سالماً (٥٢) ثم دخل بلاد الروم سنة ٣٠٦هـ فتهب

وخرب وأحرق وفتح وعاد، فقرأت الكتب بخبر ذلك على المنابر ببغداد (٥٢). وقلد إبراهيم بن حمدان ديار ربيعة عام ٣٠٧هـ (٥٤)، فلما ولي أبو العباس الخصبيي (الوزارة للمقتدر) عام ٣١٣هـ أستعمل أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخي بعد أن صادره بثمانية وخمسين ألف دينار - على الأشراف على الموصل وديار ربيعة (٥٥).

كانت مشكلة توفير أموال الجند أهم قضية حدثت خلال فترة حكمه، فقد عرف المقتدر أنه أتلف الأموال التي جمعها أبوه وأخوه من قبل.

٩٠- خلافة القاهرة بالله (٣٢٠-٣٢٢هـ)

أبو منصور محمد بن المعتضد بالله، كان مهيباً مقداماً على سفك الدماء، أهوجاً محباً لجمع المال، رديء السياسة، صادر جماعة من أمهات أولاد المقتدر بالله. خلعه الاتراك وسملوا عينيه وحبسوه وعذبوه إلى أن مات. ولم يجد في أيامه من الحوادث المشهورة ما يؤرخ. (ابن طباطبا ٢٧٦).

١١- خلافة الراضي بالله (٣٢٢-٣٢٩هـ) وفي عام ٣٢٤هـ أحدث منصب أمير الأمراء

أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله، كان شاعراً فصيحاً لببياً يعد ضمن الخلفاء الأوائل في كثير من الأشياء: منها أنه آخر خليفة دون له شعر، وآخر خليفة انفرد بتدبير الملك، وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة، وآخر خليفة جالس الندماء ووصل إليه العلماء، وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجابه تجري على قواعد الخلفاء المتقدمين.

وفي أيامه ضعف أمر الخلافة العباسية فكانت فارس في يد علي بن بويه، والري واصفهان والجبل في يد أخيه الحسن بن بويه، والموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر في أيدي بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج ثم في أيدي الفاطميين، والاندلس في يد عبد الرحمن بن محمد الأموي، وخراسان والبلاد الشرقية في يد نصر بن أحمد الساساني^(٥٦).

وقد تولى بدر الخرشني على ديار مضر سنة ٣٢٥هـ^(٥٧)، ثم سيف الدولة أبو الحسن بن أبي الهيجاء وعبد الله بن حمدان سنة ٣٢٥هـ، ثم أبو بكر بن رائق أمير الأمراء استولى على الراضي بالله سنة ٣٢٨هـ، وولى على الجزيرة وقنسرين والعواصم من قبله: طريف البكري (ابن الاثير ٣٦٤/٨) وقتل سنة ٣٢٨هـ، ثم يانس المؤنس (مولى مؤنس المظفر الخادم) على الجزيرة وقنسرين ولكن يانس انحاز إلى الاخشيدي وبقيت الجزيرة بيد ناصر الدولة إلى أن ملكها معز الدولة ابن بويه البويهى سنة ٣٣٧هـ.

انحلال الخلافة

على أثر ثورة الزنج: ولدى تعيين الخليفة لأحد القادة حاكماً على أحد الأقاليم سرعان ما كان هذا القائد يتمرد ضد الخليفة ويعلن استقلاله، حتى عندما يعترف هذا الحاكم بسيادة الخليفة، فإنه يصبح بالفعل أميراً مستقلاً وعلى ذلك تمزقت الدولة العباسية إلى أقسام ولم تتوحد أبداً.

بيد أن هؤلاء الأمراء الجدد جلبوا الأمان لرعاياهم وقدموا لهم حكومة مستقرة وحسنوا الوضع الاقتصادي واكتسبوا اعتراف الرعية بالجميل، فتشأت دولة الصفارين وإمارة طبرستان وإمارة ابن أبي الساج في أذربيجان والأسرة الساسانية وعاصمتهم بخارى، ولم يبق في يد العباسيين سوى قطعتين، هما خوزستان وفارس اللتين تطلان على الخليج العربي، ولكن بصورة غير دائمة، ثم مصر وسوريا اللتان حكمهما أحياناً الطولونيون ومن تلاهم. وأن كانت الولايات المذكورة كلها تخضع اسمياً للخلافة العباسية.

نفقات الجيش

كان المدنيون في بداية القرن العاشر الميلادي ما زالوا مسيطرين وكان البلاط باهظ التكاليف، وأصبح مركزاً للمؤامرات السياسية، وقد بلغت نفقات الجيش العراقي آنذاك أيام السلم في عهد الخليفة المقتدر بالله (٩٠٨-٩٣٢م) مليون دينار في السنة. وبدأ نفوذ الجيش يتزايد حيث كان يتألف من عناصر مختلفة من المرتزقة والعبيد الذين يتم شراؤهم للخدمة العسكرية وعلى رأسهم

الأتراك وإلى جانبهم وحدات من الديلم من الشواطئ الجنوبية لبحر قزوين، والبربر من المغرب والعبيد من السودان. وكانت رواتب الجند في الجيش العربي أعلى منها في الجيش البيزنطي. وكان الوزراء العرب في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي لا يتم تعيينهم إلا بالاتفاق مع القواد. وكان قسم من الأموال يتم الحصول عليه من مصادرة الوزراء والكتاب وضامني الضرائب ومن الغرامات المفروضة على التجار وعلى أموال الإرث.

وقد بلغت الغرامات التي فرضها المحسن أثناء الوزارة الثالثة لأبيه ابن الفرات (٢٢٣-٣٢٤هـ) ٦٩٥٥٠٠٠ دينار.

وقد حصل أحدهم على عقد ضمان الضرائب في خوزستان بعد أن دفع مبلغ عشرون ألف دينار لأحد الوسطاء^(٨٥).

ويسبب الأزمة المالية التي كانت تعترض وصول الرواتب العسكرية في الوقت الملائم رؤي أن تناط جميع الأمور العسكرية والإدارية بقائد الجيش وتنفيذاً لذلك سمي المقتدر بالله قائد الجيش البريدي (أمير الأمراء) واعطاه هذه الصلاحية وذلك عام ٣٢٤هـ وقد خلفه بعد ذلك ابن رائق في عهد المقتدر بالله.

١٢- قرامطة البحرين

سار أبو طاهر القرمطي إلى الدالية من طريق الفرات عام ٣١٦هـ فلم يجد فيها شيئاً، فقتل من أهلها جماعة، ثم صار إلى الرحبة فدخلها ثامن المحرم، بعد أن حاربه أهلها، فوضع فيهم السيف بعد أن طمع بهم فأمر مؤنس المظفر بالمسير إلى الرقة فسار إليها في صفر وجعل طريقه على الموصل، فوصل إليها في ربيع الأول ونزل بها. وأرسل أهل قرقيسيا يطلبون من أبي طاهر الأمان، فأمنهم وأمرهم أن لا يظهروا أحداً منهم بالنهار، فأجابوا إلى ذلك، وسير أبو طاهر سرية إلى الأعراب بالجزيرة فتهبهم وأخذوا أموالهم، فخافه الأعراب خوفاً شديداً وهربوا من بين يديه وقرر عليهم إتاوة على كل رأس دينار يحملونها إلى هجر^(٥٧).

ويروي عريب الخبر السابق هكذا: وفيها سنة ٣١٦هـ أوقع سليمان الجنابي القرمطي بأهل الرحبة، وقتل منهم مقتلة عظيمة، ووجه سرية إلى ديار ربيعة فأوقعت ببوادي الأعراب واستباحتها، ثم عادوا إلى الرحبة واستاقوا خمسة آلاف جمل ومواشي كثيرة. ثم أصدع أبو طاهر من الرحبة إلى الرقة، فدخل أصحابه الرض وقاتلوا منهم ثلاثين شخصاً (٥٦) وأعان أهل الرقة أهل الرض وقتلوا من القرامطة جماعة فقاتلهم القرامطة ثلاثة أيام ثم انصرفوا آخر ربيع الآخر (٨٧). وكان أبو طاهر في تسعمائة فارس وثلاثمائة راجل (٨٨).

أما المسعودي فيذكر أن السرية التي وجهها الجنابي إلى الرقة - تبلغ ألفين وكان عليها الحسن بن علي بن سنبر ومعاذ الكلبي أيضاً، كان نزولها عليه يوم الأحد لثمان بقين من جمادى الأولى سنة ٣١٦هـ وأميرها نجم غلام جني الصفواني. فكان القتال بينهم يوم الثلاثاء والأربعاء لخمس بقين من هذا الشهر وانصرفوا في آخر يوم الأربعاء، وقد أصيب عدة من الفريقين وأكثر من السرية (أي القرامطة) راجعين إلى الرحبة (٨٩).

ويصف عريب شدة الموقعة فيقول: وحذف القرامطة إلى الرقة للإيقاع بأهلها، فحاربوهم أشد محاربة، ورموهم من أعالي دورهم بالماء والتراب والآجر ورموهم بسهام مسمومة، فمات منهم نحو مائة رجل وانصرفوا عنها مفلولين^(٩٠).

ويذكر أن أهل دمشق وحلب كانوا قد قاوموا القرامطة (قرامطة الشام) مقاومة شديدة وهزموهم. وتعرض قرامطة البحرين إلى طريق الحج لما يجره عليهم من الفوائد حتى أنهم غزوا الكعبة وأقتلوا الحجر الأسود ونقلوه إلى هجر، وفرضوا المكوس بميناء البصرة^(٩١).

١٣- الهجمة البدوية

شعر العرب بالظلم الجديد الذي وقع عليهم في العصر العباسي، وأنهم أصبحوا الطبقة الدنيا تحت إمرة الخراسانيين - عرباً كانوا أم غير عرب - والفرس. وكان هذا لم يكفي فقد وقعوا كذلك - ومعهم الخلفاء - تحت نير القادة الأتراك وذلك اعتباراً من عهد المأمون وما بعد، وقد عبر عن ذلك وبكل وضوح نصر بن شبث العقيلي الذي ثار زمن الفتنة بين الأمين والمأمون والتي لم يكن للعرب فيها حينذاك أي صوت يذكر واستمرت ثورته - كما سبق ذكره - أربعة عشر عاماً (١٩٦-٢٠٩هـ) ولم يكن هدفه إزالة الخلافة العباسية أبداً بل كان يعمل على استعادة العرب لحقوقهم وكرامتهم حتى أن عبد الملك بن صالح العباسي صاح في الرقة عام ١٩٦هـ خلال الفتنة بين الأمين والمأمون: (تستضام العرب في دارها ومحلها وبلادها...) كما تقدم ذكره. هذا بالإضافة إلى خروج الوليد بن طريف الشيباني ١٧٨، ١٧٩هـ في الجزيرة وأرمينيا، وخروج العطار بن سفيان الأزدي وسيطرته على الموصل ١٧٧-١٨٠هـ في عهد الرشيد وعدا عن العصبيات (الفتن) بين القبائل العربية في الشام التي ظهرت في الأعوام ١٧٤-١٧٦-١٨١-١٨٧-١٩١هـ والتي كان يثيرها العباسيون ممن كانوا يطمحون إلى الحلول محل الرشيد.

وكانت قبيلة قيس وغيرها من القبائل العربية تعيش حياة صعبة إذ لا يصلها من ملايين الدولة التي يسبح فيها العباسيون والأتراك يرمونها يميناً وشمالاً إلا أقل من النذر اليسير فتضطّر إلى أن تبحث عن قوتها في النهب والسلب ولا تجد من يساعدها على الحياة الشريفة والهادئة وخاصة بعد أن توقفت الاستعانة بهم في الجيش يضاف إلى ذلك أن المصادر العربية تتدد بهم وتتحامل عليهم ولا تتصفهم أو تعذرهم. ومن المعروف أن عمر بن الخطاب في عام المجاعة أوقفه عقوبة قطع اليد عن بعض السارقين رغم أنه نص قراني ولا يحتمل التأويل. ونذكر على سبيل المثال هذه الحادثة من استبداد الدولة والأتراك بالقبائل العربية، ففي جمادى الآخرة سنة ٢٢٠هـ (في خلافة الواثق ٢٢٧-٢٣٢هـ) كان بنو سليم يتطاولون على الناس حول المدينة بالشر وسيطروا على أسواقها وأوقعوا بأناس من بني كنانة، وعجز عنهم عامل المدينة وانتصر بنو سليم وغنموا ثم وجه إليهم الواثق الكبير فقدم المدينة في شعبان سنة ٢٢٠هـ فقتل منهم من قتل وحبس من حبس فرشوا السجناء وخرجوا هرباً من جور عامل المدينة محمد بن صالح بن عباس الهاشمي ثم صار بغا إلى فذك فحارب بني فزاره ومرة، ثم شخص إلى ضربه لطلب بني كلاب فاحتبس منهم نحو ألف وثلاثمائة رجل كما شخص بغا نحو اليمامة في أول صفر (٢٣٢هـ) وقتل من بني نمير زهاء ألف وخمسمائة رجل وصار بكل من أسرهم إلى سامراء وحاول بعضهم في الطريق كسر قيوده والهرب فكان يحضرهم واحداً بعد واحد ويضربه ما بين الأربعمئة والخمسمائة. ودخل في المحرم سنة (٢٣٣هـ) إلى سامراء وكان عدد من قدم به بغا من الأعراب سوى من مات منهم أو هرب أو قتل، ألفان ومائتا رجل من بني نمير ومن بني كلاب ومن مرة وفزاره ومن قبيلة طيء^(٧٨) وفي اليعقوبي أن الواثق وجه بغا الكبير سنة ٢٣٠هـ وأمره أن يقتل كل من وجده من الأعراب فقتل منهم خلقاً عظيماً، وصلبهم على الشجر، وأسر منهم عالماً... وحمل من بقي منهم في الأغلال^(٧٩).

ويموت الواثق عام ٢٣٢هـ بدأت أجزاء المملكة الإسلامية بالانفصال عنها وأن احتفظت بالطاعة الاسمية للخلافة العباسية وقد شعر العرب بالأخطار التي توشك أن تهجم عليهم من الشرق، ودفعت الصحراء العربية إلى خارجها موجة من العناصر العربية البدوية في جميع الاتجاهات نحو الجزيرة وجنوب الشام ومصر فانضمت إلى قبائلها التي كانت تقيم هناك من قبل،

ولم تكن هذه الموجة تستطيع القيام بالفتح والغنيمة والبلاد حولها كلها إسلامية، وكانت فرص الانخراط في الجيش العباسي قد سدت أمامها - كما تقدم - مع وجود الترك فيه منذ أيام المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ) وحملت معها سلسلة من التغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولما كانت على الإسلام لذلك لم تأخذ طابع الدولة الإسلامية ولكنها اعتنقت مبادئ إسلامية متطرفة تبرر بها غزوها للمناطق الحضرية، فكان من ذلك جماعة القرامطة وهزاتهم في العراق والشام منذ سنة ٢٨٠هـ حتى سنة ٣٧٠هـ وبعضها اعتنق المبادئ الشيعية كالجماعات التي لحقت بالحمدانيين وكانت معيناً لهم في حملاتهم الحربية ضد الروم فترة طويلة خلال القرن الرابع كله (وإن خلقوا للحمدانيين مشاكل كثيرة كما هو واضح في ديواني المتنبّي وأبي فراس الحمداني). وبعضها استقر في شمالي الشام كبني كلاب ومنهم المرداسيون والتميريون والعقيليون، ولعبوا الأدوار السياسية الكبيرة في الشام ما بين القرنين الرابع والخامس، ويلاحظ أن بعض هذه الجماعات أسست أو حاولت أن تؤسس دولاً في المناطق التي استقرت بها وبعضها بقي على الحكم البدوي ولكنها جميعاً عجزت عن أن تبرز وتقوم طويلاً بسبب بداوتها وتخلفها الحضاري عن مستوى المناطق التي دخلتها، فقد مكنتها كثرتها من القوة، لكن مستواها الفكري ونزاعاتها بعضها مع بعض لم يمكنها من إقامة الدولة الضخمة، لذلك تبنت النظم الإسلامية السائدة وحاولت البروز من خلالها، وتفاوت نجاح العرب في ذلك بين الحمدانيين الذين كان لدولتهم بعض الحضارة، وبين المرداسيين الأقل نضوجاً لكن الموجة البدوية جميعها ذابت في المواقع التي استقرت فيها فقد أجهزت عليها السلاجقة^(٩٤).

ووصف ابن حوقل (الذي ألف كتابه 'صورة الأرض' بين العامين ٣٥٦-٣٧٦هـ) تلك الهجمة البدوية فقال: سيطرت قيس بالبدو من بطونها من قشير ونمير وعقيل وكلاتب على أجزاء كبيرة من الجزيرة، وتحكموا في خفائرها ومرافقها (وذلك في القرن الرابع الهجري) ومن بينها وادي الحيال (وادي قرب سنجار فيه مشاجر وضياح وكروم وخصب وأب أي مرعى) يسكنه قوم من العرب (ابن حوقل ١٩٩) وحران وجسر منبج والخابور والخانوقة وعربان وقرقيسا والرحبة، وفي قرب الخابور على العبيدة وتينير والجحشية وطلبان، وعلى بوادي ومفاوز وسبخ الجزيرة البعيدة التي يستخرج منها الملح والاشنان والقلي، فإذا ضعف سلطان الدولة قوي نفوذ هذه البطون، وصارت البادية تتحكم المدن، وإذا قوي سلطان الدولة ضعف نفوذ هذه البطون (ابن حوقل ١٩٩ و٢٠٤ و٢٠٥).

وذكر ابن حوقل على سبيل المثال ما جرى في حران فقال: (وكان لها أي حران رستاق عظيم وكور جميلة، فافتتح الروم أكثرها، واناخت بنو عقيل وبنو نمير بعقوتها وبقعتها، فلم يبق منها باقية ولا في رساتيقها ثاغية ولا راغية (ابن حوقل)، العقوة والعقاة: الموضع أمام الدار أو المحلة أو حولها. البقعة: القطعة من الأرض تتميز مما حولها. يقال: ما له ثاغية ولا راغية أي ما له من شاة ولا بعير.

دخل بنو نمير الجزيرة في عام ٣٠٩ وكانوا بداية^(٩٥) والعقيليون دخلوها عام ٢٧٥هـ لكنهم لم يملكوا حتى سنة ٣٨٠هـ وبنو كلاب (ومنهم بنو مرداس) سنة ٣٢٠هـ^(٩٦).

وفي عام ٣٤٤هـ كانت نمير تنزل بشاطئ الفرات ونواحي الرقة وكان في شمالي الشام طيء وكعب وكلاتب^(٩٧).

صارت القبائل لا يستهان بها في فترة ضعف الخلافة العباسية في بغداد وقد أقام بنو حمدان (من بني تغلب من العدنانية عرب الشمال) الدولة الحمدانية في الموصل (٣١٧-٣٩٤هـ) ثم في حلب (٣٣٣-٣٩٤هـ) وأقام بنو كلاب الدولة المرداسية في حلب (٤١٤-٤٧٢هـ) وأقام بنو عقيل دولتهم في ديار بكر والجزيرة بالعراق (٣٨٦-٤٨٩هـ). أما قشير فتوطنت حول قلعة دوسر التي تبدل اسمها إلى جعبر نسبة إلى جعبر بن سابق أحد شيوخ قشير الذين حكموها.

الدويلات العربية البدوية

١٤- الحمدانيون

ظهر الحمدانيون كدولة عربية في منطقة الموصل وديار ربيعة والجزيرة وامتد حكمهم إلى أن كونوا إمارة الموصل وإمارة حلب، وكانوا في اغلب الأحيان يعاضدون الخلفاء العباسيين وينافسون البويهيين في العراق والاختشيديين ثم الفاطميين في مصر. وهم ينتسبون إلى قبيلة تغلب من ربيعة العدنانية.

يبتدئ ظهور الحمدانيين في خدمة الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري على يد كبيرهم حمدان بن حمدون بن الحارث التغلبي الذي كان حياً سنة ٢٨١هـ وعمر بلاد الموصل وديار ربيعة^(٩٧) أي في خلافة المعتضد بالله (٢٧٨-٢٨٩هـ)، ثم أن الخليفة العباسي المكتفي (٢٨٩-٢٩٥هـ) قلد أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون سنة ٢٩٣هـ إمارة الموصل فحكمها إلى أن توفي سنة ٣١٧هـ.

وفي خلافة المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ) قام مؤنس الخادم - وكان ينوب عن ابن المقتدر وله الحل والربط - بتولية الحسين بن حمدان الجزيرة لكن الحسين هذا خرج عن طاعة المقتدر بالله، فصار مؤنس الخادم وقبض عليه وحمله إلى بغداد راکباً على جمل سنة ٣٠٢هـ، والسبب في ذلك أن الوزير علي بن عيسى طالب الحسين بن حمدان بمال عليه من ولايته ديار ربيعة فدافعه، فأمره بتسليم البلاد إلى عمال السلطان، فامتنع، وانتهى الأمر بأسره وأسر ابنه عبد الوهاب وجميع أهله وكثير من صحبه، وقبضت املكه^(٩٧).

تولى ابراهيم بن حمدان نصيبين منذ عام ٣٠٧هـ (في خلافة المقتدر)، ثم أن المقتدر بالله ولى إمارة الموصل بما فيها نصيبين سنة ٣١٧هـ لناصر الدولة الحسن بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان مكان أبيه أبي الهيجاء، وحاولت الدولة فيما بعد أن تعزله، كما سيجئ، لكنها عجزت عن ذلك لضعفها.

كان الحمدانيون في حلب يرون رأي الشيعة. وكان العرب الذين هاجروا إلى الشام والعراق وسميت (الهجمة البدوية) في أوائل القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي من الجزيرة العربية شكلوا في العصر العباسي الثاني قوة سياسية كان لها عند الخلفاء العباسيين شأن كبير إذ كانت قوة لا يستهان بها في فترة ضعف الخلافة العباسية فسدت فراغاً بين قوة الخلافة في بغداد أو في الحقيقة قوة أمير الأمراء الذي يحكم باسم الخلافة، وقوة الإخشيديين ثم الفاطميين الذي يحكمون في مصر والشام، وكان الطرفان في أضعف حالاتهما وكان لزاماً أن توجد قوة فعالة في هذه المنطقة الكبيرة الأهمية لمواجهة الجبهة البيزنطية. وكان قيام الحمدانيين ضرورياً لسد هذا الفراغ في وقت انتعشت فيه الامبراطورية البيزنطية في عهد الأسرة المقدونية ونشطت لمهاجمة العالم الإسلامي.

١) الدولة الحمدانية في الموصل ٣١٧-٣٩٤هـ ثم في حلب ٣٢٢-٣٩٤م في خلافة المتقي بالله ومن

بعده

وكان ظهور الحمدانيين كذلك يمثل انتعاش العنصر العربي بعد تقدم العناصر التركية في العراق وبعد أن أسقط المعتصم العرب من الديوان، ثم تتبع ابنه الواثق حركات العرب بالضرب والقمع في الجزيرة العربية وفي الشام وفي مصر. وكانت سياسة الخلفاء تتجه إلى أحياء القوة العربية للحمدانيين، فقد وقفوا في وجه المتسلطين عليها من أمراء الأمراء وقد كان العراق في الحقيقة يمثل الخلفية للحمدانيين في مواجهة الروم. وكان يهمهم أن يبقى العراق قوياً وأن تستقر أموره. كما كان الحمدانيون يمثلون القوة التي تلجأ إليها الخلافة العباسية إذا ضاقت بها الأحوال في العراق^(٩٨).

٢) الحمدانيون وبنو حبيب في ديار ربيعة

هاجم ابن حوقل في كتاب 'صورة الأرض' الحمدانيين هجوماً شديداً واتهمهم بأنه بسبب اضطهادهم وتشددهم في تحصيل الضرائب والرسوم ومصادرتهم كانوا السبب في هجرة بني

حبيب (من تغلب) من ديار ربيعة إلى بلاد الروم وتحولهم إلى الديانة المسيحية ومهاجمة أراضي المسلمين وتخريب زراعاتهم. وانتقل فيما يلي جزءاً من كلامه:

كانت نصيبين من أجل بقاع الجزيرة وأكثرها فواكه ومياه وخضرة إلى سعة غلات من الحبوب والكروم فأكب عليها بنو حمدان بضروب الظلم والعدوان وتجديد كلف لم يعرفوها إلى المطالبة ببيع الضياع والمسقف من العقار حتى حمل ذلك بني حبيب إلى أن خرجوا بذراريهم وعبيد قـم ومواشيهم... ومن ساعدتهم من جيرانهم وشاركهم فيما قصدوا به من الغصب لعقائدهم في نحو عشرة آلاف فارس كانوا يهاجمون بها بلاد الروم يقدمهم مثل هذه العدة (أي العدد) من الجنائب والبالغ عليها الخدم والخول (العبيد) والموالي فتصبروا بأجمعهم وأوثقوا ملك الروم من أنفسهم بعد أن أحسن لهم النظر في إنزالهم على كرائم الضياع ونفائس المتاع، وخيرهم القرى والمنازل ورفدهم بالنواحي الحسنة والمواشي في ضياعه... وأكرم من الكلف ما لم يجز بمثله فأطعموهم فيما نالوه. فالحق بهم كثير من المتخلفين عنهم، فشنوا الغارات على بلاد الإسلام وصاروا خاصة الملك (ابن حوقل ١٩١).

عمد الحسن بن عبد الله بن حمدان أي ناصر الدولة إلى نصيبين واكتسح أشجارها وبذل ثمارها، وعور أنهارها، واستصفها ممن كان دخل بلاد الروم، واشترى من قوم واغتصب آخرين فملكها إلا القليل. وجعل مكان الفواكه الغلات بالحبوب والسمسم والقطن والأرز، فصار ارتقاها (أي وادها) أضعاف ما كانت عليه وزادت ربوعها (إنتاجها) وسلمها إلى من بقي من أهلها ولم يمكنهم النهوض عنها واثروا البقاء على شرط مقاسمة النصف من غلاتها، على أن يقدر الدخل ويقومه عينا إن شاء أو ورقا، ويعطي الحراث ثمن ما وجب له (دون الخمسين) ويجري في التقدير ظلم كبير ولم يزالوا كذلك معه (أي مع ناصر الدولة) ومع ولده الفضنفر إلى أن لحقا بأسلافهما الدجالين، فما بكت عليهما السماء والأرض (ابن حوقل ١٩٢). وكان لهما (الترقة والرافقة) عمارة وأعمال ورساتيق وكور، فقل حظهما من كل حال، وضعفت بما حملها سيف الدولة تجاوز الله عنه من الكلف والتواب والمغارم ومصادرة أهلها مرة بعد أخرى (ابن حوقل ٢٠٣). مما تقدم يتضح أن:

١. أن أرض النازحين لم تصدر إلا بعد أن نزح أصحابها عنها (واستصفها ممن كان دخل إلى بلاد الروم: النص الثاني صفحة ١٩٣، أي أن نزوحهم لم يكن بسبب مصادرة الأراضي التي لم تكن مصادرة بعد. ١. أن زرع الغلال مكان الفواكه (وجعل مكان الفواكه الغلات: النص الثاني صفحة ١٩٣) يزيد من وارد الأرض أضعاف المرات. وقد فعل هشام بن عبد الملك ذلك من قبل في الهني والمري، كما تقدم. ٢. أن تغيير الدين و الحقد على الوطن ومهاجمته لا يمكن أن ينجم عن الغضب بل عن إيمان ضعيف وطمع في المال و أمور الدنيا.

٣. أن في القصة الكثير من المبالغات غير المعقولة ومنها:

(أن بني حبيب كانوا عشرة آلاف فارس غير الخول والموالي وأنهم كانوا يحاربون الروم ثم انقلبوا يغيرون على بلاد المسلمين و يخربون فيها). مع أنه حسب علمي لم توجد أي إشارة تدعم ذلك في المصادر العربية والأجنبية و لو من بعيد.

٤. أن ما ورد في النص (١٩١ من ابن حوقل) أن بني حبيب أوثقوا من أنفسهم (أي قدموا ضمانات أو رهائن وما أشبه ذلك ليثق بهم البيزنطيون)، وقوله بعد أن أحسن لهم النظر في إنزالهم، وخيرهم القرى والمنازل تدل على أن بني حبيب لجؤوا إلى بلاد الروم في غير عجلة من امرهم وبعد مفاوضات وعقد اتفاقيات وتقديم ضمانات فهي هجرة ماجورة وقد تكرر حدوث ذلك من الطرفين.

٥. أن ناصر الدولة تولى الموصل (بما في ذلك نصيبين) عام ٣١٧هـ وتملك نصيبين من قبل الحمدانيين ابراهيم بن حمدان منذ عام ٣٠٧هـ وسبقه إلى ذلك أيضاً حمدان في أواخر القرن الثالث الهجري وهزم بنو حبيب على يد ابراهيم بن حمدان وخرج بنو حبيب إلى بلاد الروم كما

ذكر ابن حوقل سنة ٣٣٠هـ فكيف صبر بنو حبيب على ظلم بني حمدان هذه المدة الطويلة التي تمتد أكثر من عقدين من السنين ولديهم القوة الكافية من المقاتلين والخيول والمعدات للتمرد أو الهجرة وهذا يدل على أن هذه الهجرة - إن صح حدوثها - لم يكن سببها الظلم والمصادرة بل توفر أسباب الرياح و المغنم من البيزنطيين والهزيمة أمام الحمدانيين.

والآن لنبحث الوقائع حسب ما كتبه المصادر في هذا الموضوع:

إن موطن بني حبيب هو الخابور في جوار بني تغلب وكانت حبيب تضارب بني حمدان، وتلقى الحرب منهم عشرة آلاف فارس شاكى السلاح فنازلهم أبو إسحاق إبراهيم بن حمدان في مدينتهم السمعية. وقد كان الحسين (بن حمدان) وكانت ولايته حوالي سنة ٣٠٣هـ (نازعها قبل ذلك فلم يقدر عليها واعجله السلطان 'عنها (أي الدولة) بسبب عزله^(٩٩) وتولية إبراهيم بن حمدان ديار ربيعة سنة ٣٠٧هـ. وأن حمدان بن حمدون (كان حيا سنة ٢٨١هـ) وعمر بلاد الموصل وديار ربيعة بالميرة ثلاثة أعوام بالمحل فسمي 'مكابد المحل' وقيل أن الذي وهبه في سنة واحدة ثلاثة آلاف كر. والكر يومئذ قيمته ثلاثة آلاف دينار (وهذا تقدير مبالغ فيه). ووفد عليه فيمن وفد 'بنو حبيب' وكانوا أعداء واعداء قبيلته فساوهم بأقرب عشيرة^(١٠٠) يبدو من رواية ابن خالوية أن هذه العداوة كانت متأصلة بين الحمدانيين وبني حبيب، وأن الحمدانيين كانوا مسيطرين. وكما يبدو من رواية ابن ظافر الآتية، أن بني حبيب قاتلوا في جيش الدولة ضد الحمدانيين، فأنهزموا وهربوا إلى بلاد الروم، وأن الأمر كله كان ضغائن تراكمت وأدت إلى هذه النتيجة وأن ذلك حدث سنة ٣٢٣هـ وليس سنة ٣٣٠هـ كما يوحي بذلك ابن حوقل، وقد حدث قبل ذلك قتال بين الحمدانيين و بني حبيب قام به إبراهيم بن حمدان الحمداني كما تقدم. وإن ظاهرة انتقال الجماعات من دولة إلى أخرى ومن دين لآخر، كانت من الأمور المعتادة لكثرة حدوثها خلال العلاقات العربية البيزنطية وعلى سبيل المثال: أن أمير ملطية العربي المسلم أبا حفص من ذرية عمرو بن الاكتع، ومعاوية أبا الصلت دخلا في مفاوضات مع يوحنا كوركواس لأنهما شعرا فيما يبدو أن بغداد لا تعني بهما، وإن يوحنا كوركواس احتفى بهما وأرسلهما إلى القسطنطينية، حيث عقدا معاهدة تحالف رسمي مع الامبراطور البيزنطي رومانوس الاول ليكسابينوس (٩١٩ م) الذي شارك قسطنطين السابع وقد عادا بعد عقد المعاهدة إلى بلدهما حيث حاربا في صفوف القوات البيزنطية، ثم ظهرا في القسطنطينية كمنتصرين يقودان أسرى المسلمين. وإن المعاهدة ظلت سارية حتى مات أبو حفص فنقضها أهل ملطية.

معركة الحمدانيين مع جيش الدولة بما فيه بنو حبيب

غلب ناصر الدولة على الموصل عام ٣٢٣هـ لما ضعفت الدولة العباسية، فبعث أبو علي بن مقله وزير الراضي إلى ناصر الدولة عمه أبا العلاء سعيد بن حمدان و ولاء الموصل وأمره أن يقبض على ناصر الدولة، لكن هذا قتل عمه وذلك في رجب سنة ٣٢٣هـ، فتجهز الوزير ابن مقله وخرج من بغداد قاصدا الموصل لكن ناصر الدولة ترك الموصل وخرج منها بعد أن أودع قلعتها كل الخزائن والأموال والحرم والعلوف والقوات والمواشي، وجعل في الموصل من يدافع عنها وذهب إلى أرمينية ومعه كل تجار البلدة.

فلما وصل ابن مقله إلى الموصل أقام فيها في حالة سيئة، وبعث بالعساكر مع علي بن خلف ابن طاب ليتبع ناصر الدولة، لكن علي بن خلف لم يصل إليه في أرمينيا، ونفذ القوت والعلوف في الموصل فخرج ابن مقله من الموصل بعد أن قلدها لعلي بن خلف بن طاب، وقلد جزيرة ابن عمرو لماكرد الديلمي، وقلد عبد الله بن أبي علاء وعاد إلى بغداد وعلم ناصر الدولة بذلك فخرج من أرمينية وقد اطاعه سائر ملوكها وجبى خراجها (أخبار الدولة الحمدانية وأخبار الدول المنقطعة - علي بن ظافر الأزديص ٤) وقصد الجزيرة وبها ماكرد الديلمي.

و كاتب مأكرد جماعة ناصر الدولة من الأمراء وامنهم باسم ابن مقلة (الوزير) فلما نزل ناصر الدولة الموصل استأمن جماعته إلى مأكرد، فأنهزم ناصر الدولة ونزل، ورأس علي بن جعفر الديلمي الذي كان مع علي بن خلف بن طياب بالموصل في ان يفتك بعلي بن خلف ووعد بالإحسان اليه على ذلك، فلم يتهبا له ذلك لكنه استطاع ان يفسد جميع من كان مع علي ابن خلف لينحازوا إلى ناصر الدولة. وهكذا دخل ناصر الدولة الموصل فاستأمنوا له جميعهم وخرج ابن طياب هارباً ليلة ١٢ ذي القعدة سنة ٣٢٣هـ، وبعث ناصر الدولة جيوشه مع علي بن جعفر إلى الجزيرة لإخراج مأكرد عنها، فلما قرب منها خرج ما كرد وسار إلى نصيبين واستجد بأبي ثابت الغلاء العمر الحبيبي (من حبيب صاحب السمعية فجمع له العرب و نصره، وكتب علي ابن جعفر إلى ناصر الدولة بالخبر فأمدّه بأخيه سيف الدولة وأمر علي بن جعفر بطاعته ثم سار تابعاً لأخيه بنفسه فقاتل مأكرد وأباً ثابت فهرب مأكرد خائفاً إلى الرقة ثم إلى بغداد وقتل أبو ثابت وهربت بنو حبيب إلى بلاد الروم وتصوروا وخربت بلدتهم (السمعية) واستقامت مملكة ناصر الدولة على الموصل والجزيرة وديار بكر وريبعة ومضر (كتاب: المسلمون وجهادهم ضد الروم- د. جابر محمد دياب ص ٨٧) .

درجة حياة ابن حوقل

وبعد أن نقلنا ما كتبه ابن حوقل، علينا أن نتعرف على هذا الجغرافي ونبحث عن مقدار صدقه وحياده في هذا الموضوع .

هو أبو القاسم محمد بن حوقل من نصيبين كما ذكر في اسمه على ظهر كتابه (النصيبى) (توفي سنة ٣٦٧هـ) فهو معاصر، قدم المسودة الأولى من كتابه إلى سيف الدولة (ت ٣٥١هـ) ويظهر أنها لم تكن تحوي شيئاً يمس الحمدانيين. وانتهت المسودة الثانية سنة ٣٦٧هـ (سنة وفاته) وبدأ رحلته من بغداد في رمضان سنة ٣٣١هـ^(١٠١) وهو في النسخة الأخيرة يركز على ذم ناصر الدولة وابنه وأقل من ذلك على ذم سيف الدولة وذلك كما تقدم من نصوصه هنا .

ولا شك أنه بالغ كثيراً فيما ذكره عن بني حمدان لأن مثلهم كان كثير الوجود في التاريخ الاسلامي فقد حدث في عهد المنصور ظلم أكثر بكثير كما ورد في كتاب (ديونيسيوس) وكذلك حدث في عهد الرشيد حتى عذب الناس عذاباً شديداً من أجل دفع المستحقات وسيجيء تفصيل هذا، كما حدث من النزاع بين قبائل قيس وتغلب واليهامية كثير من النزاعات وادى إلى نزوح بعضها ولكن ليس إلى بلاد الشام بل إلى مصر وغيرها .

وفي الفرق بين حديث ابن حوقل عن ناصر الدولة وأخيه سيف الدولة. قال عن الاول: 'ولم يزالوا كذلك معه (مع ناصر الدولة ومع ولده الفضنفر) إلى ان لحقاً بأسلافهما الدجالين، فما بكت عليهما السماء والأرض' (ابن حوقل ١٩٣).

ويدل ما سنورده من كتابه الآن على تحامله الشديد على بني حمدان و على أهل الأندلس وإثارة الفاطميين وتحريضهم على غزو الأندلس حتى يشبه في أنه كان يتجسس لحسابهم. يضاف على ذلك أنه اطلب في ذكر وارادت دولة الأندلس الطائفة يقول: 'ومن اعجب احوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها وخفة نفوسهم ونقص عقولهم ويعددهم عن البأس والشجاعة والفروسيه والبساله ولقاء الرجال ومرأس الأنجاد والأبطال وعلم موالينا عليهم السلام (أي الفاطميين) بمحلها في نفسها ومقدار جباياتها وموقع نعمها ولذاتها (ابن حوقل ١٠٤) .

(وحين بنى عبد الرحمن بن محمد مدينة الزهراء أمر مناديه بالنداء في جميع اقطار الأندلس أن من اراد ان يبتني داراً أو ان يتخذ مسكناً بجوار السلطان فله معونة اربع مائة درهم فتسارع الناس إلى العمارة (ابن حوقل ١٠٧) وليس لجيوشهم (جيوش الأندلس) حلاوة في العين لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها وان شجعت انفسهم ومرونا بالقتال فلن أكثر حروبهم

تتصرف على الكيد والحيلة وما رايت ولا رأى غيري بها انسانا قط جرى على فرس فأره او برزون هجين ورجلاء في الركائب ولا يستطيعون ولا بلغني عن احد منهم ذلك لخوفهم السقوط وبقاء الرجل في الركاب على قولهم وهم يفرسون على الاعراء من الخيل وما أطبقت قط جريدة عبد الرحمن بن محمد ولا من سبقه من آله وآبائه على خمسة آلاف فارس ممن يقبض رزقه ويختم عليه ديوانه... الخ) (ابن حوقل ١٠٨). يفرسون: يركبون الفرس، أعراء: بدون سرج، الجريدة: دفتر أرزاق الجيش في الديوان. وإذا كان هذا حال الجيش الاندلسي فكيف احتل الاندلس وحافظ عليها ودافع عنها!

أهذه هي دولة الأندلس التي قال المنصور عن مؤسسها عبد الرحمن الداخل أنه صقر قریش والتي قال عنها المستشرقون أنها في الوقت الذي كان فيه البقال يعرف القراءة والكتابة والحساب كان ملك فرنسا أميا، الا يقصد كلام ابن حوقل كله تحريض الفاطميين على غزو الأندلس.

ومن الناحية المالية يقرن الأندلس بالحمدانيين فيقول وسمعت غير ذي ثقة (أي أكثر من ثقة) ممن يستوطن جبايات البلد (أي يعرف ببواطن الأمور وبالجباية) وحاصل عبد الرحمن بن محمد ان لديه مما جمعه من الاموال إلى سنة ٣٤٠هـ (حوالي ٩٥١م) ما لم ينقص عن عشرين الف ألف دينار (عشرين مليون دينار) الا اليسير القليل دون ما في خزائنه من المتاع والحلي ولما توفي عبد الرحمن بن محمد سنة ٣٥٠هـ صار الأمر إلى ابنه أبي العاصي الحكم بن عبد الرحمن (٣٠٢ - ٣٦٠هـ) فصادر رجال أبيه وقبض نعم خدمه والوزراء الذين لم يزالوا في صحبته فكان الحاصل منهم عشرين الف ألف دينار (عشرين مليون) يتواطأ في علم ذلك أهل الخبرة بهم ولم يكن لهذا المال في وقته في بلد الاسلام شبه الا ما كان في يد الغضنفر ابن أبي تغلب بن ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان فإنه كان مما يتعامله خاصتهم بالجزيرة والعراق ومقداره يزيد على ذلك حتى قيل أنه خمسين الف ألف دينار (خمسون مليون) وأدال الله منه فأخرجه عن يده ومحقه وبدده وكذلك عادة الله في كل ما كسب من حرام وجمع بالبغي والظلم والاثام و صورة ما بالاندلس من المال الذي قدمت ذكره صورة ما للشقي بن الشقي، وقد استحوذ عليه ابو عامر بن أبي عامر صاحب السكة بالاندلس وقتنا هذا (القرن الرابع) فهو بالغ في تقريقه (بعد ان اشقى به من جمعه وباء بآثمه من لم يحظى به) (ابن حوقل ١٠٧). فهل هذا شخص مؤرخ محايد ومنصف ام شخص متحامل أشد التحامل ويتكلم كلاماً يصعب تصديقه.

وعبد الرحمن الذي يذكره هو عبد الرحمن بن محمد (٢٧٧ - ٣٥٠هـ) وهو أول من تلقب بالخلافة من رجال الدولة الأموية في الأندلس وتلقب بالناصر لدين الله، استلم الخلافة وكانت الدولة قد تقلصت حتى اقتصر على قرطبة وما جاورها فاسترد عبد الرحمن ما فقده اسلافه. وكان الفاطميون يتامرون عليه. واستطاع أن ينشر الأمن في الأندلس، وبنى مدينة الزهراء، وأنشأ جيشاً وأسطولا قويين، ونشر سلطانه على جزء كبير من المغرب، فازدادت هيئته في اوربا، ووردت عليه رسلها، وشهدت قرطبة في عهده نهضة ثقافية كبيرة، وليس في كلام ابن حوقل عنه ما ينطبق على عبد الرحمن هذا وكان ابن حوقل تكلم عن شخص آخر وكلاماً غير صحيح.

١٥- خلافة المتقي بالله (٣٢٩ - ٣٣٣هـ)

أبو إسحاق ابراهيم بن المقتدر بالله تولى المتقي بالله الخلافة سنة ٣٢٩هـ وفي سنة ٣٣٠هـ استولى البريدي على بغداد وفيها دار الخلافة (في جمادى الآخرة) وهرب الخليفة المتقي بالله وأبنة الأمير أبو منصور في نحو عشرين فارساً ولحق بهما أبن رائق (أمير الأمراء) بجيشه وكانت في يده ديار مضر والشام فساروا جميعاً نحو الموصل، وقتل أصحاب البريديين من وجدوه في دار الخلافة من الحاشية ونهبوها ونهبوا دور الحرم.

كان المتقي بالله قد انفذ إلى ناصر الدولة بن حمدان يستمده على البريديين، فأرسل أخاه سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان نجدة له في جيش كثيف، فلقى المتقي بالله وأبن رائق بتكرت وقد أنهزما،

فخدم سيف الدولة المتقي خدمة عظيمة، وصار معه إلى الموصل، ففارقه ناصر الدولة إلى الجانب الشرقي وتوجه نحو معلتايا، وترددت الرسل بينه وبين ابن رائق حتى تعاهدا واتفقا، فحضر ناصر الدولة ونزل على دجلة بالجانب الشرقي فعبر إليه الأمير أبو منصور بن المتقي وابن رائق يسلمان عليه واشتهى الأمر بأن يقتل ناصر الدولة أمير الأمراء ابن رائق وأتهمه بأنه كان يريد اغتيال المتقي (ابن الأثير ٤٨٢٨/٣٣٠) وسار ناصر الدولة إلى المتقي الذي خلغ عليه ولقبه (ناصر الدولة) وجعله أمير الأمراء وذلك مستهمل شعبان، وخلع على أخيه أبي الحسين على ولقبه (سيف الدولة) وكان مقتل ابن رائق في رجب سنة ٢٢٠هـ.

تجهز ابن حمدان وانحدر إلى بغداد هو والمتقي وأستعمل على أعمال الخراج والضيايع بدار مضر (وهي: الرها وحران والرقعة) أبا الحسن علي بن مليات وسيره إلى الموصل. ودخل المتقي باله إلى بغداد ومعه بنو حمدان في جيوش كثيرة، وكان البويهيون قد احتلوا الأهواز عام ٢٢٦هـ وقاموا بعدة محاولات لغزو العراق عن طريق واسط التي جعلها البريدي ممرا سهلا للبويهيين فضلا عن عجز محمد بن رائق أمير الأمراء عن التصدي لتلك المحاولة ولذا نرى أن أول عمل قام به ناصر الدولة الحمداني في عام ٢٣٠هـ بعد دخوله بغداد هو التصدي للخطر البويهي، المتعطش لاحتلال العراق، هو الوقوف في وجه البويهيين في معركة هزم فيها البريدي. فهرب أبو الحسين البريدي إلى واسط، فخرج بنو حمدان عن بغداد نحو واسط، وكان أبو الحسين قد سار من واسط إليهم ببغداد، فأقام ناصر الدولة بالمدائن وسير أخاه سيف الدولة وابن عمه أبا عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان في الجيش إلى قتال أبي الحسين البريدي فالتقوا تحت المدائن بفرسخين فاقتتلوا وأنهزم سيف الدولة ومن معه إلى المدائن وبها ناصر الدولة فردهم وأضاف إليهم من كان عنده من الجيش فعادوا القتال، فأنهزم أبو الحسين البريدي إلى واسط وعاد ناصر الدولة إلى بغداد فدخلها في ذي الحجة، وانحدر سيف الدولة ومن معه إلى واسط ومعه الجيش ثم هرب منها بسبب الأتراك إلى بغداد (١٠٢).

سار ناصر الدولة من بغداد إلى الموصل (وبقي المتقي باله في بغداد) وكانت إمارة ناصر الدولة في بغداد ثلاثة عشر شهرا وخمسة أيام^(١٠٣).

نزل سيف الدولة باب حرب (في بغداد) وأرسل إلى المتقي يطلب مالا ليقاتل توزون إذا قصد بغداد فأنفذ إليه أربعمائة ألف درهم ففرقها في أصحابه وكان وصوله في ثالث عشر من رمضان سنة ٢٣١هـ وحين دخول سيف الدولة إلى بغداد أصعد إليها فرحل عن بغداد سيف الدولة ودخلها توزون في ٢٥ رمضان سنة ٢٣١هـ فخلع عليه المتقي وجعله أمير الأمراء^(١٠٤).

أصعد المتقي باله على الموصل بسبب تخوفه من توزون وابن شيرزاد، وكان قد انفذ يطلب من ناصر الدولة بن حمدان أنفاذ جيش إليه ليصحبوه إلى الموصل فأنفذهم مع ابن عمه أبي عبد الله ابن الحسين بن حمدان فلما وصلوا إلى بغداد خرج إليهم المتقي باله في حرمة وأهله ووزيره وأعيان بغداد وساروا إلى تكريت وانحدر سيف الدولة وحده إلى المتقي باله في تكريت ثم انحدر إليه ناصر الدولة إلى تكريت في ربيع الآخر وركب إليه فلقبه بنفسه وأكرمه المتقي باله.

وأصعد الخليفة إلى الموصل، وأقام ناصر الدولة بتكريت وسار توزون نحو تكريت فالتقى هو وسيف الدولة بن حمدان تحت تكريت بفرسخين فاقتتلوا ثلاثة أيام ثم أنهزم سيف الدولة في آخر ربيع الآخر، وعاد سيف الدولة وأخوه ناصر الدولة من تكريت إلى الموصل ومعهما المتقي باله.

ولما بلغ سيف الدولة إلى الموصل سار عنها هو وأخوه ناصر الدولة والمتقي باله ومن معهم إلى نصيبين فسار المتقي باله إلى الرقة سنة ٢٣٢هـ ولحقه سيف الدولة. وتم الصلح بين حمدان وتوزون بواسطة المتقي باله وعقد الضمان على ناصر الدولة لما بين يديه من البلاد ثلاث سنين كل سنة بثلاث آلاف ألف وستمائة ألف درهم^(١٠٥).

وفي الرقة كان المتقي بالله يجلس في داره مشرفاً على الفرات ودل علي رقي بنادمه، وقد ذكر المسعودي ذلك في مروج الذهب:

حدث محمد بن عبد الله الدمشقي قال: لما نزل المتقي بالله الرقة، كنت فيمن يتصرف بين يديه، وأقرب منه في الخدمة، فقال لي في بعض الأيام في الرقة، اطلب لي رجلاً اخبارياً يحفظ أيام الناس انفرج إليه في خلوتي، واستريح به في الاوقات. فسألت في الرقة عن رجل بهذا الوصف، فارشدت إلى رجل بالرقة كهل لازم لمنزله، فصرت إليه ورغبته في الدخول إلى المتقي، فقام معي كالمكره، وصرنا إلى المتقي، فأعلمته احضاري للرجل الذي طلبه، واستدناه، فوجد عده ما أراد فكان معه أيام مقامه بالرقة، فلما انحدر في الفرات كان معه في الزورق، فلما صار إلى فم نهر سعيد - بين الرقة والرحبة ويمر هذا النهر بدير الزور وله فيها أثر- أرق المتقي ذات ليلة فقال للرجل: هل تحفظ من أشعار المبيضة واخبارها؟ فمر الرجل في اخبار ال أبي طالب، فقال المتقي: اتحفظ شعر أبي المقاتل نصر بن نصير الحلواني في محمد بن زيد الحسيني الداعي؟ قال: لا يا أمير المؤمنين لكن معي غلام حفظ بحداثة سنة وحدة مزاجه وغلبة الهمة لطلب العلم والأدب ما لم احفظ من الأخبار والناس وأيامهم وأشعارهم، قال: احضره! ولم اخفيت عني خبر هذا؟ فيكون حضوره زيادة في انسنا، فأحضر الغلام من زورق آخر، فوقف بين يديه، فقال له صاحبه اتحفظ قصيدة أبي المقاتل في ابن يزيد؟ قال: نعم! فقال: انشدنيها! قال الدمشقي: لما انحدرنا مع المتقي من الرحبة وصرنا إلى عانة دعا بالرقى وغلامه فحادثاه وتطرقا إلى ذكر الخيل.. وكان المتقي يأمر بتدوين وتثبيت ما يجري من الكلام فما زالا معه في ذلك يحدد لهما الكلام إلى أن كان من أمرهما ما اشتهر^(١٠٦).

وفي ربيع الأول سنة ٣٢٢هـ استعمل ناصر الدولة بن حمدان أبا بكر بن محمد بن علي بن مقاتل على طريق الفرات وديار مضر وجند قنسرين وحمص، وانفذه إليها من الموصل ومعه جماعة من القواد ثم استعمل بعده في رجب من السنة ذاتها ٣٢٢هـ ابن عمه أبا عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان على ذلك فلما وصل الرقة منعه أهلها فقاتلهم وظفر بهم، وأحرق من البلد قطعة، وأخذ رؤساء أهلها وسار إلى حلب(١٠٧).

كان المتقي بالله قد كتب إلى الإخشيد محمد بن طنج متولي مصر يشكو حاله ويستقدمه إليه فأتاه من مصر.

قدم الإخشيد عند وصوله إلى حلب مقدمته إلى بالس، وسار بعدها إلى ان سير المتقي بالله أبا الحسن أحمد بن عبد الله بن إسحاق الخرقى يسأل الإخشيد ان يسير إليه ليجتمع معه بالرقة، ويجدد العهد به ويستعين به على نصرته، ويقتبس من رأيه، فعبّر إليه يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

وقف الإخشيد بين يدي المتقي بالله عام ٣٢٣هـ، ثم ركب المتقي بالله فمشى الإخشيد بين يديه، وأمره (المتقي بالله) ان يركب فلم يفعل، وحمل إليه هدايا ومالاً كثيراً، وحمل إلى الوزير أبي الحسين بن مقلة عشرين ألف دينار، ولم يدع أحداً من أصحاب المتقي وحواشيه وكتابه إلا بره ووصله.

واجتهد بالمتقي بالله ان يسير معه إلى الشام ومصر فأبى، فأشار عليه بالمقام مكانه، وضمن له ان يمدّه بالأموال، فلم يفعل.

وكتب المتقي بالله عهد الإخشيد بالشامات ومصر، على ان الولاية له ولأبي القاسم انوجور ابنه إلى ثلاثين سنة(١٠٧). وغادر المتقي بالله الرقة في ٢٦ المحرم سنة ٣٢٣هـ بعد ان قضى قسماً من عام ٣٢٢هـ متجهاً إلى بغداد فاستقبله توزون ثم غدر به وسمله عام ٣٢٣هـ^(١٠٨).

وكان سيف الدولة علي بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان مع المتقي بالرقعة فلما عاد هذا إلى بغداد، وأنصرف الإخشيد إلى الشام، بقي يانس المؤنسي (غلام مؤنس) بحلب، فقصدته سيف الدولة فلما نازلها فارقتها يانس وسار إلى الإخشيد فملكها سيف الدولة وذلك في سنة ٣٢٢هـ^(١٠٩). واتصل النزاع بين سيف الدولة، وبين الإخشيد (٣٢٣-٣٥٦هـ) وحدثت بينهما معركة في أرض قنسرين في شوال من سنة ٣٢٢هـ فأنهزم سيف الدولة وهرب إلى الجزيرة ودخل الرقة ويقال أنه أراد الدخول إلى حلب فمنعه أهلها، ثم تصالح سيف الدولة مع الإخشيد وتزوج ابنة أخيه، وأخرج له الإخشيد عن حلب وحمص وأنطاكية سنة ٣٢٤هـ وذلك تقديراً لدور الحمدانيين في حماية الثغور ومات الإخشيد بدمشق في آخر سنة ٣٢٤هـ أو مطلع سنة ٣٢٥هـ وخلفه ابن طفج، وأنهزم سيف الدولة من ابن طفج حين واقعه في مرج عذراء وعبر إلى الرقة، ثم عاد سيف الدولة فاحتل حلب سنة ٣٢٦هـ، ثم تصالح مع ابن الإخشيد. واستقرت الولاية الثالثة لسيف الدولة على حلب^(١١٠).

وكان محمد بن طفج عاقلاً فترك حلب لسيف الدولة على أن يؤدي له محمد جزية سنوية وذلك أولاً لئلا يطمع سيف الدولة في غير حلب وثانياً ليكون حاجزاً بين ابن الإخشيد والبيزنطيين.

كان في رعية سيف الدولة في بادية الشام: عقيل وقشير ونمير وعامر وبنو كلاب وكعب، وذلك قبل أن تحدث الهجمة البدوية من تلك القبائل وتكون لها دويلات خاصة. وربما تمردت تلك القبائل على سيف الدولة فأعمل فيها السيف ثم اصطلحوا. وقد تكرر ذكر ذلك في شعر أبي فراس الحمداني (ديوانه ص ٤٣، ١٧، ١٤٣) وشعر المتبي (معجز أحمد ٣/٤٤٥، ٣٢٠). وكانت حلب في عهد سيف الدولة عاصمة دولة تمتد من الموصل حتى تكريت ومن عانة على الفرات حتى البحر المتوسط مشكلة على التقريب خطاً مستويًا يمر من جنوبي حمص، وكانت ممتلكات الدولة الحمدانية في الشمال تمتد نحو منطقة قالقلا وملطية وديار بكر حتى مدينة خلاط الواقعة على بحيرة وان. وكانت الأماكن المهمة عدا مدينة حلب هي: أنطاكية وحماء وحمص وتدمر وقنسرين واعزاز وكفر تاب ودو لوقت وتل بشير وسمرمين وبالس ومنبج واللاذقية وطرسوس والرقعة واطنة واورفه ومرعش وحران وديار بكر وحطين وحصن منصور وروم قلعة وما جاورها من هذه البلدان التي تقع على ضفتي الفرات ودجلة وبعض شطآن البحر الأبيض المتوسط.

كان جمان من أصحاب توزون وانضم إلى ناصر الدولة بن حمدان ففولاه الرحبة لكن جمان عصي وعزم على التغلب على الرقة وديار مضر، فسار إلى الرقة وحصرها سبعة عشر يوماً، فحاربه أهلها وهزموه، ووثب أهل الرحبة بأصحابه وعماله، فقتلوهم لشدة ظلمهم وسوء معاملتهم، فلما عاد من الرقة وضع السيف في أهل الرحبة فقتل منهم مقتلة عظيمة، فأرسل إليه ناصر الدولة حاجبه ياروخ في جيش، فاقتلوا على شاطئ الفرات، فأنهزم جمان وغرق في الفرات واستأمن أصحابه إلى ياروخ (عياش ٢٩٥) وذلك عام ٣٣٦هـ^(١١١). وفي هذا العام أرسل سيف الدولة غلامه إلى الرقة.

توجه سيف الدولة إلى الرقة في سنة ٣٣٨هـ ومعه المتبي وقد أشد هطول المطر عليهما بالشديدين (المنصورة حالياً) على شاطئ الفرات في رمضان من سنة ٣٣٨هـ^(١١٢).

كانت سلطة الخلافة تتقلص منذ سنة ٣٢٤هـ (سنة دخول البويهيين بغداد) بحيث لا يكاد يبقى للخليفة العباسي من الأمر في يده سوى بغداد، فقد كانت إيران بيد بني بويه ويمتد نفوذهم إلى العراق أيضاً، وكانت البحرين واليمامة بيد القرامطة، وكانت الموصل بيد الحمدانيين ومصر والشام بيد الإخشيد. وبقي للخلافة اعتراف بالولاء في بعض الدول والإمارات ولكنه اعتراف أسمى^(١١٣) ولم تزل الرقة في يد من يتولى الجزيرة منذ فتحت إلى أن صارت ديار مضر في يد سيف الدولة، فطلبها منه أخوه ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان^(١١٤) وبقيت في يده إلى أن أقطعها ناصر الدولة ولده حمدان^(١١٥).

١٦- بنو حمدان والرقعة

يذكر ابن الأثير أن ناصر الدولة كان قد أقطع ولده حمدان مدينة الرحبة وماردين وغيرهما، وكان أبو تغلب وأبو البركات وأختهما جميلة أولاد ناصر الدولة من زوجته فاطمة بنت أحمد الكردية. وكانت فاطمة مالكة أمر ناصر الدولة فاتفقت مع ابنها أبي تغلب وقبضا على ناصر الدولة الذي كان قد كبر وساءت أخلاقه، وضيق على أولاده وأصحابه وخالفهم في أغراضهم فضجروا منه^(١١٦) وهناك سبب آخر أكثر أهمية هو أن ناصر الدولة عارض قرار أولاده وعلى رأسهم أبو تغلب باحتلال بغداد والإطاحة بالبويهيين، والثوب على السلطة، وقد فشل هذا المشروع بسبب الصراع بين الأخوة الذي مزق وحدة الأسرة الحمدانية^(١١٧).

والواقع أن ناصر الدولة كان عدواً دائماً ومستمراً للبويهيين وقد تقدم أنه حارب البريدي نصيرهم منذ سنة ٣٢٦هـ قبل دخول البويهيين للعراق، وتولى أمرة الأمراء ولم يستمر فيها إلا ثلاثة عشر شهراً وخمسة أيام، ثم أعاد الخليفة المتقي وجماء إلى أن سملته توزون عام ٣٢٣هـ وقضى عليه. وفي سنة ٣٢٤هـ دخل البويهيون بغداد وتولوا أمرة الأمراء وظلت علاقة ناصر الدولة سيئة بالبويهيين وكان يماطلهم في دفع المفروض عليه إلى أن تشن الحرب عليه في الموصل ويهرب منها ثم يتم الصلح بين الطرفين وقد تكرر هذا سنة ٣٢٤هـ ثم سنة ٣٢٧هـ سنة ٣٤٥هـ ثم ٣٤٧هـ.

وفي سنة ٣٥٣هـ احتل معز الدولة الموصل ثم عقد اتفاقية بينه وبين أبي تغلب بن ناصر الدولة، وانتهى بذلك دور ناصر الدولة. أما أبو تغلب فظل على عداوته للبويهيين إلى أن مات مقتولاً سنة ٣٦٩هـ (تاريخ الدولة العربية في العصر العباسي - خليل إبراهيم السامرائي ورفيقه). أبتدأ ناصر الدولة يدبر في القبض على أولاده فكتب ابنه حمدان يستدعيه ليتقوى عليهم، فظفر أولاده بالكتاب، فلم ينفذوه، وخافوا أباهم وحذروه، فحملهم خوفهم إلى نقله إلى قلعة كواشي (قلعة حصينة في الجبال التي في شرقي الموصل ليس إليها طريق إلا لرجل واحد) واتصل ذلك بحمدان. فعظم عليه، وصار عدواً ميبناً وكان أشجعهم. وكان قد سار عند وفاة عمه سيف الدولة سنة ٣٥٦هـ من الرحبة إلى الرقة فملكها (وهذا يخالف ما تقدم من أن أباه أقطعها له) وسار إلى نصيبين وجمع من أطاعه، وطالب أخوته، بالإفراج عن والده وإعادته إلى منزله فسار (أخوه) أبو تغلب إليه ليحاربه، فانهزم حمدان قبل اللقاء إلى الرقة، فنازله أبو تغلب وحصره، ثم اصطليحا على دخن (أي: فساد) وعاد كل منهما إلى موضعه (أي عاد حمدان إلى الرحبة) وانتهى الأمر بأن لجأ حمدان إلى بختيار البويهي في بغداد سنة ٣٦٠هـ فأكرمه واحترمه^(١١٨).

ويذكر ابن شداد أن حمدان صالح أخاه أبا تغلب على أن يقتصر حمدان على الرحبة، ويسلم الرقة إلى أبي تغلب^(١١٩). وفي سنة ٣٥٩هـ دخل أبو تغلب حران واستعمل عليها سلامة البرقعدي لأنه طلبه أهلها لحسن سيرته، وكان لسلامة هذا عمل الرقة أيضاً، وهو من أكابر أصحاب بني حمدان، وعاد أبو تغلب إلى الموصل^(١٢٠).

وما زالت الرقة في يد أبي تغلب إلى أن وقعت بينه وبين سعد الدولة بن سيف الدولة (٣٥٦-٣٨١هـ) وحشة ومناظرة ألجأت سعد الدولة إلى أن كاتب عضد الدولة (أبا شجاع فنا خسرو) كبير بني بوية منذ سنة ٣٧١هـ وعرض نفسه عليه، فانفذ عضد الدولة النقيب أبا أحمد والد الرضوي والمرتضى إلى ديارمضر فتسلمها من سلامة البرقعدي نائب أبي تغلب بعد حروب شديدة^(١٢١) فأخذ عضد الدولة الرقة وسلم باقي البلاد لسعد الدولة^(١٢٢).

انتهى أمر أبي تغلب أخيراً إلى اللجوء إلى ملك الروم ثم عاد إلى الشام وحاول أن يتفق مع الفاطميين ثم مات مقتولاً سنة ٣٦٩هـ وانتهى أمر أخته جميلة إلى أن أصبحت سبية مهتوكة ومهانة بين نساء عضد الدولة البويهي^(١٢٣).

بقيت الرقة في يد عضد الدولة البويهى إلى أن عزل بكجور - غلام سعد الدولة - عن دمشق لسوء سيرته من قبل الفاطميين، وتوجه إلى الرقة واستولى عليها وعلى ما يجاورها، ورأسل بهاء الدولة البويهى بالانضمام إليه، وكاتب باذا الكردي المتغلب على ديار الموصل بالمسير إليه ورأسل سعد الدولة بن سيف الدولة صاحب حلب، ثم رأسل مماليك سعد الدولة، ثم العزيز بالله صاحب مصر يطعمه في سعد الدولة، وأقام الدعوة للفاطميين واستجد سعد الدولة بوالي أنطاكية للملك الروم واستمر بكجور في الرقة إلى أن خرج له سعد الدولة من حلب، فالتقى به على الناعورة في سلخ المحرم سنة ٢٨١هـ فقتله، وسار إلى الرقة وفيها سلامة البرقيدي وحرم بكجور وأولاده فقتلهم أهل الرقة برجالهم ونساءهم وأولادهم، فأمنهم سعد الدولة على أنفسهم وأموالهم فاستسلموا ثم نكث بعهد^(١٢٨).

كتب أهل الرقة إلى بهاء الدولة البويهى في سنة ٣٨١هـ يطالبون من يسلمون إليه الرحبة فانفذ خمارتكين الحفصي إلى الرحبة فتسلمها، وسار منها إلى الرقة وبها بدر غلام سعد الدولة بن حمدان فحدثت بينهما وقعتات، فلم يظفر بها، وبلغه اختلاف في بغداد فعاد، فخرج عليه بعض العرب فأخذوه أسيراً، ثم اقتدى منهم بمال كثير^(١٢٩).

مات سعد الدولة بن سيف الدولة سنة ٣٨١هـ^(١٣٠) وصارت الرقة إلى ولده سعيد الدولة بن سعيد الدولة بن سيف الدولة. ثم مات سعد الدولة عام ٣٩١هـ وخلفه ولداه: أبو الحسن على وأبو المعالي شريف وقام بتدبيرهما غلام أبيهما لؤلؤ^(١٣١).

واستبد لؤلؤ بالملك وقبض على أبي المعالي وأخيه وسيرهما إلى مصر سنة ٣٩٤هـ ثم توفي في نفس السنة^(١٣٢) وفي سلخ ذي الحجة سنة ٣٩٩هـ أو منتهى المحرم سنة ٤٠٠هـ^(١٣٣) ولي بعد لؤلؤ ابنه منصور.

١٧- بنو نمير والرقة

استولى وثاب بن سابق النميري على الرقة لما ملك حران، وكان نائباً عن سعيد الدولة قبل وفاته، ولم ترزل في يده إلى أن توفي سنة ٤١٠هـ^(١٣٤) وكان وثاب قد ملك الرها وحران وسروج والرقة^(١٣٥) ثم خلفه ابنه شبيب بن وثاب. وفي شهر ذي القعدة سنة ٤٢٢هـ تحرك جرجي (جورجيو ماتياكس) حاكم الثغور الجزرية من قبل الروم من قاعدته بسميساط وأخذ الرها (أداسا أي أورفه الحالية) من بني وثاب النميريين أصحاب الرقة وحران وسروج، ولم يسع أميرهم شبيب بن وثاب إلا مصالحة الروم على مدينة حران ومدينة سروج المتاخمتين للرها في الجيوب مقابل آتاة آتاهم بها^(١٣٦).

خطب شبيب بن وثاب النميري صاحب حران والرقة في سنة ٤٣٠هـ للإمام القائم بأمر الله (العباسي) وقطع خطبة المستنصر بالله العلوي^(١٣٧). وبعد أن احتل انوشكين الدزيري حلب من قبل الفاطميين، أذعن له بالولاء شبيب بن وثاب لإحاطته بأملكه وخطب للخليفة المستنصر (الفاطمي) على منابر بلاده وذلك في أواخر سنة ٤٣٠هـ^(١٣٨).

وظلت الرقة في يد شبيب حتى توفي سنة ٤٣١هـ^(١٣٩) وفي يده الرقة وسروج وحران^(١٤٠). فاستولى على ما كان في يده أخواه مطاعن وقوام ابنا وثاب^(١٤١) وكان ثمال بن صالح المرداسي قد استرد حلب من انوشكين فترة قصيرة سنة ٤٢٩هـ^(١٤٢).

وبعد سنتين قضاها ثمال لاجئاً في مضارب العرب لاحت له فرصة جديدة حين توفي شبيب بن وثاب النميري واقتسم أخوته أملكه بأرض الجزيرة، واستطاعت أخته علوية (أخت شبيب) المعروفة باسم 'السيدة' وكانت زوجة لنصر أخي ثمال، أن تستولي على المدينة التي تقيم بها وهي مدينة الرافقة، وعندئذ رغبت أن تتزوج ثمال لتقيم هيبتها به، ويحفظ أمرها، ووجد هو في ذلك فرصة للتمكن لنفسه ريثما يتجلى الأمر في حلب، سيما وأنه أعقب ذلك بالاستيلاء على

الرقعة ليشرف منها على شمال الشام ويراقب الأوضاع في حلب، إذ يشير سبط بن الجوزي إلى أنه اضطر في سبيل أخذ الرقعة إلى الزواج من امرأة شبيب المتوفى التي لم يكن لها من شبيب سوى طفل صغير هو منيع بن شبيب، فحصل ثمال عن طريق الزواج السياسي على الرقعة، أي أنه تزوج أخت شبيب وامراته ليحصل على الرقعة والرقعة^(١٢٩).

رد الدزيري على تحركات ثمال بتزويج ابنته من ابن نصر الدولة أبي نصر احمد بن مروان صاحب ميفارقين وديار بكر ليكون له بهذه المصاهرة حليف ضد ثمال، كما اشترى قلعة دوسر (أي قلعة جعبر) الواقعة بين بالس والرقعة قرب صفين، ليكون مطلاً على ثمال، وبهذين الاجراءين أصبح ثمال محصوراً بين قوات بني مروان الاكراد شمال شرقي الفرات وقوات الفاطميين في غربه، فضلاً عن عداء أمير بني نمير الجديد أي منيع بن شبيب له لتحيله في امتلاك الرقعة. وخشي ثمال ان يأخذ منه الدزيري الرقعة، فالتمس من امبراطور الروم العون والتأييد، فوعده بالمساعدة وبلغ ذلك الدزيري، فأنذر ثمالاً، فاعتذر وأنكر.

١٨- دولة بني مرداس

كانت الدولة المرداسية دولة بدوية انطبعت بالأخلاق العربية وبالمفهوم العربي في الحكم لذلك ازدهرت في ظلال الحضارة العربية وثقافتها^(١٣٠).

لقد كانت علاقة الدولة المرداسية بالخلافة الفاطمية سيئة بشكل عام رغم ان المرداسيين قد اعترفوا رسمياً بسلطان خليفة القاهرة ولم يكن لهم أية علاقة حتى عام ٤٦٢هـ-١٠٧٠م بالخلافة العباسية، ولكن في نفس الوقت الذي اعترف فيه المرداسيون بسلطان الفاطميين كانت لهم علاقة بالإمبراطورية البيزنطية بشكل عام، وغالباً ما وضع الأمراء المرداسيون انفسهم تحت الحماية البيزنطية ودفعوا جزية سنوية للقسطنطينية. واعتادت بيزنطة ان تقيم دولاً بدوية على حدودها لحماية هذه الحدود من غارات البدو بشكل عام، وتكون هذه الدول حاجزاً بين بيزنطة وقوى كبرى أخرى. وعلى هذا فقد عمدت بيزنطة على حماية الدول البدوية التي اقامتها وعلى مساندتها بالمال وغير ذلك من الأسباب^(١٣١).

على ان هذه السياسة الدولية انذاك أفرزت قوة جديدة هي قوة الأتراك السلاجقة إلى جانب قوة الفاطميين والروم. وأصبحت هذه القوة التي تتعصب للسنة عاملاً مؤثراً في المنطقة منذ سنة ٤٤٧ هـ السنة التي استدعاهم فيها الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وكان على ثمال ان يتلمس طريقه بين هذه القوى المتشاحنة المتباينة في الملة والنحلة.

وبهذه المناسبة نذكر يدا بيضاء تمت على يد أبي العلاء المعري: ففي سنة ٤١٨هـ كان لصالح ابن مرداس صاحب حلب وزير يقال له تادروس بن الحسن النصراني، وكان متمكناً منه، وكان صاحب السيف والقلم وكان أهل المعرة قتلوا حماء الحنوري فكان في نفس تادروس شيء من أهل المعرة من أجل حماء، فكان يؤذيه ويتبع قتلته حتى قتلهم وصلبهم واستغل إحدى المناسبات فأوغر صدر صالح بن مرداس على أهل المعرة فحاصر صالح المعرة ونصب المجانيق وشدد الحصار عليها واعتقل سبعين رجلاً من شيوخها وأعيانها ولبثوا سبعين يوماً في محبس الحصن وذلك بعد عيد الفطر بأيام، وقد دعى للمعتقلين على المنابر في آمد وميفارقين وقطع الوزير تادروس ألف دينار على أهل المعرة، فجاءوا إلى أبي العلاء المعري وسألوه ان يخرج إلى صالح بنفسه و يدبر الأمر برأيه فخرج أبو العلاء ويده في يد قائده فلما فتح له باب من أبواب المعرة وخرج منه رأى صالح بن مرداس شيخاً قصيراً يقوده رجل فقال: هذا أبو العلاء، فجيئوني به فلما مثل بين يديه قال: الأمير أظال الله بقاءه كالنهار المانع اشتد هجير طاب ابراده وكالسيف القاطع، لان صفحه وخشن خداء، خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين. فقال صالح انشدني شيئاً من شعرك فانشدته

بعثت شفيماً إلى صالح
فيسمع مني سجع الحمام
وذلك من القوم رأي فسد
واسمع منه زئير الأسد

فقال له صالح: بل نحن الذين تسمع منا سجع الحمام ونسمع منك زئير الأسد، ثم أمر بتقويض الخيام والمجانيق فنقضت ورحل^(١٤٢).

وبعد أن اضطر حشد البساسيري (مملوك بهاء الدولة البويهري) الذي أرسل الفاطميين ضد خليفة بغداد^(١٤٣) اضطر جميع الأمراء إلى الخضوع لـ طغرل بك (السلجوقي) وحتى من أظهر منهم الرغبة في الوقوف إلى جانب البساسيري كثمال أمير حلب فلم تطاوعه عشيرته على ذلك واستحق طغرل بك على ذلك العهد لقب ملك المشرق والمغرب الذي خاطبه به الخليفة العباسي في المجلس العام الذي عقده يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة سنة ٤٤٩ هـ^(١٤٤).

ولم تزل الرقة في يدي ثمال (المرداسي) إلى أن سلمها لمنيع بن شبيب بن وثاب (الشميري) سنة ٤٤٩ هـ^(١٤٥) وذلك بسبب اشتطاط بني كلاب (والمرداسيون شعبة منهم) وفسادهم^(١٤٦) مما سبب تصدع وحدة المراداسيين^(١٤٧) واستمرت الرقة بحكم منيع بن شبيب إلى أن قصدها عطية ابن صالح المراداسي وكانت في يده الرحبة (المبادين حالياً) منذ سنة ٤٥٢ هـ عقب وفاة أخيه ثمال ابن صالح المراداسي فأخذها منه^(١٤٨) وأعلن وفاءه للخليفة العباسي السني والخضوع للسلطان ألب أرسلان السلجوقي ولكن عهده لم يطل بعد ذلك إذ توفي سنة ٤٦٤ هـ^(١٤٩).

١٩- دولة بني عقيل

استشعر العقيليون أمراء الموصل وديار ربيعه (٣٨٠-٤٨٩ هـ) (بعد انهيار الدولة الحمدانية) وأدبار بني مرداس بعيد انقسام دولتهم، ولما كانوا يرغبون مد سلطانهم إلى الفرات وأعالي الشام في ظل سيادة السلاجقة أنوالين روحياً للعباسيين، فقد هاجم أميرهم شرف الدولة أبو البركات مسلم بن قريش (٤٥٣-٤٧٨ هـ) في شتاء سنة ٤٦٠ هـ مركز إمارة عطية بن صالح المراداسي لقربها منه، ودحر أوليائه من بني كلاب وأخذ أسلابهم، وأرسل أعلاماً كانت معهم عليها سمات المصريين (الخليفة الفاطمي المستنصر) إلى بغداد وكسرت وظيف بها في البلد، وأرسلت الخلع إلى شرف الدولة مسلم^(١٥٠).

وأصل شرف الدولة مسلم تقدمه شمالاً بغرب مع الفرات وذلك في شتاء ٤٦٣ هـ، ووضع يده على الرقة^(١٥١) والحق بها بالسر في نفس السنة، وبذلك ضاعت أملاك عطية المراداسي بالفرات، ولما فقد عطية النصير القريب لجأ إلى الروم وسافر إلى القسطنطينية وأقام فيها إلى أن وافاه الأجل ومات في ذي الحجة سنة ٤٦٥ هـ^(١٥٢).

وكان أئسز بن أوق الخوارزمي (من أمراء ملكشاه) قد فتح مدينة القدس في سنة ٤٦٣ هـ فلم يستطع تعيين قائد مسلم عليها لاحتمال أن يشتبه في تعاطفه مع الفاطميين فنصب عليها أحد البعاقة المسيحيين^(١٥٣).

ثم أعطى السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان حلب وحران وغيرهما من البلاد لشرف الدولة مسلم سنة ٤٧٣ هـ^(١٥٤) وقد أمن مسلم بن قريش طرق التجارة وأحسن السيرة وأظهر التشيع^(١٥٥).

سار شرف الدولة مسلم بن قريش سنة ٤٧٧ هـ إلى آمد لنجدة ابن مروان وحرب فخر الدولة ابن جهير ومعه العساكر السلطانية وفيهم الأمير ارتق ابن كسب فحوصر شرف الدولة ومكنه ارتق من الخروج فقصد شرف الدولة الرقة، وأرسل إلى ارتق ما وعده به^(١٥٦) ولم يزل شرف الدولة مالكاً لما بين يديه من البلاد إلى أن قتل سنة ٤٧٨ هـ^(١٥٧) وبقتله انتهت جميع المشاريع التي خطط لها كما انتهت الفترة التي كان المتصارعون فيها للسيادة على الشام هم البدو العرب من جهة والبدو التركمان من الجهة الثانية، وأصبح من الآن فصاعداً الصراع من أجل السيادة على

الشام بين التركمان انفسهم ، حيث ان القبائل العربية قد أزيحت عن مسرح الأحداث المؤثرة، ولم يعد لها شأن يذكر في إحداث التغييرات السياسية في الشام^(١٥٨).

وخلف شرف الدولة مسلم في الرقة أخوه إبراهيم بن قريش ولم تزل في يده إلى ان قصد السلطان ملكشاه الشام وملك حلب، وأقطعها مملوكه قسيم الدولة آق سنقر، وتسلم قلعتها من شمس الدولة سالم بن مالك العقيلي وعوضه عنها قلعة جعبر والرقة^(١٥٩).

صارت حلب لأول مرة في تاريخها تحت حكم السلاجقة المباشر وبذلك خلص معظم الشام للسلاجقة^(١٦٠) سنة ٤٧٩هـ وبات بإمكانهم تطويق الجزيرة والإجهاز على ما بقي فيها من قوة.

أقطع السلطان ملكشاه محمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش سنة ٤٧٩هـ مدينة الرحبة وأعمالها وحران، وسروج والرقة والخابور وزوجه أخته زليخا خاتون، فتسلم البلاد جميعها ما عدا حران التي تسلمها فيما بعد^(١٦١).

ولى نجم الدولة أو شمس الدولة سالم بن مالك العقيلي أخاه شهاب الدولة، الرقة فوقع بينه وبين أهل الرقة وبني نمير مناظرة، فقاموا عليه وقتلوه ومكوا الرقة منصور بن جوشن النميري، واتصلت الحرب بينه وبين نجم الدولة في القلعة^(١٦٢). وفي رواية أخرى ان علي بن شمس الدولة سالم بن مالك هو الذي ولي الرقة أولاً لكن بني نمير قتلوه في حرب بينهم وبينه وكان معه أخوه شهاب الدين مالك بن شمس الدين سالم بن مالك الذي تولى الرقة بعده^(١٦٣).

ان جوسلين الأول صاحب تل باشر أغار على الرقة والقلعة (قلعة جعبر) فأخذ كل ما عليها وسبى وساق غنائم كثيرة، ونزل مقابل القلعة وبينهما الفرات، فركب نجم الدولة مالك في زورق ومعه ثلاثة أو أربعة من غلمانته وعبر الفرات إلى جوسلين، وبينهما علاقة قديمة، ولمالك عليه جميل، وظن جوسلين ان في الزورق رسولاً من مالك، فجاءه (جاء إلى جوسلين) واحد من الفرنج وقال: (هذا مالك في الزورق). قال (جوسلين): ما هو صحيح! فأتاه آخر، قال (لقد نزل مالك من الزورق، وهو جاء يمشي) فقام جوسلين والتقاء وأكرمه، ورد عليه جميع ما كان أخذه من الغنائم والسبى ولولا سياسة نجم الدولة (أي العلاقة الطيبة مع الصليبيين...) كان خرب بلده^(١٦٤) وكان جوسلين من قبل رهينة في قلعة جعبر^(١٦٥).

كان جوسلين الأول قد وقع أسيراً سنة ٤٩٧هـ، وأطلق سراحه من قلعة جعبر التي كان عليها سالم بن مالك ٤٧٩-٥١٩هـ، وأطلق سراح جوسلين عام ٥٠٢هـ^(١٦٦).

٢٠- الدويلات السلجوقية

بعد موت ملكشاه سنة ٤٨٥هـ أصبحت الدولة السلجوقية عبارة عن دويلات متحاسدة لأبناء السلاطين وأقاربهم وأتابكتهم، غمرتها حروب داخلية، وكان السلاطين السلاجقة قد جروا على عادة توزيع أملاكهم بين أبنائهم الأمراء وعلى ان يكفلوا بتربيتهم إلى قوادهم الذين يسمونهم بالأتابكة حيث كان هؤلاء أشبه بالوزراء المستبدين^(١٦٧).

ولما وصل السلطان تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان (وكان ملك دمشق وحلب وجميع الشاميين) قبر أخيه ملكشاه (مات سنة ٤٨٥هـ) سار من الشام إلى الرقة والخابور والرحبة، فملك جميع ذلك، ونزل على نصيبين وحاصرها، وصافف العرب وكسر عسكر ديار ربيعة وأستظهر عليهم وكسر منهم جماعة من أمراء العرب وقتل عشرين أميراً بين يديه صبراً منهم الأمير إبراهيم ابن قريش بن المقلد أخو شرف الدولة مسلم بن قريش وكان ذلك سنة ٤٨٦هـ كما في ابن خلكان^(١٦٨).

ختم مقتل كل من آق سنقر الحاجب قسيم الدولة وبوزان سنة ٤٨٧هـ ثم تتش سنة ٤٨٨هـ مرحلة من مراحل تاريخ الشام والجزيرة تحت الحكم السلجوقي، ويموت الطبقة الأولى من التركمان الذين جاؤوا من خارج الشام والجزيرة بدأت مرحلة جديدة كان فيها حكام الشام

والجزيرة من السلاجقة الذين ولدوا في الشام أو الجزيرة. وفي هذه المرحلة أيضاً تعرضت الشام والجزيرة للهجوم الصليبي وحملاته، ولنشاط الدعوة الإسماعيلية الجديدة التي أسسها حسن الصباح^(١٦٩) وكان التخريب الذي أحدثه التركمان (السلاجقة) سهل وقوع البلاد فيما بعد في أيدي الصليبيين^(١٧٠).

واقترس ابن تثنى أملاك أبيهما فأخذ دقاق دمشق وأخذ رضوان حلب وناصب كل منهما العداء لأخيه، وانعكس ذلك كله على البلاد الإسلامية التي كانت مهددة من الزحف الصليبي، ووقف الخليفة المستظهر بالله العباسي موقف المتفرج من هذه الصراعات، ولم يستغل هذه الأحداث ليعيد الهيبة إلى الخلافة العباسية^(١٧١).

استمرت الحرب بين منصور بن جوشن التميمي وبين نجم الدولة مالك بن سالم العقيلي حتى باع منصور الرقة من الملك رضوان بن تثنى السلجوقي صاحب قلعة حلب سنة ٤٨٨هـ (وتوفي سنة ٥٠٧هـ - زمباور ٣٢٤) بقلعة نجم وضياح بحلب، فصانع عنها نجم الدولة مالك إلى أن عادت إليه فولى فيها أخاه زعيم الدولة^(١٧٢).

٢١- الصليبيون وإمارة الرها

كانت إمارة الرها أولى الإمارات التي أسسها بلدوين في الأراضي التي استلمها بدون حرب في ذي الحجة من عام ٤٩١هـ فبراير ١٠٩٨م^(١٧٣) من الأرمن وكانت الآمال معقودة على الفرنجة كمساندين لا كمتحدين، فلم يتطور فيها التوطين الفرنجي قط، ولم تتمكن أيضاً من تلقي دعم الحجاج المسيحيين ولا امدادات التجار الإيطاليين، وكان لموقعها الجغرافي المتواصل مع الدول الإسلامية والمهدد للاتصالات بين سوريا وبلاد ما بين النهرين، أثر في تعرضها بالضرورة لردود الأفعال سريعاً^(١٧٤).

أغار الفرنج من الرها على مرج الرقة وقلعة جعبر في سنة ٤٩٧هـ وكانوا لما خرجوا من الرها، افترقوا فرقتين، وأوعدوا يوماً واحداً تكون الغارة على البلد فيه، ففعلوا ما استقر بينهم، وأغاروا واستاقوا المواشي وأسروا من وقع بأيديهم من المسلمين^(١٧٥).

وعندما توزعت سوريا في القرن الحادي عشر (٣٩١-٤٩٤هـ) بين ولايات سياسية ودينية عديدة ومتناحرة بشكل دائم ظهر فيها مالم يظهر في أي بلد غيرها وهو يظهر اللامبالاة الدينية في المجال السياسي حيث كانت هناك بين بيزنطة المسيحية وهذا المسلم أو ذاك مواقف ضد مسلمين آخرين. وفي الوقت نفسه كان الفاطميون في الجنوب، بعد الاضطهاد الاستثنائي الذي مارسه الحاكم بأمر الله، قد منحوا الامبراطور البيزنطي نوعاً من الحماية على أخوانه في الدين في الأراضي المقدسية (كاهن)^(١٧٦).

إذا كان بعض القادة المحليون قد وقعوا اتفاقات مؤقتة مع الصليبيين لإبعاد الخطر عنهم فإن الشعوب الإسلامية قد استشعرت منذ البداية هول المذابح المرتكبة كذلك التي حدثت في معرة النعمان سنة ٤٩١هـ^(١٧٧) أو القدس سنة ٤٩٢هـ^(١٧٨) ونزح كثير من الناس إلى داخل سوريا أو أبعد من ذلك. ومما يدل على اتساع حركة الهجرة أن الكاتب البغدادي الحريري (صاحب المقامات) على سبيل المثال اتخذ بطلاً لمقاماته التي استقاها من الحياة اليومية أحد الشحاذين الذي هرب من مدينة سروج الواقعة على الفرات في إمارة الرها الجديدة (الصليبية) وفي حلب أيضاً كانت حركة المقاومة التي لا تعرف هناك إلا عبر التجليات الخارجية، في طريقها للظهور داخل البورجوازية المحلية المستاءة من جمود أميرها، ولم تكن هذه الحركة من صنع رجال الدين، وكان قائدها فيما يبدو القاضي الشيعي ابن الخشاب وكانت حلب لا تزال آنذاك ذات أغلبية شيعية.

وصل وفد من حلب إلى بغداد وأهلها شيعية مع أن أهل بغداد سنويون (وذلك حسب ابن الأثير سنة ٥٠٤هـ) لمعاقبة الخليفة والسلطان على اللامبالاة وضعف الهمة لديهما أدت إلى دفعات متلاحقة من الجيوش السلاجقة ما بين سنتي ٥٠٤ و٥٠٩هـ وهي لم تتجح إلا في التقاتل والتدمير المتبادل أو

ترسيخ التحالفات المحلية بين الفرنجة والمسلمين، وبالإضافة إلى ذلك ينبغي أن نكرر القول بأن سوريا المسلمة كانت محمية من طرف الجيوش الأجنبية دون مشاركة من جانب السكان المحليين^(١٧٩) وكأن أتراك آسيا الصغرى لم يكن لديهم الشعور بالتضامن مع مسلمي سوريا والقدس وكانت حربهم تتجه نحو البيزنطيين فقط^(١٨٠) لكن هذا الأمر سيتبدل تماماً في عهد عماد الدين الزنكي ونور الدين وسنجد ان السكان المحليين سيقبلون بحماس على التطوع للجهاد.

ثم جهز السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان عسكرياً كثيراً لدى عصيان إيلغازي وطفتكين وجعل مقدمهم (مقدم عسكر السلطان) الأمير يوسف بن برسق صاحب همدان ومعه الأمير جيوش والأمير كنتغدي وعساكر الموصل والجزيرة وأمرهم بالبداية بقتال إيلغازي وطفتكين فإذا فرغوا منهما قصدوا بلاد الفرنج وقاتلوهم وحاصروا بلادهم فصاروا في رمضان من سنة ٥٠٨ هـ (وكان عسكرياً كثير العدة) وعبروا الفرات آخر السنة عند الرقة^(١٨١).

ثم برز البرسقي سنة ٥١٢ هـ ونزل بأسفل الرقة في عسكره ومن معه وأظهر أنه على قصد الحلة وإخلاء ديبس بن صدقة عنها^(١٨٢) وفي سنة ٥٢٠ هـ مر آق سنقر (والد عماد الدين زنكي) بالرقة^(١٨٣).

شهدت منطقة الموصل والجزيرة وشمالي الشام في عهد الأتابكة عدداً كبيراً من المدن المنقرقة التي استأثر بحكم كل منها أمير شبه مستقل، والتي كانت تتميز من الإمارات المحلية بكون صاحبها لم يكن يملك إلا حكم المدينة وحدها، وما يحيط بها من أراضٍ محدودة. وكان حكام هذه المدن عرضة للتبدل والتغير بين حين وآخر بمجرد ظهور أمير قوي يتيح له إمكانياته العسكرية اكتساح أولئك الحكام ولذلك فإن معظم هذه المدن لم تشهد حكماً وراثياً طويلاً المدى، كما كان الحال سائداً في كثير من الإمارات المحلية، الأمر الذي جعل حكام تلك المدن أقل شهرة بكثير مما هم عليه الأمراء المحليون^(١٨٤).

وكان ضرر الفرنج قد عم بلاد الجزيرة وشرهم قد استطار فيها، ووصلت غاراتهم إلى أدانيها وأقاصيها وبلغت أمد ونصيبين ورأس عين والرقة، وكانت مملكتهم بهذه الديار من قرب ماردين إلى الفرات مثل: الرها وسروج والبيرة وسن ابن عطير وجمليين والموزر والنقراي وغير ذلك^(١٨٥).

ويقول ابن العبري: واستولى الفرنج (الصليبيون) في تلك الأثناء على جميع البلاد ووصلت جيوش الفرنج إلى آمد ونصيبين ورأس العين وأمسى أهل الرقة وحران بسببهم في ضنك شديد وتعذر على العرب السفر من المشرق إلى دمشق إلا في طريق البادية^(١٨٦).

ويقول اليعاقبة: ان مقاطعة دمشق وخاصة المنطقة الزراعية حوران كانت عرضة لهجمات فرسان القدس. وكانت دمشق أيضاً معزولة، والطرق الوحيدة التي كانت حرة لتجارتها هي التي تمر بالصحراء إلى الرحبة والرقة على الفرات ومع ذلك فلم تكن هذه الطرق مأمونة إلا نسبياً لأن هجمات البدو كانت تشكل عليها خطراً مستمراً. وكان على سوريا الوسطى (حمص وحماء) ان تواجه غارات الفرنج عليها آتية من الشاطئ الغربي للفرات. وكانت مقاطعة حلب يصيبها الدمار من الغارات المختلفة وتخوض في الفوضى وتخضع لقانون أمير أنطاكية. وكانت ديار بكر يسيطر عليها الأتاتقة ويهددها الفرنج على الدوام وكانت جيوش كونت الرها تهاجم أراضٍ حران والرقة بل أنها ترسل فصائلها حتى رأس العين على الخابور. وبلغ الفرنج من القوة ان يطلبوا من المدن لقاء الهدنة لفترات قصيرة مبالغ كجزية وضرائب مختلفة فكانت حلب مثلاً تدفع لأنطاكية نصف مواردها من أرضها أو جزءاً من حاصلاتها بينما كانت دمشق تقبل ان يجيء مبعوثون من القدس إلى داخل دمشق ويحرروا الأسرى المسيحيين الذين أصبحوا عبيداً وكانت الاضطرابات والفوضى تميز الوضع في سوريا والجزيرة ومصر، وكان الفرنج يسيطرون على كل مكان وحينئذ صار زنكي اتابك الموصل^(١٨٧).

يصف ابو شامة هذا الوضع بشكل مؤثر ومما قاله: 'وكانت سراياهم (سرايا الصليبيين) تبلغ من ديار بكر إلى امد ومن ديار الجزيرة إلى نصيبين ورأس عين، اما أهل الرقة وحران فقد كلنوا معهم في ذل وهوان'(١٨٨)

٢٢- عماد الدين زنكي بن اق سنقر (٤٧٨-٥٤١هـ)

اقطع السلطان محمود بن ملكشاه السلجوقي مدينة الرحبة إلى اقسنقر البرسقي والد عماد ندين زنكي وكان مقيماً بها في سنة ٥١٢هـ. وفي نفس السنة تقدم فنزل بأسفل الرقة في عسكره محاولاً الاستيلاء عليها، ثم انحدر إلى العراق لمقابلة السلطان محمود بن ملكشاه ليوسع له اقطاعية الرحبة ثم شغل مناصب أخرى (عياش ص ٢٩٩).

عمل زنكي تحت إمرة ولاية الموصل طيلة الفترة بين ٥٠٥ و ٥١٤هـ في الحرب ضد الصليبيين مما دفع السلطان محمد السلجوقي إلى توليته الموصل والجزيرة وما يفتتحه في بلاد الشام، اثر وفاة واليه عام ٥٢١هـ.

عمل زنكي أولاً على تثبيت امارته الجديدة وتعزيزها وتوحيد الامارات الصغيرة التي تحيط بها وتوقفه عن الجهاد لتحالف بعضها مع الصليبيين، ولذلك عقد هدنة سنة ٥٢١هـ^(١٩٠) مع جوسلين الاول أمير انرها لمدة سنتين، كي يحقق ذلك خلانها.

استولى أولاً على جزيرة ابن عمرو لقربها من الموصل واهميتها العسكرية والاقتصادية^(١٩١) ثم استولى على حلب سنة ٥٢٢هـ تمهيداً لإستلائه على الشام، وقد رحب به أهل حلب لأنه خلصهم من تهديد الصليبيين^(١٩٢) وكانت حلب قاعدة عسكرية رئيسية لا يمكن بدونها التحكم في الجهات الشمالية والوسطى من الشام، وكان لها موقع هام على خطوط المواصلات بين بلاد فارس والعراق من جهة وبين الشام وآسيا الصغرى من جهة أخرى، ثم استولى على سنجار في أواخر عام ٥٢٢ هـ، كما ضم اليه حران بناءً على طلب أهلها وتقع حران وسط الطريق بين الموصل وحلب^(١٩٣).

كانت خطة زنكي ان ينشئ امارة موحدة وقوية تمكنه من تحقيق انتصارات حاسمة ضد الصليبيين، وأن لا يبقى فيها ما هو ملك لغيره، فاحتل نصيبين، وعقد محالفة مع بعض الامارات، وعقد مصاهرة مع أرمينية التي كانت بمثابة حزام واحد ضد هجمات الخزر والقفجاق القاسية على الجهات الشمالية من آسيا الصغرى وأرمينية^(١٩٤).

ثم تفرغ في عام ٥٢٤هـ لمهاجمة المواقع الصليبية القريبة من حلب والتي تتعرض حلب لهجمات منها، وبدأ بحصن الاثارب (قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية تبعد عن حلب نحو ثلاثة فراسخ) وتقدم من هناك إلى حارم التي هادنته، مما جعل الصليبيين يتحولون من الهجوم إلى الدفاع^(١٩٥).

ثم استولى في عام ٥٢٦هـ على إربل (قلعة حصينة ومدينة كبيرة تعد من أعمال الموصل وبينهما مسيرة يومين) التي كانت بمثابة الباب الشرقي الذي يصلها ببلاد فارس والمشرق، ونقطة الدفاع الرئيسية في الطريق الذاهب غرباً صوب الشام^(١٩٦).

كانت المناطق الجبلية المحيطة بالموصل من جهاتها الشمالية والشمالية الشرقية ذات أهمية بالغة بالنسبة لامارة زنكي وضمان أمنها وازدهارها، وذلك لقربها من الموصل وامكاناتها الاقتصادية، فضلاً عن الاخطار التي يمكن ان تنشأ عن عدم سيطرة زنكي على القبائل المنتشرة في تلك المناطق، الأمر الذي حتم عليه مد نفوذه اليها كي يضمن لامارته خطوطاً دفاعية طبيعية تحمي ظهره في حالة أنهماكه بحروبه ومشاكله^(١٩٧).

ثم هاجم في عام ٥٢٩هـ عدداً من المواقع الصليبية المحيطة بحلب والتي كانت تهددها باستمرار فضلاً عن كونها الخط الذي يحمي أنطاكية من هجمات المسلمين، وتمكن من الاستيلاء على خمسة منها

ثم احتل حصن بعرين (بليد بين حمص والساحل) الصليبي القريب واحتله وحصل على مبلغ خمسين ألف دينار^(١٩٨).

كان عماد الدين زنكي في نفس العام ٥٢٩هـ متوجهاً من الموصل إلى دمشق ليتسلمها من شمس الملوك، فاجتاز الرقة، فخرج اليه مهيب بن مالك مسلماً عليه، فنزل زنكي بالرقة، فملكها وخرجه منها بالحيلة، إذ زعم أنه يريد الحمام، فلما دخل المدينة، استولى عليها فأقطعها شهاب الدين أميرك الخازندار^(١٩٩). (وقد مر أن هذه الحيلة قد استعملها زفر بن الحارث).

ثم استولى زنكي في عام ٥٣١هـ على دقوقا الواقعة شرفاً بين اربل وبغداد^(٢٠٠). وفي عام ٥٣٢هـ خف لانقاذ شيزر التي استغاثت به، واستعمل الحيلة كي يوقع بين البيزنطيين والصليبيين ونجح في ذلك واستطاع ان يستولي على الات الأعداء الحربية الثقيلة، والمنجنقات العظام ويرفعها إلى حلب، وأن يقتل ويأسر عدداً من الأعداء ثم استولى على كفر طاب وحصن عرنة وحصن بزاعة (بلدة بين منبج وحلب) ثم حاول في عام ٥٣٣هـ الاستيلاء على دمشق لكنها استجذبت بصليبي بيت المقدس فانسحب عنها^(٢٠١).

ثم استولى زنكي في عام ٥٣٤هـ على قلعة شهرزور الواقعة وسط سهل واسع باسمها يمتد بين اربل وهمدان يقطنه الأكراد وكانت تلك المنطقة تحت سيطرة الأمير قفجاق بن ارسلان ناش التركماني^(٢٠٢) وفي عام ٥٣٦هـ التفت زنكي صوب الجنوب الغربي، وتمكن من مد حدود امارته إلى اعماق الصحراء العراقية، وذلك بالاستيلاء على مدينة الحديثة الواقعة على الفرات وبعد مرور عامين أي ٥٣٨هـ ارسل جيشاً إلى مدينة عانة القريبة منها، واستولى عليها^(٢٠٣).

كانت الرقة قد خربت قبل عام ٥٣٨هـ - كما سيجيئ فيما بعد - وأصبح اسم الرقة يطلق على مدينة الرافقة. وفي العام نفسه اتيح لزنكي استغلال مركزه القوي في ديار بكر والقيام بفتح عدد من المواقع والحصون الصليبية العائدة لامارة الرها الصليبية المنتشرة في المناطق القريبة من ماردين والموزر وتل روزن (جملين والموزر قلعتان بين بلاد ديار بكر وديار مضر على مسيرة يوم من حران) وغيرها من حصون إقليم شبختان (أحد أقاليم ديار بكر عند منابع نهر الخابور) وكان هدفه من وراء ذلك قطع الاتصال بين قرا أرسلان الارتيقي، أمير حصن كيفا، وبين جوسلين الثاني أمير الرها، بسبب تحالفهما ضده.

كانت الرها من اهم المراكز الصليبية لقربها من العراق وقوة تحصيناتها، وانضاف اليها عدد من البلاد، فاتسعت أراضيها، واشتدت وطأتها على سكان المناطق المجاورة وأصبحت غارات فرسانها تبلغ امد وماردين ونصيبين ورأس عين والرقة وحران وكانت هذه الامارة الصليبية فضلاً عما سبق تشكل عائقاً يحول دون قيام زنكي بتوحيد الجبهة الإسلامية^(٢٠٤).

وفي السادس والعشرين من جمادى الآخرة عام ٥٣٩هـ وبعد مرور ثمان وعشرين يوماً على حصار الرها أنهارت بعض اجزاء الحصن أثر الضرب المركز الشديد الذي تعرضت له، فاجتاحت قوات المسلمين المدينة ثم القلعة.

حقق زنكي بفتح الرها اهم أعماله التي قام بها ضد الصليبيين طوال مدة حكمه، كما فتح الطريق للذين اعقبوا زنكي لاكمال عمله واسقاط بقية الامارات الصليبية واحدة تلو الاخرى، كما ادى إلى القضاء على الحواجز التي اقامها الصليبيون لاعاقبة الاتصال بين سلاجقة آسيا الصغرى وسلاجقة العراق وبلاد فارس^(٢٠٥).

استغل زنكي فرصة سقوط الرها للاستيلاء على مراكزهم وحصونهم هناك فاتجه إلى سروج التي تخلت حاميتها عنها مولية الظهر، واستولى عليها، وما لبثت الحصون المجاورة ان أخذت تسقط بين يديه الواحدة بعد الاخرى. ولم يبق لجوسلين الثاني من امارته الواسعة سوى عدد من الحصون المنتشرة غربي

الفرات (الاشرفية) مثل تل باشر ومرعش ودلوك وسميساط، وعينتاب واعزاز التي استطاع نور الدين محمود فيما بعد اكتساحها جميعاً ومحو الامارة الصليبية في تلك المنطقة من الوجود. لم يقتصر زنكي في قتاله الصليبيين على الحروب النظامية فحسب بل لجأ أيضاً إلى الغارات أي الهجوم والانسحاب السريع في فترات غيابه عن الشام مما اتاح له:

- ١- عدم اعطاء الصليبيين المجال لإعادة تنظيم قواتهم لمهاجمة المسلمين.
 - ٢- إضعاف قواهم العسكرية والاقتصادية بما يتكبدونه من قتل وأسر وتخریب.
 - ٣- قطع الاتصال بين مراكزهم شمال الشام لعرقلة تجمعهم وضربهم المسلمين.
- اعتمد زنكي في هذا النوع من القتال على محاربي التركمان فوثق علاقاته مع قادتهم، فوفر بذلك القيادة الحاذقة والمحاربين الشجعان للقيام بشن ما يطلق عليه اليوم حرب المقاومة والعصابات وجعل حلب مركزاً لذلك^(٢٠٦).

كانت ((جعبير)) ذات موقع عسكري وخطير، إذ أنها تقوم عند اوفق نقطة لعبور الفرات من الشام إلى الجزيرة الفراتية^(٢٠٧).

توجه زنكي أواخر عام ٥٤٠هـ إلى قلعة جعبير المطلة على الفرات في محاولة للاستيلاء عليها لئلا تبقى في يد غيره، وكان يحكم هذه القلعة حينئذ علي بن مالك العقيلي، واستمر القتال لضمود القلعة حتى اليوم الخامس من ربيع الآخر عام ٥٤١هـ حيث اغتيل زنكي، فساد الاضطراب في جيشه واضطر إلى فك الحصار^(٢٠٨).

يعتبر زنكي أول قائد قام بتجميع القوى الإسلامية وفق برنامج معين ليجابه بها تزايد الخطر الصليبي الذي لم توقفه المحاولات الجدية التي سبقت زنكي. ومن المرجح أنه لو تمكن زنكي من فتح دمشق وانجاز محاولته لتوحيد الشام، ولو لم يفتل - وهو في قمة انتصاراته ضد الصليبيين - لكان قد استطاع ان يستكمل الاجزاء المتبقية من برنامجه وأن نور الدين محمود، ومن بعده صلاح الدين، لم تكن جهودهما سوى اتمام العمل الذي بدأه زنكي وفي نفس الطريق^(٢٠٩).

لم يكن زنكي محارباً قادراً فحسب وانما كان سياسياً بعيد النظر حسن التقدير. وكان عارفاً بشؤون الجند خبيراً بسياستهم.. وقد كسب حب جنده اجمعين وتمكن من ان يسيرهم كيفما شاء أو يضبطهم حتى في اخرج الاوقات.. وكان زنكي رجلاً تقياً مواظباً على الفرائض وكانت فيه عدالة تستوقف النظر.. واورد أبو شامة مقتبساً كلام ابن الاثير عبارة طويلة في تقديره^(٢١٠).

٢٣ - نور الدين محمود بن زنكي (٥١١-٥٦٩هـ)

بعد مقتل عماد الدين بن زنكي عام ٥٤١هـ أمام قلعة جعبير تقاسم إرثه أبناء: الأكبر سيف الدين غازي فكان من نصيبه الموصل والمشرق وهمومه، والأصغر نور الدين محمود وكان نصيبه حلب وقاتل الصليبيين. وخلافاً لما جرت به العادة فلم يختلف الأخوان قط حتى وفاة الأكبر سيف الدين غازي سنة ٥٤٤هـ وكان المحرك لنور الدين إيمانه الديني العميق، وإحساسه بأن رسالته هي جمع كلمة المسلمين على الجهاد المقدس وإخراج الصليبيين من بلاد الشام^(٢١١).

عمل نور الدين أولاً على دعم منزلته في حلب، ففضي الداخل حارب قدرة الشيعة، وأعطى قوة جديدة لأهل السنة. وكان هذا أحد أهدافه. وبدأ فاستعاد الرها وكان صاحبها جوسلين قد استعادها لدى مقتل عماد الدين زنكي سنة ٥٤١هـ. وكانت تتبع الموصل سابقاً، فصارت حدوده الشرقية على البليخ، ثم صفى بقايا كونتية الرها^(٢١٢) وبذلك أصبحت الرقة وحران وآمد ونصيبين في مأمّن من هجوم الصليبيين عليها واقتصرت وظيفتها في الجهاد ان تقدم ما تستطيع من الجند المحاربين، ولذلك تكرر إعطاؤها أو بعضها مقابل إحدى المدن الداخلية المعرضة للعدوان الصليبي مثل حلب وحمص وغيرها التي بقيت مدناً عسكرية، بينما أصبحت المدن السابقة

كانها بساتين أو حقول آمنة، وهذا ما فعله نور الدين وصلاح الدين: وفي اقل من سنتين ٥٤٤-٥٤٦ هـ فقد الصليبيون ما بقي من إمارة الرها وذلك لدى موت راييموند في أنطاكية وأسر جوسلين^(٢١٣).

صارت بذلك حدود نور الدين الشمالية مع السلاجقة فاحتوى بذلك أطماعهم وكانت الرقة (واذكر مرة أخرى وهذا يراد به هنا الرافقة التي أخذت اسم الرقة التي كانت خربت قبل سنة ٥٢٨ هـ كما سيجيء ذكره) في يد شهاب الدين أميرك الجاندار، من قبل عماد الدين الزنكي، وقد انضمت بعد وفاته إلى سيف الدين غازي إلى أن مات غازي سنة ٥٤٤ هـ وتولى أخوه قطب الدين محمود أخو سيف الدين ونور الدين ولدي زنكي. واصطلح نور الدين وقطب الدين على أن يأخذ نور الدين حران والرحبة وحمص. وأن يكون شهاب الدين أميرك في خدمته واستمرت الرقة في يد شهاب الدين إلى أن مات فيها سنة ٥٥٤ هـ^(٢١٤).

حتل نور الدين حارم في عام ٥١٥ هـ فأمن تموين حلب الزراعي وغذاها الذي كانت تؤمنه الجزيرة كما احتل اقاميا فأمن عبور الفرات بالقوة من قبل الفرنج كما أن احتلاله عزاز، إلى جانب مدن أخرى أعطاه مفتاح الطرق إلى شمالي حلب، فأصبح يطل على الجزء الشرقي من إمارة أنطاكية، مع أن أنطاكية لم تعد تشكل خطراً جدياً بعد وفاة ملكها ريموند. وأن استيلاء نور الدين على انب (قرب أنطاكية) ثم المنيطرة (حصن بالشام قرب طرابلس) جعله على الضفة اليمنى من العاصي الأوسط، وهذا يمنع كل محاولة من قبل كونت طرابلس كي يتجه إلى الشرق وضمن لنور الدين حرية المرور بين حلب ودمشق، وبهذا ضمن حياد الفرنج^(٢١٥). وأصبحت بلاد نور الدين متصلة من شاطئ دجلة إلى نهر العاصي، وأمن أن يهاجمه أحد من الشرق أو من الغرب^(٢١٦).

ثم عمل نور الدين على ضم القسم الجنوبي من سوريا فقام بمحاولته الثالثة للاستيلاء على دمشق (بصورة سلمية) ونجح في ذلك عام ٥٤٦ هـ. وللمرة الأولى أصبحت حلب ودمشق تحت حكم أمير واحد تحت ظل الإسلام السني، فتحققت الوحدة السورية وزادت سلطة نور الدين، وزاد خطره على الفرنج^(٢١٧) وأصبحت حدود نور الدين متاخمة لإمارة أنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس^(٢١٨).

هكذا ضم إلى ملكه دمشق وأعمالها، وكانت أعمالها تمتد جنوباً حتى تتأخم حدود مملكة القدس على خط طويل يمتد مستعرضاً شمال ناحية الخليل، فزالَت هذه الفجوة الواسعة التي كانت تفصل بين نور الدين ومواجهة هذه المملكة (مملكة بيت المقدس) وجهاً لوجه. وازدادت جبهة الإسلام قوة بدخول دمشق ورجالها، واتحادها في جبهة الكفاح والتحرير، وانفتح الطريق على مصر لأن الطريق من نواحي دمشق إليها كان مفتوحاً وإن كان يخترق الأراضي التي تحتلها مملكة بيت المقدس، فإن رجال هذه المملكة كانوا عاجزين عن حراسة الأرياف وضبط الطرق، إنما كان همهم التشبث بالحصون والسيطرة على ما حولها.

<https://facebook.com/groups/abwab/>

ان انضمام دمشق إلى جبهة نور الدين يعد لهذا أعظم خطوة عسكرية خطاها المسلمون منذ حركة التحرير أيام شرف الدين مودود. وقد أدرك رجال مملكة بيت المقدس ذلك، وياتوا على الخوف من نور الدين^(٢١٩).

التقت نور الدين إلى مملكة بيت المقدس فاستولى على إقليم حوران وثبت حدوده الجنوبية بالاستيلاء على صرخد. وأصبحت مملكة بيت المقدس شريطاً ساحلياً ينتهي عند المجرى الرئيسي لنهر الأردن، ويمتد بعض الشيء شرقي البحر الميت^(٢٢٠).

امتدت مملكة نور الدين من الموصل شرقاً إلى حلب غرباً، ويمكن أن يقال أنها دولة طولانية تضم الجزيرة وهي منطقة زراعية رئيسية كما أنها تمتد من الشمال إلى الجنوب ابتداءً من عزاز والرها حتى بصرى وصرخد وحوران ويؤمن تموينها بالحبوب جزء من سهل حارم، والبقاع وغوطة دمشق وحوران. أما الفرنج فيحتلون الشريط الساحلي الذي يمتد من الاسكندرونة حتى غزة، وتتألف الحدود بين الفرنج والمسلمين من نهر العاصي وسلسلة جبال لبنان، وخلف الفرنج البحر،

وخلف المسلمين الصحراء وتتألف المملكة الصليبية من ثلاثة إمارات لاتينية ليس لها قوة ولا حكومة قوية، وتعمل النزاعات الداخلية على تحييدها، وفي وجه هذه الإمارات الصليبية الثلاثة: أنطاكية وطرابلس والمقدس تقف أملاك نور الدين التي تكون دولة إسلامية متجانسة نسبياً يرأسها رئيس واحد أصبح في إمكانه الآن أن يقود المعركة ضد الصليبيين إلى النصر^(٢٢١).

أمن نور الدين حدوده الشمالية سنة ٥٥٠هـ في وجه الأراقة والسلاجقة، وباتت الإمارات الصليبية الثلاثية: كونتية طرابلس تواجه خصومات عائلية دامية، ومملكة بيت المقدس التي تواجه مؤامرات ميليسند Melisande ضد الملك بولدين، وأمانة أنطاكية التي تعرضت لتحجيم جدي. وامتدت الحدود الإسلامية من انفرات إلى العاصي. وقد سمح هذا الوضع لنور الدين أن يواصل سياسته التوحيدية.

مات شهاب الدين أميرك أمير الرقة في سنة ٥٥٤هـ فأقرها نور الدين في يد أكبر أولاده إسحاق بن شهاب الدين^(٢٢٢) وفي هذا العام مرض نور الدين محمود زنكي مرضاً شديداً وأرجف بموته، وكان في قلعة حلب ومعه أخوه الأصغر أمير أميران فسار أمير هذا إلى حران فملكها فلما عوفي نور الدين قصد حران ليخلصها فهرب أخوه أمير أميران وترك أولاده بحران في القلعة، فتنازلها نور الدين وسلمها إلى زين الدين نائب أخيه قطب الدين صاحب الموصل: ثم سار نور الدين بعد أخذ حران إلى الرقة، وبها أولاد أميرك الجاندار ففاز بها نور الدين فشجع فيها جماعة من الأمراء فيهم فغضب نور الدين وقال (هلا شفتم في أولاد أخي يقصد أولاد أخيه أمير أميران) لما أخذت منهم حران وكانت الشفاعة فيهم من أحب الأشياء إلي فلم يشفعهم وأخذ الرقة^(٢٢٣) وولى فيها من قبله^(٢٢٤) ولم تنزل كذلك إلى أن تسلم نور الدين حمص من الشان بن صلاح الدين الأعرج، وسلمها إلى ابن أخيه سيف الدين غازي (بن قطب الدين مودود) وعوض الشان عنها بالرقة وذلك سنة ٥٦٠هـ ولم تنزل في يده إلى أن استعادها منه نور الدين سنة ٥٦٢هـ وسلمها لأخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل على أن يقدم عسكرياً للقاء الفرنج فبقيت في يده حتى توفي سنة ٥٦٥هـ^(٢٢٥).

أخذ نور الدين قلعة جعبر في سنة ٥٦٤هـ، وكانت بيد شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي وعوض عنها سروج وأعمالها والملاحه التي بين حلب ويا بزاغة، وعشرين ألف دينار معجلة، وفيها أراضي خصبة وغنية، بالأشجار المثمرة والكروم. وسروج كانت مركزاً تجارياً هاماً وعقدة مواصلات يتلاقى عندها الطريق من البيرة إلى الرها مع الطريق من سميساط إلى الرقة. وبذلك أزال نور الدين العقيليين من المسرح السياسي في قلعة جعبر منذ ملكشاه في نهاية القرن التاسع وأمن حرية المواصلات مع الموصل^(٢٢٦).

وقد نظر نور الدين إلى الأهمية العسكرية للقلعة، فقد كانت تطل على الضفة الشرقية للفرات، وتتحكم في معبر ذي أهمية، أما الإقطاع الذي أعطاه فكان أراضي واسعة غنية لا حصون فيها. وكان نور الدين حريصاً على الحصون والقلاع زاهداً فيما عداها^(٢٢٧).

وبعد وفاة قطب الدين مودود سنة ٥٦٥هـ تولى ولده الأصغر سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بعهد من أبيه فلما بلغ الخبر نور الدين سار إلى الرقة وعليها والي من قبل قطب الدين يقال له كردك بن موسى الكردي فتحصن بها فحاصره إلى أن فتحها عنوة في سنة ٥٦٥هـ ونهب أهلها وقتل منهم جماعة وأعطى كردك عطر عوذاً عن الرقة فاستمرت الرقة في أيدي نواب نور الدين إلى أن توفي في سنة ٥٦٩هـ (٢٢٨) عمل نور الدين على انتزاع مصر من الفاطميين قبل أن يحتلها الصليبيون كي يستعين برجالها ومواردها الغنية على طرد الصليبيين من الشام وأرسل إليها الجيوش بقيادة الأيوبيين وحين نجح في ذلك تخلى عن نجدته الأيوبيون وعلى رأسهم صلاح الدين محتجاً بأعداء وأهية وكان من نتيجة ذلك أن مات نور الدين عام ٥٦٩هـ دون أن يحقق حلم حياته وكان على صلاح الدين الأيوبي أن يسير في الدرب الذي شقه نور الدين ومن قبله والده عماد الدين زنكي ثم يجئ المماليك بعد صلاح الدين فيكملوا طرد الصليبيين من الشام بعد أن ضاع على المسلمين وقت طويل بدون مبرر.

سار نور الدين في الرقة سيرته في حلب ودمشق، إذ حاول القضاء على المذهب الشيعي فيها الذي سبق أن انتشر عند الحمدانيين والبيهيين ومن تلاهم من بقية الأمراء العرب من كلاب وعقيل ونمير وقشير ونشر المذهب السني^(٢٣٩) ولذلك بنى نور الدين في الرقة مدرستين إحداهما شافعية والأخرى حنفية كما بنى مارستان (أي: مصحة أو مشفى)^(٢٤٠) وكانت الخوانق في ذلك الزمن مقراً (لإقامة الصوفية والعلماء والفقهاء) كما أن عماد الدين الأصفهاني وزير قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل بنى في الرقة أيضاً خانقاه^(٢٤١).

وكان على تلك المدارس أن تعني بتدريس الحديث وعلومه وتهيئ الناس للجهاد ضد الصليبيين الذين كانوا يحتلون أجزاء من بلاد الشام^(٢٤٢) وكانت روح الجهاد قد استيقظت في قلوب المسلمين وأقبل الناس من كل صوب لتحرير بلادهم^(٢٤٣) ومن جهة أخرى فإن نور الدين نقل جثمان والده زنكي من داخل مشهد علي خارج سور الرقة وبني حوله حظيرة خارج المشهد قريباً من بابه كما سيجيء ذكره وقد شجع نور الدين ابن عساكر على الإسراع في إكمال تاريخ دمشق تاريخ ابن عساكر^(٢٤٤) فكان تمام تأليفه سنة ٥٥٩هـ ولم يأخذ شكله النهائي بعد أن تم تنقيحه وترتيبه إلا سنة ٥٦٥هـ التي يفترض أن القاسم ابن أبي القاسم ابن عساكر أتم فيها نسخ التاريخ وأتم سماعه على أبيه^(٢٤٥) وقد توفي نور الدين بعد ذلك بأربع سنوات أي سنة ٥٦٩هـ.

وبعد أن ملك نور الدين الرقة سنة ٥٥٤هـ، أصلح فيها الجامع الكبير عام ٥٦١هـ، وقد بقيت من هذا البناء الواسع بالأجر الواجهة الشمالية من حرم الصلاة بطول ٦٥م والمئذنة بارتفاع ٢٥م وجذعها اسطوانتي بدون زخرفة (ديكور) وتستند المأذنة إلى قاعدة مكعبة (هرزفيلد). وهذا الطراز من المنارة وجد أيضاً في شمالي الرقة في قلعة جعبر وصفين وبالس، ويبدو أنه خاص بوادي الفرات (اليسيف - نور الدين ٧٧٦/٣).

عمل نور الدين على الاستقلال بنفسه في الشام فلم يتصل بسلاطين السلاجقة ليطالب الاعتراف منهم كما جرت عادة أتايكة الشام والجزيرة من قبل، بل تجاهلهم ولم يرأسلهم، واعتقد أن سبب ذلك يعود إلى الضعف الشديد الذي ألم بسلاطين السلاجقة وخاصة بعد وفاة السلطان مسعود السلجوقي سنة ٥٤٧هـ، وانشغال السلاجقة فيما بينهم بعد ذلك ثم جرى نور الدين على إقامة علاقة خاصة مع الخلفاء العباسيين، وخطب لهم في إمارته ونقش السكة باسمهم مع أسمه في بلاد^(٢٤٦).

كان نور الدين لا يعتدي على مسلم ولا يضع يده على بلد مسلم إلا بالمحبة والرضى^(٢٤٧) وكان يوجه قواته كلها نحو غاية واحدة في وقت واحد، فلا يشغل نفسه بجبهتين أو يجمع على نفسه عدوين في آن واحد^(٢٤٨) ولكي لا تكون سيطرة مملكة بيت المقدس على أراضيها كاملة، كان نور الدين يقوم بغارات سريعة في بلادها ويرسل قواده فيوغلون فيها، ويبعث بجماعات من خيالة التركمان السريعة تخترق البلاد من الشمال إلى الجنوب ومنها ما كان يتخذ معسكرات منتقلة داخل مملكة بيت المقدس كلما طاردها الصليبيون في ناحية انتقلت إلى ناحية أخرى^(٢٤٩). حرص نور الدين أيضاً على تجنب أمرين:

١- منع مجيء حملة صليبية جديدة وذلك أنه تحاشى أن يهاجم مملكة بيت المقدس هجوماً عاماً يؤدي إلى إسراع أوربا لنجدتها.

٢- اتحاد مملكة بيت المقدس والدولة البيزنطية عليه، وذلك أنه ترك أنطاكية باقية كأنها الشبح فأنها من الناحية الاسمية كانت تحت سلطان الإمبراطور البيزنطي، أما من الناحية الفعلية فكانت تدور في فلك مملكة بيت المقدس، فهجومه عليها سيجمعها عليه فيضطر إلى توزيع قواته بين الشمال والجنوب^(٢٥٠).

في سنة ٥٦٧هـ أخذ نور الدين بالشام الحمام الهوادي (الزاجل) وهي التي يقال لها (المناسب) (٢٤١).

٢٤- خلفاء نور الدين زنكي ثم صلاح الدين الأيوبي يوسف بن أيوب (٥٣٢-٥٨٩هـ)

تولى بعد نور الدين محمود ولده الملك الصالح إسماعيل، واستولى على ما كان في يد أبيه من البلاد، فسير سيف الدين غازي الثاني بن قطب الدين عسكرياً استولى على الخابور والرقعة، وحران وسروج والرها وذلك سنة ٥٧٠هـ ولم يكن للملك الصالح قدرة على دفعه، فصالحه على ذلك، واستكمل سيف الدين غازي تملك جميع بلاد الجزيرة، سوى قلعة جعبر فإنها كانت منبوعة، وسوى رأس العين فإنها كانت لقطب الدين صاحب ماردين، وهو ابن خال سيف الدين، فلم يتعرض لها (٢٤٢).

ثم جاء صلاح الدين الأيوبي ليكمل ما بدأه نور الدين محمود، ففي سنة ٥٧١هـ استولى صلاح الدين على منبج وقلعتها، وأخذ صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي أسيراً فأخذ صلاح الدين كل ماله. وأصبح فقيراً لا يملك تقريباً ثم أطلقه صلاح الدين فسار إلى الموصل فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة سنة ٥٧١هـ (٢٤٣).

أقام عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي بحلب عدة شهور في سنة ٥٧٧هـ، ثم سار عنها إلى الرقة فجاءته رسل أخيه عماد الدين (زنكي بن مودود بن زنكي) صاحب سنجار ليطلب إليه أن يسلم إليه حلب ويأخذ عوضاً عنها سنجار. وهذا ما تم أخيراً (٢٤٤) وكان عز الدين قد استولى على جميع الخزائن التي كانت لنور الدين وولده بقلعة حلب وسير ذلك كله إلى الرقة (٢٤٥).

ملك صلاح الدين الرها من مقطاعها الأمير فخر الدين بن مسعود الزعفراني وسلمها إلى ابن زين الدين (مظفر الدين كوكبري) مع حران، ثم سار إلى الرقة، فلما وصلها كان مقطاعها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي فسار عنها إلى عز الدين أتابك، وملكها صلاح الدين ودفعها إلى الأمير مسعود بن الزعفراني وسار إلى الخابور وقرقيسيا وماكسين وعربان فملك جميع ذلك ثم نصيبين وذلك في سنة ٥٧٨هـ (٢٤٦).

وكان صاحب حلب عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي ومعه المعسكر النوري، فقاتل صلاح الدين ثم مال عماد الدين إلى تسليم حلب إلى صلاح الدين ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقعة وسروج وجرت اليمين على ذلك، وباعها بأوكس الأثمان، أعطى مدناً مثل حلب، وأخذ عوضها قرى ومزارع فعجب الناس كلهم من ذلك، واستقر ملك صلاح الدين بملكها، وكان مزللاً فثبت قدميه بتسلمها ومما كتبه القاضي الفاضل في المعنى عن صلاح الدين (أخذنا منه الدنانير وأعطيناه الدراهم، ونزلنا عن القرى وأحرزنا العواصم) وكتب أيضاً: (أعطيناه ما لم يخرج عن اليد). بمعنى أنه متى شاء أخذه لعدم حصائنه وكان ذلك عام ٥٧٩هـ (٢٤٧).

أقطع عماد الدين زنكي بن مودود الرقة لعز الدين طمان لأنه توسط بين عماد الدين وصلاح الدين. ولم تزل بيده إلى أن توفي الملك الناصر صلاح الدين يوسف سنة ٥٨٩هـ (٢٤٨).

٢٥- خلفاء صلاح الدين الأيوبي

بعد وفاة صلاح الدين، اتفق عز الدين مسعود (الأول بن مودود) بن عماد الدين زنكي (توفي سنة ٥٨٩هـ، (زماور ٢٤١) صاحب الموصل وسيف الدين يكتمر صاحب خلاط. وخطب لكيقباد صاحب بلاد الروم وقتل عز الدين مسعود، ومات كيقباد فاستولى الملك العادل (٥٤٠-٦١٥هـ) (أخو صلاح الدين الأيوبي) على حران وسروج وصار إلى الرقة فأخذها بعد حصار من عز الدين طمان في شهر رجب وولى فيها ثم أقطعها لولده الملك الأشرف موسى (أو لابن أخيه الملك الظاهر ٥٩٠هـ) (٢٤٩).

ولما ملك الملك الاشرف (٥٧٨ - ٦٣٥هـ) الرقة غرس بها بساتين كثيرة وجلب إليها الغراس في كل بلد حتى النخل والموز وبنى بها الجواسق (أي القصور) والحمامات^(٢٤٠). وبقيت الرقة في يد الملك الاشرف إلى أن سار وصاحب آمد نجدة ليدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فأخذ سنجار من صاحبها وعوضه عنها بالركة وذلك في جمادى الأولى سنة ٦١٧هـ، ثم استعادها الملك الاشرف^(٢٥١).

كان بيد الاشرف عند الفرات في سنة ٦٢١هـ: الرقة وحران وغيرهما وكان الملك الاشرف كالأسير عند أخيه الملك المعظم. وسار الملك الاشرف إلى الرقة بإذن أخيه في جمادى الآخرة سنة ٦٢٤هـ (٢٥٢). واستقر أن يأخذ الملك الكامل من الملك الاشرف عوضا عن دمشق: حران والرها والرقة وسروج ورأس عين وذلك عام ٦٢٦هـ^(٢٥٣) وسار الكامل إلى الرقة عام ٦٢٦هـ^(٢٥٤) وأقام بها ولما خرج فصل الشتاء خرج علاء الدين كيقباز إلى الجزيرة والرها والرقة وسبى عسكره أهل البلاد كما يسبى الكفار وذلك في ذي الحجة سنة ٦٣٢هـ وسار الملك الكامل نحوها فاندفع ملك الروم فعاد الملك الكامل واستولى على البلاد، وخرب قلعة الرها وبلدها. وسير إليه السلطان العسكر إلى الشرق والزردخانه وذلك سنة ٦٣٣هـ^(٢٥٥).

ولى الملك الكامل الجزيرة ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب وبقيت في يده إلى أن توفي الملك الكامل سنة ٦٣٥هـ^(٢٥٦).

اتفق أن كيقباز ملك الروم أخذ خلاصه، فضاق ما في يد الملك الاشرف جدا، وكان كيقباز ينزل إليه كل سنة إلى دمشق في عبوره إلى الشرق، فيقيم في دمشق مدة، فيجتاح الملك الاشرف في ضيافته إلى جملة (من المال).

وقبض الملك الكامل على أملاك الملك الاشرف التي كانت له بحران والرقة وسروج والرها ورأس العين وعلى جميع ممتلكاته بتلك الناحية... ومات كيقباز علاء الدين بن غياث الدين عام ٦٣٤هـ^(٢٥٧).

استبد الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل بما في يده بعد موت أبيه الملك الكامل وكان جلال الدين الخوارزمي قد هزم أمام المغول ودخل إلى إقليم الجزيرة، واغتيل قرب ميافارقين سنة ٦٢٨هـ وسقطت بموته الدولة الخوارزمية التي تقف في وجه التتار كما أن أتباعه الخوارزميين دخلوا منطقة الجزيرة وآسيا الصغرى وشنوا غارات مدمرة على بلاد الشام والجزيرة كان لها آثار سيئة على هذه البلاد قبل الغزو المغولي. وحين عبر الخوارزميون إلى الجزيرة، استمالهم الصالح أيوب في حياة أبيه الملك وأقطعهم مواضع بالجزيرة وزوج زعيمهم بركة خان من أخته لأمه، وأقطعه الرها وحران سنة ٦٣٦هـ (٢٥٨).

وكان الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل قد استولى - بعد موت الملك الكامل - على دمشق وعلى الخزائن التي كانت في صحبة الملك الكامل، وأظهر الطاعة للملك العادل بن الملك الكامل) وأرسل إلى حلب رسولا يطلب منهم معاضدته وأنتمائه، فلم يصغوا إلى قوله، وامتنعوا أن يدخلوا بينه وبين الملك العادل وخاف من الملك العادل فرأسل الملك الصالح أيوب بن الملك الكامل، واتفقا على أن يسلم إلى الملك الصالح دمشق. ويعوضه عنها. أي يعوض الملك الجواد) بالركة وسنجار وعأنه، فسار الملك الصالح، والخوارزمية في صحبته في جمادى الأولى، وتقدم الملك الصالح إلى دمشق وتسلمها من الملك الجواد في جمادى الآخرة من سنة ٦٣٦هـ وسار الملك الجواد إلى الرقة^(٢٥٩) وكانت الرقة إقطاعا لصاروخان الخوارزمي، وبقيت الرقة في يد الملك الجواد أياما، فوصلت الخوارزمية فأخرجوه منها، واستمرت في أيديهم إلى أن كسرههم الملك الناصر صلاح الدين يوسف الثاني ابن العزيز محمد غياث الدين الناصر صلاح الدين بن يوسف^(٢٦٠) صاحب حلب في شهر رمضان سنة ٦٣٨هـ. واستولى عليها وولى فيها. ولم تزل في يده إلى أن أقطعها الأمير حسام الدين الحسن بن أبي الفوارس القيمري سنة ٦٤٨هـ^(٢٦١) وأقطعها في سنة ٦٤٩هـ

الأمير مجاهد الدين بن قليج واستمرت في يده إلى أن مات سنة ٦٥٢هـ فأقطعها الملك الصالح إسماعيل بن الملك المجاهد صلاح الدين شيركوه صاحب حمص^(٢٦٢) ثم استعادها منه سنة ٦٥٥هـ ولم يقطعها بعد، وبقيت في خاصته إلى أن انقرضت دولته بعد ذلك واستولى التتار على البلاد، فغربوا الرقة التي كان اسمها في الأصل الرافقة ولم يسكن بها أحد بعد ذلك (إلى عصرنا الذي وضعنا فيه هذا الكتاب)^(٢٦٣) وكان ابن شداد قد ابتدأ تأليف هذا الكتاب سنة ٦٧١هـ وانتهى منه في حدود سنة ٦٨٠هـ^(٢٦٤).

٢٦- سياسة العباسيين تجاه العرب

عهد بني العباس

اعتمدت الدعوة العباسية ثم الاجتياح العباسي على الخراسانية، عربيا كانوا أم غير عرب، وكان هؤلاء العرب معظمهم من اليمانية، فاستغل العباسيون كرههم للمضريين ليسخروا بقية اليمانية من غير الخراسانية في طاعتهم.

وحين وصل الزحف الخراساني إلى العراق ولى السفاح الخليفة الأول، القيادة العليا إلى آلته من عمومته وغيرهم فبطشوا بالمضريين من أمويين وقيسيين وغيرهم أشد بطش في العراق والشام ثم نفذوا المذابح كما جرى في الموصل^(٢٦٥) وحوادث الغدر كما جرى مع يزيد بن عمر بن هبيرة^(٢٦٦) وغيره وخاصة مع آل أمية بعد أن منحوهم الأمان^(٢٦٧).

وهتف الذين قتلوا مروان بن محمد بكلمات فارسية وهيد ياجوا نكتان^(٢٦٨) وكذا الذين قاتلوا يزيد بن عمر بن هبيرة^(٢٦٩) وخاطب المنصور اليمانية حين حرضهم على المضرة في حربه مع عمر بن هبيرة بقوله: السلطان سلطانكم والدولة دولتكم^(٢٧٠) واستغاث عبد الله بن علي باليمانية فقال: انكم وأخوانكم من ربيعه كنتم بخراسان قوام امرنا، فانصرفوا وخلوا بيننا وبين مضر^(٢٧١).

ولنبداً أولاً بدراسة سياسة المنصور في هذا الشأن. ومن المعروف ان المنصور هو المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، وهو الذي وضع السياسة التي سار عليها من جاء بعده، وتبدأ هذه السياسة واضحة في وصيته في آخر سني حياته لولي عهده ولده المهدي اذ أوصاه:

١. ببغداد وبالأموال: احتفظ بها، فانك لا تزال عزيزاً ما دام بيتك عامراً.
٢. ثم بالهاشميين (العباسيين): أن تظهر كرامتهم وتقدمهم، وتكثر الإحسان اليهم، وتوطئ الناس أعقابهم.
٣. ثم بموالي العباسيين (موالي الخاصة): احسن اليهم وقربهم واستكثر منهم.
٤. ثم بالخراسانية: أنهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم وتتجاوز عن مسيئتهم، وتخلف من مات منهم في أهله وولده.
٥. ثم حذره من بعض القيسية: وإياك ان تستعين برجل من بني سليم.

٦. ومن النساء: وإياك ان تدخل النساء في مشورتك في أمرك^(٢٧٢) ولعله يشير بذلك إلى الخيزران زوج المهدي وأم هارون الرشيد كما أوصاه أيضاً بقوله: واستعمل حسن الظن بربك فقط وأسس الظن بعمالك وكتابك وخذ نفسك بالتيقظ^(٢٧٣)، أي عليه ان يسيء الظن بكل عماله.

من الواضح أنه لا مكان للعرب في اهتمام المنصور في هذه الوصية، وفضلاً عن ذلك فقد أوصى المنصور المهدي ان يضحى بكل شيء حتى ببغداد وبالأموال وبالموالي في سبيل المحافظة على سلطانه. وقال له يابني، لست اخاف عليك إلا رجلين: الأول عيسى بن موسى بن محمد العباسي والثاني عيسى بن زيد (طالبي) فانفق هذه الاموال، واقتل هؤلاء الموال، واهدم هذه المدينة (بغداد) حتى تظفر به، ثم لا ألومك^(٢٧٤) أليست هذه هي السياسة الميكافيلية؟ (وهي: الغاية تبرر الوسيلة).

لا يوجد أي دليل على أنه كان للمنصور عصبية عربية يستجيب لها ولو كانت في غير صالحه، بل ان كل الدلائل تشير إلى أنه كان رجل سياسة يسعى:
اولا: للمحافظة على نفسه وسلطانه.

ثانيا: لجمع الاموال وتكديسها بجميع الطرق الممكنة.

ثالثا: لتأمين بقاء ولاية العهد والخلافة في عقبه، وليس لأي عباسي خارج عقبه، ويؤيد ذلك ما سيرد من سوء معاملته لأخيه مظلوما.

رابعا: إغداق الاموال على آله من العباسيين وتولييتهم الولايات (على ان لا يبقى الواحد منهم زمنا طويلا في ولاية واحدة) وأن يخضع الناس لهم ثم إلى موالى العباسيين ثم أوصى بالخرسانية.

خامسا: استعباد الناس وجعلهم مواليه عربا كانوا أم غير عرب، وضرب العرب بعضهم ببعض ليحتفظ بالسيطرة في يده وحده. وسنجد في بحث العصبية شواهد على ذلك مثل مقتل معن بن زائدة وغيره.

ظل الحال على هذا المتوال زمن المستعين والمعتز اللذين قتلتهما الأتراك. ولم يعد لقواد العرب وجود في العروض العسكرية، إذ نقل عن أبي علي البصير (في النصف الأول من القرن الثالث الهجري)^(٢٧٥) أنه كان واقفا بباب الجوسق (من أعمال بغداد)، وكانت المواكب من الجند تمر فيسال عن أصحابها فيقال: هذا فلان التركي، وهذا فلان الخزري، وهذا فلان الفرغاني، وهذا فلان الديلمي ولا يذكر له أحد من العرب المذكورين ولا من أبناء المهاجرين والانصار، فيقول أبو علي البصير: يا بني النعمة (أي العرب) اصبروا لهم كما صبروا لكم^(٢٧٦).

ما تقدم يكفي كي نقف هنا لان الخلفاء الباقيين ساروا على نفس هذه السياسة مرغمين والان ندرس تجنيد الاعراب في الجيش العباسي.

وبعد هذا أيقن لنا ان نقول ان الدولة العباسية كانت عربية؟ ام نردد مع الجاحظ قوله، ونساءل: ألم يكن من حق الأمويين ان يحافظوا على مركز العرب دون الخط من غير العرب، وذلك لان العرب كانوا حينئذ أقلية يخشى ان تذوب في الأكثرية من غير العرب؟

ونعود فنقول ان الخرسانيين كان فيهم أقلية عربية ولكن الأجيال المتأخرة كانت أمهاتهم فارسية على الأغلب وعاشوا في جو فارسي، وبطلت نسبتهم إلى القبائل بل انتقلت إلى المدن مثل مروزي، شهرزوري... الخ كي ينسوا عروبتهم.

الباب الرابع

العصر العباسي الثاني

١. العالم الاسلامي في العصر العباسي - احمد ابراهيم الشريف ورفيقه ٢٨٢
٢. مطلع العصر العباسي الثاني - ناديا صقر ١٩
٣. العلاقات السياسية والبيزنطية - موفق سالم نوري - ٤٨
٤. الذخائر والتحف ٢١٩
٥. الاعلاق الخطيرة ٢٧٣/٣
٦. المسعودي مروج الذهب ٤/٤
٧. التنبيه والاشراف ٦٣/٣
٨. المسعودي مروج الذهب
٩. الطبري ٣٠٣/٩ سنة ٢٥١
١٠. ن م ٣١٠/٩ سنة ٢٥١
١١. ن م ٣١٤/٩
١٢. ن م ٣٢٠/٩ سنة ٢٥١
١٣. ن م ٣٦٣ سنة ٢٥٢
١٤. ابن طباطبا ٢٤٣
١٥. الطبري ٣٩٠/٩ سنة ٢٥٥
١٦. ابن شداد الاعلاق الخطيرة ٢٨٠/١/٣
٢٠. ابن طباطبا ٢٤٦
٢١. الطبري ٥٤٩/٩
٢٢. الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي - د. عبد الجبار ناجي ١٨٣
٢٣. ن م ١٨٧
٢٤. ن م ٢٨١
٢٥. الولاة والقضاة للكندي ٢١٧
٢٦. ابن الاثير ٣١٦/٧
٢٧. الطبري ٥٥١/٩ ابن الاثير ٣٣٣/٧
٢٨. الطبري ٤٤/٩، ابن الاثير ٤٧٨/٧، الكندي ٢٤١
٣٠. الطبري ١٠٣/١٠
٣١. ابن الاثير ٩٩/٦
٣٢. التنبيه والاشراف ٣٢٢
٣٣. الدولة العباسية - شعبان ١٦٠
٣٤. ٩٩، ١٧١/٧
٣٦. الطبري ١٠٢/٧، ابن الاثير ٥٢٦/٧
٣٧. الطبري ١٠٨/١٠
٣٨. الطبري ١٠٤/١٠
٣٩. العبر ٦٦٣
٤٠. الطبري ١١٢/٧
٤١. الطبري ١١٢/١٠
٤٢. ن م ٢٩١/١٠
٤٣. زهر الاداب ٨٣٩/٢
٤٥. الاغاني ٣٨٢/١٦
٤٦. زهر الاداب ١٠٦٦/٢، ابن طباطبا (الفجري) ٢٩١
٥٠. ابن الاثير ٩٢/٧
٥١. ن م ١٠٨/٨
٥٢. ن م ١١٥/٨
٥٣. ن م ١٢١/٨
٥٤. ن م ١٥٩/٨
٥٥. ن م ٣١٦/٨
٥٦. صلة تاريخ الطبري ١١٧
٥٧. ابن العديم ٩٧/١
٥٨. ابن الاثير ٣٦٤/٨
٥٩. ابن طباطبا (الفجري) ٢٨٤
٦٠. الولاة والقضاة - الكندي ٢١٧
٦١. هبن الاثير ٣١٦/٧
٦٢. الطبري ٥٥١/٩، ابن الاثير ٣٣٣/٧
٦٣. الطبري ٥٥١/٩، ابن الاثير ٣٣٥/٧
٦٤. الطبري ٦١١/٩، ابن الاثير ٣٧٢/١٠، البيطار ١١٩
٦٥. الطبري ٦١٤/٩، ابن الاثير ٣٩٣/٣
٦٦. الطبري ٦٥٠/٩
٦٧. الكندي ٢٢٤
٦٨. بغية الطلب ٨٢٩/١٢، البيطار ١٢٠
٦٩. الطبري ٥٤/١٠
٧٠. الكندي ٢٢٤، ابن الاثير ٣٩٧/٧، الطبري مختصرا ٦٥٣/٩
٧١. الطبري ٦٦٦/٩، ابن الاثير ٤٠٨/٧، الكندي ٢٣١
٧٢. ابن الاثير ٤٠٩/٧
٧٣. الطبري ٦٦٧/٩، ابن الاثير ٤١١/٧، وورد اسم احمد ذو غياش في ابن عساكر ٢٧٨/٢، وبغية الطلب ٧٤١/٢، وزمباور في ولاة حلب، وابن الاثير ٤٢٢/٧
٧٤. بغية الطلب ٣٣٨٣
٧٥. ابن الاثير ٤٢٣/٧، الكندي ٢٣٦
٧٦. الطبري ١٢١/١٠، ابن الاثير ٤٥١/٧
٧٧. الطبري ١٢١/١٠، ابن الاثير ٤٢٤/٧
٧٨. البيطار ١٢٩
٧٩. الكندي ٢٣٧
٨٠. ابن الاثير ٤٢٧/٧

- ٨١- ابن الأثير ٤٢٧/٧
٨٢- ابن الأثير ٤٥١/٧
٨٣- الطبري ٤٢٩، ابن الأثير ٤٧٤/٧
٨٥- التاريخ الاقتصادي والاجتماعي- اشتور ١٥٤
٨٦- صلة تاريخ الطبري ١١٧
٨٧- ابن الأثير ٣١٦/٨
٨٨- تاريخ الإسلام للذهبي ٣١٦ ابن الأثير ٤١٣/٩
٨٩- التنبيه والاشراف ٣٣٣
٩٠- صلة تاريخ الطبري ١١٧ عام ٣١٦
٩٢- الطبري ١٣٠/٩، ١٣١ ١٤٦-١٥٠
٩٣- اليعقوبي ٤٨٠/٢
٩٤- دول العالم الإسلامي- شاکر مصطفى ٣٥٣/١
٩٥- بغية الطلب ٥٥٣/١
٩٦- ن م ٥٤٦/١
٩٧- ديوان أبي فراس الحمداني ٥٠/٢ ابن الأثير ٦٣/٧
٩٨- العالم الإسلامي في العصر العباسي- د. حسن احمد محمود
٩٩- ديوان أبي فراس ١٣٣/١
١٠٠- ن م ١١٢٥
١٠١- كراتشكوفسكي ٤٠/١
١٠٢- ابن الأثير ٣٨٠/٨
١٠٣- ابن الأثير ٣٩٥/٨
١٠٤- ن م ٣٩٨/٨
١٠٥- ن م ٤٠٦/٨ سنة ٣٣٢
١٠٦- مروج الذهب
١٠٧- ابن العديم ١٠٦/١
١٠٨- ابن الأثير ٤١٨/٨
١٠٩- ن م ٤٤٥/٨
١١٠- ابن العديم ١١٤/١
١١١- ابن الأثير ٤٧٥/٨
١١٢- ديوان المتنبي- معذر احمد ١٣٧/٣
١١٣- مقدمة شوقي ضيف: عصر الدول والامارات ٥
١١٤- مات ناصر الدولة سنة ٣٥٨ (ابن الأثير ٥٩٣/٨) وكان سيف الدولة قد مات قبله سنة ٣٥٦
١١٥- ابن شداد ٧٢/١٣
١١٦- ابن الأثير ٥٧٩/٨
١١٧- الدولة الحمدانية- السامرائي ٢٧١
١١٨- ابن الأثير ٥٩٣/١ بتصرف سنة ٣٥٨
- ١١٩- ابن شداد ٧٢/١٣
١٢٠- ابن الأثير ٦٠٩/٨ سنة ٣٥٦
١٢١- ابن شداد ٧٣/١٣
١٢٢- ن م ٧٣/١٣
١٢٣- الدولة الحمدانية- السامرائي ٢٧١
١٢٤- ابن الأثير ٨٥/٩ سنة ٣٨١، ابن شداد ٧٣/١٣
١٢٥- ابن الأثير ٩١/٩ سنة ٣٨١
١٢٦- ن م ٣٨٨/٩
١٢٧- ابن العديم ١٩٥/١
١٢٨- ابن شداد ٧٥/١٣
١٢٩- ابن العديم ١٩٧/١
١٣٠- ابن شداد ٧٦/١٣
١٣١- زمباور ٢١٠
١٣٢- بنومرداس (عن الانطاكي ٢٦٣/٢٦٩)
١٣٣- ابن الأثير ٤٦٥/٩
١٣٤- ن م ٤٦٥/٩ بنو مرداس
١٣٥- ابن الأثير ٤١٣/٩
١٣٦- ن م ٤٦٥/٩
١٣٧- ابن شداد ٧٦/١٣، ابن العديم ٣٥٨/١
١٣٨- زمباور ٢٠٤/٢
١٣٩- الإمارات العربية في بلاد الشام ١٢٢
١٤٠- ابن العديم ٢٥٩/١
١٤١- بنو مرداس ٩٤
١٤٢- الجامع في اخبار أبي العلاء ٩٤/١ (عن معجم الادباء وابن العديم والقفطي)
١٤٣- بنو مرداس ١٠٤
١٤٤- ن م ١١٣، ابن الأثير ٦٣٣/٩
١٤٥- ابن شداد ٧٦/١٣
١٤٦- ابن العديم ٢٧٣/١
١٤٧- مدخل إلى تاريخ العربي- د. زكار ١٠٥
١٤٨- ابن شداد ٧٧/١٣
١٤٩- ابن العديم ٣٩٥/٢
١٥٠- ابن الأثير ٢٣٤/٩
١٥١- ابن الأثير ٢٣٤/٩، ابو القلاء ١٤٩
١٥٢- ابن الأثير ٢٣٤/٩، بنو مرداس ١٤٩
١٥٣- كاهن ٤٧٠، ابن الأثير ٦٨/١٠
١٥٤- ابن شداد ٧٧/١٣
١٥٥- شاکر مصطفى ٣٣١/١
١٥٦- ابن الأثير ١٣٤/١٠
١٥٧- ابن شداد ٧٧/١٣
١٥٨- المدخل إلى تاريخ العرب- د. زكار
١٥٩- ابن العديم ١٠١/٢
١٦٠- موسوعة دول العالم- شاکر مصطفى ٣٣١/١

- ١٦١- ابن الأثير ١٥٨/١٠
 ١٦٢- ابن شداد ٧٧/١٣
 ١٦٣- الاعتبار لاسامة بن منقذ ٩٩، ابن الأثير ٤٦٣/١٠
 ١٦٤- الاعتبار لاسامة بن منقذ ٩٠
 ١٦٥- التفاصيل في ابن الأثير ٤٦٠/١٠ والحروب الصليبية لرئيسمان ١٨١/٢
 ١٦٦- المدخل إلى تاريخ العرب- د. زكار ٢٠٣
 ١٦٨- تاريخ الفاروقي ٢٣٣، ابن خلكان ٢٦٩/٥
 ١٦٩- المدخل إلى تاريخ العرب- د. زكار ٢٣٠
 ١٧٠- ن.م ١٧١
 ١٧١- سلاجقة الشام والجزيرة- د. أرشيد يوسف ٢٢٠
 ١٧٢- ابن شداد ٧٨/١٣
 ١٧٣- رئيسمان ١٩٠/١
 ١٧٤- كاهن ١٠٤
 ١٧٥- ابن الأثير ٣٦٩/١، الحركة الصليبية ٤٤٠/١
 ١٧٦- كاهن ٣٤
 ١٧٧- ابن الأثير ٢٧٨/١٠ سنة ٤٩١
 ١٧٨- ن.م ٢٨٣/١٠
 ١٧٩- كاهن ١١٢
 ١٨٠- ن.م ١٨٠
 ١٨١- ابن الأثير ٢٠٩/١٠
 ١٨٢- ن.م ٥٣٩/١٠
 ١٨٣- ابن العديم ٢٣٣/٢
 ١٨٤- عماد الدين زنكي- عماد الدين خليل ٦٩
 ١٨٥- ابن الأثير ٩٨/١١ سنة ٥٣٩
 ١٨٦- تاريخ الزمان لابن العبري ١٤٣ حوادث سنة ٥٢٣
 ١٨٧- اليسيف- نور الدين ٣٣٣/٢
 ١٨٨- أبو شامة
 ١٩٠- عماد الدين زنكي- عماد الدين خليل
 ١٩١- ابن الأثير ٦٤٥/١٠
 ١٩٢- ن.م ٦٥٠/١٠
 ١٩٣- عماد الدين زنكي ٧٥
 ١٩٤- ن.م ٩٨
 ١٩٥- ابن الأثير ٦٦٢/١٠
 ١٩٦- عماد الدين زنكي ٧٥
 ١٩٧- ن.م ١٠١
 ٢٠٥- ابن الأثير ٩٨/١١
 ٢٠٦- عماد الدين زنكي ١٥٨
 ٢٠٧- نور الدين- حسين مؤنس ١٧٧
 ٢٠٨- عماد الدين زنكي ٨١
 ٢٠٩- ن.م ١٦٦
 ٢١٠- نور الدين- مؤنس ١٧٨
 ٢١١- ن.م ٢٧٨
 ٢١٢- نور الدين- اليسيف ٤٨٨/٢
 ٢١٣- ن.م ٤١١/٢
 ٢١٤- ابن شداد ٧٨/١٣
 ٢١٥- نور الدين- اليسيف ٤٨٩/٢
 ٢١٦- نور الدين- مؤنس ٢٨٠
 ٢١٧- نور الدين- اليسيف ٤٨٩/٢
 ٢١٨- نور الدين- مؤنس ٢٨١
 ٢١٩- ن.م ٢٨٤
 ٢٢٠- ن.م ٢٨١
 ٢٢١- نور الدين- اليسيف ٤٩١/٢
 ٢٢٢- ابن شداد ٧٨/١٣
 ٢٢٣- ابن الأثير ٢٥١/١١
 ٢٢٤- ابن العديم ٣١١/٢
 ٢٢٥- ابن شداد ٧٩/١٣
 ٢٢٦- نور الدين- العسلي، نور الدين- اليسيف ٦٢١/٢
 ٢٢٧- نور الدين- مؤنس ٣٠٧
 ٢٢٨- ابن شداد ٧٩/١٣، ابن الأثير ٣٦٢/١١
 ٢٢٩- التاريخ الفكري للمذهب السني- ابو الفتوح ١٠٦
 ٢٣٠- ابن شداد ٧١/١٣
 ٢٣١- ن.م ٧٦/١٣
 ٢٣٢- التاريخ الفكري والسياسي ٢١٢
 ٢٣٣- نور الدين- مؤنس ٢٢٥
 ٢٣٤- ابن عساكر ٤/١
 ٢٣٥- ابن شداد ٧٩/١٣
 ٢٣٦- سلاجقة الشام والجزيرة- ارشيد يوسف
 ٢٣٧- نور الدين- مؤنس ٢٠٦
 ٢٣٨- ن.م ٢٧٩
 ٢٣٩- ن.م ٢٨١
 ٢٤٠- ن.م ٢٨٢
 ٢٤١- نور الدين- العسلي ١١٩
 ٢٤٢- المؤتمر الدولي الرابع لبلاد الشام في صدر الإسلام- سكينه الشهابي ٣٥٥
 ٢٤٣- ابن الأثير ٤٢٩/١١ سنة ٥٧١
 ٢٤٤- ن.م ٤٧٤/١١
 ٢٤٥- ابن العديم ٥١٣ سنة ٥٧٧
 ٢٤٦- ابن الأثير ٤٨٤/١١، ابن العديم ٥٨/٣
 ٢٤٧- ابن الأثير ٤٩٦/١١
 ٢٤٨- ابن شداد ٨٠/١٣
 ٢٤٩- ابن العديم ١٢٩/٣

- ٢٥٠- ابن شداد ٧١/١/٣
 ٢٥١- ابن شداد ٨١/١/٣
 ٢٥٢- ابن العديم ٢٠٠/٣
 ٢٥٣- ن م ٢٠٧/٣
 ٢٥٤- ن م ٢٠٨/٣
 ٢٥٥- ن م ٢٢،
 ٢٥٦- ابن شداد ٨٢، ٨١/١/٣
 ٢٥٧- ابن العديم ٢٢٧/٣
 ٢٥٩- ابن العديم ٢٤٤/٣
 ٢٦٠- زمباور ١٥٦
 ٢٦١- زمباور ١٥٢
 ٢٦٢- زمباور ١٥٣، ١٥٨
 ٢٦٣- ابن شداد ٨٧/١/٣
 ٢٦٤- محقق كتاب ابن شداد ج ٣ ص ٢٨
- ٢٦٥- تاريخ الموصل ١٤٥
 ٢٦٦- الطبري ٤٥٦/٧ سنة ١٣٢
 ٢٦٧- ن م ٤٥٤/٧
 ٢٦٨- ن م ٤٤١/٧
 ٢٦٩- ن م ٤٥٣/٧
 ٢٧٠- العباسيون الأوائل ٨٣/٢
 ٢٧١- ن م ٩٢/٢، تاريخ الموصل ١٢٤
 ٢٧٢- الطبري ١٠٣/٨ سنة ١٥٨
 ٢٧٣- ن م ١٠٦/٨ سنة ١٥٨
 ٢٧٤- ن م ١٠٦/٨
 ٢٧٥- توفي في سر من رأى زمن الفتنة بين
 المستعين والمعتز عام ٢٥١ (معجم الشعراء
 للمرزباني ١٨٥)
 ٢٧٦- طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٩٨

الباب الخامس الحياة الاقتصادية

الباب الخامس

الحياة الاقتصادية

مثل العصر العباسي الأول مرحلة متقدمة جدا من الازدهار الاقتصادي الذي أخذ اشكالا عدة، منها: ارتفاع المستوى المعاشي للأفراد في مختلف المستويات، وكذلك استثمار الاموال استثمارا واسعا في المجالات الزراعية والتجارية، الأمر الذي عكس صورة زاهية عن ازدهار اقتصادي نام ومتساعد الوتيرة وهناك عوامل رئيسية اسهمت اسهاما كبيرا في خلقه وهي:

اولا: ظهور المدن الكبيرة وازدهار العمران فيها، إذ تحولت المدن الصغيرة إلى مدن كبيرة، إما عن طريق الهجرة أو الزيادة الطبيعية في السكان بارتفاع معدل الولادة. وأدى هذا الأمر إلى ازدياد كبير في الطلب على السلع كما ونوعا، وكان الاقبال على الاستهلاك أهم الخصائص التي نما في ظلها الانتاج الاقتصادي وترتب على ذلك نشاط كبير لاستثمار أقصى ما يمكن استثماره.

ثانيا: حركة الذهب: ففي الفترة التي سبقت التحرير العربي، شهدت حركة الذهب توجهها متزايدا نحو الشرق واستنزفت هذه الحركة معظم ذهب غرب البحر المتوسط لصالح الشرق وشواطئ المحيط الهندي. وبعد استقرار الأوضاع في اعقاب حركة التحرير العربية، اتجه هذا الذهب نحو الدول العربية الإسلامية.

ترتب على هذه الكميات المتدفقة من الذهب أن قيمته بدأت تنخفض لازدياد عرضه، وهذا يعني انخفاض القيمة الشرائية للنقد - المسكوك من الذهب - ولأن عامة الناس لا يكتزون النقد المنخفض القيمة باستمرار، فقد جرى التوجه نحو استثمار هذا الذهب بما يحقق عائدا مرتقعا لرؤوس الاموال المستثمرة.

ثالثا: الاستقرار السياسي في الدولة العباسية فان العصر العباسي الاول.

لقد اسهمت هذه العوامل في ازدياد سرعة وحيوية التبادل التجاري والارتفاع الكبير في الانتاج الزراعي النباتي والحيواني وبعقبه النشاط التجاري، أما الانتاج الصناعي فإنه كان محدودا. وهذا عائد إلى أن البشرية لم تكن بعد قد دخلت مرحلة الثورة الصناعية.

لم يفد ارتفاع الاسعار إلا طبقة التجار والطبقة المتوسطة فقد دفع تجمع الاموال بأيدي التجار هؤلاء إلى توظيفها من جديد وعقد صفقات مثمرة أكثر. وذلك في الوقت الذي استمرت فيه أوساط القصور، عن طريق الضرائب، وعن طريق وسطائهم المصرفيين، بسحب قسم هام من الثروات الجديدة والعيش ببذخ لم يسمع بمثله.

إن ازدهار طبقة التجار الذي تشهد عليه البيوت في المدينة والبذخ في منطقة القصور التي يشكل قصر الأمير رمزا لها، هما دعامتا الحضارة المادية في المدينة، بل الحضارة ككل، إذ تذكرنا بالهبات التي كانت تمنح للعلماء والادباء.

٢- الزراعة في الشام والجزيرة

اهتم العرب بالزراعة منذ عهد الجاهلية كما فعل بنو ثقيف في الطائف^(٣) وعرف عن عرب أهل الجزيرة - وخاصة في ديار مضر - اهتمامهم بالزراعة وإقبالهم عليها منذ ما قبل الاسلام، ففي عام ٥٠٣ م نفذ النعمان الثاني اللخمي التابع للفرس، وبأمر من قباده بقاءه إلى منطقة حران فأعمل فيها تخريبا وسبيا، وظل يتقدم حتى وصل إداسا (الرها) فنهب الماشية والامتنعة والغنائم من جميع الانواع. كما أسر ١٨٥٠٠ شخص عدا من قتلوا. وكان سبب وجود هذه الأعداد الغفيرة من الناس بالمناطق الريفية، أن صادف ذلك جني العنب بحيث لم يخرج القرويون وحدهم لجنه، بل وخرج معهم عدد كبير من أهل حران وإديسا، ولذا وقعوا في الاسر^(٤) وأشير في عهود صلح الجزيرة بما فيها الرقة إلى أن الكنائس فيها تملك أراض زراعية تنتج الغلال^(٥)

من المعروف أن العرب مصرروا الامصار (أي جعلوها مدنا وأقاموا فيها المرافق العامة) منذ دخولهم على المناطق المغلوبة. وهذا الأمر ما كان ممكنا لولا الانتاجية الزراعية. فالمدن غير ممكنة الوجود إذا لم تكن هناك فوائض زراعية كافية في المناطق المحيطة بها لتغذية سكانها. وكلما كانت المدينة كبيرة كثيرة السكان كلما كانت الحاجة أكبر للفوائض الزراعية. وقد كانت المنتجات الزراعية مثل القمح والمنسوجات والزيت النباتية والسكر وغيرها سلعا للتصدير وللتجارة طويلة المدى^(٩). ولفتت الزراعة انتباه العرب الوافدين الجدد في صدر الاسلام، إذ ذكر عن مرور ربيعة بن عاصم العقيلي، وهو رئيس قبيلته، بالجزيرة في طريقه إلى معاوية فقرأوا بلادا خصبة ريفية ومزدرعا واسعا، وقلة أهل واستقروا فيما بعد في الجزيرة^(١٠) لأنها أعجبتهم كثيرا. ويدل هذا على أن الزراعة كانت أولى اهتماماتهم.

٢) السياسة الزراعية العامة

شجعت الدولة الإسلامية في صدر الاسلام وزمن الأمويين الزراعة بوسائل متعددة منها:

- ١- أبقت الأرض بيد أهلها الذين بقوا فيها ولم يهاجروا.
- ٢- وزعت أراض كثيرة من الصوافي على شكل قطائع.
- ٣- شجعت على احياء الأراضي البور وعلى تجفيف المستنقعات وشق الأنهار والاقنية. وكان هناك مهندسون للإشراف على ذلك (تاريخ العظمي ص ٢٠٤ سنة ١٠٨هـ).
- ٤- أبقت الضرائب على الأراضي منخفضة وخفضت بعضها بتحويلها من الخراج إلى العشر، وأن كان مثل هذا التحويل لا يوجد له شواهد في الجزيرة الفراتية.
- ٥- لم يفتح الجيش الاسلامي بلدا إلا ويأمر إلى تنظيم أموره وتأمين أهله، وأقام المسالج لحفظ القرى والمدن، ورتب الادارة الصالحة^(١١).

بذلك توفرت كمية أكبر من الأراضي الزراعية وكمية أكبر من مياه الري، وبالتالي كمية أكبر من العمل. وازدادت المنافسة على ذلك في جميع الميادين، هذا فضلا عن أن المزارعين كانوا أحرارا ولم يكونوا عبيدا كما كانوا في العهود السابقة للإسلام^(١٢). وصارت الأراضي فيما بعد سلعة قابلة للبيع ومضمونة الاستثمار ومريحة.

وعلى سبيل المثال: اشترى أحدهم ضياعا بعشرة آلاف دينار تغل الف دينار (أي عشرة بالمئة سنويا) ووضع لها قيما^(٢٣). وكان معظم المزارعين يعملون لحسابهم الخاص، أو بالمقاسمة مع مالك الأرض، أو يستأجرون الأرض من أصحابها^(٢٤). وإضافة إلى ذلك كانت الدولة تقدم القروض إلى الفلاحين في العهد الأموي^(٢٥) عند اللزوم.

وقد تقدم في بحث الضريبة على الزرع والأثمار في الأرض الخراجية، أن العامر غير المزروع من الأرض كان كثيرا عند فتح العرب البلاد ولذلك فرض عمر بن الخطاب ضريبة على كل أرض يبلغها الماء عملت أم لم تعمل كي يضطر صاحبها إلى زراعتها.

٣) آثار تملك الأرض

كان زعماء القبائل أول من تبه إلى قيمة الأرض واستزادوا من امتلاكها، بدعم هذا ما تقدم من ملاحظة ربيعة بن عاصم العقيلي وتمثل ذلك في محاولاتهم أخذها بأحياء الموات أو من ملاكها القدامى وتحويلها من أراض خراجية إلى أراض عشرية. الشيء الوحيد الذي تغير هو أن الفلاحين عليها أصبحوا أحرارا بعد ان كانوا في العهد البيزنطي والساساني عبيدا للأرض لا يحق لهم مفارقتها. وقد نجم عن هذه الحرية أن ترك الكثير من الفلاحين أراضيهم ليكونوا الطبقة الدنيا في المدن الجديدة، وفتح ذلك بالمقابل المجال أمام الملاكين للتوسع في ملكياتهم للأراضي... وهكذا تحولت معظم الارستقراطية العربية (زمن الأمويين) إلى ارستقراطية مدنية من الملاكين.

ومن جهة أخرى فان ضريبة الجزية كانت في السواد والجزيرة ومصر وخراسان على الرأس، ولكنها جعلت جماعية، أعني أنها تجبى من القرية بمقدار محدود مفروض عليها دون اعتبار لمن قد

يهرب من السكان، وهكذا كان تبادل بين قوتي ائريف والمدينة: فالايدي العاملة في الريف تهرب إلى المدن، والمدينة بالمقابل تزيد من سيطرتها على الريف مما شكل أزمة كبرى للانتاج الزراعي. لما فتح العرب السواد (العراق) تركوا تنظيم القرية على ما كان عليه، فكان لكل قرية رئيس يدعى دهقان يشغل أهل القرية له. ثم ظهر بالتدريج ملاكون عرب جدد إلى جانب الدهاقين الذين هبطت منزلتهم إلى مجرد جباة (الخطيب البغدادي ١٢١٣/١) وكما هأة لهم على هذه الخدمة، أخذ الدهاقنة يجيئون من المزارعين ضريبة اضافية تسمى (حق الدهقنة) كانت لكثيرين مبعثا للتعدي والإساءة أحيانا (الفرج بعد الشدة ٥٥١).

وكان الملاكون باستثناء القليل منهم يقيمون في المدينة ويتركون وكلاء عنهم في القرى لإدارة ضياعهم (الصأبي ٢١٦، تاريخ الإسلام للذهبي سنة ٣٦٢هـ). يطلق على الزراع عادة إسم الأكرة والفلاحين، وقد كان ينتظر من الملاكين أحيانا جلب الفلاحين إلى أراضيهم وتزويدهم بالابذار وتقديم المساعدات المالية لهم، ويشار إلى أصحاب الأراضي بإسم (أرباب الضياع). وهناك ملاكون صغار يزرعون أراضيهم ويقيمون في القرى، ويشار إليهم عادة بإسم التناء مفردا تائئ. ويذكر ابن الفرات أنه يمكن عقد الضمان على تائئ غني. (الصأبي ٨٢، ٢٩، التتوخي: نشوار المحاضرة ١٦٨، ٢٧٠). ولكن وضع التناء كان يتدهور أحيانا فيهبط إلى سوية الفلاحين.

٤) الأساليب الزراعية

يبدو أن الأساليب القديمة في الزراعة والري والمحافظة على التربة كانت لا تزال حية في بداية الحكم الإسلامي ولكنها اختفت أيام العباسيين.

وقد ظهر بالتدريج أن العبء الضريبي المتزايد باستمرار ثبط همم الفلاحين الميسورين وصرفهم عن المشاريع الهادفة إلى تحسين التربة طالما لم تكن ضرورة جدا، كما أن الحكومة لم تهتم بذلك أيضا. والري الاصطناعي كما زاوله العرب، مع سوء عمليات الصرف أساء إلى التربة، فأصبحت قلبية وتجمع الملح في الطبقات العليا مشكلا بذلك قشرة بيضاء، كما أن الأقنية كثيرا ما أهملت لأن المالك الذي لا تكون قريته مهددة بصورة مباشرة غير ملزم بإصلاح السدود والأقنية. بالإضافة إلى ذلك إذا هدم أو تصدع أو تسرب الماء من قناة خاصة إلى حقول الجيران فمالك القرية غير ملزم بالأصلاح.

ومن جهة أخرى فإن طرق العمل الزراعي لم يطرأ عليها أي تحسن فقد ظل الفلاحون يستعملون محراث البحر المتوسط الخشبي، بينما سبق البيزنطيون في استعمال المحراث الحديدي وهو أفضل.

ورغم ذلك فإن خصب التربة كان عظيما جدا لدرجة جعلت المحاصيل غنية جدا حتى يدون التحسينات في الطرق الزراعية، ولكن الفلاحين المسلمين لم يحسنوا أساليبهم في طرق البوار (إراحة الأرض) ففي العراق ساد النظام التقليدي لزراعة القمح والشعير الشتوية بالتناوب مع فصل البوار لكن تم في مصر زراعة القمح بعد البرسيم أو الفول أو الخيار أو البوار.

ولا بد أن نسية الغلة (إلى البذار) كانت مرتفعة في فترة الحكم الإسلامي الأول ولكنها تناقصت تدريجيا.

كان المؤلفون العرب، أيام العباسيين، الذين اعتمدنا على كتبهم ميالين إلى تشويه سمعة الخلفاء الأمويين والتفني بفضائل العباسيين، ولكن نظرة فاحصة لكتاباتهم كافية لترينا أن نشاط العباسيين في مجال إعمار الأراضي كانت محدودة جدا مقارنة بما قام به الأمويون في هذا المجال، وهناك أدلة غير مباشرة على ذلك من واقع سجلات الواردات (اشتور ص ٦٠ وما بعد).

٦) الزراعة زمن العباسيين

عندما جاء العباسيون، وضعوا أيديهم على أملاك الأمويين وإقطاعاتهم تقريرا، ووزعوها على أوليائهم، حتى أن الرشيد لم يتورع - وهو في حالة نشوة كما قيل - أن يهب الهني والمري لإسحاق ابن إبراهيم الموصللي، وحين أصبح ندم على ذلك واستعادها، وعوضه عنها مئتي ألف درهم (٢٧).

ومن ناحية أخرى فإن كلمة 'الصوافي' صارت في عهد العباسيين تشمل الأملاك التي صودرت من أصحابها أي كان لها من يملكها من قبل ولم يتخل عنها .
وقد أعاد العباسيون بعض الأراضي لأصحابها فيما بعد لأسباب خاصة^(٢٩) . واستحدثوا ما استطاعوا من الإقطاعات الجديدة كضياع الرشيد في الرقة وغيرها، واسواق الرقة والرافقة^(٣٠) .
وكان تملك الأراضي استثمارا رابحا فأقبل الناس على شراء الأراضي ومن بينهم الخلفاء وقد أمر المنصور بأن يشتري بالمال الذي أمر به لبنات عيسى بن نهيك ضياعا يكون معاشهن منها^(٣١) .
وكما برزت إلى الوجود ملكيات كبيرة، فإن ملكيات كبيرة تعرضت للتجزئة إلى ملكيات صغيرة بحكم الوفاة والإرث.

بنوه بلياييف بفضل العرب في ازدهار الزراعة في الشام، إذ عندما دخل العرب بلاد الشام . كما يقول - كانت مساحة الأراضي الصالحة للزراعة قد تقلصت كثيرا، وتدنى الانتاج الزراعي إلى مستوى منخفض بسبب ما أسفرت عنه الحروب بين الروم والفرس من سلب ونهب، ونتيجة للسياسة المالية التي كان يتبعها الامبراطور هرقل، يضاف إلى ذلك ان وسائل الري من أقتية وترع قد تهدمت بسبب الإهمال، كما ان عدد سكان الريف الزراعي قد انخفض كثيرا بسبب نزوح الفلاحين عن ديارهم أو بسبب الوفيات من جراء الأوبئة المتعاقبة، فاستحالت الأراضي الزراعية المروية إلى قفار مجدبة هذه الأراضي التي فتحها العرب لم تلبث تحت اشرافهم أن استحالت إلى حقول ومروج وحدائق وبساتين ذات عطاء عظيم^(٣٢).

ويعطينا ديونيسيوس (الزعموم) في القرن الثامن الميلادي صورة مشرقة للجزيرة إذ يقول: وكانت الأرض كلها رائعة بسبب كرومها ومزارعها وبسبب قطائعها العديدة. ولم يكن هناك في أية قرية، أي شخص فقير لا يملك مزرعة وحميرا وماعزا. ولم يكن هناك أي موضع قابل للزراعة إلا وبذر أو زرع بأشجار الكرم. وزرعت الكرمة في الجبال في كل موضع أمكن اتصال المحراث إليه. وكانت الأرض تغص بالرعاة بسبب وفرة المراعي^(٣٣) وحديثه هذا عن الجزيرة. وهذا النص يقابل في الترجمة العربية ص ١٤٨، وشبيه بذلك ما ورد في هذه الترجمة ص ١٧٢ .

وليس صحيحا عدم اهتمام القبائل البدوية بالزراعة، فقد تحولت قيس بعد نقل جماعة منها إلى مصر إلى الزراعة^(٣٤) و تحولت قبيلة تغلب في الجزيرة إلى الزراعة ونسيت كل شيء عن الفروسية فدخلوا في عداد الفلاحين وانمحي منهم اسم العرب^(٣٥) (أي البدو).

وقد أصدر المنصور مرسوما إلى السكان (في الجزيرة) يقضي بتأخير الحصاد إلى حين قدومه إلى المنطقة ليتسنى له رؤية محاصيلهم في أرضها. وقد كان لانتشار الزراعة وتقارب البساتين أن احتدم النزاع بين الفلاحين حول حدود الضياع والأراضي. وقد تطور هذا النزاع إلى حد سفك الدماء في بعض الأحيان، أو إلى عزل العمال المسؤولين عن الجباية في أحيان أخرى. ويظهر أن المنصور قد لمس هذا الشراء بنفسه بعد زيارته الرقة، فغضب على أخيه لعدم استيفائه خراجا يتناسب وثراء المنطقة وخصبها^(٤٢).

كانت الدعوة العباسية دعوة إلى الإصلاح وقد أدت إلى تحرير العمال والفلاحين وخففت عنهم الكثير من الأثقال الاقتصادية الباهظة حين اندلعت الثورة في خراسان، واستطاعت الثورة السيطرة على هذا الإقليم الغني فقد كان خالد بن برمك في جيش قحطبة بن شبيب يتقلد خراج ما يفتح جيش الثورة من البلاد فعمل على تقسيط الخراج على الناس احساسا منه بالمظالم الناجمة التي تعرضوا لها وقضى على النظام الأموي لكن ابا العباس السفاح لم يستطع ان يتفرغ للتوسع في العلاقات وانشغل بالقضاء على أعداء الثورة.

ثم جاء أبو جعفر المنصور فقصى على الفتن التي نشأت في خراسان وتصدى لشورات العلويين في الحجاز وعمل على تثبيت النمط المركزي للخلافة وعلى اصلاح أدوات الحكم وإنشاء الجيش القوي القادر على تثبيت النظام العباسي وحمايته ثم عمل على اصلاح الوضع الاقتصادي ومواجهة غلاء الاسعار وكان الغلاء شديدا والاسعار مرتفعة في عام ١٤١هـ فعمل على اصلاح ذلك وهذا ما يذكره بعض المؤرخين الحديثين، ولكن ما تذكره المصادر العربية والسريانية يخالف ذلك ويبين أن المنصور جمع جميع الأموال بين يديه فقل شراء الحاجيات وهبطت أسعارها بشدة، ففي تاريخ ميخائيل ٢٢٦\٢: جمع أبو جعفر المنصور جميع الذهب والفضة في خزانته حتى أنه لم يكن يشاهد الدينار أو الدرهم إلا في أيدي التجار. وقد اضطّر الناس بسبب ألفة إلى نبش قبور الموتى وتدنيس ترابهم... واشتدت المجاعة ليس بسبب نقص القمح، بل لأنه لم يعد مع الناس دراهم ولا للفقراء عمل، ولأن الكنائس والأديرة قد نهبت، والمنازل قد سلبت، وبلغ ثمن الثور أو الحمار درهما واحدا، وبيع القمح كل خمسة أمداد بدرهم وكل عشر كيلات بدرهم، والشاب والشابة بخمس دراهم. واستمرت هذه الكارثة ثلاث سنوات حتى مات أبو جعفر المنصور خليفة العرب ومسبب الكوارث، وكان موته في مكة عام ١٥٨هـ بعد أن حكم ٢١ سنة. وذكر ميخائيل (٥٢٦\٣) وكرمر ديونيسيوس نفس المعلومات، وأشار الطبري إليها. وذكر ابن العبري (تاريخ الزمان ١٠) أن الناس انفرجوا بعد موت أبي جعفر المنصور الذي كان بخيلا وشديدا في الجباية (ميخائيل ٥٢٦\٣).

وكان المنصور يقوم على جمع المال بكل الطرق، شديد البطش حتى على الشبهه (قتل استياقي) وأنه بنى بغداد وجمع الملايين الكثيرة.

وأصبح بيت المال يتكفل بنفقات الأنهار التي تروي أرض الفلاحين الذين يدفعون الخراج في أنحاء الدولة، على أن يشارك مزارعو السواد في بعض هذه النفقات نظرا لخصوبة الأرض وثرائها. أصبحت الحياة الزراعية تقوم على اكتناف الفلاح الحر وتم إسقاط القيود الاقتصادية السابقة، وإباحة الهجرة لمن شاء، وإباحة ملكية الأرض للموالي، وبدأت الطبقات التي تحررت تستغل خبراتها في النشاط الزراعي إلى أبعد الحدود.

واهتم العباسيون با لخدمات الزراعية وعلى رأسها توفير المياه فحفروا الترع والمصارف وأقاموا الجسور والقناطر وهكذا عمل المنصور ثم المهدي ثم الرشيد إذ حفر نهر القاطول ونهر أبي الجبل في العراق وافق في ذلك عشرين مليوناً من الدراهم، وكذلك في الرقة ومثل ذلك فعل المعتصم. وقامت في العهد العباسي نهضة زراعية بلغت الذروة في عهد الرشيد إذ قامت على اساس فلاح غير مستعبد توفر له الدولة الحياة الكريمة ولا تثقل كاهله بالضرائب بل تمدّه بحاجته من الماء وقد أدى ذلك إلى التوسع في زراعة جميع المحاصيل دون استثناء وبالصورة التي عرضها الرحالة والجغرافيون أمثال المقدسي والاصطخري وابن حوقل. وتكدس الانتاج الزراعي في اسواق العراق وايران ورخصت الاسعار بصورة اقرب إلى الخيال. وكان يكفي الرجل من عامة الناس في عصر الرشيد وعائلته ثلاثمائة درهما في السنة.

ومع ذلك فقد حدث في عهد الرشيد أمران يقلل من قيمة ما تقدم، وقد تقدم ذكرهما:

الأول: عام ١٨٠هـ في الموصل التي كان العطار بن سليمان الأزدي قد استولى عليها وجباها ثلاث سنوات، ثم استردها الرشيد وولى عليها يحيى بن سعيد الحرثي ففسف فيها عسفا شديدا وطالب بخراج سنين مضت، فجبى الحرثي ستة الاف الف درهم وحملها إلى الرشيد في الرقة.

الثاني: عام ١٨٤هـ إذ قدم الرشيد من الرقة إلى بغداد فأخذ الناس بالبقايا (بقايا الرسوم التي لم تدفع) واستعمل الحبس والضرب في التحصيل.

مع أن الفضل بن يحيى احرق دفتر البقايا في خراسان عام ١٧٩هـ دون أن يتعرض لأي سؤال.

(٧) الانتاج الزراعي

تعد الزراعة بشقيها النباتي والحيواني حتى مطلع العصور الحديثة، المصدر الاساسي في التكوين الاقتصادي للدول والمجتمعات والأفراد، فبالنسبة للدول كانت الزراعة المصدر الرئيسي للموارد المالية للخزينة المركزية، وبالنسبة للمجتمع فان حاجاته الاساسية كان يتم تجهيزها عن طريق هذا الانتاج، أما الأفراد فان الزراعة كانت بالنسبة لهم المصدر الرئيسي للدخل والشراء والوجاهة الاجتماعية. ومن هنا كان لابد للدولة أن تهتم بها.

أكد المستشرقون أن العباسيين رغم ما بذلوه في الزراعة والري فأنهم لم يدركوا ما فعله الأمويون في ذلك، وإنني اكتفي بفقرة تقدمت في الكلام عن هشام بن عبد الملك وجهوده الزراعية، وهي تتعلق بالنهر الذي مده من دجلة إلى داخل مدينة الموصل والذي استمر العمل فيه ثلاثة عشر عاما (١٠٨ - ١٢١ هـ) وعمل فيه خمسة الاف رجل واستهلكت فيه جباية الموصل وعمل عليه ١٨ حجر رعى (أي طاحون) وقفها هشام على نفقة النهر. فهل نجد في أعمال العباسيين الزراعية ما يضارع ذلك؟

(٨) الزراعة في الجزيرة والرقعة خاصة

كانت غالبية سكان الجزيرة الفراتية فلاحين مرتبطين بالأرض، وكان الطابع الزراعي يغلب على هذه المجتمعات، وبعبارة أخرى أنها مجتمعات زراعية، لم تلعب الصناعة أو التجارة فيها إلا دورا محدودا، فالذين استوطنوا ضفاف الأنهار أو السطوح والسهول الجبلية، أو مناطق العيون والابار والقنوات، أو السهل الرسوبي، جميعهم اتجهوا للاشتغال بالزراعة^(٤٧).

وصفت الجزيرة في عهد معاوية (خلافته ٤١ - ٦٠ هـ) بأنها بلاد خصبة ريفية، ومزدرع واسع^(٤٨) ووصفها اصحاب يزيد بن المهلب عام ١٠١ هـ بأنها أرض رخيصة السعر^(٤٩).

ونصحوا الأمين (١٩٣ - ١٩٨ هـ) في الفتنة بينه وبين أخيه المأمون بأن يلحق بالجزيرة والشام افتراض الفروض، وتجبي الخراج، وتصير في مملكة واسعة وملك جديد^(٥٠) واشير في رواية الواقدي عن فتح الرقة إلى ما فيها من الاطعمة الكثيرة والزروع المستحصدة^(٥١) وأشار البلاذري أيضا إلى أنه بين الرقة والرافقة (بعدان بنيت ارافقة طبعاً) كان فضاء مزارع^(٥٢)، وأشاد الجغرافيون العرب القدامى، ومعظمهم من القرن الرابع الهجري، بالرقعة والرافقة وزراعتهما ومما قالوه: الرقة والرافقة هما في مستوى الأرض (أي ليس فيهما مرتفعات وجبال) وخصبتان^(٥٣). وأن كلا منهما رخصة الاسعار حسنته الأسواق^(٥٤)، وأنهما كثيرتا الاشجار والمياه، وأن الرقة كثيرة القرى والبساتين والخيرات^(٥٥). وكان للرقعة والرافقة عمارة وأعمال ورساتيق وكور^(٥٦) فالرقعة إذن في سهل مستو من الأرض، وهي خصبة وكثيرة المياه، وتتألف من قرى وبساتين ومزارع متصلة.

وأرى أن احدد هنا معنى بعض الكلمات بدقة. فالنزرعة مثلا جمعها مزارع وهي الأرض الزراعية التي ليس فيها أشجار كقول القزويني عن غوطة دمشق: كلها أنهار وأشجار متصلة، فلما يوجد بها مزارع^(٥٧) والبستان: أرض ذات شجر مثمر ونخل. والحديقة: البستان إذا كان عليه حائط وذلك من حديق به الشيء وأحديق: أحاط. والحائط: مثل الحديقة. والكورة أو الاستان^(٥٨) يقسم إلى الرساتيق، والرساتيق كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد^(٥٩).

أشار ياقوت إلى بساتين الرقة السمراء^(٦٠) وأشار الصنوبري إلى الاشجار المثمرة في الرقة السمراء وإلى بساتين النصار (النقرة من الذهب والفضة: القطعة المزادة أو السبيكة).

بين الهني إلى البليخ إلى بساتين النصار
فالرقعة السوداء ذات الـ مجتنى الغض الثمار^(٦١)

ومن جهة أخرى كانت الأديرة دائما محاطة بالشجر والرياحين والمياه^(٦٢) وخير مثال على ذلك دير مارزكي وبقيّة الأديرة في الرقة، هذا فضلا عن المستوطنات الزراعية الأموية القريبة

من الرقة مثل الهني والمري، (واسط الرقة) وفوق هذا كله كان بالقرب من الرقة مروج واسعة مثل مرج الضيائن، وغياض أيضا، وسترده في 'الأنهار المحدثه' أنهارا أخرى زودت بها الرقة.

(٩) الغياض

الغيضة والأجمة والدغل كلها بمعنى واحد وهو: أرض فيها شجر كثيف ملتف. إن الأراضي على الفرات التي لم تكن في يد أحد أو كانت في يد سكانها قبل الاسلام وتخلوا عنها، غلب عليها الدغل^(٧٨) وكذلك الشأن في كل بستان أهمل لسبب من الأسباب^(٧٩). وكان موضع سعيد بن عبد الملك بن مروان (قرب قرقيسيا) غيضة ذات سباع، فاقطعه إياها الوليد، فحضر النهر وعمر ما هناك^(٨٠).

وقد وصف الدينوري صفين فقال: وهي قرية خراب من بناء الروم (على شاطئ الفرات من الجانب الغربي) منها إلى الفرات غلوة^(٨١) (أي قدر رمية سهم)، وعلى شط الفرات مما يليها غيضة ملتفة، فيها نزوز (أي: وحل وفي الأصل المطبوع: نزور ولا معنى لها) طولها نحو من فرسخين، وليس في ذينك الفرسخين طريق إلى الفرات، إلا طريق واحد مفروش بالحجارة، وسائر ذلك خلاف وغرب ملتف لا يسلك. وجميع الغيضة نزوز ووحد إلا ذلك الطريق الذي يأخذ من القرية إلى الفرات^(٨٢).

(١٠) مستوطنات الأمويين الزراعية وقصورهم الريفية

انتهى سوفاجية في بحثه لقصور الأمويين في سوريا إلى أنها لم تكن مجرد منازل للنزهة بل مراكز للاستثمار الزراعي، يدل على ذلك منشآت الري حولها من قنوات وصهاريج ومجاري لارواء حقول ومشاريع زراعية وهذه القنوات والصهاريج وإن كانت على آثار مشاريع سابقة إلا أنها تدل على تقدير الأمويين لأهمية الأرض وعلى إحياء أراض خالية بعد الفتح، وتبين له أن جميع المنشآت الأموية لها طابع خاص ثابت ومحدد، وهو قصر تلازمه مجموعة ابنية وتوجد فيها آثار استغلال زراعي، وقد وافقه على هذا فيما بعد غرابار إذ ذكر أن هناك أكثر من مائتي مستوطنة أو مشروع زراعي يرجع تاريخها إلى القرنين الأول والثاني الهجريين^(٨٣).

وكان يظن أن الأمويين أقاموا قصورهم في البادية حبا في التبدي وخوفا من الطاعون ولكن ظهر أن هذا التعليل غير صحيح لأن الأمويين كانوا في الأصل من سكان مكة أي من أهل المدن وليسوا من البادية، وأن الشام لم تكن أسوأ من غيرها من حيث الأمراض والوبئة، وأن الأمويين فضلوا الأرياف لأدراكهم قيمة الأرض وعوائد الممتلكات العقارية. ويزعم المستشرقون أنه كان لقصور الأمويين على الغالب سوابق رومانية، وكانت تقام في مساحات يصعب أن تتغذى بالمياه مما دعاهم إلى إقامة نظام متطور للري وحفظ المياه، مما لا يمكن تحقيقه إلا بواسطة الدولة أو بالرأسمال الخاص ولذلك لم يمكن المحافظة على بعض المشاريع بعد سقوط الأمويين. وقد تقع القصور على محاور الانتجاع مما يتيح لها التماس مع القبائل البدوية، أو بالقرب من طريق مواصلات فتصبح حينئذ بمثابة خان أو منزلة. ويكون القصر في هذه المنشأة محاطا بسور مستطيل تدعّمه أبراج مستديرة وفي داخله باحة مركزية تتفتح عليها غرف مجمعة على شكل وحدات منفصلة، تشكل بيوتا تستد إلى جدران خارجية مغلقة تحفظ برودة المسكن وتزيد طاقة البناء الدفاعية. وقرب باب الدخول غرفة للجلوس وفي الطابق العلوي تتوزع الغرف كما في الطابق السفلي. ويقرب المسكن يقوم مسجد أو حمام. وقد استخدمت بعض القصور كمراكز للصيد^(٨٤).

وقد كشفت الحفريات في قصر الحير الشرقي مثلاً عن وجود نظام حقيقي للري يرمي إلى ري بضع مئات من الهكتارات للزراعة. وتنظيم جريان الماء في القناة بواسطة سكر (باب متحرك) ويخزن الماء على مسافة تزيد على ثلاثين كيلو متراً^(٨٥).

(١١) مصادر المياه ونظام الري

اعتمدت الزراعة في الرقة وجوارها وفي ديار مضر عامة بالإضافة إلى آلات الري على:

- | | |
|---------------------|------------|
| ١- الأنهار الطبيعية | ٤- الفيضان |
| ٢- الأنهار المحدثه | ٥- الأمطار |
| ٣- العيون | ٦- الآبار |

١- نهر الفرات ومجره

يفادر الفرات جبال طوروس فيقسم النجد (السهل الواسع المرتفع) إلى شطرين، ويكون أسفل سميساط الحدود بين سوريا والجزيرة. ويتلقى حينئذ في جانبه الغربي روافد هامة أبرزها نهر الأزرق أو نهر سنجاء، ثم نهر الساجور، وذلك أسفل قلعة الروم الصخرية ومعبر البيرة^(٩٠) وجسر منبج أو جسر سنجار (أو 'قلعة النجم' فيما بعد)، ولا يوجد له أثر اليوم، ويتسع وادي الفرات بعد أن كان ضيقاً. ثم يتخلى الفرات فيما بعد ذلك عن اتجاهه الشمالي الجنوبي كي يتجه شرقاً. وعند نقطة التغير هذه تقع على الضفة اليمنى مدينة بالس (مسكنة) التي تتبع الجزيرة والتي توجد في ناحيتها مخاضات عديدة، وفضلاً عن ذلك فإنها تمثل أقرب نقطة من الفرات إلى حلب. وأسفل ذلك تقع على الضفة اليسرى 'دوسر' (جعبر). وعلى الضفة اليمنى 'صفين' (أبو هريرة) ثم سوريا (الحمام) ثم الرقة ثم حلبية وينتهي عنده طريق ديوكلتين *strata Diocletina* الذي يمتد من دمشق عبر الصحراء إلى تدمر ثم الرصافة. يصب البليخ في نهر الفرات (في الضفة اليسرى أسفل الرقة السوداء (الرقة السمراء حالياً). وبعد مصبه، نصل إلى ناحية طريق الفرات، ويتضمن وادي الفرات من الرقة حتى 'عانة'. وهي مجرى ضيق يزيد طوله على ٢٥ كيلو متراً تحفه الصحراء، ويصلح للزراعة، وتغطي ضفتي النهر خرائب ومشاهد اسلامية، ولجميع المواضع هناك ذكر في التاريخ الاشوري، ولكثرة المخاضات التي يمكن عبورها في هذه الناحية، دعا الكتاب العرب طريق الفرات بـ (طريق المخاضات). وعلى بعد ٧٥ كيلو متراً من الرقة يصبح الفرات محصوراً بين جبل البشري في الجنوب الغربي وجبل الحمه في الشمال الشرقي، كانت الخانوقة (أي مكان يضيق به وادي الفرات ويختنق بين هضبتين صلبتين) عند بروكوب على كتلة بازلتية على الضفة اليسرى للنهر. وعلى بضعة كيلو مترات بعد الخانوقة كانت حلبية على الضفة اليمنى من النهر، وكانت مكان إقامة زنوبيا القديم، وهي الآن أطلال مستطيلة الشكل تسيطر عليها قلعة حصينة، وتحيط بها منطقة صحراوية تهب فيها ريح ساخنة من الجنوب الغربي، وتحمل معها رمال الصحراء الناعمة.

وبعد خروج الفرات من الخانوقة تقوم 'زلابية' على الضفة اليسرى للنهر، وكان يقطنها الاشوريون. وتقوم هناك قلعة من العهد البيزنطي مبنية على قمة منعزلة وعمودية على الفرات، تسيطر على الاراضي في الطرق المجاورة. وعند دير الرمان (على مقربة من دير الزور حالياً) يتسع وادي الفرات فيصّل عرضه من كيلو مترين إلى أربعة كيلو مترات. وفي المكان الذي تحتله الآن دير الزور (والزور تعني الوادي الأبيض) على بعد يومين من المسير أسفل الخانوقة، وعلى الضفة اليسرى للفرات في مكان التقائه بالخابور، كانت تقع قديماً قرقيسيا (البصيرة حالياً). وكان هذا المكان أهلاً بالسكان منذ أقدم الأزمان لأهميته. وكانت قرقيسيا حصناً على الحدود الرومانية الفارسية، فلعبت دوراً كبيراً في عهد ديوكليتيان وعهد جوستنيان، لأنها كانت آخر موقع

عسكري (مسلحة) روماني في الشرق. وكان هناك جدار لا تزال آثاره باقية، يصل الفرات بالخابور ويعطي المكان شكل مثلث الزوايا.

يصل عرض وادي الفرات بعد مصب الخابور من ستة إلى عشرة كيلو مترات وذلك بطول تسعين كيلو مترا. وعلى بعد مرحلة أسفل قرقيسيا تدل منارة عالية ترى من بعيد على الضفة اليمنى. للنهر على مدينة الرحبة (الميادين حاليا). وفي أسفل الرحبة كانت تقوم مدينة صغيرة نصف دائرية وهي الدالية، وكانت عند مصب نهر سعيد في الفرات، وهذا النهر عبارة عن قناة أنشأها سعيد بن عبد الملك الأموي، وكانت تجري من قرقيسيا موازية للنهر على ضفته اليمنى. وربما كانت الدالية في مكان الصالحية حاليا وهي مدينة دوار أوريبوس القديمة التي تشرف على الفرات من أعلى الضفة الصخرية أو فوق ذلك بقليل.

وإذا اتحدنا مع النهر نمر بمحطة قوافل تدعى الفرضة أي المخاضة. وهي آخر مكان من ديار مضر على الفرات، وهي نهاية طريق الفرات، وتقع بعد خط الطول ٤٢ بقليل. وكانت هناك قلعة حصينة تسيطر على النهر على الضفة اليمنى، ولا تزال آثارها باقية حتى الآن. ويبدو أن عانة بنيت في الأصل في جزيرة داخل الفرات، ثم اتصلت بالضفة اليمنى^(٩١).

وتقدم أن فيضان الفرات ودجلة عديم التأثير في الري نسبة لفيضان النيل، إذ أن فيضان الفرات ودجلة ينتهي في نهاية حزيران حيث يبلغ الحر أشده، وتصبح السقاية ضرورية ولا تتم الزراعة بدونها، أما فيضان النيل في مصر فينتهي شهر تشرين الثاني من كل عام فتتم الزراعة الشتوية دون سقاية^(٩٢).

ورغم شدة اندفاع مياه الفرات وعرضه فإنه لم يوقف أبدا المهاجمين لما بين النهرين، وأن سعة القوس الذي رسمه الفرات نحو الغرب بدأ من سميساط حتى الرقة والنقاط العديدة التي يمكن منها عبور الفرات تجعل من المشكوك فيه الدفاع عن منافذه إذا لم يتم الاستيلاء على ضفتيه. وأن أرض الفرات الأوسط اعتبارا من سميساط حتى عانة كانت ذات خصوبة باهرة قديما، فكان عدد كبير من المدن يقوم على ضفتي الفرات، وكان هناك نظام نام جدا من الاقنية يعمل على خصوبة شريط كبير من الأرض^(٩٣).

تغيير مجرى الفرات

كان الفرات يغير مجراه بعد الفيضان لهشاشة الأرض التي يسير فيها (باستثناء الخانوقة) فإذا كان ابتعاده عن مجراه الأصلي كبيرا اضطر مجاوره إلى الانتقال إلى المجرى الجديد أو جرافقية أو حفر أباروقد بعد الفرات عن الرقة أكثر من كيلو مترين مما كان عليه قديما وابتعد عن ماري (تل الحريري) بضعة كيلو مترات وعن مسكة (بالس) نحو أربعة كيلو مترات وعن توتول بضعة كيلو مترات، وقد ذكر ابن قيس الرقيات فيضان الفرات في شعر يمدح فيه عبد الله ابن جعفر^(٩٤).

وورد اسم نهر قلعة جعير عند ابن الوردية تمتمة المختصر ٣١١/٢ الطباق الحلي ٣١٨/٢.

٢- نهر البليخ وأنهار وقنوات

البليخ: اسم نهر بالرقة يجتمع فيه الماء من عيون، وأعظم تلك العيون عين يقال لها 'الذهبانية' في أرض حران^(٩٥) والرافد الأساسي لنهر البليخ ينبع قريبا من سروج^(٩٦) ومن روافده نهر 'جلاب' باسم قرية يقال لها 'جلاب' ويخرج هذا النهر من قرية تعرف باسم 'رب' تبعد عن جلاب أربعة أميال وينتهي إلى البليخ فيصب فيه إن فضل منه شيء في الشتاء، وأما في غير الشتاء فلا يفي ببعض ما عليه من الأراضي المزروعة لأنه صغير^(٩٧). كما أن نهر البليخ يتلقى رافدا يأتي من غرب مدينة رأس العين اتيا من نهر الخابور.

يسقي هذا النهر باجدا وحصن مسلمة وياجروان^(٩٨). وقد بنى عليه مسلمة بن عبد الملك حصنا يكون أسفله قدر جريب وارتفاعه في الهواء أكثر من خمسين ذراعا.

وأجرى ماء تلك العيون تحتها، فإذا خرج من تحت الحصن يسمى بليخا، ويتشعب من ذلك الموضع أنهار تسقي بساتين وقرى^(١٠٠) ويمر في ظهر مدينة الرقة ويصب في الفرات أسفل من الرقة السوداء في الجانب الشرقي^(١٠١) وفي ياقوت أنه يصب في الفرات تحت الرقة بميل^(١٠٢).
تم في عهد المهدي حفر أنهار القاطول وأبي الجند ونهر الصلة وقد انفق على هذه المشاريع مبالغ طائلة من الأموال لغرض تشجيع الزراعة والاهتمام بها^(١٠٥).

٣- الأنهار والقنوات المحدثه

أولى هشام بن عبد الملك مشاريع الري والبناء عناية خاصة انبثقت من اهتمامه بالأرض من أجل إحيائها وإعمارها. وتشير المصادر السريانية والعربية إلى أبرز مشاريع الري من حفر أنهار وقنوات ساعدت على استصلاح أراضي موات، وعلى توسيع مساحة الأراضي المزروعة في المنطقة.
أمر هشام في بادئ الأمر بحفر قنوات، امتدت إحداها من الفرات إلى الرقة لإرواء الأشجار والمزروعات كما أمر بحفر أنهار، من أبرزها نهر الزيتون، وقيل الزيتون فازدادت غلة خراج الولاية كلها. وقد ورد ذكر ذلك في المصادر السريانية، إذ أشار ديونيسيوس إلى أن هشام بنى على ضفتي النهر مدنا وقلاعاً وقرى عديدة، وزانها بأغراس وفيرة من مختلف الأشكال. وأشار صاحب الشذرات السريانية إلى هذا النهر بقوله: 'وشق (أي هشام) من الفرات نهراً لسقي الأشجار والنباتات التي نصبها عليه. واشتق هشام أنهاراً أخرى منها نهراً الهني والمري، فبنى إلى جوارها القلاع، وزرع على ضفافها الأشجار. واستحدث أخوه مسلمة بن عبد الملك نهراً سماه نهر نيت بالس' وأقام عليه القرى والحصون^(١٠٦).

جر هارون الرشيد قناتين: أحدهما من الفرات. وقد تكون هي نفس نهر النيل الآتي ذكره. والآخرى من سروج إذ أنه اشترى مياه قرى سروج من مالكةا، وحفر لها مجرى جديدا جعلها تتحدر فيه، وأقام على جانبها بساتين عديدة^(١٠٧) وكتب ابن العبري: فزاد (الرشيد) في عمارتها (أي الرقة)، وغرس في ضواحيها جنائن كبيرة، والقناتان ظاهرتان بين الهضاب حتى يومنا هذا^(١٠٨).
وكان الخندق حول الرافقة يعتمد في تزويده بالماء على قناة النيل التي حفرها الرشيد، والتي كان يشاهد آثار الفرع الأخذ من قناة النيل، مقابل السور من جهته الشمالية^(١٠٩) وخط نهر النيل يظهر في مخطط الرقة المصور من الجو على قناة تأتي من الغرب إلى الشرق ويتفرع منها قناة تنزل إلى الجنوب فتدخل مدينة الرافقة وتصل مياهها إلى مدينة الرقة وقصورها.
وقد تكون قناة النيل هي نفسها نهر النيل الذي تقع عليه وعلى نهر البليخ دير زكي^(١١٠) أما سروج التي اشترى الرشيد ماء القناة منها فهي تقع قرب منابع الرافد الأساسي لنهر البليخ والناحية غنية بالمياه^(١١١).
ويخرج نهر النخيل من الفرات بازاء قرية 'دامان' ولا يبدو أنه محدث^(١١٢).

٤- العيون، الاقيضان، الأمطار، الخزانات والابار

وهناك بعض عيون المياه:

عين الرومية كانت ضيقة الوليد بن عقبة بن أبي معيط (صحابي) وحين مات دفن فيها وهي على خمسة عشر ميلا من الرقة^(١١٣) يظن أنها عين عيسى.
عين باجدا^(١١٤) الحزارتان^(١١٥).

الفيضان: الأمطار والخزانات، حصن مسلمة.

الآبار: وكانت الآبار بالبادية لا تحفر إلا بادن الخليفة^(١١٦).

١٢ وسائل الري

استعملت هذه الوسائل منذ القدم لسقاية الأراضي التي لا يمكن سقايتها سحبا (أي من ماء النهر مباشرة وبدون واسطة) ولا من ماء المطر (تدعى التي تسقى بمياه الأمطار 'عدي') ولا يزال بعضها يستعمل حتى الآن ومنها:

١- النواعير

استعملت النواعير في نواحي الرقة، إذ رأتها علياً بنت المهدي وهي في طريقها من الرقة إلى بغداد مع خالها يزيد بن منصور، فقالت:

إشرب وغني على صوت النواعير ما كنت أعرفها لولا ابن منصور (١١٧)

وتستعمل الناعورة في جانب النهر أو حوض كبير يشبه البئر يسقى من النهر. وهي دولاب (هيدروليكي) كبير مركب على محور أفقي فوق أعلى مجرى الماء، بحيث أن الماء يضرب الشفرات المركبة حول محيط الدولاب، فيدور الدولاب ويرتفع الماء في سطل (قواديس أو كيزان) مثبتة في محيط الدولاب أو في فراغات على شكل قواديس في إطار الدولاب (١١٨).
قال الموحج الرقي الشاعر (محمد بن الحسن مات سنة ٢٠٧هـ).

والشمس من فرج الأشجار ناشرة على المجالس أشباه الدنانير
فكم هموم آثارها وقد كمنت بين الجوانح أصوات النواعير (١١٩)

كان عدد كيزان الناعور الكامل ثمانون كوزاً وكان كل كوز منها يحمل خمسة عشر رطلاً ماء (٧، ٦٥) لتراً فتكون الف ومائتي رطل (٧٦٥) لتراً، ويسقى في كل ساعة من ساعات الليل والنهار جريباً (١، ٤٧) هكتاراً فيكون أربعة وعشرين جريباً (٢٥) هكتاراً والجريب يحتاج إلى ثلاثمائة ألف رطل ماء (١٣٥٠٠) لتراً. والذي يسقيه الناعور في الشتوي ثلاثمائة وخمسين جريباً إلى أربع مائة جريب (٥١٥ - ٥٨٨) هكتاراً وفي الصيفي ثمانين جريباً ١١٩ هكتاراً (١٢٠).

٢- الدولاب (ويُدعى أيضاً: الساقية، المنجنون، أو المذار):

استخدم الدولاب في الزراعة في توتول (التي سبقَت الرقة في وجودها بالآلاف السنين) وكان يدير الدولاب جريان الماء أو الثور أو الإنسان.

سجل الصنوبري في شعره صوت الدولاب وأن لم يذكر أنه في الرقة. يمكن للدولاب أن ينصب في بئر كبير أو حوض يسقى من ماء النهر، ويمكن أن تنصب على مياه المستقعات (١٢١) وفي أيام نقص الفرات ينقطع جريان نهر عيسى وتسقى البساتين التي عليه بالدواليب من مستقعات تبقى فيه (١٢٢) وكان في موضع الرحبة دواليب على الفرات تسبب انقلاب الحراقات (١٢٣).

يتألف الدولاب من دولاب كبير موضوع في الماء على محور أفقي وعلى الدولاب سلسلة من الاصص والقواديس، وعلى الدولاب العمودي اسنان خشبية تتعاشق مع اسنان دولاب آخر ينصب أفقياً بجواره. يدار الدولاب الأفقي بواسطة حيوان فتنتقل الدورة الأفقية بواسطة اسنان التعاشق إلى دورة عمودية تحرك الدولاب العمودي، وتبدأ الاصص بغرف المياه ثم تفرغها مثلما يجري في الناعور النهري وكل آلة تستطيع أن تروي من ٥ - ١٢ فداناً حسب علو مكان القناة (١٢٤).

والدولاب أبطل من الناعور، وما يديره ثور واحد يسقى في يومه عشرة أجرة (١٤، ٧) هكتاراً، وما يديره رأسان يسقى من الشتوي مائة وخمسين جريباً (٢٢٢ هكتار) ومن الصيفي سبعين جريباً (١٠٣ هكتار) ويزرع ما يسقيه الثور الواحد في الشتوي سبعين جريباً (١٠٣) هكتاراً وفي الصيفي ثلاثين جريباً (٤٤) هكتاراً.

يسقى الدولاب من غلات الصيفي أكثر من الشتوي لأن البقر تدور في الشتوي نهاراً وفي الصيفي تدور ليلاً ونهاراً (١٢٥).

وعمل هشام (ابن عبد الملك) منجنونا وكتب إلى صاحب الرقة يأمره أن يبتاع له ثوراً للمنجنون، فاشتراه بثلاثين درهماً، وبعث إليه مع بعض الشرط، وبين هشام والرقة ثلاثون ميل (١٢٦)، وتدل هذه المسافة على أنه يقصد الرصافة.

كانت دواليب الماء الكبيرة غالية الثمن سريعة العطب لأنها مصنوعة من الخشب الذي يفسد مع مرور الزمن. وعندما تتجمد الأنهار في الشتاء لا تعمل إطلاقاً (اشتور ص ٦٠).

٣- الدالية

ورد استخدامها في المنطقة، إذ ذكر عن نهر صرصر وهو نهر كبير يخرج من الفرات ويصب في دجلة، وكان يسقى منه بالدوالي والشواذيف^(١٣٧) والدالية: مدينة صغيرة على شاطئ الفرات في غربيه بين عانة والرحبة^(١٣٨). ولعلها سميت على اسم الاداة الزراعية لكثرة استخدامها فيها. تتألف الدالية من عمود طويل مستدق الطرف، موضوع بصورة افقية بحيث يرتكز على عارضة خشبية مستعرضة ترتفع عن الأرض بنحو ثمانية أو عشرة أقدام. وعلى نهاية الطرف الأطول المستدق لهذا العمود يتعلّق حبل يحمل قرية، أو دلو، وعلى نهاية الطرق الأقصر والاغلظ مثبت ثقل موازن. يقوم العامل بجذب الحبل إلى الأسفل حتى يهبط الدلو (أو القرية) في الماء ويمتلئ وحينئذ يترك العامل الحبل فتتهبط النهاية الأخرى من العمود التي عليها الثقل الموازن، ويرتفع حينئذ دلو الماء حتى يصل إلى متناول يد العامل فيقوم بإفراغه.

تستطيع هذه الأداة أن تروي حوالي فدانين من الأرض كما يمكن أن توضع أداتان أو أكثر الواحدة فوق الأخرى ليتمكن رفع المياه إلى مستويات أعلى^(١٣٩). تدل وثائق ماري على أن فيضان الفرات والخابور يبدأ في نيسان ومايس فيما يتعلق بالاراضي الواطئة، وأن عملية الري في آب وايلول تتم بطريقة اصطناعية يستعمل فيها الشادوف بالنسبة للاراضي المرتفعة^(١٤٠).

والدالية إذا كانت كاملة تطلب ٤ أو ٥ رجال، فكل دلو منها يحمل من ستمائة رطل إلى أربعمائة رطل (٤٠٤ - ٦٠٦ لترا) والدوالي الكبار فارسية وكوفية. فالفارسية يكون طول زرنوقها اربعة وعشرين ذراعاً (١١.٥ م) والكوفية يكون طول زرنوقها عشرين ذراعاً (٩.٦ متراً)، وإذا وضعت الوصلة عليها صار طولها ثلاثين ذراعاً (١٤.٤ متراً) ويصعد على الفارسية خمس رجال، وعلى الكوفية ست رجال يقفون على رأس الزرنوق إلى أن ينحط ويصعد، وغراف يقيم مع الدلو يحطه ويملؤه ويفرغه، ويسقي كل يوم من ستة اجربة إلى ثمانية اجربة (٩ - ١٢) هكتار. ويزرع على هذه الدوالي إذا كان لها معونة من سقي السيج أيام الزيادة، من الشتوي مائة وثلاثين جريباً (١٣٨ هكتار)، ومن الصيفي ستين جريباً (٨٨ هكتار)، وإن لم يكن لها معونة من السيج كان قدر ما يزرع عليها في الشتوي ثمانين جريباً، وفي الصيفي ثلاث وخمسين جريباً (٧٨ هكتار). وإن كانت هذه الزرائق على آثار الجروود (أي أرض جرداء) زرع عليها في الشتوي ثلاثين جريباً (٤٤ هكتار) إلى ما دون، ومن الصيفي عشرين جريباً (٢٩ هكتار) إلى ما دون. والدالية المجدية يكون طولها سبعة أذرع إلى تسعة أذرع (٣.٣٦ - ٤.٣٢ متر) ويصعد عليها رجل رجل أو رجلان^(١٤١).

٤- الشادوف

وهو آلة بسيطة تتألف من جذع من الخشب يتحرك على محور عمودي. ومن أجد طرف الجذع سطل وفي الطرف الآخر ثقل موازي والسطل في الماء والثقل الموازن يحرك الجذع فينصب محتوئ السطل في حوض أو قناة. يحتاج الشادوف إلى أربعة رجال، ويسقي أربعة أجربة (٥.٨٨ هكتار) ويزرع عليه في الشتوي سبعين جريباً (١٠٣ هكتار) وفي الصيفي ثلاثين جريباً (٤٤ هكتار). وينصب على آثار الجروود البكرة والبكرتين ويرقى فيها بالدلاء والبقر: ويقدر ما يرقى الدلو من الماء مائتا رطل (١٠٢ لتر) زائداً وناقصاً إذا روحت البقر بالنوبة نبذاً^(١٤٢).

٥- الناضح

هو البعير الذي يستقي عليه الماء بحبل، يزرع بالجرف على عشرين ناضحاً^(١٤٣). يسقي نخله بالناضح^(١٤٣).

٦- المستنبتات أو المسانبة

أي السدود واتخذ المغيرة وعمل مستنبتاتها على البطيخة^(١٣٤).
يظهر من النصوص أن نشاطات الخلفاء الأوائل (الأمويون) وحكامهم في حقل الزراعة في الشرق الأدنى أكثر من نشاطات العباسيين (اشتور ٦٠).

١٣) المحاصيل الزراعية

يجب أن نذكر أولاً، حين يذكر أحد المؤلفين أن مدينة معينة في الجزيرة اختصت بإحدى المنتوجات فليس معنى هذا أن ذلك المنتوج لا يوجد في بقية مدن الجزيرة بل معناه أن تلك المدينة اختصت بهذا النوع فكان إنتاجها منه بكميات أكثر أو بمواصفات أجود.

الحبوب:

القمح والشعير والأرز

إن الميزة الرئيسية في زراعة الشرق الأدنى أيام الخلفاء، هي سيادة القمح، فالأوروبيون وحتى الذين ينتمون منهم إلى طبقات المجتمع العليا، أكلوا خبز الدخن خلال القرون الوسطى، ولم يأكلوا خبز القمح حتى نهاية القرون الوسطى، بينما الشرقيون، وعلى الأقل سكان المدن منهم، أكلوا خبز القمح الأبيض منذ أقدم العصور.

أما الخبز المصنوع من الشعير والحبوب الرخيسة فهو طعام الزهاد^(١٣٥).
وكان القمح والشعير (وهذا الأخير علف للماشية على الأغلب) الزراعتان الأساسيتان بالنسبة للحبوب في كل المناطق تقريباً يمارسها الفلاح في السهول التي لا تحتاج إلى مزيد من الماء^(١٣٦).
وكانت الجزيرة في عهد الخلفاء تزود العراق بكميات كبيرة من القمح، وربما شحنت عن طريق دجلة والفرات فهي بلاد زراعة القمح منذ أقدم العصور^(١٣٨). وكمثال على ذلك ما حدث عام ٢٥١هـ إذ وافت بغداد سفن من الرقة فيها دقيق^(١٣٩).

الأرز

انتشرت زراعة الأرز في حوض البحر المتوسط، انطلاقاً من الهند حتى منطقة ما بين النهرين، ومن العراق انتشر في كل المناطق الملازمة لزراعته والتي يتوفر فيها الماء الكافي للسقاية^(١٤٠). وكان خبز الأرز يأكله الناس في الرقة أيام الشدة^(١٤١) وكان يزرع في أنحاء الجزيرة ولا سيما نصيبين^(١٤٢).

بقية الحبوب

يذكر ابن حوقل^(١٤٣) ارتفاع البقول في نصيبين كما يذكر أيضاً ١٩٦هـ ارتفاع القطاني في الموصل. والقطاني كما في اللسان جمع واحد القطنية؛ وهي الحبوب التي تدخر كالحمص والعدس والترمس والدخن.

لقد تقدم أن أهم الزراعات (في توتول من تاريخ قبل الميلاد) كانت الشعير والقمح والأرز والبقول والخضار والكوسا والبازلاء والعدس والفول والبصل والكتان.

التفاح والخوخ

اشتهر التفاح الداماني، نسبة إلى 'دامان' وهي قرية على الفرات على الطريق بين الرقة ودوسر (جعبر) وعلى بعد خمسة فراسخ من الرافقة وخلده صريع الغواني في شعره لأنه يضرب بحمرته المثل^(١٤٤). ولا شك أنه كان يزرع في شتى الأنحاء وليس في دامان فقط. وورد في ديونيسيوس ص ١٨٨ أن عمال الخراج في الجزيرة كانوا يحصون كل ما وجدوا من أكوام التفاح ويسجلوه (وذلك في عهد المنصور في القرن الثاني الهجري).

ويذكر ديونيسيوس أيضا ص ١١٨ : أثمر التفاح والخوخ وغيرهما إثمارا رجعية في شهر تشرين كأثمارها في شهري نيسان وأيار، وغلت الأرض في هذه السنة (١٠٩٦ يونانية أي ٧٥٤-٧٥٥ ميلادية) (١٢٧ هجرية) غلالا وفيرة.

الدراق

فقد أهدي منه إلى هشام بن عبد الملك^(١٤٥).

الموز

سيرد عند الكلام عن خلفاء صلاح الدين الأيوبي أن الملك الأشرف جلب إلى الرقة غراس الموز.

التوت والعناب

كان في جامع الرقة شجرة توت وشجرة عناب^(١٤٦) وهما أيضا كانا على لائحة ارتفاع الرها في كتاب الاعلاق الخطيرة^(١٤٧).

الأس

خلد الصنوبري في شعره أس بطيئاس في الرقة^(١٤٨) والأس ينبت برياً كما يزرع لثماره المأكولة رغم عفوصتها وكثرة بذرها. يعيش في جميع الأتربة. أما ثمره فيدعى حب الأس^(١٤٩).

التين

التين قديم وقد ورد ذكره في القران الكريم. ويقول ابن الفقيه: ولقد خص الله العواصم والجزيرة من لذة التين (١٥٠).

الجوز

يذكر ياقوت وجود قرية قديمة على شاطئ الفرات قرب الرقة تدعى 'عمرة' وهي واحدة العفر وهو الجوز الذي يؤكل، ويقول أن القرية كانت في زمنه خراباً^(١٥١).

الخضار

الباقلاء: كانت منتشرة في انحاء العالم الاسلامي وتشكل عنصراً هاماً في طعام الفقراء والزهاد ويرد ذكرها في الكتب كثيراً^(١٥٢).

وكان يحمل من الجزيرة إلى دمشق: الجزر والهندباء والخندقون والخرنوب والقثاء البري^(١٥٣).

الأشجار المثمرة

الزيتون: اشتهرت الرقة بالزيتون^(١٥٤) وتغنى الصنوبري بزيتون بطيئاس في الصالحية^(١٥٥) وورد في عهد صلح الجزيرة استيفاء مقدار من الزيت^(١٥٦) كما كان الزيتون أحد منتجات الهني والمري^(١٥٧).

العنب

زراعة الكرمة قديمة في حوض المتوسط، انتشرت منذ عصر بعيد انطلاقاً من بلاد الشام، وهو القطر الذي جعلت الديانات فيه من الخمر استعمالاً كهنوتياً. وقد حظر الاسلام الخمر وحرمه، ولكن ظل استهلاك الخمر كثير الانتشار في مجمل العالم الاسلامي وعلى الاخص بالنسبة للجماعات غير المسلمة. كما ان الخمريات في الشعر لم تكن مجهولة في بلاط بعض الخلفاء^(١٥٨) كان الخل يستوفى في جزية الذميين من سكان الرقة في البدء تنقيدا لعهد الصلح وذكرت الكرمة بين أشجار الهني والمري. وذكر ديونيسيوس كثرة الكروم في الجزيرة حتى في الجبال^(١٥٩). وذكر اسم 'المورقي' على أنه من انواع العنب بالبليخ^(١٦٠). وفي صريع الغواني في مدح خمر البليخ بقوله:

لقد كدت من حب خمر البليخ —————
خ ان أجعل الشام أهلاً وداراً^(١٦١)

وفي كتاب 'الدولة الحمدانية' في الموصل وحلب ١٣٨١: من ابرز ما اشتهرت به الجزيرة: صناعة الخمر، حيث كانت متوارثة منذ القدم، لأنها كانت منطقة نصرانية قبل الفتح الإسلامي، وان تقاليد المجتمع المسيحي ظلت قائمة فبقيت تقاليد صناعة الانبذة والخمر سائدة رائجة في عدة مدن منها.

ولا بد أن أهل الرقة كانوا يصنعون على شاطئ الفرات كما كان أهل الموصل يصنعون على شاطئ دجلة، إذ أنه عند انتقاص الماء يبقى على طرف دجلة ضحضاح على أرض ذات حمصياء، يتخذ الناس عليها سراً وقايا من القصب وسط الماء، ويسمونهم 'السواريق' ويبيتون فيها ليأتي الصيف. يكون هواؤها في غاية الطيب، وإذا نقص الماء وظهرت الأرض زرعوها فيها القثاء والخيار، فتكون حول القباب مقناة، ويبقى ذلك إلى أول الشتاء^(١٧٠) لا سيما وأن الصنوبري يذكر في شعره أن الفرات هو ضحضاح الرافقة^(١٧١) وتعرف هذه الأماكن على الفرات في الرقة الآن باسم الحوائج، وهي جزر رملية انحسر عنها ماء الفرات.

الأنخيل

في الهني والمري، وغيرهما من المواضع. (ابن شداد ٧٢/١/٣)

الحمصيات

لم تصل إلى الشام والجزيرة إلا في القرن التاسع الهجري (أي بعد جراب الرقة).

أشجار أخرى

يتحدث المقدسي ص ١٤٥ عن السفرجل فائق الرائق في الرحبة. وابن حوقل عن الجوز واللوز في سنجار وجزيرة ابن عمر (ص ٢٠٢ وفيها أيضا البندق) وعن الرمان والأترج في سنجار (ص ١٩٩).

الموز

ابن شداد ٧٢/١/٣^(١٧٢).

حفظ الفواكه والخضار

واستعملوا طرقاً بسيطة لحفظ الفواكه والخضار: فمثلاً كانوا يحفظون التفاح داخل العسل^(١٧٣) وطلب هشام بن عبد الملك حفظ الكمأة داخل الرمل لئلا تفسد^(١٧٤).

١٤ المحاصيل الصناعية

الكتان

يعتبر الكتان من أقدم النباتات الصناعية لأن زراعته وصناعة أليافه في بلاد ما بين النهرين تعود إلى أبعد من أربعة آلاف سنة^(١٧٥). وتناسب زراعة الكتان التربة المولفة من الطمي والماء الضروري للنفق، وهذا ما يتوفر في شمالي بلاد ما بين النهرين^(١٧٦).

القطن

ورد القطن من الهند ليزرع في بلاد ما بين النهرين ابتداءً من القرن السابع الميلادي، وأصبح يحتل مزارع كبيرة في العصر الإسلامي في منطقة نهر الخابور، وخاصة في إقليم حران بين كوع الفرات ونهر دجلة، ثم انتشر في بلاد الشام^(١٧٧) وذكر المقدسي زراعته في حران^(١٧٨) كما أن الحمدانيين زرعوها في نصيبين^(١٧٩).

وبين سكان الرقة: أيوب بن محمد بن زياد بن نوح، أبو سليمان الرقي الوزان المتوفي عام ٢٤٩هـ، وقد سمي 'الوزان' لأنه كان يزن القطن في الوادي^(١٨٠). وهناك عدة أشخاص من الرقة لقبوا 'بالقطنان' نسبة إلى بيع القطن ومنهم جعفر بن محمد بن الحجاج القطنان الرقي والحسين بن عبد الله بن يزيد القطنان الرقي وعبد الرحمن بن خالد بن يزيد القطنان أبو بكر الرقي^(١٨١).

التوت

يرتكز إنتاج الحرير على زراعة التوت وتربية دود القز. وفي القرن السادس الميلادي وصلت ديدان الحرير خلسة من الصين إلى بلاد الشام^(١٨٢). وقد كانت في جامع الرقة شجرة توت. وورد ارتفاع التوت على لائحة ارتفاع الرها في وقت متأخر^(١٨٣).

قصب السكر

انتشرت زراعة قصب السكر من الهند إلى بلاد ما بين النهرين منذ القرن الأول للإسلام، وعلى طول المنخفضات السفلى لنهري دجلة والفرات والقنوات التي تصل بينهما والروافد السفلى لهما. وفي هذه المنطقة الأخيرة ذكر ابن حوقل أنه لم يكن هناك قرية واحدة لا تزرع قصب السكر^(١٨٥).

نباتات صناعية أخرى

يذكر المقدسي القنب في معلثايا^(١٨٦) ويزرع القنب لاستخراج الياف سوقه التي تستعمل خاصة في صناعة الاكياس والحبال (الموسوعة في علوم الطبيعة 'قنب')^(١٨٧). وذكر ابن حوقل ١٩٩ السمس في تصيبين والسماق في سنجار^(١٨٨).

نباتات الزينة

الورد

يعتبر الورد من أشهر نباتات الزينة وأحبها للإنسان. يستخرج من زهر بعض أنواعه بالتقطير، دهن الورد ماء الورد^(١٨٩). وقد أشاد الصنوبري في شعره بورد بطلياس في الرقة^(١٩٠).

١٥) ازهار الرقة

ذكر الصنوبري في وصف رياض الرقة وبساتينها: الورد، النرجس، البهار، الاقحوان، النمام، السوسن، الشقيق، البنفسج، الياسمين الغض، الخيري، الخرم، الخزامي، القيصوم والحوذان.

١٦) الخشب ومنتجات الغابة

تقع الرقة على الفرات، وكانت تصنع فيها السفن والأطواف منذ الازمان السحيقة. وتتوفر فيها بعض الاجمات والغياض وخاصة في الأراضي المهملية. ومن الاشجار التي تثبت في الغياض مثل الغيضة التي كانت في صفين (زمن معركة صفين) والتي يبلغ طولها فرسخين: الخلاف والغرب^(١٩١) (الفرسخ حسب تقدير موزيل ٤,٧ كم وحسب تقدير الموسوعة قريبا من ٦ كم).

والخلاف واسمه العلمي Hortemias Elaeagnus

وقد يدعى الزقوم أو زيزفون الشرق: اشجار وشجيرات برية وزراعية منبتها الشرق يعلو من مترين إلى ثلاثة أمتار وربما إلى ثمانية أمتار حسب نوعه، ثماره برتقالية اللون مأكونة، وأزهاره تفيد الصدر^(١٩٢).

الغرب أو الحور الفراتي

شجر من الفصيلة الصفصافية، إقليمه شاسع الحدود يمتد من الصين إلى افريقية الشمالية. ويكثر وجوده على ضفاف الفرات، يعلو من ١٥ إلى ٣٥ م، ويزرع لخشبه^(١٩٣) وكان موجودا في الجزيرة حتى قبل ٨٣٠٠ سنة (أي العصر النطوفي)، وذكر في مطلع هذا الكتاب أكثر من مرة.

الطرفاء: واسمه العلمي Tamarat وبالانجليزية Tamariok

يشير الجاحظ إلى غابات شجر الطرفاء Amarit في الجزيرة^(١٩٤). وهي جنس اشجار وشجيرات وجنبات من فصيلة الاثلثيات، انواعها كثيرة معظمها من نباتات حوض البحر المتوسط ومنها ما هو جبلي ينبت في الاصقاع المعتدلة، جميعها برية وقد تزرع للتزيين ولصد الرياح، ساقها قصيرة، اغصانها غليظة متفرعة، يعيش في جميع الاتربة، اخشابها مرغوب فيها تستعمل في صناعة السفن والقصب والادوات الزراعية. وهو يصلح للسياجات الحية قرب الشواطئ لأنه لا يخشى الاملاح البحرية^(١٩٥).

قصب شائع Common reed بالانكليزية، Roseau بالفرنسية

ويدعى قصب المكانس. يكثر في المناقع وعلى ضفاف المياه. ويستعمل في الحواجز وفي صناعتي السلال والمكانس (الموسوعة في علوم الطبيعة).

الفرقد: واسمه العلمي Mitraria

جنس نباتات برية من فصيلة القديسيات أنواعه شجيرات وجنبات شائكة أو سسرجة^(١٩٧) وقيل جنس نباتات مائية^(١٩٨) وقيل هي العوسج إذا عظم^(١٩٩).

وفي شعر^(١٩٩) الاخطل أن الفرات يعبر في طريقه أشجار الخيزران والفرقد الخيزران والنسبة إليه الخيزراني كما في انساب السمعاني.

العناب: واسمه بالانجليزية Jujule واسمه العلمي Zizyphus Ativa

وهي شجرة مثمرة شائكة، ثمارها زيتونية الشكل والقند مأكولة، وهو كثير المنافع ويفيد الصدر^(٢٠٠) موطنها الأصلي الصين حيث نبتت منذ أربع آلاف سنة على الأقل ويصل ارتفاعها إلى نحو ٢٥ - ٣٠ قدما^(٢٠١).

وذكر أن في الرقة شجر العناب وكانت واحدة منها في المسجد الجامع^(٢٠٢).

ويظهر أن خشب العناب من أفضل أنواع الخشب ويذكر ابن الفقيه: أنه لا بناء بالخشب أبهى

من كنيسة منبج لأن طاقاتها من خشب العناب^(٢٠٢).

ووجد في خزان الخليفة المنتصر بالله في عام ٤٦٠ - ٤٦١ صناديق من العناب^(٢٠٣).

القصب: بالانجليزية Common Read، بالفرنسية Roseau

ومن المواد التي كانت تصدرها الرقة: أقلام القصب للكتابة^(٢٠٤) ولا بد أن القصب كان كثيرا

على شاطئ الفرات ومن نوع جيد، ولا بد أنه كان يستخدم أيضا لصناعة السرر والقباب (كالتى

تقدمت في المقدمة) والسلال والحصر وغير ذلك. والقصب يخرج في الفيض^(٢٠٥).

١٧) تربية الماشية

يقصد بها هنا ليست تربية الماشية للحاجات المنزلية، بل التربية البدوية للماشية لتحقيق غايات أهم، مثل:

- تقديم الغذاء من لحم وشحم وزبدة وألبان.

- تقديم المواد الأولية الصناعية كالصوف والجلد.

- تقديم قوة محركة: ١- للحمل والجر وخاصة في القوافل.

٢- تحريك آلات الري كالناعورة وغيرها^(٢٠٦).

وذكر ابن حوقل عن قبائل الجزيرة من ربيعه ومضر أنهم اصحاب خيل وغنم وابل^(٢٠٨) وأشار

ديونيسيوس في القرن الثامن الميلادي إلى أنه لم يكن في أية قرية من قرى الجزيرة من لا يملك

حميرا وماعزا، وأن الأرض كانت تقص بالرعاة^(٢٠٩).

ووردت الإشارة إلى وجود البقر في نصيبين^(٢١٠) والبقر تحتاج إلى مناخ أكثر رطوبة وغطاء

نباتي أكثر كثافة^(٢١١).

وجعل المقدسي من خصائص إقليم أقور^(٢١٢) (الذي يشمل ديار ربيعه وديار مضر وديار بكر).

^(٢١٣) وإقليم أقور معدن الخيل العتاق^(٢١٤) وكانت مناطق الرعي متوفرة في المروج المحيطة بالرقة.

١٨) طيور الرقة

ذكر الصنوبري عددا من الطيور المحلقة في سماء الرقة ومنها: الغرائق والسواذق والقواري

والحباريات^(٢١٥) والهزار المغني والديباس المغرد، والقماري المرجع^(٢١٦) والخطاف^(٢١٧) والورشان

المغرد^(٢١٨) ومعظم هذه الطيور مفردة.

وذكر ربيعة الرقي في شعره عن الرقة من الطيور: الصلصل والهدهد والمكاء المغرد وهي طيور

مفردة أيضا.

غرناق Grane

جنس طير من الكراكي، اثنائها جميلة الالوان الزاهية المتباينة، اعناقها وسيقانها طويلة، تتألف ضفاف الأنهار والبحيرات طوله حوالي ١٠٠ سم^(٢١٩).

سوق (صقر البط) Faucon de Canards Alele

من الصقور القواطع التي تجوب البلاد المعتدلة الحرارة حجمه بحجم الشاهين ورد في كشاجم بلفظ سوزائق وسوزنيق^(٢٢٠).

القواري Roller

هو الشقران، طائر اخضر الظهر، أسود المنقار الطويل، قصير الرجلين، أضخم من الخطاف^(٢٢١) تحبه الأعراب وتقيم به، اذا رؤوه استبشروا بالمطر وكأنه رسول الغيث أو مقدمة السحاب^(٢٢٢) والشقران الشائع، موطنه الشرق الأوسط وأوربه الشرقية، يجوب مناطق حوض البحر المتوسط مرة في العام. طوله نحو ٣٣ سم^(٢٢٣). كانت العرب تأكل القارية لأنها من الحمام^(٢٢٤) مما يدل على أنها غير الشقران التي يقول عنها الديميري أنه لا يجوز أكلها.

الحباري Bustard

طائر بحجم الديك، كثير الريش والجمع حباريات^(٢٢٥) معروف بهذا الاسم في جميع البلاد العربية^(٢٢٦) وصيد الحباري كان مألوفا عند العرب، لكنه ضئيل الجسم، قليل اللحم، وربما جرى ذكره في مجال الاستصغار والبقاعة ومن الوسائل التي شاعت في صيده: الحبال، والجوارح^(٢٢٧) يحل أكلها لأنها من الطيبات^(٢٢٨).

الهزار المفرد أو العندليب Nightingale

طائر من الهزار، يتميز بحسن غناؤه ورقة صوته وانسجام انغامه طوله نحو ١٥ سم هو من القواطع، يجوب البلاد في طلب الرزق والمصيف والمشتى، يتألف الحقائق والغابات والادغال^(٢٢٩) يحل أكله^(٢٣٠).

الدبسي gouras

الدبسي هو من فصيلة الحمامات، أنواعه قليلة، كبيرة الحجم اشهر انواعه الدبسي المتوج، طوله نحو ٧٥ سم، يجوب البلاد^(٢٣١). والانشى دبسية وهي تقرقر^(٢٣٢)، يحل أكله بالاتفاق^(٢٣٣).

القماري

القماري من فصيلة الحمامات، وهو طائر طوله نحو ٤٠ سم ظهره إلى الزرق الرصاصية يجوب البلاد سعيا إلى الرزق... أسرابه كثيفة يراوح عدد أفرادها من ٥٠ إلى ١٠,٠٠٠ طير وأكثر^(٢٣٤) يحل أكله بالإجماع^(٢٣٥).

الخطاف أو السنونو أو عصفور الجنة: (٢٣٦)

أنواعه كثيرة، تتميز بمنقارها الصغير القصير المستقيم، اجنحتها مستقيمة زلقة^(٢٣٧).

الورشان

نوع من الحمام البري، كبير الجثة، طوله نحو ٤٥ سم، يجوب البلاد، يألف الأحراج والغابات، يعيش أسرابا كثيرة العدد^(٢٣٨) يحل أكله لأنه من الطيبات^(٢٣٩).

الفاخته أو الصلصل

طائر من الفواخت، جميل الشكل، حسن الهندام، يسمى بالشام يا كريم، موطنه الهند والعراق وسوريا والناضول، طوله نحو ٣٣ سم ثوبه متراكب الالوان، وهو مطوق العنق^(٢٤٠) يحل أكله بالإجماع^(٢٤١) ورد ذكره في شعر ربيعة الرقي^(٢٤٢).

هدهد شائع

ميدول في لبنان وسائر الشرق الأوسط طوله بين ٢٧ و ٢٨ سم منقاره دقيق مستطيل، قنبرته كبيرة القد سوداء الاطراف^(٢٤٣) يحل أكله ولا يصح تحريم أكله^(٢٤٤) ورد في شعر ربعة الرقي^(٢٤٥).

مكاء

من فصيلة انقريبات، بعضها صحراوي وبعضها من طيور الشرق الأدنى وأوربة لها جميعها تصعيد في الجو وهبوط وهي في ذلك تمكو وتصفّر. اجسامها صغيرة القد تطول من ٢٣ إلى ٢٤ سم^(٢٤٦) ورد في شعر ربعة الرقي^(٢٤٧).

١٩) وحوش الرقة

الاسد

كان موجودا في قرقيسيا^(٢٤٨) في موقع نهر سعيد بن عبد الملك^(٢٤٩) وكان موجودا في قلعة في سقى الفرات يأوي إلى غابات شجر الطرفاء التي كانت كثيرة حول الرقة ثم انقرضت حوالي سنة ١٣٩٥م^(٢٥٠) وكانت ناحية الرقة أرضا ممتازة للصيد، وكان يوجد فيها الاسود. وقد شهرتها النقوش الاشورية^(٢٥١).

وذكرت السيدة بلنت وجود الاسود^(٢٥٢) أثناء تتبعها النهر سنة ١٨٧٨م قرب الرقة على الفرات في سوريا، كما أن أحد البدو افترسه أسد سنة ١٨٧٥. وأكدت أيضا وجود الاسود في بعض الادخال الكثيفة والشجيرات والتعليق حيث يوجد الخنزير البري طعام الاسد المفضل. طول الاسد ١٦٠-١٩٠ سم وهو حيوان شرس، قوي العضلات له زئير مخيف حتى للحيوانات. والاسود حيوانات اجتماعية لا تخرج للصيد الا مجتمعة. وهي سريعة العدو تعيش ما يقارب الثلاثين سنة اذا لم تتعرض للمرض أو القتل^(٢٥٣).

الفهد

كان العرب يستعينون بالفهد بعد أن يصطادوه يدربوه^(٢٥٤) إلى جانب الصقور والبوازي واكلاب في الصيد^(٢٥٥) وكان هو والنمر موفورين في ناحية الرقة^(٢٥٥) وكانت الفهودة الصيادة موجودة في مناطق الحدود السورية العراقية، طوله ١٣٠ سم وارتفاع كتفه عن الأرض ٧٣ سم وهو رفيع ورشيق، وأسرع الحيوانات البرية إذ يعدو ١٢٠ كم في الساعة، وهو النمر النهاري الوحيد بين النمر التي هي ليلية^(٢٥٦).

النمر

كان موجودا في الرقة^(٢٥٧) يبلغ طوله المتر وارتفاع كتفه حوالي ستين سنتمرا، الفرو ناعم وكثيف وغير طويل وهو ثمين. والنمر حيوان شرس الطبع صعب الرأس، يعيش في مغاور طبيعية بعيدا عن متناول الانسان والحيوانات الاخرى. ويستطيع تسلق الاشجار بسهولة. وهو ليلي الافتراس سريع العدو. قوي البصر ليلا والسمع والشم واللمس. يتغذى على الحيوانات اللبونة والطيور والسحالي والعظايا ويحب الخنزير البري^(٢٥٨).

الذئب

كان يشاهد في الرقة حتى وقف قريب. وكان يسير في قطعان. ويقال أنه أكل ولد رئيس القراء بالركة^(٢٥٩) وأشار الصنوبري إلى وجوده في الرقة وعند الرصافة^(٢٦٠) والشابشتي بوجوده عند دير زكي^(٢٦١) وابن قيس الرقيات على البليخ إذ قال:

ذاك خير من البليخ ومن صوت نئاب يدعون نيبا (ياقوت: البليخ)

يبلغ طول الذئب المتر أو أكثر بقليل، فراؤه خشن وطويل يتمتع بقوة الشم والبصر ويعيش في كل مكان تقريبا ويخرج للصيد ليلا في جماعات قد تبلغ الثلاثين والأربعين ولا يتردد في افتراس الضعيف والمريض والجريح من بني جنسه لان رائحة الدم تجذبه إلى الفريسة وقد يخرج نهارا

ويهاجم الانسان المريض والجريح وهو مأكرو ومخادع وخبيث وذكي جدا^(٢٣٢) وفي القشيري أسطورة في الرقة عن أن أما كانت تهدد طفلها ليلا أنه إذا لم يكف عن البكاء فأنها ستلقيه إلى الذئب وكان الذئب قد صدقها وانتظر أن تلقيه حتى الصباح ولما نئس غادر المكان خاسرا.

الضبع Hiena

كان الضبع موجودا في وادي الفرات^(٢٣٣) يصل طوله إلى ١١٠ سم وارتفاع الكتف ٧٠ إلى ٧٥ سم ويقوم بحفر اوكار عميقة بمخالبه الأمامية القوية ويتكيف لكل البيئات لا يتعب في البحث عن غذائه لأنه قد يأكل الجيف وبقايا الأغذية التي تتركها الحيوانات المفترسة الأخرى وقد يهاجم الانسان إن كان مريضا أو جريحا^(٢٣٤).

الخنزير البري Wild Pig

كان كثيرا في وادي الفرات وكان أكثر ما يعيش في الحوائج، ويعبث بالحقول المزروعة ويخربها^(٢٣٥) طوله حوالي ١,٧ م وارتفاع أكتافه حوالي ٩٠ سم للذكر البالغ: يسير بشكل مستقيم جدا، والرأس متدلي غالبا، له صوت مزعج وأطن، وزن البالغ الذكر حوال ٢٠٠ كغ. غذاءه نباتي وحيواني^(٢٣٦).

الغزال

كان موجودا في الرقة وخاصة قرب دير زكي^(٢٣٧) وظل يعيش في محيط الرقة حتى عهد قريب كان الناس يصطادون الغزلان وهم على ظهور الخيل وبواسطة الكلاب السلوقية (نسبة إلى مدينة سلوق باليمن) بعد هطول الأمطار، إذ أن الأرض المبللة تجعل حوافرها تنغرز في الطين فتتاح الفرصة للكلاب أن تصيدها أما عندما تكون الأرض يابسة فإن الغزلان تسبق الكلاب السلوقية دائما ولا يستطيع الصياد الراجل المجازفة بإطلاق كلابه السلوقية خلف الغزلان، لأنه لا يضمن عودة الكلاب إليه، ولا يقدر أن يجاريها في ركضها. وقضى على الغزلان في عصرنا مطاردتها بالسيارات وقتلها بالأسلحة النارية المتعددة.

حمار الوحش: (الأخدر)

ذكر الصنوبري وجوده في الرقة^(٢٣٨) وظل موجودا في وادي الفرات، وكان في سنين الجذب ينحدر إلى سقي الفرات وانقرض في عهد قريب^(٢٣٩) صرحت السيدة بلنت التي كانت تتبع جريان الفرات سنة ١٨٧٨م أنها شاهدت أخدرا (حمار الوحش) يبلغ من العمر سنة واحدة برفقة قطيع من الخيول. وشاهد ذلك أيضا موزل سنة ١٩٥١م. وكان الصيادون يختبئون في الصخور القريبة ويصطادونها حين تقترب منهم. والأخدر حيوان مرهف السمع وحاد النظر وقوي الشم وهو حذر وصعب الرأس مما يجعله عسيرا على من يريد الإمساك به أو صيده. وهو لا يشرب الماء إلا مرة واحدة كل يومين، ويبدو أنه انقرض انقراضا تاما من الجزيرة العربية وسوريا والعراق^(٢٤٠).

اليحمور: Chevr ewil

نوع من بقر الوحش. له قرنان طويلان كأنهما منشاران ينشر بهما الشجر، فإذا عطش ورد الفرات^(٢٤١) طوله ٣,١ م وارتفاع الكتف ٧٥ سم والوزن حوالي ١٨٠ كغ يتمتع بحواس قوية في الشم والسمع والبصر والذوق يعيش في مناطق الغابات والمراعي والاحراش والأدغال وأطراف الوديان كثيفة الأشجار... وهو حيوان ليلي، لكنه يرعى صباحا وبعد المغيب أيضا وفي النهار يختفي بين الأشجار والشجيرات الكثيفة. وهو حيوان نباتي^(٢٤٢).

بقر الوحش

كان بقر الوحش منتشرا في الجزيرة حتى العشرينات من القرن التاسع عشر وكذلك في سورية وجزيرة العرب وسيناء وفلسطين والعراق. ولكن الصيد المستمر واستعمال الأسلحة

الحديثة أدى إلى انقراضه. يصل إلى حجم المعجل الكبير، ارتفاع كتفيه ٨٧ سم ووزنه حوالي ٢٥٠ باوند. يعيش في المناطق السهلية وعلى شكل جماعات صغيرة^(٢٧٣).

القط الوحشي

أشار اينسورث إلى أن القط الوحشي كان موجودا بكثرة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وكان يعيش في أحراش ضفاف نهري دجلة والفرات في المنطقة الوسطى والجنوبية. يبلغ طوله حوالي ٦٨ سم وذيله ٢٥ سم وارتفاع الكتف ٢٨ سم. غذاؤه الحيوانات اللبونة الصغيرة كالأقراض والسحالي والعظايا والطيور وبعض النباتات. يعيش في مناطق القصب والبردي و الأحرش النهرية، ويتردد أحيانا على الحقول الزراعية والبساتين لافتراس الحيوانات التي تعيش فيها، ولكن ليلا. وله حاستا بصر وشم قويتان جدا^(٢٧٤).

الارتب البري

كان موفورا عند دير زكي^(٢٧٥) طوله ٤٣ سم وذيله ٦ سم ووزنه ٢ - ٣ كغ. يتخذ من الجحور والأنفاق الطبيعية مساكن له وهو حيوان ليلي وقد يخرج نهارا وهو حيوان اجتماعي يعيش على شكل جماعات صغيرة وهو نباتي^(٢٧٦).

القندس

ذكر اينسورث أنه عثر عليه سنة ١٨٢٨م في منطقة بين الفرات والخابور طوله متر واحد وارتفاعه عن الأرض قدم واحدة أيضا، يصل وزنه إلى ٣٥ كغ وقواطعه قوية بحيث يمكن أن يقطع بها جذوع الأشجار (إلى قطر ٤٠ سم) حتى يبني منها مغاور مجاورة للمياه التي يقضي معظم حياته فيها والقندس سباح ماهر جيد جدا. وهو يقوم عادة ببناء سدود تصل إلى أكثر من ١٠٠ متر طولاً ويعرض (٢ - ٦ م) وذلك بتكديس جذوع الأشجار الصغيرة والكبيرة التي يقرضها مما يتيح له أن يحجز الماء ويحصره، والقندس حيوان نباتي ويستفيد منه من فرائه الثمين^(٢٧٧).

كلب الماء Fiah

وقد كان كثيرا في شواطئ الفرات^(٢٧٨) يبلغ طول الحيوان البالغ منه حوالي ٩٠ سم وذيله ٤٢ سم. يعيش قرب حافات الأنهار والروافد والبحيرات حيث يقوم بعمل أنفاق ولها فتحات بمستوى الماء. ويبني جحره الواسع في منطقة مرتفعة آمنة عن الماء تترك له ولجرائه حرية التنقل الحر والهرب وقت الشدة أو الفيضان العاتي. وعادة يتخذ سد الماء مكانا دائما له، ويخرج أنفه بين الحين والآخر ليتنفس الهواء. وكثيرا ما يخرج ليلا إلى الحقول والبساتين القريبة من الشواطئ والأنهار التي يسكنها لالتهام الضفادع وبعض الحشرات والطيور ويبوضها والجردان والسرطانات وبعض الخضراوات والفاكهة والأسماك^(٢٧٩).

الظليم (ذكر النعام) واللياح (الثور الأبيض)

أشار الصنوبري إلى وجودهما عند الرصافة وأن صيدهما مباح^(٢٨٠).

٣ - الصناعة

١) الصناعات الحرفية

إذا كانت القرى مجتمعا للريف والزراعة، فإن المدن في هياكلها المجردة إنما هي مجتمعات للحرف والصناعات والتجارة، وسيطرة المدن الإسلامية جعلت الريف يقدم المواد الأولية للحرف والصناعات من قطن وكتان وصوف وحرير وقصب سكر وسمس وزيتون وشمع وجوب وأعشاب وما يجرى مجرى ذلك.

وقد توافر ذلك في المدن الإسلامية منذ وقت مبكر، وكثير منه سابق للإسلام. فقد وجد المسلمون في المدن المفتوحة، دور السكة والنسيج المختلف والمصابغ والصاغة ودور إنتاج البردي والخزف والمطاحن والمخابز... وتركوها بأيدي أصحابها للاستفادة منها. ثم اجتذبت المدن مع

ترى معها اعدادا كبيرة من السكان ما ليث قسم حسن منهم ان تعلم الحرف المختلفة والفنية، وفتحت للنابهن منهم فرص العمل، وحذق الصناعات.

وكان معظم أهل الصناعات والحرف من طبقة العامة كما كانوا في مطلع العهد الاسلامي من الموالي بصورة خاصة، ونعني من الصناعات الروم والفرس، ثم دخل في ذلك العرب وغيرهم. وكانوا في معظمهم من أهل الذمة في البدء، ثم ما لبثوا ان صاروا إلى الاسلام في جملتهم، وإن ظل الذميون على الاختصاص في مختلف المدن الإسلامية بصناعات معينة: كالطب في النصارى واليهود، والصباغة لليهود، والصاغة لدى الطرفين. كما كان بين الصناعات والحرفيين عدد من العبيد. وذلك طبيعي. وقد أطلقهم آسيادهم للعمل في مختلف المهن وأخذ أجورهم، وبعضهم كان يقتصد ما يعتق به رقبته، وبعضهم كان يقن أكثر من مهنة، ومن حرفهم الحجامة والخياطة والطبخ والجزارة والحدادة.

وتجمع أهل الحرف في الاسواق جماعات متجانسة بعضها مع بعض فكل حرفة في معظم المدن الإسلامية سوق ويسمى هذا السوق باسم المهنة فيه، فهذا للغزل، وذاك للحياكة وآخر للعطارين... وكانت في ظاهر المدن غالبا صناعات الصابون والصباغ ومعاصر الزيت ومطاحن الحبوب، وصناعات الفخار. أما سوق الغزل فكان خاصا بالنساء.

وكانت مواضع الاسواق بصورة اساسية حول المسجد الجامع القائم غالبا في وسط المدينة. وقد ورثت المدينة الإسلامية 'القيصرية' (وهي بناء تتجمع فيه بعض المهن أو بعض التجارات). عن الروم وانتشر هذا الاسم (نسبة إلى قيصر) في مختلف المدن حتى الإسلامية منها، ففي القيصرية حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن لإقامة الصناعات والتجار بأجر، وكانت القيصریات منذ القرن الرابع أشبه بالاسواق في أسفلها والفنادق في أعلاها، وشكلت معلما من معالم المدن الإسلامية، كما وجدت في المدن الإسلامية أسواق صغيرة تدعى، سويقات بسبب صغرها، وكانت غالبا تقوم على أبواب المدينة... وقد وجدت في المدن إلى هذا الخانات: وهي للإقامة وأيداع البضائع، وكانت بعض الاسواق مغطاة بسقائف.

ومع تجمع كل حرفة في سوقها ظهرت التعابير الدالة على الرابطة بين أصحاب المهنة الواحدة وصار يشار إليهم بـ 'الاصناف' وأصحاب المهن' وأصحاب الصنائع' مقابل 'أصحاب الدواوين' (الكتبة) وأهل الطيلسان' (القضاة). لكن التعابير الدالة على المهنة كانت تشعر بوجود تنظيمات تضم أصحابها.

كانت الغالبية العظمى من الصناعات والحرفيين في منطقة ما بين النهرين في العهد البيزنطي منظمة في جمعيات حرفية تشرف عليها الحكومة وتعمل بعلم حاكم المدينة الذي يحتفظ بقوائم بأسماء الحرفيين من أجل تلبية حاجات الخزانة بالضرائب، وقد ظل هذا التنظيم إلى مدة ساري المفعول في العهد الإسلامي فترة من الزمن، كما ظل التوزيع الطبوغرافي للحرف حسب الأحياء والشوارع. وكانت المهن الغنية التي يتعاطاها أصحاب الأعمال: مثلا البزازون والصارفة والصاغة ومن إليهم غالبا ما تكون في وسط المدينة قرب الجامع الكبير. أما الحرف الغذائية فقد تغلغل داخل الأحياء، بينما استقرت على أبواب المدينة أو في ضواحيها أعمال التبادل مع المناطق الخارجية كالأرياف والأقطار البعيدة (كاهن ٢٠ وما بعد) وكانت الدولة بما لديها من وسائل البريد تراقب الأسعار كما ورد في أخبار المنصور.

ولما كان أهل الحرف يدخلون في طبقة العامة وهم في مرتبة اجتماعية أدنى من الخاصة، فقد حاولوا بتماسكهم أن يكونوا ما يشبه أن يكون ارسطراطية العامة.

والسلطة هي التي كانت تبني الدكاكين والاسواق وتؤجرها. كما سيجيء في مدينة الرقة. وقد تسمح الحكومة ببناء الحوانيت على أراضيها مقابل اجر، وكان هذا يعرف بالمستغلات، ويفرض أيضا على الدور والاسواق والطواحين التي بناها الناس على أرض حكومية.

وقد نتساءل عن دخل الفرد العادي من العامة وعن مستوى معيشته ودرجة بؤسه. والواقع أن حالة البؤس كانت أقسى ما تكون في المدن الكبرى، وتخفض حدتها كثيرا مع صغر المدينة حتى إذا وصلنا إلى القرى لم نجد ذلك التفاوت المالي الهائل في الثروات فلا عيارة ولا محاولات للشطارة في تلك المجتمعات الصغيرة لكنه وضع الاكتفاء والكفاف والكفاية^(٢٨١).

٢) المهن ومركزها الاجتماعي

اعتبر أبو يوسف من حيث المبدأ، وذلك بالنسبة لأهل الذمة، أن الصيرفي والبزاز (بائع الثياب) وصاحب الضيعة والتاجر والطبيب من أصحاب الدخل الكبير، وعليهم أن يدفعوا (٤٨) درهما كجزية (أي الحد الأعلى) واعتبر العامل بيده مثل الخياط والصباغ والأسكاف والجزار، ومن أشبههم أقل يسارا ويؤخذ منهم أربعة وعشرون درهما في السنة كجزية^(٢٨٢). ومن الناحية الدينية فإن جميع المهن على درجة واحدة من الاحترام، ومع ذلك فقد رويت بعض الاحاديث التي تخالف ذلك مثل: اكذب الناس الصباغون والصواغون^(٢٨٣).

أما من حيث العرف فالأمر مختلف، فهناك مهن اعتبرت خسيصة وعلى رأسها الحياكة والحجامة حسب قول أبي العتاهية:

وليس على عبد تقى نقيصة إن صحح التقوى وإن حاك أو حجم^(٢٨٤)

وقد تعاظم أبو العتاهية بيع الجرار والحجامة، وهما مهنتان ذليلتان^(٢٨٥). وفي أحد الأيام أعتق المأمون كل من مر به من غلمان ما عدا واحدا لأنه حجام، ولأن العباس قال: طينة المعتق من طينة المعتق فكره أن يكون من طينة الحجام^(٢٨٦). وهذا ما فعل الخليفة الذي يحتل المركز الاجتماعي الأعلى فكيف بالشخص العادي.

وكانت بعض المهن لا يتعاطاها العرب في صدر الاسلام فقط، وفي الحديث 'قد أعطيت خالتي غلاما، وأنا أرجو أن يبارك الله لها فيه، وقد نهيتها أن تجعله حجاما أو قصابا، أو صائغا'^(٢٨٨). ثم تغيرت عاداتهم بعد ذلك.

وكان هناك مهن اقتصر العمل فيها على الموالى في البدو مثل: الخياطة والدباغة والسكافة (البسوي ٦٩٢) والحجامة والسياسة (أي: رياضة وتدريب الدواب) (مختار الأغاني ١٩٣١) والقصابية (أي: الجزارة) والقصارة (أي: تبيض الثياب) (الطبري ٣٨٦٣).

وكان السندي بن شاهك (على الشرطة) لا يستحلف المكاري، ولا الحائك، ولا الملاح، ويجعل القول قول المدعي على يمينه، ويقول: اللهم إني استخيرك في الجمال ومعلم الصبيان^(٢٨٩).

وكان رجال الدين يفضلون تجارة البز (الثياب) على جميع المهن فكان أبو حنيفة خزايا أي يبيع الخز (الخبز من الثياب ما ينسج من صوف وأبريسم) وكذا كان ابن سيرين^(٢٩٠) وميمون بن مهران^(٢٩١) وكان بزازا (يبيع البز وهو نوع من الثياب)^(٢٩١) كما كان عاملا لعمر بن عبد العزيز على الخراج في الرقة. وحين تشاجر المتنبى (قتل سنة ٣٥٤هـ) مع ابن خالويه قال له المتنبى: اسكت! ويحك فأنك عجمي، وأصلك خوزي وصنعتك الحياكة^(٢٩٣).

وكان سعيد بن المسيب يقول: ما من تجارة أحب إلي من البز ما لم تقع فيه الأيمان^(٢٩٤).

وفي قول لابن عباس: عمل الأبرار من الرجال: الخياطة، وعمل الأبرار من النساء المغزل^(٢٩٥). ومن أصحاب المهن: من يلبس التبان (السؤال القصير) ويضرب اللين ويبيعه^(٢٩٦) ومن يبيع الشوك على الحمير^(٢٩٧) ومن يحطب ويبيع ما قطعه^(٢٩٨) ومن ينخس الدواب^(٢٩٩) ومن يكرى الثياب^(٣٠٠) ومن يغسل الموتى^(٣٠١).

وأمر القيان وما يتعاطونه من رقص وغناء معروف ومشهور ولكن غير المشهور هو أنه كان إلى جانب ذلك رقاصون ذكور احترفوا الرقص في الأعراس^(٣٠٣). وكان حارس درب عون (هو درب كالمحلة في الكرخ خارج بغداد الجانب الغربي)^(٣٠٤) يلبس ثيابا نظيفة سرية، ويركب حمارا يطوف عليه بالسوق بالليل ويكرهه بالنهار^(٣٠٥).

٣) الانتاج الصناعي والحرفي

من الحرف التي شاعت في مدينة توتول التي سبقت وجود الرقة في أقدم الأزمان حرفة النجارة والدباغة وغسيل الصوف وتربية الماشية والخياطة وكتابة العقود والفلاحة والرعي وسياسة الخيل والخدمة في البيوت والسقاية والطحن. وعملت النسوة في جر السفن وجلب المياه وغزل الصوف والشعر والكتان.

كان من بين مظاهر الازدهار الاقتصادي للدولة، ذلك الارتقاء الصناعي الملحوظ الذي شهدته هذه الفترة (العهد العباسي الاول) حيث تعددت الصناعات وتوسعت، على أنها على أية حال لم تبلغ مبلغا كبيرا من الرقي يمكنها من خلق تفاوت طبقي بين فئات المجتمع، وتراوحت مظاهر الانتاج الصناعي بين أعمال فردية، وأعمال صناعية يشترك فيها عدد من الأفراد في حانوت أو مصنع صغير، وكانت ثمة مصانع كبيرة نسبيا للنسيج والزجاج، ومصانع حكومية أيضا أوسع نسبيا مثل دور الطراز ودور السكة. وكانت الدولة تمتلك مصانع الاسلحة وقطع الأسطول والبردي في حالة وجوده. ونجم عن اتساع انتشار زراعة المواد الأولية الخاصة بالنسيج ومواد الصباغة، إن حصل تقدم كبير في الطرق التقنية لصناعة النسيج وتوليد المنسوجات.

وكان لتوفر المواد الأولية اسهام كثير في هذا النمو الصناعي، الواسع نسبيا، كما كان لاتساع السوق الاستهلاكية دور مهم لزيادة الانتاج، إذ شكلت الدولة الإسلامية سوقا واحدا، ولا توجد فيها عقبات تحول دون انتقال السلعة من مكان إلى آخر، وتمززت سعة السوق هذه بالعلاقات التجارية الواسعة مع شرق آسيا وافريقيا وشمال أوروبا.

لم تكن الصناعة والتجارة منفصلتين بشكل قاطع عن بعضهما، فقد كان الناس الذين ينتجون سلعة من السلع يقومون في الغالب بالتجار فيها، كما يتجرون في السلع المماثلة، في حين أن بعض أصحاب الصنائع وصلوا في بعض الاحيان إلى اليسر الاقتصادي وإلى المكانة الاجتماعية المرموقة التي ألهتهم إلى الانتماء إلى الطبقة المتوسطة^(٣٠٦).

الغزل والحياكة والطراز

أقبلت المرأة الحرة على الغزل ولم يكن ذلك عن حاجة مادية دائما بل كان ذلك صونا للمرأة عن التبذل. وذكرنا أن الرجال من أهل الرصافة كانوا يغزلون والنساء ينسجن^(٣٠٧).

وكان جنادة بن أبي خالد أبو الخطاب دمشقيا سكن الرها وكان على الطراز في أيام هشام بن عبد الملك وكان اسمه على الرقم (فرموش)^(٣٠٨). وفي الحديث الشريف: كان يزيد في الرقم: أي ما يكتب على الثياب من أثمانها لتقع المرابحة عليه أو يفتر به المشتري (اللسان) (أي يدفع فيه أكثر من سعره الحقيقي)^(٣٠٩). وكانت اشجار التوت منتشرة في الجزيرة وخاصة الرها لتربية دود القز التي يتوقف عليها صناعة الحرير.

المنسوجات:

الحضارة العربية هي حضارة النسيج، والنسيج ضروري من أجل الإكساء ومن أجل الأثاث، هذا عدا عن الخيام والرايات. وكانت مصانع النسيج منتشرة في كل أرجاء العالم الإسلامي، وكان يعهد إلى المصانع أو دور الطراز بإنتاج أقمشة ثمينة لسد حاجات البلاط، ولذلك فإن هذه الدور

خاصة بالدولة. وفي زمن هارون الرشيد كانت امكانيات الحياكة تسمح بحياكة كل صور الحيوانات والنباتات. (هارون الرشيد - كلو ص ٢٠٨).

تتألف المواد النسيجية من الصوف ثم الكتان ثم الحرير. وتناسب زراعة الكتان التربة المؤنفة من الطمي والماء الضروري للنقع. وهذا ما يتوفر في شمالي بلاد ما بين النهرين. أما القطن بصفته مادة نسيجية جديدة، فقد ورد من الهند ليزرع في بلاد ما بين النهرين ابتداء من القرن السابع الميلادي، وأصبح يحتل مزارع كبيرة في العصر الإسلامي في منطقة نهر الخابور وخاصة إقليم حران (المقدس) بين كوع الفرات ونهر دجلة، ثم انتشر في بلاد الشام التي أصبحت في العصر الوسيط منتجة كبيرة للقطن.

أما الحرير فيتركز انتاجه على زراعة التوت وتربية القز. وقد كانت هذه التربية معروفة بداية في الصين وآسيا الوسطى وأرمينية. وفي القرن السادس الميلادي وصلت ديدان الحرير خلسة إلى بلاد الشام، ثم نقلتها الفتوحات الإسلامية إلى كل أقاليم البحر الأبيض المتوسط. ولم يكن العالم الإسلامي يقوم بتصنيع كل الحرير الذي ينتجه في مصانعه إذ كانت بيزنطة تستورد كميات كبيرة منه.

وكانت أكثر المواد الصباغية المستعملة هي: النيلة والقرمز والزعفران. وقد وصلت زراعة النيلة اللازمة للحصول على اللون الأزرق، من الهند إلى بلاد ما بين النهرين أي المناطق الحارة المنخفضة والمروية. أما القرمز (أو حب اللون الوردي) فهو حشرة طفيلية تعيش على أشجار السنديان، وكان يستخدم للحصول على اللون الأحمر أو القرمزي. وكان الزعفران يؤلف المادة الصباغية الصفراء، وكان مرغوبا للغاية والأكثر رواجاً بين الأصبغة الشرقية لأن له لون الشمس. وكان يستعمل لصباغة الألبسة وكذلك في تلوين ورق الكاغد والوثائق الرسمية، وتوسعت زراعته في العالم الإسلامي توسعاً كبيراً لا سيما أنه يستخدم كنوع من التوابل (لومبارد ص ٢٣٧ بتصرف).

الصابون

اشتهرت الرقة بعمل الصابون^(٣١٨) حتى إذا ذكر الاطباء الصابون قصدوا بذلك الصابون الجامد المعروف بالصابون الرقي^(٣١٩) ولم يعد الصابون يقتصر على صنعه بالرقة فقط بل وفي نابلس مثلاً^(٣٢٠) وذلك لتوفر المواد الأولية التي كانت تدخل في صناعته وأهمها: القلي (الاشنان) الذي هو من النباتات القلوية المعروفة ويكثر في براري ومفاوز الجزيرة الفراتية.^(٣٢١)

وممن نسب إلى صناعة الصابون من أهل الرقة أبو بكر محمد بن جعفر بن أحمد القاضي الرافقي، ومعروف بابن الصابوني من أهل الرافقة قدم بغداد وحدث بها. عاش حتى مطلع القرن الثالث.^(٣٢٤)

الورق

ينسب إلى الرها الورق الجيد من ورق المصاحف^(٣٢٥) وبعد الفتح الإسلامي استبدل ورق البردي غالي الثمن سريع العطب بالورق الصيني. وبدأ بذلك عصر جديد في حضارة العالم القديم. أما انتاج الورق من الألبسة البالية فقد وصل إلى الامبراطورية الإسلامية على يد أسرى الحرب الصينيين الذين جلبوا إلى سمرقند في عام ٧٥١م. فقامت تلك الصناعة في سمرقند وبيع انتاجها في كل أنحاء العالم الإسلامي، ثم قامت مصانع الورق في المناطق الأخرى ومنها الرها (اشتور ١١٥).

الخمور

تصنع خاصة في الاديرة بسبب ما تملكه من الكروم، ومن يتردد عليها من الزبائن كما في خمارات الرقة.

الطحانة

كان في الرقة وقلعة جعبر في الفرات مطاحن أو طواحين (احجار طاحون) تعرف بالعروب وهي قائمة في وسط الماء شديد الجريان وموثقة بسلاسل الحديد.^(٣٢٧)

عرف الخوارزمي العربية بأنها طاحونة تنصب في سفينة وجمعها عريب. وسماها القزويني (في آثار البلاد ٤٢٨) العربيات وقال: أنها هي الطواحين التي يديرها الماء في وسط النهر وهي في سفينة وتنقل من موضع إلى موضع. ويطحن كل حجر في اليوم والليلة خمسين وقرا^(٣٢٨) (الوقر أكثر ما استعمل لحمل البغل والحمار، واستعمل الوسق لحمل البعير).

وقد نسب إلى هذه الصناعة: محمد بن زياد البشكري الطحان الاعور^(٣٢٩) الرقي ثم الكوفي. وقد أشير إلى الطواحين في عهد الصلح مع عياض بن غنم^(٣٣٠).

واستعملت الطواحين في الاسلام لغاية أخرى غير طحن القمح والحبوب الأخرى مثل طحن قصب السكر ونشر الأخشاب. (تقي الدين والهندسة العربية ١٩٧) مما يجعلنا نظن أن الحركة الدائرية قد تحولت إلى حركة متناوبة، وذلك على الظن بواسطة مطارق قلابية متأرجحة bas eu Les^(٣٣١) (دائرة المعارف الإسلامية).

دهن الخطارة

(لعل الخطارة من الخطر وهو نبات يختضب به). ودهن الخطارة بالرقعة اعجوبة، ذلك أنه لا يتخذ إلا في حانوت معروف بها، فإن اتخذ في غيره من الحوانيت فسد، وخاصيته أنه نافع للرياح والنقرس (ابن الفقيه ١٣٤) هكذا زعموا؟

التضبيب

التضبيب هو الاحتواء على الشيء وشدة القبض عليه لئلا يفلت من يده، وتضبيب الخشب هو الباسه الحديد. وقد شاع منذ زمن مبكر تضبيب الأسنان بالذهب، أي الباسها قشرة من الذهب كما يصنع في عصرنا، وقد فعل ذلك الكثيرون ومنهم اسماعيل معدي كرب التياح، ويزيد بن حميد الضبيعي البصري، وثابت البتاني، والمغيرة بن عبد الله أبو حمزة^(٣٣٢).

ويذكر القشيري فقرة ٢٠٢^(٣٣٤) أن فيض بن إسحاق الرقي (مات سنة ٢١٦هـ) ضبيب الحجر الأسود أي أحاطه بالفضة لضبطه بعد أن تقلقت الحجارة التي حوله، وكان عبد الله بن الزبير قد فعل هذا من قبل، ولكن يظهر أن التقلقل عاد إلى الحجر بسبب الحريق^(٣٣٥).

ضرب العملة

الضراب: نسبة إلى ضرب الدنانير والدراهم وكان ذلك يتم في الرافقة، وينسب إلى هذه المهنة: أبو العباس أحمد بن محمد بن سالم الضراب الرقي، روى عن علي بن ميمون الرقي العطار^(٣٣٦).

الزيت والخل والعسل والجبن

فرض على سكان الرقة لدى الفتح على كل رجل ديناراً في كل سنة ومعه اقترعة من قمح وشيئا من زيت وخل وعسل (البلاذري ٢٠٥) لدفع الخراج في الرقة والجزيرة، وورد ذكر الجبن (في رحلة الواقدي).

النجارة

كانت النجارة منتشرة في الرقة ونسب إليها بعضهم مثل محمد بن عبد الله بن سابور الرقي، ومحمد بن خالويه النجار^(٣٣٧) كما كانت صناعة السفن والقوارب قديمة في الرقة منذ كانت مدينة توتول قبل الميلاد^(٣٣٨) وصنعت الرقة القباب التي هي كالهواذج ونسب إليها أناس منهم: عمر بن يزيد القباب الرقي روى عنه محمد بن الحجاج أبو يوسف الصيدلاني^(٣٣٩) كما صنعت الأقواس في الرقة ونسب إلى صنعها ويبيعها معاوية بن أبي تيمي القواس الرقي^(٣٤٠).

وهناك صناعة الأجر المزدهرة لشدة الحاجة إليها لعدم وجود مقالع حجر قريبة من الرقة وكذلك صناعة اللبن.

السراجة

عرفت بالرقة السراجة وهي صناعة السروج (جمع سرج: وهو رحل الدابة) الذي يوضع على الفرس ونسب إليها أناس منهم: عبد الرحمن بن يونس بن محمد الرقي، أبو محمد السراج، وأبنة محمد بن عبد الرحمن بن يونس، أبو العباس بن السراج. على أن أسباب السراجة لا تقتصر على السروج فقط، بل تشمل السيوف والحزم والغواشي والسيور إلى أسباب السلاح. ومن بين المواد التي راجت في الرقة: السروج، وكان عيسى بن إبراهيم أبو موسى السراج يأتي بالسروج من الكوفة فيبيعها في الرقة (أنساب الأشراف ٨٤١٣)، على أن هذه الصناعات جعلت لتلبية حاجات الجيوش التي كانت تتمون من الرقة.

صناعة السلاح

كانت هذه الصناعة متوفرة في كل مكان حسب الامكانيات المتوافرة من حيث وجود الحديد والفولاذ. وكانت أسرار المهن تنتقل من الآباء إلى الأبناء. (اندرية كلو ص ٢١٠).

الخرازة (٣١٥)

عرف من يخز الجلود كالتقرب والسمطائح وغيرها باسم الخراز وممن عرف بذلك: خالد ابن حيان الرقي الخراز^(٣١٦).

صناعة الاحذية

عرف أحمد بن بزيع الرقي حفيد ميمون بن مهران بلقب الخفاف أو الإسكاف والإسكاف هو الذي يعمل اللواك والسمسكات. والخفاف: نسبة لعمل الخفاف التي تلبس^(٣١٧).

النسبة إلى المهنة أو الصناعة في الرقة

الزيات: وفي سكان الرقة من يدعون بنو الزيات الذين قدموا بغداد مع البتاني في عام ٢٦٤هـ^(٣١٨) وهذه النسبة الأشهر فيها، أن تكون جلب الزيت ونقله من بلد إلى بلد^(٣١٩).

الصابوني: نسبة إلى عمل الصابون، وعرف بذلك أبو بكر محمد بن جعفر بن أحمد القاضي الرافقي يعرف بابن الصابوني من أهل الرافقة، قدم بغداد وحدث بها^(٣٢٠).

النسبة إلى صنف التجارة المزاولة

الجلاب: وهو من يجلب الرقيق والدواب من موضع إلى موضع وممن عرف به: الحسين محمد بن حزم الجلاب الرقي، روى عن عمرو بن قسط.

الخشاب: وهو من يبيع الخشب وممن عرف بذلك: أحمد بن إسحاق بن يزيد الخشاب الرقي، روى عن عمرو بن قسط وعمرو بن، وعثمان بن سيار الكلابي، وعبد الله بن جعفر بن غيلان الرقي^(٣٢١).

الحطاب: وهو الذي يحمل الحطب من الصحراء ويبيعها وممن عرف به: سليمان بن عبد الله الرقي، وعبد الله بن ميمون الرقي الحطاب، روى عن أبي المليح وروى عنه أحمد بن حنبل في الزهد^(٣٢٢).

الخيزراني: نسبة إلى الخيزران وممن عرف بذلك: أبو علي الحسن بن زرعة الخيزراني الرقي، روى عن حكيم بن سيف بن حكيم الاسدي^(٣٢٣).

الصيدلاني: نسبة لمن يبيع الادوية والعقاقير، وممن عرف بذلك أبو يوسف محمد بن أحمد ابن الحجاج الصيدلاني الرقي^(٣٢٤).

القطان: نسبة إلى بيع العطر والطيب، وممن عرف بذلك، سليمان بن صهيب العطار الرقي، علي بن ميمون العطار الرقي وابنه محمد بن علي بن ميمون العطار الرقي^(٣٤٩).

القطان: نسبة إلى بيع القطن^(٣٥٠)، وممن عرف بذلك، جعفر بن محمد بن الحجاج القطان الرقي، الحسين بن عبد الله بن يزيد القطان الرقي.

التمار: نسبة إلى بيع التمر، وممن عرف منهم، محمد بن إسماعيل التمار الرقي (بينه وبين الأمام الشافعي راويان وبينه وبين البغدادي راويان)^(٣٥١).

الميزان: من يبيع البز وهو الثياب واشتهر به جماعة منهم^(٣٥٢) محمد بن الخضر بن علي البزاز الرقي الرافقي، روى عن إسماعيل بن عبد الله بن زرارة الرقي، وعبد الرحيم بن مطرف بن أنس بن قدامة، وكان ميمون بن مهران الرقي بزازا (ابن سعد)، وكان يكتب على الثياب أثمانها، وكثيرا ما يتلاعب التجار بها (مادة الرقم لسان العرب).

باعة الطريق

وهناك باعة الطريق الذين أشار إليهم الطبري^(٣٥٣) (٨ / ٤٦٨ / ١٩٧) فقال: والتجار منهم إنما هم باعة الطريق يتجرون في محقرات البيوع^(٣٥٤) وكان الواحد من هؤلاء يبيع الملح أو الشيء اليسير وهو يجول في الطرقات، ورأسماله بين الدرهم الواحد والثلاثة دراهم ولا يتجاوز الخمسة دراهم^(٣٥٥).

وكان الحسن بن الحر يعطي الباعة الصغار خمسة دراهم ويقول له اشترى بها قطنا لأهلك، ومرهم فليغزلوه، وبع بعضه وأحبس بعضه حتى يكون لهم به مرفق أيضا^(٣٥٦).

وقد اشترك بعض هؤلاء الباعة في حوادث الفتن في المدن (الطبري...) واعتبروا من انقوغاء. ذكر الإدريسي في القرن السادس عن الرقة أن بها أسواقا ومتاجرا وصنائعا (نزهة المشتاق الإدريسي ٢ / ٦٤٩) ومن المؤسف أنه لم يرد في المصادر أي ذكر واف لصناعات الرقة.

باعة المفرق

ينتمي العدد الأكبر من التجار الصغار (باعة المفرق) الذين يسمون بالسوق أو الباعة، إلى الطبقات الدنيا من المجتمع. فهم يتميزون بوضوح في المصادر العربية عن التجار الذين ينتمون إلى البرجوازية الكبيرة، فمعظمهم صناع يبيعون منتجاتهم، والآخر عطارون أو تجار صغار يبيعون الملابس والأواني للفقراء وغالبها صناعات منزلية سيئة الصنع. رأس مال مثل هؤلاء التجار محدود جدا يبلغ ١٠٠ - ٢٠٠ دينار. والآخر باعة متجولون يبيعون بضائعهم في القرى من مختلف فروع التجارة والصناعة، وقد سحقتهم الضرائب، واستطاع القليل جدا منهم أن يرقى إلى الطبقات العليا في المجتمع.

السواقون: كان باعة السوق بالرقة، يبيعون السوق في الطريق وذلك من زنبيل يضعونه في أيديهم^(٣٥٨). والسويق هو: الناعم من دقيق الحنطة والشعير أو غيره. وقد نسب بعضهم إلى هذه المهنة ومنهم: علي بن أحمد سرع (كذا) السواق الرقي سكن بغداد وتوفي بها عام ٢٤١ هـ^(٣٥٩). وكان في شوارع الرقة أيضا:

القلأون: وهم الذين يقلون البر للبيع (السمعاني الأنساب، القلاء: إبراهيم بن الحجاج بن سنن الحمصي القلاء وكان يقلي الحمص).

الوزانون: وإلى هذه المهنة نسب: أيوب بن محمد (بن زياد) بن فروخ الوزان، أبو سليمان، وأبو محمد، الرقي، اشتهر بهذه النسبة لأنه كان يزن القطن^(٣٦١) وهو من العمال المتجولين طبعاً.

٣- التجارة

يقوم مركز العالم الإسلامي في منطقة يمكن أن تعتبر البرزخ وأرض اللقاء والافتراق بين قارات العالم القديم الثلاث. فالجزيرة العربية ومصر والشام هي عقدة المرور الكبرى فيها،

وتشكل اللوحة بين أكبر معجاليين اقتصاديين في ذلك العالم: المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط، اللذين انصهرا من جديد في العهد الاسلامي في منطقة اقتصادية واحدة واسعة قامت على مجموعة من طرق القوافل البرية والموانئ البحرية والمدن التجارية، وعلى نقد مسيطر هو الدينار الاسلامي، ولغة تجارية دولية هي اللغة العربية، مما جعلها مركزا واسعا لحركة من التجارة الدولية^(٣٢٢). والميزة الكبرى للمدن الإسلامية أنها كانت عامة يدخلها ويسكن بها من يشاء من المسلمين دون أن يمنعه من ذلك مانع أو ينظر اليه أحد على أنه غريب، فكثرت الواقدون^{عليها} للتجارة أو لطلب العلم أو لشراء السلع التي لا توجد إلا في المدن الكبرى، أو للبحث عن طبيب ماهر أو دواء نادر، ولهذا حفلت تلك المدن بالغرباء وكثرت فيها الخانات لنزولهم^(٣٢٣). ومن المعلوم أن العرب زاولوا التجارة وبرعوا فيها منذ أيامهم الأولى وقد ذكر القرآن الكريم رحلة الشتاء والصيف.

كان معاوية بن أبي سفيان سليل عائلة تجارية عريقة، وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد اشتغل بالتجارة في فترة من حياته. كما أن ترك الدولة العربية التجارة بأيدي أصحابها السابقين، مثل خطوة عمر بن الخطاب بتركه الأراضي الزراعية بأيدي أصحابها، وبذلك عبرت الدولة عن ادراك قادتها لأهمية التجارة في استقرار أحوال البلاد سياسيا واقتصاديا، وأنه ليس بمقدور الدولة الجديدة إمساك التجارة بيدها، لأن الأوضاع العسكرية استوجبت الانصراف التام إلى الميدان العسكري، وليس بسبب نقص خبرة العرب التجارية. (العلاقات العباسية البيزنطية - موفق سالم ٣٥٧).

كانت مدينة توتول (السابقة للرقعة بالاف السنين) تصدر إلى ماري وطور وسييار وإيمار وإيبلا، الحيوانات كالحمير والماشية والغنم والماعز والبقر بالإضافة إلى الثياب والزيت والفاكهة والخمور والنحاس والفضة وكانت قوافل الحمير تنقل البضاعة أيضا بين حران وتوتول وإيمار في ثمانية أيام. وتقدر المسافة ٢٢٠ كم أي تقطع في اليوم ٢٨ كم.

وفي العهد البيزنطي الساساني قبل الاسلام، كان طريق القوافل يتبع دائما احدى الشمالين لايران، وأن الفرس هم الذين كانوا يتلقونها دائما قبل غيرهم ويحرصون كل الحرص على أن لا تصل إلى الرومان الشرقيين بطريق آخر غير الذي اجتاز بلادهم أو بأيدي أخرى غير أيديهم. واتفقت بيزنطة مع فارس على تحديد بعض الاماكن التي يتعين فيها بيع البضائع الآتية من فارس إلى البيزنطيين، كذلك كان من المستحيل التخلص من الأمر الذي يقضي بأن يكون كل من هذه الاماكن مقرا لمكتب جمركي.

من المعلوم أن التجارة هي تبادل السلع عينا أو لقاء ثمن، وهي صلة وصل بين الأفراد والشعوب. ولكن لا بد من أن ترفد التجارة وترافقها مجموعة منشآت: كالأسواق والمصارف، والطرق والفنادق والعملات والمظاهر والوسائل، وغيرها مما يساعد على سهولة الاتصال وسرعته وحريته. وكانت نقطة المبادلة التجارية في الشمال هي ارتاجرات. ومن بعدها في وسط بلاد ما بين النهرين تأتي نصيبين و أخيرا تأتي في الجنوب الرقة على الفرات. وقد تقدم أنه في عام ٣٦٣م زار أليانوس مارسيلينوس مدينة كلينيكوم (الرقة سابقا) وكتب عنها أنها حصن هائل وهام كمركز تجاري. وأن موقع الرقة على الفرات يبعث على الاعتقاد ان القسم الأكبر من الحرائر التي تصل - أو حتى كلها - كانت تجتاز الخليج الفارسي وتصعد نهر الفرات (٣٦٦) إلى الرقة غير أن القسم الأكبر من المنتجات التي كانت الهنود تصدرها إلى فارس كانت تنقل بحرا بمحاذاة السواحل فلا تنزل إلى البر إلا بعد أن تصل إما إلى أقصى الخليج الفارسي أو إلى أحد المرافئ على نهري دجلة أو الفرات حيث يكون المجرى السفلي لهما صالحا للملاحة.

صادف صدر الاسلام والحروب الإسلامية خلاله ضعفا في التجارة ولكن حين رفع الخلفاء أعلامهم في ثلاثة اركان العالم عمت السكينة شيئا فشيئا وعاش غير المسلمين في سلام تحت

سكان العرب وحدث تقارب بين المسلمين وغير المسلمين، وكان المسلمون في البدء على أكبر قدر من البساطة في اللبس والمأكل، ولكنهم حين اختلطوا بالفرس الذين اعتادوا الوفير والرخاء في العيش وتأثروا بهم وازداد الدخل وكانت دمشق المقر القديم للخلفاء الأمويين ملائمة للتجارة واتصال القوافل الخارجية من آسيا الصغرى ومن بلاد نهري الجزيرة والمتجهة إلى بلاد العرب ومصر وبالعكس. غير أن الشريانيين الرئيسيين للتجارة العامة الشاملة داخل دولة الخلفاء كانوا على الدوام النهران الكبيران دجلة والفرات. وثمة عالم عربي جغرافي من علماء القرن العاشر هو المقدسي أطلق على الخليج الفارسي الذي يصب فيه هذان النهران اسم بحر الصين ذلك لأن الخليج الفارسي كان نقطة انطلاق الملاحة إلى الشرق الأقصى.

بعد أن احرز العرب انتصاراتهم على الفرس (٦٣٥ - ٦٣٦ م) وادادوا أن يمنعوا أعداءهم من الإبحار على طول شاطئ الخليج الفارسي وإرسال سفنهم إلى عمان والهند، شيدوا على ضفة الفرات مدينة البصرة التي أصبحت بالتالي نقطة انطلاق سفن العرب ويظهر أن التقنيات الخاصة بالمراكب قد دخلتها تغييرات في منطقة الشرق الاسلامي فقد نسب إلى الحجاج أنه أول من أجرى في البحر السفن المقيمة (المطيلة بالقار أي الزفت) المسمرة، غير المخروزة، وغير ذوات الجاجي (جمع، جؤجؤ، مقدم السفينة على شكل بارز الجاحظ) بيان ٢/ ٢٤٢ (السياسية والمجتمع في العصر الأموي، ابراهيم حركات ص ٢٦٧).

وبنى العباسيون مدينتهم بغداد على ضفتي دجلة. وثمة قناة صالحة للملاحة تبدأ من الفرات وتجتاز إقليم مأبين النهرين وتنتهي عند بغداد (هي نهر عيسى) تربط العاصمة الجديدة بآسيا الصغرى وسوريا وبلاد العرب ومصر في حين كانت قوافل (أي المسافرين في البر) وسط آسيا تأتي عبر بخارى وفارس.

(١) الطريق البحري

وللدلالة على نشاط المواصلات البحرية عن طريق الخليج الفارسي نشير إلى رحلات السندباد البحري المشهورة.

وصل العرب، إلى الصين والهند الصينية، وحتى إلى كوريا وكان يمكن الوصول إلى الساحل الغربي للهند من الساحل الشرقي لبلاد العرب في شهرين أو ثلاثة أو ربما أحيانا في شهر واحد إذا كانت الريح موافية، وكان هناك تجار عرب يقيمون في سيلان قبل عام ٧٠٠ م. وكان الكثير من الملوك في القارة الهندية يراعون مصالح العرب وأذنوا للعرب بإقامة منشآت وبناء مساجد وكثر المسلمون في الهند^(٣٨) وبعد أن أصبح الخليج الفارسي تحت السيطرة العربية ازدهرت الملاحة البحرية في المحيط الهندي، فهذا الخط البحري الهام جداً للتجارة مع الشرق يربط بلاد الشام بالهند وجزر الهند الصينية والصين. فهو ينطلق من بلاد الشام عند موقعين هامين على الفرات، وهما: الرقة وبالس حيث يعبر مجرى الفرات الصالح للملاحة من الرقة من الأماكن التي كان الرومان عندها يشتررون الحرير من الفرس كما تقدم واستمرت هذه المدينة مزدهرة تحت السيادة العربية وبخاصة في العصر العباسي بفضل العديد من العلاقات التي كانت تربطها ليس فقط على طول نهر الفرات ولكن أيضا في الشمال الشرقي مع نصيبين والموصل، وفي الجنوب الغربي مع دمشق وطريق الحج وفي الشمال الغربي مع حلب وأنطاكية أما بلدة بالس فأنها كانت على بعد يومين سيرا على الاقدام من الرقة. ويصفها الجغرافي العربي الاصطخري بأنها 'ميناء السوريين' وهذا دليل على أن التجار السوريين كانوا يأتون إليها عند حدود بلدهم فيركبون السفن ومعهم بضائعهم في طريقهم إلى الشرق، وينزلون بها عند عودتهم^(٣٩).

إن أهم السلع التي انتقلت وجرى تبادلها بين الدولتين العباسية والبيزنطية، هي: ما كان ينتقل من الدولة العباسية إلى الأراضي البيزنطية مثل الحرير والديباج والأحجار الكريمة واللؤلؤ

والعاج والطور والطيب والأبانوس. أما السلع التي انتقلت بالعكس فهي: أنواع معينة من الأقمشة الرقيقة التي احتفظ البيزنطيون بأسرار صنعائها والتي تعطي ألوانا عديدة بانعكاس الضوء عليها والتي تدعى هيبوكلامون (أبو كلمون) وكذلك أقمشة الكتان، ثم المواشي التي استوردت من أرمينية البيزنطية إلى شمال سورية. وأشار الجاحظ إلى المفروشات المستوردة من الأراضي البيزنطية، وعدها أفضل المفروشات.

وإذا كانت بيزنطة قد استفادت من وساطة المسلمين التجارية، إلا أنها بمرور الوقت فقدت تحكمها بالأسواق التجارية، حتى لم تتمكن من فتح أسواق جديدة أمام اجتياح المسلمين أسواق العالم بما فيها أسواق أوروبا، كما أنه أصبح ثابتا أن حركة التجارة البيزنطية تميزت بالسلبية وقبعت في حيز جغرافي ضيق. وكان الذهب القادم من بيزنطة إلى الأراضي العباسية على شكل عملة وليس خاما، ولم يكن بمقدور بيزنطة التخلي عن وساطة المسلمين، إذ أنهم يحيطون بها من الجنوب والشرق، الأمر الذي أسهم وعلى الدوام باستنزاف ذهب بيزنطة، فأصبح ميزانهم يعاني من عجز دائم. (العلاقات العباسية البيزنطية - موفق سالم نوري ص ٣٦٤).

وكانت البضائع التي كانت تجلب إلى أوروبا أثناء الحروب الصليبية لا بد أن تمر قوافلها في مدينة الرقة لكي تدرلك منها الطريق البرية عبر بلاد الشام^(٣٧٠).

٢) الطريق البري أو طريق الحرير

كانت القوافل البرية القديمة تسير من شمالي الشام باتجاه الهند حيث توجد بضائع الشرق الهامة جدا في التجارة العالمية فتعبر الفرات عند الرقة على الأغلب مارة إلى بلاد الفرس ثم خراسان مروراً بهمدان والري ونيسابور فتصل إلى مرو حيث يتفرع الطريق إلى طريقين: أحدهما يذهب شمالاً إلى بخارى وسمرقند، والآخر يتابع شرقاً إلى طالقان وبلخ، ثم شمالاً كذلك باتجاه ترمد فيبخارى، حتى يصل إلى سمرقند، ثم بعد ذلك فإن الطريق الذي يبدأ من هذه المدينة يتابع شرقاً فيعبر نهر سيحون نحو بلاد الصين^(٣٧١).

كانت حركة البضائع كلها في العصر العباسي لصالح بغداد في الدرجة الأولى، إذ تصب فيها منتجات الشرق كله. وكانت المنتجات التي لا يستهلكها سكان المدينة الكثيرون تخرج منها وتنتشر في العالم كله، إما بحراً عبر الطريق الهندية وإما براً عبر القوافل الممتدة حولها. وكانت المنتجات التي تصل في دجلة إلى بغداد يمكن أن تسلك قناة عيسى فتصل إلى الفرات، وتصلد النهر حتى الرقة ثم إلى بالس، ثم تتحرف القوافل براً إلى حلب - سوق الحرائر الكبير - ومن حلب تسلك الطريق إما إلى أنطاكية التي تتصل بالبحر المتوسط بطريق طوله عشرة أميال ينتهي إلى ميناء ساسيمون (مدينة السويدية الحالية) وإما إلى اللاذقية على البحر المتوسط.

وتصل القوافل من بغداد إلى الموصل - وهي مقر صناعة انسجة هامة وتجارة واسعة - وتمر إلى نصيبين ثم آسيا الصغرى. وإذا ابتعدت القوافل عن دجلة عند آمد، فإنها تصل إلى الرقة مروراً بسميساط وأديسا وحران. ولم يستفد البيزنطيون في الرها شيئاً من هذه التجارة، بل استفاد منها سكان الرها: السوريون والآرمن المسيحيون^(٣٧٢).

٣) التجارة مع الجيش

وكانت هناك تجارة تعتمد على التعامل مع الجيش في حروبه وذلك إلى جانب التجارة العادية ولما كانت الرقة نقطة انطلاق هامة للجيش الاسلامي إلى الثغور وغيرها كان لهذا النوع من التجارة مكانته الخاصة. فقد درج التجار على تقديم لوازم الجيش وعلى ملازمته في حروبه لشراء ما يفتنهم من أموال وكراع واثاث وسبي وذلك بأبخس الاثمان ليبيعوه فيما بعد وفي المدن بأغلى الاثمان.

وكمثال على ذلك نذكر في غزوة عمورية عام ٢٢٢هـ ولقي قام بها المعتصم. تجهز المعتصم جهازا لم يتجهز مثله خليفة قبله قط، من السلاح والعدد والآلة وحياض الادم والبنال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط^(٣٣) وكان مع المعتصم، حين عبر دروب الروم، خمسون ألف مقاتل وكذلك ثلاثون ألف تاجر يوردون الدواب والمؤن، وحوالي خمسين ألف جمل، وعشرين ألف بغل، فضلا عن خيول الخليفة والجيوش^(٣٤). وخلال هذه الحرب، غنم جماعة اشناس (من قواد المعتصم) في طريقهم غنما كثيرا وبصرا^(٣٥)، كما غنم المعتصم غنما كثيرة^(٣٦). وأقبل الناس (من عسكر المسلمين) بالأسرى والسبي من كل وجه حتى امتلأ المعسكر وأمر المعتصم ألا ينادى على السبي إلا ثلاثة اصوات ليتروج البيع (أي يسرع)، فمن زاد بعد ثلاثة اصوات، وإلا بيع العلق (العلق: النفيس من كل شيء يتعلق به القلب)، فكان ينادى على الرقيق خمسة خمسة، وعشرة عشرة، والمتاع الكثير جملة واحدة... وكان مع كل قائد رجل من قبل أحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة يحصي الغنائم. فبيعت في خمسة أيام^(٣٧).

وكان مع الجيش الذي خرج لحرب بابل عام ٢٠٥هـ، تجار خرجوا بخروجه معهم اصناف التجارات^(٣٨) وقد اشترى أحد التجار سفطين من الاحجار الكريمة من غنائم نهاوند (عام ٢١هـ) بألفي ألف درهم ثم باعهما بأربعة آلاف ألف درهم.

وكانت ميادين القتال تشهد بعد انجلاء المعركة حركة تجارية في الغالب، فكان الجند يبيعون من التجار حظهم من الغنيمة بأسعار أقل من اسعارها في الاسواق التجارية، فجنى التجار من ذلك ارباحا طائلة. وقد اشترى عمرو بن الحريث المخزومي سفطين من كنوز آل كسرى (زمن عمر بن الخطاب) بألفي درهم ثم باعهما بأربعة آلاف ألف. (الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الاولى - د. محمد ضيف البطانية ص ١١٦).

هذا ولا ننسى مدى استقادة النخاسين الكبيرة من شراء الأسرى، كما في معركة عمورية وغيرها. ولكن إذا انتصر الجيش المعادي وأعمل النهب في الجيش الذي فيه التجار ذهبت اموال هؤلاء وتجاراتهم كما حدث عام ٢٥١هـ، إذ هزم الاتراك جيش الحسين بن اسماعيل وحووا جميع ما فيه من المضارب وأثاث الجند وتجارات أهل السوق^(٣٩).

وفي الغزوة التي قام بها العباس أخو الخليفة المنصور لبلاد الروم عام ١٤٩-١٥٠هـ وقام فيها بتشديد حصن زياد (يعرف الآن بإسم خربوط) وحصار حصن كمخ، وانتهت الحملة بهزيمة الجيش العباسي ومحاصرته وقتل الكثير منه أو أسره. ولحق بالقرويين الذين كانوا ينقلون القمح والمؤن خسارة كبيرة في الطريق وهلك قسم من دوابهم، وقتل الأعلاف، فتوقفوا عن نقل الحبوب، وحلت المجاعة بين الجند، وصار ثمن قفيز القمح ثلاثة دنانير ونصف الدينار، ودام هذا عشرين يوما فبعث (القائد) إلى سورية وأمر بإقامة سوق كبيرة لتموين جنوده بالقمح، فأقبل القرويون وكان جلهم عاطلين عن العمل، يحمل كل واحد ما استطاع من الأمتعة والمؤن، فأنخفضت أسعار جميع المواد الغذائية وكدس التجار والباعة الحنطة والشعير والسميد والبضائع بكميات وفيرة طلبا للريح. وقفل الجيش الإسلامي في اقتحام حصن كمخ، وحل الشتاء وبدأ البرد يلف الأرض، وخاف الجند أن يداهمهم الثلج، وتطوقهم الروم، فتسوء حالتهم، فنادوا بالرحيل فالحق بالتجار والباعة وأصحاب الحوانيت خسارة لا تعوز لأن قرار الرحيل كلن مفاجئا، ولم يجدوا دوابا تنقل بضائعهم المكدسة لإعادتها إلى بلدانهم لوعورة الأرض ووجود النهر المسمى سلقط، وغير ذلك من العوائق، كما أن إدارة الجيش قامت بإشعال النار في أمتعة التجار المكدسة خشية أن يفيد منها العدو، ورغم ذلك فقد بقي الكثير من المؤن لم يحرق.

لم يستفد من هذه العمليات الحربية إلا سكان مدن الثغور الشمالية، إذ تدفقت الدنانير الذهبية على المنطقة بتدفق القوات الفارسية (أي العباسية) إلا أن هذه الفائدة جلبت الكثير من الضرر، إذ أخذ الناس يزيفون العملة مما سبب خسائر فادحة. (ثيوفانسوس ص ١٣٢ - ١٤٨). ومن ناحية أخرى، كان يخرج مع الجيش في الحروب بالإضافة إلى التجار طائفة من الشباب تبتغي الرزق كما حدث في جيش المأمون حين توجه إلى أرض الروم^(٣٨١).

٤) الصراف، الجهيد، الصكوك

كان الصراف في السوق يقوم بكثير من أعمال البنوك الحالية، إذ يقوم بتغيير العملة سواء أكانت محلية أم أجنبية، ذهبية أم فضية، وكانت العادة أن التاجر المعروف إذا دخل السوق أودع ما معه من المال لدى أحد الصرافين وأخذ بدلها رقاعا أو أوراقا عليها طابع (ختم) الصراف يسجل فيها الحد الأقصى الذي يستطيع التاجر أن يتصرف به، وبهذه الرقاع يستطيع حاملها أن يشتري ما يريد ويعطي البائع منها ما يساوي قيمتها النقدية. وكان الناس يفضلون ذلك تضاديا لحمل مقادير كبيرة من العملة أثناء وجودهم في السوق وتعرضهم للصوص الزحمة. وكذلك ليوفروا الوقت الذي يضيع في فحص العملة للتأكد من سلامتها في كل حالة شراء. وفي آخر مدة السوق يعمل التاجر حسابه مع الصراف ويأخذ المتبقي له أو يدفع الزائد عليه، وهذا أشبه بعمليات خطاب الضمان^(٣٨٢).

وكانت الجهاذة - جمع جهيد - أوسع ثروة وأقدر من الصرافين على القيام بالعمليات المالية الكبيرة المعقدة. وكان بعض التجار يودعون عند الجهيد عشرات الآلاف من الدنانير ويأخذون عنها رقاعا يتعاملون بها أما الصراف فكان يجلس على منضدة في السوق. ومعنى ذلك أن الصراف أقل شأنا من الجهيد أما الصك فقد استعمل منذ العصر الأموي وذلك تجنباً لمخاطر الطريق في نقل الأموال، وهو عبارة عن أمر خطي بدفع مبلغ محدود إلى شخص معين. وقد كان معروفا في بداية الإسلام حيث كان يستعمل في أمور عدة، فكانت الأزاق والأعطيات تدفع عن طريق الصكوك (لسان العرب - صك) يأخذ الصيرفي الرسمي على صرف أية رقعة فائدة على كل دينار درهم ويعملون قبل الظهر فقط (نشوار المحاضرة ١٩٣/٢) كما أن الصكوك استعملت كذلك في التجارة لشراء السلع المختلفة^(٣٨٣).

٥) النشاط التجاري

امتد نشاط التجارة العربية الإسلامية إلى أرجاء مختلفة وواسعة من العالم لوجود طبقة من التجار عملت على استثمار ثرواتها في النشاط التجاري بشكل واسع، ليس في بلدان الخلافة فقط، بل امتد ذلك أيضا خارج أراضيها متمثلة في مستوطنات وجاليات ومراكز تجارية. وصلت إلى الهند وأواسط آسيا وإفريقيا والأراضي البيزنطية، وكذا الحال في العلاقات التجارية مع أوروبا ولا سيما أقسامها الشمالية، فقد عثر في السويد واسكندنافيا على عشرات الآلاف من القطع العربية النقدية يرجع تاريخها للفترة بين أواخر القرن السابع وأوائل القرن الحادي عشر للميلاد، وهي تواتر بذلك فترة ازدهار التجارة العربية الإسلامية مع شمال أوروبا. ووجدت أيضا قطع نقدية عربية على طول مجرى الفولفا. وهذا يؤيد ما جاء في المصادر الأدبية العربية عن قيام علاقات تجارية بين بلدان الخلافة الإسلامية وبلاد البلطيق عبر بحر قزوين والبحر الأسود وروسيا. كما يبرهن على عمق ورسوخ ومتانة التجارة العربية الإسلامية والثقة العالية بها، وقد كانت سفنات التجار المسلمين تصرف في البلاد غير الإسلامية.

وأسهمت عوامل عدة في رسم صورة هذا الازدهار التجاري، لعل من أبرزها:

١- مثل العالم الإسلامي موقعا استراتيجيا على طرق التجارة الرئيسية إذ يقع على مفترق الطرق التجارية الكبرى، فكانت قوافل التجار تسلك طريقين مهمين هما: الطريق البري ويعرف بطريق الحرير والثاني هو الطريق البحري. وأعطى هذا الموقع الممتاز للتجار العرب المسلمين مكانة ممتازة.

٢- اتسع نطاق الدولة الإسلامية حيث شكلت سوقاً داخلية كبيرة فكان ذلك بداية العصر الذهبي للازدهار الاقتصادي. وكذلك التخصص المكاني داخل الدولة الإسلامية في الانتاجين (الحرفي الصناعي والزراعي) إذ حوت المصنفات الجغرافية الكثير من الاشارات إلى هذا التخصص.

٣- كان لنجاح السلطة المركزية في توطيد الأمن والاستقرار الداخلي ونجاحها في مواجهة المشكلات الدولية أثر كبير في توفير أجواء آمنة أسهمت في ازدهار النشاط التجاري.

٤- اتباع سياسة حرية التجارة، فلم تتدخل الدولة في تحديد الاسعار إلا في حالات الضرورة وبما يخص المواد الغذائية فقط.

٥- النظام المالي، فقد كان للسياسة دور كبير في تسليف التجار وتنشيط معاملاتهم، كما أنهم كانوا يسددون حسابات التجار في الموانئ الكبيرة، حتى أن التاجر لم يكن يضطر للدفع مباشرة، واستعمل التجار أيضاً السفائح للدفع في البلاد الأخرى. فأسهم هذا النظام بعمق في تسهيل وتيسير أعمال التجارة ومن ثم تنشيط حركتها^(٣٨٤).

٦) فنادق الرقة وخاناتها وأماكن النزول فيها

الفندق: الخان، فارسي، حكاه سيبويه. والفندق بلغة أهل الشام خان من هذه الخانات التي ينزلها الناس مما يكون في الطرق والمدائن^(٣٨٥) ويقول محمد التونجي: خان: النزول أو فندق التجار أو محطة القوافل.

كان هناك فنادق للتجار الغرباء وكانت أشبه بالأسواق الكبيرة حيث كانوا يضعون في أسفلها بضائعهم وينامون في أعلاها ويقفلون غرفهم بأقفال رومية. وكان يطلق على هذه الأسواق أو المخازن: 'الفنادق'^(٣٨٨).

كان في الرقة وخارجها فنادق كثيرة، فقد تواجد الاساقفة على اللقاء في الرقة بناء على تكليف من طاهر بن الحسين ١٥٩ - ٢٠٧هـ فجاء خمسة وأربعون اسقفًا فضلاً عن الرهبان فنزلوا في فنادق الرقة^(٣٨٩) ويظهر أنه كان للكنيسة في الجزيرة فنادق تابعة لها وتدخل في ملكيتها فحين زار المأمون ١٧٠ - ٢١٨هـ كنيسة الرها أعفى الفنادق والحوانيت وبقية الأبنية المماثلة التابعة للكنائس من دفع الضرائب، وطبق هذا الاعفاء على كل الجزيرة ولكن سرعان ما أبطل وعاد الأمر إلى ما كان عليه من قبل^(٣٩٠).

وحين ذهب الواقدي (١٣٠ - ٢٠٧هـ) إلى الرقة نزل أولاً في الخان^(٣٩١) وكذلك فعل عبد الله بن المبارك ١١٨ - ١٨١هـ حين ذهب إلى الصائفة ماراً من الرقة، وفي الرفاعة فندق حسين الخادم كان ينزل فيه موسى بن مروان البغدادي الذي مات سنة ست وأربعين ومائتين^(٣٩٢) ويمكن أن يلحق بالخانات الاديرة فحين قدم عبد الله بن محمد بن عقيل الرقة (مات بعد سنة ١٤٠هـ) نزل في الدير^(٣٩٤).

وقد أورد المقدسي الكلمات: فندق، خان، تيم، دار التجارة، على أنها كلمات مترادفة^(٣٩٥).

٧) الفرات طريق تجاري لما بين النهرين في العهود القديمة

يقطع الفرات مسافة حوالي ٦٠٠ كم ضمن أراضي الجمهورية العربية السورية، ويطلق على الأراضي الواقعة إلى يمينه اسم 'الشامية' وتعرف الأراضي الواقعة إلى يساره باسم 'الجزيرة'. شق الفرات طريقاً له في الهضاب والسهول حسب طبيعة الأرض، وتعرف النقاط التي يضيق فيها وادي الفرات باسم 'الخانوق' أي يختنق بين هضبتين صلبتين مثل خانوق حلبية وزلبية إلى الشمال الغربي من دير الزور أما الوادي العريض أو الحوض فيعرف باسم 'الزور' وكان الفرات يغير مجراه من حين لآخر حسب طبيعة الأرض التي يجري فيها، وبذلك تتعدم مواطن الاستقرار البشري على ضفتي مجراه السابق لانعدام المياه الضرورية لحياة الإنسان ومثلاً كانت الرقة على ضفة الفرات سابقاً لكنها تبعد عنه حالياً أكثر من كيلو مترين. وكانت ماري (تل الحريري) على

شاطئ الفرات لكنها الآن تبعد عنه بضعة كيلو مترات، وكانت توتول (تل البيعة) تقع عند مصب نهر البليخ في الفرات لكنها الآن تبعد عنه عدة كيلو مترات وكذا الحال في مسكنة (بالس). ظل الفرات يتعدى البشر ويجرهم إلى حيث يختار هو، لكن بعد إنشاء سد الفرات أصبح هذا النهر تحت السيطرة التامة ولم يقتصر دور الفرات على تمكين الزراعة وترجيح أسباب الاستقرار بل كان سببا هاما في النهوض بالمواصلات والتجارة.

لا يصلح الفرات للملاحة مثل النيل لاختلاف عمقه من مكان لآخر ولا متلائه بالمخاضات، ومع هذا فقد أمكن تلافى ذلك بابتكار سفن وقوارب مسطحة القاعدة، مستديرة أو مستقيمة الجوانب، وبدون اشرعة لأن شدة اندفاع التيار أقوى من حركة الرياح، واستعاض من ذلك بسحب السفينة بالبحال، وللذهاب من لاجش إلى نيبور مثلا المسافة بينهما ١٤٠ كيلو متر يقوم ١٦ أو ١٧ عاملا بجبر سفينة حمولتها ١٨ طنا خلال ١٥ يوما، ولذلك كانت الأرباح كثيرة من الملاحة النهرية (كما تقدم في الحديث عن توتول).

كانت الطرق المائية مليئة بكل أنواع السفن المعروفة حتى القفة. وكانت مدينة توتول في الألف الثاني قبل الميلاد تشتهر بصناعة السفن، وكانت السفن المعبأة بالبضائع تحضغ لدفع الرسوم أو تصادر البضائع وتحجز السفينة.

كانت ايبلا في الألف الثالث ق م أو تجلب المواد الخام الثمينة من الخشب والذهب والفضة والبضائع النفيسة من بلاد الشام فتقلها بالقوافل البرية حتى ميناء إيمار (مسكنة، بالس) على الفرات و ثم بواسطة السفن على الفرات نزولا. وحقت بذلك أرباحا طائلة وزيادة في النفوذ، وعقدت ايبلا لذلك الاحلاف مع المدن على الفرات والبليخ والخابور واضطرت لضمان ذلك أن تحتل ماري عسكريا فقام سارغون الاول ٢٣٥٠ قبل الميلاد ملك الاكاديين بغزو ايبلا واجبارها على دفع الجزية، لكن حفيده نارام سنة ٢٢٥٠ ق م شن حملة قضى فيها على ايبلا تماما.

كان للفرات دور هام في نقل الجيوش والمؤن كما فعل ملك اشور (ايشمي دجن) وسنحرب وعندما فتح الاسكندر المقدوني الشرق وأدرك أهمية الفرات انشأ هو وخلفاؤه دورا أوربوس قرب ماري ونيكوفوريون (الرقعة القديمة) وفي ظلال الاحتلال الروماني اشتد نزاعهم مع البارثيين الذين احتلوا بلاد ما بين النهرين وأصبح الفرات خط مواجهة خطير الشأن بين دولتي الاحتلال (الرومان والفرس) فازداد عدد الثغور والحصون، فنشأت قرقيسيا (بلدة البصيرة) عند مصب الخابور في الفرات، ثم أسست زنوبيا حلبية وزلبية، وأقامت سورا (قرية الحمام قرب الرقة).

عاد السلام إلى الفرات بعد تحرير الجزيرة من الاحتلال الاجنبي وفقدت مدن الثغور اليونانية والرومانية والبيزنطية (على الفرات) وظيفتها ثم هجرت لتنشأ في ظل الاسلام مدن جديدة مثل: رجة مالك بن طوق (الميادين الحالية) والرافقة (الرقعة).^(٣١٦)

كانت أهم المواد المنقولة عن طريق النهر - كما تقدم - هي: الحبوب والنبذ والسمن والعسل والماشية المنقولة في اقفاص من الخشب وقد لعب الخابور دورا في الملاحة النهرية لاتساع مجراه وعمقه، كما ان النقل بواسطة الحمير كان شائعا، ويساعد على مضاعفة النقل التجاري، إذ تقوم قوافل الحمير، وتبلغ القافلة أحيانا ألف حمار بنقل الحبوب من أسواق حلب إلى مرفأ إيمار (على المنعطف الكبير للفرات)^(٣١٧).

- ٣- معجم ما استعجم ١ / ٧٧
- ٤- العرب على حدود بيزنطة وإيران ٩٢
- ٥- القشيري فقرة ٣١
- ٦- ابن عساكر طبع دمشق ٢٣ / ٤٤
- ٧- مختصر ابن عساكر ٥ / ٦٨
- ٩- مجلة الاجتهاد ١ / ١٩ سنة ١٩٨٨
- ١٠- ابن عساكر ترجمة ربيعة بن عاصم العقيلي
- ٢١- البلاذري ٢١١
- ٢٢- الإبداع الزراعي ٢٤٥
- ٢٣- الأغاني ٣ / ٢٩١
- ٢٤- الإبداع الزراعي ٢٥٢
- ٢٥- الماوردي - الأحكام السلطانية ١٤٩
- الأغاني ٥ / ١٦٦
- ٢٩- النخائر والتحف ١٠٥
- ٣١- البلاذري ٢١٣
- ٣٧- الطبري ٨ / ٨٤
- ٣٨- بلياف العرب والإسلام والخلافة العربية ٢١١
- ٣٩- نجدة خماس: الشام في صدر الاسلام ٣٢٩
- ٤٠- مؤرخو الشرق الأوسط بالانجليزية ٢٥٢
- ٤١- نشوة الطرب- ابن سعيد ٦٠٢ / ١
- ٤٢- الخراج - خزنة كاتمي ٢١٦ نقلا عن كتاب التلمحري
- ٤٦- العلاقات العباسية البيزنطية - موفق سالم نوري ٥٢
- ٤٧- الأحوال الاجتماعية والاقتصادية - سوادي عبد محمد ٢٣٠
- ٤٨- تهذيب ابن عساكر ٣٠٤ / ٥
- ٤٩- الطبري ٨٨١ / ٦
- ٥٠- ن.م ٤٧٨ / ٨
- ٥١- البلاذري (ت ٢٧٩) البلدان ٢٠٥ - ن.م البلدان
- ٥٢- البلدان ٢١٣
- ٥٣- الاصطخري- ابراهيم بن محمد (ت ٣٤٦) ٥٣
- ٥٤- ابن حوقل ٢٠٣
- ١٧٢، ١٨٤ م (الخراج والنظم المالية ٢٩٦) الاخبار
- ٥٥- المقدسي محمد بن احمد (ت ٣٨٠) ١٤١
- ٥٦- ابن حوقل ٢٠٣
- ٥٧- آثار البلاد ٢٣٢
- ٥٨- معجم البلدان ٣٠٧ / ١ : الرقة السمراء
- ٥٩- ن.م ٣٠٨ / ١
- ٦٠- ن.م: الرقة
- ٦١- ديوان الصنوبري
- ٦٢- معجم ما استعجم - دير نجران
- ٧٨- البلاذري ١ / ٢١٤
- ٧٩- الفرج بعد الشدة ٤ / ١٥٦
- ٨٠- البلاذري ٢١٣
- ٨١- الاخبار الطوال ١٦٧
- ٨٢- ذكر الرئيس ان الفلسفة تعادل بالاحساس الفلكي الطوال ١٦٧
- والفلسفة حسب تعريف المقدسي يمكن اعتبارها بين ١٧٥ . ٢٥٠ م
- ٨٣- نجدة خماس: الشام في صدر الاسلام ٣٢٦
- ٨٤- ملحق دائرة المعارف الإسلامية بالفرنسية . اليسيف بادية badya
- ٨٥- سوريا تأليف جيران دو جورج بالفرنسية ١١٥
- ٨٦- المقدسي ١٤٥
- ٨٧- اليسوي ٤١٤
- ٨٨- ترتيب المدارك ٢ / ٤٨٠
- ٨٩- البغداد ٥٤٨ ، القزويني ٤٢١
- ٩٠- دائرة المعارف الإسلامية . البيرة
- ٩١- ما تقدم ملخص عن نور الدين الزنكي . اليسيف بالفرنسية ١٤٦
- ٩٢- آثار حوض الفرات . قاسم طوير ص ٥٢ مقال في مجلة الحوليات الاثرية المجلد ٣٢
- ٩٣- دوسو ٤٤٨
- ٩٥- الأغاني ٨٠ / ٥ ٨٩٠
- ٩٦- معجم البلدان . البليخ
- ٩٧- نور الدين - اليسيف بالفرنسية ١ / ١٤٣
- ٩٨- معجم البلدان - جلاب
- ٩٩- سهراب ١٢١
- ١٠٠- ياقوت . البليخ
- ١٠١- سهراب ١٢١
- ١٠٢- ياقوت - البليخ
- ١٠٥- تاريخ الدول العربية الإسلامية . السامرائي ورفيقاه ٩٨
- ١٠٦- الخراج . د. غيداء خزنة كاتبي ١٦٦ نقلا عن كتاب في
- ١٠٧- ميخائيل ٣ / ١٠ . تاريخ الزمان لابن العبري ١٣
- ١٠٨- نسيب صليبي . وقائع الندوة ٤٤
- ١٠٩- مرهف الخلف: وقائع الندوة ٧١
- ١١٠- مراصد الاطلاع

- ١٠٠ - نور الدين - اليسيف / ١ / ١٤٣
- ١٠١ - ياقوت: دامن
- ١١٣ - المزي: ترجمة الوليد بن عقبة
- ١١٤ - الاغانى / ١٣ / ٥٨، مختصر ابن عساكر / ١٦ / ٢٨٧
- ١١٥ - ديوان الصنوبري ٥٨
- ١١٦ - البلاذري
- ١١٧ - اشعار أولاد الخلفاء - الصولتي ٥٩
- ١١٨ - دائرة المعارف الإسلامية بالانجليزية: ماء MA،
- اسهامات العرب في علم المياه والري ٢٦٨
- ١١٩ - الابانة عن سرقات المتنبى ١٢٧
- ١٢٠ - نشرة اندراسات الشرقية BDD سنة ١٩٤٩
- ١٢٠ / ١٣ صفحة ١١٨ كلود كاهن
- ١٢١ - دائرة المعارف الإسلامية MA، البلاذري / ١ / ١٧٨
- ١٢٢ - ابو الفداء ٥٢
- ١٢٣ - ياقوت - الرحبة
- ١٢٤ - دائرة المعارف الإسلامية ماء MA، دائرة المعارف
البريطانية IRRIGATION
- ١٢٥ - كاهن BDD صفحة ١٩ شرح ما تسقيه النواعير
- ١٢٦ - انساب الأشراف للبلاذري / ٨ / ٤١٩
- ١٢٧ - سهراب ١٢٤، قوات الوفيات / ٣ / ٢٣١
- ١٢٨ - ياقوت - الدالية
- ١٢٩ - الموسوعة البريطانية IRRIGATION
- ١٣٠ - مجلة الحوليات الاثرية ٢٤ / ٥٢
- ١٣١ - كلود كاهن BDD المذكورة سابقا ١١٨
- ١٣٢ - ابن سعد ١٣٦، ٢٢٢
- ١٣٣ - الاغانى / ٣ / ٤
- ١٣٤ - البلاذري ٤٥٦
- ١٣٦ - اشتور ٥٥
- ١٣٧ - كاهن ١٧٤
- ١٣٨ - اشتور ٥٦
- ١٣٩ - الطبري / ٩ / ٣٢٠
- ١٤٠ - لومبار ٢١٥، واطسون ٣٣
- ١٤١ - ميخائيل / ٣ / ٣٠
- ١٤٢ - ابن حوقل ١٩٣
- ١٤٣ - درة الفرات ٤١
- ١٤٤ - معجم البلدان دامن
- ١٤٥ - الطبري / ٧ / ٢٠٤
- ١٤٦ - المقدسي ١٤١
- ١٤٧ - الاعلاق الخطيرة
- ١٤٨ - ديوان الصنوبري ١٨١
- ١٤٩ - غالب
- ٢٠٠ - الموسوعة في علوم الطبيعة (العناب)
- ٢٠١ - الموسوعة البريطانية JUPE
- ١٥٠ - ابن الفقيه ١٥٠
- ١٥١ - ياقوت - عنزة
- ١٥٢ - البغدادى / ٧ / ٢٦٩، / ٨ / ٣٤٤
- ١٥٣ - مختصر ابن عساكر / ٩ / ٢١٧
- ١٥٤ - المقدسي ١٤١
- ١٥٥ - ديوان الصنوبري ١٨١
- ١٥٧ - ديوان جرير / ١ / ٢٩١
- ١٥٨ - لومبار ٢١٧
- ١٦٠ - ابن الفقيه ١٢٦
- ١٦١ - ديوان صريع الغواني ١٩٠
- ١٦٢ - واطسون ١٠١
- ١٦٣ - لومبار ٢١٩
- ١٦٤ - واطسون ١٠٧
- ١٦٩ - ابن شداد / ٣ / ٧٢
- ١٧٠ - القزويني ٤٦١
- ١٧١ - ديوان الصنوبري ٥٠٠
- ١٧٢ - نشوار المحاضرة / ٣ / ١٠٥، / ١٠٨
- ١٧٣ - الطبري / ٧ / ٢٠٤
- ١٧٤ - الموسوعة في علوم الطبيعة 'كتان'
- ١٧٥ - لومبار ٢٣٨
- ١٧٦ - لومبار ٢٣٩
- ١٧٧ - المقدسي
- ١٧٨ - ابن حوقل ١٩٣
- ١٧٩ - انساب السمعاني 'وزان' مختصر
ابن عساكر / ٥ / ١٢٠ المزي في
ترجمته
- ١٨٠ - المقدسي ١٤١
- ١٨١ - الاعلاق الخطيرة / ٣ / ٩٩
- ١٨٥ - واطسون ٥٩ وما بعد
- ١٨٦ - المقدسي
- ١٨٧ - الموسوعة في علوم الطبيعة (قنب)
- ١٨٨ - ابن حوقل ١٨٨
- ١٨٩ - الموسوعة في علوم الطبيعة (ورد)
- ١٩٠ - ديوان الصنوبري ١٨١
- ١٩١ - الاخبار الطوال ١٦٧
- ١٩٢ - الموسوعة في علوم الطبيعة
(الخلاف)
- ١٩٣ - ن . م . الغرب
- ١٩٤ - البخلاء للجاحظ ١٢٢
- ١٩٥ - الموسوعة في علوم - الطرفاء أو
الائل
- ١٩٦ - ديوان الاخطل / ١ / ٣١٠
- ١٩٧ - الموسوعة في علوم الطبيعة - الفرقد

- ١٩٩- الدمياطي
٢٠٢- ابن الفقيه ١٣٤
٢٠٣- الذخائر والتحف ٢٥٤
٢٠٥- المقدسي ١٤٥
٢٠٦- البلاذري ٢٥٦
٢٠٧- لومبار ٢٢٠
٢٠٨- ابن حوقل ٢٠٥
٢٠٩- مؤرخوا الشرق الأوسط ٢٥٣
٢١٠- ابن حوقل ١٩٣
٢١١- لومبار ٢٢٤
٢١٢- المقدسي ١٤٥
٢١٣- ن. م. ١٣٧
٢١٤- ن. م. ١٣٦
٢١٥- ديوان الصنوبري ٥٧
٢١٦- ن. م. ٥٦
٢١٧- ن. م. ٦٩، ٤٦٤
٢١٨- ن. م. ٤٩٨، ١٢٢
٢١٩- الموسوعة- غالب، كشاجم
٢٢٠- غالب ٢٢١
٢٢١- معلوف ٢٢٢
٢٢٢- غالب ٢٢٢
٢٢٣- غالب ٢٢٣
٢٢٤- الدميري ٢٢٤
٢٢٥- كشاجم ٢٦٧، ٢٢٥
٢٢٦- معلوف ٢٢٦
٢٢٧- الصيد والطرد في الشعر العربي- عباس مصطفى
صالح ١٦٥
٢٢٨- الدميري
٢٢٩- غالب
٢٣٠- الدميري
٢٣١- غالب
٢٣٢- كشاجم ٢٨٠
٢٣٣- الدميري
٢٣٤- غالب
٢٣٥- الدميري
٢٣٦- غالب
٢٣٧- الدميري
٢٣٨- غالب
٢٣٩- الدميري
٢٤٠- غالب
٢٤١- الدميري
٢٤٢- ديوان ربيعة الرقي
٢٤٣- غالب
٢٤٤- الدميري
- ١٩٨- الشهابي
٢٤٥- ديوان ربيعة الرقي- جمع بكار
٢٤٦- غالب
٢٤٧- ديوان ربيعة الرقي- جمع بكار
٢٤٨- كشاجم ١٧٤
٢٤٩- البلاذري فتوح ٢١٣
٢٥٠- حيوانات، زكريا ٢٢
٢٥١- السيف ١٥٤/١
٢٥٢- القبائل البدوية على الفرات. بلنت
٢٥٣- موسوعة حيوانات الرقة ٦٣
٢٥٤- الاغاني ٨/٢٣٠، ١٠/٢٠٦، ١٥٠
٢٥٥- السيف. نور الدين ١٥٤/١
٢٥٦- موسوعة حيوانات العراق ٦٨
٢٥٧- السيف ١٥٤/١
٢٥٨- موسوعة ٦٦
٢٥٩- عقلاء المجانين. النيسابوري ٣٣
٢٦٠- ديوان الصنوبري ٥٤
٢٦١- الديارات ١٣٩
٢٦٢- موسوعة ٣٦
٢٦٣- زكريا ٢٩
٢٦٤- موسوعة ٦١
٢٦٥- زكريا ٢٨
٢٦٦- موسوعة ٧٨
٢٦٧- الصنوبري ٥٤. الديارات
للشبابشي ١٧٩
٢٦٨- ديوان الصنوبري ٥٤
٢٦٩- حيوانات. زكريا ٤٣
٢٧٠- موسوعة ٧٤
٢٧١- زكريا ٤٠
٢٧٢- موسوعة ٨٤
٢٧٣- موسوعة حيوانات العراق ٨٨
٢٧٤- موسوعة ٧١
٢٧٥- الديارات ١٣٩
٢٧٦- موسوعة ١٠١
٢٧٧- ن. م. ١٠٦
٢٧٨- زكريا ٥٨
٢٧٩- موسوعة ٢٥٦
٢٨٠- العلاقات العباسية البيزنطية.
مفق سالم نوري ٥٧
٢٨١- المدن. شاعر مصطفى ٢/٣٦٤
٢٨٢- الخراج لأبي يوسف ١٢٣
٢٨٣- مختصر ابن عساكر ٢٣/٧٦
٢٨٤- الاغاني ٥/٤

٢٨٧- تهذيب ابن عساكر ١٥ / ٧
 ٢٨٨- الطبري ٣ / ٣٨٦ ، ١٣ / ٣٢٥
 ٢٨٩- عيون الأطباء ١ / ٧١
 ٢٩٠- البغدادي ١٣ / ٣٢٥
 ٢٩١- ابن سعد ٧ / ٢٠٢
 ٢٩٢- ن . م ٧ / ٤٧٨
 ٢٩٣- بغية الطلب ٢ / ٦٧٤
 ٢٩٤- ابن سعد ٥ / ١٣٤
 ٢٩٥- البغدادي ٩ / ١٥
 ٢٩٦- ن . م ٩ / ٢٧٩ ، الاغانى ٣ / ١٣٧
 ٢٩٧- الاغانى ١٠ / ٤٨
 ٢٩٨- ابن سعد ٣ / ١٤٥
 ٢٩٩- ن . م ٧ / ٣٤٤
 ٣٠٠- الاغانى ١٨ / ٢١٨
 ٣٠١- ن . م ٦ / ٣٧٠
 ٣٠٢- ن . م ١٤ / ٣٢٦
 ٣٠٣- البغدادي ٣٠٣
 ٣٠٤- ن . م ٢ / ٤٨
 ٣٠٥- الاغانى ٢٠ / ٦٩
 ٣٠٦- غرايتاين ١٤٧
 ٣٠٧- ياقوت . الرصافة
 ٣٠٨- الإمامة والسياسة ٢ / ١٩٢
 ٣٠٩- مختصر ابن عساكر ٦ / ١١٦
 ٣١٠- الحرف والصناعات في مصر- السيد ابو سميرة
 هامش ١٧
 ٣١١- السمعاني . الانساب (نجار)
 ٣١٢- وقائع الندوة ٩٠
 ٣١٣- السمعاني . قباب
 ٣١٤- ن . م قواس
 ٣١٥- ن . م سراج
 ٣١٦- ن . م خراز ، ابن حوقل ٣٠١
 ٣١٧- ن . م الخفاف ، الاسكاف
 ٣١٨- المقدسي ١٤٥
 ٣١٩- شرح أسماء العقار . القرطبي
 ٣٢٠- نخبة الدهر ٢٠٠
 ٣٢١- ابن حوقل ٢٠٢
 ٣٢٤- السمعاني : الصابوني
 ٣٢٥- الروض المعطار . الرها
 ٣٢٧- ابن حوقل ١٩٨
 ٣٢٨- آثار البلاد . القزويني ٤٦٨
 ٣٢٩- السمعاني . الطحان
 ٣٣٠- القشيري فقرة ٣
 ٣٣٢- دائرة المعارف الإسلامية
 ٣٣٣- تاريخ أبي زرعة الدمشقي ١ / ٦٢٤

٢٨٥- الاغانى ٤ / ٨
 ٢٨٦- ن . م ٤ / ١٨
 ٢٣٤- القشيري فقرة ٣٠٢
 ٢٣٥- اخبار مكة وما جاء فيها من
 الاثار- الأزرقى ٣٤٥
 ٣٣٦- السمعاني : الضراب
 ٣٣٧- البلاذري ٢٠٥
 ٣٣٨- رحلة الواقدي . ابن سعد ٥ /
 ٣٣٩- انساب الاشراف . البلاذري ٣ / ٨٤
 ٣٤٠- ابن العديم ٣٣٨
 ٣٤١- السمعاني : الزيات
 ٣٤٢- البغدادي ٢ / ١٤٢ ، السمعاني :
 الراققي
 ٣٤٣- السمعاني : الجلاب ، الخشاب
 ٣٤٤- ن . م . الحطاب
 ٣٤٥- نزهة المشتاق للادريسي ٢ / ٦٤٩
 ٣٤٦- شنوار المحاضرة ١٨٥
 ٣٤٧- السمعاني . الخيزراني
 ٣٤٨- ن . م . الصيدلاني
 ٣٤٩- ن . م . العطار
 ٣٥٠- ن . م . القطان
 ٣٥١- ن . م . النمار . البغدادي ٢ / ١٧٨
 ٣٥٢- ن . م . البزاز
 ٣٥٣- الطبري ٨ / ٤٩٨ سنة ١٩٧
 ٣٥٤- مختصر ابن عساكر ٦ / ٣٢٨
 ٣٥٥- مختصر ابن عساكر ٦ / ٣٢٨
 ٣٥٦- ن . م ٦ / ٣٢٨
 ٣٥٨- صفة الصفوة ٤ / ١٩٥
 ٣٥٩- ابن عساكر ٤٦ / ١٤٩ ، السمعاني :
 السواق
 ٣٦٠- صفة الصفوة ٤ / ١٩٥
 ٣٦١- الانساب للسمعاني : وزان
 ٣٦٢- المدن في الاسلام . شاكر
 مصطفى ٢ / ٤٢٨
 ٣٦٣- حسين مؤنس . عالم الاسلام ٢٠٩
 ٣٦٥- طبقات ابن سعد ٣ / ١٢٦ ، ١٣٦
 ٣٦٦- هايد ١ / ١٧
 ٣٦٨- ن . م ١ / ٥٠
 ٣٦٩- ن . م ١ / ٥٩ ، تاريخ الشام
 الاقتصادي . رجال ١٦٩
 ٣٧٠- تراث الاسلام . الحروب الصليبية
 . ترجمة احمد علي عيسى ١١٦
 ٣٧١- تاريخ بلاد الشام الاقتصادي-
 عاطف رجال ١٦٣

- ٢٧٢- الطبري ٥٧ / ٩
 ٢٧٤- ميخائيل ٩٤ / ٣
 ٢٧٥- الطبري ٦٢ / ٩
 ٢٧٦- الطبري ٦٥ / ٩
 ٢٧٧- ن . م . ٦٩ / ٩
 ٢٧٨- تاريخ الموصل ٣٥٧
 ٢٧٩- الطبري ٢٣٤، ٢٢٣، ٢٢٢ / ٩
 ٢٨٠- الاغانى ٦٤ / ٢١
 ٢٨١- ناصر خسرونامه ١٥٤ / عالم الاسلام ٣٤، ٣٤١
 ٢٨٢- تاريخ بلاد الشام . عاطف رحال ١٧٧
 ٢٨٣- مختصر ابن عساكر ١ / ٢٣ ، الطبري ٥٢٤ / ٦- تاريخ
 بلاد الشام الاقتصادي . عاطف رحال ١٦٣
 ٢٨٤- العلاقات العباسية البيزنطية . موفق سالم نوري ٥٥
 ٢٨٥- لسان العرب . فندق
 ٢٨٦- معجم المعربات الفارسية ٦٥
 ٢٧٢- هابيد ١ / ١٧٨
 ٢٨٧- ن . م . ١٢٢
 ٢٨٨- ابن حوقل ٢٦٢
 ٢٨٩- تاريخ ميخائيل ٣٧ / ٣
 ٢٩٠- ن . م . ٧٤ / ٣
 ٢٩١- ابن سعد ٤٢٧ / ٥ وسمي فيه خان
 نزول
 ٢٩٢- البغدادي ١٥٩ / ١٠
 ٢٩٣- القشيري الفقرة ٣٢١
 ٢٩٤- ابن عساكر ١٥٧ / ٣٨
 ٢٩٥- المقدسي ١٢٩
 ٢٩٦- مجلة الحوليات الاثرية السورية
 المجلد ٣٤ / بحوض الفرات قاسم
 طوير باختصار شديد
 ٢٩٧- الحوليات الاثرية ١٤٥ / ١٩
 محاضرة الاستاذ فيه

الباب السادس

وسائل النقل: الطرق، الاتصال

الباب السادس وسائل النقل: الطرق، الاتصال

١- وسائل النقل البري

١) حيوانات الركوب

الجمال: امتطى جند العرب ظهر الجمل، وقد تكيف تكيفا تاما بظروف الصحراء، فأصبح حيوانا قادرا على تحمل العطش وقطع مسافات طويلة بسرعة كبيرة، وبذلك تغلبوا على أعدائهم الذين يستخدمون المركبات الحربية التي تجرها الخيول. ويقول البريت، أن البداوة العربية رهن باستئناس الجمل الذي أتاح للبدو أن يعتمدوا في معيشتهم تماما على قطعانهم من الجمال، يشربون لبنها، ويضعون من خاثرها، ويأكلون لحمها، ويضعون في أقاليم لا يعيش فيها إلا الجمل، ويقومون برحلات سريعة تستغرق أياما عدة، إذا دعت الحاجة، في صحراء خالية من الماء. والجمال يأكل الأعشاب والعواشب في الصحراء، مما تنفّر منه حتى الأغنام والماعز^(١).

والجمال يخزن الطعام دهنا في سنامه، فقلت مؤنثته وأصبح رغم عظيم فوائده من أقل الحيوان كلفة وأكثر عطاء ثم ان الجمل يعطي الإنسان أضعاف ما يعطيه غيره فهو غزير اللبن، تعطي اللبن منه قدر ما تعطيه البقرة الحلوب، ولبنه دسم كثير الغذاء، وأهل البادية يكتفون بشربة منه مع قليل من التمر فيكفيهم ذلك عامة اليوم.

ويعطي الجمل صوفاً وافراً يقدر بخمسة عشر إلى عشرين كيلو غراما في السنة يتفصه عن جسمه نفصاً، وهذا الصوف لين لطيف الملمس، يغزل ثم ينسج فيكون منه نسيج صوف يصلح للبس وصنع الخيام والبسط. فإذا كان لدى البيت البدوي عشرة من الأبل كان له منها نصف طعامه وعامة حاجته من بيوت الشعر، وكل حاجته من المنس.

وفي السيرة النبوية ما يفيد ان الجمل الواحد اذا ذبح أعطى اللحم اللازم لمئة من الناس في اليوم، إلى جانب القليل من اللبن والتمر.

وقد أثبتت الأبحاث ان الجمل أكثر الحيوان احتمالا للألم الجسماني، فإن غدته النخامية تفرز شيئاً يساعد على احتمال الألم، فالاجهاد يبلغ بالجمال اشد مبالغ ومع ذلك فهو يحتمل ويواصل السير، وخفه تتعاضده الصخور وتدميه وهو يسير، ويدركه النوم وهو سائر بحمله ويفقه وهو يسير، فإذا حبل شرب الماء الأجاج ومد رأسه على الرمل، وأخذ يجتر طعامه ونام ملء عينيه^(٢).

وكمية الماء في دم الجمل هي نسبيا نفس الكمية التي في دم الإنسان أي ١٢/١ من الماء الموجود في الجسم، ولكن اذا أضاع الجمل ربع وزن جسمه بسبب التبخر فلا يضيع حينئذ من ماء دمه الا العشر، بينما يضيع الإنسان في هذه الحال ثلث الماء الذي في دمه فيصبح دمه غليظا وبطيء الدوران في الأوعية الشعرية فيعجز عندئذ عن نقل الحرارة المتزايدة من داخل الجسم إلى الجسد، فترتفع الحرارة داخل الجسم ويموت المرء من ضربة الحرارة، يستطيع الجمل ان يتحمل قلة الماء في جسمه لأن التبخر فيه اقل منه عند الإنسان، ففي الإنسان يبدأ التعرق حين ترتفع الحرارة الخارجية أكثر من حرارة جسمه التي هي ٣٦.٥ درجة وذلك لمنع ارتفاع الحرارة داخل الجسم، لكن التعرق (التبخر) يحتاج إلى الماء بل إلى نسبة كبيرة منه. أما في الجمل فترتفع حرارة جسمه إلى ٤٠ وابتداء من هذه الدرجة فقط يبدأ الجمل بالتعرق، وهذا يحفظ له كثيرا من الماء في جسمه. وتهبط حرارة الجمل في الليالي شديدة البرودة في الصحراء إلى ٣٤. وهذا التبدل اليومي في الحرارة ويبلغ مقداره ست درجات (من ٣٤ إلى ٤٠) يجعل جسم الجمل يحتاج إلى وقت أطول في الصباح وعند الظهر (حين ترتفع حرارة الجو) كي يصل جسمه إلى (درجة ٤٠) التي هي درجة الحرارة التي يبدأ فيها التعرق عنده (وبذلك يكون تعرقه اقل بكثير مما عند الإنسان وغيره). وهذا

التبدل في حرارة جسم الجمل يحدث في الصيف فقط، أما في الشتاء وفي منطقة البحر المتوسط،
فالتبدل اقل.

يخزن الجمل مقدارا كبيرا من الماء في جسمه (معدته وأمعائه) لكنها تختلط بمواد أخرى
ولا تعود ذات فائدة للشرب وإن كان الجمل قادرا على الاستفادة منها لنفسه. وهذا يجعل ما تردد
من أن خالد بن الوليد أو غيره لجأ في حالة الضرورة القصوى إلى ذبح الجمل وشرب الماء الذي
يحتفظ به أو سقايته لحيوانات أخرى وهما من الأوهام.

يستطيع الجمل أن يشرب ٣٠ جالونا (الجالون البريطاني يعادل ٥٤٦,٤ لتر) (٣٠ × ٥٤٦,٤ =
١٦٣٨,١٢٦ لتر) من الماء دفعة واحدة. ويمكن أن يسير سبعة عشر يوما دون أن يتذوق الماء في جو ترتفع فيه
درجة الحرارة: إلى ١٠٠ فهرنهايت (٧,٣٧) وإن يكتفي بالقليل من الأعشاب، وذلك بفضل تموج حرارة
جسمه التي تزاحج بين ٣٤ و٤٠,٧ درجة فإن تعرقه قليل جدا. ولكنه إذا قضى أسبوعا بدون شرب فإنه
يضيع أكثر من ٢٠٠ رطل. ويحتاج إلى حوالي ٢٥ جالونا من الماء (حوالي ١١٤ لتر) وإلى طعام وثير،
وإلى راحة طويلة كي يسترجع قوته^(٢). وإذا كان البدو لا يبدلون لإبلهم الاهتمام الذي يبذلونه لخيولهم،
فأنهم شغلوا على الدوام ومنذ القديم، بالبحث عن المراعي وموارد الحياة لجمالهم، وكثيرا ما أدى هذا إلى
النزاع بينهم^(٣) (دائرة المعارف الإسلامية مادة 'إبل' بالانكليزية).

وفي الطبري: أنه في حصار كمرجه (قرية من قرى الصفد) يقال أنهم لم يسقوا إبلهم
خمس وثلاثين يوما^(٤). وهذا مبالغ بلا شك.

وفي أحد المرات سار أحد الجمال المدربين وعلى ظهره راكبه ثمانين كيلو مترا في اليوم
وقطع أربعمائة كيلو مترات في خمسة أيام، ولكن هذا جرى في الشتاء، حين لم يكن الطقس
حارا. وحين كانت النباتات التي يتغذى عليها الجمل لاتزال خضراء نوعا ما وتحتوي على الماء^(٥).
تتراوح سرعة الإبل المهرية (وهي سلالة عداة نبيلة من أفريقيا الشمالية (دائرة معارف الحيوان
السابقة الذكر) بين ٥-١٢ ميلا في الساعة، ويمكن أن تقطع ٩٠ ميلا في اليوم ولكن يجب أن ترتاح
بعد ذلك^(٦).

والنجائب تسبق الخيل، وللجمل المرجول (يقال للراحلة التي ريضت وأدبت: قد أرجلت) غرز
أي ركاب من الجلد وتوضع رقايع لخفافه^(٧) (النجيب: القوي الخفيف السريع)^(٨).

تذكر الكتب روايات عن الرواحل السريعة: فمنارة مثلا قطع على الجمازات المسافة بين
الكوفة ودمشق وذلك عام ١٨٦ هـ في ست أيام لكل من الذهب والإياب^(٩) وحماد الراوية ذهب
من الكوفة إلى دمشق على جمل مهري في اثنتي عشر ليلة ليقابل هشام بن عبد الملك. وأيوب بن
خالد أبو عثمان الجهني الحرائي قدم على البريد من حران إلى دمشق في ثمانية أيام^(١٠). وذهب
إبراهيم ابن هرمة من المدينة على راحلة إلى دمشق في اثنتي عشرة ليلة^(١١).

أما جمل الثقل (الحمل) فيسير بسرعة ٢٥-٣ أميال في الساعة، ويقطع ١٥-٢٠ ميلا في
المرحلة مع حمل متوسط (دائرة المعارف الإسلامية 'إبل').

يقطع الجمل المسافات الطويلة بسرعة تزيد على ثلاثة أمثال السرعة التي يقطعها الجواد، وقد
يحمل الجمل في القافلة على ظهره ما يعادل ٢٠٠ كغ. (أما الجواد فإن ما يحمله لا يزيد على ١٥٠
كغ)^(١٢). وقد يحمل ٦٠٠-٦٥٠ ليبرة في البلاد الحارة، وفي الباردة يحمل حتى ١٠٠٠ ليبرة^(١٣). والليبرة
٤٥٣ غرام أي أنه يحمل في البلاد الحارة من ١٩٦-٢١٢ كغ وفي البلاد الباردة ٢٢٧ كغ.

وإذا تسابقت الجمال والخيول فإن الخيول تسبق في المسافات القصيرة ولكن الجمال تسبق
في المسافات التي يتطلب قطعها عدة أيام^(١٤).

يمكن القول ان الجزيرة العربية لم تربي سلالات من الجمال للنقل والركوب في الأراضي المنخفضة فحسب، بل ريت أيضا سلالات من الجمال الجبلية تستطيع السير في المسالك الوعرة كما هي الحال في عسير او حضرموت (دائرة المعارف الإسلامية مادة بدو).

كانت بلغ مشهورة بالجمال ذات السنامين، وهي المسماة بالجمال البخت، وهي افضل من كل ما عداها. وكان يجلب من السند الفالج... الذي يولد البختاني وله سنامان، وهو اعظم من البخت، لا يستعمل ولا يملكه الا الملوك. والبختاني والجمازات السريعة الجري تولد من المزوجة بين هذه الفوالج البلخية وبين النوق العربية، لكن هذه البختاني والجمازات تظل عقيمة^(١٦).

ومن اجمل ما قرأت من الجمل ورفعة قدره عند المسلمين واعتراضهم بفضله وعظيم فائدته لهم ان الأصمعي احضر إلى الرشيد ليلا لينشده ما يحب الرشيد ان يسمعه. وكان معه في المجلس افضل بن يحيى البرمكي فأنشده قصيدة للشاعر الذي يمدح بها المنصور. يصف في بدايتها الجمل فأطال فيه الأصمعي فقال له الفضل: مالك تطبق علينا كل ما اتبع لنا من مساعدة السهر في ليلتنا هذه بذكر جمل اجري؟ جز إلى امتداح المنصور حتى تأتي على آخره. فقال الرشيد: اسكت! الجمال هي التي أخرجتك من دارك، وأزعجتك من قرائك، وسلبت من تاج ملكك، ثم ماتت، فعمل جلودها سياطا يضرب بها قومك ضرب العبيد! ثم قهقه وقال: لا تدع نفسك والتعرض لما تكره. فقال الفضل: لقد عوقبت على غير ذنب، والحمد لله! قال الرشيد: اخطأت في كلامك يرحمك الله. لو قلت: واستغفر الله! قلت صوابا! إنما يحمد الله على النعم^(١٧).

ولابد من ذكر بعض الشروحات المفيدة: الأباغر: مفردها بعير، وهو ما صلح للركوب والحمل من الإبل، ويقال للجمل والناقة، الحلس: كل ما ولي ظهر اندبة تحت الرحل. القيب والسرج، الجلال: مفرده الجل: ما تغطي به الدابة لتصان. العهن: الصوف المطبوع الوان، التطةعة منه عهنة.

الحصان

يعتبر الحصان العربي من افضل صنوف الخيل وأكثرها امتيازاً، فهو إلى جمال هيئته يمتاز بذكاء لا بأس به. وإذا كانت الخيل تعتبر رابعة في الذكاء في عالم الحيوان بعد الفيلة والقروود والكلاب. فإن الحصان العربي يختلف مستواه من الذكاء بحسب استعماله، فهو اذا احسن استعماله وعومل برفق ومحبة واحترام شحذ ذكاؤه، وأصبح من اعون الحيوان للإنسان، فهو يتعرف من تلقاء نفسه على مواقع ائاء باطنه وظاهره بغريزة صافية وهو مطواع لصاحبه شديد التعلق به، وإذا احسن تدريبه اقتحم النار والماء وقفز من حائق دون تردد. وقد كان العربي الجاهلي من احسن الناس معاملة للخيل ومحبة لها وحديبا عليها وعناية بها، ولهذا وصف الحصان العربي في الجاهلية بأرفع الصور، لأنه كان صديق صاحبه ورفيقه، واكبر معين له في الحياة ويكفي ان رسول الله جعل نصيب الفارس من الغنيمة ثلاث مرات قدر الراجل. واحد للفارس نفسه، وواحد لطعام الحصان، وثالث للعناية به.

وهذا الحصان العربي شريك بحق النصف في الفتوح العربية، فمعظم انتصارات المسلمين يرجع الفضل فيها إلى أنهم كانوا ركباناً يحسنون معاملة الخيل وقيادتها والعناية بها^(١٨). وقيل: اذكى الحيوانات أربعة: الفيل والقرد والكلب والحصان العربي إذا أشرف صاحبه على تربيته وأحسن معاملته (وهو أمر أجاده امراء العرب ورؤسائهم) وهذا الحصان يخلص لصاحبه ويحسن طاعته ويفتيده بنفسه عند اللزوم.

البغال

كان ديوان البريد يستخدم البغال إلى جانب الخيل والإبل. ولم يستتف من ركوبها رجال ونسوة من الوجوه ذوي الحسب، على الرغم من شموسها وعنادها، وذلك لأن استواء مشيتها

وثباتها يجعلانها من الدواب الأثيرة^(١٩). وكانت أم الحكم الأموية تطوف على بغلة^(٢٠). وكان معاوية ثلاثون بغلة تحج عليها نساؤه وجواريه^(٢١) وقد حجت عائشة بنت طلحة على بغلاتها^(٢٢). ولم يكن في عسكر يعقوب الصفار بغال لأنها ان تركت لا ترعى وحدها^(٢٣).

الحمار

كان يستخدم داخل المدن وفي السفر. وقد ركب عبيد الله بن زياد حين ثقل عليه ركوب الإبل^(٢٤) وركبه سعد بن أبي وقاص^(٢٥) والهادي^(٢٦) والرشيد^(٢٧) وكان في عسكر يعقوب الصفار حمير شهب كالبلغال^(٢٨). وهو أيضا من حيوانات الصحراء، ويستطيع خلافا للإنسان ان يحتمل فقد ربع وزن جسمه بنقص المياه، ومع ذلك فإنه يفقد ماء جسمه بأسرع مما يفعله الجمل بثلاث مرات. يتحمل الجمل في لهيب الصحراء ان يبقى بلا ماء، سبعة عشر يوما، لكن الحمار يحتاج إلى ان يشرب كل أربعة أيام. وتتبدل حرارة جسمه أكثر من الإنسان ولكن أقل من الجمل.

يتفوق الحمار على الجمل في مسألة واحدة. يفقد الجمل ١٢٥ لترا من الماء فيعوض في عشر دقائق ما أضاعه من الوزن في جسمه، بينما يستطيع الحمار ان يعوض عن ربع وزن جسمه في دقيقتين فقط. ويعوض الإنسان بعد يوم في حرارة العراء عما فقدته من وزن بعد بضع ساعات من شرب الماء، ويضطر غالبا إلى ان يتناول الطعام بعد ذلك. يدافع الحمار عن نفسه بحوافره، وهو أقل الحيوانات استهلاكا للطعام بالنسبة لحجم عمله، ويكفيه الحشيش والتبن، وهو مقاوم شديد للمرض، وكان حليبه يستعمل للأطفال والمرضى، وكان جلده يستخدم لعمل الرق (للكتاب)، وهو يعمل جيدا في شيخوخته التي تزيد عن الأربعين^(٢٩).

قال الثعالبي: حمير مصر موصوفة بحسن المنظر وكرم المخير. وتختص مصر بالحمير التي لا تخرج البلدان أمثالها. وكان الخلفاء لا يركبون إلا حمير مصر في دورهم وبساتينهم. وهناك حمير شهب (ضخمة) كالبلغال وهي الحمير المعروفة بالصغارية (نسبة إلى يعقوب الصفار) تحمل الأثقال عوضا عن البغال (مروج الذهب للمسعودي ١١٨/٤).

وكان في جيش الصفار خمسة آلاف جمل بخت (سنامين) واضعاف عددها حمير شهب كالبلغال. وكان للخلفاء مراكب كثيرة، ولكل منها سائس، ومن بين ذلك البراذين والخيل والبغال^(٣٠). وفي بغداد كانت الحمير (في القرن الرابع الهجري) للتجار والقضاة والفقهاء، والخيل للوزراء والقواد^(٣١) (نشوار المحاضرة ٧٩١/٣). ولهذه القاعدة شواذ كثيرة فقد يركب الخليفة حمارا كما تقدم.

١- تجميل حيوانات الركوب

تفنن القادرون في تجميل خيولهم وإبلهم، ونجد في كتاب الأغاني وغيره كثيرا من زينة هذه الحيوانات مثل: نجيب عمر بن أبي ربيعة: مخضوب بالحناء، مشهر الرجل بقراب مذهب^(٣٢) (الرجل: مركب للبعير والناقة. مشهر: الشهرة: ظهور الشيء في سعة حتى يشهره الناس. قراب: أشبه بالجراب من آدم، يضع الراكب فيه سيفه، بجفنه، وسوطه وعصاه وأداته. وقد يطرح فيه زاده من تمر وغيره). فرس ادهم غير محجل في عنقه طوق ذهب^(٣٣)، فرس ادهم عليه سرج حليه ذهب^(٣٤)، وكسا جملة^(٣٥). ودعا عبد الله بن طاهر بصاحب دوابه فأمره بإحضار خمسة مراكب من الخيل الهماليج (مفرده همالج وهو من البراذين، الحسن السير في سرعة ويختره) بسروجها ولجمها المحلاة، وبثلاث دواب من دواب الشاكرية، وخمسة أبغل من بغال النقل (الحمولة)^(٣٦)... وذلك لينعم بها (أي ليمنعها).

٢- دور الجمل والخيل في الفتوحات العربية المبكرة دراسات قدس / ٣/ ص ١٢٥

١) سرعة السعاة على الجمال

ان أسرع الزاحفين هم السعاة الذين لا تعوق حركتهم الامتعة والنساء والأطفال. كانت الرحلة من مكة إلى المدينة (تفوق ٢٥٠ ميلا) تستغرق ٣ - ٤ أيام، ويقال ان رحلة المشى بن الحارثة من المدينة إلى الحيرة (٦٧٠ ميلا تقريبا) استغرقت عشرة أيام.

وتتوافق هذه الأرقام إلى حد كبير مع تلك التي يضعها الكتاب المعاصرون، سافر Thesinger ٤٥٠ ميلا في ٩ أيام وساعتين على بعيرين.

A. Muail استغرقت مسافة ٩٤ ميلا في ٢٤ ساعة (يوما واحدا)

A. Muail رجل يمتطي جملا اجتاز مسافة ١٦٠ ميلا استغرقت من شروق الشمس

حتى غروبها (ثم نام الليل وفي اليوم التالي استغرقت العودة من شروق الشمس وحتى غروبها).

يقول Daugthy دوتي: ان ذلولا جملا يمكن امتطاؤه في حالة جيدة يجتاز ٧٠ ميلا في اليوم اذا

كانت الأسفار قصيرة ويمكنه اجتياز من ٦٠ - ٦٥ ميلا في اليوم لمدة اسبوع و ٥٠ ميلا في اليوم لمدة

أسبوعين، ويمكننا الافتراض بأن سرعة السعاة أيام الغزو كانت مماثلة لهذه التقديرات، أي ان الخيال

يمكنه ان يجتاز ١٠٠ ميلا في اليوم الواحد و ٤٠٠ ميلا في أسبوع و ٧٠٠ ميلا في أسبوعين.

(٢) سرعة الفرق المغيرة

تكون سرعة الفرق المغيرة أبطأ من السعاة. فقد كانت سرعة الانتقال من تبولك واليهما

وسرعة أسامة من البلقاء واليهما حوالي ٤٠ ميلا في اليوم.

وكانت سرعة تقدم خالد بن الوليد بين قراقرز وسول مع انقطاع الماء ٢٥ ميلا في اليوم.

وكانت رحلة سعد بن أبي وقاص هو وجنوده إلى القادسية مع الأهل والتجنيد والتباطؤ ٢٠ ميلا

في النهار (دراسات قدس ١٢٥/٣، دراسات تاريخية ٣٩٤/٧ د. نبية عاقل).

(٣) العجل والمركبات

عرف العرب العجل، فقد اهدى عمرو بن الليث الصفار للمعتضد عام ثلاث وثمانين ومائتين

صنما من صفر (النحاس الاصفر)، نقل على عجل قد عمل على مقداره (أي على قياسه) تجره

الجمال^(١٠) وانتقلت الفتيات المسيحيات من الرها إلى دير زكي (في الرقة) للمشاركة في عيد

الصليب في عجل على الشهاري (الشهرية: ضرب من الخراسانية)^(١١). وكان تموين طاغية الروم

في معركة طوانة على العجل تحمل الأسواق والطعام^(١٢).

وجمع عبد الملك بن صالح لدى إعادة بناء الحدث من قبل الرشيد الذي عرية^(١٣) وفي عام

٢٢٢ هـ أسر العرب تسع عربات تحمل سكان انقرة^(١٤) وفي حرب يزيد بن عبد الملك الجراح مع

الخزر في حصن تيلنجر (مدينة ببلاد الخزر خلف باب الابواب)، جعل الخزر حول حصنهم

ثلاثمائة عجلة شدوا بعضها إلى بعض ليحتموا بها، وتمنع المسلمين من الوصول إلى الحصن...

لكن المسلمين استطاعوا قطع الحبل الذي يمسكها، وجذبوها^(١٥).

لكن العرب لم يعتمدوا على العجل في تنقلاتهم واحمالهم وان ترك ذلك حرا يعتمد عليه من يريد.

(٤) الهوادج والرواحل

استعاض العرب عن السفر بالعجل باستخدام ما يدعى 'الهوادج' أو 'الرواحل' أو 'العماريات' أو

'القباب' أو 'المحامل' تثبت على النجائب أو الجمازات أو البغال أو حتى الحمير، ويركب في كل منها

شخصان، واحد في كل طرف، وبذلك تتاح لهما الراحة التامة، إذ يكونان بعيدين عن ملامسة ظهر

الحيوان، ويتمتع كل منهما بالمناومة الملائمة، ويدعى كل من الشخصين 'مزامن' أو 'معاذل'^(١٦) فمثلا خرج

ابو جعفر المنصور في شق محمل معادله الربيع (هو: الربيع بن يونس حاجب المنصور) في شقه الايمن

على بغله شقراء^(١٧) وحج المهدي اربع حجات كان مزامله فيها محمد بن أمية^(١٨). (الاغانى ٢١٨/٢٣).

وولى عيسى بن جعفر (ابن أبي جعفر المنصور) للرشيد (ابن أخيه) أعمال البصرة وكور

دجلة والاهواز واليمامة والبحرين والسند. وكان أليف الرشيد وأنيسه وعديله إذا ركب جملا أو

بغلا عليه قبة، وكان جسيما إذا ركب مع الرشيد ثقلت ناحية الرشيد بحجر أو بمثقلات

رصاص^(١٩). وقد دخل الرشيد مدينة الرقة وهو في قبة على ناقة.

وكان الفتح بن خاقان يزامل المتوكل^(٧٠) وقد حج الفضل بن الربيع مع الرشيد في اليهودج^(٧١). وكان ابراهيم بن هرمة قد سكر فطرح في شق المحمل وعادلتها امرأته^(٧٢). ولما ولي ابراهيم بن المهدي دمشق سافر إليها على حمارة ، وكان عديله عليها عبيدة بن أشعب ، وقد نام ابراهيم عليها^(٧٣) والأمثلة على ذلك كثيرة.

ولزاملة الخليفة شروط ، وهناك قصة طريفة جرت للمعتصم حين أراد أن يزامل علي بن الجنيد الاسكافي^(٧٤).

٥) المكاري والاكترء

كان من الممكن اكترء حيوانات النقل داخل المدينة (بدون مكاري) أو للسفر الطويل (مع المكاري). فكان الأقيشر يكتري بغلة أبي المضء المكاري إلى الخمارين بالحيرة^(٧٥). وكان عمر بن أبي ربيعة يكتري راحلتين من قوم لم تكن تفارقهم نجائب لهم^(٧٦). وكان دهمان المغني جمالا يكري إلى المواضع ويتجر، وله خمسة عشر جملا ومعه أكرياء (مكارية)^(٧٧). وكان في بغداد مكان لكراء الجمال إلى الرقة^(٧٨). وكان مثل ذلك في الرقة أيضا.

٦) القوافل

كانت القوافل تسير بين المدن بأنواع المسافرين من تجار وحجاج وعلماء وطلبة علم ورحالة ومهاجرين وأنواع من الخدم والباعة. وكانت تنتقل دوما تحت حماية من أمير المنطقة أو المتنفذ فيها، وتدفع القافلة المكوس المفروضة. وكانت في الصحاري تسير في ظل تحالف قبلي معين يتقاضى أجرته، ويقدم الأدلاء أو يدفع الاتاوات، وكان للقوافل كما للمراكب نقاط عبور محدودة إلى كل بلد، ورجال مكوس قد يبالغون في تفتيش المسافرين حتى درجة الإحراج، فللدخول ضرائب، وللخروج ضرائب أخرى، وعلى البيع والشراء ضرائب ثالثة. وقد يشكو المسافرون مر الشكوى من سوء المعاملة، وقد يعمدون حسب ظروف الحكام^(٧٩).

وكانت قوافل الجمال تستخدم في الأراضي السهلية المفتوحة والصحاري، وتستخدم البغال والحمير في النواحي الجبلية، وأندر من ذلك استخدام الجمال.

ومن أقدم القوافل: قوافل طريق الحرير الذي يمتد من الصين حتى آسيا الغربية والجنوبية، وينقل بواسطتها مختلف المنتوجات^(٨٠). وكانت الجمال تربط بجبل جملا وراء جمل، وتسير على شكل رتل يدعى 'قطار' مؤلف من ١٠-٢٠ جملا ويسير أمامها حمار يقودها^(٨١). وكان في القافلة مسلحون، سواء من الغلمان أو من التجار أو من حمالي القافلة وذلك للدفاع عن أنفسهم، ومع ذلك فكانوا يدفعون مالا للخفراء الأعراب الذين يتألفون من عدة من أحياء العرب، وكان هؤلاء الخفراء يتواطؤون أحيانا مع أهلهم في البادية للإيقاع بالقافلة^(٨٢). وقد يصل عدد المقاتلين في القافلة إلى نحو مائتي مقاتل، وعدد الأعراب (المعتدين) إلى نحو مائتين أيضا، وتتعرض القافلة إلى الهجوم عليها في البرية بعيداً عن المدن، كما حدث في قافلة متوجهة إلى الرقة، زمن المتقي بالله عام ٢٢٢هـ، ومعهم الخفراء والغلمان، فتعرض لهم الأعراب بعد أربعة أيام من سيرهم، فقتلوا عليهم وسلبوهم كل ما معهم وتركوهم مطرحين في الشمس^(٨٣). وبالإضافة إلى الأعراب هناك سلال الطريق الذين يتعقبون القوافل ويتخطفون من أطرافها ما يتمكنون من سرقة من مواد غفل عنها أصحابها^(٨٤).

وقد حج مسرور الكبير الخادم في عام ١٩٩هـ في مائتي فارس من أصحابه^(٨٥). وكان في القافلة الهوداج والرواحل والبغال والحدادة^(٨٦). وكانت القافلة لطولها لا يدرك طرفها، ويظهر أن أفرادها يسرون كل حسب طاقته وحسب ما يكون راجلا أم راكبا أم مع النقل، ولكنهم يلتقون ثانية في المنزل التالية أو الخان^(٨٧) كما كانت توجد في الطريق أديرة أيضا.

القوم حين تخرج من المدينة تنصب فيها ستارة وتشدو فيها أصوات المغنين^(١٣٠). وكانت حراقة الكبير من العباسيين تربط إلى جانب قصره لأن قصره يكون غالباً مبنياً على ضفة النهر^(١٣١). وكان الحسن بن مخلد ينتقل من سامراء إلى بغداد هو وجرمه في الحراقة وينقل الثقل الذي لا قيمة له من خيش وأسرة وآلة مطبخ في الزوارق^(١٣٢). وكان للوجهاء حراريق، مثل: طاهر بن الحسين^(١٣٣) وأبراهيم ابن المهدي^(١٣٤)، وغيرهم كثير. قال الحسن بن رجاء: كنا مع أمير المؤمنين المعتصم بالرقعة، فجاء أبو تمام (الشاعر) وأنا في حراقتي^(١٣٥). وكان لبعضهم حراقات خصصوها للحرم فطلوها وجعلوا ملاحياها من الخصيان البيض^(١٣٦). وصنع الأميين خمس حراقات في دجلة جعلها على صورة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس^(١٣٧).

وقد تستعين الحراقات بالمجاديف أيضاً^(١٣٨).

وكانت تعبير الفرات السفن الصغيرة والأرماث (الرمث: الطوف) وهو خشب يشد بعضه إلى بعض ويركب في البحر) مثل الأكلاك (كلك: مركب يستخدم على الأنهار ويعرف بالطوف أو الرمث. وغالباً ما يكون من جلود منفوخة)^(١٣٩) والشخاير^(١٤٠)، كما تعبّر الحراقات والقراقير وخاصة في الملاحة النازلة ومن سفن الفرات الزو وهي سفينة عظيمة أشار إليها البحري في شعره عدة مرات منها في ديوانه ١٠٥٣ وشبهها بقصر على ظهر لجة. وفيها جلس الرشيد في عودته من الحج عام ١٨٧هـ حين استقلها في الفرات حتى العمر في ناحية الأنبار (الطبري) وفي عام ٢٥١هـ وافت بغداد سفن من الرقة فيها دقيق، واطواف فيها زيت وغير ذلك. وتأتي الأكلاك أيضاً إلى بغداد، في الفرات، من أرمينية واذربيجان فما بعد ومن الروم والشام^(١٤١).

وفي بغداد نهر عيسى الأعظم الذي يأخذ من معظم الفرات تدخل فيه السفن العظام التي تأتي من الرقة ويحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر تصير إلى فرضة (ميناء) عليها الأسواق وحوانيت التجار لا تقطع في وقت من الاوقات^(١٤٢) ومثل هذه الفرض على النهر لا بد وأنها موجودة على الفرات في الرقة، وعليها الأسواق والحوانيت، لنقل التجارات أو انزالها وحفظها. وكان طوف عظيم من الحطب يجري في الفرات^(١٤٣).

وكانت البضائع التي تنقل بكميات كبيرة على نهر الفرات هي خشب البناء من جبال أرمينية وزيت الزيتون من الشام، وكان الخشب والزيت ينحدران في النهر على أخشاب تحملها أكلاك واطواف. وكان الرمان يحمل على الفرات أيضاً في مراكب كبيرة تسمى القراقير ويبلغ عرض الواحدة منها ستة عشر ذراعاً إلى عشرين ذراعاً. وقد شبهها هيرودوت منذ العصر القديم وكذلك ليفيوس Livius بمرابك البحر الأبيض المتوسط، وذلك لكبرها^(١٤٤).

ومما يجدر ذكره أنه لم يكن يسمح للسفينة بالنزول إلى النهر إلا بإجازة من الخليفة^(١٤٥).

وكان الفرات نهر يضرب به الأمثال، فقد قال الأعشى الشاعر المخضرم^(١٤٦):

مثل الفرات إذا طمأ يقذف بالبوصي والمهاجر

طما البحر: ارتفع ماؤه. البوصي: السفني وهو كذلك الملاح. المهاجر السابح، أي أن النهر قادر إذا ارتفع ماؤه أن يغرق الملاح والسباح المهاجر.

ويذكر الاخطل^(١٤٨) القراقير (السفن العظيمة) في الفرات، وكأنها نعام يتبع بعضه بعضاً وتدفعا أمواج النهر بحيث تذهب بعقل الملاح وأن كان حاذقاً.

ويصف صريع الفواني^(١٤٩): أنه ركب الفرات وهو ملتطم الامواج، وأن حيتانه (سمكه) مشبعة من غريق تأكله الحيتان يومياً ومركب ينكسر فيه كل يوم. والسفينة التي ركبها جعل الماء فيها خطوطاً من الخضرة، وفي صدرها بياض (أن أصحاب السفائن يجعلون في صدر السفينة شيئاً أبيض إما

جيرا أو محارا أبيض، وفي مقدمة السفينة مقعد الريان الذي يشبه رأس ثور وحشي. والنوتي يحاذر أن تلتطم سفينته بالصخور تحت الماء، وفي السفينة مجذافان، فضلا عن رجل المركب وهو مجذاف يقود السفينة. وبقي صريع الغواني في هذه السفينة في الفرات حتى وصل إلى ممدوحه نحو عشرة أيام. ويذكر أن الموج كسا السفينة في جنباتها أردية خضراء من طحلب.

ويصف البحري السفينة التي حملته في الفرات بأنها كالناقة وأنها مظللة بالقار الأسود وقد أخضر لطول مكثها بالماء، وأن لها أربعة مجاذيف وقائم للشرع^(١٥٠). وقريب من ذلك وصف أعرابي من طيء خاف أهوال الفرات^(١٥١).

أما الصنوبري فيصف سفن الفرات بأنها كالطير من خشب وقار، ولها قوائم النسر المطار^(١٥٢) كما يصف زواريقا ليس لها قير ولا مسأمر^(١٥٣)، أي أن اجزاءها مربوطة بالحبال لا بالمسأمر. ويقول عن سفن الفرات أنها كالطير حين تهوي، وأنها تتطارد مقبلات مدبرات:

ويا سفن الفرات بحيث تهوي هوي الطير بين الجاهتين
تطارد مقبلات مدبرات على عجل تطارد عسكريين^(١٥٤)

الجله: إحدى حافتي جانب الوادي (بمنزلة الشط).

وكان الرشيد يعجب بغناء الملاحين في الزلاجات إذا ركبها، ويتأذى من فساد كلامهم ولحنهم، وكان للملاح نوبة لدى الخليفة.

وكان هناك نوع خاص طريق (تجاري) هام آخر (أي: غير الطريق الساحلي) ذلك هو مجرى نهر الفرات الصائح للملاحة من الخليج الفارسي حتى مسافة صغيرة من البحر المتوسط. وأبداء من مدينتي البصرة وبغداد (وكانت بغداد متصلة بنهر الفرات بواسطة قناة) كان ثمة حركة متصلة لنقل البضائع، تصعد النهر، أو تتبع طريقا للقوافل بمحاذاة ضفاف النهر. ويذكر قدامى الجغرافيين العرب على هذا الطريق موقعين هامين: الرقة وبالس. أما الرقة فكان اسمها كيلينيكوم وكانت من الأماكن التي كان الرومان يشترون عندها الحرير من الفرس. واستمرت هذه المدينة مزدهرة تحت السيادة العربية وبخاصة في العصر العباسي (الاصطخري) بفضل العديد من العلاقات التي كانت تربطها، ليس فقط على طول نهر الفرات، ولكن أيضا في الشمال الشرقي مع نصيبين والموصل، وفي الجنوب الغربي مع دمشق. أما بلدة بالس فأنها كانت على بعد يومين سيرا على الاقدام من الرقة ويصنفها الجغرافي العربي الاصطخري بأنها 'ميناء السوريين'^(١٥٦).

وكانت البضائع التي تنقل بكميات كبيرة على نهر الفرات هي الخشب من جبال أومينيا وزيت الزيتون من الشام، وكان الخشب والزيت ينحدران في النهر على أخشاب تحملها واطواف. وكان الرمان يحمل على الفرات أيضا في مراكب كبيرة تسمى القراقير، وبلغ عرض الواحدة منها ستة عشر ذراعا إلى عشرين وقد شبهها (أي شبه القراقير) هيرودوت منذ العصر القديم وكذلك ليفيوس Livius بمراكب البحر الأبيض المتوسط، وذلك لكبرها^(١٥٧).

وفي منتصف القرن الرابع الهجري كتب ابن حوقل عن الرقة والرافقة وكانت خصبة، رخصة الاسعار، حسنة الأسواق^(١٥٨).

وفي القرن السادس الهجري كتب الادريسي (٤٩٣ - ٥٦٠ هـ) وكانت الرقة في عهده وقد خربت، وبقيت الرافقة فأطلق عليها اسم 'الرقة': (والرقة واسطة ديار مضر، مقصد الوارد والصادر، ومعمل التجارات، وهي مدينة حسنة في شرقي الفرات، وبها أسواق ومتاجر وصنائع، وأهلها مياسير، وهي قاعدة ديار مضر^(١٥٩) مما يدل على أنها عادت فازدهرت بعد خمول في عهد الحمدانيين ومن جاء بعدهم هذا اذا صح كلام ابن حوقل عن تأخرها زمن الحمدانيين).

وتقدم في الحديث عن العهد الساساني أنه استعمل نهر الفرات في النقل العسكري وأنه في عام ٥٧٩م هاجم الفرس مدينة الرقة فتصدى لهم الامبراطور موريثيوس الذي أحرق المراكب، المسيرة في نهر الفرات وتتبّع الجيش الفارسي واستعاد مدينة الرقة.

(١) القناطر والجسور

مهما كانت الخدمات التي تؤديها الزوارق في النقل النهري بين جانبي النهر، فإنها لا تكفي للتعويض عن إقامة معابر ثابتة، حيث أن الكلفة العامة للنقل في هذه المعابر أرخص من النقل بالزوارق، وعدد الأيدي العاملة فيها أقل، ثم أنها بتحدد موقعها وثباتها تكون قاعدة لتنظيم المواصلات وحياة الناس وتنقلاتهم.

والمعابر الثابتة التي يتردد ذكرها في المصادر العربية هي إما قناطر أو جسور، فالقنطرة أزج أي بناء طولاني يبنى بالأجر والحجارة على الماء، يعبر عليه (الإنسان)، أما الجسر فيبنى عادة من الخشب على قوارب ضخمة تثبت بسلاسل ويصف عليها ألواح الخشب ليتيسر السير عليها وعبورها^(١٦٠).

وورد وصف مثل هذا الجسر على الوجه التالي: وبين الجانبين جسران منصوبان على دجلة شرقاً بغرب، على سفن وزوارق أوقفت في الماء ومدت بينها السلاسل الحديد المكمية بالمكعبات الثقال، وفوقها الخشب الممدود، وعليها التراب، يمر عليها أهل كل جانب إلى الآخر بالحرر والجمال والحمول (صبح الاعش ٤/٣٣١).

ويبدو أن جسراً مقنطراً على الفرات كان موجوداً شمالي الرقة على بعد نحو ثمانية كيلومترات، حيث تظهر في مجرى الفرات ركيزة ضخمة مرصصة يظن أنها كانت إحدى ركائز الجسر القديم (أبو الفرج العس: الرقة من خلال التاريخ- الحوليات الأثرية مجلد ٧ ص ٥٩). ومما يذكر أن أبا أحمد بن مالك أحرق عام ٢٥١هـ جسر نهر النهروان (الذي يصب في دجلة أسفل المدائن) وكان يتألف من أكثر من عشرين سفينة.

كان الرومان يعبرون الفرات عند نيكيفوريوم (الرقة) أو عند قرقيسيا (موقع البصيرة الحالي عند مصب الخابور في نهر الفرات)^(١٦١). وقد تقدم أنه في عام ٥٤٢ م عبر كسرى (خسرو) الفرات إلى كاليينيكوس (الرقة) على جسر قوارب أقامه^(١٦٢) مما يدل على أنه لم يكن هناك على الفرات جسر بعقود أي مبني على قناطر.

وحين تولى هشام بن عبد الملك الخلافة (١٠٥ - ١٢٥هـ) واتخذ الهني والمري ورقة واسط، بنى جسراً على الفرات^(١٦٣) والظاهر أنه جسر من قوارب ويؤيد ذلك ما يلي:

وحين أنهزم عبد الله بن علي أمام أبي مسلم الخراساني في عام ١٣٧هـ عبر جسر الرقة في طريقه إلى البصرة، وأحرقه بعد عبوره^(١٦٤).

وحين جاء علي بن أبي طالب إلى صفين سار من الأنبار حتى نزل الرقة فعقد له هناك جسر (من القوارب) ذلك في شوال سنة ستة وثلاثين فعبر إلى الشام^(١٦٥).

ويظهر أن أبواب الجسور كانت لا تفتح إلا في أوقات معينة، وتغلق ليلاً كما يستدل من خطبة الحجاج الشهيرة في الكوفة التي منع فيها إغلاق أبواب الجسر ليلاً أو نهاراً^(١٦٦).

(٢) المشاعر والفرص على نهر الفرات

اعتمد السكان في تنقلهم بين الجانبين على الزوارق وذلك نظراً لقلة الجسور. ومن المعلوم أن استعمال السميريات (زوارق العبور) يتطلب وجود مشاعر، وتتطلب المشاعر وجود أماكن منخفضة ومستوية تصلح لوقوف الزوارق بحيث يستطيع الناس الركوب فيها، أو النزول منها بسهولة ويسر وتتوقف أهمية المشرفة على مدى حاجة الناس إلى العبور من منطقة معينة دون

أخرى ، ولذلك تزداد أهمية المزارع في المناطق القريبة من الأسواق . وتكون المزارع عادة متقابلة بين الجانبين ، أي ان كل مزرعة تقابلها أخرى في الجانب الآخر ، ولكن ليس من الضروري أن يكون التقابل تاما أو دائما ، لأن وجود المزرعة يتوقف على طبيعة الشاطئ وعلى مأخذ المسالك العامة .

وإذا كانت المزارع مخصصة للزوارق فيبدو ان 'الفرض' كانت مخصصة للسفن لأن كثيرا من المنتجات كانت تنقل بالنهر وتفرغ في فرض على ضفافه لتوزيعها . ويذكر اليعقوبي (في البلدان ٢٥٠) نهر عيسى الأعظم الذي يأخذ من معظم الفرات تدخل فيه السفن العظام التي تأتي من الرقة ويحمل فيها الرقيق والتجار من الشام ومصر ، فيصير إلى فرضة عليها الأسواق وحوانيت التجار ، لا تنقطع في وقت من الأوقات ، فالأمر لا ينقطع^(١٧٠) (في الطبري حوادث سنة ٢٩١ : وأسرى القرامطة مع غاويهم المسمى نصرا إلى قرية هيت .. فنهب ربيضا ، وقتل وانتهب السفن التي في الفرات في فرضتها^(١٧١) .

٣) المعابر على الفرات

تبدلت النقاط المفضلة لعبور الفرات على ممر العهود :

فالاشوريون كانوا يفضلون عبوره عند تل برسيب (تل الأحمر) .

والإغريق كانوا يفضلون عبوره أحيانا عند زوجما أقاميا (تقع على الفرات فوق البيرة أبيره جك بنحو ١٥ كم) وكانوا يفضلون عبوره أحيانا عند تيباكس (منطقة مسكنة) وقد سلك هذا المعبر ، اسكندر أثناء تعقب دارا الفارسي نحو سهل اردبيل .

أما الرومان فكانوا يعبرونه أحيانا عند نيقيفوريوم (الرقة) ، وأحيانا عند قرقيسيا . (موقع البصرة حاليا عند مصب الخابور في نهر الفرات)^(١٧٢) .

وحين شخص علي بن أبي طالب لمحاربة معاوية في صفين اجتاز في سيره بالمداين ثم اتى الانبار ، وسار حتى نزل الرقة . فعقد له هناك جسر (من القوارب طبعاً) فعبّر إلى الشام^(١٧٣) . وفي القشيري فقرة (١٢٤) أنه حين قدم الزهري واسط الرقة ، عبر اليه (الفرات) سبعة من أهل الرقة .

ويستطيع القادم من منبج ان يجتاز الفرات عند جسر منبج او جسر سنجاء (قلعة النجم فيما بعد) ولا يوجد اثر لهذا الجسر الآن . وكان من الممكن عبور النهر هناك حين يكون مستوى الماء منخفضا ، اما حين يرتفع منسوب المياه ، وذلك في الفترة بين آخر آذار حتى آخر حزيران ، فكان من الواجب الاستعانة بجسر من القوارب أو بمعدية ، لأن تيار الماء يكون شديدا نسبيا حينئذ^(١٧٤) . وتتوفر عند بالس المخاضات لعبور النهر ، لكن أهمية هذا الموقع لا تعود إلى هذا فقط بل وأيضا إلى ان بالس كانت اقرب نقطة على الفرات من حلب وكانت مرفأ نهريا نشيطا جدا لأن الملاحة التجارية تعتمد على مرور السفن بها إلى بغداد^(١٧٥) .

٤- الطرق

الطرق هي شرايين المدن ، ولا يتصل بحثها بالمدن مباشرة ، ولكن بالروابط التي تصل بعض المدن ببعض . واضطراب الطرق كان يهز الأمن التجاري ويدفعه مرة بعد أخرى إلى تغيير الطرق وإلى أن يستبدل بها طرق آمنة . كما جرى للطرق في ثورات القرن الثالث ومصائب القرن الرابع الهجريين^(٣٠) . شادت الإمبراطورية الرومانية في أوجها شبكة من الطرق الجيدة والمتينة لغايات حربية وتجارية ، وامتدت هذه الشبكة من الطرق الجيدة من بريطانيا إلى الفرات ، وكانت تجري في خطوط مستقيمة متغلبة على العقبات على قدر الإمكان ، وتبنى من أربع طبقات من المواد كانت أعلاها شديدة الصلابة محدية السطح لتسمح بتصريف ماء المطر . وكانت الطرق مزودة بالجسور اللازمة ، وعلى رأس كل ميل^(٣١) حجر يدعى 'حجر الميل' Milea Stone ، وعلى رأس كل ١٠ - ١٢ ميلا محطات لتبديل الخيول ، وعلى رأس كل ٢٥ - ٤٠ ميلا منازل للمبيت^(٣٢) .

استعمل الحمار والجمال للجر والنقل منذ ما قبل عام ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وحدثت ثورة في النقل البري حين دخلت قيد الاستعمال المركبة التي تجرها الخيل والثيران. منذ عام ٢٥٠٠ ق.م في وادي دجلة والفرات الأولى. وكانت للمركبات في البلاد عجالات (عبارة عن أقراص خشبية) مصمتة (غير مجوفة)، ثم ظهرت العجلات ذات الأذرع حوالي (١٨٠٠ ق.م) وكانت المركبات تستخدم لنقل الموتى في الجنائز الملكية، وكهربات قتال (عند الهكسوس في غزو مصر عام ١٧٠٠ ق.م) ثم عند شعوب الشرق الأدنى، وكوسائل للنقل. ويتطلب استخدام المركبات طرقاً جيدة ذات مواصفات خاصة كالطرق الرومانية، وذلك خلافاً لحيوانات الركوب^(٣٣).

عرف العرب المركبات منذ البدء كما سيجي، ولكنهم لم يستخدموها على نطاق واسع لا في حروبهم ولا في انتقال جيوشهم أو خلفائهم أو أمرائهم أو حجهم، واعتمدوا على حيوانات النقل لأنها أسهل وأسرع وأخف كلفة (كما سيجي)، ولذلك لم تكن بهم حاجة إلى أن يشيدوا طرقهم على الطريقة الرومانية. ومع ذلك فإنهم لم يقصروا في العناية بالطرق وصيانتها وتزويدها بما يحتاجه المسافر.

كانت الطرق العربية مقسمة إلى أميال وعلى رأس كل ميل حجر يدعى 'ميل' وقد بقيت حتى الآن ثلاثة حجارة أميال من عهد عبد الملك بن مروان عام ٨٦هـ، كانت إحداها (أبعادها ٥٧ × ٣٩ سم) كانت على بعد ٨ أميال من القدس، والثانية أبعادها (٢١ × ٣٩ سم) كانت على بعد ١٠٧ أميال من دمشق، والثالثة أبعادها (٣٠ × ٣٠ سم) كانت على بعد ٧ أميال من القدس^(٣٤). قال ياقوت: الميل: بنية (البنية: كل ما يبنى) ارتفاعها عشر أذرع أو قريب من ذلك وظلها مناسب لطولها^(٣٥).

وكان في العراق أعمدة يستدل بها المسافرون على الطرق، وخاصة أيام الثلج والضباب وتدعى منار (جمع منارة) أو اعلام (جمع علم). وقد بقيت حتى الآن منها علمان لطريق رسول الله ﷺ إلى الصفاء، كي يستهدي بهما الحجاج، وقد أقامهما المهدي على يدي يقطين ابن موسى وإبراهيم بن صالح عام ١٦٧هـ (في مكة)^(٣٦). قال كثير عزة:

سيأتي أمير المؤمنين ودونه صمدان من الصوان مرت ميولها^(٣٧)

الصمدان: ما اشرف من الأرض. الصوان: الحجر المعروف. مكان مرت: قفر لا نبات فيه. الميول: كالأميال جمع ميل، الحجر الذي تقدم ذكره مما يؤيد أن الأميال كانت تبنى على شرف من الأرض.

ويظهر أن هذه الأميال والمنار كانت تحتاج إلى تجديد من وقت لآخر لما تتعرض له من اعتداءات في الطريق ففي عام ١٣٤هـ، أمر (أبو العباس السفاح) بضرب المنار والأميال من الكوفة إلى مكة^(٣٨). وفي عام ١٦١هـ أمر المهدي بتجديد الأميال والبرك، وحضر الركاب مع المصانع، وولى ذلك يقطين بن موسى فلم يزل ذلك إليه إلى سنة ١٧١هـ^(٣٩).

الركبة: البئر تحفر، المصانع: ما يصنعه الناس من الآبار والأبنية وغيرها.

وقيل المصانع: احباس تتخذ للماء (يحتضرها الناس فيملؤها ماء السماء فيمشربونها).

المناهل: المنهل: المشرب ثم كثر ذلك حتى سميت منازل السفار على المياه مناهل. وفي تاريخ العظمي ص ٢٥٣ سنة ٢٢٨هـ وبني الوثائق مناهل طريق مكة وعزم على الحج.

البركة: كالحوض والبركة مستقع الماء. والبركة: شبه حوض يحفر في الأرض لا يجعل له أعضاء فوق صعيد الأرض جمعه برك.

أبو منصور: رأيت العرب يسمون الصهاريج التي سويت بالأجر، وضربت بالنورة في طريق مكة ومن أهلها بركا. قال: والبركة تكون الف ذراع وأقل وأكثر، وأما الحياض التي تسوى لماء السماء ولا تطوى بالأجر فهي الاصناع واحدها صنع^(٤٠).

الميل: منار يبنى للمسافر في انشاء الأرض واشرافها على مقدار مدى البصر من الميل إلى الميل، وكل ثلاثة اميال منها فرسخ. والعلم: المنار. يقال لما يبنى من جواد الطريق من المنازل يستدل بها على الطريق^(٤١). وكانت المنار موجودة حتى في أرمينية في القرن الخامس الهجري^(٤٢).

وكانت صيانة الطرق وإصلاحها تجري بين وقت وآخر من قبل الموكل بها، او عندما يقوم الخليفة أو أحد الكبار برحلة ما فحين حج أبو مسلم الخراساني عام ١٣٦هـ، أصلح في طريقة العقاب وحضر الآبار وسهلت الطرق^(٤٣).

العقاب: جمع مفردة عقبة: المرقى الصعب من الجبال.

وحين حج المنصور، كان في كل منزل نزل به بيت، وللمنازل متول لإصلاحها^(٤٤).

وقد غضب المهدي على عبد الصمد بن علي والي الجزيرة لأنه لم يقيم النزل اللازمة لسفر المهدي إلى الجزيرة^(٤٥).

وفي حج الرشيد: مهد الطريق، وسهلت الاكام، وردمت الخنادق، وجددت المراحل، فكانت المرحلة بريدا أي اثني عشر ميلا (أو أربع فراسخ)، وابتني في كل مرحلة دارا فرشت بالبسط الرهاوية والستائر والاكسية، وفيها حمام، فبنام هناك، ثم يخرج في اليوم التالي إلى المرحلة التالية، وبين المرحلة والمرحلة أربع فراسخ، وعند كل فرسخ فيه مزوقة فيها فرش ممهدة، وأمامها رواق مظلل، وأنواع الطعام والشراب والفاكهة^(٤٦). وقد فعل المتوكل ما يشبه هذا حين سافر إلى دمشق^(٤٧).

وفي سير الجيش يختار أمير المقدمة من يثق به ليسيير في المقدمة لتهيئة المنازل أو الطريق^(٤٨).

وعلى كل فإن العرب اعتمدوا بالدرجة الأولى على الحيوانات في تنقلاتهم، لأنها تستطيع بكل يسر أن تسلك حتى الممرات والمسالك التي سبق أن صنعتها الحيوانات البرية ثم المواشي والأغنام. وإلى جانب هذه المسالك كانت الطرق الرئيسية ويدعى الواحد منها الطريق الأعظم^(٤٩). وعلى الأفراد والجيش في الحالات العادية أن يسيروا فيه، ولا يتوقفوا عادة إلا في المنزلة (المرحلة). وإذا خرج المرء من هذا الطريق الأعظم قيل: بهرج الطريق (أي سلك الطريق الصحيح أو فوز أي أخذ في المفازة)^(٥٠).

وكان هناك خبراء عارفون بالطرق، فحين أراد المعتضد أن يلحق بوصيف خادم بن أبي الساج إلى عين زربة في الثغور للقبض عليه بعد أن تبين أن وصيف هذا حزم أمره على الخروج، احضر المعتضد الركاض الثغريين وأهل الجزيرة فسألهم عن اخصر الطرق إلى عين زربة (بلد بالثغر من نواحي المصبصة) (الطبري ٧٧/١٠، ٧٩ سنة ٢٨٧هـ)^(٥١).

١) ضبط الطرق والبذرة

يعين والي الإقليم أو أميره، على كل طريق هام قائدا لحفظه. ويقيم هذا القائد المسالك على الطريق، ويزيح علل أفرادها بأن يؤمن لهم علوفة خيلهم، ويمدهم بازوادهم وميرتهم حتى لا يحملوا ذلك على أهل البلد، ويقوم أفراد المسالك بإحاطة السابلة (أي أبناء السبيل المختلفين على الطرقات في حوائجهم)، في ذهابهم وعودتهم ويبدرقون القوافل صادرة وواردة، ويحرسون الطريق ليلا ونهارا ويتقصونها غدوا ورواحا، ويقبضون على كل لص وقتل أو صعلوك ضارب، ومخيف لسبيل ومنتهك لحريم، ويعاقبونهم حسب جرمهم ويعيدون أباق العبيد، ويحفظون الضالة أو اللقطة لصاحبها^(٥٢).

البذرقة: الخفارة: يقال بعث السلطان بذرقة مع القافلة^(١٧٨). والبذرقة: الخفارة أو الجماعة تقدم القافلة فتحرسها من العدو^(١٧٩) والبذرقة أو البذرقة كلمة معربة عن الفارسي: (بد-سيء + راه: طريق، أي الطريق الرديء)^(١٨٠). فالبذرقة إذن هي الخفارة التي تقدمها السلطة الرسمية للقوافل الرسمية بالدرجة الأولى كقوافل تموين الجيش مثلاً، أما الخفارة فهي التي تقدمها الأفراد والعشائر للقوافل العادية. ومثال على نظام البذرقة نذكر ما جرى أثناء قتال الأفشين لبابك عام ٢٢٠هـ^(١٨١).

وفي عام ٢٦٥هـ قتلت الاعراب جعلان المعروف بالعيار بدمما (قرية كبيرة على الفرات قرب بغداد عند الفلوجة) وكان خرج لبذرقة قافلة فقتلوه، فوجه السلطان في طلب الذين قتلوه جماعة من الموالي، وكان بندار ومظفر بن سيسل مسلحة على طريق خراسان (الطبري ٣٧٤/٩) عام ٢٥٣هـ وأنظر الطبري ٤٠٥/٩ عام ٢٥٥هـ) وفيه ان محمد بن اوس ولي طريق خراسان عام ٢٥٥هـ. فهرب الاعراب^(١٨٢).

٥- البريد

كلمة 'بريد' من اصل لاتيني أو يوناني وربما آشوري، وتعني 'جواد البريد' وتطلق عادة على مرفق البريد الرسمي والمخابرات في الدول الإسلامية، وتطلق كذلك على 'الطية' و 'الرسول' و 'مرحلة البريد'. وكان نظام الخدمة البريدية الحكومية معروف في عهد الإمبراطوريتين البيزنطية السامانية. وقد نشط ديوان البريد للعمل منذ أيام بني أمية. ويرى البعض ان عبد الملك (ابن مروان) ارسل دعائمه عندما أعاد وضع نظامه الداخلي^(١٨٣). وأول من وضع البريد معاوية بن أبي سفيان^(١٨٤). وكان ولاية البريد في الآفاق كلها يكتبون إلى المنصور أيام خلافته، في كل يوم يسعر القمح والحبوب والأدم (ما يؤكل بالخبز أي شيء كان)، ويسعر كل شيء مأكول، وبكل ما يقضي به القاضي في نواحيهم، وبما يعمل به الوالي وبما يرد بيت المال، وبكل ما حدث صلوا المغرب ويكتبون اليه بما كان في كل ليلة اذا صلوا الغداة^(١٨٥) (ما بين صلاة الصبح وظلوع الشمس). ويكون صاحب البريد (في العاصمة) هو المرجع الذي ترد اليه الكتب الصادرة من جميع النواحي لينفذها إلى ما يجب ان تصل اليه، وهو الذي يتولى عرض كتب اصحاب البريد والأخبار في جميع النواحي على الخليفة، او عمل جوامع لها. ويكون اليه النظر في امر موظفي البريد وانجاز أرزاقهم، وتقليد اصحاب الخرائط في سائر الأمصار^(١٨٦) وإلى جانب الأخبار المتعلقة بمهام سياسة الدولة، كان صاحب البريد ينقل أيضا الأخبار الطريفة مثل 'بغلة وضعت فلوله (مهر)' فاجتمع الناس لذلك وتعجبوا وذلك لان البغلة عقيم لا تلد^(١٨٧) وكان المتوكل ولي ابن الكلبي البريد، وأحفه بالطلاق الا يكتمه أمور نفسه، فكتب اليه يوما ان امرأته خرجت مع حبتها أي 'محبوبتها' في نزهة، وان حبتها عريدت عليها فجرحتها في صدغها^(١٨٨).

ومن الأخبار التي نقلها البريد: الأخبار الرسمية من القسطنطينية زمن عمر بن عبد العزيز^(١٨٩)، ونعي معاوية وإيصاله إلى يزيد بن معاوية بالصائفة^(١٩٠). واهتم البريد بنقل خريطة الموسم (حقيقية اخبار موسم الحج) إلى بغداد بالسلامة^(١٩١) وفي عام ٢٤٧هـ وعلى أثر خلاف في مكة يوم النحر أمر المتوكل بآنفاد خريطة صفراء من بغداد إلى أهل الموسم يعلمهم برؤية هلال ذي الحجة^(١٩٢).

وفي مهام البريد نقل الأمراء والولاة كالرشيد. وولي عهده من الموصل إلى بغداد^(١٩٣) أو الولاة كنقل والي المنصور إلى مقر عمله على سبعة عشر من البرد سنة ٢٣١هـ^(١٩٤) أو من يطلبه الخليفة كحماد الراوية^(١٩٥) وكثير من الكوفة^(١٩٦) ومعبد من المدينة^(١٩٧) والأصمعي إلى الرقة^(١٩٨) وربيعه الرقي من الرقة إلى بغداد^(١٩٩) أو نقل الألفاظ^(٢٠٠) والهدايا. ونقل النجيدات العسكرية اذ طلب سعيد الحرشي من هشام بن عبد الملك حين ثارت قبائل التركمان ببلاد الخزر 'تبعثي على أربعين دابة من دواب البريد، ثم تبعث إلي كل يوم أربعين دابة عليها أربعون رجلاً'^(٢٠١) ويمكن للبريد ان ينقل رهاق شكوى إلى الخليفة، اذ رفع ثابت بن قطنه رقعة بالبريد إلى عبد الملك بن مروان^(٢٠٢).

اهتم المعتضد بالبريد شأنه شأن غيره من الخلفاء العباسيين انذين سبقوه، ذلك ان البريد كان الوسيلة الوحيدة لمعرفة كل ما يجري من أمور في انحاء المملكة الواسعة، فكان اصحاب البريد بالإضافة إلى قيامهم بنقل الكتب الرسمية يقومون بمهام أخرى خطيرة تتعلق بمراقبة العمال، وما يجري من أحوال الناس في الأقاليم النائية.

وقد اختير للبريد بعض الشخصيات الأدبية المرموقة من الكتاب والشعراء منهم: متولي ديوان البريد المركزي في بغداد عبد الملك بن محمد بن الوزير عبد الملك الزيات وقد ظل في عمله نحواً من ثلاثين سنة.

وكان ممن تقلد البريد أيضاً الشاعر الشهير علي بن بسام. وكان صاحب البريد في بغداد يعرض على الخليفة الأخبار والخرائط بصورة مباشرة ولا يمنع من الدخول، بدون أن يلتزم بمواعيد معينة أو مكان معين خصوصاً بالنسبة للأخبار المهمة التي تتطلب رداً سريعاً حاسماً، فربما عرضت إحدى الخرائط وهو في الحلبة، أو في مجلسه، أو خلوته أو خلال حملاته العسكرية. ولعل ما كتب صاحب البريد القزويني للمعتضد وليل على دقة ما يكتبه اصحاب البريد وقوة ملاحظاتهم، فقد كتب إلى الخليفة يعمله أن رجلاً من الديلم وجد بقزوين. وقد دخلها متكرراً، فما كان من المعتضد حين تسلم الخبر في بغداد إلا أن أظهر اهتماماً كبيراً بالأمر، ورد على ذلك سريعاً وحاسماً، بحث فيه عامله علي قزوين وأمره بأن لا يدخل البلد مستأنفاً أحد ولا يخرج إلا بجواز حتى لا تتم الحيلة لأحد (التوخي، نشوار / ١٥٤).

وكان اصحاب البريد يكتبون عن سلوك العمال ومدى نزاهتهم واخلاصهم. وكانت أخبارهم وكتاباتهم سبباً في عقوبة بعض العمال أو تبرئة ساحتهم من التهم المنسوبة اليهم من قبل الحكومة المركزية، وردهم إلى عملهم.

ولم يكن صاحب البريد يعني بالأخبار التي تتعلق بسياسة الدولة فقط بل كان يحيط الحكومة المركزية بكل ما يحدث في الاقطار من طرائف وعجائب الأخبار والحوادث. ويستخدم البريد الخيل في كل سكة من سكك البريد تركض بالأخبار^(٢٠٣) كما يستخدم البغال^(٢٠٤) والإبل^(٢٠٥) وذلك حسب طبيعة الطرق التي تمر بها. وتوجد أماكن للراحة وتوفير أسباب الحصول على الماء والطعام والعلف لدواب البريد.

وكان الخلفاء يقيسون المسافات بالأميال غربي الفرات، أما في شرقيه فبالفراسخ^(٢٠٦).

وكان في الإمبراطورية (العربية) ما لا يقل عن تسعمائة وثلاثين مرحلة (سكة) وتبعد كل منهما عن الأخرى نظرياً فرسخين (٢ كم) في إيران وأربعة فراسخ (٤ كم) في الولايات الغربية^(٢٠٧).

١) سرعة البريد

كانت خريطة الموسم ترد من مكة (إلى دار الخلافة في بغداد) في اليوم الرابع، وخرائط مصر في اليوم الحادي عشر. وكان الهليون يصل إلى المعتصم بالله من دمشق في المراكب الرصاص، فتصل في اليوم السادس. وكانت ترد خرائط فارس في أيام عضد الدولة في ثمانية أيام^(٢٠٨). وكانت الأخبار تصل من شيراز إلى بغداد في سبعة أيام، أي أنها تقطع كل يوم ما يزيد على مائة وخمسين كيلو متر^(٢٠٩). وكان كتاب صاحب البريد يصل من دمشق إلى الرشيد في اليوم الرابع (تاريخ الاسلام للذهبي سنة ٢٢٧هـ جزء الوفيات ٢٢١-٢٣٠).

وقاس الخلفاء المسافات بالأميال والفراسخ (الفرسخ حوالي ٨ كم) ووجدوا محطات للبريد سموها 'السكك' وفيها البغال والرجال الذين يبدلون كل ستة أميال أو كل فرسخين، وربما قطع راكب البريد المسافة كلها من غير أن يتبدل كالخلنجي الذي كان يحمل الخريطة من مكة إلى بغداد، ويسبق بأخبار الحج دون توقف، وكان يحاذي مؤسسة البريد وظيفه شديدة الخطورة هي

وظيفة صاحب الخبر القريبة من وظيفة 'الأمن العام' أو 'المخابرات' في أيامنا وهي ترأقب الموظفين والعمال وحتى الوزراء، وتتجسس على الأعداء في الداخل والخارج، وتزود السلطة المركزية بالأخبار التي قد يشكل بعضها خطراً على الأمن القومي كما يقال اليوم. وربما أسندت وظيفة الخبر إلى صاحب البريد نفسه لسرعة تنقله وكثرت، كما كان من أمر ابن خرداذبة الذي عين صاحب البريد والخبر في مقاطعة الحبل بفارس.

وكان البريد خاصاً بحكومة بني العباس، ولم يكن يحمل الناس أو امتعتهم إلا عند الضرورة القصوى. وكان أحياناً يحمل، إلى جانب الرسائل، هدايا للخليفة أو السلطات كالثمار والسمك ونحوهما. واستعمل إلى جانب البغال، في البريد، الخيل والجمال من الجمال السريعة، والنساعة العدائون. واستعملوا الحمام الزاجل استعمالاً واسعاً. ونظموا سير البريد على الطرق التي كانت معروفة أيام الرومان. أما جوازات السفر فلم تستعمل شرقي الخلافة، وكان تنقل الناس حراً، إلا ما يفرضه منها عضد الدولة على من يريد أن يدخل مدينة شيراز، غير أنها استعملت في مصر للدخول والخروج، وللتنقل من ناحية إلى ناحية، ولكن لها نظام وسجلات خاصة (آدم متر ٤١٩/٢) كما استعملت أيضاً في الدخول إلى الرقة (رحلة النواقيدي).

٢) البريد الخاص

إلى جانب البريد الرسمي الذي تديره الدولة والذي يتميز بنقل كل ما يهم الدولة من أخبار أو أشخاص أو مواد، كان يوجد بريد خاص لنقل الرسائل الشخصية وكل ما يهم الأشخاص، فهو يشبه ما يقوم به البريد الآن ولكن لا علاقة له بالدولة. ويقوم به 'الفيوخ' وهو جمع مفردة 'فوخ' وهو في الأصل: رسول السلطان الذي يسعى على قدميه، ثم أطلقت على كل من اتخذ نقل الرسائل صناعة، وبذلك أصبح 'التقيح' مهنة، ويعني نقل الرسائل من بلد إلى بلد. وكان للفيوخ زي خاص يفرضه عليهم التخفف من حمل الرحل، فكانوا يلبسون المرقعة، ويحملون ركوة لشرابهم، وعصا في أيديهم، وتاسومة (ليست كلمة فصيحة، وكانت تستعمل في سوريا حتى عهد قريب بمعنى 'حذاء') في أقدامهم، إضافة إلى الخريطة (أو المخلاة) التي تودع فيها الرسائل^(٢١١) وينقل الفوخ الرسائل من شخص واحد أو أكثر إلى شخص أو أشخاص في مدينة أخرى، ومثلاً من الدينور إلى بغداد^(٢١٢) ومن المدائن إلى بغداد^(٢١٣).

ومن الأمثلة على البريد الخاص ما حدث سنة ٢٨٨هـ، إذ وردت كتب التجار (من الرقة إلى بغداد) أن الروم وافت في مراكب كثيرة، وجاء قوم منهم على الظهر (أي ظهر الخيل) إلى ناحية كيسون (هكذا في الأصل: ولعلها محرفة عن كيسوم وهي قرية مستطيلة من أعمال سميساط كما في ياقوت) فاستاقوا من المسلمين أكثر من خمسة عشر ألف إنسان، ما بين رجل وامرأة وصبي، فمضوا بهم، وأخذوا منهم قوماً من أهل الذمة^(٢١٤).

ومن الأمثلة أيضاً قصة الفوخ الذي حمل رسائل من الرقة إلى بغداد وقابله أحد التجار واحتال عليه حتى أطلع على الرسائل، ووجد فيها ما جعله يحتكر الزيت ويبيع فيه أرباحاً طائلة^(٢١٥) وقد جرت هذه القصة في القرن الثالث الهجري.

وللنصف من جمادى الأولى من هذه السنة ٢٩٠هـ وردت كتب من التجار إلى بغداد ومن دمشق مؤرخة لسبع بقين من ربيع الآخر (أي استغرق وصولها ثلاثة أسابيع)، يخبرون فيها أن القرمطي الملقب بالشيخ قد هزم طغج بن جف: (من ولاية خماروية بن أحمد بن طولون، وابنه هارون من بعده) غير مرة، وقتل أصحابه إلا القليل، وأنه بقي في قلة... فاجتمعت جماعة من تجار بغداد في هذا اليوم، فمضوا إلى يوسف بن يعقوب أبي عمر القاضي فأقرؤوه كتبهم، وسألوه المضي إلى الوزير ليخبره خبر أهل دمشق فوعدهم بذلك^(٢١٦).

وهذا يدل على اهتمام التجار في دمشق والرقّة وبغداد ليس بأمر التجارة فقط بل بالأمور التي تمس أمن المواطنين وسلامتهم من الأخطار. فيكتبون إلى زملائهم التجار القريين من السلطة كي يتوسطوا لعلاجها.

ومن أمثلة البريد الرسمي في الرقة: كنا بالرقّة مع هارون الرشيد، فكتب إليه صاحب الخبر بموت الكسائي وإبراهيم الموصلي^(٢١٦). ومن أمثله أيضاً: كتاب ورد عام ٢٩١ هـ (إلى بغداد) من أبي معدان بالرقّة إلى الوزير يذكر فيه انتصار غلام زراقة في غزوة غزاها للروم^(٢١٧).

٦- الحمام الزاجل Homing pigeon

شاع استخدام الحمام الزاجل سواء من قبل الدولة أم من قبل الأفراد. ويشير الجاحظ إلى أنه بفضل هذا الحمام وما ينقله من الرسائل صار ممكناً أن يعلم أهل الرقة والموصل وبغداد وواسط ما كان بالبصرة وما يحدث بالكوفة في بياض يوم^(٢١٨) كما أشار إلى تدريب الحمام بين الرقة ولؤلؤة (في طرطوس)^(٢١٩). وقد رتب الرشيد في حجه أن يأتيه الجواب من يومه على النجائب من مسيرة ثمانية أيام، ويأتيه الجواب من يومه من مسيرة شهر ونحوه على أجنحة الحمام، يعلق الكتاب في جناحه فيرتفع في الجو ارتفاعاً يغيب شخصه عن من في الأرض، وينقض على وطنه، وموضع فراخه، فإذا نزل لا يستقر في نزوله حتى يؤخذ الكتاب من جناحه، فيجأب بما أحبه، ثم يسرح غيره فيرتفع في الجو حتى يوازي وطنه، وموضعه من بعد تلك الأماكن التي عليها طريق أمير المؤمنين، فيؤخذ الجواب منه^(٢٢٠). ذكر البحري الحمام الزاجل، وهي تعمل، في شعره فقال:

فتوح يقصصن كل يوم شأن قاص من الاعادي وداني

كل ركاضة من البرد يغدوالـ ريش أولى من العنوان^(٢٢١)

البرد: جمع مفردة البريد. كل ركاضة من البرد: أي الحمام الزاجل الذي كان يحمل الرسائل.

العنوان: ما يستدل به على غيره ومنه عنوان الكتاب أي تدل رؤية الريش (من الحمام) على قدوم رسالة. وقال البحري أيضاً:

توالت سواد الريش من عند صالح إليك بأخبار يسر قدومها^(٢٢٢)

يسمى الحمام الزاجل بحمام المراسلة أيضاً. ينقل الرسائل ويعود إلى موطنه، مهما بعدت المسافة. يطير مسافة ١٠٠٠ كيلو متر. ويطير بدون انقطاع لمدة ١٢ ساعة بسرعة كيلو متر في الدقيقة، ويزن ٥٠١ رطلا (الرطل الإنكليزي ٤٥٣ غرام)^(٢٢٣). وفي سباق جرى في السويد للحمام، قطع الحمام الرابع المسافة ٧٥١ ميلاً في ١٥ ساعة و٥٢ دقيقة^(٢٢٤).

وبحساب أن الميل يعادل ١٦٠٩٫٣٥ متر نجد بالحساب:

$$١٧٦٫٧٦ = ١٥٫٨٦٦ / ٧٥١ \times ٣٥٫١٦٠٩$$

الزمن محسوباً بالساعات وأجزائها المئوية ينجم عنها: السرعة بالكيلو مترات

وهي: ١٧٦٫٧٦ كيلو متراً في الساعة. وهذه السرعة تحققت في قطع مسافة طويلة (٧٥١ ميلاً تعادل ١٢٠٨، ٦٢١ كيلو متراً)، ولكن في المسافات القصيرة تكون سرعة الحمام أكثر.

وذكر الثعالبي أن رسائل الحمام الزاجل كانت تصل في ذلك العصر من الرقة والموصل إلى بغداد والبصرة والكوفة بواسطة الأطيار في يوم واحد. وكان لدى الوجيه الكوفي محمد بن أبي الحسن الشريف طيور تأتيه (أي بريد خاص) بأخبار بغداد أو تذهب بها في ساعة واحدة (شاكر مصطفى ٦٢٢/٢ نقلاً عن متر ص ٤٢٣ - ٤٢٤)^(٢٢٥).

وكانت الأخبار تصل من شيراز إلى بغداد في سبعة أيام، أي أنها تقطع كل يوم ما يزيد على مائة وخمسين كيلو متر (متر ٣٤/١ عن المنتظم)^(٢٢٦).

الباب السادس

وسائل النقل البري

- ١- دائرة المعارف الإسلامية (بدو)
- ٢- مختصر من تاريخ قريش حسين موانس ص ٢٩
- ٣- دائرة معارف حياة الحيوان غريماك المجلد ٤ الفصل ٤ صفحة ١٣٨
- ٤- دائرة معارف الإسلامية بالإنجليزية (إبل)
- ٥- الطبري ٦٥/٧ سنة ١١٠
- ٦- دائرة معارف حياة الحيوان
- ٧- دائرة المعارف الإسلامية (إبل)
- ٨- الأغاني ٧٢/٦
- ٩- الفرج بعد الشدة ٣٤/٢
- ١٠- مختصر ابن عساكر ٢٤٤/٧
- ١١- ن م ١١٨/٥
- ١٢- الفرج بعد الشدة ١٧/٣
- ١٣- دائرة المعارف الإسلامية (بدو)
- ١٤- دائرة المعارف الإسلامية (كرقان)
- ١٥- دائرة معارف حياة الحيوان (الجميل)
- ١٦- متر ٢٥٥/٢
- ١٧- الطرب والظرف ٢٤٢
- ١٨- تاريخ قريش حسين مؤنس ٥٢
- ١٩- دائرة المعارف الإسلامية (بغل)
- ٢٠- الأغاني ١٦٧/١
- ٢١- الأغاني ١١٨. ١٣٠/٣
- ٢٢- ن م ٣٢٠/٣
- ٢٣- المسعودي ١١٨/٤
- ٢٤- الطبري ٥٢٢/٥
- ٢٥- القشيري
- ٢٦- الطبري ٢١٩/٨
- ٢٧- المسعودي ٣٦٦/٣
- ٢٨- ن م ١١٨/٤
- ٢٩- موسوعة حياة الحيوان (جريماك) بالانكليزية
- ٣٠- شاكرك مصطفى - المدن ٥٠٢/٢
- ٣١- مدينة سنجان ٢٣٦
- ٣٢- دائرة المعارف البريطانية (النقل) Transportation
- ٣٣- ن م نفس المادة ، الموسوعة العربية الميسرة (عجلة)
- ٣٤- Repertoire ١٥/١٤
- ٣٥- معجم البلدان ٣٥/١
- ٣٦- Repertoire ٣٩/٣٨
- ٣٧- ديوان كثير عزة - إحسان عباس ٢٥٩
- ٣٨- الطبري ٤٦٥/٧ ، العيون والحدائق ٢١١/٤
- ٣٩- الطبري ١٣٦/٨
- ٤٠- لسان العرب
- ٤١- ملخص عن لسان العرب مواد (ميل، علم، منار)
- ٤٢- سفر نامه ٧ سنة ٤٢٨
- ٤٣- الطبري ٨٠/٧
- ٤٤- ن م ١٠٧/٨
- ٤٥- تاريخ الموصل ٢٤٣ ، الطبري ١٤٧/٨
- ٤٦- الإمامة والسياسة ١٩٢/٢ ، ١٩٣
- ٤٧- يعقوبي ٤٩١/٢
- ٤٨- جغرافية شبه جزيرة العرب كحالة ٣٨ نقلا عن يعقوبي
- ٤٩- الطبري ٣٦٩/٨ سنة ١٩٣
- ٥٠- كتاب الامين لآخيه المأمون
- ٥١- الطبري ٢٣٢/٦ سنة ٧٦
- ٥٢- الطبري ٤٧/٧ سنة ١٣٧
- ٥٣- الأغاني ٢٦٧/١
- ٥٤- الأغاني ٢٦٧/١
- ٥٥- ن م ٣٤٦/٣
- ٥٦- الطبري ٢٤٤/٩
- ٥٧- الفرج بعد الشدة ٣٤٩/١
- ٥٨- ن م ٥٥٢/٦ ، ١٧٢/٨ ابن سعد ٣٤٤/١٠
- ٥٩- نشوار المحاضرة ٣٧٩/٣
- ٦٠- المسعودي ١٤٨/٤
- ٦١- مسالك الأبصار - العمري ٢٦٥
- ٦٢- ابن عساكر ٢٧٤/٣٢
- ٦٣- ميخائيل ٨/٣
- ٦٤- الطبري ٦٢/٨ سنة ٢٢٣
- ٦٥- ابن الأثير ١١٢/٥
- ٦٦- المسعودي ١٤٨/٤ ، الذخائر والتحف ٤٠
- ٦٧- الطبري ٥٤٢/٧ سنة ١٤٤ ، ٥٩/٨ سنة ١٥٨
- ٦٨- الأغاني ١٥٤/١٢
- ٦٩- البلاذري انساب ٢٧٥/٣
- ٧٠- معجم الأدباء ١٧٥/١٦
- ٧١- ابن عساكر ٣٥٢/٧
- ٧٢- الأغاني ٣٦٧/٤
- ٧٣- ن م ١٤٥/١٦
- ٧٤- المسعودي ٤٦١/٣
- ٧٥- الأغاني ٢٥٤/١١
- ٧٦- ن م ٢٢١/١
- ٧٧- ن م ٢٥/٦
- ٧٨- ابن سعد ٤٢٧/٥
- ٧٩- شاكرك مصطفى - المدينة في الإسلام ٥٠٢/٢
- ٨٠- دائرة المعارف الإسلامية Karavan
- ٨١- ن م والفرج بعد الشدة ٢٥٦/٤
- ٨٢- الفرج بعد الشدة ١٤١/٤
- ٨٣- ن م ٢٤١/٤
- ٨٤- نشوار المحاضرة ٢٢٠/٦
- ٨٥- الطبري ٥٣٢/٨
- ٨٦- الأغاني ١٩٤/١
- ٨٧- ن م ٣٢٧/٤
- ٨٨- الطبري ٦١٣/٩
- ٨٩- دائرة المعارف الإسلامية Karavan
- ٩٠- الطبري ١٩٦/٨
- ٩١- شاكرك مصطفى - المدن في الإسلام ٢/
- ٩٢- رحلة الوافدي
- ٩٣- موسوعة حياة الحيوان Dromary
- ٩٤- الأغاني ٢٢٦/٤ ، ٤٠٠
- ٩٥- الطبري ٢١٦/٥ ، البيان والتبيين ٤٥/٣
- ٩٦- الطبري ٣١٢/٥
- ٩٧- المستنار من مثلات الأدواد ٤٠
- ١٠٧- اليسيف: النقل النهري على الفرات نور الدين ١٤٧/١
- ١٠٨- دوسو - طبوغرافية سوريا ٤٥ بالفرنسية
- ١٠٩- وقائع الندوة ٩٠
- ١١٠- الحوليات الأثرية ١٤٤/١٩ الفرات طريق تجاري
- ١١١- ن م ٢٥٩/٣٤ نهر الخابور

- ١٧٠- ملخص من معالم بغداد . صالح العلي ٣١٦ ، ٢٧٥
١٧١- الطبري ١٢٣/١٠ ووردت كلمة
فرضتها محرفة
١٧٢- الموقع الجغرافي للعراق ١٤٥/١
١٧٣- المسعودي ٣٧٤/٢
١٧٤- السيف . نور الدين (بالفرنسية) ١١٤٨/١
١٧٥- السيف ١٥٠/١
١٧٦- المقدسي ٨٤١
١٧٧- المختار من رسائل الصابي ١٥٦، ١٥٧
١٧٨- لسان العرب: بذرق
١٧٩- الألفاظ الفارسية- أني شير
١٨٠- معجم العربات الفارسية- التونجي: بنزق
١٨١- الطبري ١٦١/٩
١٨٢- ن م ٥٤٣/٩، ٤٥٥، ٣٢١، البيهقي ٤٩٧
١٨٣- دائرة المعارف الإسلامية: بريد
١٨٤- الفخري ١٠١
١٨٥- الطبري ٩٦/٨
١٨٦- ابن حردادزيه
١٨٧- صلة تاريخ الطبري
١٨٨- الأغاني ٥٥١/١٠
١٨٩- ن م ١١٦/٧
١٩٠- ن م ٢١٢/٧
١٩١- الطبري ٣٤٤/٩
١٩٢- الطبري ٣٤٤/٩ سنة ٢٤٧
١٩٣- تاريخ الموصل ٢٤٥ سنة ١١٦٤ الطبري ٩
١٤٢١، ٦٧١٧
١٩٥- الأغاني ٧٨١/٦
١٩٦- ن م ١٣١/٩
١٩٧- ن م ٥٨، ٥٦١/١
٢٠٠- الطبري ١٤٧/٨
٢٠١- ن م ١١٢/٧
٢٠٢- الأغاني ٢٨١/١١٤
٢٠٣- الطبري ٢١٩/٨
٢٠٤- ن م ٦٤٧/٨
٢٠٥- ن م ١٦٢/٨
٢٠٦- متر ٣٢١/٢
٢٠٧- دائرة المعارف الإسلامية (بريد)
٢٠٨- رسوم دار الخلافة ١٧، ١٨
٢٠٩- متر ٣٤١/١ من المنتظم
٢١٠- الفرج بعد الشدة ٢٩٩/٣ الحاشية
٢١١- ن م ٢٧٠/٣
٢١٢- ن م ٣٠٠/٢
٢١٣- الطبري ٨٥١/١٠
٢١٤- نشوار المحاضرة ٨٠/٣
٢١٥- الطبري ٩٧/١٠ سنة ٢٩٠
٢١٦- العقد ألفريد ٣٧٧/٥
٢١٧- متر ٣٠٣/٢، الطبري ١١٦/١٠
٢١٨- دائرة المعارف الإسلامية (البريد)
٢١٩- الحمام الزاجل، الحيوان للجاحظ ٩٦/١
٢٢٠- ن م ٢٢٨/٣
٢٢١- الإمامة والسياسة ١١٣/٢
٢٢٢- ديوان البحري ٢٢٧/٢٤
٢٢٣- ن م ٢٠٢٥/٤
٢٢٤- الموسوعة العربية الميسرة (حمام
٢٢٥- الموسوعة البريطانية مادق Sporting Record
٢٢٦- د. شاكر مصطفى ٦٢٢/٢ نقلا عن متر ٤٢٣/٢
٢٢٧- متر ٣٤١/١ عن المنتظم
- ١١٢- شيخ الربوة ٩٤
١١٣- ميخائيل ٧٨/٣
١١٤- الموقع الجغرافي للعراق ١٦٣/١، ١٤٣
١١٥- الطبري ٢٧٢/٨
١١٦- ن م ٣٣٨/٨
١١٧- ن م ٤٢٨/٨
١١٨- ابن سعد ٤٣١/٥
١١٩- الطبري ١١٣/١٠
١٢٠- الهروي ٦٣
١٢١- ابن سعد ٤٢٧/٥
١٢٢- تاريخ الموصل ٤١٤
١٢٣- الطبري ٢٥٩/٨
١٢٤- معجم الأدباء ٢٥٩/١٦
١٢٥- ن م ٢٥٩/١٦
١٢٦- ن م ٢٥٩/١٦
١٢٧- طبقات ابن المعتز ٢٨٣
١٢٨- ابن سعد ٤٣١/٥
١٢٩- لسان العرب
١٣٠- المسعودي ١٧/٤، الأغاني ٢٩٢/٩
١٣١- المسعودي ١٩/٤، الأغاني ١٠٧/١٠
١٣٢- الفرج بعد الشدة ٢١٩/٢
١٣٣- تاريخ بغداد ٣٥٣/٩
١٣٤- الأغاني ١٠٧/١٠
١٣٥- طبقات ابن المعتز ٢٨٣
١٣٦- نشوار المحاضرة ٤٣/٣
١٣٧- الطبري ٥٠٩/٨
١٣٨- ن م ٢٨١/٩
١٤٠- الموقع الجغرافي للعراق ١٦٣/١، ١٤٣
١٤١- الطبري ٢٩٧/٨
١٤٢- شيخ الربوة ٩٣
١٤٣- البلدان - البيهقي ٢٥٠
١٤٤- نشوار المحاضرة ٩٥/٢
١٤٥- متر ٢٩٠/٢
١٤٦- الديارات - الشابشتي ٢٤
١٤٧- ديوان الأعشى ١٨١
١٤٨- ديوان الاخطل ٣٩٠/١
١٤٩- ن م ١٠٥
١٥٠- ديوان البحري ٧٣/١/٤
١٥١- معجم البلدان - قنشرين
١٥٢- ديوان الصوري ٥٨
١٥٣- ن م ١١٤
١٥٤- ن م ٤٩٤
١٥٥- ن م
١٥٦- هايد ٥٩، ١٨ / ١
١٥٧- متر ٢٩٠/٢
١٥٨- ابن حوقل ٢٠٣
١٥٩- نزهة المشتاق ٦٤٩ / ٢
١٦٠- معالم بغداد - صالح العلي ٢٩٣
١٦١- الطبري ٣٠٢
١٦٢- صبح الأعشى ٣٣١ / ٤
١٦٣- الحواريات الأثرية ٥٩/٧، ابو الفرج العشي - الرقة
١٦٤- الموقع الجغرافي للعراق ١٤٥/١
١٦٥- ميخائيل ٤٥٧/٤
١٦٦- دائرة المعارف الإسلامية (الرقة) نقلا عن ابن العبري
١٦٧- انساب الاشراف ١٠٨/٣
١٦٨- مروج الذهب للمسعودي ٣٧٤/٢
١٦٩- الطبري ٢٠٥/٦

الباب السابع

بعض الفئات الاجتماعية

الباب السابع

بعض الفئات الاجتماعية

ظهور البرجوازية الإسلامية

بدأت في عهد عثمان بن عفان المحابة للأقرباء وادعى عثمان أن الخلافة ثوب ألبسه الله، وفي عهد معاوية بن أبي سفيان بدأ ظهور بعض التميز للخليفة والولاة مثل زياد بن أبيه وعمر بن العاص وغيرهما وبدأ ظهور الملكيات الكبيرة والأقطاعات بشكل أكبر، وإن المراكز الفخرية وذات العائد العالي في الإدارة والجيش والتي كانت لا تزال متماثلة لدرجة كبيرة، قد اجتذبت أكثر العقول المفكرة^(١).

وبدأت في عصر الخلفاء العباسيين الأوائل طبقة جديدة من البرجوازية الإسلامية شغلت دورا كبيرا في الحياة الثقافية والاقتصادية. وتشكلت هذه الطبقة من السكان الأصليين من الفرس الذين استوطنوا الهلال الخصيب ومن المسيحيين الذين يتكلمون الآرامية والأقباط الذين اعتنقوا الإسلام واشتغلوا بالتجارة ومن كثير من العرب الذين ورثوا عن آبائهم التجارة في مدن الجزيرة العربية ومن العرب الذين تعهدوا بتقديم الطعام لجيوش الخلفاء. وأصبح اهتمام تجار هذه الطبقة ينصرف إلى التجارة بالسلع الكمالية مثل الحجارة الكريمة والمطلور والعبيد أو بالأقمشة، وكان ذلك مربحا لأن المنتجات الصناعية قد ارتفع سعرها أكثر من المنتجات الزراعية، وكانت الخدمة لدى الخلفاء مصدر كثير من الثروات الكبيرة، وعم الرخاء الاقتصادي وأصبح المال لدى بعض الطبقات العنصر الأساسي لتقييمهم في هذا العالم واشترك هؤلاء الأغنياء أيضا في أعمال التسليف في الصناعة والتجارة ومن جملة أنواع التسليف: المضاربة أو الإقراض وهو قرض يقدم للتاجر المسافر مقابل نصيب من الربح دون تحمل أية مسؤولية عن الخسارة. وهذا مشروع حسب المذهب الحنفي - واشتغلوا أيضا في امتلاك الضياع وتعهد الضرائب وهو عمل مربح، وبذلك شابهت البرجوازية العربية، الأرستقراطية عند نبلاء الفرس الذين اعتنقوا الإسلام. وعمل بعض الأغنياء على رعاية الأدب والفن فمدح رجال الأدب الثروة والأثرياء كما أصبح الكثير من التجار مهتمين بالعلوم الإسلامية. ودرس الأستاذ كوهن في كتب التراجم سير ٤٢٠ عالما من بين من ذكرت منهم فوجد أن ثلثي الفقهاء المسلمين في القرن التاسع الهجري هم من التجار وثلثهم من تجار الأقمشة ولذلك جاءت أحكامهم الدينية في التجارة موافقة للترف التجاري السائد حينئذ، ودامت هذه البرجوازية الإسلامية في عهد الخلفاء العباسيين الأوائل وهذا يتجلى بطبقة البرامكة. ثم برز في عهد الأمين جعفر بن دينار الخياط والفضل بن مروان وزير المعتصم، وهو أقطاعي من أصل متواضع وقام التاجر أحمد بن عمار الطحان بمنصب أمين السر ومعظم واجبات الوزير ثم عين للوزارة محمد بن عبد الملك الزيات وهو من عائلة تجارية غنية ومنذ ذلك الوقت برزت طبقة هذه البرجوازية من الإقطاعيين في إدارة الحكومة إلى جانب قواد حرس الخليفة الأتراك، وأصبحت هذه الطبقة من الكتاب مجموعة متميزة عن الفقهاء الذين يمثلون جناحا آخر من البرجوازية الجديدة.

(سيجي) في الكلام عن الفئات الاجتماعية أن أكبر أهل مملكة المعتصم كانوا أبناء مهنيين) اقتنت هذه الطبقة الضياع وبنيت الدور والقصور وعاشت الحياة المترفة وجنت الثروات الهائلة، واستمتعت بالنسيج الرفيع والخزف الجميل والأثاث الرفيع والمجوهرات، وساعد على ذلك دوام الاستقرار، ونشاط التجارة الدولية، وغنى الدولة بسبب فرض أنواع الضرائب والمكوس وبسبب مصادرة العباسيين لأموال الأمويين وغيرهم، فقد كان ما صادره الرشيد من أموال البرامكة ٢٠٦٧٦ مليون درهم، وما صادره من أموال علي بن عيسى بن ماهان بعد عزله عن خراسان ٨٠

مليون درهم. وقد اقطع المنصور القطائع فزاد الإنتاج. وظهرت طبقة التجار الذين طافوا الدنيا وجنوا الثروات التي لا تعد ولا تحصى.

وقد خلفت هذه البرجوازية فرقا شاسعا بين طبقات المجتمع أدت إلى ثورات ذات هدف اقتصادي. ومع كل ذلك لم تصل هذه المرحلة بعد إلى مرحلة الرأسمالية، فلم تكن هناك صناعات محلية كبيرة نسبيا، ولم تكن تحت إدارة التجار، كما لم تكن اليد العاملة مستعبدة، ولم تكن أدوات الإنتاج موحدة المالك، بل كان كثير منها بيد أرباب العمل، وحتى الأعمال المصرفية لم تكن حصرا على أهل الذمة، لأن بعض المسلمين تحايل على قانون الرياء، كما أن نظام الوراثة الإسلامي عرقل تراكم المال في أيدي العائلات التجارية الغنية، وعملت الدولة والأمراء على محاربة الاحتكار هذا وكثيرا ما تعرضت ممتلكات البرجوازية الكبيرة والموظفين للمصادرة من قبل الحكومة، يضاف إلى ذلك طرق النهب والسلب التي استخدمها جباة الضرائب. وقد ظلت البرجوازية في الشرق الأوسط مدة ٢٠٠ سنة تحاول مقاومة أمراء الإقطاع. وأن الصراع بين هاتين الطبقتين كان أهم العناصر في تاريخ الشرق (اشتور ١٢٠ وما بعد).

كانت الجماهير الشعبية تزدد فقرا. ولم يتناسب ازدياد الأجور مع ازدياد الأسعار، بسبب توفر المزيد من اليد العاملة. وهكذا يضاف إلى الظاهرة العامة (ارتفاع الأسعار والازدهار) عدد من الظواهر الأخرى التي تدور حول التوزيع غير المتساوي للأرباح والفوائد والمصالح بين الطبقات المختلفة.

نتج عن إشعال المدينة على الريف تفتت خلية الملكية الزراعية، وحل الثراء بالأموال المنقولة محل الثراء العقاري، وضاعت يد الأرستقراطية المحلية من الملاكين العقاريين وفقدوا الكثير من نفوذهم. ولقد نجم عن تفتت الخلية الملكية العقارية تفجر اجتماعي. فتجاورت ثورة فقراء الريف مع ثورات العبيد وعامة الشعب في المدن، وانصهرت كل هذه الحركات الاجتماعية، التي كانت مشتتة في البدء، في حركة شاملة شارك فيها كل المتمردين: العبد والحر المدني والريفي، هذه الحركة التي سميت بالقرامطة والتي هزت العالم الإسلامي كله في القرن العاشر، وقادت إلى تنظيم جديد للعمل هو تنظيم الاصناف أو التنظيم النقابي^(٢).

واقبس العباسيون كثيرا من رسوم الفرس، وتميز العهد بحظوة الهاشميين ومواليهم (موالي الاصطناع) والنقباء، وقواد الدعوة، والأمراء، وصحابه الخليفة وحاشيته.

ثم برزت طبقة الوزراء، وكانوا في البدء من الأرستقراطية الفارسية مثل البرامكة، ثم برزت طبقة الكتاب من أي أصل كانوا وبلغوا أوجهم في القرن الثاني الهجري، كما برزت في مستهل القرن الثالث الهجري طبقة التجار الكبار الذين يتاجرون بالأقمشة الفاخرة وأمثالها مع البلاد البعيدة أو بالتوريد للجيش، أو بتولي الفنائم. وكثرت الأموال بين أيدي هؤلاء الكتاب والتجار، فبنوا القصور، وتصرفوا كالأمرء، وصارت لهم حاشية.

ظهرت المذاهب الفقهية، وناصر اتباعها التجار وحثوا على التمتع بالصحة وبالفخر من الطعام واللباس والقيان. وكان كثير من الفقهاء تجارا مثل ابن سيرين وميمون بن مهران وأبي حنيفة، وعبد الله بن المبارك. وكانت الصفقات التجارية تزاول حتى في المساجد. وكان التجار يعملون بانتظام كقضاة أو مصلحين اجتماعيين في ميادين أخرى.

عبر ابن المقفع الشريف الفارسي، عن فزعه لما وجد أن حاشية الخليفة كونت من رجال الطبقة الدنيا، وزاد فزعه أنها اشتملت حتى رجالا كانوا يحترفون حرفا يدوية^(٣).

وقد تنبأ منجم للمعتصم في شبابه أنه سيلي الخلافة، ويفتح الأفاق، ويعظم شأنه، ثم قال له: (إذا ملكت فما شيء أنحس عليك من شيء واحد وهو أن يكون المتولون عليك في أيام ملكك

وزادت وطأة المراسم، فصار الناس يقبلون يد الخليفة ورجليه بل وحتى أقدام حماره^(٣٦) بل وحتى جعفر البرمكي كان يقبل قدمي الرشيد^(٣٧) وهو أمر أتى من خراسان ولم يكن معروفاً في عهد الأمويين^(٣٨). وقد قيل للحاجب (وهو موظف عال جداً) قدمي زينب الهاشمية وهما في الركاب على الحمار^(٣٩). وصار للخليفة ألقاب إسلامية تضاف إلى اسمه، وهو أمر لم يعرفه خلفاء بني أمية.

وانغمس الخلفاء في الترف إلى أبعد الحدود، وتفننوا فيه فصار لهم حرس النمل وأقواس البندق (للرشيد) وحاشية من الصحابة والفقهاء والشعراء والمغنين عدا القيان واللعابين والمضحكين والندامى... وصارت دار الخلافة يدل عليها الحرس والتكبير والتيران^(٤٠) وصارت نوبة حرس المأمون أربعة آلاف وصار السواد هو الملابس الرسمية، وصار للخليفة وجهان: وجه في منزله بين أهله وعلمائنه وندمائهم، ويكون حينذاك من أحسن الناس خلقاً، ووجه آخر إذا ليس ثيابه (ثياب الخلافة) وتنهأ للخروج، فيصيح وقد تغير لونه وأربد وجهه، وأحمرت عيناه وقد قيل ذلك عن المنصور^(٤١) وعن الهادي^(٤٢).

وكان الوالي في العهد العباسي يسير في موكب يليق به كموكب بغداد^(٤٣). أما في عهد هشام بن عبد الملك فلم يكن أحد غيره يسير في موكب إلا مسلمة بن عبد الملك ابن مروان (أخو هشام الذي لو لم تكن أمه، أمة لصار خليفة قبل هشام) ورأى هشام يوماً ابنه سالماً في موكب، فزجره وقال: (أعلمن متى سرت في الموكب) ولم يكن أحد من بني مروان (في عهد هشام) يأخذ العطاء إلا عليه الغزو، فمنهم من يغزو ومنهم من يخرج بدلاً^(٤٤). وسوغ المأمون لعبد الله بن طاهر خراج مصر سنة وقدره ثلاثة آلاف ألف دينار أو نحوها، فصعد المنبر فلم يزل حتى أجاز بها كلها^(٤٥) ويكفي ما وصل إلى البرامكة وما انفقوه. وكان الوالي في العهد العباسي يحتجب عن الناس ولا يمكن اتوصول إليه إلا في مناسبات معينة، إلا خاصته وأهله ومن له وسيط عالي المقام، وقد كاد أحدهم أن يفقد حياته كي يصل إلى طاهر بن الحسين في الرقة^(٤٦).

وكذلك لم يصل الواقدي في الرقة إلى يحيى بن خالد البرمكي إلا بالصبر ويوساطة وسيط^(٤٧) هذا رغماً عن ما تذكره كتب الأدب والتاريخ عن سهولة الوصول إلى الرؤساء.

ارتفع الوالي في العهد العباسي فوق الناس بمراتب كثيرة وصارت له ألقاب، ولم يكن ذلك قد حصل للولاة في العهد الأموي، وصارت تقبل يداه وفي ذلك يقول الشاعر في مدح طاهر بن انحنس:

أصبحت بين خصاصة وتجمل والحرب بينهما يموت هزلاً
فامدد إلي يدك تعود بطنها بذل النوال وظهرها التقبلاً^(٤٨)

بل أن صاحب الديوان (مثل ديوان الضياع) كان عماله التابعون له قد يقبلون يديه ورجليه^(٤٩) وكثيراً ما كان الوالي العباسي يظل في العاصمة (بعيدا عن ولايته) إلى جانب الخليفة وينيب عنه من يثق به ليقم في مركز ولايته وهذا ما كان يفعله جعفر بن يحيى وطاهر بن الحسين وخزيمة بن خازم^(٥٠) فلا يغتر أحد حين يقرأ عن مجالس الخلفاء والأمراء والتي يحضرها الشعراء وطلاب الحاجات والمظلومون فإن ذلك لا يحدث إلا في ظروف ومناسبات خاصة محسوبة.

٩- التجار

كان في الجيش الذي فتح الجزيرة كثير من القرشيين كما تقدم وقد استوطن معظمهم الجزيرة كما قدمت حشود أخرى من قريش واستوطنتها أيضاً. وكان أهل قريش من عهد الجاهليين بارعين في التجارة.

أن العرب وبخاصة عرب القرن الأول الهجري لم يكن لديهم أية موانع اجتماعية ضد الاشتغال بالتجارة وقد كان يحتقر التجارة ويكرهها فرعان من السكان، كانا ظاهرين تماما في ذلك وهما: العرب البدو والذين أبقوا على معظم أفكارهم التقليدية، برغم عيش معظمهم آنذاك حياة مستقرة. والفرع الثاني هم أشراف الفرس القدامى الذين لم يغيروا نظرتهم الاجتماعية كثيرا بعد دخولهم الاسلام^(١٢٠) ومن بينهم البرامكة بالطبع.

أصبح التجار حملة لواء الحضارة الإسلامية، وكان ذلك واضحا تماما مع نهاية القرن الثامن الميلادي^(١٢١) وسواء ارتفعت قيمة التاجر سياسيا إلى القمة أو انخفضت تمهيدا لصالح الشرطي فإن التاجر الكبير ظل محور هذا المجتمع المدني طوال فترة الحكم العباسي فهو من الناحية الاجتماعية مميز عن صغار الحرفيين في السوق من أمثال البائعين أو الحرفي الذي يبيع منتجاته بنفسه وهو يقتات على أساليب عتيقة ترجع إلى ما قبل الإسلام فقد كانت هناك فئة لا حصر لها من أولئك الحرفيين الصغار الذين لم يستطيعوا الحصول على مكانة ملموسة بجوار كبار التجار فكانوا يعيشون على مشارف الجوع والأوبئة والفتن مبعدين عن مركز المدينة وفقا لمستوى نظافتهم الحرفية. أما التاجر الكبير الذي يشتري ويبيع الأقمشة الفاخرة فلم يكن عند قمة هذا الهرم الحرفي وإنما خارجه ولنفحص شخصيته في بضعة سطور. أنه من يباشر في التجارة البعيدة ناحية الشرق الأقصى وأفريقيا الشرقية أو بادية آسيا وهو ثري يعيش حياة راغبة ويقوم عدد من الأتباع بخدمته وكثيرا ما يقدم القروض للدولة ويقبض أحيانا حصيلة الضرائب ويساعده مجده في الاشتراك في المحافظة على المباني العامة ومساعدة الفنانين والمتقنين وكأنه أحد الأمراء وعادة ما يكون هو مثقفا ومرفها.

إن التاجر الكبير الميسور اجتماعيا والذي له مكانته الدينية والأدبية يكون هو والكااتب، الشائبي الأساسي للمجتمع العباسي في الفترة التي سبقت الفترة العسكرية^(١٢٢). ويعتبر المقدسي في القرن الرابع إن أقرب التجار إلى الرخاء والنعيم هم البزازون والعطاريون. ومن أمثال القرن الثالث الهجري أن أحسن التجارة تجارة البر وأحسن صنعة صنعة المرجان^(١٢٣). وقد كان للتاجر دوره الكبير في التاريخ المدني للإسلام لا من حيث أنه فرد في العملية الاقتصادية فهو لا يعدو أن يكون وسيطا ولكن من حيث هيمنته على المدينة صناعة وصناعا وعلى الريف أرضا وسكانا فهو غالبا صاحب الثروة والجاه في المدينة الإسلامية وهو غالبا صاحب العقار ومالك الأرض في الريف كما أنه إلى هذا وذلك صاحب العلاقات الخارجية الواسعة والمنترع لنفوذه انتزاعا من السلطان.

وكانت السفن الغنية التي تصل إلى البصرة تحقق أرباحا ضخمة فقد كانت حمولة سفينة قادمة من الصين تقدر بخمسمائة ألف دينار وكان العبيد في منطقة الأنهار الروسية يشكلون البضاعة التي تحقق أكثر الأرباح في أسواق الشرق الإسلامي وكان هناك في كل مكان فرصة للإثراء السريع ونجم عن هذا صعود طبقات التجار التي يمثلها المقاول الكبير المسلم غالبا واليهودي والمسيحي أحيانا. وكان التاجر يقدم المأوى والطعام للطلاب والمدرسين ويستضيف الحجاج خلال أسفارهم كما كان التجار الأغنياء من يهود الاسكندرية والقاهرة يفتدون أخوانهم في الدين الذين أسرهم القراصنة المسلمون مقابل ثلاثة دنانير وثلاث الدينار للرجل، وكان هذا السعر متقفا عليه في كل حوض المتوسط على أنه نوع من التأمين على الأشخاص لكل تاجر مسافر. وكان الجهد مثلا وهو المصرف الرسمي الكبير ذو العلاقات الواسعة مع البلاط يقرض الخليفة والشخصيات الكبيرة وهناك آخرون وهم ممولوا القصر وخصوصا بالبضاعة الثمينة وجباة الضرائب. وكان بوسع التجار أن يأخذوا مركزا حقيقيا رسميا وأن يصلوا إلى الوزارة أي إلى مراقبة مالية الدولة ومع ذلك فقد يواجهون أحيانا الغضب الفجائي من صاحب السلطة ويتعرضون للمصادرة^(١٢٤).

كان هناك مجموعة من تجار الجملة الذين يتاجرون بالقمح والحبوب الأخرى ويتعاونون على الدوام مع متعهدي الضرائب. وظلت تجارة القمح حرة في نظام ما قبل الرأسمالي في دولة

الخلافة في العهد العباسي الأول ولم تقع في أيدي أمراء الاقطاع، لكن كميات كبيرة من الحبوب أصبحت في حوزة الحكومة أو بدقة أكبر في حوزة متعهدي الضرائب الذين استلموها كضرائب عينية وعلى هذا الأساس أصبح من غير الممكن القيام بالتجارة الكبيرة إلا بالتعاون مع جامعي الضرائب ومتعهديها وكبار الرأسماليين الذين يملكون ضياعا كبيرة ولكن غالبا ما يفضل هؤلاء الاشتغال بهذه التجارة المربحة بأنفسهم ومثل هذه الظروف طرأت على تجارة الأغذية مثل زيت الزيتون وللحصول على طلبات لتوريد البضائع للجيش، وكان لا بد من دفع الرشاوي أو إيداعها لدى الوسطاء ولذلك قلت الأرباح التي يجنيها من هذا الفرع.

أما تجارة الأقمشة فكانت أرباحها أكبر كما كان البزازون - تجار الأقمشة - أغنى مجموعة من التجار وأعلاها منزلة إذ أنهم اشتغلوا بتجارة الأقمشة الثمينة والغالية مثل الحرير والمطرزات الفارسية والبيزنطية أو الأقمشة المطرزة بالذهب وكانت هذه التجارة إلى حد كبير عالمية لأن الكثير من بضائعها كان مستوردا من البلدان الأخرى الإسلامية وغير الإسلامية لأن الدول الإسلامية الجديدة لم تضع أية عراقيل في وجه التجار الذين يعبرون حدودها وعندما مات عفان بن سليمان البزاز أغنى تجار مصر في عام ٩٣٦م صادر الأخشيد ١٠٠ ألف دينار من ممتلكاته.

وكانت تجارة الأحجار الكريمة والمجوهرات مرتبطة بتجارة الأقمشة فبضائعها غالية جدا وحجمها صغير جدا وأرباحها طائلة وتاجر المجوهرات المصري أبو عبد الله الحسين بن الجصاص الذي استقر في بغداد واعتقل عام ٩١٤م صودر منه ما قيمته أربع ملايين أو أكثر، هذا وقد تفاخر بامتلاكه أكثر من عشرين مليون دينار.

والمجموعة الثالثة من رجال الأعمال الأغنياء وهي أصحاب المصارف الذين يستطيعون دفع مبالغ كبيرة من المال بواسطة الصكوك التي تنقلها السفائح للبلدان البعيدة دون أن تتعرض للمخاطر. ويذكر ابن حوقل عن حوالة بمبلغ ٤٢ ألف دينار أرسلت من سجلماسة (في شرق المغرب) إلى تاجر في وأدغشت في غرب السودان وقد استفاد من ذلك أيضا كبار الموظفين لأنهم كانوا يطلبون من أصحاب المصالح أن يدفعوا الرشاوي المخصصة لهم إلى صياريهم الذين أمروا بعدم تسجيل حسابات هذه المبالغ. ونشأت مؤسسات الصيرفة في كل مدينة كما نشأت شوارع الصيرفة في المدن الكبرى.

وهناك فرع آخر من التجارة الدولية في القرن العاشر جنى منه التجار المسلمون على ما يبدو أرباحا كبيرة حيث تم استيراد الفراء من روسيا والبلدان المجاورة ومن خلال روايات الكتاب العرب التي تظهر إن في دولة الخلافة أنواع كثيرة من الفراء راجت فيها مثل فراء السمور والدلق والفاقم والثعلب والمسلك والسنجاب الرمادي والقندس وتشهد الكميات الكبيرة من العملات الإسلامية التي اكتشفت في عدة مناطق في روسيا والبلدان المطلة على بحر البلطيق على الحجم الكبير لهذه التجارة ويقول المسعودي أن ثمن جلد الثعلب الأسود كان حوالي مئة دينار^(١٣).

التجار هم فئة من الناس كانوا يعاننون البيع والشراء محاولين الكسب بتتمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالفلاء ايا ما كانت السلع. وكانت جماعات التجار وإن كثرت لديهم الأموال بسبب ما يجنونه من أرباح، تشكل طبقة من أدنى طبقات المجتمع خلقا، لا سيما تجار التجزئة لاصطناعهم المماحكة والغش وتعاهد الإيمان الكاذبة على الأثمان، ولذلك كان أهل الرئاسة ينفرون من الاحتراف بالتجارة، ويستلزم الاشتغال بالتجارة احتكاكا بالسوق والرعاع.

والتجار نوعان: نوع يعمل في الضروري من السلع فهو لذلك يتعامل مع الأهالي والعامه، ونوع يتجر في الكماليات وأدوات الزينة والتحف والمجوهرات والمصوغات وفاخر الثياب والرقيق، وهؤلاء يتعاملون مع أولي السلطان والأعيان. وعلى الرغم من أن التجار قد اعتبروا من طبقة

العامية إلا أننا نرى الصأبي يعتبرهم من طبقة الخاصة الذين عددهم: الوزراء والكتاب والحواشي والأصحاب والأمراء والقواد والأشراف والقضاة والشهود والتقاء والتجار وأولو المروءات والأموال الوافرة. واعتقد أن الصأبي كان يعني بهم كبار التجار الذين كانوا يتعاملون مع الخاصة، وما كانوا يكسبون من تجارتهم مع هذه الطبقة من أرباح طائلة انعكست على حياتهم العامة. وعلى كل حال فإن التجار في العصر العباسي الأول نظر إليهم من الناحية الاجتماعية على أنهم في عداد الطبقة الوسطى من طبقات المجتمع، وأنهم أقل منزلة في الخلق من الأشراف.

وكان العدد الأعظم من تجار العراق في هذا العصر من اليهود الرهانية (أو الراذانية) الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلية. فلما تشكلت الحركة التجارية بسبب تنظيم الأسواق وازدياد الاهتمام بالصيرفة وظهور الشركات والمعاملات التجارية، حدثت تطورات اجتماعية كان منها ازدياد إقبال العرب المسلمين على التجارة وعلو مكانة التجار من الناحية المادية. وكان التجار في ذلك العصر من ثلاث فئات:

١. **التاجر الخزان:** وطريقته في العمل أن يشتري البضائع وقت رخصها وتوفرها في الأسواق وكثرة عرضها وقلة طلبها، ثم يخزنها انتظاراً لتغير ظروف الأسواق، وقلة هذه البضائع بسبب انقطاع وصولها أو صعوبة نقلها من أماكنها الأصلية، أو تأخر مواعيد ورودها أو كثرة الطلب عليها في الأسواق وعند ذلك يعرضها للبيع لتكون أرباحه منها كثيرة.

٢. **التاجر الركاض:** ومهمته الرحلة والانتقال لجلب التجارة من البلدان الأخرى وكان أول ما يقوم به معرفة نوع التجارة التي يجب جلبها ثم يلاحظ جملة أمور مثل سرعة ذهابه وإيابه وسلامة الطريق إن كان سفره برا وأنواع الأعاصير إن كان سفره بحراً أو... إلخ وعليه أيضاً أن يحسب ثمن كل حاجة وكلفة نقلها وخالص الربح الذي يمكن أن ينجم عنها.

٣. **التاجر المجهز:** وطريقته عمله أن يسيطر في السوق ببلده وأن يكون له وكلاء في بلدان مختلفة. ممن نهم خبرة بالتجارة وممن يثق بهم بعد أن يتفق معهم على حصة معينة من الربح فيرسل إليهم البضائع لبيعها أو يترك لهم حرية التصرف في بيعها، إذ قد لا تباع السلعة فتكسد، لذلك يلجأ الوكيل إلى خزنها حتى يحين الوقت المناسب لعرضها في السوق مرة ثانية ثم يشتري البضائع من ذلك البلد بعد أن يكون قد تخير أحسنها ويبدو أن التجار العراقيين خلال العصر العباسي الأول كانوا قد انتشروا في أقطار الأرض المختلفة حتى وصلوا إلى بلاد الصين والبلاد الاسكندنافية.

وذكر من بين المجهزين: كثير بن هشام أبو سهل الكلابي الرقي في بغداد وكان يتوكل للتجار ويجهز على التجار إلى الرقة وغيرها من الجزيرة والشام^(١٢٨).

١١- رجال الدين الإسلامي

في الرقة: قدم عبد الله بن المبارك الرقة فاجتمعت الناس حوله وتقطعت النعال، وارتفعت الغبرة فاشرفت أم ولد لأمير المؤمنين (هارون الرشيد) من برج قصر الخشب، فلما رأت الناس قالت: ما هذا؟ قالوا: (عالم من أهل خراسان قدم الرقة يقال له عبد الله المبارك) فقالت: هذا والله الملك لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان^(١٢٧).

وكان رجال الدين بسبب هذه المنزلة موضع حسد من قبل الخلفاء والأمراء قال محمد بن سلام الجمحي قيل للمنصور هل بقي من لذات الدنيا شيء لم تله؟ قال: بقيت خصلة أن أقعد في مصطبة، وحولي أصحاب الحديث، يقول المستملي: من ذكرت رحلك الله؟ قال: فغدا عليه النداء وأبناء الوزراء بالمحابر والدفاتر. فقال: لستم بهم، إنما هم الدنسة ثيابهم، المشقة أرجلهم، الطويلة شعورهم برد الآفاق، ونقلة الحديث^(١٢٨).

وقد انتهى المأمون أن يحدث فوضع له منبر وبعد أن فرغ من حديثه قال ليحيى بن أكرم: ما رأيك حلاوة، وإنما المجلس لأصحاب الخلقان (الثياب البالية) والمحابر^(١٣٩).

وكان الخلفاء والوزراء يستميلون الفقهاء ورجال الدين بالجمالة والعطايا يسمعون إلى أن يجعلوهم جماعات منظمة ففي الشام أوجد الأمويون مشيخة المسجد.

وفي الجزيرة ألح المنصور على عمرو بن ميمون بن مهران أن يمنحه قطيعة (من الأرض).

كما ضغط الخلفاء على المتقدمين والمشهورين من أهل الدين لكي يقدوهم القضاء أو وظيفة أخرى. كما فعل المنصور بأبي حنيفة وكما فعل المأمون بعبيد بن جناد حين أرغمه على قضاء الرقة^(١٤٢).

وبالرغم من أن كثيرا من رجال الدين رفضوا إعطيات السلطان كما رفضوا العمل له فإن رجال السنة كانوا إجمالا في صف السلطان ويمانعون في الخروج عليه إلا في حالات قليلة، على أن بعضهم رأى أن لا يخاطب الوالي بالأمرة إلا إذا جلس للناس في موضع الأحكام^(١٤٣).

وكان الخلفاء يحاولون أن يحيطوا أنفسهم بمجموعة كبيرة من رجال الدين ليدعموا بهم صفتهم الدينية فكان الرشيد إذا حج أحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم. وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة^(١٤٤).

وكان معظم رجال الدين الإسلامي يتعاطون التجارة كأبي حنيفة وأبن سيرين وميمون بن مهران.

١٢- العبيد (الرقيق)

فتحت الجزيرة بما فيها الرقة، وأرضها عنوة ومدنها صلحا وكتبت لهم كتب تعطيهم الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وحتى رأس العين عين الوردة التي قاومت مقاومة شديدة ولم تفتح إلا بعد وفاة عياض فأنها أعطيت الأمان على شاكلة غيرها ولم تسب نساؤها ولا أولادها^(١٤٥).

إلا أن جيش الجزيرة خاض كثيرا من المعارك في الثغور وغنم كثيرا من الأسرى جيء بهم إلى الرقة كآرقاء وفضلا عن ذلك فقد كانت الرقة سوقا هامة لتجارة الرقيق في العهد العباسي.

وفي عام ١٩٠ هـ ولي الرشيد حميد بن معيوف سواحل بحر الشام إلى مصر فبلغ حميد قبرص فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفا فأقدمهم الرافقة (وكان الرشيد مستقرا فيها) فتولى بيعهم أبو البختري القاضي^(١٤٦).

وفي الفداء مع الروم وجه النواثق إلى بغداد والرقة فاشترى من يباع من الرقيق ما قدر عليه منه^(١٤٨) لمبادلتة مع أسرى المسلمين.

وكثر الرقيق عند الناس، وحين تولى العباس بن محمد بن علي الجزيرة (١٨٥-١٨٦ هـ) للرشيد وصار إلى الرقة أمر الرشيد ففرش له قصر الإمارة بالرقعة واتخذت له الآلات وشحن بالرقيق^(١٤٩).

وبالرغم من ندرة أخبار الرقيق في الرقة فقد كان لدى الناس الكثير من الرقيق يقومون بمختلف حاجاتهم ومن بينهم غلمان مرد^(١٥٠) إذ كان اعتماد الناس في جميع حوائجهم على الرقيق.

وكان الخلفاء العباسيون لا يزدرون الرقيق بدليل أن أمهات كثير منهم كانت من الرقيق بل إن بعضا من رجال الدولة العباسية كان يفضل الإماء على الحرائر.

ويقال أن رسول الله قال لأبي عبيدة: حسبك من الخدم ثلاثة. وحسبك من الدواب ثلاثة^(١٥١). وكان الأسرى يعتبرون من الغنائم فكان للدولة منهم خمسهم. وكان الخلفاء أحيانا

يوزعون هذا الخمس من الرقيق على المحتاجين والعجزة أو من يحوز رضاهم. وكان أهل الكوفة في عهد الحجاج مثلا يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليتهم^(١٥٢) وحتى الزهاد كان لهم

عبيد وموالي مثل ميمون بن مهران في الرقة^(١٥٣) والحسن البصري^(١٥٤) بل وحتى الفقراء أيضا (لان العبيد يزاولون العمل ويعطون لمولاهم واردهم اليومي أو ما يتفقون عليه ويدعى ضريبة أو خراج).

وكانت الضريبة تتناسب مع مهنة الرقيق وهي على الأغلب لا تقل عن درهمين^(١٥٥).

وقد يضطر العبد أو (العبد) إلى ارتكاب المحرمات للحصول على مبلغ الضريبة كي يؤديها إلى مولاه^(١٦٠) قال إياس القاضي بعد أن عرض عليه غلام (عبد صغير) ارتكب سرقة ولم يحتلم بعد فأمر بتسويد وجهه وضربه حتى يدمى ظهره والطواف به فجاء رجل يسعى فقال: أصلحك الله أنه مملوك لجاري فإن فعلت ذلك كسرت ثمنه. فقال إياس: يعمد أحدكم إلى الغلام لم يحتلم فيكلفه ضريبة ولا يحسن عملا يعمله فإنما يأمره أن يسرق ويطعمه ويعمد أحدكم إلى الجارية فيقول لها اذهبي فأدي الضريبة وانما يقول لها اذهبي فازني وأطعميني (تهذيب الكمال للمزي ٣/٢١٤) واحتلم الصبي: أدرك وبلغ مبلغ الرجال وكلمة غلام قد تعني الرقيق كما في المثال السابق.

مهام الرقيق

- ١- وكان الرقيق طريقا للإثراء الفاحش ولذلك أكثروا منه وكان للزبير مثلاً ألف غلام يؤدون الخراج^(١٥٩) (أي المبلغ اليومي المتفق عليه إلى مالكهم).
- ٢- للخدمة في المنزل للعجين وتهية الطعام وقد اشترى أبو الأسود أمة للخدمة فجعلت تتعرض له في النكاح فقال فيها شعراً^(١٦١).
- ٣- العمل في الزراعة (عبيد الحوائط والحائط يعني البستان) وإن كان هذا قليل الحدوث.
- ٤- للاستمتاع بالنسبة للنساء ولكن إذا ولدت إحداهن لا يسمح لسيدها بالتنازل عنها وبيعها وتسترد حريتها بعد موته ولذلك كان صاحب الجارية الثمينة يحاذر أن تحمل منه فيخسر ثمنها^(١٦٢).
- ٥- للقتال بالأجرة وكان لأحدهم عبيد يؤجرهم للقتال بثلاثين ثلاثين درهما كل يوم فيعطيه عشره ويأخذ العشرين وقد قاتل العبيد في جيش مروان بن محمد بعمد الخيام فكانوا سببا في نصر مروان بعد أن وعدوا بالحرية^(١٦٣) وكان العبيد يرافقون مواليهم بالحرب.
- ٦- للعمل في التجارة كوكلاء تجار أو تجارا وربما امتلكوا محلات وورشاً.
- ٧- لمهام أخرى فقد جيء للمنصور بفلمان من اليمامة للحجابة والبوابة والتجسس لأنهم صلاب الوجوه.

٨- وقد تقدم أن الرقيق الخصيان خدموا القصور وبيوت الحريم منذ العهد الأموي ثم كذلك في العهد العباسي حيث أطلق على الواحد منهم لقب الخادم مثل حسين الخادم ومسرور الخادم. وكان بين الجواري المعروضات للبيع دائماً كثير من الفاتنات الفارسيات والأرمنيات والأرمنيات والتركيات والروسيات فكن يستأثرن بقلوب الرجال ومن أجل ذلك لم يكونوا يعددون زوجاتهم فقد كضاهم اتخاذ الجواري والإماء هذا التعدد واكبوا عليه إكباباً^(١٦٤). أوصى النبي بالأرقاء و أوصى بمعاملتهم بالحسنى ١/١٦٩ و أمر بعقوبتهم في بعض الحالات، (مثل: التكفير عن بعض الذنوب، صدقة، مكاتبة لاعتاقهم مقابل مال).

أباح الشرع للعبد إذا أذن له مولاه أن يعمل بالتجارة أو أية مهنة وإن يتولى منصباً سياسياً أو دينياً^(١٦٥) وقد وصل العبيد والموالي إلى منزلة تضاهي منزلة الأمراء.

وشرع عمر بن الخطاب أن تعتق العبد لئلا يموت سيدها إذا ولدت منه (ابن عساكر الزهري) دون أي قيد أو شرط فتصبح حرة لايجوز أن تباع أو تشتري^(١٦٦)، ومنع الأولاد من أب وأم عبيدين أن يباعا قبل السابعة. ومنع التفريق بين الأسرة في البيع. وجعل الشرع عقوبة العبد أخف من عقوبة الحر وفرض في الغرامة على العبد أن يدفعها سيده^(١٦٧).

٣ مكانة العبيد

كانت حضارة العالم الإسلامي على غرار الحضارات الكبرى القديمة وحضارة الإمبراطورية البيزنطية تعتمد على العبيد، فكانت القوة المحركة للطاقة مطلوبة بجزئها الأكبر من عضلات

العبيد سواء كان ذلك في المجموعات الكبرى التي تعمل في المزارع والمناجم حيث كانت اليد العاملة كلها من العبيد أو في المدن حيث كان عمل العبيد يسير جنبا إلى جنب مع عمل الأحرار . وهناك أيضا عمل العبيد في المنازل: نساء وخصيان حدام لخدمة الحريم وخدام ومغنون وموسيقيون في قصور الأمراء والشخصيات الكبيرة وكانت الجوقات الموسيقية الخاصة عنصرا أساسيا في حياة البذخ وكانت هناك مدارس خاصة في بغداد وقرطبة لتعليم الراقصين والموسيقيين وكان هؤلاء يتعلمون أيضا الشعر والأدب والنحو، ويصل سعر العبد المثقف والمدرّب إلى أرقام عالية جدا ويكتسب بعضهم شهرة عالية. وهناك شكل آخر من العبودية ليس أقلها شأنا هو العبودية العسكرية.

(٣) ما يمنع عنه المولى

وكان المولى لا يؤم ولا ينكح عربية^(١٨١) ولا يتولى القضاء^(١٨٢) وإن كان لهذه القاعدة شواذ كثيرة، فقد ولي الحسن البصري القضاء وهو مولى^(١٨٣) وتزوج بلال الحبشي عربية^(١٨٤) سأنظر كذلك البسوي ٨٠٩/٢^(١٨٥). وقد تحسن وضع الموالي في العصر العباسي وصاروا يفتخرون على العرب وينفوا في العلوم والفنون وقادوا الجيوش وأسأثروا بالكتابة والوزارة وغير ذلك وصار الجاحظ وغيره يتزلفون لهم ويسعون لمرضاتهم ويؤلفون الكتب والقصائد في مديحهم.

(١٤) النقيان (الجواري)

تقدم أن الرقة كانت مركزا هاما ثلاثجار بالرفيق ونضيف هنا أنه كان فيها نخاسون فقد دخل حسين بن الضحاک منزل أحدهم بالرفقة ووجد عنده جارية تغني^(١٩٤) وهذا معناه بالطبع أنه قياسا على ما نعرفه عن بغداد كان للنخاسين في الرقة دور للنقيان تعرض فيه الجواري من مغنيات وشاعرات يختلطن مع العشاق والشعراء وأصحاب المراتب وتتفق الأموال في هذه الدور بلا حساب. وكان النخاسون من الظرفاء أصحاب الثروات، فقد ذكر في وصف أحمد بن الحارث البغدادي مثلا، أنه كان نخاسا أنيبا بارعا ظريفا، وربما كان قد اجتمع عنده رقيق بمائة ألف دينار. وكان يعامل الخلفاء والوزراء^(١٩٥). وكان للنقيان نفوذ كبير وجاء عظيم، فكانت فضل الشاعرة مثلا في نهاية (الجمال) والكمال والفصاحة واللسان وجودة الشعر ويجتمع عندها الأدباء، ولها في الخلفاء والملوك المدائح الكثيرة، وكانت تشيع وتغصب لهذه العصابة وتقضي حوائجهم بجأها ومنزلتها عند الملوك والأشراف^(١٩٦). وقد اشترى أبو المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي (ولي دمشق عام ٢٢٧هـ) من ابنة عمه في الرفقة جارية لها نفيسة، كانت قد ربّتها وعلمتها الغناء، بثلاثة آلاف دينار^(١٩٧)، ولو كانت جارية عادية لما تجاوز ثمنها ثلاثمائة دينار على أكثر تقدير.

(١٥) العامة

وصف المسعودي العامة فقال: ومن اخلاق العامة أن يسودوا غير السيد ويفضلوا غير الفضائل ويقولوا بعلم غير العالم وهم أتباع من سبق إليهم من غير تمييز بين الفضائل والمفضول، والفضل والنقصان، ولا معرفة للحق من الباطل عندهم فلا تراهم الدهر إلا مرقلين (أي مسرعين) إلى قائد دب وضارب بدف على سياسة قرد أو متشوقين إلى اللهو واللعب، أو مختلفين إلى مشعب متمس بمخرق (مقيم بالفلاة) أو مستمعين إلى قاص كذاب أو مجتمعين حول مضروب أو وقوفاً عند مصلوب ينعق بهم فيتبعون، ويصاح بهم فلا يرتدون، وهم الذين إذا اجتمعوا غلبوا وإذا تفرقوا لم يعرفوا^(١٩٨)

ومن أين يجيئهم الفهم أو العلم أو النعمة إذا كان الواحد منهم إما عاطلا عن العمل أو أجيرا محقرا أو من باعة الطريق الذين يتجرون في محقرات البيوع كما سماهم الطبري (٨/٤٦٨ سنة ١٩٧هـ)^(١٩٩). وكان الواحد من هؤلاء يبيع الملح والشيء اليسير وهو يجول في الطرقات، ورأسماله الدرهم الواحد والثلاثة دراهم ولا يتجاوز الخمسة دراهم بينما تطحن جارية الرشيد عقدا نفيسا وتشر بعضه في لحية الوالي يحيى بن سعيد الخرشبي^(٢٠٠) وينفق المأمون والمتوكل وغيرهما مالا يحصى من الأموال في مناسبات عامة. وكما كان الأعراب يعيشون في البادية ويشغبون أو يغيرون

على غيرهم حين تضعف السلطة أو تشغل عنهم، كذلك كان العامة في المدن يقومون بالشغب بل وحتى بالنهب حين يخالون أن السلطة مشغولة عنهم أما بسبب موت الخليفة أو الوالي أو وقوع المظالم الكبيرة أو إهمال الدولة للثغور أو ازدياد الغلاء، أو وقوع الكوارث أو غير ذلك.

ففي ميخائيل: وصل الخبر إلى الرقة بموت المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ) وتأهب الناس للنهب، ولكن جاء الخبر بخلافة الواثق فسكن الناس ولكن في دمشق اجتمع خمسة آلاف شخص مع يهيس للنهب، فقتل رجاء بن أيوب الحضاري منهم أربعة آلاف وتفرق الباقون. ثم خرج الناس في دارا ونصيبين وأمد ليقوموا بقطع الطريق فخرج إليهم جيش من الخراسانية. وكان الخراسانية لا يقتلون إلا العرب ولا يقتلون المسيحيين، ولذلك نجا بعض العرب بعد أن علقوا إشارة الصليب^(٢٠١) وقد حدثت مثل هذه الاضطرابات في بغداد في الفتنة بين الأمين والمأمون^(٢٠٢) والفتنة بين المستعين والمعتز (عام ٢٥١-٢٥٢هـ)^(٢٠٣) ولدى موت المنتصر عام ٢٤٨هـ^(٢٠٤) ولدى وفاة الموفق عام (٢٧٨هـ)^(٢٠٥) وذكر الطبري الفئات التي تحركت في الفتن وهي:

باعة الطريق الذين يتجرون في محقرات البيوع،

بائعوا الفخاخ والناطف والباقي والسقاؤون،

من لا يتعاطون مهنة مثل، الطرار (النشترية)،

السواط.

العراة.

الأفارقة.

أهل السجون.

الأوباش والرعاع وغوغاء الأسواق.

وكثير منهم ليس لهم دور ولا عقارات، ومأوى بعضهم الحمامات والمساجد^(٢٠٦) - ودعاهم الطبري بالغوغاء والمنتبهة^(٢٠٧) مع أنهم إنما يقومون بعملهم للتتفيس عما يشعرون به من الظلم والإهمال والاستغلال والإذلال، وذكر الطبري أنهم كانوا ينهبون سلاح من يمر بهم من جماعات الترك وغيرهم وينتهبون دور علية القوم، ويكسرون أبواب السجون، ويتقبن الحيطان، ويستولون على مجالس الشرطة وعلى خزائن السلاح^(٢٠٨) - على أن للعامة أيضا مواقف بطولية فيها تضحية واخلاص وذلك مثلا:

- حين كانوا يتطوعون بالجهاد ويحاربون بوصفهم مطوعة إلى جانب الجيش النظامي^(٢٠٩)

- عندما كانت تبلغهم استغاثة أهل الثغور فيهبون لنجدتهم، كما حدث في عام ٢٢٣هـ حين خرج أهل ثغور الشام والجزيرة وأهل الجزيرة لنجدة أهل زيطرة وملطية^(٢١٠).

- دافعوا عن بغداد ونصروا الخليفة الأمين ضد طاهر بن الحسين وجيشه من الخراسانية.

- هب العامة في الرقة لمقاومة القرامطة ونجدة أهل الرضى^(٢١١).

- قام عامة الرقة مع أميرهم للدفاع عن مدينتهم ضد ابن حمدان^(٢١٢).

- نقلوا جثة زكي الشهيد من جعبر إلى الرقة لدفنها^(٢١٣)

١٦) الطبقة المتمردة

اتسعت رقعة المملكة الإسلامية وامتدت إلى مساحات شاسعة بين آسيا وأفريقيا وأوروبا، وكانت الوسائل المتوفرة في ذلك الوقت لا تتيح للسلطة المركزية أن تقوم بضبط هذه الرقعة على الوجه الأفضل، ولم يكن ذلك سهلا حتى ولو توفرت الوسائل، وتوفر الجهاز الإداري الفاضل في العاصمة. وفي الأقاليم وكان لكل إقليم مطالبه وعاداته وطموحه، ولكل والي هواه وأطماعه ووقع كثير من المظالم في جميع الأنحاء واستغلت أصناف من الناس أصنافا أخرى وبينما كان البعض ينفق بالملايين كان الآخرون لا يجدون الكفاف.

فشعر الكثيرون بالفين ويئس الكثيرون من الحياة الكريمة وتمرد الكثيرون في كل مكان وأطلقت عليهم أسماء كثيرة حسب موطنهم أو عشيرتهم، أو عملهم أو زعيمهم، وقد ذكر الجاحظ أسماء كثيرة لجماعات ينطبق عليها الوصف بالتمرد وهي تختلف عن الخوارج أو القرامطة أو الشيعة مثلا الذين يهدفون إلى إزالة النظام من أساسه واستبداله بنظام آخر فإن تلك الجماعات لم تكن ترمي إلا إلى الحصول على المغانم وإثبات حقها بالوجود والتمتع بما يتمتع به عليه القوم، فسلكت إلى ذلك مسلك التمرد والعصيان، واتخذت ذلك حرفة تعيش عليها، أو تطلع عنها ثم تعود إليها حسب الظروف، وإلى جانب هؤلاء لجأ آخرون إلى أعمال أهون من ذلك كالكدية والاحتيال على الناس بالوعظ وغيره أو السرقة أو قطع الخريق أو التجسس وقد فضل الجاحظ هذه الأعمال الكثيرة إذ قال على لسان خالد بن يزيد مؤنئ المهائبة خالويه المكدي وهو يوصي ابنه عند موته:

أنا لو ذهب مالي لجلست قاصدا، أو طفت في الأفاق - كما كنت - مكديا، للعبة وافرة ببيضاء، والحلق جهير طلق، والسمت حسن، والقبول علي وأقع، أن سألت عيني الدمع أجابت، والقليل من رحمة الله خير من المال الكثير وصرت محتالا بالنهار، واستعملت صناعة الليل، أو خرجت قاطع طريق، أو صرت للقوم عينا ولهم مخبرا، سل عني صغاليك الجبل، وزواقل الشام. وزط الآجام، ورؤوس الأكراد ومردة الأعراب، وقتاك شهر بط، ولصوص القفص، وسل عني القيقانية والقطرية، وسل عني المتشبهة وذباحي الجزيرة: كيف بطشي ساعة البطش وكيف حيلتي ساعة الحيلة وكيف أنا عند الجولة وكيف ثبات جنائي عند رؤية الطليعة وكيف يقظتي إذا كنت ربيئة (أي: مراقب وحارس في الأعلى لينذر من عدو) وكيف كلامي عند السلطان إذا أخذت، وكيف صبري إذا جلدت، وكيف قلة صبري إذا حبست، وكيف رسفاني (يمشي رويدا) في القيد إذا أثقلت، فكمن من ديماس (حفرة تحت الأرض لا منفذ لها) قد نقيبته، وكمن من مطبق قد أفضيته، وكمن من سجن قد كابدته^(١١٤). وما ذكر في القسم الثاني كلهم متشابهون في الفلك وسنكتفي بشرح ما يهمنا في الجزيرة وهو: الصغاليك والأعراب وذباحو الجزيرة ونشير إلى الزواقل أيضا ومما يذكر أن نصر بن شبت أشار إلى زط الآجام إذ قال وهو يتحدى المأمون:

(ويلي عليه هو لم يقو على أربعمئة ضفدع تحت جناحه (يعني الزط) ويقوى على حلبة العرب)^(١١٥). وكان خروج الزط في البطيحة في البصرة^(١١٦) وإذا كانت كلمة الزواقل اقتصر على فتاك الشام من القيسية، فإن كلمة صغاليك ظلت تستعمل بمعنى عام وتطلق على الفتاك في أي قطر.

(١) الزواقل

لم توضح المصادر التي بين أيدينا المراد بكلمة (الزواقل) ولكن يستنتج من النصوص التي وردت فيها أنهم صغاليك الأعراب من قيسية الشام وخاصة حوران اتخذوا لأنفسهم زيا خاصا هو اخراج الشعر تحت القلنسوة والعمامة، كانوا يسارعون إلى المشاركة في الفتن كعصية الشام وخروج نصر بن شبت والفتنة التي تلت مقتل المتوكل.

(٢) الصغاليك والفتيان

الصعلكة في اللغة هي: الفقر والتجرد من المال. وقد اكتسبت كلمة الصعلكة معنى اللصوصية والفتن أو قطع الطريق. والصعلكة ظاهرة اجتماعية قديمة أطلقت منذ القديم على عمل أفراد أو جماعات من الناس لم يعتقوا عقيدة سياسية أو دينية خاصة. ولا طمعوا في الخلافة أو الإمارة وما أشبه ذلك، وإنما كانوا مرتزقة لا عمل لهم أنسوا في أنفسهم فرطاً من القوة واللباس والجرأة فوجدوا في الصعلكة السبيل الوحيد الناجح لكسب العيش الكريم فاتخذوها حرفة وانصرفوا إليها فقطعوا الطرق وأهاجوا الأمنين، فانضمت إليهم الأتباع ممن شاكلهم في الطباع، واحتل بعضهم الحصون والبلدان وحاربوا مع السلطان تارة وضده تارة أخرى

لا فرق لديهم ماداموا ينشدون الغنم والكسب. وكانوا يختارون الاطراف القاصية على الأغلب والأوقات التي تشغل فيها السلطة عنهم في افطار اخرى ودعاهم الناس ودعوا أنفسهم بـ (الصعاليك). وكان سلوك الصعاليك سيئا في بغداد إذ أساءوا المجاورة لأهلها وجأهروا بالفاحشة وتعرضوا للحرم والعبيد والغلمان وعادوهم لمكانهم من السلطان. حتى امتلأوا عليهم غيظا وحنقا^(٢٤٣). استمرت كلمة الصعلكة تعني اللصوصية والفتك وقطع الطريق وغير ذلك، ففي الطبري: (وفيها تصعلك فارس العبدى، فعاث بناحية سامراء، وصار إلى كرخها فانتهب دور آل حسنح...)^(٢٤٤).

بين الصعاليك والفتيان

لا يوجد غائبا في النصوص القديمة فرق دائم بين الصعاليك والفتيان، وأحيانا يطلق الاسمان في نفس الوقت على نفس الفئة. فالفتيان تعني أيضا أهل الجلد والشجاعة. وفي تهذيب ابن عساكر: (أشترى بعشرين دينارا فرسا وسرجا ولجاما وسلاحا، وخرج إلى رجل من الفتيان ممن يقطع الطريق، معروف مشهور بالشجاعة والفروسية والإحسان إلى الفتيان والصعاليك)... في عهد خمارويه بن أحمد بن طولون^(٢٤٥).

وكانت الصعلكة أيضا تعاطى الغناء وأسباب اللهو وقيل: (كان سبب طلب إبراهيم الموصلى الغناء، أنه لما خرج إلى الموصل سحب جماعة من الصعاليك كانوا يصيبون في الطريق، ويصيب (إبراهيم الموصلى) معهم ويجمعون ما يفيدونه فيقصفون (قصف الرجل: أقام في الطعام والشراب واللهو) ويشربون ويغنون فتعلم منهم شيئا من الغناء^(٢٤٦)).

وفيما بعد صارت كلمة (الصعاليك) تطلق أيضا على متسولين أمام الجوامع وداخلها، فقد ذكر ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (٦٤٨-٧٢٩هـ): (ويأمر المحتسب القومة أن يقفوا على أبواب الجامع يوم الجمعة، ويمنعوا الصعاليك من الدخول للكدية (الكدية: حرفة السائل الملح) جملة واحدة ففي دخولهم ضرر على الناس، ويمنعونهم من الاشتغال بالذكر والعبادة ويشوشون عليهم في الصلاة ولا سيما من يقف ويحكي أخبارا أو قصصا ما أنزل الله بها من سلطان، ويشغلون العوام بسماع كلامهم عما حضروا لأجله)^(٢٤٧).

٣) الخناقون بالرقعة

يتحدث الجاحظ عن الخناقين بالرقعة ويقول: (يظهر بعضهم بعضا، فلا يكونون في البلاد إلا معا، ولا يسافرون إلا معا، فربما استولوا على درب بأسره أو على طريق بأسره، ولا ينزلون إلا في طريق نافذ، ويكون خلف دورهم إما صحارى وإما بساتين وإما مزابل وأشياء ذلك، وفي كل دار كلاب مربوطة، ودقوف وطبول، ولا يزالون يجعلون على أبوابهم معلم كتاب منهم. فإذا خنق أهل دار منهم إنسانا، ضربت النساء بالدقوف. وضرب بعضهم الكلاب، فسمع المعلم فصاح بالصبيان: انبهوا، وأجابه أهل كل دار بالدقوف والصنوج كما يفعل نساء أهل القرى، وهيجوا الكلاب فلو كان المخنوق حمارا (قال المحقق في الهامش: الحمار أجهر الحيوان صوتا) لما شعر بمكانه أحد، كما كان ذلك بالرقعة^(٢٤٨)).

ثم أورد الجاحظ مثالا على الخناقين بالرقعة ثم قال: (وقد كان بالكوفة شبيه بذلك وفي غيرها من البلدان). ولعل الخناقين هم الذين أشار إليهم الجاحظ بكلمة (ذباحي الجزيرة)^(٢٤٩). والخناقون بالكوفة من الغالية^(٢٥٠).

وأشار الرشيد في كلمة له إلى: المتلصصة ومخيفي السبيل^(٢٥١) في الجزيرة.

٤) الأعراب أو (البدو)

يطلق اسم (العرب) على من استوطن القرى والمدن العربية منذ البدء أو من أنتقل إليها وأستقر بها، فإن لحقت طائفة منهم بأهل البدو قيل: (تعربوا) أي صاروا أعرابا بعد ما كانوا عربا. والأعراب أو البدو هم سكان البادية من العرب رعاة الابل الذين لا يقيمون في الأمصار ولا

يدخلونها إلا لحاجة^(٢٥٧) والحضر والحاضرة خلاف البادية وهي المدن والقرى والريف،
والحاضرة والحضر الحي العظيم أو القوم^(٢٥٨) والبدو ينزلون حاضريهم عند هيج العشب (أي
يبس واصفر) ونقص الخرف (الخريف: أول ما يبدأ المطر في إقبال الشتاء) وفناء ماء السماء في
الغدران فلا يزالون حاضرة يشربون الماء العد (الماء الجاري الذي له مادة لا تقطع) حتى يقع ربيع
الأرض، خرفيا كان أو شتيا، فإذا وقع الربيع توزعتهم النجع (أي: طلب وتساقط المطر) وتتبعوا
ساقط العشب يرعون الكلا والعشب، إذ أعشبت البلاد، ويشربون الكرع (وهو ماء السماء)
ويصيحون بذلك بادية، فلا يزالون في النجع إلى أن يهيج العشب من عام قابل، وتنش (أي: تنش
ويذهب مأوها) الغدران فيرجعون إلى حاضريهم على أعداد الماء^(٢٥٩).

والبدو يرعون الإبل لأنها تستطيع تحمل العطش والجوع، بينما الغنم لا تستطيع ذلك،
ويتميز البدوي عن الراعي بأن البدوي يعيش في بيته المتحرك (الخيمة) التي ينقلها معه أين
ذهب، بينما يعيش الراعي في القرية، وإذا خرج منها عاد إليها بين الحين والحين.
وكان لكل قبيلة قسم في البادية وقسم في الحضر، فقريش مثلا فيها: قريش الظواهر (ي
ينزلون ما حول مكة) وقريش الأباطح (داخل مكة)، وكلب فيها كلب الحضر وكلب البادية. والصلة
بين القسمين غير منقطعة^(٢٦٠).

كان البدو يعيشون في ظروف طبيعية قاسية كل القسوة وكانت أسباب العيش تقصر في معظم
الاقاات عن كفاية السكان، ومن ثم كان القوي تتملكه نزعة إلى أن يغتصب من الضعيف وسائل العيش،
وأخصها الإبل فأدى هذا إلى انتظام البدو في قبائل وعشائر على درجة كبيرة من التضامن الجماعي^(٢٦١).

كان البدو من العرب منذ القديم يغيرون على أراضي الفرس والبيزنطيين ثم أستقر بعضهم
بعشائريهم في البادية، وكان البدو هم وحدهم القادرون على قيادة القوافل التجارية عبر الصحراء
وحمايتهم مما دفع فارس والروم إلى القبول بمملكتي الحيرة و الفساسنة على حدودها وأتاحت
قيادة هذه القوافل للبدو الحصول على الكثير من السلع التي لا تتوفر لديهم في السهوب.

إذا خرج المرء من مدينة الرقة مثلا أو من أية مدينة في الجزيرة ومن رسائقيها (قراها
ومزارعها) صار في الصحراء أو البادية حيث الأعراب أو البدو^(٢٦٢) وقد رأينا أن سكان الرقة
معظمهم من الأعراب وخاصة من بني قيس وبني أسد ورأينا أنه كان للأعراب قبل الفتح
الإسلامي حاضرة حول الرقة وأن عثمان أمر معاوية أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن
والقرى وربما لم يتحقق هذا، فنزل كثير منهم حول المدن والقرى إذ كان هذا دأبهم منذ الزمن
القديم وهو ضروري لحياتهم في حاضريهم وفي منتجعهم لا يستطيعون عنه حولا.

الخفارة

يعيش البدو على مواشيهم ومنتجاتها من لبن وسمن وصوف ووبر وشعر وعلى الخفارة (خفر
الرجل وخفر عليه: أجاره ومنعه وأمنه، وكان له خفيرا يمنعه. خفير القوم: مجيرهم الذي يكونون
في ضمانه ما داموا في بلاده. والخفارة: الذمة والخفارة جعل الخفير. والخفارة قديمة في
الجزيرة وكان أخوان من فزارة (من قيس عيلان) يخفزان قرية بين آمد وسميساط ويقال لها (تل
حوم) فطال مقامها بها حتى أثريا، فحسدهما قوم من ربيعة^(٢٦٣). وهذه خفارة داخل المدن والقرى
أو حولها. وكانت الخفارة أمرا معروفا في بغداد وأسواقها وأرياضها وطرقها، وكانت تقرض حتى
على المارة. والخفارة أنه كان الرجل يأتي بعض أصحاب البساتين فيقول: 'بستانك في خفري،
أدفع عنه من أراده بسوء، لي في عنقك كل شهر كذا وكذا درهما شايئا أم أبيا'^(٢٦٤).

تقدم قول ابن حوقل (توفي سنة ٣٦٧هـ) أنه في عهده كثرت في الجزيرة بطون قيس عيلان
فغلبوا على غيرهم من قبائل مضر، وأزالوهم عن جل ديارهم وصاروا بادية حاضرة، وملكوا غير
بلد وإقليم في الجزيرة وقد لجأ أهلها إلى الخفائر والأزمة^(٢٦٥).

وتقع الرصافة في وسط البرية ولبني خفاجة على أهلها خفازة يؤدونها إليهم صاغرين، وبالجملة لولا حب الوطن لخريت. وفيها جماعة من أهل الثروة لأنهم بين تاجر يسافر إلى أقطار لبلاد، وبين مقيم فيها يعامل العرب^(٣٧٨)، وبنو خفاجة هم من ابن عمرو (بطن من عقيل بن كعب من قيس عيلان^(٣٧٩)). وفي رسالة ابن بطلان التي كتبها عام ٤٤٠هـ، أن سكان حصن الرصافة بادية أكثرهم نصاري معاشهم تخفيف القوافل وجلب المتاع والصعاليك مع اللصوص^(٣٨٠) يبدو من هذا النص أنه يضاف إلى الخفازة نقل المتاع على الأبل من قبل الخضر وهذا واضح في النص التالي وكانت جماعة من كلب تخضر الطريق على البر بالسماوة فيما بين الكوفة ودمشق على طريق تدمر وغيرها وتحمل الرسل وامتنعة التجار على إبلها^(٣٨١).

كان ولاية العباسيين يستغلون الأعراب لتهديد أهل المدن والانتقام منهم كما فعل بالموصل واليهما العباس بن محمد بن إسحاق بن كنداج عام ٣٠٧هـ (صلة تاريخ الطبري ١١٣، ابن الأثير ١٢١٨)، لكن الدولة حرمت الأعراب من ولاية حفظ الطرق التي هي منطقة نفوذهم ومكان عيشهم وكانت الدولة تكل ذلك للاتراك بأجور مرتفعة. ففي اصلاحات علي بن عيسى أنه طلب ابن أبي الساج ثلاثة آلاف ألف دينار لحرب القرمطي وحفظ طريق مكة، فاقترح علي بن عيسى أن يلزم خمسة آلاف فارس من بني أسد طريق مكة بعيالاتهم، ويثبت لهم مال الموسم فأنه يكفيهم، ويبيع لحرب القرمطي خمسة آلاف من بني شيبان بأقل من ريع المال الذي كان ينفق على ابن أبي الساج ثلاثة آلاف ألف دينار، وما يطلبه بنو شيبان ألف ألف دينار (الطبري ٣٧٦٨ سنة ١٩٢هـ). ولم يعمل بهذا الاقتراح طبعاً. وهذا يظهر بوضوح الفرق بين معاملة الدولة للخراسانية أو الاتراك الذين يحصلون على كل ما يطلبون دون حساب وبين معاملة الأعراب الذين يحرمون من كل شيء ثم يحاسبون حساباً عسيراً بما في ذلك القتل والتعذيب واشد أنواع العقوبات دون أن تؤمن لهم مؤونتهم ودون تحسين معاملتهم.

لقد كانت ولاية الموسم (موسم الحج لمكة) أشرف ولاية. والظاهر أن من يتولى الموسم يتبع له كل ما في طريقه ويعطى جعلاً معيناً ينصرف به.

العصبية القبلية

ظلت الصلة قوية بين عرب المدينة وأعراب الحاضرة والبادية سواء في الرقة أم في مدن الجزيرة وسواء كان ذلك في صدر الاسلام أم في العهد الأموي أم في العهد العباسي وكان للخلفاء مصلحة في الإبقاء عليها واستثمارها لمصلحتهم.

وحين خرج إسحاق بن مسلم العقيلي على العباسيين في الجزيرة عام ١٢٢هـ، التف حوله ستون ألفاً من العرب والأعراب، وحين خرج نصر بن شيبان العقيلي على العباسيين في الجزيرة أيضاً زمن الأمين والمأمون، التف حوله معظم عرب ديار مضر.

وفي العصر العباسي حين نزل أبو غانم الطائي عبد الرحيم بن ربيعة بالهني وتهدد أهل الرقة وقال فيهم كلاماً بذيئاً عبر إليه زعيم من بني أسد وزعيم من بني عقيل في جماعة فقتلا من أصحابه بشراً^(٣٨٢).

نزل أبو غانم (عبد الحميد بن ربيعة الطائي من قواد الثورة العباسية بالهني في بعض أيامه فتهدد أهل الرقة وقال: قولوا لنسائكم يحلقن ويتهيان لـ...، واساء اللفظ، فعبر إليه مصعب بن الضحضح الاسدي وعبد الله البخترى العقيلي في جماعة فقتلا من أصحابه بشراً (انساب الاشراف للبلاذري تحقيق الدوري ص ١١٠)

ولما أقلت عمر بن هبيرة (ت ١١٠هـ) وهو فزاري من قيس عيلان من البادية وكان أمير العراقيين لهشام بن عبد الملك) من سجن خالد بن عبد الله القسري، مر بالرقعة السوداء فإذا امرأة من بني سليم على سطح لها تحدث جاراتها ليلاً وهي تقول لا والذي أسأله أن يخلص عمر

ابن هبيرة مما هو فيه، فوقف عمر وقال لأصحابه 'هل معكم شيء؟' فأتوه بمائة درهم، فصيرها في صره فرمى بها كلها وقال لها 'قد خلص الله ابن هبيرة مما كان فيه، فطيبني نفسا' (٢٧٣).
وحين خرج الوليد بن طريف الشيبثاني أرسل لقتاله يزيد بن مزيد الشيبثاني من قبيلته، والأمثلة على ذلك كثيرة جدا.

سمة الأعراب

كانت الأعراب في الجزيرة والشام بعد صدر الإسلام، كمادتهم في كل مكان، يحبون السلب والنهب ويصعب عليهم الانضباط تحت قبضة السلطة الحاكمة. وفي حالة نشوب نزاع بين فريقين، كان الأعراب يسبغون مع من يدفع لهم أكثر، وفي الطريق الذي يحقق مغنما أكبر، ولهذا السبب بالذات كثيرا ما تسببوا في هزيمة الجيش الذي يسبغون معه. حدث هذا مثلا لسيف الدولة مع قبيلتي قشير ونمير، حين كان يحارب توزون، إذ نهبتا سواد (ما يشتمل عليه من المضارب والأدوات وغيرها من أدوات الحرب) عسكر سيف الدولة عوضا عن قتال أعدائه، فانشغل سيف الدولة بقتالهما، وأنهزم أمام توزون بسببهما، نقلت ذلك أمينة بيطار عن كتاب سيف الدولة لكتار وقالت بعد أسطر، يبدو من الحروب التي اضطرت سيف الدولة إلى خوضها ضد الأعراب، أنه كان قاسيا في معاملتهم أو أنه لم يكن يهتم بأمورهم ومطالبهم (٢٧٥).

وجرى معظم المؤلفين على لوم الأعراب وتجريعتهم. ومع أن هذا الوصف قد يكون قريبا من الواقع، إلا أن الأعراب معذرون في ذلك، ولهم الحق فيما فعلوه إذا نظرنا إليهم بنفس النظرة التي ننظرها إلى عصرهم ومعاصريهم.

ولو قارنا بين وضع أهل المدن وبين وضع البدو لوجدنا:

١- سبح أهل المدن، اعتبارا من الخليفة فما دون، في بحار من انترف أو على الأقل أمنت لهم الخدمات العامة بينما أهمل الأعراب.

٢- أثرى كثير من التجار لأنهم اقلتوا من دفع الضرائب والزكاة، بينما تستوفي الصدقات على مواشي الأعراب بجميع الوسائل العينية (٢٧٦).

٣- كان البدو يجدون صعوبة في بيع مواشيهم ومنتجاتهم حتى اضطروا إلى التعامل مع الزنج (٢٧٧) ومع القرامطة (٢٧٨).

٤- كان التجار وأرباب القوافل يدفعون بين مدينة وأخرى رسوما كبيرة، حتى إذا مروا بالبادية وأن لأعراب أن ينالوا نصيبهم، قتر عليهم أهل القافلة مع أنهم بما فيهم من قوافل الحجاج تجار يستعيدون كل ما يدفعون على بضائعهم بل وأكثر مما دفعوا حين يبيعونها. ولذلك وردت أخبار كثيرة عن مهاجمة الأعراب للقوافل سواء على طريق الحج أم على غيره (٢٧٩) ومنها خبر عن قافلة خرجت من هيت إلى الرقة، فقطع عليها الطريق إذ تأمر خفراؤها مع أهلهم من الأعراب (٢٨٠).

٥- وكان الشاعر العقيلي على حق حين قال في مثل هذا المقام :

عليك ثوبان وأمي عارية فائق لي ثوبك يا ابن الزانية (٢٨١)

وقد وصف المقدسي الرقة في عهده (٣٢٥-٣٩٠هـ) فقال الأعراب بالرقعة محيطة والطرق إليها صعبة (٢٨١).

٦- كثيرا ما غدر الخلفاء والأمراء والرؤساء بالأعراب بعد اعطائهم الأمان. مثال على ذلك: غدر محمد بن المولد بغطفيف بن نعمة إذ قتله بعد أن أمنه (٢٨٢).

بل وكثيرا ما غدر الرؤساء بعضهم ببعض فقتل الأخ أخاه والعبد سيده، وغير ذلك من الجرائم التي كانت شائعة في ذلك العهد، فلماذا لا تطلب مكارم الأخلاق إلا من الأعراب!

٧- لم يبذل أي جهد لتحسين أحوال الأعراب وظلت أحوالهم لا تتبدل رغم مرور مئات السنين.

٨- جعلوا مادة للتندر، ونحلوا كثيرا من النوادر والفكاهات ونسب إليهم كل قبيح، وترجم ذلك إلى أمثال وقصص بل وإلى أحاديث زعم أنها صدرت عن النبي، وإلى أحكام فقهية. فروي حديث: (من بدا جفا) أي من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب. وروي حديث: (لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية) وفسر أبين الأثير ذلك بقوله (كرهت شهادة البدوي لما فيه من الجفاء في الدين، والجهالة بأحكام الشرع، ولأنهم في الغالب لا يضبطون الشهادة على وجهها). قال: (وإليه ذهب مالك، والناس على خلافه) (٢٨٣).

وقد خاصم عمر بن عبد العزيز يعقوب بن مسلمة بن عبد الله، فقال عمر اسكت انت ابن اعرابية جافية (٢٨٤) وقيل عن الأعرابي (أنه بوال على عقبيه) وحين تزوج الفرزدق حدراء بنت زبي بن سطام بن قيس، قالت له زوجته السابقة النوار تعيره: (ويلك أتزوجت أعرابية دقيقة الساقين بواله على عقبيه بمائة ناقة!) (٢٨٥). مما يدل على أنه حتى مهر الأعرابية كان أقل من مهر الحضرية.

وكانت ميمونة زوجة الرسول خالة لكل من يزيد بن الأصم وعبد الله بن عباس ولكل منهما رواية عن زواج ميمونة لكن عمرو بن دينار أخذ برواية ابن عباس لأن الآخر علي حد قوله: أعرابي بوال على عقبيه (٢٨٦). ويجب ان نتسائل هنا اكان الماء موفرا لدى الاعرابي ليفسل عقبيه! وكتب الأدب حافلة بنوادر الأعراب ومثالبهم وبالسخرية منهم. ومن ذلك أن عبد العزيز بن أبي جعفر المنصور وكان حدثا خرج على الناس متكيا قوسا ومعتمما بعمامة مترديا ببرد في هيئة غلام اعرابي راكبا على قعود (القعود من الابل: ما أتخذ الراعي للركوب وحمل الزاد والمتاع) بين جوالقين (الجوالق: وعاء من صوف أو شعر أو غيرهما، وهو عند العامة شوال) فيهما مقل (المقل: حمل الدوم وهو يشبه النخل) والمقل صمغ شجرة يسمى الكور وهو من الأدوية) ونعال ومساوليك وما يهديه الأعراب. (٢٨٧).

أعود فاقول: يجب أن ينظر إلى الأعراب على ضوء أخلاق عصرهم ومعاصريهم ويكفي أن نذكر مثلا واحدا على ذلك محمد بن أوش وكان من أهل السلطة ثم انقطعت عنه وعن أصحابه الأموال فعبثوا بأهل القرى والسابلة وأكثروا الغارات والنهب وقالوا: (ان كان النهب والقتل جائزا في مدينة الإسلام) وراء عز السلطان فما استتكار ذلك في الصحارى والبراري (٢٨٨).

١٧- الطبقات الدنيا في المدن والريف

كان السوق هو المركز الاقتصادي للمدينة بسكانها التقليديين وهم الحرفيون والعمال اليدويون والعتالون ومن الأحرار والعبيد والمنادين وعندما ضاقت بهم سبيل العيش أصبحوا يثيرون المتاعب أكثر فأكثر وكثيرا ما هزتهم الاضطرابات.

كان يعيش في الريف صغار الملاكين الذين اقتروا، والعمال المياومون البائسون وكان المرابون الكبار من سكان المدن يطردونهم من أراضيهم ويوظفون جزءا من أرباحهم الكبرى التي تدرها عليهم التجارة في شراء العقارات الزراعية، وتزيد المدينة سنة بعد سنة من سيطرتها على الريف وكان السكان الريفيون إلى جانب ذلك مسحوقين بالضرائب التي يزداد مقدارها مع انخفاض القيمة الشرائية للعملة واشتداد الدولة في تحصيلها وترسم لنا تفاصيل هذا البؤس الذي كان يسود عالم الريف في ما بين النهرين وسورية مصادر مسيحية (نسطورية ويعقوبية) تؤرخ سوريا في القرنين التاسع والعاشر الميلادي وأوراق البردي المصرية حتى أنه لم يعد هناك سلام بسبب هرب الريفيين من قراهم يتوهون في كل مكان في محاولة للاختفاء عن الجباة والدائنين من أهل المدينة وقد انزل هؤلاء البؤساء شيئا فشيئا نحو السرقة وقطع الطريق.

لقد أصبحت الاضطرابات تعم الأرياف وكانت الحكومة تكافح هذه الاضطرابات بهدف ضمان الاستقرار واسترجاع مطارح الضريبة وإرجاع الأرض إلى الزراعة.

١) الفلاحون وأهل الريف المزارعون

أقبل العرب على الزراعة في عهد مبكر، وعملوا فيها إلى جانب السكان الأصليين وكان لزراعهم أغلبية أهل البلاد الإسلامية، بل أغلبية أهل الأرض حتى اليوم، والزراعة عمل صبر وجهد واحتمال، لأن الزراع دائماً في خدمة الأرض وما يزرعه فيها، وهو يحكم انتظامه، للمحصول وتوالي أزمته الزراعية، مرتبط بالأرض، يقوم بينه وبينها ارتباط وثيق، فهو لا يفارقها إلا إذا أجبره على ذلك مجبر وهو يحتمل في سبيل الأرض الكثير من المتاعب والمظالم.

ورغم المتاعب الكثيرة التي كان الزراع يلقونها على أيدي الحكومات في بلاد الإسلام جميعاً، فإنهم واصلوا عملهم في صبر واحتمال، واستطاعوا أن يقدموا للمجتمعات كل حاجاتها من الأغذية.

الفلاحون في طول البلاد الإسلامية في ظروف متماثلة تقريباً، تمتاز بالبساطة والهدوء وتماسك الحياة العائلية فيها، وكانت القرى مغلقة على نفسها تماماً، يندر أن يدخلها غريب، وقلماً يغادرها أحد من أهلها إلا إلى قرية مجاورة، ونادراً ما كان أهل القرى يزورون العواصم، وكذلك كان يندر أن يزور أهل المدن تلك القرى إلا إذا كانت لهم أملاك فيها، أو كانوا جباة ضرائب أو من عمال الدولة.

وقد كانت هذه الحياة المغلقة سر قوة القرية وثباتها، وقد تحطم الحوادث أو الغارات والمحن المدن الكبيرة، ولكنها تعجز عن القضاء على قرية صغيرة خافية في بطن الريف أو منتشرة في كنف جبل، لأن الغزاة لا يتوقعون عندها، ولأن أهلها يغادرونها عند الخطر ويختفون في الأوغار والأقفار حتى تقتضي الغارة ثم يعودون ليواصلوا حياتهم. ودور القرى البسيطة يسهل إعادة بنائها بكلفة قليلة في حين تعسر إعادة بناء المدينة. وهذه القرى الصغيرة هي التي حافظت على جماهير أمم الإسلام خلال هذا التاريخ الطويل.

والقرى هي التي تغذي المدن بالعنصر البشري العظيم، فقد كان الطامحون من شباب القرى يباحسونهم إلى المدن طلباً للعلم أو العمل أو فراراً من الظلم... (٢٩٠).

إن الفلاح مرتبط بأرضه وقريته. فإذا كان يتسنى لسكان المدينة أن يحمي نفسه من البدو بإقامة الأسوار والبوابات فإن الفلاح لا يملك هذه الإمكانية ويتربط عليه أن يدبر أمره للتكافؤ مع البدو وتسويقه، والواقع أن مصيره يخضع لحماية الدولة، وذلك أن الأرض التي ينتفع منها، بما فيها من نباتات، معروفة جيداً لمربي الماشية وقطيعه. ثم أن مخزن مؤونة الفلاح يحتوي على مالا يملكه البدوي، المنتجات النباتية ولاسيما الحبوب. ولا يتعارض مع القيم البدوية أن يتوغل البدوي في مناطق حياة الفلاحين وسكان المدن بغية الرعي. وليس سوى التفاهم والتعاون والحماية السياسية والعسكرية التي تؤمنها السلطة المركزية بقادر على رد البدو إلى مناطقهم التي يستطيعون هم وحدهم الاستفادة منها (٢٩١) (٢٩٢).

٢- الأحوال الاجتماعية لأهل الذمة

احتل أهل الذمة أرفع المناصب في الدولة رغم الأوامر المتكررة بين حين وآخر بعدم استخدامهم، فكان منهم وزراء وكتاب وصار على الناس أن يجمالوهم سواء رضوا أم كرهوا، فكان قاضي بغداد يقوم لعبدون بن صاعد الوزير النصراني، رغم إنكار اليهود، مدعياً بأن عبودون سفير بين المسلمين والخليفة (٢٢٥).

٦) الرهبان العموديون

شهد العالم في بداية القرن الرابع الميلادي انقلاباً دينياً جذرياً وكبيراً، وهو الاعتراف الرسمي لقسطنطين الكبير (٢٨٠-٣٣٧م) بالمسيحية التي كانت حتى ذلك التاريخ تعيش في الخفاء وذلك بسبب الاضطهاد، فظهرت علانية وحصلت على كامل حريتها.

استيقظت في العالم الشرقي جذور العريقة والثقافة القديمة من ارامية ومصرية، وفتح غطاء الرهبنة ورفضها لمجتمع عصرها، وظهرت الرهبنة السورية التي سعت للتوصل إلى انهرب من العالم وسط منطقة مأهولة من متابعة البقاء في هذا العالم، وحملت في طياتها جذور التباهي.

تشكل العمودية خطوة نحو الامام في تاريخ الرهبنة لأنها جمعت بين مبدأين متناقضين في الظاهر هما: حياة الانعزال، وواجب التبشير. فكان الراهب العمودي يعيش بعيدا عن العالم في منتصف الطريق بين السماء والأرض، ولكنه ظل على احتكاك مباشر مع مجريات حياة عصره، فاكسب العمودي شعبية واسعة بين سكان الريف الذين تسارعوا إلى اقدام العمود متأثرين بهذا النمط من الحياة. وان داعي التبشير والانفتاح على العالم جعل الراهب العمودي يختار بشكل دائم موقعا استراتيجيا لممارسة هذا النوع من الحياة أي طريقا تجاريا ذا حركة مرور كبيرة.

عمودي: يراد بهذه الكلمة، الناسك الذي ينقطع إلى عبادة الله في صومعة فوق عمود أخذا من طريقة سمعان العمودي الذي استتبط هذه الطريقة عام ٤٥٩م، ودامت العمودية حتى منسلخ المئة الخامسة عشرة (اللولوء المنثور ٥٠٠). ويذكر ميخائيل السوري عمودين في نواحي الرقة، وقد استشهدا اثناء ردة فعل الخلقيدونية ضد المونوفيزيين في عهد جوستين الاول (٥١٨-٥٢٧م) الذي امر بذبح كل من في الدير التي كانت في الرقة، ومنهم القديس زكا، وكل الرهبان. وهناك عمودي يدعى سمعان في دير الرقة لم يأكل طول حياته أي طعام لذيذ، واكتفى بجذور الاعشاب في الشتاء وبالخضار في الصيف، بينما كان يقضي وقته في تأمل عجائب الله، كما كان هناك عمودي آخر يقوم بالمعجزات واسمه توما الداري (من دارا التي تتبع نصيبين في ديار ربيعة) وهو طبيب بارع تحترمه الملائكة نفسها، وقد حكم على الاثنين بالموت بعد جدل طويل وعقيم. ويذكر أيضا عن ابراهيم التيلاوي أنه عمودي رقي من اسقفية الرقة بالقرب من تيللا في القرن العاشر الميلادي (كتاب: الرهبان العموديون السوريون ترجمة: صفحات ٢٦-٤٦-١٢٢).

الباب السابع

بعض الفئات الاجتماعية

- ١- غوايتاين ١٣٢
- ٢- ن.م ١٣٦
- ٣- نشوار المحاضرة ٢١٢/٧ ، القيار: صاحب القاري
- ٤- الطبري ٢٥٦/٩
- ٥- غوايتاين ١٤٨
- ٦- المدن الإسلامية - شاعر مصطفى ٦٤/٢
- ٧- ن.م ٤٣/٢
- ٨- كلود كاهن: تاريخه
- ٩- اليعقوبي ٢٦٤/٢
- ١٠- الطبري ١٧٥/٨
- ١١- ن.م ٨٩/٨
- ١٢- ن.م ٦٦/٨
- ١٣- ن.م ٣٥٠/٨
- ١٤- ن.م ٢١٧/٨
- ١٥- ن.م ٢٦٣/٨
- ١٦- ن.م ٢٤١/٩
- ١٧- ن.م ٥٥/١٠
- ١٨- مختار الأغاني ٢٢٠/٦
- ١٩- الطبري ٦٤/٨
- ٢٠- ن.م ٢١٨/٨
- ٢١- الطبري ٣٧٩/٩
- ٢٢- ن.م ٣٠٢/٩
- ٢٣- مختصر ابن عساكر ١٩٨/٢٣
- ٢٤- البغدادي ٣٥٤/٩
- ٢٥- ابن سعد ٤٢٧/٥
- ٢٦- البغدادي ٣٥٤/٩
- ٢٧- النشوار ١١٨/٨
- ٢٨- البلاذري ٢٧٨
- ٢٩- مختصر ابن عساكر ٢٩ / ٢٣٧ - ٢٦ / ٩٤
- ٣٠- غوايتاين ١٣٢
- ٣١- ن.م ١٤٦
- ٣٢- ن.م ١٩٥
- ٣٣- ن.م ٢٨٥/٢
- ٣٤- ن.م ١٧٤
- ٣٥- التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ١٢٦
- ٣٦- فكتور ١٧٧
- ٣٧- البغدادي ٤٨٢/١٢ ابن سعد ٣٣٤/٧
- ٣٨- تاريخ الثقافات للعجيلي (مات سنة ٢٠٧)
- ٣٩- ن.م ١٥٦/١٠
- ٤٠- ن.م ٢٢٢/٣٨ ابن عساكر
- ٤١- ن.م ٢٣٤/٣٩ ، قوات الوفيات
- ٤٢- ٢٣٦/٢ ، اعلام . النبلاء ٢٧٥/١٠
- ٤٣- تاريخ الموصل ٤٠٤
- ٤٤- القشيري فقرة ٦٣
- ٤٥- الطبري ٢٤٧/٨
- ٤٦- البلاذري ٢٠٤/١
- ٤٧- الطبري ٣٢٠/٨
- ٤٨- ن.م ١٤٢/٩ سنة ٢٣١
- ٤٩- البغدادي ١٢٤/١٢ مختصر ابن عساكر ١٧/١٠
- ٥٠- الكامل للمبرد ٣٨٠/١
- ٥١- القشيري فقرة ٥٠
- ٥٢- الأغاني ٣/٢٠ ، وكيع ١٩٥/١
- ٥٣- ابن سعد ١٥/٤
- ٥٤- تهذيب الكمال ٤٢١/٢
- ٥٥- ن.م ٤٢١/٣
- ٥٦- النشوار ٣٧/٣
- ٥٧- ابن سعد ١١٣/٧
- ٥٨- الطبري ٥٣٨
- ٥٩- تاريخ الموصل ٧٢
- ٦٠- ياقوت: معجم الادباء ٣/٣
- ٦١- هارون الرشيد- الحومرد ٨٢/٢ ، ١/١٦٩
- ٦٢- ابن عساكر ١٧٦/٢٣
- ٦٣- الموسوعة الفقهية، الكويت ٦٨/٢٣ (رق)
- ٦٤- ن.م ١٨/٢٣
- ٦٥- ن.م ٣٣/٢٣
- ٦٦- ابن سعد ٩٠/٤
- ٦٧- البغدادي ٣/٣
- ٦٨- البسوي ٢٤٤/٢
- ٦٩- ابن سعد ٢٣٧/٣
- ٧٠- ابن سعد ٣٠٨/٥ ، البسوي ٨٠٩/٢
- ٧١- الأغاني ١٤٩/١٢
- ٧٢- طبقات ابن المعتز ٤٢٦
- ٧٣- ن.م ٤٢٦
- ٧٤- الفرج بعد الشدة ٤١٨/٤
- ٧٥- المسعودي، مروج الذهب ٣٤/٣
- ٧٦- الطبري ٤٦٨/٨ سنة ١٩٧
- ٧٧- تاريخ الموصل ٨٨٢
- ٧٨- ميخائيل ١٥٣/٣
- ٧٩- ابن الاثير ٥١٣/٦ سنة ٢٢٧
- ٨٠- الطبري ٢٨٢/٨
- ٨١- ن.م ٢٥٧/٨
- ٨٢- ن.م ٢١/١٠
- ٨٣- ن.م ٤٤٨/٨ سنة ١٩٧ ، ٤٦٧ سنة ١٩٨
- ٨٤- ٢٥٧/٩ سنة ٢٤٨
- ٨٥- الطبري ٢٥٧/٩

- ٢٠٨- ن.م ٢٥٨/٩
 ٢٠٩- ابن الاثير ١٧٨/٥ سنة ١١٤
 ٢١٠- الطبري ٥٥/٩
 ٢١١- ابن الاثير ٣١٦/٨
 ٢١٢- بغية الطلب ١٠٥/١
 ٢١٣- ن.م ٢٨٥/٢
 ٢١٤- البخلاء للجاحظ ٤٩
 ٢١٥- انطبري ٥٩٩/٨
 ٢١٦- البخلاء للجاحظ ٣٢٢/٨ الطبري سنة
 ٢٤٣- ن.م ٤٠٠/٩ عام ٢٥٥
 ٢٤٤- ن.م ١٤/١٠ عام ٢٧٥
 ٢٤٧- تهذيب ابن عساكر ٣١٣/٢
 ٢٤٨- مختار الاغانى ١٢٥/١ ترجمة
 ابراهيم الموصلي
 ٢٥٢- معالم القرية في احكام الحسبة
 لابن القرية-٢٦٩
 ٢٥٣- الحيران للجاحظ ٢٦٥/٢
 ٢٥٤- البخلاء للجاحظ ٥٠
 ٢٥٥- جمهرة ابن حزم ٣١٣
 ٢٥٦- الطبري ٣١٧/٨
 ٢٥٧- اللسان: عرب، بدو
 ٢٥٨- اللسان: حضر
 ٢٥٩- اللسان: نجع
 ٢٦٠- نقائض جرير والاختل ٢٦
 ٢٦١- دائرة المعارف الإسلامية (بدو)
 ٢٦٤- الاغانى ٣٠٦/١٨
- ٢٦٥- الاغانى ١٢١/١٣
 ٢٦٦- الطبري ٥٥٢/٨ سنة ٢٠١
 ٢٦٧- ابن حوقل ٢٠٤
 ٢٦٨- ياقوت: رصافة الشام
 ٢٦٩- معجم قبائل العرب ٣٥١/١
 ٢٧٠- ياقوت: رصافة الشام
 ٢٧١- الطبري ٩٥/١٠ سنة ٢٨٩
 ٢٧٢- انساب الاشراف - البلاذري ١١٠/٣
 ٢٧٣- البصائر والذخائر مجلد ٣ قسم
 ٢، ص ٥٣١ ابن عساكر ترجمة عمر بن هبيرة
 ٢٧٤- تاريخ اليعقوبي ٣٥٤/٢
 ٢٧٥- مظاهر الحضارة ببلاد الشام ٢٢٩
 ٢٧٦- ابن حوقل ١٩١، ٢٧٦، ١/ الازدي
 - تاريخ الشام ٣١٤
 ٢٧٧- الطبري ٦٠٤/٩ سنة ٢٦٨
 ٢٧٩- الفرج بعد الشدة ١٣٩/٤
 ٢٨٠- الطبري ٣٤٦/٩ سنة ٢٥١
 ٢٨١- المقدسي ١٤١
 ٢٨٢- اليعقوبي ٤٧٩/٢
 ٢٨٣- لسان العرب (بدو)
 ٢٨٤- ابن عساكر طبع دمشق ٧٢/٣٤
 ٢٨٥- مختار الاغانى ١٢٨/٨
 ٢٨٦- اليسوي ٣٩٦/١
 ٢٨٧- الطبري ٦٣/٨ - ن.م ٤٠٤/٩ سنة ٢٥٥
 ٢٨٩- لومبار ٥٧٩
 ٢٩٠- حسين مؤنس - عالم الاسلام ٢٢٢
 ٢٩١- آشتور ٥١
 ٢٩٢- الآثار السورية اشراف عفيف بهنسي،
 البدو والفلاحون ٣٠٠

الباب الشاھن
الحياة الاجتماعية في العالم الإسلامي
في العصر العباسي

الباب الثامن

الحياة الاجتماعية في العالم الإسلامي

في العصر العباسي

- قصور الخلفاء والوزراء والأمراء

كانت قصور اشراف المسلمين منذ صدر الاسلام تشاد بعيدا عن المدينة، ووسط أرض استصلحت، فصارت استثمارات زراعية ومدنا وحصونا.

وعلى هذا درج خلفاء بني أمية كقصور هشام بن عبد الملك في الحير الشرقي والحير الغربي، وفي الهني والمري، وقصور مسلمة بن عبد الملك وغيرهم.

وحين جاء العباسيون، وجعلوا عاصمة ملكهم في الكوفة ثم بغداد، وتيسر لبغداد أن يكون حولها شبكة من الأنهار والاقنية تتصل بكل من نهري الفرات ودجلة، صارت هذه الأنهار وسيلة هامة من وسائل المواصلات، وعاملا رئيسيا في الدفاع عن المدينة وما فيها وما حولها. عمل الخلفاء والأمراء والولاة العباسيون على تشييد قصورهم على شواطئ الأنهار وجعلها كحصون يسهل الدفاع عنها، فأتاح لهم ذلك أيضا أن يستخدموا في نزعاتهم وتقلاتهم السفن على أنواعها من سميريات وحراقات وطيارات الخ... هذا إلى جانب حيوانات الركوب البري. وتذكر كتب الادب والتاريخ كثيرا عن مثل هذه التقلات. وفي صبح الاعشى: وعلى ضفتي دجلة قصور الخلافة والمدارس والابنية العلية بالشبابيك والطاقت المظلة على دجلة وبنائها بالاجر.

وكان اول قصر بناه الهاشميون في أيام المنصور ببغداد قصر عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس صاحب فارس (جمهرة ابن حزم ٢٠) وكان على شاطئ نهر الرافيل عند مصبه في دجلة قرب بغداد، (وماخذ النهر من نهر عيسى- ياقوت). وكان في القصر من حرم العباسيين ومواليهم اربعة الاف نفس. قال ابن أبي عينية المهلب في ذلك القصر^(٥)

زوادي القصر نعم القصر والوادي لا بد من زورة من غير ميعاد

زواقيس له شبه يقاربها من منزل حاضر ان شئت أو يادي

تري قراقيره والعيس واقفة والضب والنون والملاح والحادي^(٦)

(القراقير جمع قرقور: السفينة الطويلة العظيمة. الاعيس من الإبل: الذي يخالط بياضه شقره، والاعيس: الكريم منها، النون: الحوت. الضب: حيوان من جنس الزواحف^(٧) من رتبة العضاء يكثر في صحاري الاقطار العربية.

والظاهر من الشعر أن القصر يقوم على شاطئ النهر حيث تصطف في فريضة النهر سفن أهل القصر من حراقات وغيرها، وفيها الملاحون، وفي النهر تسبح الاسماك. وفي جانب القصر على البر تنتصب المنازل (الحاضر) والخيام (البادي)، وعلى مبعده من الخيام: الإبل والحدادة.

وجرى الأمر في الرقة على هذا المنوال، إذ ابتداء المهدي عقب بناء الرقة فبنى القصور في الصالحية، وهي قرية قرب الرقة وعندها بطياس ودير زكي، وهي من انزه المواضع^(٨) فهي على مقربة من نهري البليخ والفرات^(٩) كان الرشيد قد استقر في الرقة والرافقة منذ عام ١٨٠هـ، وسرعان ما بنى في شمالها ابنية لنفسه ولقواده. وكان اول قصر بناه لنفسه هو قصر الخشب عام ١٨٢هـ^(١٠) إذ ورد في تاريخ العظمي ص ٢٢١، أن الرشيد حج عام ١٨١هـ وعاد إلى الانبار ثم إلى الرقة وبنى بها قصر الخشب، وغزا الصائفة وفتح حصن الصفصاف (وبما أن الحج يكون في شهر ذي الحجة أي في آخر العام فيكون ما بعده في العام التالي أي عام ١٨٢هـ.

وكان الرشيد يجلس في رواق هذا القصر^(١١) وقال الرشيد فيه شعرا أرسله إلى جاريته ماردة:

غزال مراتعه في البليخ إلى دير زكي وقصر الخشب^(١٣)

أما قصر الإمارة في الرافقة فقد تركه الرشيد لوالي الجزيرة. ثم تتالت قصور الرشيد ومنها: القصر الأبيض .

يقول أشجع في وصف النهر الذي أجراه الرشيد (نهر النيل) مع القصر الأبيض ودير زكي وتل زفر:

قصر عليه تحية وسلام الفت عليه جمالها الأيام

بالظهر حيث يسائر البطن الذي فيه منازل حاضر وخيام

أجرى الامام اليه نهرا مقعما اعطى انقياد وما عليه أمام^(١٤)

(الظهر: ما غلظ من الأرض وارتفع، والبطن: ما لان منها وسهل ورق وأطمأن)

وتدل الأبيات على أن القصر كان في مرتفع من الأرض، وأنه كان في سفحه منازل وخيام، وأنه

يستمد ماء من نهر النيل. وهذا الوصف يشبه تماما ما تقدم في وصف قصر عيسى على نهر الرهيل.

وقد انشد أشجع الرشيد هذه الأبيات حين دخل عليه بالرقعة بين شعراء آخرين، وكان الرشيد قد فرغ من بناء قصره الأبيض^(١٥).

ولا عجب في ذلك إذا عرفنا أن قصر عيسى وما حوله يضم أربعة آلاف شخص من حرم العباسيين ومواليهم وأن قسما كبيرا منهم ظل على بداوته ينتجع الكلا في اوقاته. والحاضر هنا كل من نزل على ماء عد (أي جاري) ولم يتحول عنه شتاء ولا صيفا فهو حاضر، سواء نزلوا في القرى والأرياف أو الدور المدرية أو بنو الأبنية على المياه، فقروا فيها ورعوا ما حوالها من الكلا... (وهذا الخبر والشعر، على اختلاف في اسم صاحب القصر وفي أبيات الشعر، ورد في مروج الذهب ٣ / ٢٢٨ وياقوت: قصر عيسى، وإماكن أخرى).

وكانت القصور تحاط بأسوار ليسهل الدفاع عنها حين الحاجة، فيقف الغلمان والموالي على السور ومعهم الترسه والسهام (الطبري ٨ / ٥١٠ سنة ١٩٨).

قصر السلام

من انية الرشيد بالرقعة^(١٦) في مخطط الرقة المرسوم حسب الرؤية من الجو في شمال شرقي الرافقة وشمال غربي دير زكي ويبعد عن كل منهما ما يزيد عن كيلو متر ونصف وتدخله إحدى الأبنية الشمالية.

هناك إشارة إلى قصر الإمارة بالرافقة دفن فيه عبد الملك بن صالح بن علي^(١٧). والأدلة كثيرة على أن هذه القصور كلها تقع على الفرات ورافده البليخ ومن بينها قول أشجع السلمي يرثي الرشيد:

منازل هارون الخليفة أصبحت لهن على شاطئ الفرات عويل^(١٨)

منازل أمست في السياق نفوسها سلبن رداء المنسك وهو جميل

وحتى هرقله بناها الرشيد على الفرات. (السياق: النزع والاحتضار).

وحين كان المعتصم في الرقة كان يستخدم حراقة أيضا

وكانت بالقرب من قصور الرشيد في الرقة الحلبة أي ميدان سبق الخيل^(١٩).

وكانت قصور الأمراء والقواد ومن بينها قصور البرامكة في هذه المنطقة (الصالحية) أيضا وقد

جلس جعفر بن يحيى بالصالحية، يشرب على مستشرق له... فقال أشجع يصف مجلس جعفر:

قصور الصالحية كالعداري لبسن ثيابهن ليوم عرس^(٢٠)

مطلات على بطن كسته ايادي الماء وشيا نسج غرس

ولم يشذ المتقي عن أسلافه، إذ أنه حين كان بالرقعة كان يجلس في داره المشرفة على الفرات، ودل على رقي ينادمه، وأنحدر في الزورق إلى فم نهر سعيد (المسعودي ٤/٢٥٠). ويشير الباحث (توفي عام ٢٨٤هـ) إلى هذه القصور، أو بعضها، القريبة من الرقة ودير زكن، ويسمى قصور البليخ أي أنها واقعة على شاطئ البليخ فيقول من قصيدة في صالح بن وصيف حوالي سنة ٢٥٥هـ.

ألا ليت شعري هل أطرقه — من قصور البليخ وأقدأنها ؟
وهل أرى من عن حاجة — صوامع زكسى وريهاأنها ؟
وهل أطلع من على الرقتين — بخيل أخايل سرعأنها؟^(٢٣)
(أخايل: أباري وأفخر. السرعان من الخيل: أوائلها).
كما يقول :

من زحوف من الأصادي ويوم — من أبي الساج فيهم أرونان
حشدت مريعاء فيه ومرد — وقصور البليخ والمزحان^(٢٤)

أرونان: شديد وصعب. الأفدان: جمع فدن، القصر المشيد (اللسان).
المزحان: موضع في الرقة.

مريعاء: موضع في الرقة وورد على شكل الريع في الهمداني: جزيرة العرب...
مرد: جبل بالجزيرة كما في معجم ما استعجم.

وسنورد في النقل النهري كيف كانت الحراقات والقراقرير تمخر امواج الفرات وبقية الأنهار ذهابا وإيابا.

وكان طاهر بن الحسين يجلس في الرقة على بركة. ولا بد أن البركة كانت متصلة بالنهر. ولا ريب أن هذه القصور للخليفة وكبار القوم كانت على نمط قصر عيسى بن علي، وقد تقدم ذكره، أي قريبة من النهر ومحاطة بسور وتعج بالحرس والغلمان، وربما كانت على نمط قصور الأمويين محاطة بالبساتين والاقنية.

لكن الأمويين كانوا يشيدونها في البادية وليس على الأنهار، ويجرون إليها المياه من بعيد ويحيطونها بقرى ومشاريع زراعية كبيرة.

وذكر عن دار الوزير العباسي أبي جعفر شيرزاد في بغداد أن لها ١٤ بابا... يحرسها ثلاثمائة غلام مسلحون (نشوار المحاضرة ٥٨، الفرج بعد الشدة ٤٤٣١ فكيف الحال في قصور الخلافة!

٢- المساكن

كانت المساكن منذ أقدم الزمان متزاحمة في مدينة توتول (في الألف الثاني قبل الميلاد) التي سبقت مدينة الرقة بقرون، وكان أهم مافيها: الباحة السماوية حيث توجد أرضيات مبلطة وتقوم فيها تنانير الخبز^(٢٧). وظلت البيوت في العالم الإسلامي وحتى عهد قريب على نفس الصورة أي أن لها باحة سماوية وتفتح عليها الغرف وفيها تنور أو أكثر وليس لها نوافذ على الشارع بل على الداخل وتتألف من طابقين أو أكثر^(٢٨). وكان الطابق العلوي يدعى عليه أو سطحا أو ما شابه ذلك وقد يكون للمنزل منظر (روشن) على الطريق^(٢٩) وذلك سواء كان المنزل في المدينة أو في الريف، وقد تصل منازل الأغنياء حتى ست طوابق.

وأن وجود الحوش (الفناء الداخلي) ووجود حوض الماء فيه كفييل، يجعل الهواء فيه باردا ولطيفا، وهذا يساعد على تحسين البيئة المناخية في المسكن ويشكل مكانا مناسباً لاجتماع العائلة

ويساعد على ترابطهم الاجتماعي وعلى توحيد الأسرة مع بقية الأسر. أضف إلى ذلك السقوف والجدران السميكة ذات المواد الإنشائية العازلة (خشب، طين)^(٣٠) مما تعزل الصوت وتحسن المناخ وكانت المساكن تبنى من اللبن وقد يدخل فيه القصب وهو امر شائع منذ العهد البيزنطي، كما هو الحال في بناء سور الرقة لعدم توفر الحجر. أما الاثرياء فيدخل الجص والآجر في بناء دورهم^(٣١). وكان الاثاث نادرا لنشح الخشب، فاستعاضوا عنه بالبساط يعملون فوقه ويأكلون وغالبا ما ينامون. في حين زين الأغنياء جدران بيوتهم بالسجاد والطنافس.

وكان المسكن يتسع لسكن الاديان المختلفة معا. وقد نزل العرب الفاتحون في الشام في الطابق العلوي من المساكن المشتركة، وكان عبد الله بن عون بن اربطبان يسكن في الطابق العلوي بينما يسكن تحته نصارى، وكان له في داره العلوية مصلى يصلي فيه هو ومن حضر من أخوانه وولده^(٣٢). وكان في الدار أحيانا بعض الدواب الأهلية كالحمار والندجاج والشاة^(٣٣). ووصف بيت متواضع بأن طوله اثنا عشر ذراعا (الذراع حسب هنتس ٨٧٥، ٤٩سم فيكون طول البيت حوالي ٦ أمتار) في مثلها، وسمكه (أي ارتفاعه) في السماء ست عشرة ذراعا (أي حوالي ثمانية أمتار)^(٣٤). كان امام كل بيت كبير في الرقة دكة^(٣٥) (بناء مسطح أعلاه للجلوس عليه أي مسطبة) ولبابه حلقة يطرُق بها (مختصر ابن عساكر ٩ / ٣١)^(٣٦).

وكان استثمار المال في بناء البيوت لتأجيرها عملا رابحا فأقبل عليه الناس وكان من السهل ان تحصل بسرعة على بيت بالاجر^(٣٧). وكانت طريقة الاستئجار شائعة شيوعا كبيرا فكان اناس لا يستأجرون في المدن المساكن فقط، بل كانوا يستطيعون أيضا ان يستأجروا الاثاث أيضا ويحكى أنه كان بمصر امرأة تملك خمسة الاف قدر من النحاس، وكانت تؤجر كل قدر بدينارهم في الشهر^(٣٨) ويمكن أيضا استئجار الالبسة^(٣٩).

ويبدو أن من علائم البؤس أن يكون بيت المرء كراءا وخبره شراءا (وليس يخبز في البيت). وقد عرض الشاعر ابو الينبغي العباس بن طرخان بالبرامكة في شعره اذ قال:

صحببت البرامكة عشرا ولا وبيتني كراءا وخبزي شرا^(٤٠)

ولا: أي ولاء بمعنى متابعا، شرا: أي شراء.

وفي اخبار ربيعة الرقي أنه املق فزهن داره على خمس مائة درهم، ونزل في داريكراء^(٤١) وربما سهرت النساء على سطح المسكن وتحدثن بصوت عال يصل إلى الطريق كما سبق وجرى مثال على ذلك يدل على العصبية القبلية للاعراب.

١) المناخ والوضع الصحي للرقة

تقدم في الحديث عن توتول التي سبقت الرقة في الوجود وفي موقعها، وذلك في الالف الثانية قبل الميلاد، أنها لطيفة المناخ. وقد كان الرشيد يقول: الدنيا أربعة منازل، وقد نزلت ثلاثة منها، أحدها الرقة، والآخر دمشق، والآخر الري... والمنزل الرابع سمرقند وهو الذي بقي علي لم أنزله^(٤٢). وصف المقدسي الرقة بأنها طيبة، نزهة^(٤٣). كما وصف إقليم الجزيرة بقوله: 'ولا أعرف به ماء رديا، ولا واديا وبيئا، ولا طعاما لا تجده مرثيا'^(٤٤).

وكان المؤمن يقول: 'عين الحجاز مكة، وعين الشام دمشق، وعين الجزيرة الرقة، وعين الروم قسطنطينية، وعين العراق بغداد...'^(٤٥).

وصف الصنوبري () الرقتين بالرقة^(٤٦)، وطيب الهواء في مقدم الصيف^(٤٧)، وإن ساكن الرقة يتمتع بصفاء العيش^(٤٨).

وقال البحري عن مناخ الرقة:

إذ قيل لها مثل الريح وليها مثل النهار يخال وأد ضحساء

(ديوان البحري ٨/١) (٢٢٨)

القيظ: صميم الصيف، و أراد الضحى: ارتفاعه حين يعلو النهار، والضحى: ضوء الشمس، يريد البحري أن يقول، إن صيف النهار يماثل الربيع في جوه، وليل الرقة يشبه النهار في وقت الصباح قبل ارتفاع الشمس. فهل هناك ما يفوق هذا المناخ؟

وما من شك أن هذا الوصف صحيح، فقد كانت الرقة والجزيرة أجماً لا تغص بالأحراش والأشجار والزراعة. وقد أورد ياقوت في معجم البلدان كثيراً من مثل هذا الكلام حين يذكر قرية أو مكاناً تابعاً للرقة. وقد قضي فيما بعد على كثير من الأشجار بسبب الحرائق والفترات والجفاف والصقيع والحصار والاستهلاك والتصحّر.

الأحوال الصحية

نسب إلى الرقة كثرة البق والبراغيث. وكان هشام بن عبد الملك يفرع إلى الرصافة من البق في شاطئ الفرات. وقال هارون الرشيد يوماً لعبد الملك بن صالح وكان معتلاً عليه: أتبقون بالرقة؟ قال: نعم! ونبرغث!

ونسب إلى الجزيرة كثرة الدساميل^(٣٢٠) (لعل ذلك سببه لسع البق والبراغيث). وقال أبو علي الهائم لأبي دلف الخزرجي: أصب الله عليك طواعين الشام، وحمى خيبر، وطمحال البحرين، ودماميل الجزيرة^(٣٢١).

٢) سنوات الجذب والمجاعة والأوبئة في الجزيرة، السنوات يو (يونانية).

٩٥٨ يو ٢٦ هـ حدث طاعون ومجاعة في سوريا والجزيرة^(٣٢٢).

٩٨٠ يو ٤٩ هـ حدث طاعون في الجزيرة.. شتاء قاسي وجليد وثلج. تجمد الفرات ستة أيام يبست أشجار الزيتون^(٣٢٣).

١٠١٦ يو ٨٠ هـ في شهر نيسان، حدث برد، وبست أشجار الزيتون والكروم^(٣٢٤).

١٠٣٦ يو ١٠٧ هـ حدث جذب ومجاعة^(٣٢٥).

١٠٥٠ يو ١٢١ هـ سقط مطر شديد، وتجمعت السيول في الرها وكادت تدمرها (ميخائيل ٥٠٤/٢)

١٠٥٦ يو ١٢٧ هـ أعوز المطر. وحدثت مجاعة^(٣٢٦).

١٠٧٣ يو ١٤٥ هـ انتشر الجراد، وسقط البرد^(٣٢٧).

١٠٨٣ يو ١٥٤ هـ انتشرت مجاعة لعدم وجود دراهم بيد الناس ولا عمل للفقراء

١٠٩٥ يو ١٦٧، ١٦٨ هـ انتشر الجراد في الجزيرة^(٣٢٨). وظهر جراد طيار عاش بالزروع

وفقس ثم خرج وجعل يلتصق بالأسوار ويدب في الجدران ويخش في المنازل من الكوى والأبواب، حتى ملأ قرب المياه والفرش والموائد والصحون. وكان يدخل من جنوبي البيت ويخرج من شماليه. وألتهم الاعشاب والأشجار وأمتعة الصوف وثياب البشر. وأتلف نواحي الرها وسروج برمتها، ثم انتقل إلى المغرب. وبعد مرور ثلاث سنوات على هذه الضربة القاسية عم الجراد الأرض جميعاً

(تاريخ الزمان لابن العبري ١٣).

١١١٩ يو ١٩٢ هـ عم الجراد الجزيرة طيلة ثلاثة سنوات واشتدت المجاعة^(٣٢٩).

١١٢١ يو ١٩٤ هـ قضي على الموسم الزراعي، وخاصة في الجزيرة. بسبب قلة المطر ثم الريح^(٣٣٠).

١١٤١ يو ٢١٥ هـ حدث برد شديد أفسد المحاصيل، ثم انتشر جراد التهم الكروم والزيتون

والأشجار وتكرر هذا سنة ثانية ثم سنة ثالثة^(٣٣١). ويقول العظيمي أنه في سنة ٢١٥ هـ جمد

الفرات في الشتاء حتى عبرت الخيل على الجليد^(٣٣٢).

١٤٤٠ هـ كان ثلج وبرد قاسي، فجمد نهر الفرات وبقية الأنهار، وماتت الأسماك، وجمدت الخمور^(٣٤٣).

١٥١٠ هـ حدث فيضان في حران وسيول كونت نهرا كبيرا، ومرت على القرى حتى بلغت الرقة وانصببت في الفرات^(٣٤٤). قال ابن العبري أنه في هذه السنة هطلت الامطار مدرارا وحدث فيضان أخرب حران^(٣٤٥).

١٥٣٠ هـ كان الشتاء قاسيا والبرد شديدا بدون أمطار، وحدثت مجاعة.. ثم في نيسان نزلت الامطار ثم البرد ثم الجراد والرياح، ثم انساح التراب في الحقول المزروعة على شكل أكوام^(٣٤٦) ٢٤١ هـ قل ماء دجلة والفرات والنيل والأنهار^(٣٤٧) ٢٤٩ هـ جمد الفرات أربعين يوما وجمدت البحيرة كلها^(٣٤٨).

٤١٧ هـ حدث برد قاسي في بغداد في فصل الشتاء. وجمدت سواحل الفرات ودجلة، وتلفت اشجار النخل وجعل الناس يمرون مشاة فوق الجليد في السواقي الصغيرة، وتعذر على الفلاحين زرع أراضيهم^(٣٤٩).

٣) الزلازل في بلاد الشام والثغور والجزيرة

زلزال حدث في سنة ٨٧ هـ^(٣٥٠).

زلزال شديد تعرضت له البلاد عام ٧١٤ م (٩٥ - ٩٦ هـ)^(٣٥١).

زلزال قوي آخر في ٧١٧ - ٧١٨ م (٩٩ هـ) على عهد عمر بن عبد العزيز^(٣٥٢).

طاعون و زلزال عام ١٠٤٠ م، ١١١ هـ^(٣٥٣).

وفي يوم الاحد من عام ١٠٥٣ م ١٢٤ هـ، حدث زلزال مريع، فقد كان يسمع طيلة ليلة الاحد هدير يشبه خوار ثور قوي. (ديونيسيوس ص ٥٨).

زلزال كبير آخر في عام ٧٤٧ م (١٢٩ - ١٣٠ هـ) على عهد مروان الثاني (الجمعي) يبدو أنه أصاب البلاد بأكملها، إذ يفصل الكاتب الحديث عنه أكثر من المعتاد فيذكر أنه أصاب فلسطين وسورية والأردن وأنه هلك فيه عشرات الالوف من السكان. كما أنهارت في أشائه كنائس وأديرة في الصحراء وحول بيت المقدس^(٣٥٤).

في أيام المتوكل حدثت زلازل عظيمة بقومس وما يليها، ومات من الناس ممن سقطت عليهم الدور خمسة وأربعون ألفا وستة وتسعون.. ويشير السيوطي إلى أن هذا الزلزال كان عام ٢٣٣ هـ^(٣٥٥). ويصف اليعقوبي هذه الزلازل التي شملت قومس ونيسابور فمات في قومس منها ذهاء مئتي ألف، وشملت خراسان ونال أهل مصر زلزلة عمت وتهدمت البيوت والمساجد ويقول أن ذلك كان سنة ٢٤٢ هـ^(٣٥٦). ويدعم ذلك قول العظيمي وفي سنة ٢٤٢ هـ دبت الزلزلة إلى الشام والثغور، واستقل جبل بأهله حتى أسند إلى جبل آخر، وهلك كل من بالوادي^(٣٥٧).

وأصاب الشام كله زلازل حتى رجفت اللاذقية وجبله واتصل ذلك شهورا من سنة ٢٤٥ هـ (٣٥٨). ويصف الطبري ذلك فيقول وفيها (عام ٢٤٥ هـ) زلزلت بالاس والرقة وحران ورأس عين وحمص ودمشق والرها والمصيصة وأذنة وسواحل الشام، ورجفت اللاذقية فما بقي منها منزل، ولا أقلت من أهلها إلا اليسير، وذهبت جبله بأهلها (٣٥٩). ويشير إلى ذلك ابن كثير فيقول أن زلزالا أصاب الرقة وبلاد الشام سنة ٢٤٥ هـ (٣٦٠).

وفي سنة ٢٦٧ هـ كانت زلزلة عظيمة بالشام ومصر وبلاد الجزيرة وافريقية والاندلس^(٣٦١).

٤) سنوات الطاعون والوباء

تقدم عند الكلام عن العهد الساساني الرومي، أنه حدث وباء عظيم أطلق عليه اسم (القاتلة) وذلك عام ٥٤٢م. واستمر حتى عام ٥٤٣م وشمل الجزيرة الفراتية. وفي السنوات التالية حدثت أوبئة تذكرها فيما يلي:

سنة ٩٥٨ يو (٦٤٦ م - ٢٦ هـ) طاعون في سوريا والجزيرة^(٣١٢).
سنة ٩٨٠ يو (٦٦٨ م - ٤٨ هـ) طاعون في الجزيرة^(٣١٣). وجمد الفرات ستة أيام ويهست اشجار الزيتون (ميخائيل ١٢/٤٥٠).

سنة ٦٧٦ - ٦٧٧ م (٥٦ - ٥٧ هـ) وباء وجراد^(٣١٤) في عهد معاوية بن أبي سفيان.
سنة ٦٨٤ - ٦٨٥ م (٦٦٠ - ٦٦١ هـ) مجاعة ووباء تعرضت لهما البلاد^(٣١٥) في عهد معاوية بن أبي سفيان.
سنة ١٠١٦ يو (٧٠٤ م - ٨٥ هـ) حدث طاعون شديد^(٣١٥). وفي هذه السنة اجتاحت وباء شديد جميع نواحي ما بين النهرين حتى عجز السكان الأحياء عن حمل جثث الموتى ودفنها، وكان الوباء على أشده في نواحي مدينة سروج، فمات في ديرمار شيلا وحده اثنان وسبعون رجلاً (التاريخ المنحول ديونيسيوس التلمحي ص ٢٤).

سنة ١٠٣٦ يو (٧٢٧ م - ١٠٦ - ١٠٧ هـ) حدث طاعون^(٣١٦) وفي كتاب العنوان ص ٢٥٩: وفي سنة ١٠٥٥ هـ ٧٢٦م عرض وباء شديد لسوريا ولحق الناس طواعين وخراجات مختلفة.
سنة ٧٢٦ - ٧٢٧ م (١٠٨ - ١٠٩ هـ) انتشر الوباء^(٣١٦).
سنة ١٠٤٠ يو (٧٤٨ م - ١١٠ هـ) حدث طاعون وزلزال^(٣١٧).
سنة ٧٢٣ - ٧٢٤ م (١١٥ - ١١٦ هـ) انتشر الوباء^(٣١٨).
سنة ١٠٥٦ يو (٧٤٤ م - ١٢٧ هـ) حدث طاعون^(٣١٨).
سنة ١٠٦٥ يو (٧٥٢ م - ١٣٦ - ١٣٧ هـ) حدث طاعون وخاصة في الجزيرة حيث مات أربعمائة ألف شخص (وقيل أربعين ألفاً)^(٣١٩).

سنة ١١٥٣ يو (٨٤١ م - ٢٢٧ هـ) حدث طاعون استمر عامين ابتداء من الجزيرة^(٣٢٠).

سنة ٧٦٤ م ٨٤٧ هـ، حدث وباء للحيوانات (ديونيسيوس ص ١٢٣).

٥- الأديان في الجزيرة عامة والرقعة خاصة

١) الدين الإسلامي.

٢) الديانة المسيحية: كانت حتى عهد المأمون وثورة نصر بن شبث في الفترة ١٩٦ -

٢٠٩ هـ منتشرة في جميع ديار مضر في الرقة^(٣٢١) وبالس^(٣٢٢) وسروج^(٣٢٣) وحران^(٣٢٤) والرها^(٣٢٥) وسميساط وكيسوم.

وكان في الرقة: الكنيسة الكاثوليكية^(٣٢٦) ودير زكي ودير العمود^(٣٢٧) وكان في حران زمن المأمون معابد للكاثوليكين والخلقيدونيين والنساطرة. وكان في الرها زيادة على ثلاثمائة كنيسة ودير^(٣٢٨).

٣) الديانة اليهودية:

كان لليهود في كلينيكوس معابد قبل الإسلام وتقدم أن المسيحيين أحرقوا بيعة لليهود في كلينيكوس عام ٢٩٣ م. وكان في الرقة جالية يهودية قديمة. وفي مطلع القرن الرابع الهجري تناظر المسعودي مع عالمن يهوديين من أهل الرقة^(٣٢٩). وذكر التوحيدي (ت حوالي ٥٤٠ هـ) في كتابه الامتاع والمؤانسة ١٠٤/١ اسم فيلسوف يهودي هو وهب بن يعيش الرقي وأورد فقرات من رسالة له. وقد زار الرحالة اليهودي بنيامين بن بويه التطيلي الأندلسي بلاد الجزيرة الفراتية بين (٥٦١ - ٥٦٩) وذكر إحصاءاً عن سكانها من اليهود وإن كان يبدو أن فيه شيئاً من المبالغة وقال:

أن الرحبة يقيم فيها نحو ألفي يهودي على رأسهم الرييون (و يسمى أيضا: الرأبي أو الرباب وهي لفظة، عبرية تعني السيد أو الأستاذ ويلقب بها اليهود علماءهم ووجهاءهم، حرقيا، وأهود، وإسحاق). وفي قرقيسيا نحو خمسمائة يهودي منهم الريبان: (إسحاق والخان). وهناك سبعمائة يهودي في مدينة الرقة على رأسهم الرييون: زكاي ونديب البصير ويوسف. وفيها كنيس لهم يقال أنها من بناء عزرا الكاتب العزيز وقد شيده عند مروره بهذه المدينة قادما من بابل بطريقه إلى القدس.

وفي مدينة قلعة جعبر يقيم نحو ألفي يهودي، وفي بالس: عشرة يهود وفيها أطلال البرج الذي أقامه بلعم بن باعور. وفي حران: نحو من عشرين يهوديا لديهم كنسية قديمة^(٢٨٧).

٤) الصابئة

كانوا يسكنون حران إلى جانب المسيحيين^(٢٨٨) كما أنهم يسكنون ترعوزوسلمين، وقد تنصّر بعضهم وأسلم بعضهم في عهد المامون^(٢٨٩).

كان الصابئة الحقيقيون أو المندائيون يقطنون فيما يسمونه البطائح حيث يصب النهران دجلة والفرات في الخليج العربي وكذا في بطائح عريستان في بلاد إيران حول نهر كارون الذي يصب أيضا في الخليج العربي ثم قدم هؤلاء إلى حران حيث كان يسكن الحرانيون والذين أدعوا في القرن الثالث (في عهد المامون) أنهم صابئون وذلك كي يعاملوا معاملة أهل الكتاب.

واعتقاد الصابئة المندائيين بالله يشبه إلى حد كبير اعتقاد الفئات الفتوحية (المعرفيين) حيث أنهم يدركونه عن طريق الفيض الالهي ومن مظاهر الخليفة التي ابتدعها، كما أنهم يعتقدون باليوم الآخر وبالْحساب وبالجنة والنار. والروح في عقيدتهم خالدة والجسم فاني.

أما الصابئة الحرانيون في حران فهم قوم وثنيون متعسفون فارون من اضطهاد الكنيسة تسموا باسم الصابئة لاكتساب التسامح الديني باعتبارهم من أهل الكتاب، وليسوا هم كذلك. وكانت لهم خمسة هيكل عظيمة، وكانت لهم سبعة آخر منسوبة إلى الكواكب السبعة. وكانوا يتميزون بلبس الأقبية الواسعة وبوفرات (الوفرة: الشعر المتجمع على الرأس، أو الشعر الذي جاور شحمة الأذن) الشعر المتهدل على الأكتاف.

كان من الصابئة الحرانيين ومن الصابئة المندائيين: المترجمون والأطباء والفلكيون في بلاط الخلافة العباسية. وكان المندائيون قد هاجروا من وطنهم في فلسطين بعد الميلاد إلى مدينة حران وجاوروا الحرانيين المندائيين هناك فصار هناك تشابه في بعض الأزياء إلى درجة كبيرة.

ويدعو ابن النديم ((الصابئة المندائيين)) بـ ((المغسلة)) أو ((صابئة البطائح)) لأن شعارهم الرئيسي هو الارتماس في الماء الجاري. وأن طهارتهم اليومية تمارس كذلك عن طريق الاغتسال وكلمة 'صَب' بالمندائية معناها الارتماس والاغتسال بالماء الجاري^(٢٩٠).

أزدهر أمر الصابئة في أواخر القرن الثاني (عهد الخليفة الأمين) وعاد شأن الوثنية في حران إلى الظهور وقيدت الثيران في جميع الشوارع مزينة بغالي الثياب والورود والرياحين وبالأجرأس على قرونها وسار الرجال خلفها بالزأمر (ميخائيل ٤٩٧). وقد عمل العلماء البارزون من الصابئة مثل ثابت بن قرّة (٢٢١ - ٢٨٨ هـ) على رفع شأن الصابئة في الدولة العربية.

وحوالي سنة ٣٦٤ هـ ٩٧٥ م استصدر أبو إسحاق بن هلال الصّابّي الذي كان وزيرا للخليفة المطيع والطائع مرسوما يقضي بمعاملة أهل ملته في حران والرقة وديار بكر معاملة سمحة^(٢٩١) وفي القرن الحادي عشر الميلادي كان لا يزال في بغداد وحران عدد كبير من الصابئة. وفي سنة ٤٢٤ هـ ١٠٣٣ م لم يبق من هياكلهم الا هيكل للقمر كان بمثابة القلعة في حران، وقد استولى علويو

مصر (الفاطميون) على هذا الهيكل في ذلك التاريخ. وبعد منتصف القرن الحادي عشر ذهبت ريح الصابئة في حران ولم يبق لهم بقية، والأصح أنه لا يزال لهم وجود في بغداد حتى الآن^(٢٨٧). يقول ابن حزم (ت ٤٥٦هـ): أن الصابئة في جميع الأرض لا يبلغون الأربعين في عددهم^(٢٨٨). والظاهر أن هذا غير صحيح.

١١) سباق الخيل

اهتم العرب منذ ما قبل الإسلام بالخيول وتربيتها والعناية بها وإقامة السباق عليها. وكان الفارس يشرف بنفسه - غالبا - على فرسه وطعامه، أو يكل ذلك إلى من يثق به، فكان روح بن زنباع في العهد الأموي ينقي الشعر لفرسه في غريال^(٢٨٩).

وشرح المهدي سبب تفضيله لمواليه فقال: (ليس لأحد يجتمع لي فيه أن أجلس للعامه فأدعو به فأرفضه حتى تحك ركبته ركبتي، ثم يقوم من ذلك المجلس، فأستكفيه سياسة دابتي، فيكفيها، لا يرفع نفسه عن ذلك إلا موالي هؤلاء^(٢٩٠)).

وقد تخصص بعض الشعراء في نعت الخيل^(٢٩١) وكان رسول الله ﷺ يسابق بين الخيل^(٢٩٢). أجرى الخلفاء جميعهم الخيل ومن بينهم معاوية، وعبد الملك بن مروان^(٢٩٣) والوليد بن عبد الملك^(٢٩٤) وعمر بن عبد العزيز^(٢٩٥) والوليد بن يزيد بن عبد الملك^(٢٩٦) والمنصور^(٢٩٧) والرشيد والمأمون في بغداد^(٢٩٨) والمعتصم^(٢٩٩) والواثق^(٣٠٠) والمعتضد^(٣٠١).

وكان السبق يشتد على هشام^(٣٠٢) كما كانت تشتد على غيره، فقد ضرب المأمون في الحلبة وجه الفرس السابق وكانت لغيره^(٣٠٣). وقد سبقت فرس خيل الوليد بن عبد الملك فزعم صاحب الفرس أنه كان قد أهدى هذه الفرس إليه في اليوم السابق (وذلك كي يسر الوليد)^(٣٠٤).

وحين كان يربح حصان الخليفة كان الخليفة يسر لذلك ويطلب الشعراء لينشدوه (أشعارهم) ويتلقوا جوائزهم كما فعل المهدي^(٣٠٥).

ولم يشذ هارون الرشيد عن من سبقه من الخلفاء، فقد أقام الحلبة أيضا وأجرى الخيل^(٣٠٦) وقد أحرى الرشيد لخيول في الرقة أيضا^(٣٠٧).

عن ابن السائب الكلبي: أن هشام بن عبد الملك قال يوما لقوامه على خيله: كم أكثر ما ضمت حلبة من الخيل في الجاهلية والإسلام؟ قالوا: ألف فرس وقيل ألفان، فأمر أن يؤذن بالناس بحلبة تضم أربعة آلاف فرس، فقيل له: يا أمير المؤمنين! يحطم بعضها بعضا فلا يتسع لها طريق، فقال: نطلقها ونتوكل على الله، والله الصائن. فجعل الغاية (أي مسافة السبق) خمسين ومائتي غلوة والقصب مائة والمقوس ستة أسهم وقاد إليه الناس من كل أوب (الجهة والناحية)، ثم برز هشام إلى دهناء (موضع كله رمل) الرصافة قبيل الحلبة بأيام، فأصلح طريقا واسعا لا يضيق بها، فأرسلت يوم الحلبة بين يديه وهو ينظر إليها تدور ثم ترجع. وجعل الناس يتراوونها حتى أقبل الزائد (اسم فرس للعباس بن الوليد بن عبد الملك) كأنه ريح لا يتعلق به شيء، حتى دخل سابقا وأخذ القصبية (قصبية السبق)، ثم جاءت الخيل بعد ذلك افضادا (أفرادا) وأفواجا. ووثب الرجاز (الشعراء) يرتجزون، منهم المادح للزائد، ومنهم المادح لفرسه، ومنهم المادح لخيول قومه.

وأعطى هشام أصحاب الخيل المقصبية (الرابضة التي حازت قصب السبق) يومئذ عطايا كثيرة^(٣٠٨).

القصب: قيل للمسابق أحرز السبق لأن الغاية التي يسبق إليها تدرع بالقصب، وتركز تلك القصبية عند منتهى الغاية، فمن سبق إليها حازها واستحق الخطر (أي ربح الرهان) ويقال حاز قصب السبق.

الغلو حاسب ما ذكره الرئيس^(٨٦) ١٨٤م ومسافة السبق حسب النص ٢٥٠ غلو أي ١٨٤.١٧٢×٢٥٠=٤٦.٠٤٣ كيلو متر. وهذه مرهقة للخيل. ويقول الأصمعي أن دخول المضمار (مسافة السبق يحدد حسب عمر الخيل المتسابقة):

في الخيل التي عمرها سنتان ٤٠ غلو سهم (حوالي ٧٥٠٠ متر)

في الخيل التي عمرها ثلاث سنوات ٦٠ غلو سهم (حوالي ١٣٠٠ متر)

في الخيل التي عمرها أربع سنوات ١٠٠ غلو (حوالي ١٨٨٠٠ متر)^(٨٧)

ومسافة سباق الخيل في العصر الحديث تتراوح بين ٢٠٠٠ متر و ٣٠٠٠ متر (أي ٢-٣ كيلو متر) فقط وغالبا ما يكون عمر الحصان ثلاث سنوات فأكثر^(٨٨) وسباق التدريب يقام كل عام قرب لندن وتشارك في هذا السباق الخيول التي أعمارها ثلاث سنوات فقط. والمضمار غير مستو ويتجاوز طوله ٢,٥ كيلو متر^(٨٩).

المقوس: الحبل الذي تصف عليه الخيل قبل السباق. قال ابن الأعرابي، الفرس يجري بعنقه وعرقه، فإذا وضع المقوس جرى بجذ صاحبه. والمقوس في هذا السباق ستة أسهم والسهم هنا مقدار ست أذرع في معاملات الناس ومساحاتهم، والذراع الهاشمية تساوي ٦٦,٥ سم حسب كتاب هنتس، وبذلك يكون السهم ٦٦,٥×٣,٩٩=٢٠٠ متر ويكون طول المقوس: ٢٣,٩٤×٦×٣,٩٩=٢٣٠ متر

وكانت الخيل تختم قبل اشتراكها، ثم عند اشتراكها، ثم تصف قبل انطلاقها عند المقوس^(٩٠). ومن بين من كان يراهن على الخيل في السبق عبيد الله بن زياد^(٩١) وكان أحد أولاد الجند يركب إلى الحلبة في كل يوم ثلاثاء ويوم جمعة، وكان ذلك في السنة التي توفي فيها معز الدولة وولي ابنه بختيار (أي عام ٣٥٦هـ)^(٩٢).

وكان الرجل يراهن صاحبه على المسابقة، يضع هذا رهنا ويضع هذا رهنا، فأيهما سبق فرسه أخذ رهنه ورهن صاحبه. وهذا كان من أمر الجاهلية، وهو القمار المنهى عنه فإن كان الرهن من أحدهما شيئا مسمى، على أنه إن سبق لم يكن له شيء وإن سبق صاحبه أخذ الرهن فهذا حلال لأن الرهن هو من أحدهما دون الآخر.

وكذلك إن جعل كل واحد منهما رهنا وأدخل بينهما محلا، وهو فرس ثالث يكون بين الأولين ويسمى أيضا الدخيل ولا يجعل (يضع) صاحب الثالث شيئا ثم يرسلون الأفراس الثلاثة فإن سبق أحد الأولين أخذ رهنه ورهن صاحبه فكان له طيبا (حلالا)، وإن سبق الدخيل أخذ الرهنيين جميعا. وإن سبق أي الدخيل لم يكن عليه شيء.

ولا يكون الدخيل إلا جوادا، أي بين الجودة، لا يأمن أن يسبقهما فيذهب بالرهنيين فهذا جائز الرهان. وإن كان المحلل غير جواد قد أمان أن يسبقهما، فهذا قمار لأنهما كأنهما لم يدخل بينهما شيئا وأصل هذا حديث سعيد بن المسيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ومن أدخل فرسا بين فرسين وهو لا يأمن أن يسبق فلا بأس به ومن أدخل فرسا بين فرسين وهو يأمن أن يسبق فهو قمار)^(٩٣).

قال كلاب بن حمزة: ولم نعلم أحدا في العرب في الجاهلية والإسلام وصف خيل الحلبة العشرة بأسمائها وصفائها وذكرها على مراتبها غير محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان، وكان بالجزيرة بالقرية المعروفة بحصن مسلمة من إقليم البليخ من كورة الرقة من ديار مضر، فإنه قال في ذلك^(٩٤) والحلبة، مجمع الخيل ويقال مجتمع الناس للرهان^(٩٥).

تضمير الخيل للسباق أو الركض إلى العدو، أن تشد عليها سروجها، وتجلل بالأجلة حتى تعرق تحتها، فيذهب رهلها ويشد لحمها، ويحمل عليها غلمان خفاف يجرونها، ولا يعنفون بها، فإذا فعل ذلك بها أعين عليها البهر (تتابع النفس من الأعياء) الشديد عند حضرها (عدو ذو وثب) ولم يقطعها الشد. وتضمير الفرس أيضا، أن تلفه حتى يسمن ثم ترده إلى القوت (ما يمسك الرمي من الرزق) أو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام) وذلك في أربعين يوما^(٩٦).

وكان سباق الخيل من أجمل أنواع التسلية عند الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة في العصر العباسي الأول. وأجرى الرشيد، الخيل يوما بالرقعة فلما أرسلت صار إلى مجلسه في صدر الميدان حيث تواتت عليه الخيل، لا يتقدم أحدهما صاحبه، فتأمل الأولى فقال فرسي والله! ثم تأمل الأخرى فقال: فرس أبني المأمون فجاءا يجتازان أمام الخيل وكان فرسه السابق وفرس المأمون ثانية، فسر بذلك ثم جاءت الخيل بعد ذلك^(٨٧).

انشغلت فئات اجتماعية كثيرة عبر العالم الإسلامي بالفروسية وركوب الخيل وتربيتها حسب مستوياتها المادية وغالبا حسب حاجتها إلى استعمال الخيل أيضا في الحلبات أو في ضرورات الحياة كذلك. وكانت مجموعات الرجل أكثر المجتمعات حاجة إلى الخيل، بالإضافة إلى الجيوش المحاربة. ومن ثم فلم يكن الفرسان عنوانا للأرستقراطية أو لطبقة متميزة كما هو الشأن في عصرنا هذا عموما. وقد أوصى الرسول بحسن معاملة الفرسان وسائر الرواحل وقال: أركبوا هذه الدواب سائلة ولا تتخذوها كراسي.

وحافظ العرب على معرفتهم بأنساب الخيل وكتبوا عنها مدونات كثيرة، وأهدى عياش بن الزبرقان خمسة عشر فرسا إلى عبد الملك قد نسب كلا منها إلى آبائه وأمهاته (الجاحظ البيان والتبين ١/٣٢١)

وكما كان الشأن في الجاهلية، فإن للدواب بياطيرها وكانوا في سائر أنحاء العالم الإسلامي وبينهم من ليسوا مسلمين (المسعودي - المروج ٣/٢٢١).

١٢) الصيد

١- صيد الطيور والوحوش

اهتم الناس، على اختلاف طبقاتهم بالصيد منذ الزمن القديم. وقد أنهم أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص أنه يلهو بالصيد^(٨٨). ومات معاوية بن هشام بن عبد الملك حين عثر به فرسه وهو يطارد الثعلب^(٨٩). وفي رواية أن المهدي مات أثناء الصيد، إذ طردت كلابه ظييا، فلم يزل المهدي يتبع كلابه وهو على فرسه واقتحم الطيبي باب خربة فاقتحمت الكلاب خلفه، واقتحم الفرسان خلف الكلاب، فدق ظهره في باب الخربة، فمات من ساعته^(٩٠).

والملوك تقسم أيامها فتجعل يوم الغيم الذي لا مطر فيه للصيد، ويوم المطر المتتابع للتخلي بالندامى واللذة، ويوم الصحو للقاء الناس. فاما يوم الصيد من أيام الأسبوع فذكر بعض من قسم الأيام أنه يوم السبت^(٩١). وكثيرا ما خرج الرشيد، وهو في الرقة، إلى الصيد^(٩٢) وكان يخرج لذلك في موكب، ومن بين من رافقه إسحاق الموصلي والزبير بن دحمان^(٩٣). وإن من كان دون الرشيد بكثير ونقص العرجي (عبد الله بن عمرو بن عمرو بن عثمان بن عفان العرجي شاعر الغزل توفي سنة ١٢٠هـ)، مثلا كان يخرج إلى الصيد في غلمانته ومواليه ومعه كلابه وفهوده وصقوره وبوازيه^(٩٤).

بنى المعتصم في أرض دجيل (قرب بغداد) حائطا على هيئة نعل الفرسان طوله فراسخ كثيرة، وجعل طرفيه جهة نهر دجلة، حيث يقوم رجال بمطاردة الصيد حتى يتم حصره بين الحائط والنهر، ولا يبقى مجال للنجاة فيقبل الخليفة وأولاده وأقاربه وخواصه وحاشيته ويتأنقون في القتل والصيد ويتفرجون ويقتلون ما يقتلون ويدعون الباقي^(٩٥).

وحين أراد المعتصم بالله اللجوء سرا عن أخيه الموفق، إلى أحمد بن طولون في الرقة ذهب عن طريق الجزيرة متظاهرا أنه في رحلة صيد^(٩٦).

وبلغت نفقات المتوكل السنوية على أرزاق الكلازيين والبيادارية والفضادين خمسمائة ألف درهم^(١١٧) (أي على المشرفين على الكلاب والأبواز (جمع مفردة باز) والفهود .

وكان الصيد وافرا في الرقة ففيها، الغزلان وحمار الوحش والثور الأبيض من الوحش والغرائق والسواذق والضواري والحباري من الطير وغير ذلك^(١١٨) وذكر عن دير زكي، إن بناحيته من الغزلان والأرانب ومما شاكل ذلك مما يصطاد بالجراح ومن طير الماء والحباري وأصناف الطير^(١١٩).

غضب المكتفي بالله منصرفه من الرقة على نديمه أبي أحمد يحيى بن علي المنجم فأمر بإرساله إلى قرقيسيا وإقامته فيها لا يفارقها إلى أن يصيد سباعا^(١٢٠).

وللصنوبري قصيدة طائية يصف فيها كيف خرج في الرقة للصيد على جواد سريع ومعه خير الشواهي يصطاد بها بطل الماء وطيره، والكلاب يصطاد بها الغزلان وغيرها (ديوان الصنوبري ٢٨٦)^(١٢١).

وكان العرب في الجاهلية يستذلون الصيد، ويحقرون انصياد، فمن ذلك قول عمرو بن معد يكرب

أبني زياد أنتم في قومكم ذنب ونحن فروع أصل طيب

تصل الخميس إلى الخميس وأنتم بالقهر بين مريق ومكلب

لا يحسن بنو طليجة حرينا سوق الحمير بحانة فالكواكب

حيد عن المعروف سعي أبيهم طلب النوعول بوفضة وبأكلب

(الخميس: الجيش، القهر: الذل، المريق: الصائد بالريقة وهي العروة في الحبل، المكلب: الصائد بالكلاب، الوفضة: جعبة السهام إذا كانت من آدم)^(١٢٢).

وهناك قصور الحيران أو الحوائر (جمع حائر أو ما يسمى بالحير) وهي نموذج خاص في القصور ابتكره الأمويون وتابعهم فيه العباسيون دهرًا ثم انقضى ولم يعد. لكي نفهم ذلك يجب أن نعرف أولاً أن البادية التي لا ينبت فيها اليوم غير الشوك والعرار، ولا يعيش فيها إلا الضباب (جمع ضب) كانت في تلك الفترة أكثر خضرة بكثير، وكانت أنواع الوحش ترتع فيها من الأسود والظباء والمها، وحمير الوحش، والأرانب الوحشية والأوائل والنعام. وكانت قبل ذلك أكثر خصبا ووحوشا كاسرة. وكان الصيد من رياضات الخلفاء وحاشيتهم فاحتالوا على بناء هذا النوع من الأبنية على أطراف البادية تحشر إليها الوحوش للتكاثر والصيد. ففي الحائر بساتين واسعة وأجام وماء مجتمع من أقتية بعيدة المستقى مع ما يتصل بالصيد من قصر للاستقبال والراحة وحمام ومسجد، وأبنية للحاشية والحرس، وسور حائر يطيف بكل ذلك.

تأنق الأمويون على عاداتهم، في بناء الحيران فكان من ذلك قصر الحير الغربي قرب تدمر، وقصر الحير الشرقي البعيد قرب وادي الفرات ومجمع الأبنية الأموية وقصر هشام (أو خربة المفجر) وقصر عمره إلخ..^(١٢٣).

٢- صيد السمك

سمك الفرات: كان السمك متوفرا في مياه الرقة وخاصة ماء الفرات. وقد ذكر الصنوبري سمك الفرات فقال:

وما صبري إمامة عنك إلا كصبر الحوت عن ماء الفرات^(١٢٤)

وأشاد شيخ الربوة بسمك الفرات إذ قال: وبها (أي بالفرات) من السمك الأبيض الجليل الجثة تكون الواحدة منه قططار لحم بالدمشقي لحما^(١٢٥).

والظاهر أن وصف السمك بالبياض مدح لها (ولعل ذلك يدل على أنها تطفح بالدهن) إذ يقول ابن الرومي في مدح سمك دجلة:

بيض كأمثال السبائك بل **محشوة بالشحم كالعكك**
العكك جمع عكة: قرية صغيرة للسمك^(١١٦).

وفي إحدى المرات كان صيد السمك في الرقة مناسية لإظهار كرامة أحمد بن محمد أبي الحسن النوري شيخ الصوفية في بغداد (ت ٢٩٥هـ)، إذ ذكر عن نفسه: كشت بالركة فجاءني المريدون الذين كانوا بها، فقالوا: نخرج ونصطاد السمك، وقالوا لي: يا أبا الحسن! هات مع عبادتك واجتهادك وما أنت عليه من الاجتهاد، سمكة يكون فيها ثلاثة أرطال لا تزيد ولا تنقص فأخرجت سمكة فوزنتها فإذا فيها ثلاثة أرطال لا زيادة ولا نقصان^(١١٧).

وكان أكل السمك للفقراء ويصف المقدسي أهل البطائح بضيق العيش وأن أدامهم السمك^(١١٨) والسمك متوفر لديهم بالطبع (البطائح: تبطح أنسيل إذا اتسع في الأرض وبذلك سميت بطائح واسط لأن المياه تبطح فيها أي سالت واتسعت في الأرض وهي أرض واسعة بين واسط وأنبصرة، ياقوت: البطيحة).

وأدوات صيد السمك التي كانت مستعملة هي نفسها المعروفة الآن وهي:

١- الشباك: وهي تتخذ وتمعد من الخيطان، وتطرح في الماء يصاد بها السمك^(١١٩).
وقد وصف الصنوبري الشباك بقوله:

ثم يمتننا الخ عين في جسد **فجفنا بمئاسهن في العمد**
السف من الحيتان بيض كالبرد **مكسوة نازهمسا ما تنتقد**^(١٢٠)

يريد بالعين ثقوب الشبك وبالجسد: الشبك نفسه، وبالحيتان: السمك وبالدراهم حراشف السمك

ويذكر الشابشتي عن دير زكي: وفي الفرات بين يديه مطارح الشباك للسمك^(١٢١) (مطارح: مكان وضع الشباك).

٢- صنابير الصيد، جمع صنارة: وهي حديدة معقوفة محددة الرأس يصاد بها السمك. وقد وصفها الحافظ محمد بن الوزير^(١٢٢) كما وصفها كشاجم^(١٢٣).

وكان صيد السمك في النهر في العصر العباسي خاضعا لأشراف الدولة، وعلى من يريد أن يزاوله أن يحصل على ترخيص بذلك كما تقدم في الضرائب نقلا عن ديونسيوس المنحول^(١٢٤) وينقل لنا ابن شداد في كتابه الأعلاق الخطيرة الذي ألفه عام ٦٤٠هـ، أن ارتفاع الأوتار كان في عهده ثمانية آلاف درهم^(١٢٥) وتعبير خراج مضارب الأوتار، أو خوارج المصايد أو خراج مغارس الشباك كلها بنفس المعنى^(١٢٦).

١٣) الأعياد والاحتفالات

١- عيد الفطر

يأتي عبر رمضان

وقيل أن يحل رمضان يتأهب الناس له بأن يخزنوا ما يحتاجونه من المؤن ويوسعوا على أنفسهم^(١).

وكان الخلفاء من جهتهم يميزون هذا الشهر بترتيبات خاصة، إذ أمر المأمون مثلا إلى النواحي، الاستكثار من القناديل في المساجد في شهر رمضان^(٢) وفي آخر يوم جمعة من رمضان يخرج الخليفة لصلاة الجمعة^(٣).

أما في عيد الفطر، فقد خرج المأمون إلى المصلى فصلى بالناس في عيسا باز، وعبأ الجند تعبئة لم ير مثلا قبل ذلك لأحد من الخلفاء من أظهار السلاح وكثرته (كثرة الجند)^(٤).

وحين كان الواقدي في الرقة يوم عيد الفطر، سار في موكب الرشيد إلى المصلى وكان الناس يتزيفون أحسن زي^(٦)، والمصلى خارج الرقة، لأنه في تلك المناسبة يحتشد عدد كبير من الناس لا يتسع لهم المسجد الجامع العادي. وركب المتوكل يوم عيد الفطر وقد ضربت له المصاف (موضع تكون فيه صفوف الناس) نحواً من أربعة أميال، وترجل الناس بين يديه وصلى بالناس ورجع إلى قصره^(٧).

وكان يقلس للنبي يوم عيد الفطر ويجري مثل ذلك في عيد الأضحى^(٧).

ولبهجة أيام الجمع والأعياد والحج شبه بها أيام البرامكة فقال الشاعر:

كأن أيامهم من حسن بهجتها

مواسم الحج والأعياد والجمع

(المسعودي ٣/٣٨٢)

كانت الصلوات غير المعتادة في حياة النبي ﷺ تؤدي خارج سور المدينة ومن بينها صلاة العيد وصلاة الاستسقاء، وهكذا كان العرف من بعده في معظم العواصم الإسلامية (رسائل الصائبي). حين استقر محمد ﷺ في المدينة، كانت الصلوات العادية تقام في داره التي كانت مسجده أيضاً، أما الصلوات غير العادية، فكانت تقام في موضع جنوب غربي المدينة على أراضٍ بني سليمة خارج السور في شمال غربي الجسر على الوادي. وفي هذا الموضع أقيمت الصلاة أول شوال وفي العاشر من ذي الحجة. وقيل أيضاً أنها أقيمت هناك صلاة الاستسقاء (دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الأولى Musalla).

وأول من أمر بالصلاة في العيدين بالضعفة (جمع مفردة ضعيف) في المسجد، وخرج هو إلى المصلى خارج المدينة كان علي بن أبي طالب في الكوفة (ابن رسته ١٩٩هـ).

وكان المصلى يجهز بما يجب قبل موعد صلاة العيد ففي عهد الخليفة الطائفة أمر أحد ولاته: بالسعي في الأعياد إلى المصليات الضاحية (الضاحية: المعرضة للشمس) بعد التقدم في فرشها وكسوتها، وجمع القوام والمؤذنين والمكبرين فيها، واستقدم الناس إليها وحضهم عليها (رسائل الصائبي ١٥٠-١٨٩). وكان في كل مدينة مصلى واحد ويكون خارج أسوارها. وقد وصف الصنوبري المصلى في الرقة وقد اكتسى أنواع الزهور، وأشرق نواحيه بالربيع فصار يغري باللؤلؤ فقال:

وحمى المصلى مكتس

ولا اعتزلت عزائله المصلى

وأهدى للرصيف رصيف حزن

حل الخزامى والعرار

بلى مرت على الخراتين

يعاوده طريق الطرزين

(الديوان ٤٩٣)

وقال :

يا نديمي ما تحن إلى القصر

ف هذا أوان الحنين

ما ترى جانب المصلى وقد أشر

ق منه ظهوره والبطون

أقحوان وسوسن وشقيق

ويهار يجنى وأذريون

أسرجت في رياضه سرج الط

ر وطابت سهوله والحرزون

(الديوان ٤٩٦)

الحمى: الموضع فيه كلا يحمى من الناس أن يرمى. اعتزلت: تتحت وبدت. العزابي: مصب الماء.

٢- مواسم الحج

الموسم اصطلاحاً لم يكن يعني فقط أداء هذه الفريضة الدينية بل ما يحيط بهذه الفريضة من إجراءات رسمية. كان أكثر مظاهرها دلالة عليها تعيين ذي مكانة ليشرف على هذه المناسبة

السلبية. وفي أيام الأمويين لم يكن هذا الشخص ذا مكانة استثنائية فقد جرت العادة أن يكون على الموسم والي المدينة أكان من أعضاء الأسرة الحاكمة أو من العرب الآخرين الذين كانوا يحكمون المدينة ويقاسمون الأمويين شرف هذه المناسبة. وفي بعض الحالات القليلة كان يشرف على الموسم إحدى الشخصيات الأموية لكن كان هذا يحدث عادة عندما كان الخليفة نفسه. أو أحد من أبنائه أو ذوي قرياه، يؤدي فريضة الحج، فكان من الطبيعي أن يكون أي منهم على الموسم. وقد اختلف هذا الوضع تماماً مع مجيء العباسيين إلى الحكم، إذ أضفوا على الموسم أهمية استثنائية حتى أصبح أحد مصادر الشرف والرفعة، إلى درجة أن أصبح مصدر خلاف بين الخليفة السفاح وأخيه أبي جعفر من جهة وأبي مسلم من جهة ثانية بعد أن رفض الاثنان أن يسيغا هذا الشرف عليه عندما طلب من الخليفة أن يعينه على الموسم. ومع هذا الوزن المعنوي الكبير الذي أصبح الموسم يتمتع به، فقد تحول في عهد المنصور ليكون شأنًا عباسياً بغير متأنج. فما كان لأحد أن يقوم الموسم إلا الخليفة نفسه أو أحد أبنائه أو أعمامه أو أبناء أخوته، ليحرم العرب الآخرون من الفوز بهذا العمل الذي اعتبر من مصادر الشرف (العباسيون في سنوات التأسيس ٢٠٢).

وكان طريق مكة لها عامل موكل بها يقوم دائماً بتجديد المنازل والقصور وتهويد الطريق والعناية بالآبار ومنارات الطريق إلخ... كما يهتم البريد من بين جملة اهتماماته بالإخبار عن رؤية هلال ذي الحجة وعن سلامة وصول الحجاج، وقد كان الرشيد حين يحج كان يحج معه مئة من الفقهاء وأبنائهم. وأمر المنصور عام ١٤٧هـ أن يقام على المشعر الحرام وسائر المشاعر الشمع مكان الزيت والنفل وآخر من حج من الخلفاء العباسيين هارون الرشيد كما تقدم

صالح صاحب المصلى

هو رجل من أهل خراسان^(٨) كان يحجب المنصور^(٩) وحجب الهادي^(١٠) وفي السنة ١٩٤هـ وجهه الأمين رسولاً إلى أخيه المأمون^(١١) ثم أصبح من أنصار المأمون^(١٢) ثم قام ببعية إبراهيم ابن المهدي^(١٣).

كان صالح ممن جاء مع أبي مسلم (الخراساني) إلى السفاح. وكان من أولاد ملوك خراسان من أهل بلخ، فلما أراد المنصور أنفاذ أبي مسلم لحرب عبد الله بن علي سأل أن يخلف جماعة من أولاد ملوك خراسان بحضرته فخلفهم واستخدمهم المنصور.

فلما أنفذ أبو مسلم خزائن عبد الله بن علي على يد يقطين بن موسى، عرضها المنصور على من كان المنصور اجتذبهم من جانب أبي مسلم واستخلصهم لنفسه، وقال: من أراد من هذه الخزائن شيئاً فليأخذ، فقد وهبته له، فاختار كل واحد منهم شيئاً جليلاً. فأختار صالح حصيراً للصلاة من عمل مصر، وذكر أنه كان في خزائن بني أمية، وأنهم ذكروا أنه كان للنبي ﷺ، فقال له المنصور: إن هذا لا يصلح أن يكون إلا في خزائن الخلفاء. فقال (صالح): قلت أنك وهبت لكل إنسان ما اختاره، ولست أختار إلا هذا، فقال المنصور: خذ! على شرط أن تحمله في الأعياد والجمع، فتفرشه لي حتى أصلي عليه، فقال (صالح) نعم، فكان المنصور إذا أراد الركوب إلى المصلى أو الجمعة، أعلم صالحاً، فأنفذ صالح الحصير ففرشه له، فإذا صلى عليه أمر به فحمل إلى داره فسمى لهذا، صاحب المصلى. فلم يزل الحصير كذلك إلى أن انتهى إلى سليمان بن علي بن صالح صاحب المصلى، وكان يخرجهم كما كان أبوه وجده يخرجانه للخلفاء. فلما مات سليمان في أيام المعتصم ارتجع المعتصم الحصير وأخذ إلى خزائنه^(١٤).

٣- الأعياد والمواسم

١. الاحتفال بالعديد:

زاد النفوذ الفارسي في الدولة العباسية حتى شمل كل مظاهر الحياة في العصر العباسي وبلغ الذروة في عهد هارون الرشيد، واحتفل بالأعياد الفارسية القديمة وخاصة بالنيروز

والمهرجان. وكان الخلفاء يحتفلون بالعيدين احتفالاً دينياً، فيؤمنون الناس في الصلاة ويلقون عليهم خطبة في فضائل العيد وما يجب على المسلمين اتباعه للمحافظة على شعائر الاسلام. وكانت الأنوار تسطع في أرجاء المدن في ليالي العيد، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير وتزدحم الأنهار بالزوارق المزينة بأبهى الزينات، وتسطع من جوانبها أنوار القناديل، وتتألأ الأنوار الساطعة من قصور الخلافة، وقد لبست الجماهير الطيالة السود تشبه بالخلفاء العباسيين الذين اتخذوا السود شعاراً لهم. وكان بعضهم يتخذ بدل العمامة قلانس طويلة مصنوعة من القصب والورق مجللة بالسود كذلك، ويلبسون بدل الدروع دراعات كتب عليها (فسيكفيكم الله وهو السميع العليم) (١٥).

٤- الاحتفال بالنوروز والمهرجان

كان النوروز من المواسم القديمة اتخذها الفرس لإحياء العام الجديد وهو أول أيام السنة عندهم. وكان الفرس يتهادون في عيد النوروز بالهدايا ومنها السكر والملابس، وكان أكاسرة الفرس والخلفاء العباسيون من بعدهم يحتفلون بالنوروز في أول العام وفي آخره بالمهرجان.

٦- أعياد الأديرة المسيحية

كانت حانات الأديرة أعمر ما تكون في الأحاد والأعياد خاصة. وقد كان لكل دير عيد في وقت من السنة إضافة للأعياد المسيحية العامة.

وفي هذه الأعياد يخرج أصحاب البيعة في موكب ديني، وعلى جملهم شارات الصليب، وبين أيديهم الأعلام فوقها الصليبان، وبأيديهم المجامر، والقسس والشمامسة يرتلون أناشيدهم الكنسية على نغم واحد متقن الألحان إلى أن يقضوا شعائهم ثم يعودون على هيئتهم.

وكان يخرج إلى هذه الأعياد جموع النصاري نساء وصبية ورجالا في أحسن زي في الحلل والحلي وكانت مواكبهم قبل العيد بيوم ترى متزاحمة ومتدافعة تسبل بها الطرق (أي تكثر سابلتها). يطلبون الدير خارج المدينة ليعيدوا فيه. وكان منظر هذه المواكب لا يرى أبهج ولا أجمل منه، فكان من المسلمين خلق يخرجون للنظر والنزهة، وهذا طبيعي مألوف، ولكن السباقين منهم إلى هذه الأعياد والمتفرغين لها المشاركين فيها كانوا أهل الرفث المجان، يتعرضون للجواري والفتيان بالكلام والمزاحمة في الطريق والنظر الفاسق والعبث الخليع. ثم يقضون أيام العيد بعد ذلك في حانات الدير.

ومن الأعياد النصرانية التي ورد في أشعارهم وأخبارهم ذكرها:

عيد الشعانين أو السعانين وهو قبل الفصح بأسبوع، وهو الأحد الأخير من الصوم الكبير واليوم الأول من أسبوع الآلام، وفيه يبارك القسس أغصان الشجر من الزيتون أو سعف النخل. وعيد الفصح وهو عند النصاري تذكار قيامة السيد المسيح من الموت، عيد الباعوث وهو صلاة ثاني عيد الفصح، وعيد الصليب وهو تذكار لما وفقت له الأميرة طورة هيلانة أم قسطنطين أول أباطرة الرومان النصاري من العثور، في قولهم، على صليب المسيح في مغارة بأورشليم، هذا عدا عن الأعياد الخاصة بكل دير من الأديرة (١٦).

عيد الصليب في دير مارزكي

حكى عن الحسين بن يعقوب بن داود أنه قال: صرت إلى الرها فبت فيها، وخرجت قبل عيد الصليب بيوم، فإذا لدينا وجوه حسان من نصرانيات خرجن لعيدهن، عليهن جيد الثياب، وفاخر الجواهر، وإذا روائح المسك وقد طيب الهواء منها وقد فرش لهن على العجل وهو يجربهن، وأخريات مثلهن على المهارى الخراسانية والبغلات المصرية والحرمر الفر، ومشاة ومن خلال ذلك صبيان ما رأيت أحسن منهم وجوهاً وقدوداً وثياباً فتأملت منظراً لم أر أحسن منه، وإذا هم يطلبون دير زكي ليعيدوا فيه (الحسين بن يعقوب: ولي المتوكل يحيى بن خاقان، الخراساني، ديوان الخراج سنة ٢٣٢هـ (الطبري)) ' فولى يحيى هذا الحسين بن يعقوب بن داود قنسرين'. (مسالك الأبحار ٢٦٥/١).

الباب السابع

بعض الفئات الاجتماعية

- ١- غوايتاين ١٢٢
- ٢- ن.م ١٢٦
- ٣- نشوار المحاضرة ٢١٢/٧ ، القيار: صاحب القار أي الزيت
- ٤- الطبري ٢٥٦/٩
- ٥- غوايتاين ١٤٨
- ٦- المدن الإسلامية. شاكرو مصطفى ٦٤١٢
- ٧- ن.م ٤٣/٢
- ٨- كلود كاهن: تاريخه
- ٢١- العقبوني ٢٦٤١٢
- ٢٢- الطبري ١٧٥/٨
- ٢٣- ن.م ٨٩/٨
- ٢٤- ن.م ٦٦/٨
- ٢٥- ن.م ٢٥٠/٨
- ٢٦- ن.م ٢١٧/٨
- ٢٧- ن.م ٢٦٣/٨
- ٢٨- ن.م ٢٤١/٩
- ٢٩- ن.م ٥٥/١٠
- ٣٠- مختار الاغانى ٢٢٠/٦
- ٣٣- الطبري ٦٤/٨
- ٣٤- ن.م ٢١٨/٨
- ٥٤- الطبري ٣٧٩/٩
- ٥٥- ن.م ٣٠٢/٩
- ٥٦- مختصر ابن عساكر ١٩٨/٢٣ البغدادي ٣٥٤/٩
- ٥٨- ابن سعد ٤٢٧/٥
- ٥٩- البغدادي ٣٥٤/٩
- ٦٠- النشوار ١١٨/٨
- ٦١- البلاذري ٢٧٨
- ٨٠- مختصر ابن عساكر ٢٩ / ٢٣٧ - ٩٤/ ٢٦
- ١٢٠- غوايتاين ١٣٢
- ١٢١- ن.م ١٤٦
- ١٢٢- ن.م ١٩٥
- ١٢٣- متر ٢٨٥/٢
- ١٢٥- نومبار ١٧٤
- ١٢٦- التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ١٢٦ آشور ١٧٧
- ١٢٨- البغدادي ٤٨٢/١٢ ابن سعد ٣٣٤/٧ تاريخ الثقات للعجلي (مات سنة ٢٠٧)
- ١٣٧- ن.م ١٥٦/١٠
- ١٣٨- ابن عساكر ٢٣٢/٢٨
- ١٣٩- ن.م ٢٣٤/٢٩ ، قوات الوفيات ٢٣٦/٢ ، اعلام . النبلاء ٢٧٥/١٠
- ١٤٢- تاريخ الموصل ٤٠٤
- ١٤٣- القشيري فقرة ٦٣
- ١٤٤- الطبري ٣٤٧/٨
- ١٤٦- البلاذري ٢٠٤/١
- ١٤٧- الطبري ٣٢٠/٨
- ٢١٤- البخلاء للجاحظ ٤٩
- ٢١٥- الطبري ٥٩٩/٨
- ١٤٨- ن.م ١٤٢/٩ سنة ٢٢١
- ١٤٩- البغدادي ١٢/١٢
- ١٥٠- الاغانى ٢٣٤/١٨
- ١٥١- ابن عساكر ٣٠٨/٣١
- ١٥٢- الاغانى ٤٦٦/٦ ، مختصر ابن عساكر ١٧/١٠
- ١٥٣- الكامل للمبرد ٣٨٠/١
- ١٥٤- القشيري فقرة ٥٠
- ١٥٦- الاغانى ٣/٢٠ ، وكيع ١٩٥/١
- ١٥٩- ابن سعد ١٥/٤
- ١٦٠- تهذيب الكمال ٤٢١/٣
- ١٦١- ن.م ٤٢١/٢
- ١٦٤- النشوار ٣٧/٣
- ١٦٥- ابن سعد ١١٣/٧
- ١٦٦- الطبري ٥٣٨
- ١٦٧- تاريخ الموصل ٧٢
- ١٦٨- ياقوت: معجم الادباء ٣/٢
- ١٦٩- هارون الرشيد- الجومرد ٨٢/٢ ، ١/١٦٩ ابن عساكر ١٧٦/٢٣
- ١٧٠- موسوعة الفقيهية، الكويت ٦٨/٢٢ (رق)
- ١٧١- ن.م ١٨/٢٣
- ١٧٢- ن.م ٣٣/٢٣
- ١٨١- ابن سعد ٩٠/٤
- ١٨٢- البغدادي ٣/٢
- ١٨٣- البسوي ٢٤٤/٢
- ١٨٤- ابن سعد ٢٢٧/٣
- ١٨٥- ابن سعد ٣٠٨/٥ ، البسوي ٨٠٩/٢
- ١٩٤- الاغانى ١٢/١٢
- ١٩٥- طبقات ابن المعتز ٤٢٦
- ١٩٦- ن.م ٤٢٦
- ١٩٧- الفرج بعد الشدة ٤١٨/٤
- ١٩٨- المسعودي، مروج الذهب ٣٤/٢
- ١٩٩- الطبري ٤٦٨/٨ سنة ١٩٧
- ٢٠٠- تاريخ الموصل ٨٨٢
- ٢٠١- ميخائيل ١٥٣/٣
- ٢٠٢- ابن الاثير ٥١٣/٦ سنة ٢٢٧
- ٢٠٣- الطبري ٢٨٢/٨
- ٢٠٤- ن.م ٢٥٧/٨
- ٢٠٥- ن.م ٢١/١٠
- ٢٠٦- ن.م ٤٤٨/٨ سنة ١٩٧ ، ٤٦٧ سنة ١٩٨
- ٢٠٧/٩ سنة ٢٤٨
- ٢٠٧- الطبري ٢٥٧/٩
- ٢٠٨- ن.م ٢٥٨/٩
- ٢٠٩- ابن الاثير ١٧٨/٥ سنة ١١٤
- ٢١٠- الطبري ٥٥/٩
- ٢١١- ابن الاثير ٣١٦/٨
- ٢١٢- بغية الطلب ١٠٥/١
- ٢١٣- ن.م ٢٨٥/٢
- ٢٧١- الطبري ٩٥/١٠ سنة ٢٨٩
- ٢٧٢- انساب الاشراف - البلاذري ١١٠/٣

- ٢٦٦- البخللاء للجاحظ ٢٢/الطبري ٢٦٢/٨ سنة .
 ٢٤٣- ن.م ٤٠٠/٩ عام ٢٥٥
 ٢٤٤- ن.م ١٤/١٠ عام ٢٧٥
 ٢٤٧- تهذيب ابن عساكر ٢/٢١٣
 ٢٤٨- مختار الأغاني ١/١٢٥ ترجمة ابراهيم الموصلي
 ٢٥٢- معالم القرية في احكام الحسبة لابن القرية-٢٦٩
 ٢٥٣- الحيران للجاحظ ٢/٢٦٥
 ٢٥٤- البخللاء للجاحظ ٥٠
 ٢٥٥- جمهرة ابن حزم ٣١٣
 ٢٥٦- الطبري ٨/٣١٧
 ٢٥٧- اللسان: عرب، بدو
 ٢٥٨- اللسان: حضر
 ٢٥٩- اللسان: نجع
 ٢٦٠- نقائض جرير والاخلط ٢٦
 ٢٦١- دائرة المعارف الإسلامية (بدو)
 ٢٦٤- الاغاني ١٨/٣٠٦
 ٢٦٥- الاغاني ١٣/١٢١
 ٢٦٦- الطبري ٨/٥٥٢ سنة ٢٠١
 ٢٦٧- ابن حوقل ٢٠٤
 ٢٦٨- ياقوت: رصافة الشام
 ٢٦٩- معجم قبائل العرب ١/٣٥١
 ٢٧٠- ياقوت: رصافة الشام
- ٢٧٣- البصائر والذخائر مجلد ٢ قسم ٢ ، ص ٥٣١
 ابن عساكر ترجمة عمر بن هبيرة
 ٢٧٤- تاريخ اليعقوبي ٢/٣٥٤
 ٢٧٥- مظاهر الحضارة ببلاد الشام ٢٢٩
 ٢٧٦- ابن حوقل ١٩١ ، ٢٧٦/١ /الازدي - تاريخ الشام ٣١٤
 ٢٧٧- الطبري ٩/٦٠٤ سنة ٢٦٨
 ٢٧٩- الفرج بعد الشدة ٤/١٣٩
 ٢٨٠- الطبري ٩/٣٤٦ سنة ٢٥١
 ٢٨١- المقدسي ١٤١
 ٢٨٢- اليعقوبي ٢/٤٧٩
 ٢٨٣- لسان العرب (بدو)
 ٢٨٤- ابن عساكر طبع دمشق ٣٤/٧٢
 ٢٨٥- مختار الأغاني ٨/١٢٨
 ٢٨٦- البسوي ١/٣٩٦
 ٢٨٧- الطبري ٨/٦٣
 ٢٨٨- ن.م ٤٠٤/٩ سنة ٢٥٥
 ٢٨٩- لومبار ٥٧٩
 ٢٩٠- حسين مؤنس - عالم الاسلام ٢٢٢
 ٢٩١- آشتور ٥١
 ٢٩٢- الآثار السورية اشراف عفيف بهنسي، البدو والفلاحون
 ٣٠٠

الباب التاسع

الحياة الثقافية والعلمية

الباب التاسع

الحياة الثقافية والعلمية

- دور الرقة وديار مضرفي حركة التعريب

١) الترجمة من اليونانية إلى السريانية

كانت سورية (بما فيها الجزيرة) دوما موطن حضارة رفيعة. ولما غزتها الحضارة الإغريقية لم تصبح هيلينية إلا في مظهرها السطحي، وبقي الشعب آراميا في صميمه، وكانت لغتها التي تمت في عصور سلطان الدولة الرومانية هي اللغة السريانية. ومن يمين الطالع أن قسما كبيرا من الأدب الإغريقي كان قد ترجم إلى السريانية.

وكانت المرتبة الأولى في الترجمة للنساطرة، فهم الذين أسسوا مدرسة طبية في الرها بعد هجرتهم الأولى إلى المشرق. ولما أغلق القيصصر زينون Zenon هذه المدرسة سنة ٤٨٩م ظلوا يبحثون زمنا طويلا عن مأوى لهم في بلاد ما بين النهرين. وبعد قليل من الطواف تأسست في نصيبين مدرسة فلسفية وطبية احتفظت في بعض جوانبها بالطابع الإغريقي، ثم نقلت هذه المدرسة أخيرا إلى جند يسابور في الجنوب الشرقي من فارس^(١).

وكانت منطقة الهلال الخصيب في شمال الجزيرة العربية مسرحا لحركات عملية عديدة، وتعاقبت عليها، أو على جزء منها على الأقل، أمم كثيرة بالغزو أو بالهجرة المتواصلة، ومن بينهم قبائل من البدو والآراميين منذ القرن الثامن من قبل الميلاد وأستعمر الآراميون تلك المناطق شيئا فشيئا وتوسعوا فيها، وأقاموا المدن أيضا وصارت لغتهم، وهي الآرامية، شائعة وغلبت على لغات سكان تلك المنطقة بما فيهم الفرس، وعلى الأخص في عهد داريوس الأول (٥٢١-٤٨٥ق م). واحتل اليونان بقيادة الاسكندر المقدوني الأكبر هذه المنطقة الشاسعة سنة ٣٣١ ق م، ثم سيطر خلفاؤه من بعده، ثم دخلت المناطق المجاورة من البحر المتوسط في حوزة الروم، وصارت للفرس دولة قوية في فارس، وصار وسط الشام يتداول بالحروب بين دولتي الفرس والروم وصارت اللغة اليونانية التي جاءت مع الفتح اليوناني وجيوش الإسكندر سنة ٣٣١ ق م لغة الحكام والطبقة العليا من الشعب ولغة الثقافة والعلم في العراق والشام ومصر وجاء مع اللغة ثقافة اليونان وعلمهم، أما اللغات الآرامية فقد كانت لغة الشعب وجمهور الناس في تلك المناطق. وتعد لهجة الرها أهم اللهجات الآرامية، وقد امتدت إلى شمال سوريا فصارت تسمى بالسريانية.

ومع انتشار النصرانية وتبصر الدولة الرومية منعت العلوم العقلية اليونانية وحد من نشاطها لأنها توحى بالتعارض مع تعاليم الشريعة المسيحية، لأنها تحمل فكر الإغريق الوثني. فحزن كثير من الكتب الإغريقية في الخزائن كما ورد ذكر ذلك كثيرا في عهد المأمون وغيره، ومع استمرار المباحث الدينية وتعدد الثقافات اليونانية والمصرية والفارسية والمسيحية، نشأت وظهرت فرق جديدة في النصرانية ودار بينها جدال طويل ومناظرات حول كثير من المسائل كطبيعة المسيح والتجسد والحشر.

اعظم الفرق التي دار حولها الجدل، فرقة النساطرة التابعة لنسطوريوس الإنطاكي الذي انتقل إلى القسطنطينية اسقفا لها سنة ٤٢٨ م وانعقد بشأنه مجمع أفسوس سنة ٤٣١م وعد أتباعه مطرودين من الكنيسة بسبب أفكارهم في طبيعة المسيح. ولجأ النساطرة في حوارهم إلى الاستعانة بالفلسفة اليونانية بأن أكبوا على ترجمة كتبها إلى السريانية، ثم أنشقت عن الكنيسة في مجمع خلقيدونية سنة ٤١٨م طائفة اليعاقبة وموطنها الأول مصر، واعتمدوا اللغة القبطية، واللغة السريانية في نشاطهم، وتبعوا النساطرة في ترجمة مادة غزيرة من الفلسفة واللاهوت الإغريقي إلى السريانية^(٢).

أهتم السريان بعلم شتى، وقد لعب التطور العلمي لديهم دورا هاما ولا سيما في المراحل الأولى من القرون الوسطى وتطورت الاتجاهات العلمية الطبيعية والإنسانية (أي الدنيوية) والتي يحتل الطب

مكانة مرموقة بينها، وهذا شئ طبيعي لأن الطب (مثل الرياضيات والجغرافيا) قام منذ أقدم العصور على وحدة النظرية والممارسة.

وعنى السريان عناية كبيرة بترجمة المؤلفات الطبية اليونانية الشهيرة إلى لغتهم والتي لعبت دورا هاما جدا في تطور العلوم العربية لاحقا ومن النادر أن تعثر على ترجمة عربية من اليونانية لم ترجع إلى السريانية. لكن العلوم (الوثنية) لم تكن مقبولة أو جماهيرية لا في بيزنطة ذاتها ولا في الأقاليم والمناطق السورية الخاضعة لها. وقد تم إصدار قرار سلطوي جائر من قبل الإمبراطور جوستينيان الأول (٥٢٧-٥٦٥م) يقضي بطرد الفلاسفة (الوثنيين) عام ٥٢٩م خارج أثينا. إلا أن هؤلاء الفلاسفة المنفيين أستاذوا نشاطهم مجددا في الإسكندرية وفي أكاديمية القسطنطينية وأحتل الأطباء في ذلك الوقت مكانة كبيرة في المجتمع وأعفوا من الضرائب.

بداية من القرن الخامس للميلاد اشتغل السريان بالترجمة من اللغة اليونانية في مدرسة الرها ومدرسة الفرس التي بعد أن دمرت على يد زينون الإمبراطور (٤٧٤-٤٩١م) وذلك سنة ٤٨٩م استأنفت واستغلت نشاطها في نصيبين في فارس وازدهرت المدرسة الطبية في جند بسابور على مدى قرنين.

سرجيس الراسعني

وهو أحد رواد عصره الذين جمعوا في أشخاصهم تعددية وشمولية المعارف والأساس النظري المتين مع النشاط العلمي الفعال في مجتمعهم فكان طبيبا ماهرا ، وفي الوقت نفسه كاتباً مستقل الآراء والتأليف وهو من أوائل مترجمي أرسطو وجالينوس إلى اللغة السريانية، ولهذا فقد حظى بشهرة واسعة، وبمكانة مرموقة لمدة طويلة في العلوم الوسيطة (علوم القرون الوسطى) في منطقة الشرق الأدنى الحضارية، وهو أول من ترجم الكتب الفلسفية والطبية من اليونانية إلى اللغة السريانية، وفي ذلك الحين لم يكن ثمة فصل بين الفروع العلمية المختلفة وبالتالي فقد هيمن الاتجاه الموسوعي (الشمولي).

حصل سرجيس على تعليمه في الإسكندرية، وعندما جاءها كان يعرف اليونانية مع ميل إلى الطب. وقد ترجم أحد كتب جالينوس قبل حضوره إلى الإسكندرية. وكان في الفلسفة مشائيا، وفي الطب من أتباع جالينوس وقد اضطرتته الدسائس إلى أن يغادر إلى أنطاكية ومنها إلى روما ثم عاد من هناك إلى القسطنطينية، ويقال أنه مات فجأة بعد ذلك مباشرة (وربما يكون مات قتيلا). ترجم إلى السريانية من كتب جالينوس وحده فقط ستة وعشرين كتابا عدا الكتب الأخرى من العلوم الأخرى، وكان أول من ترجم كتب جالينوس في الطب والتشريح. لم يختر سرجيوس موضوعاته مصادفة، فهو سوعيته كانت تشكل الأساس العريض الذي اعتمد عليه في إيصال الثقافة والعلوم الرومانية (الأوربية) المعاصرة له إلى أبناء جنسه السريان. وكان أرسطو يمثل القدرة الموسوعية لكاتبنا السرياني. كان سرجيس انسانا محبا للحياة اجتماعيا وعمليا دون أن يكون ذلك على حساب جده واجتهاده العظيمين، وكان يملك عقلا فلسفيا وشموليا وفي الوقت نفسه صار طبيبا لامعا وكاتباً موهوبا. وتعجز الكلمات عن وصف هذه الشخصية الفذة الموسوعية التي قل أمثالها في تاريخ الأدب والعلوم السريانية والترجمة والممارسة العملية في حقول الطب والصيدلة والكيمياء. وقد شملت كتبه وترجماته: (علوم) الطب والمنطق والنفس والفلسفة والطبيعات والفلك والفلاحة والنبات والكيمياء وكافة علوم عصره توفي عام ٥٢٦م^(٣)

بولس اسقف الرقة

عاش بولس في القرن السادس ميلادي (قبل الإسلام)، وهو من أعيان العلماء الضارين بسهم وافر من الأدبين السرياني واليوناني وصار أسقف الرقة. وفي عام ٥١٩م تناولته يد الاضطهاد القيصري في سبيل المعتقد فخرج إلى الرها، وكانت تحت الحكم الفارسي. ترجم مصنفاً مارسوريوس الأنطاكي إلى السريانية، ولجودة ترجمته نعت بـمترجم الكتب وسنة وفاته مجهولة^(٤).

كانت المرتبة الأولى في الترجمة للنسائطرة فهم الذين أسسوا مدرسة طبية في الرها بعد هجرتهم الأولى إلى المشرق^(٥).

دور الرهبان والأديرة في الثقافة والتعريب

كان للأديرة إلى جانب اهتماماتها الدينية والاجتماعية اهتمام ثقافي لا يمكن التقليل منه، فجميع المؤلفين السريان كانوا إما رهبانا أو أنهم قضوا بعض الوقت على الأقل في الأديرة، كما يبدو أيضا أن الرهبان هم الذين نسخوا معظم المخطوطات السريانية، وكانت النسائطرة في الشرق قد أقاموا مدرسة في كل قرية. وقد راح المونونيزيون يقلدونهم (في سوريا). وكانت التربية في مدارس القرى والأديرة تبدأ بسفر المزامير ثم تقرأ بعد ذلك أسفار أخرى من التوراة وخاصة العهد الجديد. وتحوي الدراسة الأكثر تقدما على تفسير الكتاب المقدس حسب لاهوتيي المونوفيزيين.

ترك ماروثا التكريتي marutha (توفي ٦٤٩م) دير نرداس الذي قرأ وترهب فيه ثم وصل إلى دير مار زكي المجاور للركة طلبا للعلم فأقام فيه عشر سنين يدرس العلوم الإلهية ويخرج باللسان اليوناني (الؤلؤ المنشور ٢٨٠). وكان التعليم العالي يحصل عليه بالتجول لأن كل دير يعلم فيه شيئا مختلفا.

كانت الأديرة أماكن لإنتاج الكتب وصيانتها وكانت فيها حجرة النساخ والكتاب. ومنذ القرن السادس الميلادي عرفت أسماء بعض النساخ المهرة مثل، صمويل وجوناثان من دير الرهاويين في آمد الذين نسخا كثيرا من الكتب سلمت حسب وصيتهم إلى مدير الدير. وهكذا خلقت المكتبات. وكان الرهبان يستطيعون أن يملكوا أيضا مجموعات كبيرة وخاصة من الكتب التي تصبح بعد موتهم وحسب وصيتهم جزءا من مكتبة الدير.

ما تقدم حتى الآن كان في فترة ما قبل الإسلام وكانت الترجمة فيه تقتصر على الترجمة من اليونانية إلى السريانية وقد وصلنا الآن إلى المرحلة الإسلامية.

كانت الرسالة الإسلامية دينا حضريا يرتبط بالحضر وبالمدينة، وبدأ عمر بن الخطاب يأمر بتمصير الأمصار فظهرت معا ست مدن في العراق والشام ومصر وإفريقيا ومازال معظمها قائما إلى اليوم. ووضع عمر أسس الديوان ونظم العطاء على الجنود (وكان المسلمون حينئذ كلهم جنودا) فأسس بذلك علم التاريخ العربي وأقام استمرار الأمة في سجل مكتوب. وكانت القيادات التي قادت الجموع العربية وتحركت بها إلى الفتح في المستوى الفكري والحضاري الذي يؤهلها للاتصال بأعلى مستويات الفكر والحضارة في المناطق المفتوحة حينذاك^(٦).

وجد الفتح الإسلامي في سوريا وغيرها حضارات متطورة وكتب علم ودراسات طبية وعلمية وسمحت شروط الفتح ببقاء بذور تلك الحضارات عند الأهالي الذين احتفظوا بعاداتهم وقوانينهم ولغاتهم شرط أداء الجزية وارتبطوا مع الفاتحين إما بسبب الجوار وإما بسبب دخولهم الإسلام.

ونذكر هنا اسمي عظيمين سوريين كانا يعيشان في بلاد ما بين النهرين ويكتبان بلغتهما في القرن الأول للهجرة وهما:

الأسقف جورجيس اليعقوبي .

نصبه العرب المسيحيون القائلون بوحدة المسيح أسقفا في بلاد ما بين النهرين سنة ٦٨٦م وتوفي سنة ٧٢٤م، وهو الذي ترجم شرح الكتاب الأورغانون لأرسطو ونظم أيضا قصيدة^(٧) في التقويم وتحمل إحدى رسائل هذا الأسقف عنوانا يصفه بأنه أسقف تنوخ وطي وعاقولا والكوفة.

ساويرس سيبوخت في مدرسة نصيبين ٦٦٧م

ولد في نصيبين في الربع الأخير من القرن السادس وذهب وترهب وتثقف في دير قنسرين، وبرع في الآداب اليونانية والسريانية فضلا عن اللغة الفارسية. قضى حياته المدنية في تدريس الفلسفة والعلوم اللاهوتية والرياضية والتصنيف. وكان أمثلا لعلماء السريان في علم الفلك وسيم أسقفا لقنسرين وتوفي سنة ٦٦٧م^(٨). وقد ترجم وشرح في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي كتاب التحاليل لأرسطو ليس AmaLytigues، وصنف رسائل في الفلك والجغرافيا وهو مع تمكنه من اللغة الإغريقية يبدو أنه كان على دراية بالأرقام الهندسية وأنه كان له شأن في حمل العرب على تقديرها^(٩).

كتب ساويرس سيبوخت مؤلفاً في الزيج وشرح كتابي الخطابة وتحليل القياس (الانبا لوطيقا) لارسطو، ودرس منازل القمر ودورانه والخسوف الذي يتعرض له، كما ترجم كثيراً من المؤلفات الرياضية لبطلميوس وشرح مقالة بريرميناس (العبارة لأرسطو). وله كتاب في صور البروج يتضمن فصلاً مهماً عن الأرض القابلة للسكن (العامة) وغير القابلة للسكن (الغامرة) ومداراتها ومساحة السماء والأرض وما بينهما من مسافة. ويخطئ كتابه عن الإسطرلاب بأهمية كبيرة وهي آلة مهمة في مجال دراسة الفلك وحركة الكواكب. وعن طريق العرب بالذات عرف الغرب اللاتيني الإسطرلاب وقابلها باعجاب كبير^(١٣).

ولساويرس كتاب عن الحساب الهندي الذي يعد أقدم كتاب يشير إلى الدعوة إلى استعمال الأرقام الهندية في بلاد الشرق العربي ويقول: أن الهنود بتسعة أرقام فقط يستطيعون أن يكتبوا أي عدد كان. ولهذا فقد اكتسب أهمية تاريخية إذ يقدم فكرة أولية عن بدايات إطلاع الشرق العربي على حساب الهند^(١٤).

يعقوب الرهاوي (٦٣٣-٧٠٨م)

النحوي اللغوي والأديب والشاعر والناقل والمفسر والمشرع والفيلسوف اللاهوتي، ولد في قرية عيندابه (عين الدب) من كورة أنطاكية حول سنة ٦٣٣م على الأرجح، ويظن أن اسم أبيه اسحق. قرا على الأب قرياقس، ثم رمم دير قيسرين فترهب فيه ودرس على مار ساويرس سيبوخت آداب اللغة اليونانية ومهر في اللغة والفلسفة واللاهوت ثم رحل إلى الإسكندرية ليغوص على دقائق الفلسفة ثم عاد إلى الشام وتسلق في الرها ودرس اللغة العبرانية وأستفاضت شهرته... كان سنة ٦٧٢م شماساً ثم رسم قسا ورسم سنة ٦٨٤م مطراناً للرها، وأقام فيها أربع سنوات واشتد في حفظ القوانين واستقال وصار إلى دير مار يعقوب في كيسوم، ثم أنتدب لتدريس اليونانية في دير أوسيبونا في كورة أنطاكية فمكث أحد عشر سنة، وأخيراً عاد إلى الرها أواخر كانون الثاني سنة ٧٠٨م وبعد أربعة أشهر يمّم دير تلعدا ومات فيه. نقل كتاب مقولات أرسطو إلى السريانية^(١٥) وألف معجماً صغيراً فسر فيه الألفاظ الفلسفية والمنطقية وكتاب الأيام الستة في علم الفلك. ولم تكن ترجمته ترجمة حرفية بل كان يجتهد في إيضاح المعنى وسيأتي أن الاهتمام بدقة الترجمة دفعت إلى ترجمة الكتاب عدة مرات وعلى يد أكثر من مترجم كما جرى في ترجمة الهاروتي والمجسطي.

٢) حركة التعريب

لم يؤثر الفتح العربي ولا الدين الإسلامي على المسيرة الثقافية للبلاد المفتوحة، وشعر كل من أهالي البلاد المفتوحة والعرب الفاتحون بضرورة أن يتعاضدوا كل منهما مع الآخر، وهكذا عاصر العرب أيام الفتح العربي والأمويين مجموعة من العلماء البعاقبة والنساطرة والزرادشتيين على السواء. وثابر هؤلاء في حياتهم الدينية والاجتماعية والفكرية، وإن اضطروا أحياناً إلى تعلم اللغة العربية بسبب ضرورة التعايش. ففي العهد الأموي تولى الكرسي الرسولي في روما خمسة باباوات من أبناء الشام، وظهر من نصارى دمشق يوحنا الدمشقي أكبر فلاسفة الكنيسة الأرثوذكسية في تلك العصور، ثم ظهر أهم كتاب الكنيسة اليقونية في القرن السابع الميلادي جاك الرهاوي وقد تميز بأنه كان لا هوتياً مؤرخاً نحويّاً فيلسوفاً، وكان فيما كتب عن اليهود والمسلمين يحاول عدم صدم مشاعرهم ولا يخفي تعاضفه مع اتجاهات الزهد والتصوف التي كانت تظهر لدى بعض العرب المسلمين^(١٦).

جاءت حركة التعريب عن تراث الأوائل مبكرة في التاريخ العربي، ولم بشكل التعريب بالنسبة للمسلمين أية مشكلة. لقد تقبله الناس في القرن الأول الهجري، لما يقدم من خدمة عملية (في الطب والحساب والفلك)، وما وعد به من آمال الثروة (في الكيمياء)، وما يثيره من طرائف الأسئلة ومن أشدّ التحدي الفكري (في الفلسفة والإلهيات والدين)، وما قد يعلم من السياسة (في التاريخ)، وأقدم خبر نعرفه عن التعريب هو ما ذكر من ترجمة الإنجيل إلى العربية، فابن العبري يذكر في تاريخه السرياني أن البطريق اليقوني يوحنا الأول الذي ولي المنصب بين ٦٣٠-

٦٤٨م أي في تلك السنوات التي عاصرت وشهدت الفتح العربي الأول كله، ترجم الإنجيل إلى العربية بطلب من الأمير عمر بن سعد (لعله سعد بن أبي وقاص) فهذا أول تعريب في الإسلام. وقد كان للكتاب المقدس أهمية خاصة، ولا شك أن الدوافع لذلك التعريب إنما كانت دينية، لكنه موقف حضاري يستحق الوقوف الطويل عنده، عدا ما يثبت من معرفة ذلك البطريق بالعربية القرشية التي لا شك أنها كانت شائعة ومعروفة في الشام والعراق، يسجل أول ترجمة للتوراة والإنجيل نعرفها إلى العربية، ويبحث على السؤال عن لغة هذه الكتب المقدسة التي كان يقرأها العرب المسيحيون واليهود في الجزيرة أيام الجاهلية ولم توجد حينذاك ترجمة عربية، كما يكشف أي مستوى حضاري متقدم واسع الأفق كان عليه قادة الفتح أيام الفتح.

وفي عهد مروان بن الحكم أو أنه عبد الملك بن مروان تولى ما سرجويه الطبيب اليهودي المذهب، السرياني اللغة، تفسير (تعريب) كتاب ألهرن بن أعين القس إلى العربية، وقد أودع الكتاب الطبي المترجم في خزانة الكتب في قصر الخلافة حتى وجده عمر بن عبد العزيز فيما بعد فنشره بين الناس فهو أول كتاب طبي بالعربية.

وحين أصبح عمر بن عبد العزيز خليفة استدعى من الإسكندرية طبيبه الذي يعرفه، عبد الملك بن أبجر الكناني (الاسم عربي خالص) إلى الشام ونقل التدريس من الإسكندرية إلى أنطاكية وحران وبذلك تحرك المركز العلمي إلى الشام مقر الدولة الأموية الأساسي. وتناولت حركة التعريب في الفترة نفسها علم الكيمياء أيضا وارتبط ذلك بالأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الذي توفي عام ٨٥ أو ٨٦م والذي ترجمت له في الوقت نفسه كتب الطب والفلك. وفي نفس العهد وتجاوبا مع ما يجري من الجدل وتبادل الأفكار بين المسلمين والنصارى حتى لقد أجرى يوحنا الدمشقي من معاصري عبد الملك بن مروان ومن أكبر علماء اللاهوت في الكنيسة الأثوذكسية (٦٧١-٧٤٩م) رسالتين من رسائله على شكل محاوراة بين مسيحي ومسلم في شأن ألوهية المسيح وحرية الإرادة الإنسانية، ولم يكن غريبا أن يظهر في دمشق في تلك الأونة نفسها فريق من هؤلاء العلماء يقولون بالقدر وحرية الإرادة أو الجبر تمثل أولا في معبد الجيهني ثم تلميذه غيلان بن يونس الدمشقي ثم الجعد بن درهم القائل بالجبرية.

الطور الثاني للتعريب (القرن الثاني للهجرة)

استمر الطور الأول من التعريب حتى مطلع القرن الثاني الهجري، وسيستمر الطور الثاني قرنا كاملا من عهد هشام بن عبد الملك حتى مطلع القرن الثالث أي حتى أواسط خلافة المأمون. يبدأ هذا الطور ويستمر حوالي ربع قرن، ثم ما إن يموت هشام بن عبد الملك ويسقط الأمويون ثم يأتي أبو جعفر المنصور حتى ينتقل مركز الثقل السياسي والعسكري من الشام إلى العراق، والجو الثقافي في هذه الفترة خليط ففيه الثقافة الهلنستية المسيحية، كما أن فيه الزرادشتية الفارسية وفيه المؤثرات الهندية. أما تعريب فلسفة الأولين في كتبها، فقد تكون تأخرت زمنيا لأن دخول الكلام والمنطق والفلسفة على الفكر الإسلامي الصافي وعلى الإيمان العقوي قد يكون شكل نوعا من الصدمة على المسلمين حتى على العلماء منهم، على أن ظهور حاجات جديدة في المجتمع الإسلامي فرض نفسه أخيرا، وساق إلى البحث عن كتب الفلسفة لتعريبها أيضا. وأول ما نعرفه قام بذلك هو أبو علاء سالم بن جبلة (أو ابن عبد الله) كاتب هشام بن عبد الملك الذي نقل بعض رسائل أرسطو طاليس إلى الأسكندر مبتدئا بذلك عهد الترجمة عن التراث اليوناني السرياني إلى العربية. ويبدو أنه قد سبق تعريب ذلك الكتاب تعريب كتاب أرسطو الأساسي قاطيفورأس مع الشرح ربما على يد رجل يعرف اسم 'بثاون' شرحه باللغة السريانية والعربية، وفي نفس الفترة الأموية أو بعدها بقليل وهي عقد واحد من السنين بين هشام بن عبد الملك الأموي وأوائل أيام المنصور العباسي، كان تعريب آخر يجري في البصرة لبعض كتب أرسطو إذ ترجم عبد الله بن المقفع كتب أرسطو المنطقية الثلاثة وذلك من الفارسية إلى العربية وترجم كذلك المدخل المعروف إيساغوجي لقفورفوريوس السوري. وهكذا تبين أن الترجمة الفلسفية بدأت في العهد الأموي وبدأت من المنطق، وبدأت عن الفارسية وليس عن السريانية

أو الإغريقية، ويعترضنا هنا اسم يوحنا أسقف الرقة الذي ظن خطأ أنه يوحنا بن يوسف، إما يوحنا أسقف الرقة فعاش في القرن الثاني الهجري وناقض مارجاورجي الأول بطريك أنطاكية، ودس عليه عند المنصور فجعله عوضاً عن جاورجي وسجن جاورجي لأنه حسب قوله لم يطلع (جاورجي) على سر تحويل المعدن إلى ذهب وبقي في سجنه تسع سنوات حتى توفي المنصور فخرج جاورجي من السجن وزاول عمله^(١٩) وانتخب بطريكا. ولم يذكر أن يوحنا أسقف الرقة قد ترجم أي كتاب.

ابو زكريا يحيى بن البطريق

ان المترجم الذي ترجم سر الأسرار وغيره هو شخص ثالث معاصر للمنصور يسمى أبو زكريا يحيى بن البطريق، وروي أنه كان يعرف اللغة اللاتينية أيضا وهو أمر نادر عند العرب، وأبو زكريا هذا صاحب كثير من الترجمات عن أطباء اليونان وفلاسفتهم كما أنه صاحب الفضل في ترجمة كتاب سر الأسرار وكان ينسب إلى أرسطوطاليس، ويشتمل على مزيج من القصص عن عادات الشعوب وخوارق الأهوام، وفيه حشد من قواعد تدبير الصحة. وملاحظات عن وظائف الأعضاء، كما ترجم طيمائوس لأفلاطون، ولأرسطو في السماء، في العالم، في النفس، الآثار الجوية. وترجم لجالينوس الترياق. فهو إذن الذي ترجم الكتب التي ظن أن مترجمها يوحنا أسقف الرقة الذي لم يكن مترجما.

ابو يحيى البطريق أبو أبي زكريا يحيى السابق

وكان أبوه: أبو يحيى البطريق (المتوفي سنة ٨٠٠م/١٨٤هـ) من أوائل المترجمين استخدمه المنصور، ويقال أنه ترجم كتابا لجالينوس وأبقراط كما ترجم كتاب المريعات لبطلميوس^(٢٠). ونقل ابن المقفع إلى العربية ثمانين كتاب على الأقل، ولم يبق لنا من ترجماته إلا كتاب كليلية ودمنة مع كتابي الأدب الصغير والأدب الكبير (الذي يسمى خطأ في المصادر باليتيمة).

وما يلتفت النظر أن التعريب عن الفارسية تناول منذ ذلك العهد المبكر لا العلوم والفلسفة فقط، ولكن لونا من الألوان الأدبية الطريفة هو القصص. وجد الناس في قصص الفرس لونا حضريا واعتاده العرب من قصصهم البدوي فأقبلوا على تعريب تلك القصص، وبدأ العمل في ذلك جيلة ابن سالم نفسه إذ ترجم عن الفارسية كتاب رستم وأسفنديار وغيره وتبعه أين المقفع في كليلية ودمنة.

وفي أواسط القرن الثاني أيضا وبسبب الحاجة العملية فتح المنصور باب التعريب فترجم محمد ابن إبراهيم الفزاري وكان ممن يعمل بالتجيم كما كان يعرف لسان الهند، فتولى ترجمة كتاب السيد هانتا وهو عبارة عن زيج أو تقويم بمواقع النجوم والأبراج وأفلاكها وقراناتها ومداراتها.

وبعد ذلك بعهد طويل قد يزيد عن ربع قرن أهتم البرامكة ويحيى بن خالد منهم بالذات بأمر الهند ودياناتها وبانطب الهندية خاصة، واستقدم يحيى مجموعة من الأطباء والهندود وفتح لهم فيما يبدو مستوصفا (بيمارستان) لعله الأول من نوعه، لأنه تخصص بطب الهند فكان أطباؤه ينقلون إلى العربية من اللسان الهندي كتب الهند في الطب والنجوم. وكانت فارس قد أصبحت جزءا من أراضي الدولة الإسلامية وغاب وجودها السياسي وانقطعت الثقافة الفارسية عن العطاء، ولذا كان التعريب عن الفارسية يقتصر على التراث القديم السابق للإسلام سواء من تاريخ الملوك والسير والقصص أو من العلوم الطارئة كالطب والنجوم وغيرها، وكان هذا موفورا وفي أيدي الناس بالإضافة إلى أن الفرس تعلموا اللغة العربية وأتقنوها تماما لصلتها بالقرآن الكريم والإسلام ولذا لم يتكلف إلا القليل من العرب كالعنابي الشاعر تعلم الفارسية للاطلاع على تراثها.

أما مع التراث اليوناني السرياني اللغة فالأمر مختلف. كانت منطقة انتشاره الجغرافية في إطار الدولة العربية الإسلامية لكنه بعكس التراث الفارسي كان حيا مستمر الوجود من خلال الجماعات التي كتبت بالسرانية والتي بقيت حتى القرن الخامس تقريبا مستمرة العيش في إطار ثقافتها الخاصة تكتب وتؤلف وتترجم، وإن أخذت انشطتها الفكرية تتجه نحو التحجر والجفاف، ويلاحظ في هذا الطور الثاني من التعريب كثرة من عرفوا العربية وأتقنوها من أصحاب السريانية والإغريقية، وقد كان بعضهم لا يترجم إليها فقط ولكن يؤلف بها، فكان ذلك سببا في انكماش السريانية كلفة حياة وحديث وعلم ونحو ثم زوالها التدريجي وحلول العربية محلها. وإذا كان القوامون على التراث الإغريقي

السرياني منقسمين طائفيًا ما بين يعاقبة في الجزيرة والشام ونساطرة في العراق وفارس، فلقد كان النساطرة في العهد العباسي هم الأكثر نشاطًا وحركة وعملاً على الدراسة والتعريب معاً.

يمكن أن نعد من البارزين في التأليف والفكر عند اليعاقبة والمسيحيين العرب خلال القرن الثاني الهجري، راهباً مجهول الاسم كتب تاريخاً هاماً في مطلع القرن ما يزال موجوداً وقد نسب خطأً إلى ديونيسيوس التلمجري البهنزيقي. وهناك تيوفيل بن توما الرهاوي (١٦٨هـ) من كبار مثقفي السريان، وكان رئيس المنجمين لدى الخليفة المهدي وله تاريخ حسن ونقل كتابي هوميروس الشاعر (اللياذة والأوديسا) من اليونانية إلى السريانية بغاية ما يكون من الثقافة وترجم من السريانية كتاباً في الطب لجالينوس. وهناك أيضاً البطريق طيمائثاوس الذي عاصر الخلفاء منذ المهدي حتى المأمون ثلاثاً وأربعين سنة وجادلهم، وألف كتاب النجوم ومجلداً من الرسائل من بينها رسالة على شكل منشور يشرح فيه مناقشته مع المهدي بشأن الإسلام والمسيحية.

إن استمرار الحياة الثقافية السريانية والإغريقية وغناها الكثيف السابق ووجودها كطبقة ثقافية في العراق والجزيرة وشيوع كتبها بين الأيدي وكثرة من يعرف السريانية، كل ذلك من العوامل المعينة لا على التوسع في التعريب عنها فقط في القرن الثاني الهجري، ولكن على عدم الأفتتار في الاهتمام بها على الخلفاء وكبار رجال الدولة وشيوع ذلك الفكر في الجو الثقافي كله وكثرة الجنود المجهولين في مجال هذا التعريب وغيره. إن الأسماء التي اقترنت بالخلفاء وأهل الدولة بقيت وعرفت، وأما الآخرون الذين كانوا يكونون في صمت ودأب عجيب جمهور الثقافة وكتلة صانعيها الواسعة فكانوا في العتمة.

وحين غزا الرشيد الروم في عهد أبيه المهدي حمل معه من غزوته بأنقرة وعمورية في أرض الروم، مجموعة من الكتب القديمة، فجعل يوحنا بن ماسويه أيضاً على الترجمة بين يديه للكتب الطبية وكانت كلها باليونانية، ولعلها أو لعل بعضها على الأقل من كتب جالينوس. ويذكرون أيضاً أن المنصور كتب إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة، فبعث إليه بكتاب أقليدس وبعض كتب الطبيعيات ولعل منها 'المجسطي' في النجوم لبطلميوس، وربما كان هذا الطلب أيام بناء بغداد واهتمام المنصور بتخطيطها الهندسي وإحكام أبنيتها وسورها أو كان في الفترة ١٥٥-١٧٥هـ (٧٧٢-٧٧٤م) أيام زيارة سفراء أباطرة الروم لبغداد.

ويبدو أن ترجمة هذه الكتب لم تكن مرضية وكانت بالسريانية لأننا نجد الحجاج بن يوسف بن مطر ينقل كتاب أقليدس أيام الرشيد نقلاً يعرف بالهاروني وهو الأول حسب شهادة ابن النديم ثم ينقله نقلاً ثانياً يعرف بالمأموني أيام المأمون وعليه الممول، ونجد بالمقابل حسب ابن النديم أيضاً أن أول من عنى بتفسير المجسطي وأخرجه إلى العربية يحيى بن خالد البرمكي ففسره له جماعة فلم يتقنوه، ولم يرض يحيى بذلك فندب لتفسيره أبا حسان ومسلم (كذا) صاحب بيت الحكمة، فانتقاه واجتهدا في تصحيحه بعد ما أحضرا النقلة الموجودين فاخترتا نقلهم وأخذوا بأفصحها وأصحها، وقيل أن الحجاج بن مطر نقله أيضاً. وكان ممن يترجم ويؤلف للبرامكة أيضاً، أبو علي يحيى بن غالب الخياط من علماء النجوم. ويذكر مايرهوف أن يحيى بن خالد البرمكي طلب إلى بطريق الإسكندرية ترجمة كتاب في الزراعة عن الرومية فترجمه له برسمه.

ويبدو أننا يجب أن نلحق بهذه الجماعة الأولى (من المترجمين) جماعة أخرى غلب عليها فن التعريب لكبار رجال الدولة ووجوهها البارزة ممن كان طلب العلم والفلسفة نوعاً من الهواية بالنسبة لهم، وكان بعضهم يسير على دين الملوك فيها، وبين هؤلاء بعض الهاشمين وبعض البرامكة وبعض الأبناء من قبيل الدعاة العباسيين الأوائل وبعض كبار الكتاب.

وما من شك في أن جماعة المترجمين للخلفاء أو لرجال الدولة قد وضعوا تحت يد المتعطين لعلوم الأوائل مادة خصبة من كتب الطب والنجوم مع عدد محدد من كتب الفلسفة، على أن أهم النتائج لجهودهم ولرغبة الخلفاء والكبراء فيهم أن أضحت الطبابة والتنجيم وظيفتين أساسيتين من وظائف البلاط العباسي، وأصبح التعريب في هذين المجالين بالذات مؤسسة رسمية ومطلبا حكومياً كالكتابة والحجابه. صار الطبيب والمنجم موظفين من كبار الموظفين ولكل

منهما مكانه الواضح في البلاط (وقد تقدم أن الرشيد كان أول من يدخل عليه في الصباح طبيبه). ونذر أن يسافر الخليفة أو كبير الدولة دون مشورة منهما أو دون أن يرافقه، يستوي في ذلك خلفاء بني العباس كافة منذ المنصور حتى المأمون حتى المتوكل ومن بعده.

وعلى هذا الأساس كان لا بد لحفظ هذين العلمين الملكيين من اتخاذ خزانة خاصة ومكتب أو دائرة ترجمة لهما في البلاط، وهكذا أنشأت فيما بعد خزانة الحكمة في عهد الرشيد، هذه الخزانة التي أشتهرت فيما بعد، زمن المأمون، وقد تسلمها زمن الرشيد رجل يدعى مسلم فكان له النقل عن السريانية، أما عن الفارسية فكان الأمر لأبي سهل الفضل بن نويخت.

وكان من نتائج هذا أن أصبحت الترجمة صناعة أرسقراطية صناعة الراغبين في خدمة البلاط وقصور الكبراء وناشدي الثروة والجاه. فكانت على الأقل باب رزق للنصارى من نساطرة وبعاقبة وغيرهم من الفرس العارفين بالبهلوية أو الهندية، ويبدو أنه كانت تجري لهؤلاء مسابقات لمعرفة المجودين في النقل سواء في الدقة أو الفصاحة كما جرى حين ترجم المجسطي للبرامكة⁽¹⁴⁾.

لواقصرت عمليات التعريب في هذا الطور الثاني على تلك الجماعة المحدودة من الخلفاء ورجال الدولة والمترجمين وعدد هؤلاء وأولئك لا يزيد على عدد أصابع اليدين لكان من المبالغة والضلال أن نتحدث عن تقريب وتمازج ثقافات وانقلاب فكري في العصر العباسي الأول. لأن ما يجعل لهذا العصر مكانته في تكوين الثقافة العربية الإسلامية هو تلك الجماعة الواسعة جدا والمجهولة الأسماء من المعربين الذين وضعوا تحت أيدي الأوساط العلمية المختلفة في العراق وباللغة العربية معظم تراث الأولين، وقد نستطيع أن نعرف أسماء بعضهم فمثلا ممن اشتهر أمره، أيوب بن القاسم الرقي، نقل من اللسان السرياني إلى العربي ومن نقله كتابا إيساعوجي لارسطو. وإن تلك الجماعات التي كان الخاصة يختارون منها النقلة لهم كانت جماعة واسعة لا بد أنها تزيد على عدة مئات. وقد تكاثرت على ما يظهر في أواخر القرن الثاني ثم في الثالث نتيجة النزعة الملحة التي أبدتها من جهة الأوساط العلمية العربية، عن حب أو كره في معرفة علوم الأولين ونتيجة الرغبة في الارتزاق من الجهة الأخرى.

على ألا يغيب عنا توفر الورق وانتشار صناعته في الشرق الإسلامي في تلك الفترة ما بين سمرقند وبغداد وجمهرة هؤلاء المترجمين كانت تتكون من اخلاط الناس. ومعظمهم إن لم يكن كلهم من غير العرب، وكان بعضهم من رجال الدين (المسيحي أو الزرادشتي أو اليهودي) وبعضهم من الأطباء وبعضهم من الكتاب وبعضهم من الأسرى أيضا، كما كانت الترجمة تتم نتيجة الاحتكاك اليومي في السوق والتجارة أو الجدل الذهني أو الحاجة العملية أو رغبة الكبراء أو البحث عن الرزق.

ولاشك أن سوق الكتاب المترجم كانت رائجة الرواج الواسع في بغداد والعراق، وكان الوراقون يصطفون لأنفسهم من يترجم لهم، ومن ينسخ تلبية لحاجة السوق، ولا شك أن ثمة مجموعات من صغار المترجمين كانت ترتزق من التعريب الذي تحول إلى جانب دوره العلمي إلى صناعة ومهنة للرزق الطيب.

وإذا كانت أعمال الخاصة في التعريب قد انتهت إلى إنشاء دائرة ترجمة في البلاط وتحويل الأطباء والمنجمين إلى موظفين رسميين كبار، فإن أعمال التعريب العامة انتهت إلى ما هو أهم من ذلك بكثير، لأنها هي التي كونت أسس المزيج الثقافي الذي سوف تتفجر من خلاله الثقافة العربية الإسلامية بألوانها وميزاتها.

ولكي ندرك ذلك بشكل أوضح، نسجل من نتائجها ثلاثة ملامح قد تكفي لبيان أبعادها وخطورها:

الأول: تكونت في ذلك العهد نفسه ما بين القرن الثاني وأوساط الثالث العلوم العربية الإسلامية وضعت كلها بكافة أسسها: تقعد النحو كله، ونظمت اللغة في معاجم، ووضع الفقه الإسلامي المحكم، وقام علم الكلام.. وكذا بقية العلوم.. فهذه الأساليب في الفكرة المنهجية في العمل لا تأتي عفواً الخاطراً، لا بد فيها من مران عقلي طويل وتمرس حضاري عريق مع الأساليب المنطقية والفكرية وهي الأمور التي وفرتها للناس حركة التعريب، أو كان من نتائج تطبيقها ما في النحو والفقه خاصة من الأحكام الفكري البعيد.

الثاني: لو نظرنا لمن ذكر بين المترجمين أو بين المؤلفين الذي ترجمت كتبهم من سائر العلوم والفنون لوجدنا أن عددا كبيرا آخر لم يرد ذكره، وقد قام المترجمون المغمورون بدور كبير في التكوين الثقافي العربي.

الثالث: ظهور عدد كبير من العلماء والمؤلفين باللغة العربية في علوم الأولين في القرن الثاني الهجري نفسه والنصف الأول من القرن التالي. وهذه الظاهرة لا يفسرها إلا وجود قاعدة ثقافية هنية من علوم الأولين بين أيدي الناس ساعد على أن يظهر في عصر الرشيد والعصر الذي تلاه مباشرة اثنان من أقطاب الفكر العلمي والفلسفي في تاريخ الحضارة الإسلامية والإثنان كوفيان بغداديان، وإن كان يحيط الغموض والعمة بتاريخهما الشخصي.

أولهما: جابر بن حيان الذي أنزله العالم يرتلو من الكيمياء منزلة أرسطو من المنطق. ولا خلاف في أنه يمثل المستوى الرفيع الذي وصله علم الكيمياء خاصة والعلوم عامة في القرن الثاني للإسلام. كان جابر بن حيان قفزة نوعية في تاريخ الكيمياء وكان أول من وضع لها قواعد علمية، القائمة على التجربة والاستقراء ولكنه شارك أيضا في الفلك والطب والهندسة والرياضيات وقد كتب حوالي ٢٥٥ كتاب و١١٤ رسالة ما يزال بين أيدينا منها واحد وخمسون مؤلفا بين مطبوع ومخطوط. ويكفي هذا لتكشف سعة الحصيلة العلمية الأولى التي استند إليها هذا العالم الضخم في تلك الوقت المبكر من التكوين الحضاري العربي. واستعراض مؤلفاته في عناوينها يكشف تكوينه الفكري في إطار علوم الأوائل ومعرفة التامة برجالها في الفلسفة والطب والهندسة والحيل بجانب الكيمياء.

وثانيهما: هو الكندي يعقوب بن إسحاق فيلسوف العرب وأول قائمة الفلاسفة الإسلاميين وكان والده أحد ولاة المهدي والرشيد وهذا يعني أنه نشأ في الجو العلمي ببغداد والكوفة وأواخر القرن الثاني، وإذا كان قد توفي في الأرجح سنة ٢٥٥هـ فإنما يهنا هنا أن تكوينه العلمي والفلسفي إنما كان حصيلة ما قدمت أعمال التعريب في القرن الثاني ومطالع الثالث. وقد أسهم هو نفسه بها فترجم من كتب الفلسفة الكثير، وأوضح منها المشكل على حد قول ابن جليل. ولخص المستصعب، وبسط العويص...

إذا كانت كتبه تعد حوالي ٢٥٠ كتابا ورسالة فإن العناوين التي تتدرج ضمنها حسب تصنيف ابن النديم تكشف مدى ما يدين به لعلوم الأوائل.

البتاني

البتاني هو أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان البتاني الحراني الصائبي والبتاني نسبة إلى بتان (بلد من نواحي حران شمال سورية) حيث ولد عام ٢٢٥هـ وكان أكبر علماء الفلك عند العرب. وكانت أسرته قبلا من الصائبة، ولذلك عرف بالصائب مع أنه كان مسلما وصرف معظم حياته في الرقة على الضفة اليسرى لنهر الفرات حيث استقرت عدة أسر حرانية ووقف نفسه على رصد الأفلاك من عام ٢٩٤هـ، واستمر على ذلك في دأب بقية حياته، وذهب إلى بغداد في عمل له ومات في عودته منها عند قصر الجص الذي بناه المعتصم الذي لا يبعد كثيرا عن دجلة ناحية الشرق بقليل على مقربة من سامراء، وكان ذلك عام ٣١٧هـ وقد أجمع علماء الفرنجة المحققون على أنه كان أسما مكنائيه من بطليموس القلوزي، إذ احتوت مصنفاته أشتات الحقائق الفلكية أكثر مما احتوته منها مصنفات الفلكي الأغريقي ولهذا عده لالا ند الفلكي الفرنسي الكبير المتوفى في سنة ١٨٠٧م من الفلكيين العشرين المبرزين الذين أنجبتهم الإنسانية منذ خلق الله الخلق حتى الآن (٢٥).

ووصفه صاعد الأندلسي بقوله: أحد المهرة برصد الكواكب والمتقدمين في علم الفلسفة وهيئة الأفلاك وحساب النجوم وصناعة الأحكام، ولا أعلم أحدا بلغ مبلغه في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها.

وقال إدوارد هانديك: إن البتاني فاق كل من سبقه من علماء الهيئة بعد بطليموس الأسكندراني وقال تالينو عنه: كان أكبر علماء الفلك العرب^(٢٦).

منجزاته وإبداعاته

- يقول بروكمان: ويرتبط باسمه إدخال حساب المثلثات في بلاد الغرب.
- يعد أول من أدخل الجبر على حساب المثلثات بدلا من الهندسة كما كان الحال عند من سبقه من علماء اليونان وأول من استخدم المعادلات المثلثية.
- ابدع الدوال المثلثية المعروفة وكثيرا من المتطابقات المثلثية القائمة عليها.
- أول من أبدع (السمت والنظير) وحدد نقطتهما في السماء.
- أول من عمل الجداول الرياضية لنظير المماس.

آثاره

- الزيج الصابئ أو زيج البتاني وهو من أروع أعماله وأهمها يشتمل على عمليات حسابية وقوانين وجداول فلكية تخص كل كوكب وطريقة حركته وموقعه وبخاصة الشمس، وذلك لاستخدامها لمعرفة الشهر والأيام والتواريخ الماضية ومن المرجح أنه تضمن ما رصده البتاني بين عامي (٣٦٤-٣٠٦هـ) معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الأفلاك.
- رسالة في تحقيق أقدار الاتصالات أو في مقدار الاتصالات (أي الحلول المضبوطة بحساب المثلثات للمسألة التجميعية عندما تكون المقصودة لها خط عرض أي خارج فلك البروج).
- كتاب تعديل الكواكب.
- تجريد أصول توكيب الجيوب.
- شرح المقالات الأربع في أحكام النجوم لبطلميوس (يقول بروكمان: ويعزي إليه بغير وجه حق).
- إصلاح المجسطي (يقول بروكمان: ويعزي إليه بغير حق) أما حاجي خليفة في كشف الظنون فقد نسبته إلى جابر بن الحنج^(٣٧).
- وكان البتاني قد أنشأ بالرقعة ((مرصد البتاني)) على ضفة نهر الفرات اليسرى.

ثابت بن قرة بن زهرون بن ثابت

موسوعي برع في الرياضيات والطب والفلك والمنطق والطبيعة وصنف بالموسيقى. ولد بحران موطن الصابئة القديم عام ٢١١هـ وقيل عام ٢١٩هـ وقيل ٢٢١هـ، توفي في بغداد سنة ٢٨٨هـ وعمره ٦٧ عاما، ويزعم الذين ترجموا له أنه كان في أول أمره صيرفيا، ومهما يكن من شيء فقد كان له مال موروث مكنه من التفقه في الفلسفة والرياضة أثناء مقامه في بغداد، وقد أوقعت آراؤه الفلسفية الحرة في خصام مع الوشيين من أهل بلده فأحضر إلى القاضي وحمل على إنكار هذه الآراء المارقة، وخشي ثابت أن يشتد قومه في إعنائه ففر إلى قرية كفر ثوثا بالقرب من دارا، ويقال أنه لقي في رجوعه من رحلة من بيزنطة إلى بغداد محمد بن موسى بن شاكرو أن محمد عرف فيه البصر بعلوم الرياضة واللغة فاصطحبه إلى بغداد ليقدمه إلى الخليفة المعتضد فألحقه المعتضد بمنجمي بلاطه، واتفق ثابت معظم حياته في بغداد ينقل تأليف علماء الرياضة من اليونان ويشرحها ويؤلف كتبه في الرياضة، ويتوفر على دراساته الفلسفية ويزاول صناعة الطب.

كان لثابت مقام كبير في بلاط المعتضد انتزع به الصابئة في حران وغيرها من البلدان وقد ألف بالسريانية وربما كان ذلك قبل أن يغادر حران كتب في معتقدات قومه وعباداتهم وقد ضاعت الآن (٢٨). كان ثابت يجيد السريانية والعبرية واليونانية ناهيك عن العربية التي كان يحسن النقل والترجمة إليها وبحذق وحسن تعبير، وقد عده سارتون من أجود المترجمين وكثيرا ما كان ينقل إلى أبناء موسى ابن شاكرو كتب علماء اليونان وخاصة إلى محمد الذي قيل أنه اصطحب ثابتا معه إلى بلاد الروم سعيًا وراء الكتب العلمية لنقلها إلى العربية:

منجزاته وإبداعاته

- من علماء الرياضيات الأوائل العرب أو الأغيار الذي مهد لإبداع علم التكامل والتفاضل.
- أوجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محوره.
- حل بعض المعادلات التكعيبية بطرق هندسية استعان بها بعض علماء العرب.
- وضع قاعدة عامة لإيجاد الأعداد المتحابة.

آثاره

الكتب التي أصلحها ونقلها إلى العربية في الفلك والرياضيات وترجمها:
- تحرير كتاب المفروضات نشرته دائرة المعارف بحيدرآباد ضمن سائل لبني موسى يثألف من ٣٦/ أو ٢٤ شكلا.

- تحرير كتاب مأخوذات أرشميدس ترجمه.

- رسالتان لأرشميدس في الدوائر المتماسمة الخ...

مؤلفاته في الرياضيات (مؤلفات في الفلك) مؤلفاته في الطب:

جوامعه لكتب جالينوس ومختصراتها، مؤلفاته في المنطق والفلسفة والدين والأخلاق، مؤلفاته في علوم أخرى^(٢٩).

مار ديونيسيوس التلحمري

لم يشتغل بتعريب الكتب، وله تاريخ الزمان وسيجئ ذكره بين مؤرخي الرقة.

٢- الطب في الرقة

تقدم في بحث (الأطباء) في الفئات الاجتماعية أنه كان لكل خليفة أو أمير أو رئيس طبيب خاص وربما أكثر من طبيب.

وكان في الرقة اثنان من علماء وأطباء اليهود هما:

يهودا بن يوسف المعروف بابن أبي الشتاء تلميذ ثابت بن قرة الصابئ المتوفي سنة ٢٨٨هـ وكان بارعا في الفلسفة والطب في الرقة.

وسعيد بن علي المعروف بابن أشلميا في الرقة أيضا. وكان للمسعودي (ت ٣٤٦هـ) معهما مناظرات^(٣٠).

ومن أطباء الرقة أيضا:

أبو بكر محمد بن الخليل الرقي

كان فاضلا في الصناعة الطبية عارفا بأحوالها وفروعها، جيد التعليم، حسن المعالجة. وهو أول من وجدناه فسر مسائل حنين بن إسحاق في الطب. وكان تفسيره لهذا الكتاب في سنة ٣٢٠هـ وللرقي من الكتب: شرح مسائل حنين في الطب^(٣١).

عيسى الرقي المعروف بالتفليس

كان طبيبا مشهورا في أيامه عارفا بالصناعة الطبية حق معرفتها وله أعمال فاضلة ومعالجة بديعة. وكان في خدمة سيف الدولة بن حمدان (٣٠١-٣٥٦هـ) ملك حلب سنة ٣٣٣هـ^(٣٢). ومن جملة أطبائه وكان مليح الطريقة. وله كتب في المذهب وغيرها. وكان ينقل من السريانية إلى العربية ويأخذ أربعة أرزاق: رزقا بسبب الطب، ورزقا بسبب النقل (الترجمة)، ورزقين بسببين آخرين^(٣٣).

ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحراني الصابئ كنيته أبو الحسن هو عم أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ الكاتب. كان ببغداد طبيبا خادما مصيبا. وله مصنفات منها: إصلاح مقالات من كتاب يوحنا بن سرافيون، وكتاب جواب مسائل سئل عنها. مولده بالرقعة سنة ٢٨٣هـ وتوفي ببغداد سنة ٣٩٩هـ وعاش ببغداد^(٣٤).

علي الرقي

طبيب مذكور، عالم بصناعة الطب، وفسر مسائل حنين بن إسحاق في الطب، وذكر عنه أنه ما كان يفسر إلا إذا سكر^(٣٥)، ولا يوجد أية إشارة للفترة التي عاش بها وقد تقدم في ترجمة أبو بكر محمد ابن خليل الرقي أنه أيضا فسر مسائل حنين بن إسحاق الطبية.

وتكلم الطبري عن متطبب يقصر عمله على الكحالة، وأمرأة متطبية تعالج النساء فقط كما تعالج الجراحات، وهما في مكان أو عيادة واحدة^(٣٦).

الخدمات الطبية

تقدم في الكلام عن الوليد بن عبد الملك كيف ساعدا العميان والمرضى والعجزة.
وفي كتاب طاهر بن الحسين يوصي ابنه عبد الله بن طاهر بن الحسين حين ولي الجزيرة عام ٢٠٦هـ ' وأجرى للضرائر والعميان من بيت المال، وقدم حفظة القرآن منهم والحافظين لأكثره في الجراية على غيرهم، وأجعل لمرضى المسلمين دوراً تؤويهم، وقواماً يرفقون، بهم وأطباء يعالجون اسقامهم واسعفهم بشهواتهم مالم يؤدي ذلك إلى سرف في بيت المال^(٣٧).

١) بيمارستان الرقة

ذكر ابن شداد (ت ٦٨٤هـ) وجرى تأليف كتابه بين سنني ٦٧٠ - ٦٨٠هـ) وكذلك ابن أبي أصيبعة وأن بدر الدين بن القاضي مجد الدين عبد الرحمن بن ابراهيم قاضي بعلبك. خدم بالرقة بالبيمارستان الذي فيها وصنف مقالة حسنة في مزاج الرقة واحوال اهويتها وما يغلب عليها واقام بها سنين ثم عاد إلى دمشق سنة ٦٢٥هـ^(٣٨). ومهما يكن من امر هذا البيمارستان فإن البيمارستانات وجدت في مدن الجزيرة منذ عهد البيزنطيين قبل الاسلام. ففي الرها مثلاً وخلف سور المدينة عند مدخل بيت شمش كان يوجد بناء عبارة عن مستشفى وبيت للعجزة^(٣٩). ووجدت البيمارستانات في سوريا منذ عهد الأمويين وفي بغداد في عهد العباسيين وخاصة في عهد الرشيد والبرامكة^(٤٠) وهناك بيمارستان نور الدين زنكي في الرقة^(٤١).

دير المجانين

روي عن المبرد مايدل على أنه رأى قرب الرقة ديراً كبيراً يضم مجانين مقيدين^(٤٢) وذكر ابن حبيب النيسابوري (ت ٤٠٦هـ): قدم هارون الرشيد مدينة الرقة وبها دير يقال له (دير زكي) فلما أقبلت المواكب اشرف أهل الدير ينظرون وفيهم مجنون مسلسل^(٤٣) قلعه كان للمجانين قسم خاص في ذلك الدير.

٣- التنجيم في الرقة

كان للمنجمين مكان محفوظ ومحترم في بلاط الخلفاء وقصور الأمراء، وكانوا كثيراً ما يلجؤون إلى المنجمين اما ايماناً بهم او استثناساً، وحكي ان جعفر أبيرمكي عزم على الانتقال إلى قصره فجمع المنجمين لاختيار وقت ينتقل فيه اليه، فاختروا وقتاً في الليل. (الجهشياري ص ١٧٠) ولما اعتل الواصل علقته التي مات بها، أمر باحضار المنجمين فقالوا: يعيش خمسين سنة، فمات بعد عشرة أيام (الطبري ١٥١٩). ورأى يحيى بن خالد البرمكي مناما فانتبه ولجأ إلى أخذ الطالع.. (الطالع: ماتت به المنجم من الحوادث بطلوع كوكب معين) (الجهشياري ٢٠٤). وفي عهد المعتصم ظهر زيف التنجيم حين حذر من غزو البيزنطيين فخالف المعتصم ذلك وقام بغزوته على عمورية وانتصر، فقال ابو تمام قصيدة مطلعها:

السيف اصدق انباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وممن برع في التنجيم، عالم من الرقة يدعى أبو القاسم الرقي المنجم وهو رجل من أهل الرقة كان يعرف النجامة ويقوم بالأحكام ويعلم علم الحوادث ويتحقق بحل الزيج وعلم الهيئة، صحب الأمير سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان وخدمه واختص به وحضر مجالس انسه^(٤٤).

الباب التاسع

الحياة الثقافية والعلمية

- ١- العلم عند العرب - الدوميلي ١٢١
- ٢- حنين ابن إسحاق - أحمد بن عبيد الله الريان ١٨٢
- ٣- باختصار شديد من ثقافة السريان بينولفسكيا ٢٢١-٢٤٣
- ٤- اللؤلؤ المنشور
- ٥- العلم عند العرب - الدوميلي ١٢١
- ٦- شاكر مصطفى .
- ٧- العلم عند العرب ١٢٣
- ٩- العرب على حدود بيزنطة وإيران ٣٣١
- ١٠- اللؤلؤ المنشور ٢٨٣
- ١١- العلم عند العرب ١٢٣
- ١٣ ثقافة السريان ترجمة بينولفسكيا ٢٦٠
- ١٤- اعلام الحضارة العربية ٣٥/١
- ١٥- اللؤلؤ المنشور ٢٩١
- ١٦- شاكر مصطفى
- ١٨- اعلام الحضارة العربية - زهير حمدان ٥٧٧/٢ وذكر مصادر عديدة لهذه الترجمة
- ١٩- اللؤلؤ المنشور ٣٢٢، تاريخ ميخائيل ٤٩٨/٣ ٤١٨/٢
- ٢٠- العلم عند العرب - الدوميلي ١٢٦
- ١٢٨
- ٢٣- العلم عند العرب ١٢٧ - الدوميلي ي ١٢٧
- ٢٥- دائرة المعارف الإسلامية البتاني بقلم نلليو
- ٢٦- التراث الفلكي - عبد الأمير المؤمن ١٩٩
- ٢٧- اعلام الحضارة العربية ٢٨٢/٢
- ٢٨- دائرة المعارف الإسلامية ثابت بن قرة الترجمة العربية
- ٢٩- اعلام الحضارة العربية ١٨٩/١ وشغلت قائمة ومؤلفاته اصلاحاته ٢٣ صفحة
- ٣٠- التنبيه والاشراف ٩٩ ولم يذكرهما ابن النديم
- ٣١- ابن أبي اصيبعة ٣١٦
- ٣٢- ابن خلكان ٤٠٥/٢
- ٣٣- ابن أبي اصيبعة ٦٠٩
- ٣٤- تاريخ الحكماء ١١ ابن أبي اصيبعة ٣٧٠
- اعلام الحضارة العربية ١٨٦/١
- ٣٥- تاريخ الحكماء للقفطي ٢٣٤
- ٣٦- الطبري ١٠٠/١٠، ١٠٣
- ٣٧- الطبري ٥٩٠/٨
- ٣٨- الاعلاق الخطيرة ٢٧١/١/٣، ابن أبي اصيبعة ٧٥١
- ٣٩- نعيم الدراسات التاريخية
- ٤٠- تاريخ البيمارستانات احمد عيسى ١٧٨
- ٤١- ابن شداد ٧١١/٣
- ٤٢- نهاية الارب ١٩٠/٢، المنتظم ١١/٦
- ٤٣- عقلاء المجانين
- ٤٤- ابن النديم ١٢٢ سنة ٣٤١ (في الهامش)

الباب العاشر
الحياة الادبية

الباب العاشر

الحياة الادبية

١- ادباء الرقة

كان في الرقة طبقة من الأدباء ولكن لم يصلنا أي خبر عنهم حتى أن البلاذري أشار إلى ذلك بقوله حدثني أبو عفان الرقي عن مشايخ من كتاب الرقة^(١).

ولنبداً أولاً بأسرة من الكتاب على رأسها كاتب مشهور أنه من مؤسسي الكتابة وبلاغته وأخلاصه وهو:

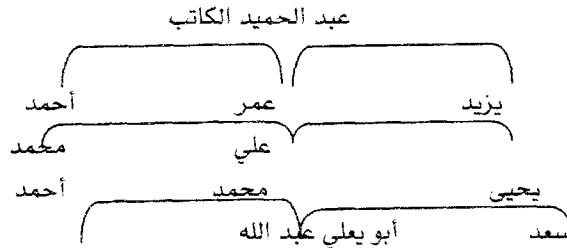
عبد الحميد الكاتب

هو عبد الحميد بن يحيى بن سعد^(٢) وكان كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. وهو صاحب الرسائل المنسوبة إليه، وهم من سبي القادسية، يتولون عامر بن لؤي^(٣) سكن الرقة^(٤) وأهله وأقاربه كانوا ينزلون الحمراء^(٥) قتل مع مروان بن محمد سنة ١٣٢هـ^(٦) وله عقب في الرقة كما يلي:

محمد بن يزيد بن عبد الحميد الكاتب عم سعد بن يحيى بن يزيد الذي سيلي هذا^(٨).

سعد بن يحيى بن يزيد بن عبد الحميد الكاتب من أهل الرقة (٢١٣-٢٩٢هـ)^(٩).

أبو يعلى عبد الله بن أحمد بن علي بن عمر بن عبد الحميد الكاتب، في النصف الثاني من القرن الثالث، وقد روى عنه القشيري^(١٠).



أبو الفضل محمد بن أحمد بن عبد الحميد الكاتب المتوفي سنة ٢٨٧هـ-٩٠٠م ويصف ابن

النديم هذا الرجل بأنه من أهل السير. وجده هو أول كاتب بارز في الأدب العربي، وقد كتب أبو الفضل كتاب (أخبار خلفاء بني العباس)، وقد وصفه بأنه تاريخ كبير، وقد كان من مصادر الطبري، كما وجده الجهشباري بخط مؤلفه ونقل عنه جدول خراج الدولة زمن الرشيد^(١١).

العتابي كلثوم بن عمرو (١٣٥هـ- قيل ٢٢٠هـ وقيل ٢٠٨هـ) تقدم بين شعراء الرشيد، مسكنه في رأس العين انقطع إلى يحيى بن خالد البرمكي ثم إلى ابنه جعفر ونال حظوة عند **طاهر ابن الحسين وابن عبد الله بن خالد** وعند المأمون وهو أديب مصنف مترسل وشاعر مطبوع (تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ ٢/٢١٨). وكان له منزل يقيم فيه في الرقة اجتاز عبد الله بن طاهر بالرقة منزل العتابي، فقال ليس هذا منزل كلثوم بن عمرو فقل نعم فتش رحله ودخل إليه فأنفاه جالساً في بيت كتبه فعادته وذاكره... ثم عاد إلى زيارته إلى أن زاد ثلاث مرات^(١٢).

أبو عروبة الحسين بن محمد بن أبي معشر مودون الحراني الحافظ (المتوفى سنة ٣١٨هـ)

كتب تاريخ الجزيرين وحران (الذي يسمى أحياناً تاريخ أبي العروبة) كما كتب (تاريخ الرقة) وقد نقل السمعاني في الأنساب عن تاريخ الجزيرة كما نقل ياقوت^(١٣).

أبو الحسن علي بن الحسن بن علان الحراني الحافظ المتوفى سنة ٣٥٥هـ

محدث حران ذكر له اسمعاني كتاب تاريخ الجزيرين ونقل عنه ويسمى أحياناً تاريخ الجزيرة...

خالد بن ربيعة الرقي

أورد ابن النديم اسمه بين البلغاء بعد أسمي سالم كاتب هشام بن عبد الملك وعبد الحميد بن يحيى الكاتب^(١٤).

الحجاج بن يوسف بن أبي منيع عبيد الله بن أبي زياد أبو محمد الرصافي

ذكره أبو عروبة الحراني في الطبقة الخامسة من أهل الجزيرة، قال هلال بن العلاء كان

الحجاج ابن أبي منيع من أعلم الناس بالأرض وما أنبت وأعلم الناس بالفرس من ناصيته إلى حافره،

وأعلم الناس باليعير من سنامه إلى خفه، وكان مع بني هشام بن عبد الملك في الكتاب، وهو شيخ ثقة روى جده عبيد الله بن زياد الرصافي عن الزهري نسخة كبيرة مات سنة ٢٢١ هـ^(١٥).

محمد بن سعد ابن عبيد الله الرقي

كاتب الحسن بن رجاء^(١٦).

أبو أيوب الرقي المؤدب

حدث عن الحجاج بن أبي منيع الرصافي (٢٢١ هـ) وحدث عن أيوب روى عنه البلاذري في أنساب الأشراف^(١٧).

الحسن بن داود الرقي أبو علي

كان مؤدب عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد له كتاب (الحلي) حدث به في سرمن رأى سنة ثمان وثلاثين ومائتين وقد جاوز الثمانين (أي أن ولادته كانت قبل ثمان وخمسين ومائة) وقيل أن هذا الكتاب هو نفس الكتاب الذي ادعى أحمد بن يحيى ثعلب (٢٠٠-٢١٩ هـ) فيما بعد أنه صنفه^(١٨).

محمود (أو محمد) بن محمد الأديب الرقي

حدث عنه علي بن أحمد الحراني وحدث عن علي هذا أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن فهذه الأصفهاني (ت ٣٩٥- أو ٣٩٦ هـ)^(١٩) مما يدل على أن الأديب الرقي المذكور توفي في النصف الأول من القرن الرابع.

موسى بن جرير أبو عمران الرقي المقرئ النحوي الضرير تلميذ أبي شعيب السوسني (تاريخ الاسلام للذهبي وفيات سنة ٣١٠).

محمود بن محمد بن الفضل بن الصباح أبو العباس التميمي الرافقي المقرئ الأديب (تاريخ الاسلام للذهبي وفيات سنة ٢١٦).

أبو عثمان الرقي وكتب رسالة للرد على الملحد بن (العباسيون الأوائل ١٥٨/٢).

عبيد الله الرقي (ت ٤٥٠ هـ).

عبد الله بن علي بن عبد الله الرقي أبو لقاسم. عالم بالنحو والأدب واللغة والفرائض. سكن بغداد، من آثاره كتاب القوافي مطبوع (أ) ذكره اليعقوبي^(٢٠).

شيوخ البلاذري، من الرقة الذين سمع منهم وذكرهم في أنساب الأشراف.

سليمان بن عبد الله الأنصاري.

أبو أيوب المعلم الرقي.

داود بن عبد الحميد الرقي.

أبو عثمان الرقي، له رسالة للرد على الملحد^(٢١).

علي بن عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الملك أبو الحسن القضاة السلمي الرقي ثم البغدادى اللغوي، كان علامة العرب وحجة الادب في نقل اللغة، توفي سنة ٥٧٦ هـ، تاريخ الذهبي وفيات سنة ٥٧١-٥٨٠ هـ.

٢- المؤرخون في الرقة

أبو الفضل محمد بن أحمد بن أحمد عبد الحميد الكاتب (من أواخر القرن الثاني الهجري).

نقل الجهشاري من كتابه أخبار خلفاء بني العباس (وهو بخط مؤلفه) لائحة هي عبارة عن التقدير الذي عمله أبو الوزير عمر بن مطرف الكاتب من أهل مرو^(٢٢).

عبيد بن جناد بن أعين الحلبي أبو سعيد.

مشوّه بالرقة، ولاء المأمون قضاء الرقة وحلب سنة ٢١٥ هـ مات ٣٢١ هـ، ويروي عدة أخبار عن عطاء بن مسلم الخفاف في تاريخ القشيري كما روى أخبارا تاريخية في الطبري^(٢٣). تقدم ذكره بين القضاة.

ابن أبي عبادة الرقي.

يروى عنه في تاريخ الموصل خبرا عن هجرة أزد شنوءة من السراة إلى عمان وغيرها^(٢٤).

محمود بن محمد بن الفضل بن الصباح أبو العباس التميمي المازني الرافقي الأديب.

روى عن يزيد بن محمد بن سنان وأحمد بن يزيق .. وعلي بن عثمان النفيلي وأبي شعيب صالح بن زياد بن عبد الله بن الجارود الرقي (المقريء توفي سنة ٢٧١هـ) وعبد الله بن الهيثم صاحب الأصمعي سكن مدينة من مدن الثغر يقال لها (بغراس)^(٣١) ذكر أن له كتاب في (تاريخ أهل الجزيرة)^(٣٢) ونقل عنه خبراً .

أحمد الرقي بن أبي عبد الله بن محمد بن خالد (توفي سنة ٢٧٣هـ) (٢٨)

الرقي الكوفي الأصل، أبو جعفر، عالم، أديب من تصانيفه الكثيرة: كتاب التاريخ، كتاب اختلاف الحديث، كتاب الدواجن، كتاب الشعر والشعراء ، وكتاب النحو وله كتاب تبيان في أخبار بغداد^(٣٣) .

ديونيسيوس التلمحري (حوالي ٧٨٠-٨٤٣م)

ولد في تل محري على نهر البليخ ثم التحق بدير قنسري للعلوم اللاهوتية والرياضيات والفلك واللغات اليونانية والسريانية والعربية. ثم انتقل إلى دير العمود خارج الرقة ثم إلى دير مار يعقوب في كيسوم انتخب مار ديونيسيوس بطريركا بعد وفاة البطريرك مار قرياقس سنة ٨١٧م (٢٠١-٢٠٢هـ) في مجمع ديني ضخم لرجال الدين المسيحي تم في الرقة وضم ٤٥ أسقفاً . وقد كان على صداقة طيبة مع طاهر بن الحسين ومع الخليفة المأمون .

ألف كتاب تاريخ الزمان الذي نقل عنه ميخائيل الكبير (ت ١١٩٨م) وابن العبري (ت ١٢٨٦م) . وله ترجمة في كتاب اللؤلؤ المشهور ص ٣٢٨ . وقد تقدم الحديث عنه في 'علاقة الدولة بالرؤساء الدينيين' .

٣- من قصص الرقة

قصة عن محدث في الرقة بأخبار بني إسرائيل:

كان بالرقة رجل يحدث بأخبار بني إسرائيل فقال له الحجاج بن حنتمة: كيف كان اسم بقرة بني إسرائيل؟ أي الذي ورد ذكرها في سورة البقرة، قال: حنتمة (على أسم والد السائل) فقال له: رجل من ولد أبي موسى الأشعري: أين وجدت هذا؟ قال في كتاب عمرو بن العاص (يعرض بحادثة التحكيم بين علي ومعاوية إذ كان الحكماء أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص)^(٣٤)

أحد ظرفاء الرقة مدعي النبوة:

قال محمد بن عتاب: رأيت بالرقة أيام الرشيد جماعة أحاطت برجل أشرفت عليه، فإذا رجل له جهارة (أي حسن المنظر والهيئة). قلت: ما قصة هذا؟ قالوا: ادعى النبوة: قلت كذبتم عليه، مثل هذا لا يدعى الباطل فرفع رأسه إلي، فقال: وما علمك أنهم قالوا علي بالباطل؟ قلت له: وأنت نبي؟ قال: نعم ، قلت له: ما دليلك؟ قال: دليلي أنك ولد زنا، قلت: نبي يقذف المحصنات؟ قال: بهذا بعثت، قلت: انا كافر بما بعثت به، قال: ومن كفر فعليه كفره، فإذا حصاة عائرة (أي لا يدرى من رماها) جاءت حتى صكت صلغته، قال: ما رماها إلا ابن الزانية، ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال: ما أردتم بي خيراً حيث طرحتموني في يدي هؤلاء الجهال^(٣٥) .

قصة عن موسوس ظريف في الرقة يرتجل الشعر:

حدثني أبو علي البصير قال: حدثني محمد بن عساف بن عباد، قال: كنت بالرقة، وكان بها موسوس يقول الشعر المحال والمنكر، فغديته يوماً معي احتساباً للشواب، فأتاني من غد وعندي جماعة من العمال فحجبه الغلام فلما كان من غد وقف على الباب وصاح:

عليك إذن فأنسا قد تغدينا لسنا نعود لأكل قد تغدينا

يا أكلة سلقت ابقت حرارتها داءا بقلبك ما صمنا وصلينا^(٣٦)

قال: وما علمته قال شعراء على استواء غيره^(٣٧)

كان نصر بن مقبل عاملاً على الرقة فأتى برجل من الظرفاء وجده ينكح شاة، فقال: ما حملك على هذا؟ فقال: أيها الأمير: أنها والله ملك يميني، وقد قال الله تعالى: (أو ما ملكت أيماكم) فأطلقه وأمر بضرب الشاة الحد، فإن ماتت تصلب^(٣٨) قال ابن الجوزي متمماً القصة: إن نصر أمر بجلد الشاة الحد، فقالوا: أنها بهيمة! قال: الحدود لا تعطل وأن عطلتها فبئس الوالي انا. فانتهى خبره إلى الرشيد فلما وقف بين يديه، قال: من أنت؟ قال: مولى لبني كلاب فضحك الرشيد، وقال: كيف بصرك بالحكم، قال: الناس والبهاائم عندي واحد في الحق، ولو وجب الحد بهيمة وكانت أمي وأختي لحددتها، ولم تأخذني في الله لومة لائم، فأمر الرشيد أن لا يستعان به^(٣٩) .

الباب العاشر

الحياة الادبية

- ١- البلاذري - فتوح ٢١٤
- ٢- القشيري فقرة ٣٤٨، سير اعلام النبلاء ٤٦٢/٥
- ٣- القشيري فقرة ٣٤٨
- ٤- ابن خلكان ٢٣٠/٣
- ٥- الجهشيارى ٤٦
- ٦- سير اعلام النبلاء ٤٦٢/٥
- ٧- فهرست ابن النديم ١٢٠
- ٨- الهفوات النادرة ١٢٠\١٩٢
- ٩- القشيري فقرة ٣٤٨
- ١٠- القشيري فقرة ٣٤٨
- ١١- الفرست - ابن النديم ١٠٧، الجهشيارى ٢٢٧ التاريخ والمؤرخون العرب ٢٢٨
- ١٢- زهر الآداب ١/ ٦٢١
- ١٣- التاريخ العربي والمؤرخون - شاكر مصطفى ٢٩/٢
- ١٤- الفهرست - ابن النديم ١٢٩
- ١٥- تهذيب الكمال، مختصر ابن عساكر ٢٣٤/٦، ابن سعد ٧٤/٧
- ١٦- الاغانى ١٦/ ٣٩٥
- ١٧- البلاذري - فتوح ٢٠٨
- ١٨- معجم الادباء ١٠٨/٨، الواقعي بالوفيات ٨/ ٢٤٥، ٥/١٢
- ١٩- الاصابة ٥٤٤/٤
- ٢٠- معجم المؤلفين - كحالة - الواقعي بالوفيات ١٧/ ١٠٦
- ٢١- العباسيون الاوائل ٢/ ١٥٨
- ٢٢- الجهشيارى ٢٢٧
- ٢٤- تاريخ الموصل ٤٠٤، زبدة الحلب ٧٠، ٦٨/١
- ٢٥- تاريخ الموصل ٩٧
- ٢٦- ابن عساكر طبعة بيروت ٥٧/ ١٢٦ ولم يذكر له أي مصنف
- ٢٧- كتاب المتوارين، من الحجاج للحافظ عبد الغني الآزدي (ص ٧٧)
- ٢٨- معجم المؤلفين - كحالة ٤/ ١٣٢ نقلا عن معجم الادباء
- ٢٩- التاريخ العربي والمؤرخون ١٦/٢
- ٣٠- العقد الفريد ٤/ ٤٣، البيان والتبيين ٣/ ١٦٤
- ٣١- العقد الفريد ٦/ ١٤٦
- ٣٢- رسائل الجاحظ ٢/ ٦٦

الباب الحادي عشر فنون الرقة

الباب الحادي عشر

فنون الرقة

مقدمة

أباحث الدولة العباسية الهجرة من الريف إلى المدينة وساوت بين العرب وغير العرب، وتمتع الصناع والحرفيون بحريتهم كاملة وأرتفع مستواهم المادي والاجتماعي وامتزجت الثقافات وتتلذذ الصناع العرب على أرياب الصناعات الفنية في البلاد التي فتحوها وتقلوها في بلاد الإسلام، وتأثرت الحركة الفنية والصناعية بتغلب العناصر الإيرانية والتقاليد الإيرانية وتأثر الفن الإسلامي بأساليب الفنون الساسانية التي سادت في إيران والعراق والتي تمتد جذورها إلى أصول موروثية عن الفنون الآشورية والفارسية مع تأثير محدود النطاق بالعناصر الهلينية، ويتضمن هذا التأثير أساليب العمارة والنقش والزخرفة والفنون الفرعية والتقاليد الصناعية.

كما ارتفع مستوى الدخل وتوطد نفوذ البرجوازية في الميدان الحكومي والاقتصادي والاجتماعي، ونشأت طبقة رأسمالية جديدة اقتنت الضياع الواسعة والثروات الضخمة والتجارة الواسعة والدور والقصور وعاشت حياة مترفة وأقتنت كل ما هو رفيع من النسيج والخزف والاثاث والمجوهرات... ووفرت الدولة العباسية للفنانين وأهل الصناعة كل ما يحتاجون من المواد الخام والثروة المعدنية كما وفرت تسويق المنتجات^(١).

١- صناعة الخزف والزجاج في الرقة

يستدل من كثرة الأواني الخزفية والزجاجية مختلفة الاشكال والصحن والأباريق والأكواب والدينان والكؤوس والجرار والمصابيح والشوايك وخلافها مما عثر عليه في خرائب الرقة. أن الرقة كانت في أيام العباسيين، وحتى العهدين الأتابكي والأيوبي، مركزا لمعامل خزفية كانت تكفي حاجة سكان المدينة وتفيض، بحيث كانت تصدر إلى البلدان المجاورة، التي كانت تفخر بمصنوعات الرقة المتقنة الجميلة، والتي هي نتيجة الخبرة المتواصلة. وكانت صناعة الفخار والخزف والزجاج منتشرة ورائجة، مما جعل صناعتها في الرقة يتزاحمون باتقانها والتفنن برسومها وكتاباتها وألوانها وأشكالها.

والأواني الزجاجية والخزفية التي وجدت في حفريات الرقة ذات زخارف خطية وهندسية وملونة. بعضها ذو زخارف بارزة هندسية وخطية ونباتية. ووجدت أباريق تحاسية مزينة بكتابات. وقد داعت شهرة مدينة الرقة بصناعة الخزف. (عياش ص ٣٠٢).

١) الزجاج

ازدهرت صناعة الزجاج في العراق والجزيرة في الالفين الرابع والثالث قبل الميلاد، اذ وجدت الاشارات الخاصة بصناعة الزجاج في النصوص المسمارية التي تعلمنا ان صانعي الزجاج في بلاد ما لبث النهرين القديمة بنوا الاتونات المختلفة، واستعملوا المنافيخ للحصول على درجات الحرارة العالية، كما أنهم طوروا الاساليب الخاصة بتبريد الزجاج بعد خروجه من الفرن للحصول على زجاج شفاف... وقد تأثرت صناعة الزجاج المصرية في القرنين التاسع والعاشر بالاساليب المستخدمة في المصانع في العراق، كما تأثرت صناعة الزجاج في العراق بصناعة الزجاج المصرية، على ان صناعة الزجاج قامت قبل الفتوحات الإسلامية بزمان طويل (اشتور ص ١١٥).

وما عثر عليه في الحفريات في قصور الرقة والنماذج والكسر الزجاجية التي بقي عهدها إلى القرن التاسع الميلادي يثبت أن الرقة لم تشتهر فقط بصناعتها الزجاجية خلال القرن ١٢-١٤ فقط بل أن حالة صناعة الزجاج في الرقة تعود إلى عهد أكثر قدما وأن الرقة كانت أكبر المدن السورية في انتاج الأدوات الزجاجية خلال حقبة طويلة من التاريخ^(٢).

وتنسب اليوم إلى مدينة الرقة في أعالي الفرات أقدم الأواني الزجاجية المذهبة والمموهة بالمينا، حيث وجدت في حفائر أثرية جرت هناك بقايا كسر زجاج مموهة بالمينا. ومن أهم وأشهر التحف الزجاجية الذهبية والمموهة بالمينا التي تمت صناعتها في الرقة مجموعة من الأكواب ذات حافات براقة موزعة بين عدد من المتاحف الأوروبية والمجموعات الخاصة فيها ومنها أيضا التحفة المعروفة بكاس الامبراطور شارلمان المحفوظة اليوم بمتحف شارتر في فرنسا، كذلك التحفة المعروفة بكاس (القسس الثمانية) المحفوظة بمتحف مدينة دواي Doua بفرنسا أيضا والتي يمكن إرجاعها إلى نهاية القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). وتتميز زجاجات الرقة المذهبة والمموهة بالمينا بميزات معينة منها وجود أشرطة على شكل حبات اللؤلؤة من المينا الزرقاء والبيضاء، وكذلك وضوح الخطوط والرسوم المختلفة فيها، ويعتبر التذهيب والتمويه بالمينا مرحلة متقدمة ومتطورة من مراحل فنية متعددة حيث كان الزجاجون يعمدون إلى تذهيب الأنية الزجاجية بواسطة الريشة وذلك عند رسمهم للخطوط الخارجية للزخرفة ويستعملون الفرشاة في تذهيب المساحات الكبيرة وبعد ذلك يضعون الأنية الزجاجية في الفرن للمرة الأولى ثم يعمد الزجاجون إلى تحديد الموضوعات الزخرفية بالخطوط الرئيسية ثم يموهون المناطق المطلوبة بالمينا المختلفة الألوان التي تختلف من تحفة زجاجية لأخرى حسب موضوعات الرسم^(٢).

تعتبر الزخرفة بالخيوط الزجاجية والحبيبات والخيوط الزجاجية الفارقة في الوسط الزجاجي مهدة للزخرفة بالمينا التي هي مدار بحثنا. وقد ظهرت في القرن التاسع الميلادي زخرفة جديدة استعملت على الخزف والزجاج، وهي الزخرفة ذات البريق المعدني وقد بدت على الزجاج الشفاف الملون بلون أحمر أصهب أو بلون عسلي. تعتبر هذه الصفة بحق مهدة أيضا للزخرفة بالمينا على الزجاج. وقد أوردت كتب الفن الإسلامي أمثلة منها نكتفي بالإشارة إليها. يذكر الأستاذ لام أن لهذه الزخرفة أصل في العهد الروماني إلا أن سميث يذكر أنه أبدع عربي، عثر في تنقيبات الرقة التي أجرتها المديرية العامة للآثار والمتاحف وقام بها السيد صليبي بين سنتي ١٩٥٥ - ١٩٥٦ على أوان متعددة وكسور ذات بريق معدني وهي الآن محفوظة في قاعة الرقة (متحف دمشق). وقد زينت هذه القطع بزخارف نباتية وشبه هندسية تميل إلى العفوية، زين القدرح منها بكتابة كوفية عربية من الخط المقور المعروف في أواخر القرن ٢ هـ ٨ م وأوائل القرن ٣ هـ ٩ م. فقد وجدت هذه الكسور في القصر ب الذي وجد فيه جزء من ملاط جداري كتب عليه جزء من أسم المعتصم، ويهنا هذا القدرح رقم ٥١ ب الذي يحمل خمسة سطور من الكتابات تتأوب مع خمس ورود أحدها من دمشق). وجدت صناعة الزجاج المموه بالمينا والمذهب في البلاد العربية والإسلامية التي اشتهرت بانتاج الزجاج كالرقة وحلب ودمشق وبغداد والقادسية، ويحتمل أن تكون هذه الصنعة بدأت في العراق وانتقلت إلى الرقة وحلب وشمل ازدهار هذه الصنعة في الرقة وسوريا الشمالية ثم شمل سوريا ومصر^(٤). كانت طريقة التلوين بالبريق المعدني على الزجاج تتم عادة باستخدام الفضة أو أكاسيدها وذلك بطلاء الأنية الزجاجية بها ثم تعريضها لحرارة عالية بجو مشبع بالدخان الكثيف الخالي من الأكسجين فيتم الحصول على طبقة معدنية رقيقة جدا على سطح الأنية الزجاجية ذات بريق معدني ويتدرج اللون الحاصل نتيجة هذه العملية بين الاصفر الذهبي واللون البني. ويرى غالبية المتخصصين في الفنون الإسلامية أن استخدام البريق المعدني في زخرفة الزجاج أو الخزف سببه كراهية استعمال الأواني الذهبية والفضية في الإسلام^(٥) قسم الدكتور لام Lamm، ووافق على رأيه كل من جاء بعده من علماء الآثار، الزجاج الذي صنع في العصر الايوبي، اعتمدا على زخارفه، إلى مناطق وتواريخ معينة فنسب إلى الرقة الزجاج المزخرف بالحبيبات التي ظهرت على الكؤوس ذوات

الفوهات المتسعة والاشرطة الكتائبية المحصورة داخل مناطق مستطيلة وجعلها من أهم مميزات زجاج الرقة. وقد استطاعت السيدة مایسة أن تبين أن هذا التقسيم الدقيق لا يخلو من المبالغة وأثبتت أن هذه الزخارف المشار إليها موجودة مجتمعة في كل إنتاج العصر الأيوبي على العملة سواء ما ضرب منها في مصر أو دمشق أو سوريا عامة، ومن بين الرسوم التي ظهرت على زجاج العصر الأيوبي: الرنوك (أي: الشارات) مثل زهرة الزنبق والنسر^(٦). وأما طريقة الترجيع بالمينا فهي من الطرق التي حذقها أهل مدينة الرقة ثم ذاعت في أجزاء أخرى من العالم الإسلامي مثل حلب ودمشق والقاهرة، وقد كشفت الحفائر الأثرية في مدينة الرقة عن قطع كثيرة من الزجاج مزينة بهذه الطريقة من أهمها كوب (أو على الأصح جزء من كوب) معروض في متحف (تشيليني كيوسك) في استنبول تزدان بزخارف مختلفة من بينها صور آدمية لها طابع خاص امتازت به مدينة الرقة. ولقد تبعت مدينتا حلب ودمشق مدينة الرقة في هذه الصناعة وأصبحت لهما شهرة واسعة فيها بعد أن غمرت أسواق الشرق والغرب بما صنعته أيدي صناعها من هذه التحف المموهة بالمينا^(٧).

٢) الخزف

كان أهم مركز لأعمال الخزف في العصور الباكرة، موجودا في الرقة على نهر الفرات على تخوم سوريا وبلاد الرافدين ولابد أن الصلات الوثيقة كانت قائمة بين تلك المدينة وبلاد فارس، إذ إن بعض أعمالها الخزفية يتبع الطراز الفارسي وخاصة الأواني اللماعة والسوداء الزرقاء التي أصبحت كثيرة الرواج في القرن الرابع عشر، وقد حافظت المدينة على أهميتها حتى دمرت على يد المغول عام ١٢٥٩م وقد صنعت هناك الأواني الباريوتانية من النوع المزجج والنوع المقولب الخزرفة تحت تزجيج أزرق أو أخضر رغم أنه من غير السهل تمييز الأنواع السورية عن الأنواع الرافدية أو الفارسية، وكذلك انتجت الأواني اللماعة، ولكن أهم من ذلك كله كان نوع من الأواني ذو هيكل أبيض خشن بعض الشيء وزخرفة باللون الأسود أو الأوراق أو البنفسجي المزرق مطلية تحت التزجيج، وكانت الجرار الكبيرة ذات الفتحات الواسعة رائجة وأحيانا كان يقترن بالخزرفة المرسومة تصميم قيشاني رقيق كما نجد على زبدية كبيرة عليها سمكتل موجودة في متحف دمشق. وتظهر حركاتهما المتماوجة تحكما حقيقيا في التصميم ويتميز قدر كبير من أعمال الرقة بجودة ممتازة مماثلة ولكن في الغالب يصعب التفريق بين منتجات الرقة والمنتجات المصنوعة في أماكن أخرى من سورية ومصر، إذ أن أسلوب الرقة طور في كل من الرصافة ودمشق بعد أن وجد المركز الأصلي وكذلك قلدت منتجات الرقة في الفسطاط، وعلى سبيل المثال هناك في متحف دمشق مزهرة طويلة بديلة في القرن الثالث عشر وثمة قدر متساو من الاحتمال في أن تكون من صنع الرقة أو دمشق أو الفسطاط^(٨). هدأت الحرب الأهلية في الربع الأخير من القرن السادس وأخذت البلاد تنتعش وخاصة الرقة التي تتمتع بموقع جيد وموارد طيبة وأخذت دورها في إنتاج المصنوعات الراقية كما كانت في القرون السابقة. لقد أنتجت الرقة أجمل الطرف من الحلي والزجاج المموه بالذهب والمحلّى بالمينا الملونة والفخار المزين بزخارف بارزة ودقيقة والخزف المغطى بالمينا بأنواعه الشهيرة: الخزف المزين بالزخارف السوداء تحت المينا الزجاجية وهو في العالم باسم خزف الرقة، الخزف ذي البريق المعدني، الخزف الرقيق المعروف وهو ملون بلون واحد أزرق أو زبدى مع شيء من الزخارف البارزة، الخزف المتعدد الألوان. تعتبر هذه المدينة بحق من أهم مراكز الإنتاج في ظل الحضارة العربية الإسلامية وهي تعد مع سامراء ودمشق والقاهرة وحلب وبغداد والموصل أهم المناطق العربية الإسلامية^(٩). تحول مركز إنتاج الخزفيات مع نهاية السلالة الفاطمية عام ١١٧١م، ٥٦٦-٥٦٧هـ إلى دمشق وتجددت الصلات مع الرقة التي تكون وجدت في عصور مبكرة جدا^(١٠).

وبارتقاء السلالة الايوبية ١١٧١-١٢٥٠م، ٥٦٦-٦٤٧هـ أصبحت سورية المركز الأول للعالم الإسلامي العربي، وقد كانت الرقة المتاخمة لبلاد الرافدين الموطن ذا الأهمية الكبرى في صنع الخزفيات، بينما كانت دمشق مركز الفكر والثقافة وقد شملت خزفيات الرقة القيشاني والاوناني المطلية والمقولة (المسكوبة) وبعد حوالي عام ١٧٠ ظهرت أوان لماعة ذات لون متميز إلى حد ما كلون الين غالبا فوق أرضية زرقاء، وقد أتبع الخزافون العاملون هناك النماذج الفارسية اتباعا دقيقا إلى حد كبير رغم أن الأوعية التي صنعوها كانت أكثر ثقلا وخشونة وكانت المعاجين أكثر طراوة وقابلية للتفتيت وفي عام ١٢٥٦م، ٦٥٧هـ، قام المغول بسلب الرقة ويبدو أن القليل من الخزفيات صنع هناك بعد ذلك التاريخ وأصبحت دمشق أكثر أهمية وأستمر الإنتاج هناك دون انقطاع. وعندما أوقف السلطان بيبرس تقدم المغول في عين جالوت بتاريخ ٣ أيلول ١٢٦٠م، نجت سوريا الغربية من الدمار الذي لحق ببلاد فارس وبلاد الرافدين^(١١).

١- خزف الرقة

المصنوعات الفخارية: هي ما كانت من الطين المحروق فقط nengLaed pottery اما المصنوعات الخزفية: فهي ما كانت من الطين المحروق المغطى بدهان زجاجي gLaed pottery وخزف الرقة ولو أنه أتحد مع باقي الخزف الإسلامي من حيث الأسلوب غير أنه قد اختلف عنه في أشياء أخرى جعلت تميزه عن باقي الخزف سهلا ميسورا، فمعظم هذا الخزف من طينة باتت بعد دخولها النار سهلة الانكسار ولونها رمادي مائل إلى البياض وأحيانا يضرب لونها إلى البني، أما ألوان الطلاء فهي أيضا من مميزات هذا الخزف، أما قوامه المادي فقد تم صوغه في أماكن أخرى كانت له فيها قوة وحياة، وبمعنى أدق: فن روحه اسلامية، وقوامه المادي الفن الساساني والفن الهلنستي، وأصبحت مدينة الرقة أشبه ببونقة أشتملت على عدة فنون متبانية وأخرجت لنا فنا مميزا بطابعها الخاص.

وقد قامت بعثة الأستاذ ذرة بعملية التفتيب عن خزف الرقة فاهتدت في حفرياتا إلى أمثلة مميزة قليلة أعطت فكرة شاملة عن هذا الخزف، الأمر الذي لم يحاول من قبل وقد أثبت البحث والتفتيب أن خزف الرقة أصيل من صنع مدينة الرقة نفسها. وسأتناول فيما يلي مختلف الانواع التي يعرضها خزف الرقة:

٢- خزف غير مطلي

وجد بالرقة أمثلة من الأوعية غير المطلية وهي محفورة في العادة كما كان يصنع في شمال بلاد العراق، قدور ذات رقبة طويلة عليها زخارف رشيقة تمثل مناظر حول الرقبة، ولكن الأشكال الحيوانية والادبية تجعل الصلة بينها وبين خزف الرقة المصنوع في القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلادي قريبة جدا.

٣- خزف مطلي بغير رسوم

يبدو خزف الرقة خلافا للخزف الإيراني، بعده عن الرسوم التي تمثل الأشخاص وانصرافه إلى الزخرفة وهذا التباين يفسره تسامح إيران الشيعية حيال تحريم الصور، فقد أستغني الخزاف في الرقة في أنواع متعددة من الأواني الخزفية كل الاستغناء عن الألوان والرسوم واقتصرت فنتتها على الشكل فحسب.

وبريق هذا الخزف عديم اللون ومع أنه شفاف وواضح إلا أنا نجده في بعض الأحيان معتما تملوه سحابة خضراء مائلة إلى الزرقة أو تركوازية كما كان لطبيعة الأرض في الرقة اثر كبير على هذا البريق، فإن معظم القطع المدفونة نجدها مغطاة بطبقة ذهبية وفضية تعكس ألوان قوس قزح (الكمخ) نتيجة تفاعل أكاسيد الطلاء بأملاح تربة مدينة الرقة.

٤- خزف ذو زخارف محزوزة

يحتوي معظم هذه المجموعة من الخزف على قدور كبيرة مرسوم عليها زخارف نباتية وحروف كوفية تمتد من أعلى القدر إلى نهايته مكونة نقطة كبيرة في نهاية القدر، ويعلو هذه الزخارف الكوفية بريق أزرق ومائل للخضرة. كما نجد بلاطات محفورة عليها حروف بارزة قوية تتخللها فروع نباتية وليس فيها ما هو ملون سوى الأرضية وذلك تحت الطلاء الزجاجي وهذه البلاطات جزء من كورنيش يرجع إلى عهد نور الدين، وليس ببعيد أن تكون لهذا الكورنيش صلة بالجامع الذي لهذا السلطان بالرقعة.

وكثيرا ما وجدنا على هذا النحو ومعظمه أوعية متينة الجدران يشف طلاؤها الأخضر الأزرق عما تحته من رسوم أوراق وفروع نباتية رسمت على عجل ولم يكمل هذا النوع من الزخرفة إلا في مدينته الرقة، ووجد بمدينة الرقة شكل نادر من الأوعية وهو قارورة على صورة شخص جالس يحتضن طفلا، ولا يوحي هذا التمثال وأمثاله بأنه صنع للمسيحين خصيصا، وبأنه يمثل العذراء بل أغلب الظن أن هذه التماثيل تحيي باعشا شرقيا قديما هو الإله عشتار، وكثيرا ما يصادفنا في الرقة تماثيل أنواع من الحيوان لم تشكل تشكيلا متقنا وهي مطلية بطلاء زجاجي أزرق ويغلب على الظن أن هذه التماثيل الخزفية كانت تستعمل في الراجح لعبا للأطفال وتوجد أيضا بلاطات مسدسة الأركان من القاشاني المطلي باللون الأخضر فحسب وكذلك قطع مربعة الجوانب على شكل نجوم طلي جانبها الأمامي البارز بطلاء أزرق بينما نحت الجسم على الشكل الاسفيني، ويوجد بمدينة الرقة خزف ذو زخارف محزوزة حزا عميقة وفارغة وهذا النوع من الزخرفة في الكراسي الصغيرة التي كثيرا ما شوهدت بالرقعة والمسارح وفيما يشبه المنضدة القريبة من الأرض حيث يوضع عليها أواني الشراب وكل هذه يعلوها بريق أزرق.

٥- خزف ذو نقوش سوداء

يعتبر هذا النوع من الخزف أحسن أنواع خزف الرقة بل ومن روائع الخزف الإسلامي وكثيرا ما نجده في الأسواق، وهو يشبه إلى حد ما الخزف الإيراني ذا الزخارف السوداء والزرقاء والتي كثيرا ما يتعذر تمييز أحدهما عن الآخر وأن كان هناك فرق واضح من حيث عجينه كل منهما، فخزف الرقة هش ولونه أصفر أما الإيراني فصلب ولونه أبيض يميل إلى الرمادي وخزف الرقة الذي من هذا النوع تشتمل زخارفه عادة على أوراق فروع نباتية وانصاف مراوح نخيلية، ويملا الفراغ بينها نقط وشارات وفروع دقيقة ملتوية وهذه تعتبر من مميزات خزف الرقة.

وهناك قطعة مهمة زخارفها مرسومة باللون الأزرق المائل إلى الخضرة على أرضيه سوداء والزخرفة مكونة من حيوانين خرافيين Dragons لهما جسم ثعبانين متقاطعين بشكل جميل تحيط بهما مراوح نخيلية وفروع ملتوية، ولقد لعبت فكرة الثعابين المتقاطعة دورا هاما في شمال سوريا وشمال العراق ملتوية، والثعابين المضفرة يظهر أنها في العهد السلجوقي رمز للأرواح الشريرة وكما قال فان برشم أنها أصبحت شارة ملوك الارائقة في القرن الثالث عشر الميلادي. كذلك نجد على بعض القطع النسر ذا الرأسين وهو رنك سلاحقة الروم الذي اقتبسته فيما بعد دولة النمسا.

٦- خزف ذو نقوش سوداء متعددة الألوان

عثر في مدينة الرقة على خزف عجينة صفراء رسمت عليه نقوش وزخارف متعددة الألوان ومعظم رسوماتها أشكال خرافية وحيوانات مثل الحصان والجمال وأشكال زخرفية مأخوذة من الأزهار وأوراق نباتية مرسوم عليها شكل حيوان خرافي رأسه على شكل أبي الهول تحيط به فروع نباتية مرسومة باللون الأزرق والأسود يعلوها بريق شفاف مائل إلى الصفرة تعكس ألوان قوس قزح وإلى هذه الألوان يضاف عادة اللون الأخضر.

٧- خزف ذو بريق معدني (بريق الذهب)

خزف الرقة ذو البريق المعدني على نقيض خزف سامراء في العراق، فبينما نجد مدينة سامراء قد عرفت ظلالة مختلفة من البريق المعدني نجد الرقة لا تعرف سوى بريق واحد هو البريق البني الداكن (وهو لون يندر استعماله في صناعة الخزف في المراكز الأخرى)، وزخارف البريق المعدني في الرقة مرسومة على بريق شفاف لونه أخضر مائل إلى البياض وهو يشبه خزف مدينة الري إلى حد ما، من حيث كثرة استعمال اللون الأزرق عليه الرسم بالبريق المعدني. ومن الزخارف التقليدية: الزخارف الخطية والأشكال الحيوانية، أما رسوم الأشخاص والحيوانات فهي غير عادية وتشبه إلى حد كبير رسوم الخزف الفاطمي من حيث كبر حجمها. ومن أهم مميزات هذا النوع من الخزف تلك القدور أو الأباريق الكبيرة البيضية الشكل ذات الرقبة القصيرة والزخارف العميقة الحضر. وزخارفها عبارة عن فروع نباتية مرسومة بحرية العصر السلجوقي، وعليها كتابات حروفها مستديرة. كما وجد بالرقة بلاطات ذات بريق معدني، وهي نادرة جدا ويملك المتحف البريطاني بلاطتين مريعتين تحويان صورتَي أسد وطاووس يعتقد أنهما من صناعة الرقة وقريب منهما بلاطة قائمة الزاوية عليها رسم سمكة: وذلك على نقيض البلاطات الإيرانية ذات الشكل المتقاطع والنجمي.

وقد أدهشني أن معظم المراجع تنفي وجود خزف لمدينة الرقة قبل القرن الثاني عشر الميلادي أو على الأكثر القرن الحادي عشر الميلادي. وقد يكون لعلماء الآثار بعض العذر في استبعاد وجود خزف لمدينة الرقة في القرنين التاسع والعاشر وذلك لقلة الأمثلة التي عثروا عليها... ولكن يجب أن نعلم أن الحفريات في هذه المدينة (الرقة) قام بها الفلاحون بإيعاز من تجار العاديات لما لخزف هذه المدينة من صيت واسع وإقبال التجار وذوي الهوايات وتهافتهم عليه، فتسرب معظمه إلى الأفراد قبل أن تتمكن البعثات العلمية والمتاحف الأثرية أن تحصل منه على شيء يذكر.

يقول الدكتور sarre : يمكن أن يكون للرقة في القرن التاسع والعاشر خزف لكنه بدائي (بينما نرى نفس الدكتور) يرفع خزف مدينة سامراء إلى القمة فيقول: (إن خزف سامراء ذا البريق المعدني بلغ في القرن الثالث الهجري درجة كبيرة من الكمال في الصناعة والفن) فإذا كانت مدينة سامراء التي لم يعمرها الخلفاء غير فترة صغيرة قد وصلت إلى حد الكمال في صناعة الخزف، وهي لم يكن لها ماضٍ تاريخي على الإطلاق فكيف بالمدينة التي شهدت أزهى عصور الحضارة الهلنستية، والتي كانت عاصمة ثانية في أيام أزهى عصور الحضارة الإسلامية. ولنقارن خزف سامراء بتلك القطع النادرة التي وجدت بمدينة الرقة والتي يرجعها الدكتور sarre إلى القرن التاسع والعاشر، وهي بلاطات عليها رسوم حيوانات وطيور وأسماك بالبريق المعدني.

وإذا قارنا رسم الحيوانات في خزف مدينة الرقة بتلك التي رسمت بالبريق المعدني في خزف مدينة سامراء في هذه الفترة، فإننا نرى أنها لا تقل عن خزف سامراء بل تفوقها من حيث إظهار حركة الحيوان.

وقد ذكر sarre (أنه) عثر في حفرياته على أواني خزفية للاستعمال المنزلي مثل مصابيح ومسارج ومناضد وأطنّة بل ولعب أطفال، وقد ورد ذكر هذه الأشياء في معظم المراجع، وأرجعها العلماء إلى القرن الثاني عشر^(١٤).

فمع التسليم جدلاً بأن هذه الأواني قد صنعت في القرن الثاني عشر فهذا دليل على أن مدينة الرقة كانت أسبق من غيرها في صناعة الخزف فاستخدمته في جميع طلباتها المنزلية، لأن الخزف في القرن الثاني عشر كان يستعمل للزينة أكثر منه للاستعمال المنزلي، فالمدينة التي تصنع حتى لعب الأطفال من الخزف، لا بد أن تكون قد مارسته قبل ذلك بقرون حتى وصلت إلى هذه الدرجة.

وقد استعملت مدينة الرقة في زخرفة بعض الزهور حتى صارت فيما بعد، من مميزات خرف بعض الجهات المجاورة فزهرة اللوتس التي ظهرت في الرقة في القرن الثاني عشر بعد الميلاد لم تظهر على الخزف في أي مكان آخر في ذلك الوقت.

وعلى العموم فإن خرف الرقة يمتاز بنوع من القسوة في التعبير وحرية في الرسم والقوة المعبرة التي لاحظناها في الخزف ذي البريق المعدني وخلافه فتجد مثلاً في المصنوعات المحببة عندهم مناظر الصيد والقتال ثم الحروف الهجائية الكبيرة يحيط بها نقط، وشجيرات وفروع نباتية مما يظهره بالمظهر البوهيمي بالنسبة للذوق الفارسي الذي يراعي التقيد الشديد والتمائل التام.

ولا يشك أحد في أنه كان يصدر من بضائع الرقة الكثير من الخزف إلى الخارج حيث عثر عليه علماء الآثار.

ومن أهم منتجات الرقة من الخزف ما دعي باسم (فارس الرقة الخزفي) الذي دخل متحف دمشق أواخر سنة ١٩٤٩ وهو منقطع المظير ارتفاعه ٤٦ر٥سم ويمثل محارباً إسلامياً.

وكانت الرصافة يصنع فيها خرف من نوع خرف الرقة المشهور، وقد عثر المنقبون على أنية خزفية إسلامية من ذات البريق المعدني ومن ذوات الزخارف المرسومة. (عياش ص ٣٣٢).

ثمة مصدر عظيم لنشر الأفكار الفنية في البلاد الأخرى والناشئة أحياناً. وهو الصنّاع المهاجرون الذين كانوا يسعون للحصول على عمل حيث وجدوا، أو يقصدون عمداً بلاطاً مشهوراً، غير أن فريقاً آخر منهم اضطروا إلى ذلك (إلى الهجرة) بحكم أحداث تاريخية مؤلمة ولا سيما الحروب الغزوات، وبعد أن ذكر بعض من هاجروا بسبب الغزو المغولي نقل في هامش صفحة ١٥٩ ما يلي: وقد أشار سوفاجيه إلى حال مشابهة أعني مصنعا بدمشق لصنع أوان فخارية غير ملمعة للحجاج، وهي ما يتميز به مصنوعات وادي الفرات ولا سيما مدينة الرقة، ولذلك ينبغي أن نعد هؤلاء الفخارين من الذين هاجروا من تلك المنطقة واستقروا في عاصمة الشام^(١٣).

٢- العمارة

(١) بوابة بغداد

يفترض مما بقي من بوابة بغداد أنها كانت تشكل برجاً مستطيلاً قائم الزوايا (١٨،٠٧ × ٤،٥م) ذا مدخل مقنطر جميل عريض، في وسط الواجهة الشرقية. ويبلغ ارتفاعه الحالي ١١،٣ م. وكانت توجد على جانبي المدخل حنية Niche قليلة العمق، وفي الداخل غرفة مستطيلة مقنطرة، طولها ١٢م وطرفاها مقنطران اسطوانيان. أما القسم الأوسط فمقنطر متصالب، ويعكس البرج الكبير خلفها فهي مبنية بالكامل من الأجر المشوي. وتظهر الأناصر الأفقية، في الوجه الداخلي، واستعمل الخشب للوصول.

والقوس الرائع (للبوابة) مبنى من حلقتين من الأجر المربع (واحدة خلف الأخرى) سمك كل حلقة آجرتان، مما يجعل العمق الإجمالي حوالي المتر. أنها المثال الأول من القوس المدبب خارج سورية. ولكن ليس من النوع المعتاد ذي المركزين، بل أنه نوع جديد قائم من أربعة مراكز، ولا يمكن القول أنه جاء من إيران، لأنه لم يكن قد انتشر فيها عند ذاك.

الزخرفة الآجرية: قمة الحنية المقنطرة إلى يسار المدخل مزينة بتصميم هندسي مؤلف من أربعة صلبان مقصوفة، وخمسة مربعات مصنوعة كلها من الأجر حيث تظهر (عناصر النموذج وخلفيته كلها بعرض آجرة واحدة، وهذا أول مثال على ما عرف محلياً (بالخزبياف: الألف حنيه) بينما الفراغات مزخرفة بصنوف من المعينات الجصية.

وقسمت الواجهة لأغراض زخرفية إلى قسمين: الأسفل ويحتوي على المدخل المقنطر العظيم، والقطاعين الزائفين، والأعلى الذي يبلغ ارتفاعه ٤،٤ متر تقريباً، والمزخرف بسلسلة من الحنيات ثلاثية الفصوص ذات الأطراف المقنطرة بروافد قائمة على ركائز، مرتكزة على أعمدة صغيرة نصف

غائرة، ثمانية من هذه الحنيات لا تزال محفوظة، ويرجع أنه كانت (حنيات موجودة في الأصل للزوم القناطر والمدخل في السور الداخلي يرجح أنه كان في الجدار الجنوبي الذي لا يزال محفوظا إلى الغرب من الحصن الدائري الكبير، ولكن قبل أن يصله يتوقف فجأة فيما يبدو أنه بقايا برج أكبر قليلا من البقية، بين هذه القطعة والحصن الكبير وأرجح أن المدخل الداخلي كان في هذه النقطة. فالملهاجمون الذين يتغلبون على البوابة الخارجية، عليهم أن يمروا قرب الحصن الكبير، وجانبهم الأيمن معرض للنار من المترأس (حاجز السطح) قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى البوابة الداخلية التي يشرف عليها، أي أن لدينا هنا نموذج 'المدخل الموارى' فالمدخل المنحنى لم يتأصل بعد الآثار الإسلامية^(١٤).

ينسب هرزفيلد هذه البوابة إلى هارون الرشيد وينكر كريسويل ذلك (الآثار الإسلامية الأولى). والواقع أن كلام هرزفيلد صحيح، لأنه في سنة ثمانين ومائة للهجرة خرج الرشيد من بغداد وسار إلى الرقة، فاتخذها موطنًا، وبني سورها الخارجي (ميخائيل ٥٢٦) واسمه مكتوب على باب السبال من الجانب الشرقي: أمر بعمارته أمير المؤمنين هارون الرشيد أطال الله بقاءه بتولي الفضل ابن الربيع مولاه^(١٥).

بوابة الرقة هي بناء يثير الإعجاب، تزينه أعمال زخرفية بديعة، والتحصينات الدفاعية هناك أوليت إهتماما خاصا، لأنه على الرغم من الإضافات اللاحقة، يبدو من الأكيد أن التخطيط الأصلي قد بقي على حاله. وقد جلبت بعض وسائل الدفاع فيما بعد بما فيها الممر الملتوي إلى الغرب من قبل الصليبيين، وهي تمثل أحد عناصر الإرث الذي يدين به الغرب للإسلام، وتظهر نوعية الهندسة المعمارية في عدد من تيجان الأعمدة الكلسية التي يعود تاريخها إلى عام ٨٠٠ م المحتفظ بأمثلة منها في متاحف مختلفة بما في ذلك (الممر الملتوي)^(١٦).

يؤدي المدخل المنكسر غرضين هامين في المنازل والقصور، أحدهما منع أنظار المارة في الطريق من النظر إلى الداخل. أما الغرض الثاني فهو زيادة فرص الدفاع عن الدار إذا قامت قلائل أو فتن داخلية أو خارجية^(١٧).

وتقدم في الكلام عن نور الدين زنكي: أن شكل المأذنة في جامع الرافقة بجذعها الاسطواني واستادها إلى قاعدة مكعبة وأن هذا الطراز خاص بوادي الفرات فقد تكرر في قلعة جعبر وصفين وبالس.

٢) الزخرفة في الأجر

كانت الزخرفة على آجر البناء في بلاد الرافدين منذ العصر السومري على الأقل. وتختلف الزخرفة على الأجر عن الزخرفة بالجص. فالجدران الخارجية المكسية بالجص تتطلب الإصلاح أو إعادة أكساء الجدران بالجص بين آونة وأخرى، وقد تطول أو تقصر، ويعود ذلك بشكل أساسي إلى عامل التمدد والتقلص نتيجة اختلاف درجة الحرارة بين الليل والنهار وبين الصيف والشتاء مما يؤدي بالتالي إلى حدوث بعض التشقق في الكساء الجصي بحيث يسمح بوصول مياه الأمطار إليه فيجتمع في تلك الشقوق أو أسفل القشرة الجصية، ويسبب بالتالي انتفاخ الجص وتساقطه، مما يتطلب معه إعادة عملية الإكساء والتصليح.

ومن ضروب الزخرفة الأجرية ما يعرف (بالزخارف الحصيرية) وهي الزخرفة التي تعتمد على رصف الأجر بترتيب يجعل المظهر العام لواجهة الجدار أشبه بنسيج الحصير أي ترك الرصف الاعتيادي للأجر وطريقة التعشيق إلى هذه الطريقة الزخرفية في رصف الأجر. وأول ما ظهرت الزخرفة الحصيرية في الأجر في مطلع العصر العباسي في العراق وظهرت فيها زخرفات بالأجر في شكل دوائر ومربعات ومثلثات^(١٨).

وكانت الزخرفة بالأجر مخصصة بشكل عام على واجهات المباني الخارجية أو الداخلية المطلة على حدائق القصور والدور. وجرى استعمال الأجر في المناطق التي لا يتوفر فيها الحجر كالرقة.

٣) الزخرفة بالجص

تعتبر الزخرفة بالجص من أكثر الزخارف المعمارية شيوعاً في العمارة الإسلامية. وبلاد الرافدين غنية بحجر الكلس الذي يتم الحصول على الجص منه وذلك بحرقه ثم سحقه وطلحنه. وقد استخدم الجص كمادة أساسية في البناء ثم صار البنائون يكسون جدران الغرف والقاعات وصارت عندهم جدران ملساء ناصعة البياض^(١٩).

انتشر استعمال الزخارف الجصية في ملء الفراغات في الجدران والأبواب والنوافذ، واستعمل الأرابيسك (الزخرف العربي أو التوريق) في المباني باستخدامه الزخارف الجصية بأشكال هندسية أو نباتية مستوحاة من الطبيعة.

أسلوب القطع المائل في الزخرفة: ويدعى أيضاً بالقطع المشطوب، ففي هذا الطراز تلتقي العناصر الزخرفية بعضها ببعض في خطوط منبجعة إلى الدخول مما يضفي على الزخرفة مسحة القطع المائل. ومن جهة أخرى نجد أن الفكرة في الزخرفة هي ملء الفراغ الكلي للسطوح من دون خلفيات مميزة، أي أن العناصر الزخرفية صارت تلتقي بعضها ببعض بخطوط فاصلة هي خطوط العناصر الغائصة في الجص. وبكلمة أخرى فإن العناصر الزخرفية تبدأ مسطحة ثم تنحني باتجاهات مختلفة^(٢٠).

نازعت الرقة في ظل هارون الرشيد مدينة بغداد مكانتها كمركز ثقافي في العالم الإسلامي، وحتى بعد عودة الخلافة إلى بغداد تابع العباسيون فيها تشييد صروح شاهقة رائعة، وهذا ما يدل عليه القصر الذي ينسب بناؤه في كتابة منقوشة إلى الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ) مؤسس المقر الجديد في سامراء الذي يقع على بعد حوالي ٢٤٠ كم شمالي بغداد.

وببناء مدينة سامراء (ابتداء من عام ٢٢١هـ) الذي تتطلب جمع كل الطاقات الفنية في الدولة العباسية، إنتهت فترة ازدهار الرقة الأولى إلى زوال سريع. تحول أسلوب القطع أو الحد المائل الذي تطور في الرقة مع انتقال الحرفيين من الرقة إلى سامراء، إلى أسلوب زخرفي سائد انتشر انتشاراً واسعاً فيما بعد في جميع البلاد الإسلامية تقريباً، ولا سيما في مصر وغير مصر، انتقل هذا الأسلوب الزخرفي مجدداً إلى القرن الحادي عشر^(٢١).

٤- التأثيرات المتبادلة في فنون العمارة والبناء بين العرب والبيزنطيين

يمكن أن نجد آثاراً للفن المعماري البيزنطي في بغداد سيما وقد أسهم في بنائها مهندسون بيزنطيون، فقد أشار اليعقوبي إلى وجود طاقات معقودة بالأجر فيها كوى رومية، إشارة إلى أسلوب بيزنطي في البناء ربما أدخله المهندسون البيزنطيون.

وفي فترة لاحقة من العصر العباسي الأول بدأت المسألة تأخذ شكلاً آخر. فازدهار الفن المعماري في بغداد وبقية أجزاء الدولة العباسية أثار في نفوس اباطرة بيزنطة، ذلك الإحساس بضرورة المنافسة في هذا المجال وفي بعض الأحيان الرغبة في التقليد والتأثير، إذ كان الإمبراطور تيوفيل مفرماً ببناء القصور وفي عام ٢١٥هـ، ٨٣٠م قدم له أحد سفرائه إلى بغداد تقريراً عن القصور التي شاهدها، وقد أثار فن العمارة الإسلامية دهشته وإعجابه، فحث الإمبراطور على بناء قصر مشابه لأحد القصور التي شاهدها في سورية، وكان سرور الإمبراطور كبيراً بالفكرة فأنشأ هذا القصر في B ryas إحدى ضواحي القسطنطينية. وحوى هذا القصر ذو الطراز الإسلامي مصلى مجاوراً لغرفة نوم الإمبراطور، كما ضم كنيسة في وسط باحة القصر الذي اتخذ شكلاً مستطيلاً ومسيحياً.

وذكر ابن الفقيه أنه رسم تصميم لمدينة بغداد قدم إلى الإمبراطور البيزنطي ضم بغداد بأرياضها وأسواقها وشوارعها ومبانيها وأنهارها في جانبها الشرقي والغربي. وطالما تأمل الإمبراطور هذا التصميم الذي أثار دهشته وأبدى فيه آراءه. واتخذ تيوفيل من قصور بغداد نموذجاً يحتذي به في أبنيته التي أشادها^(٢٢).

ونذكر هنا أن بغداد والرقة والقاهرة لم يكن يتوفر فيها الحجر الصالح للبناء^(٢٣).

الباب الحادي عشر

فنون الرقة

- ١- العائيم الاسلامي في العصر العباسي - حسن احمد محمود ورفيقه ١٩٤
- ٢- الحوليات الاثرية المجلد ٨-٩-١٥٩- سليم عبد الحق
- ٣- حضارة العراق ٣٥٩/٩
- ٤- الحوليات الاثرية ١٩٦٦/١٦ - ٤١
- ٥- حضارة العراق ٣٥٧/٩
- ٦- الفنون الإسلامية - سعاد ماهر محمد ٢٦٤
- ٧- ن.م ١٣٢
- ٨- دافيد تالبوت رايس - الفن الاسلامي ١٤٣
- ٩- الحوليات الاثرية ٧٠/٧ ابو الفرج العشي : الرقة من خلال كتب التاريخ
- ١٠- الفن الاسلامي - تالبوت رايس (الترجمة العربية) ١٠٤
- ١١- ن.م ١٢٣
- ١٢- الفنون الإسلامية سعاد ماهر محمد ٢٦-٧٧ باختصار
- ١٣- الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية - كرويناوم محمود ورفيقه ١٥٩
- ١٤- الآثار الإسلامية الاولى - كريزويل (مترجم) ٢٤٧
- ١٥- ابن شداد ٧٠/١/٣
- ١٦- الفن الاسلامي - دافيد تالبوت رايس (مترجم) ٢٩٥
- ١٧- العمارة العربية في مصر الإسلامية - د. فريد شافع ٤٣٥
- ١٨- حضارة العراق ٤٠٥/٩
- ١٩- ن.م ٣٧١/٩
- ٢٠- ن.م ٣٧١/٩
- ٢١- مجموعة ابحاث تاريخية بإشراف عفيف البهنسي . الرقة - ميشيل ماينكه ٢٦٩
- ٢٢- ابن الفقيه- مختصر كتاب البلدان
- ٢٣- لومبار ٢٤٥

الباب الثاني عشر
العلوم النقلية أو الدينية

الباب الثاني عشر العلوم النقية أو الدينية

١- العلوم والتعليم

(١) منزلة العلم والعلماء عند المسلمين

كان المسلمون شريفيهم وفقيرهم ، يقدرون العلم على اختلاف صنوفه والعلماء شرط أن ينضم إلى العلم الخلق العالي . وقالوا عن العلم: من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن نظر في الفقه نبيل مقداره، ومن تعلم اللغة رق طبعه، ومن تعلم الحساب تجرل رأيه، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه .

وكانوا يدركون أنه لا يوجد علم بدون علماء، فإذا ذهب العلماء ذهب العلم معهم . ويذكرون في ذلك كثيرا من الأحاديث من بينها: أن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا إذا سئلوا، فأفتوا بغير علم فضلوا واضلوا^(١). ولما دفن زيد بن ثابت في قبره، قال ابن عباس: أمن سره أن يعلم كيف ذهاب العلم فهكذا ذهاب العلم، والله لقد دفن اليوم علم كثير^(٢).

وشوهد قاضي القضاة ابو الحسين بن أبي عمر مغموما حزينا لوفاة الطبيب يزيد المائي لأنه على حد قوله قد مات ولا خلف له، ولا أحد يقاربه في حذقه، وهل فخر البلد الا بكثرة كون رؤساء الصنائع، وحذاق أهل العلم فيه! فإذا مضى رجل لا مثيل له في صناعته ولا بد للناس منها، فهل يدل هذا الا على نقصان العالم وانحطاط البلدان^(٣).

وكان المسلمون يدركون أن العلم هو العامل الاول على عمران المدن، فبعد خراب البصرة بسبب فتنة الزنج، طلب الموفق بالله من أبي داود السجستاني أن ينتقل إلى البصرة ويستوطنها ليرحل إليه طلبة العلم فتعمر البصرة^(٤).

وحين انطلق طاهر بن الحسين من بغداد سنة سبع عشرة ومائتين للهجرة ليتولى خراسان ويستقر فيها، نقل معه إليها جماعة من رؤساء طرسوس وملطية، وجماعة من الادباء الاعراب وثلاثة من العلماء وطببا حاذقا فتخرج على هؤلاء أهل خراسان^(٥).

وسير ابو دلف القاسم بن عيسى إلى عبد الله بن طاهر يستهدي منه ابا عبيد القاسم بن سلام مدة شهرين فأنفذه^(٦).

ولم ينجم مع ذلك من العلماء ويجمع الثروة والمركز المرموق إلا المتصل بالخلفاء او على الأقل بالأمراء، ونال رضاهم وسائرهم في هواهم، ونذكر كمثال على من اتصل بالخلفاء الكسائي والاصمعي وابا يوسف ومحمد بن الحسن وكيف ارتقوا إلى أعلى الدرجات، بينما بقي سيبويه والخليل بن احمد وهو متفوقون في العلم على من تقدم ذكرهم ولكنهم لم يتصلوا بالخلفاء والأمراء، فعاشوا حياة عادية وان بلغوا أعلى مرتبة عند عارفهم. ورغم أن الخلفاء والأمراء حاولوا جذبهم إلى مجالسهم ولكنهم كانوا زاهدين في المجد الدنيوي.

وكان الوطن العربي الاسلامي رغم امتداده الهائل واحتوائه أحيانا على امارات ودول مختلفة يكون وطننا عربيا واحدا، تتواصل أجزاءه ووحداته تواصل الأفراد في اسرة واحدة ولذلك مظاهر شتى، فقد كان العلماء حين يؤلفون كتاب تراجم عاما يجمعون فيه كل من عاش من النابهين في هذا الوطن الكبير، او حين ألفوا في تراجم الفقهاء الشافعية او المالكية او غير ذلك جمعوا فيه علماء في جميع البلاد العربية مهملين الفواصل السياسية والجغرافية بين الأقاليم والبلدان، وكان الكتاب حين يتم تأليفه يصبح ملكا لعلماء العالم العربي جميعهم فهم يشرحونه او يشرحون

شرحه أو يكتبون تعليقا عليه يشترك في ذلك قاصيهم ودانيهم، ونضرب مثلا ديوان المتنبي، فإنه لم يكد يبقى بلد عربي الا وتجرد له عالم من علمائه بشرحه ويعرض شرحه على الطلاب^(٧).
أهتم الرشيد (وغيره من الخلفاء) بأهل الدين والعلم والأدب، وشجع الترجمة وأنفق عليها بسخاء كبير كما أهتم بالتعليم وأنشأ كتاتيب لتعليم اليتامى ينفق عليها من مال الدولة^(٨).

(٢) الكتاتيب

كان تعليم الصبيان في المدينة يجري منذ ما قبل الاسلام^(٩) وان كان على نطاق ضيق، ثم جاء الاسلام فشجع تعليم الكتاتيب والقراءة بعدة وسائل احداها تحرير بعض الأسرى المكيين مقابل تعليمهم القراءة والكتابة لأهل المدينة.

وقد وجدت الكتاتيب لتعليم الاطفال في عهد مبكر، ففي المدينة كانت كتاتيب في عهد أبي بكر^(١٠) وفي عهد عمر^(١١) وكذلك في عهد علي، وكان تأديب الولد المذنب حين الحاجة يتم بأن يضرب وهو محمول على ظهر رجل^(١٢) وكانت عطلة الكتاب يوم الجمعة^(١٣). كما كانت الكتاتيب في الشام^(١٤) وفي السلمية^(١٥) وفي الجزيرة اذ كان الحجاج بن يوسف بن أبي منيع (عبيد الله بن أبي زيادة ابو محمد) الرصافي مع بني هشام بن عبد الملك في الكتاب^(١٦) وكان عمرو بن ميمون ابن مهران يؤدب بحصن مسلمة^(١٧).

وقد نهى المتوكل ان يتعلم اولاد النصارى في كتاتيب المسلمين^(١٨). وكان ابراهيم الموصللي مع ولد خزيمة ابن حازم (التميمي) في الكتاب، فلهذا السبب صار ولاؤه إلى تميم^(١٩)، وكان قد اسلم إلى الكتاب فكان لا يتعلم شيئا^(٢٠). وكان التعليم مسؤولية الشعب لا الدولة، والكثيرون من كبار الشعراء أو أهل الأدب ورجال السياسة بدؤوا حياتهم معلمين، لأن مهنة التعليم كانت تضمن المعاش لصاحبها ولوان هذا المعاش كان دائما ضئيلا، الا اذا اسعد الحظ المعلم فقام بالتدريس لأبناء رجل من علية القوم، أو أهل السلطان، فيكون ذلك سبيله إلى الخلاص من فقر المهنة والدخول في وظائف الدولة والصعود فيها. وندر ان يكون هناك تاجر متوسط الحال فما فوقه او صاحب وظيفة أو رجل ذو مال الا علم اولاده فأرسلهم إلى الكتاب او أتى لهم بالمؤدبين في البيت... وكانت العادة ان الطالب يأنس في نفسه القدرة على الاستمرار في الدرس يتجه بعد اتقان القراءة والكتابة وحفظ القرآن ومعرفة الحساب إلى المساجد الكبرى في اقرب مدينة اليه، فيجلس في حلقة الشيخ الذي يختاره ويواصل دراسته. وهذا النظام على بساطته وعفويته، كفى حاجة المجتمع من العلم، وخرج علماء مختارين ما زلنا نفخر بهم على الرغم من أنه لم تكن هناك سلطة حكومية او غير حكومية ترعاه وتنظم شؤونه. وعلى الرغم من ان الناس لم يكونوا يكسبون من تأليف الكتب الا الذكر الطيب، فقد فاض علمنا بالكتب والمؤلفات القيمة.

(٣) معلموا الخاصة

كان إلى جانب معلمي اولاد العامة (في الكتاتيب). معلمو اولاد الخاصة ثم معلموا اولاد الخليفة. وكان ميمون بن مهران (الرقبي) يؤدب ولد عمر بن عبد العزيز^(٢١). كما كان محمد بن حسان الضبي الذي ولاه المأمون مظالم الجزيرة وقنسرين والعواصم والثغور مؤدبا للعباس بن المأمون. (وقد تقدم ذكره في المظالم). كان الحسن بن داود الرقي ابو علي مؤدب عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد فيما بعد. (أنظر أيضا ادباء الرقة).

ترك اللغويون طريقة المتكلمين والمتحدثين في الاسلام في القرن الرابع الهجري واقتصروا على تدريس كتاب يقرأ فيه احد الطلبة، والمدرس يشرح، كما يدرس الانسان المختصرات (السبكي ٢٥٩/٣)^(٢٢). وكان اصحاب الإملاء يختصرون في أماليهم ويطيلون في تدريسيهم^(٢٣) (المعتزلة لابن المرتضى ٦٣). ولما انتشرت طريقة التدريس نشأت المدارس، ولكن من اكبر الأسباب في ذلك ان المساجد لم يكن يحسن تخصيصها للتدريس بما يتبعه من مناظرات ومجادلات قد يخرج

بـصحابه أحيانا عن الأدب الذي تجب مراعاته للمسجد، وكانت أول مدرسة أنشأت هي التي بنيت لأبي إسحاق الأسفراييني (ت ٤١٨ هـ) بنيسابور والحاكم النيسابوري المتوفى عام ٤٠٦ هـ^(٢٤).

٤) العلوم الدينية في الرقة

١- القراءات (القرآنية)

قال عبد الله بن المبارك: "أنه ليعجبني من القراء كل طلق مضحك، وأما من تلقاه بالبشر ويلقاك بالعبوس كأنه يمن عليك بعمله فلا أكثر الله في القراء مثله^(٢٥)".

يقول المقدسي عن إقليم أقر (الجزيرة): "أن أهلها يختارون قراءه عبد الله بن عامر^(٢٦)" ويقول الجزري عن ابن مجاهد: "أن أهل الجزيرة على قراءة عبد الله بن عامر، ثم يقول: ولا زال أهل الشام قاطبه على قراءة أبي عمرو بن العلاء هي التي كانت رائجة في الرقة وكذلك قراءة الكسائي كان لها نصيب في الرقة أيضا^(٢٨)".

اهتم أهل الرقة بالقراءة القرآنية ومنهم:

- ميمون بن مهران (ت ١١٧ هـ) روى القراءة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب^(٢٩).

- ابنه عمرو بن ميمون بن مهران (ت ١٤٧ هـ) روى القراءة عن أبيه ميمون^(٣٠).

- جعفر بن برقان (ت ١٥٤ هـ)^(٣١) ولم يحدث عن عمرو بن ميمون بن مهران أقرأ من جعفر بن برقان^(٣١).

الكسائي: علي بن حمزة (ت ١٨٩ هـ أو قبلها) أحد الأئمة القراء من أهل الكوفة، استوطن بغداد، أقرأ زمانا بقراءة حمزة ثم اختار لنفسه قراءة، فأقرأ الناس بها، وقرأ عليه بها خلق كثير ببغداد والرقة (إذ كان في الرقة مع الرشيد) وغيرهما من البلاد وحفظت عنه^(٣٢).

علي بن محمود بن أحمد بن مالك الرقي المقرئ: روى عن علي بن ميمون الرقي المتوفى سنة ٢٤٦ هـ^(٣٣).

عبد الله بن عامر اليحصبي القارئ: أخذ القراءة عن المغيرة ابن أبي شهاب المخزومي وأخذها المغيرة عن عثمان بن عفان وعن عبد الله بن عامر وأخذت القراءة العثمانية في الشام^(٣٤).

أحمد بن النضر بن بحرابو جعفر العسكري المقرئ: نزيل الرقة، توفي في الرقة في ذي الحجة سنة ٢٩٠ هـ^(٣٥).

تلقت القراءات دفعا كبيرا حين ظهر في الرقة السوسي وهو:

الإمام المقرئ المحدث، شيخ الرقة أبو شعيب صالح بن زياد بن عبد الله بن اسماعيل بن إبراهيم ابن الجارود بن سرح، الرستبي السوسي الرقي^(٣٦): ولد سنة نيف وسبعين ومائة للهجرة ومات في أول ٢٧١ هـ، وقد قارب التسعين. جود القرآن على يحيى اليزيدي (ت ٢٠٢ هـ)، وأحكم عليه حرف أبي عمرو، وسمع طاقته من المحدثين، وحدث عنه جماعة وقرأ عليه طائفة منهم:

١- ابنه أبو معصوم، محمد بن أبي شعيب السوسي وهو من أهل الرقة فقدم بغداد حاجا سنة ٣٠٦ هـ^(٣٧).

٢- الحافظ محمد بن سعيد أبو علي الحراني القشيري مؤلف كتاب تاريخ الرقة^(٣٨).

٣- موسى بن جرير أبو عمران الرقي النحوي الضرير، أجل اصحاب السوسي^(٣٩).

٤- علي بن الحسين أبو الحسن الرقي الوزان، ويقال إن اسمه علي بن أحمد بن الحسين الرقي توفي في حدود سنة ٣١٠ هـ شهر بالضبط والاتقان^(٤٠).

٥- أبو الحارث الرقي محمد بن أحمد نزيل طوس مقرئ معروف جليل^(٤١).

٦- أبو عثمان النحوي الرقي^(٤٢).

٧- أحمد بن محمد الوراق، أبو العباس الرافقي روى القراءة عنه إبراهيم بن عبد الرزاق الانطاكي (ت ٣٣٩ هـ)^(٤٣).

ومن قراء الرقة المتأخرين من غير تلاميذ أبي شعيب:
 - عبيد بن يحيى الاسدي الكوفي المقرئ، نزيل الرقة قرأ عليه احمد بن بزيع بحرف عاصم
 في مسجد بني وابصة قبل المائتين، ومات بالرقة^(٤٤).
 - الحسين بن غياث المقرئ المتوفي سنة ٢٨٨هـ^(٤٥).
 - احمد بن إسحاق المقرئ ابو العباس شيخ القشيري، قد يكون من أهل الرقة^(٤٦) لأنه يغلب على الظن
 ان المؤلف القشيري لم يطلب العلم خارج الرقة.

ومن معاصري أبي شعيب :

- عبد الله بن سليمان بن محمد بن عثمان ابو محمد الرقي: روى القراءة عنه عرضا:
 علي بن احمد ابن الحسين الرقي وتلميذ أبي شعيب^(٤٧). وورد عرضا في بغية الطلب ١٧٢/٣ أنه
 قرأ على أبي زيد أبان بن سيار الرقي، (سيجيء ذكره في الزهد والتصوف).
 (العرض: هو القراءة على الشيخ، اما السماع فهو السماع من لفظ الشيخ وهو يقرأ علوم
 الحديث لابن الصلاح) (١٢٢-١٢٧هـ).

من القراء الذين زاروا الرقة، عيسى بن يونس: قال جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، ما رأينا في
 القراء مثل عيسى بن يونس، ارسلنا اليه فاتانا بالرقة، فاعتل (مرض) قبل ان يرجع. وقد عرض عليه
 مائة الف درهم فرفضها لثلاث يتحدث أهل العلم أنه أخذ للسنه ثمانا. مات سنة ١٩١هـ في ثغر الحدث^(٤٨).
 قراء متأخرون في الرقة: الحسين بن سلمة الرقي الكاتب، روى القراءة عن منصور بن
 ودعان، وروى القراءة عنه ابو القاسم الهذلي (٣٩٠-٤٦٥هـ) بالرقة^(٤٩).

٢- الحديث

تم فتح الجزيرة في مطلع عام ٢٠هـ، وقفل عياض بن غنم راجعا إلى حمص وتوفي فيها في
 العام نفسه وخلفه سعيد بن عامر بن خذيم على الجزيرة، فبادر إلى بناء المسجد الجامع بالرقة،
 ومات في نفس العام أيضا، وخلفه على الجزيرة عمر بن سعد بن عبيد الانصاري فبنى المساجد
 بديار مضروديار ربيعة^(٥٠). وشجع من اسلم من الاهالي بتخفيض الضرائب عما كانت عليه قبل
 الاسلام، وبذلت الجهود لتعليمهم امور الدين الاسلامي. وبدأت الهجرة إلى الجزيرة، ومن بينها
 الرقة، لأنها قطر غني وخصب ورخيص، وقليل السكان بعد ان نزح عنه معظم الروم وكثير من
 السكان الأصليين (ابو يوسف) واشتدت الهجرة اليه عقب مقتل عثمان والنزاع بين علي ومعاوية،
 وفي طليعة المهاجرين (او اللاجئين) الصحابة ومنهم:

. بنو اسد ومن بينهم الصحابة التالية اسماؤهم:

١- اسد بن سماك بن مخزومة الاسدي في طاعة معاوية، وكان قد فارق عليا في نحو مائة
 رجل من بني اسد، ثم أخذ يكاتب قومه حتى لحق بهم سبعمائة رجل^(٥١). عاش إلى خلافة معاوية
 بالرقة ومات بها^(٥٢).

٢- وابصة بن معبد الاسدي (مات حوالي سنة ٩٩هـ). انتقل بعد موت عثمان من الكوفة إلى
 الشام^(٥٣) ثم إلى الجزيرة، وتوفي بالرقة، وقبره عند منارة مسجد جامع الرافقة.

٣- خريم بن فاتك بن الاخرم (ويقال خريم بن الاخرم) بن شداد بن فاتك الاسدي، ابو
 ايمن. اسلم مع الفتح أو بعد الفتح، ونزل في الكوفة ثم الرقة ومات بها في عهد معاوية^(٥٤).

٤- عوف بن ربيع بن حارثة بن ساعدة بن خزيمة بن نصر بن قيس بن ثعلبة بن دودان بن اسد بن
 خزيمة الاسدي، ذو الخيار. وقد على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم نزل الرقة وولده بها^(٥٥).

٥- حنظلة بن الربيع. ابو ربيعي التميمي ثم الاسدي، كاتب رسول الله صلى الله عليه
 وسلم. كان بالكوفة، فلما شتم عثمان انتقل إلى قرقيسيا وقال: لا اقيم ببلد شتم فيه عثمان،
 وتوفي بعد علي، وكان معتزلا للفتنة حتى مات^(٥٦).

- ومن الصحابة من قرئش :

١- الوليد بن عقبة بن أبي معيط: كان بين من هرب من الكوفة من العثمانية والذين هواهم مع معاوية^(١١). خرج الوليد سنة سبع وثلاثين للهجرة حتى نزل الرقة فكان بها، وكان معه: العلاء بن عبد بن احبان بن جابر. ابن عامر بن ثؤي، وكانت تحته هند بنت عقبة اخت الوليد، في ناس من قومهم فيهم: عبد الواحد بن أبي سعد بن قيس بن وهب، فأقاموا معه لذلك الصهر^(١٢).

٢- وأخو الوليد: خالد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن معبد شمس الأموي كان من مسلمة الفتح، ونزل الرقة وبها عقبة.

٣- العلاء بن وهب بن عبد بن وهبان بن خباب بن حجير بن عامر بن ثؤي بن غالب بن فهر القرشي. من مسلمة الفتح وشهد القادسية، واستعمله عثمان على الجزيرة، وأقام بالرقة أميراً، وتزوج زينب بنت عقبة بن أبي معيط^(١٣).

٤- أخو العلاء قيس بن وهب القرشي العامري. من مسلمة الفتح، وهو جد عبد الواحد بن أبي سعد ابن قيس الذي تولى إمارة الرقة في زمن عبد الملك بن مروان، ومات بها^(١٤).

٥- حبيب بن مسلمة الفهري.

- ومن بني جعفي بن سعد العشيرة من مذحج، من القحطانية (من الصحابة).

١- سلمان بن ثمامة بن شراحيل بن الشيطان بن الحارث بن الاصب الجعفي. وفد على النبي ﷺ وغزا مع علي ونزل الرقة. قال ابن الكلبي: كان سلمان اعتزل القتال في الفتنة، هو وقوم ارتابوا بالقتال، فأقاموا بالرقة. فكان علي يرسل اليهم الاعطية، ويقول: لا تمنعكم حكم من الشيء لأنكم مسلمون وإن امتعتم من نصرتنا^(١٥).

٢- عبد الله بن أرطاة بن شراحيل بن الشيطان بن الحارث بن الاصب الجعفي. ذكر ابن الكلبي أنه كان مع ابن عمه سلمان (بن شراحيل..) وقومه لما اعتزلوا القتال بالرقة مع علي ومعاوية. قال: وكانوا ثمانين رجلاً^(١٦). وغيرهم من النصابة كثر.

وإذا كان قليلاً ما نقله إلى الرقة الصحابة الذين استقروا فيها من الحديث، فقد فعل ذلك أيضاً من جاء إلى الرقة من التابعين ثم تابعي التابعين:

فمن التابعين : ميمون بن مهران والزهري. ومن تابعي التابعين في الرقة عمرو بن ميمون ابن مهران وجعفر بن برقان وفي حران والرها زيد بن أبي أنيسة، عبد الكريم بن مالك الجزري وكثر عدد المحدثين في الرقة فقصدهم طلاب الحديث وأئمة يروون عن أهل الرقة ويروي أهل الرقة عنهم أثناء طوافهم في جميع الاقطار الإسلامية بحيث لا يحصيهم العدد ومنهم:

الائمة الأربعة: أبو حنيفة ومالك بن انس والشافعي وابن حنبل وكذلك سفيان الثوري وسفيان ابن عيينة وسليمان الاعمش وشعبة بن الحجاج، وعبد الله بن المبارك وابونعيم الفضل بن دكين وعبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني وأحمد بن القرات بن خالد ابو مسعود الضبي، وخيثمة ابن سليمان القرشي الاطرابلسي الطبراني، والهيثم بن عدي ومحمد بن الحسن الشيباني وابوحاتم الرازي وابو عبيد القاسم بن سلام.. الخ. وهذا مذكور في تراجم أولئك المحدثين الاعلام

ميمون بن مهران

الامام الحجة عالم الجزيرة ومفتيها، ابو ايوب الجزري الرقي (٤٠-١١٧ هـ). من سبي اصطخر. كانت امه مولاة للأزد (حرة معتقة) وأبوه مكاتباً لبني نصر بن معاوية من قيس عيلان في الكوفة. وقيل العكس! والاول أصح. وبقي بالكوفة حتى هيج الجماجم (٨٠ - أول عام ٨٢ هـ) فتحول إلى الجزيرة، وكان قد تزوج قبل ذلك بابنة شيخه سعيد بن جبير الذي خرج مع عبد الرحمن ابن الأشعث، ولا يعقل ان يكون قد تزوجها بعد خروج أبيها، وكان له منها على الاقل ولد هو عمرو بن ميمون الذي عينه عمر بن عبد العزيز على الديوان في الرقة ولا بد لذلك ان يكون

تجاوز العشرين من العمر، فإذا عرفنا أن خلافة عمر بن عبد العزيز كانت بين (٩٩ - ١٠٠هـ)، رجحنا أن ولادة عمرو (وبالتالي زواج أبيه من أمه) حدثا قبل عام ٨٠هـ على كل تقدير وأنها تمت بالكوفة أيضا.

ولي ميمون بن مهران بيت المال بخران لمحمد بن مروان. ثم ولي الجزيرة وقسرين لعبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) ثم للوليد الذي عزله عنها عام ٩٠هـ. وقد الح عليه محمد بن مروان ليكتبه في الديوان فيكون له عطاء لكنه رفض. ثم كان واليا لعمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠٠هـ) على خراج الجزيرة (أو على خراج الجزيرة وقضائها) وحاول أن يستقيل زمن عمر بن عبد العزيز فلم يستطع.

كان ميمون بن مهران يزاا ويجلس في حانوته، وكان يشتري البز حين يقدم الكوفة من ابن سيرين، وكان ابن سيرين لا يتعامل بالدرهم الحجاجية، وإذا وقع عنده درهم زيف، حبسه عنده ولم يشتريه. وكان ميمون إذا قدم الكوفة نزل على سالم البراد (كوفي ثقة) ولم يزل على الخراج حتى مات عمر بن عبد العزيز واستخلف يزيد بن عبد الملك، فكان ميمون واليه على الخراج شهرا وكان حين يزور البصرة يزور الحسن البصري. وكان أحد أربعة هم علماء الناس زمن هشام بن عبد الملك وهم: الزهري ومكحول والحسن البصري وميمون بن مهران. وسأل عبد الملك بن مروان عن فقيه أهل الجزيرة فقبل ميمون بن مهران. وكان لا يزال على صلة بأهله من الذين بقوا في اصطخر وقد أصابهم الطاعون فمات منهم سبعة عشر إنسانا وذلك في عهد عمر بن عبد العزيز عام ١٠٠هـ، ويدعى بطاعون عدي بن أرطاة. وكان يفضل عليا على عثمان حتى اقتعه عمر بن عبد العزيز بالإعتدال.

روى عن عدد من الصحابة والتابعين وروى عنه معظم من لحقه من أهل الجزيرة والرقعة والرها وحران. وظل عقبه في الرقة والجزيرة يحملون لواء الفقه والحديث من بعده وعلى رأسهم ابنه عمر بن ميمون بن مهران والميموني^(٦٦). وفي سنة ١٠٧هـ غزا معاوية بن هشام الصائفة، وعلى جيش الشام ميمون بن مهران فقطع البحر حتى عبر إلى قبرص^(٦٧).

الزهري

محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب. الإمام المعلم، حافظ زمانه أبو بكر القرشي الزهري المدني، نزيل الشام. قال عنه الليث بن سعد: ما رأيت عالما قط أجمع من ابن شهاب. خرج إلى الشام، ففرض له عبد الملك فرائض أهل بيته وجعله في ديوان الشام، وأثبتته في صحابة عبد الملك، ثم لزم الوليد عبد الملك ثم سليمان بن عبد الملك ثم عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك الذي استقضاه. ثم لزم هشام بن عبد الملك وصير هشام الزهري مع أولاده يعلمهم ويحج معهم.

وقيل أول من دون العلم وكتبه ابن شهاب (الزهري). توفي الزهري سنة أربع أو ثلاث وعشرين ومائة للهجرة (٦٨). ذكره ابن حبيب بين أشراف المعلمين (٦٩). وكان الزهري يعلم أبناء هشام بن عبد الملك (٧٠). وقد أقام الزهري بالرصافة، واسط الرقة كما في القشيري (٧١). - زمنا طويلا، وكان يتردد بينها وبين الحجاز مدة عشرين عاما (٧٢). ونشر علمه على أبناء هشام وعلى الملأ عامة. وكان مع الزهري برصافة هشام بن عبد الملك محمد بن الوليد بن عامر أبو الهذيل الزبيدي الحمصي وروى عنه (توفي ١٤٦ أو ١٤٧ أو ١٤٨ أو ١٤٩هـ) (٧٣). قال محمد بن الوليد: اقامت مع الزهري بالرصافة عشر سنين (٧٤). وممن لازمه: عبيد الله بن أبي زياد الرصافي أخو امرأة هشام ابن عبد الملك من الرضاة (٧٥). وقد عبر اليه إلى واسط الرقة، جعفر بن برقان، عبد الله بن بشر ابن التيهان، حبيب بن أبي مرزوق، العلاء بن سليمان، عبد الله بن محرر وهو منكر الحديث، وزيد ابن حبان (٧٦).

زيد بن أبي أنيسة

الإمام الحافظ، أبو اسامة الجزري الرهاوي، الفغوي، مولى آل غني بن اعصر. كان عالم الجزيرة في زمانه، وهو من طبقة شعبة ومالك، لكنه قديم الموت، توفي كهلا في أيام بني أمية وكان ثقة. حدث عنه أبو حنيفة ومالك بن أنس ومعاقل بن عبيد الله الجزري وعبيد الله بن عمرو

وآخرون. قيل أنه لم يبلغ الأربعين، مات سنة ١٢٥هـ أو ١٢٤هـ^(٧٧). وفي القشيري^(٧٨) أن عبيد الله بن عمرو الرقي (١٠١-١٨٠هـ) تقرب بذكره لدى الاعمش الذي كان يعظم زيد بن أبي أنيسة.

عبد الكريم بن مالك

الامام الحافظ، عالم الجزيرة، ابو سعيد الجزري الحراني، مولى بني امية، واصله من بلد اصطخر، تحول إلى حران. حدث عنه، شعبة وسفيان الثوري ومالك بن انس وسفيان بن عيينة وآخرون وعبيد الله بن عمرو الرقي والفراء بن سلمان ومعمّر بن راشد. كان حافظاً ثباتاً، ثقة، مات سنة ١٢٧هـ^(٧٩).

عمرو بن ميمون

ابن مهران، الامام الحافظ، ابو عبد الله الجزري الفقيه. حدث عن أبيه ميمون بن مهران وغيره وحدث عنه الثوري وابن المبارك وغيرهما. وكان يقول لو علمت أنه بقي علي حرف من السنة بأنيمن لأتيته، وكان يؤدّب بحصن مسلمة مات بالرقّة سنة ١٤٥هـ^(٨٠).

عبيد الله بن عمرو

ابن أبي الوليد، الاسدي، مولا هم الرقي، الحافظ الكبير، ابو وهب (١٠١-١٨٠هـ)، حدث عن زيد بن أبي أنيسة، وعبد الكريم بن مالك وايبوب السخيتاني والثوري وقد حدث عنه: عبد الله بن جعفر والعلاء بن هلال وعمرو بن قسيط وعلي بن معبد بن شداد وحكيم بن سيف وعلي بن الزعزاع وعبد الله بن سليم واسماعيل بن عبد الله الرقيون... وغيرهم، ثقة، صدوق. مات بالرقّة سنة ١٨٠هـ، وكان مولده سنة ١٠١هـ^(٨١). ولم يكن احد ينازعه الفتوى في حياته (تاريخ الاسلام للذهبي، وفيات سنة ١٨٠).

الميموني

الامام العلامة الحافظ الفقيه، ابو الحسن عبد الملك بن عبد الحميد بن عبد الحميد بن شيخ الجزيرة ميمون بن مهران، الميموني الرقي، تلميذ الامام احمد بن حنبل من كبار الأئمة. حدث عنه النسائي ووثقه وابو عوانة الاسفراييني وابو علي محمد بن سعيد الحراني وغيرهم. وكان عالم الرقة ومفتيها في زمانه مات سنة ٢٧٤هـ^(٨٢).

عدد الاحاديث الصحيحة

كان احمد بن حنبل يحفظ الف الف حديث، علق الإمام الذهبي بقوله: يعدون في ذلك المكرر، والاثر. وفتوى التابعي، وما فسر، ونحو ذلك وإلا فمتون الحديث المرفوعة القوية لا تبلغ عشر معشار ذلك^(٨٣) (عشر العشري واحد في المائة). ومن الجدير بالذكر بهذه المناسبة أنه حين يقال عن الحديث أنه صحيح أو ضعيف أو موضوع، فإن ذلك يراد به سند الحديث وليس منته (نصه).

جعفر بن برقان

مفتى الجزيرة ومحدثها، الامام ابو عبد الله الكلابي مولا هم الرقي. روى عن ثابت بن الحجاج وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس وفراء بن سلمان الجزري وهو من أقرانه، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري سمع منه بالرصافة، وميمون بن مهران ويزيد بن الاصم وزيد بن أبي أنيسة، روى عنه كثيرون منهم، معمّر بن راشد ووکیع بن الحراج وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وابو النعيم الفضيل بن دكين. مات سنة ١٥٤هـ^(٨٤).

عمرو بن محمد بن بكير بن سابور الناقد

هو ابو عثمان البغدادي الحافظ، سكن الرقة. روى عن... وسفيان بن عيينة هو وعبد الله بن جعفر الرقي... ومروان بن معاوية الغزاري... ووکیع بن الجراح... روى عنه البخاري ومسلم وابو داود وابن أبي شيبه وابو يعلى احمد بن علي بن المثنى الموصلي واحمد بن يحيى بن جابر البلاذري وجعفر بن محمد الضريابي... وعبد الله بن احمد بن حنبل مات سنة ٢٣٢هـ^(٨٥).

علي بن محمد بن زكريا ابو المضاء

نزير الرقة، حافظ (تاريخ الاسلام للذهبي وفيات سنة ٢٦٠هـ).

محمد بن علي بن ميمون الرقي العطار الحافظ (ت ٢٦٣هـ)

روى عن محمد بن يوسف الفريابي والقعنبي وقرأنهما قال الحاكم : كان امام أهل الجزيرة في عصره ، ثقة مأمون^(٣) (٨٦).

حفص بن عمر بن الصباح الرقي

كان مسند الرقة في وقته، توفي سنة ٢٨٠هـ (تاريخ الذهبي وفيات سنة ٢٨٠هـ).

هلال بن العلاء

ابن هلال بن عمر بن هلال، الحافظ، الامام، الصدوق، عالم الرقة، ابو عمرو الباهلي، مؤلف قتيبة بن مسلم، الأمير الرقي، الاديب. توفي سنة ٢٨٠هـ وقيل سنة ٢٨١هـ، وله شعر رائق^(٤) تقدم ذكره بين شعراء الرقة^(٨٧).

احمد بن زياد الرقي الحداد

وهو من كبار شيوخ الطبراني (تاريخ الذهبي، وفيات سنة ٢٨٧هـ).

٢- مؤلفات الرقيين في الحديث .

الحسين بن عياش (٢٠٤هـ)

الحسين بن عياش بن حازم السلمي مولا هم الجزري الباجدائي، الرقي، المحدث، الاديب، توفي بباجداء. من آثاره: كتاب في غريب الحديث^(٨٨). وكان لغويا أيضا (تاريخ الاسلام للذهبي، وفيات سنة ٢٠٤هـ).

الحسين القطان

الحسين بن عبد الله بن يزيد بن الأزرق القطان، الرقي المالكي ويعرف بالجصاص محدث، رجال مصنف. سمع بدمشق من هشام بن عمار وابراهيم بن هشام بن يحيى، والوليد بن عتبة وغيرهم^(٨٩). توفي في حدود سنة ٣١٠هـ.

احمد الرقي .

ابن أبي عبد الله بن محمد بن خالد (ت ٢٧٣هـ). من تصانيفه الكثيرة كتاب اختلاف الحديث تقدم في المؤرخون في الرقة.

٣- الفقه

١) في العهد الأموي

كان الخلفاء الأمويون يحترمون الفقهاء جدا ولا يتدخلون في شؤونهم ولا يخرجون عن نصيحهم رغم أن بعض الخلفاء كان من كبار الفقهاء، ولم يكن للخليفة فقيه كبير يجد حلا لمشاكل الخليفة. ولم يكن قد ظهر إلى العالم باب الحيل في الفقه بعكس ما حدث في العهد العباسي.

المذاهب

عندما تسلم العباسيون الخلافة واتبعوا السنة، كان من المتوقع أن يقفوا في مجال الفقه موقف أهل الحديث (كمذهب مالك مثلا) نظرا لعناية جد العباسيين عبد الله بن العباس بالحديث عناية كبيرة، ولكنهم في الواقع ايدوا مدرسة الرأي (مدرسة الاحناف) التي قامت آنذاك في العراق. ويرى البعض^(٩٠) وراء هذا الموقف دوافع سياسية، ذلك أن مالك بن انس أحل أهل المدينة من بيعتهم للمنصور فخلعوه، واضطر هذا الخليفة إلى محاربتهم حتى اذعنوا له، عند ذلك دعى المنصور ابا حنيفة (٨٠ - ١٥٠هـ) إلى بغداد وأيد مذهبه كما أن المهدي والهادي مثلا جعلوا أبا يوسف (٩٠ - ١٨٢هـ) على القضاء. وهو أحد تلامذة أبي حنيفة، وبالرغم من أن الرشيد اقام

علاقات طيبة مع مالك بن انس، وكرمه في اخر حياته الا أنه رفع ابا يوسف إلى منصب قاضي القضاة. كما كان الرشيد يقرب تلميذا آخر لأبي حنيفة هو محمد بن الحسن (ت ١٨٩هـ).

أما محمد بن ادريس الشافعي وهو الطرف الثاني في المناظرة (مع محمد بن الحسن) فقد كان في البدء تلميذاً من تلامذة مالك بن انس مؤيداً لمدرسة الحديث. وقد زار الشافعي بغداد فيما بعد والتقى بعلمائها وأنشأ مذهباً فقهياً أقرب إلى مذهب أهل الحديث منه إلى مذهب أهل الرأي ونشط نشاطاً كبيراً نشره في العالم الاسلامي مستعيناً بمهارته الفائقة في المناظرة وقوة حجته. وقد جر الشافعي، على ما يروي ابن عساكر، معظم الذين يخالفون أهل السنة إلى الدخول في نقاش معه محاولاً اما اعادتهم إلى حظيرة الجماعة أو الاقلال من شأنهم ليرفض من حولهم إلى ان لقبه المحدثون بناصر الحديث. وبناءً على ذلك حاول التأثير في الخليفة نفسه فرتب مناظرة مع محمد ابن الحسن، أحد أعلام أهل الرأي وأكثرهم صلة بهارون الرشيد. فأجتمع مع محمد بن الحسن على باب هارون الرشيد حيث يجلس وجوه الناس، وغلب الشافعي خصمه محمد بن الحسن في المناظرة فعلا شأنه ولكنه لم يؤثر مباشرة أثراً كبيراً، ولكنه بعد خمسة وثلاثين عاماً من ذلك تقرب الخليفة المتوكل من الشافعية وعين واحداً منهم هو يحيى بن اكثم لمنصب قاضي القضاة في الدولة لتطمئن الأوساط التي عانت من محنة المأمون ثم المعتصم والواثق^(٩١).

وأنكر محمد الدسوقي في كتابه عن محمد بن الحسن ونفى حدوث مثل هذه المناظرة بين الشافعي ومحمد بن الحسن، وقال ان الشافعي تتلمذ على محمد بن الحسن الذي كان يراعه وأغدق عليه من ماله ومال أصحابه، وأضاف إلى ذلك ان المناظرة لا تكون الا بين متكافئين، ولم يبلغ الشافعي مبلغ محمد في العلم منذ التقيا في الرقة سنة ١٨٤هـ إلى ان مات محمد بن الحسن. ونقل على لسان الشافعي عبارات يمدح فيها محمد بن الحسن^(٩٢).

ان انكار الدسوقي المذكور لحدوث المناظرة المشار اليها لا يستند لاي دليل وكلامه عن تقدم محمد بن الحسن على الشافعي (فريماً قال ذلك نظراً لأنه الأكبر في العمر) لا يدل على شيء يمكن الاعتماد عليه، فقد عرف عن الشافعي شدة ذكائه فقد حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين وأذن له بالفتيا في مكة وهو ابن خمس عشر^(٩٣)، وقرأ عليه الاصمعي اللغوي المشهور أشعار الهذيلين، وحياة الاصمعي (١٢٢ - ٢١٦هـ) أي ان الاصمعي كان مشهوراً باللغة والأدب وكان عمره أكبر من الشافعي بمقدار ٢٨ سنة وكان عمر الشافعي حين المناظرة عام ١٨٤هـ يصل إلى ٣٤ سنة ويصغر عن محمد بن الحسن بمقدار ١٩ سنة، أي ان الشافعي حين المناظرة كان بالتأكيد قد أكمل جميع دراساته اللغوية والفقهية ومضى على اجازته بالإفتاء في مكة ١٩ سنة. ومثل هذه المناظرات كانت كثيرة الحدوث مثل المناظرة بين الكسائي وسيبويه.

الفقه والفقهاء

في العهد الأموي

لم تكن المذاهب الفقهية قد تكونت بعد فكان العلماء يفتون حسب آراء الصحابة او حسب اجتهادهم الخاص ومن اشهرهم:

(١) في العهد الأموي

ميمون بن مهران (٩-١١٦هـ او ١١٧هـ)

الامام الحجة، عالم الجزيرة ومفتيها، ابو أيوب الجزري الرقي^(٩٤).

زيد بن ابي انيسة (٩-١٢٥هـ وقيل ١٢٤هـ)

الامام الحافظ الثبت ابو اسامة الجزري الرهاوي. كان عالم الجزيرة في زمانه^(٩٥).

عمرو بن ميمون بن مهران (٩-١٤٥هـ)

الامام الحافظ ابو عبد الله الجزري الفقيه^(٩٨).

- وحين تكونت المذاهب الفقهية انتشرت في الرقة بشكل سريع.

٢) ظهور المذاهب في العصر العباسي

قال المقدسي عن إقليم اقور: ومذاهبهم سنة وجماعة، الا عانة، فانها كثيرة المعتزلة، ولا ترى في الرأي غير مذهب أبي حنيفة والشافعي، وفيه حنابلة وحنبلية للشيعة. لم تقسم الاهواء قلوبهم ولا يتعاطى الكلام فقهاؤهم. يختارون قراءة (في القرآن) عبد الله بن عامر^(٩٩). مناظرة الشافعي مع محمد بن الحسن في الرقة^(١٠٠) تقدم ذكرها.

١) المذهب الحنفي

ابو حنيفة النعمان بن ثابت (٨٠-١٥٠هـ)

كان للإمام أبي حنيفة صلة قوية بالرقة، فقد روى الحديث عن زيد بن أبي انيسة الرهاوي^(١٠١).

وروى عن أبي حنيفة من أهل الرقة^(١٠٢):

عبيد الله بن عمرو بن أبي الوليد الاسدي مولا هم الرقي، الحافظ الكبير، ابو وهب، كان ثقة، صاحب حديث، ولم يكن احد ينازعه في الفتوى في دهره. مات بالرقة سنة ١٨٠هـ، وكان مولده في سنة ١٠١هـ^(١٠٣).

سابق الرقي: روى نسخة عن أبي حنيفة رواها عنه عبيد الله بن يزيد بن سنان الرهاوي^(١٠٤)

ومن جهة اخرى فقد كان حماد بن الامام أبي حنيفة (ت ١٧٦هـ) في الرقة^(١٠٥).

وعمل تلاميذ أبي حنيفة وعلى رأسهم القاضي ابو يوسف والقاضي محمد بن الحسن، اللذان كانا في الرقة في عهد الرشيد، على نشر مذهب أبي حنيفة وهو مذهب الكوفيين كما كان يسمى حينئذ.

وممن تتلمذ على محمد بن الحسن:

- الحسن بن حرب: الذي صار قاضيا في الرقة.

- علي بن معبد بن شداد: الحافظ الفقيه ابو الحسن، أو ابو محمد، العبيدي الرقي، نزيل

مصر من كبار الأئمة روى عن محمد بن الحسن كتاب 'الجامع الكبير' وكتاب 'الجامع الصغير' توفي بمصر في رمضان سنة ٢١٨هـ^(١٠٦).

وقد اشار القشيري إلى اصحاب محمد بن الحسن بالرقة^(١٠٧).

ذكر الكردي بين من روى الحديث والفقه عن أبي حنيفة من أهل الرقة: مروان بن شجاع الجزري

الرقي، عثمان بن سابق، عبيد الله بن عمرو الجزري الرقي 'تقدم، طعمة بن زيد الرقي، كثير بن هشام

الرقي، فياض بن محمد الرقي، سعيد بن مسلمة بن هشام بن عبد الملك بن مروان الرقي^(١٠٨).

٢) المذهب الشافعي

الامام الشافعي محمد بن ادريس ابو عبد الله (١٠٥-٢٠٤هـ)، كان بدوره في الرقة في عهد

الرشيد وفيها ناظر محمد بن الحسن^(١٠٩). وكان في الرقة أيضا ابنه: محمد بن الامام الشافعي

محمد ابن ادريس، الشيخ ابو عثمان القاضي (٩-٢٤٠هـ) في الجزيرة، وهو اكبر اولاد الامام

الشافعي. ولي القضاة بالجزيرة وأعمالها وحدث فيها، وللجزريين عنه رواية^(١١٠). ويظهر مما

أورده البغدادي أنه روى عنه: عبد الملك بن عبد الحميد الميموني من أهل الرقة، ونعمان بن مدرك

الرسعني. وان ابا عثمان الشافعي كان يملئ برأس العين.

وكان سهل بن عبد الله اول من حمل علم الشافعي في الرقة وصبر على أذية الأحناف^(١١١)

ومن الشافعية في الرقة: ابو إسحاق ابراهيم بن احمد (أو محمد) ابن المولد: روى عن تلاميذ

الربيع بن سليمان عن الامام الشافعي (سيرد في الصوفية). الفقيه ابو القاسم عبيد الله بن احمد بن

عبد الأعلى بن محمد بن مروان الرقي يعرف بابن الحراني الفقيه الشافعي (٣٦٤-٤٤٣هـ)^(١١٢).

٣) المذهب المالكي

روى الامام مالك بن انس عن: زيد بن أبي انيسة من الرها، وعبد الكريم بن مالك الجزري،

وروى عنه موسى بن عيسى الجزري ومن اتباع مالك ممن وجدوا في الرقة.

زكريا بن منظور بن عقبة بن ثعلبة بن أبي مالك ، أبو يحيى القرظي المدني القاضي . ولي القضاء فقضى على حماد البربري ونقله هارون لذلك إلى الرقة^(١١٣).
هارون بن عبد الله بن محمد بن كثير بن معن بن عبد الرحمن بن عوف ، أبو يحيى الزهري المدني من الفقهاء وأصحاب مالك . وكان متأدياً شاعراً ولاء المأمون قضاء المصيصة ثم صرفه عنها وولاه قضاء الرقة ثم صرفه عنها ، وولاه قضاء عسكر المهدي ببغداد ثم صرفه ، وولاه قضاء مصر (٢١٧-٢٢٦هـ)^(١١٤) حتى صرف عنها في آخر خلافة بالمعتصم^(١١٥).
الحسين القطان ، هو الحسين بن عبد الله بن يزيد بن الأزرق القطان الرقي المالكي ويعرف بالجنصاص : محدث^(١١٦) رحال ، مصنف (راجع القشيري) .

٤) المذهب الحنبلي

الامام احمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ)

طلب الحديث في بغداد سنة ١٧٩هـ ، وخرج إلى سفيان بن عيينة عام ١٨٧هـ ، وهي أول سنة حج فيها ابن حنبل وكان الفضيل بن عياض قد مات . واتي ابن حنبل في هذه الرحلة حران فكتب عن محمد بن سلمة (ت ١٩١هـ) ، ثم اتى الرقة فكتب عن فياض بن محمد بن سنان الرقي (مات بعد المائةين) ، والتقى معمر بن سليمان النخعي الرقي (مات ١٩١هـ) ، ثم اتى الرقة مرة أخرى^(١١٧) وروى عن كثير بن هشام الكلابي أبي سهل الرقي نزيل ببغداد (ت ٢٠٧ أو ٢٠٨هـ)^(١١٨) . وعن عثمان بن القطفاني او الكلابي أبي عمرو القاضي البصري الأصل^(١١٩) وعن خالد ابن حيان الرقي (٤ - ١٩١هـ)^(١٢٠) .
وخرج ابن حنبل وعدل ومدح وأرخ طائفة من محدثي الرقة كما في القشيري : ميمون بن مهران ، جعفر بن برقان ، أبو المليح ، أبو المهاجر سالم بن عبد الله الرقي ، فرات بن سلمان ، فرات ابن السائب ، محمد بن زياد الطحان ، معمر بن سليمان النخعي ، عثمان بن عثمان ، فياض ابن محمد ابن سنان الرقي .
وفي طليعة اصحاب ابن حنبل في الرقة

الميموني : الامام العلامة ، الحافظ ، الفقيه ، ابو الحسن عبد الملك بن عبد الحميد بن شيخ الجزيرة ميمون بن مهران ، الميموني الرقي تلميذ الامام احمد ومن كبار الأئمة (ت ٢٧٤هـ وهو في عشر المائة) ، ومن بين المحدثين عنه : ابو علي محمد بن سعيد الحراني القشيري مؤلف كتاب تاريخ الرقة . كان الميموني عالم الرقة ومفتيها في زمانه^(١٢١) . وكان احمد بن حنبل يكرمه وصحبه عبد الملك على الملازمة من سنة ٢٠٥ إلى ٢٢٧هـ ، وكان بعد ذلك يخرج ويقدم عليه الوقت بعد الوقت ... وعنده عن أبي عبد الله احمد بن حنبل مسائل في ستة عشر جزءاً . وكان ابن حنبل يسأله عن أخباره ومعاشه ويحثه على إصلاح معيشته ويعنى به عناية شديدة^(١٢٢) .

هلال بن العلاء بن هلال الباهلي الرقي ابو عمرو

من بين أفراد الطبقة الأولى الذين رواوا عن احمد بن حنبل من أهل الرقة كما في طبقات ابن أبي يعلى^(١٢٣) .

احمد بن يحيى بن حيان الرقي^(١٢٤)

اسماعيل بن إسحاق بن الحصين بن بنت معمر بن سليمان ، ابو محمد الرقي^(١٢٥) . سكن بغداد ومات سنة ٣٠٥ وقيل ٣٠٦هـ .

صالح بن علي النوفلي من آل ميمون بن مهران^(١٢٦) . كان مقدماً على أهل حلب .
عبد الله بن محمد الفقيه المروزي الأصل والرقي البلد^(١٢٧) . حافظ للفقه ، بصير باختلاف الفقهاء ، جليل القدر ، عالم باحمد بن حنبل ، عنده عنه مسائل كبار لم يشركه فيها احد .

٥) المذهب الظاهري

مذهب داوود وهو ابوسليمان داوود بن علي بن داوود بن خلف الاصبهاني . وهو أول من استعمل قول الظاهر وأخذ بالكتاب والسنة ، والغى ماسوى ذلك من الرأي والقياس^(١٢٨) . ومن اتباعه في الرقة .

ابو سعيد الرقي

من علماء مذهب داوود . وله من الكتب 'كتاب الاصول' ويشتمل على مائة كتاب، على مثال كتاب داوود، و كتاب شرح الموضع^(١٢٩).

٣- الزهد والتصوف

معروف ان الرقة اسست مدرسة في الزهد من الصحابة والتابعين الذين هاجروا اليها مع بداية هذا القرن (الاول الهجري)، منهم: ميمون بن مهران وكان ثقة كثير الحديث، وكان عمر بن عبد العزيز ينظر اليه نظرة لها وقارها واحترامها . وعلى مكانة ميمون هذا فقد كان يطلب الموعدة أيضا من الحسن البصري.

وسابق بن عبد الله البربري الرقي، وهو مما لا شك فيه قد نقل حركة الزهد من الشام إلى الرقة . والعلاقة بين الشام والرقة قديمة ووثيقة فقد ازدهرت في أيام بني أمية، وكان عمر بن عبد العزيز لا يزال يوالي الرقة بألطفه ومساعداته، ولهذا لا نستغرب ان يكون اتجاه الزهد في الرقة هو نفسه في الشام^(١٣٠).

- ميمون بن مهران \، ابو ايوب (٤٠-١١٧هـ) اعتبره ابن الجوزي في صفة الصفوة من المصطفين من أهل الرقة^(١٣١).

- احمد بن محمد ابو الحسن النوري \، شيخ الصوفية البغدادي قدم الرقة وله فيها مريدون (مات ٢٩٥هـ)^(١٣٢).

- حنان القلاء: كان في الرقة يجلس في السوق وبين يديه زنبيل سويق للبيع، وعلى رأسه قلنسوة سوداء مخرقة وبين يديه صبيان يلعبان ويقتتلان^(١٣٣)، ويظهر من رواياته أنه عاش في القرن الثاني الهجري.

- توبة بن الصمة^(١٣٤): ويظهر من رواياته أنه عاش في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجريين.

- إبراهيم الفصار: وهو إبراهيم بن داوود الرقي ابو إسحاق من جل مشايخ الشام من أقران الجنيد وابن الجلاء الا أنه عمر وصحبه أكثر مشايخ الشام. وكان ملازماً للفقر مجرداً فيه محباً لأهله توفي سنة ٣٢٦هـ^(١٣٥).

- ابو إسحاق إبراهيم بن احمد (او محمد) بن المولد. من كبار مشايخ الرقة وفتيانهم صحب ابا عبد الله بن الجلاء الدمشقي وإبراهيم بن داوود الفصار الرقي. وكان من أفتى المشايخ واحسنهم سيرة^(٧). قال عنه في العبر: الزاهد الواعظ شيخ الصوفية، أخذ من الجنيد وجماعة وحدث عن عبد الله بن جابر المصيبي مات سنة ٣٤٢هـ^(١٣٦).

- احمد بن محمد ابو الحسين النوري الزاهد شيخ الصوفية^(١٣٧).

- أبان بن سيار الرقي: عن عمران بن علي الرقي، قال: كان أبان رئيس القراء والفقراء بالرقة، فأكل الذئب ابناً له وكان وحيداً، وكان مشغولاً به، ولم يتمالك نفسه وهام على وجهه، فغاب ملياً ثم عاد وقد برم بالناس فجئ^(١٣٨) ويظهر ان أبان هذا عاش في القرن الثالث الهجري.

- احمد بن علي بن مهدي الرقي: أنظر قائمة المحدثين.

- ابواحمد بن الدقم الرقي: من الصالحين وأرباب الكرامات. صحب ابا الحسن بن سمعون البغدادي ومن قبله (فهو سابق على الحافظ أبي طاهر احمد بن محمد بن احمد السلفي)^(١٣٩).

- ابو الحسين محمد بن احمد الرقي الصوفي: معاصر لأبي العلاء والمعري (عاش المعري ٣٦٣-٤٤٩هـ)^(١٤٠).

- عمر بن محمد بن حيفر ابو الفرج الرقي الصوفي (تاريخ الاسلام للذهبي، وفيات سنة ٤٢١هـ).

- محمد بن إبراهيم بن أبي الشيخ الرقي الصوفي: روى عن احمد بن سليمان الحنبلي^(١٤١).

- ابو بكر محمد بن داوود الدينوري الصوفي المعروف بالرقي هو من مشاهير مشايخهم. قيل مات سنة ٣٦٢هـ^(١٤٢).

- حبيب بن أبي مرزوق: القشيري^(١٤٣).
- صالح بن مسمار: القشيري^(١٤٤).
- إبراهيم بن محمد بن نيهان بن محرز أبو إسحاق الفنوي الرقي الصوفي الشافعي، ولد سنة ٤٥٩هـ (تاريخ الاسلام، الذهبي وفيات ٥٤١-٥٥٠).

٤- الفرق الإسلامية

روى جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران: وأن الناس افترقوا عن قتله (قتل عثمان بن عفان) على أربع فرق، ثم فصل منهم صنف آخر فصاروا خمسة أصناف: شيعة عثمان، وشيعة علي، والمرجئة، ومن لزم الجماعة. ثم خرجت الخوارج بعد ذلك حين حكم علي الحكمين، فصاروا خمسة أصناف.

١- فأما شيعة عثمان فأهل الشام وأهل البصرة. قال أهل البصرة: ليس أحد أولى بطلب دم عثمان من طلحة والزبير لأنهما من أهل الشورى. وقال أهل الشام: ليس أحد أولى بطلب دم عثمان من أسرة عثمان وقربائه، ولا أقوى على ذلك - يعنون معاوية - وأنهم جميعاً برؤوا من علي وشيعته.

٢- وأما شيعة علي فهم أهل الكوفة.

٣- وأما المرجئة فهم الشكاك الذين شكوا. وكانوا في المغازي، فلما قدموا المدينة بعد قتل عثمان، وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد ليس فيهم اختلاف، فقالوا: تركناكم وأمركم واحد ليس فيكم اختلاف. وقدمننا عليكم وأنتم مختلفون، فبعضكم يقول: قتل عثمان مظلوماً، وكان أولى بالعدل وأصحابه، وبعضكم يقول: كان علي أولى بالحق، وأصحابه كلهم ثقة وعندنا مصدق، فنحن لا نتبرأ منهما، ولا نلعنهما، ولا نشهد عليهما ونرجئ أمرهما إلى الله، حتى يكون الله هو الذي يحكم بينهما^(١٤٥).

٤- وأما من لزم الجماعة، فمنهم: سعد بن أبي وقاص، وأيوب الأنصاري، وعبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد. في أكثر من عشرة آلاف من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان، قالوا جميعاً: نتولى عثمان وعلياً ولا نتبرأ منهما، ونشهد عليهما وعلى شيعتهما بالإيمان، ونرجو لهم، ونخاف عليهم.

٥- وأما الصنف الخامس فهم الحرورية (الخوارج)، قالوا: نشهد على المرجئة بالصواب حيث قالوا: لا نتولى علياً ولا عثماناً ثم كفروا بعد حيث لم يتبرؤوا. ونشهد على أهل الجماعة بالكفر.

قال ميمون بن مهران: وكان هذا أول ما وقع الاختلاف، وقد بلغوا أكثر من سبعين صنفاً^(١٤٦)

ويذكر الذهبي اختلاف الناس في الصدر الأول بعد وقعة صفين إلى:

١- **أهل سنة:** وهم أولو العلم وهم محبوبون للصحابة كافون عن الخوض فيما شجر بينهم (هم من لزم الجماعة فيما تقدم).

٢- **شيعة علي:** يتوالون وينالون ممن حاربوا علياً ويقولون أنهم مسلمون بغاة ظلمة، عن عبدة بن كثير السراج الجرمي، قال: قدم يزيد بن أبي زياد، مولى بني هاشم، صاحب عبد الرحمن بن أبي ليلى الرقة، يدعوا الناس إلى بيعة زيد بن علي، وكان من دعاة زيد بن علي زين العابدين، وأجابه ناس من أهل الرقة، وكنت فيمن أجابه (قتل زيد بن علي سنة ١٢٢) (مقاتل الطالبين ١٤٠).

٣- نواصب (شيعة عثمان) وهم الذين حاربوا علياً يوم صفين، ويقرون بإسلام علي وسابقه ويقولون: ((خذل الخليفة عثمان...)) ثم يعقب الذهبي على ما تقدم فيقول: فما علمت في ذلك الزمان شيعياً كفر معاوية وحزبه، ولا ناصبياً كفر علي وحزبه، بل دخلوا في سب وبغض، ثم صار اليوم شيعة زماننا يكفرون الصحابة، ويتبرؤون منهم جهلاً وعدواناً، ويتعدون إلى الصديق^(١٤٧).

المرجئة

توسط المرجئة بين بقية الأحزاب، فكان الخوارج مثلاً يكفرون الناس بالذنوب، أما المرجئة فلا يكفرونهم، بل يرجون لأهل الكبائر الغفران. كان هذا في البدء، ثم تطوروا فيما بعد إلى القول بأن الإيمان قول بلا عمل، وأن ترك العمل لا يضر بالإيمان، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص^(١٤٨) وذلك كي يخالفوا الخوارج، الذين يجعلون العمل جزءاً من الإيمان ولا

يفصلون بينهما، ويكفرون عليا وعثمان واصحاب الجمل والحكمين. ولما خاض المرجئة في مسألة الإيجاب والاختيار في الأعمال انقسموا إلى ثلاث فرق:

- فرقة ظلت على أرجائها الخالص.

- وفرقة قالت بالارزاء في الإيمان والارزاء في الأعمال.

- وفرقة قالت بالارزاء في الإيمان والاختيار في الأعمال، وهؤلاء هم القدرية^(١٤٨).

والمرجئة في الأصل كانوا يوادعون الأمويين ويعترفون بخلافتهم. أما القدرية فتقول بحرية الإرادة الإنسانية وتتقد الأمويين وتأخذ عليهم استبدادهم بأمر المسلمين ومخالفتهم للسنة. وركوبهم للضلالة، ومنهم معبد الجهني الذي قتله الحجاج لانضمامه إلى الخوارج أو لذندقته (الموسوعة الإسلامية الميسرة). وقد قال زعيمهم غيلان الدمشقي (الذي أعدمه هشام بن عبد الملك) بنفي الصفات، وخلق القرآن وأن العبد يصنع أفعاله. وبذلك سبق المعتزلة إلى هذه الأقوال^(١٤٩) وكان من القدرية المعتدلين مكحول^(١٥١).

وكان ميمون بن مهران عالم الرقة والجزيرة قد ناظر غيلان في آرائه لدى هشام بن عبد الملك^(١٥٢). ويبدو مما يقوله القشيري أن الأحناف من اصحاب محمد بن الحسن في الرقة كانوا يقولون بنفي الصفات. وقد ناظر احمد بن حنبل واحدا منهم في الرقة عند معمر بن سليمان وذلك سنة ١٨٧هـ^(١٥٣). وبسبب قول حماد بن أبي حنيفة بالإرجاء وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص (أي أنه قول بلا عمل) رد القاضي شريك بن عبد الله القاضي الكوفي شهادته وقال له: أنت وأبوك تزعمان أن إيمان شر أهل الأرض كإيمان خير أهل السماء^(١٥٤). وهذا يفسر ماورد في القشيري عن علي بن العوام الرقي، قال: كنت عند الخليل بن مرة في حانوته، فجاء رجل فدخل عليه، فقال: من أنت؟ قال: حماد بن أبي حنيفة. فقام وتركه^(١٥٥). ونقل القشيري حديثا عن الإرجاء^(١٥٦).

الإرجاء

١- يطلقه المعتزلة القائلون بتخليد صاحب الكبيرة في النار، على أهل السنة والجماعة، لأنهم لا يقطعون بعقاب الفساق الذين يرتكبون الكبائر، ويفوضون أمرهم إلى الله أن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم.

٢- ويطلقه المحدثون على من لا يقول بزيادة الإيمان ونقصانه، ولا يقول بدخول العمل بحقيقة الإيمان ومسماه وهو مذهب أبي حنيفة والجلّة من العلماء. وهم يعتقدون بالأعمال، ويحضون عليها، ويفسقون من ضيع شيئا منها، ويرجئون أمر العصاة الذين يرتكبون الكبائر إلى الله، أن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم.

٣- ويطلقه الجمهور على « الطائفة » المذمومة المتهمة في دينها التي تقول: الإيمان هو المعرفة، وما سوى الإيمان من الطاعات وما سوى الكفر من المعاصي غير ضارة ولا نافعة. ومن كان من هذا القبيل فهو مرفوض الرواية ولا كرامة^(١٥٧).

وكان سلم بن سالم البلخي مرجئا خفيفا في الحديث لكنه كان صارما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكانت له رئاسة بخراسان، فبعث إليه هارون الرشيد، فأقدمه عليه فحبسه^(١٥٨).

الجهمية

ويذكر أن الرقة كانت مقرا لجعد بن درهم في مطلع حياته، فقد انتقل إليها من الكوفة، وفيها اتصل بمحمد بن مروان فكان معلمه ومؤدبا لولده مروان. وكان يقول بالجبرية أي: أن الإيمان على نمط واحد، وأن الإنسان مسير غير مخير، عاجز عن خلق أفعاله، وأن القرآن مخلوق، محدث، غير قديم، وينفي الصفات، إذ يزعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليما (يعطل الجزاء ويلغي المسؤولية). وقد قتله خالد بن عبد الله القسري سنة أربع وعشرين ومائة^(١٥٩). وكان له أنصار في الرقة^(١٦٠).

الاباضية

فرقة من معتدلي الخوارج تنسب إلى عبد الله بن اباض الذي عرف في النصف الثاني من القرن الاول الهجري، وعاصر عبد الملك بن مروان. عمرت الاباضية طويلا حتى اليوم. والاباضية لا تقول بكفر من لم يكن خارجيا ولا بشركه وتبيح الزواج من غير الخوارج. وترى ضرورة وجود الامامة وتجعلها في صلب مذهبها والائمة معصومون مقدسون (الموسوعة العربية الميسرة). وفي تاريخ الرقة للقشيري فقرة ١٢٣: قدم عطاء بن مسلم الخفاف الرقة، فجلس في سوق الاحد وذكر فضل علي بن أبي طالب كما نصحه سفيان الثوري، ثم زار جعفر بن برقان فنصحه اذا جلس مجلسا فذكر رجلا من اصحاب النبي، ﷺ، بفضله فليشرك معه غيره، فان الاباضية في الرقة كثير. وهناك أيضا نزاعات عشائرية ونزاعات مذهبية بين الشوافعة والاحناف كما تقدم الكلام عن سهل بن عبد الله اول من حمل علم الشافعي في الرقة، وكمثال على تلك النزاعات العشائرية، مقتل عبد العزيز ابو الوئيد الجحاف السلمي في متين من بني سليم وهو ازن وعقيل، ولكن كل هذه النزاعات لا تقارن بالنزاعات في بغداد مثلا.

وذكر القشيري ان الاباضية (من الخوارج) بالرقة كثيرون، وأنهم يكرهون علي بن أبي طالب (١٦١) والمعروف ان الفرقة الاباضية المدعوة الحفصية هي التي تكره علي بن أبي طالب، وأمامهم حفص بن أبي المقدام، ويزعم ان من عرف الله سبحانه وتعالى ثم كفر بأي شيء، فهو كافر برئ من الشرك، وان عليا هو الذي انزل فيه من الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فيه قلبه وهو الد الخصام (١٦٢). وان عبد الرحمن بن ملجم (قاتل علي) هو الذي انزل فيه ومن الناس من يشتري نفسه ابتغاء مرضاة الله (١٦٣)(١٦٤).

الرافضة

ومن الرافضة الامامية المعروفين في الرقة الشاعر منصور النمري (١٦٥) اغواه داوود الرقي الرافضي عند سارية داوود في المسجد وورد اسم: معدان الاعمى وهو ابو السري الشميطي من أهل المازج (بالجيم) صححه عبد اللام هارون في نفس كتاب الجاحظ ص ٣٦٩ إلى 'الملاحين' (من الرقة) (١٦٦). والشميطي: نسبة إلى ((الشميطة)). وهي فرقة من الشيعة الامامية الرافضية، تنتمي إلى أحمر ابن شميظ صاحب المختار بن عبيد. وقد قتلها مصعب بن الزبير (١٦٧).

وكان في الرافضة الحسن بن مسعود، ابو محمد الرافقي الشيخ المعمر الشيعي، العارف بمذاهب القوم. ذكر الكراجكي أنه اجتمع به بالرافقة، ورأى له حلقة عظيمة يقرؤون عليه مذهب الامامية. وكان بصيرا بالاصول، يذكر أنه قرأ على الشيخ المفيد، ولقي القاضي عبد الجبار. مات وقد نيف على المائة (تاريخ الاسلام للذهبي، وفيات ٤٨١-٤٩٠).

الرافضة او الروافض

لقب اطلقه زيد بن علي بن الحسين، على الذين تفرقوا عنه ممن بايعوه بالكوفة، لانكاره عليهم الطعن في أبي بكر وعمر، ومن أهل السنة من يطلق الوصف على الشيعة عموما باستثناء الزيدية (الموسوعة العربية الميسرة).

المعتزلة

تقول المعتزلة بان مرتكب الكبيرة ليس كافرا ولا مؤمنا بل في منزلة بين المنزلتين. وامتازت المعتزلة بحرية الفكر، والاعتدال بالعقل وقوة الحجة. واشتهروا أنهم أهل العدل (أي ان الله عادل وأنه يثيب الانسان ويعاقبه بحسب عمله الذي يخلقه الانسان بقدرته وارادته) وبذلك يردون على مذهب الجبرية وخاصة مذهب الجهمية) والتوحيد (أي ينفون ان يكون له صفات ازلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر، بل الله عالم وقادر وحي وسميع وبصير وبذاته الواحدة التي لا كثرة فيها ولا تعدد ولا صفات زائدة عليها، وبذلك ابطال المعتزلة مذهب الشنوية عند الفرس الذين يقولون بمبدأ النوم

والمظلمة، ومذهب المسببة الذين يأخذون بعض آيات القرآن على ظاهرها فيشبهون الله بالإنسان). ويقولون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنه فرض على كل مسلم ولو بالقلب.

الزيدية

شيعة تنسب إلى زيد بن علي بن الحسين وتقابل الامامية، ولكن الزيدية اقرب إلى أهل السنة، فالامامية أكثر تطرفا. والزيدية والامامية اكبر فرق الشيعة ولا تزالا باقيتين حتى اليوم (الموسوعة العربية الميسرة).

السنة او الجماعة

وترى السنة او الجماعة وجوب طاعة السلطان، كما عبر عنه بعض الصحابة في وقت مبكر. اذ قال: عبد الله بن عمر: لا أقاتل في الفتنة، واصلي وراء من غلب^(١٧٨)، وقوله حين بايع يزيد بن معاوية: إن كان خيرا رضينا، وإن كان بلاءا صبرنا. وقول قبيصة بن ذؤيب لعبد الملك ابن مروان حين ضرب سعيد بن المسيب لعدم مبايعته: ما سعيد ممن يخاف فتقه ولا غوائله على الاسلام وأهله، وأنه لمن الجماعة والسنة^(١٧٩).

وقد عبر عن مذهب الجماعة، في القرن الثاني، سفيان الثوري، اذ قال: القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود من قال غير هذا فهو كافر. والإيمان قول وعمل ونية، يزيد وينقص، وتقدمة الشيخين (يقصد ابا بكر وعمر) يا شعيب لا ينفعك ما كتبت حتى ترى المسح على الخفين، وحتى ترى ان اخفاء بسم الله الرحمن الرحيم افضل من الجهر به، وحتى تؤمن بالقدر وحتى ترى الصلاة خلف كل برو فاجر، والجهاد ماض إلى يوم القيامة، والصبر تحت لواء السلطان جار او عدل^(١٨٠) وقريب من ذلك كلمة لمحمد بن عكاشة أبي عبد الله الكرمانى (مات بعد ٢٢٥هـ)^(١٨١).

والسبب في التأكيد على المسح على الخفين ما قاله ابن المنذر: اختلف العلماء ايهما افضل: المسح على الخفين او نزعهما وغسل القدمين؟ والذي اختاره ان المسح افضل لأجل من طعن فيه من أهل البدع من الخوارج والروافض^(١٨٢). وقال ابو وهب العابد: قل من لا يرى المسح على الخفين الا ناقص العقل^(١٨٣) وفي ابن سعد: من رغب عن المسح فقد رغب عن السنة^(١٨٤).

وفي سنة ٣١٨هـ خرج خارجي من بجيلة من أهل البوازيج اسمه: صالح بن محمود، وعبر إلى البرية. وخطب بسنجان ومما قاله: 'تتولى الشيخين، ونبرأ من الخبيثين، ولا نرى المسح على الخفين'^(١٨٥). وكان يحيى بن عبد الله لا يرى المسح على الخفين^(١٨٦).

التعايش

وكانت الخلافات لا تمنع من ان يتعايش معظم الناس. فمثلا كان لمسلم بن أبي الجعد ستة بنين: فكان اثنان منهم متشيعان، واثنان مرجئان، واثنان يريان رأي الخوارج. فقال: كان ابوهم يقول لهم: لقد خالف الله بينكم^(١٨٧).

وكان في شلل الأصحاب من يحب عليا ومن يحب عثمان، ومع ذلك يتعايشون دون نقاش^(١٨٨)

العدل عند الخوارج

ضرب المثل بالعدل عند الخوارج اذ ذكر عن أبي حاتم عنيسة بن إسحاق (من قواد بني العباس من أهل البصرة، وكان واليا على الرقة زمن المأمون)^(١٨٩). ان المنتصر (وكان ولي العهد لأبيه المتوكل) ولاه مصر ولم يل مصر لبني العباس مثله، وكان من اعدل الناس، وكان يتهم بمذهب الخوارج لشدة عدله وتحريره للحق، وهو آخر عربي ولي مصر وآخر أمير صلى بالناس وخطب^(١٩٠).

ه- الوراقة والوراقون

لم يمكن انتشار العلم على نطاق واسع الا بواسطة الكتابة. ولم تكن مواد الكتابة في متناول الجميع، وذلك بسبب ارتفاع قيمتها وقلة توفرها. فكان الاحداث يكتبون على قطع الخزف^(١) (الخزف: الأجر، وكل ما عمل من طين وشوي حتى يكون فخارا) وعلى الأكتاف لقلة القراطيس^(٢). (أكتاف الجمال مفردة كتف: عظم عريض خلف المنكب) وعلى ألواح الأبنوس^(٣). وأحيانا على ما تيسر

من الجلد الغليظ^(٤). وكان الامام الشافعي يكتب على الاكتاف والخرف والكرب^(٥). (كرب النخل: اصول السعف الغلاظ العراض من أي اعضاء النخلة). والقرطاس جمعه قراطيس وهي الصحف، يتخذ من بردي يكون بمصر^(٦). وعرف استعمال القراطيس في جزيرة العرب قبل ظهور الاسلام.

كانت القراطيس تصنع من ساق البردي، اذ تقسم إلى شرائح طويلة، ثم ترص عليها شرائح أفقية، وتغطى بشيء ثقيل فتلتصق بها في البردي من مادة صمغية، ثم تطرق وتصفق، ثم تلتصق القطعة بالقطعة حتى تصبح لفافة طويلة. ويكتب على أوراق البردي من وجه واحد وهو الوجه الذي تكون فيه الالياف افقيه لتساعد القلم على المضي في الكتابة.

بقي ورق البردي او القراطيس المادة الرئيسية في الكتابة طول العصر الأموي وخلال الفترة الاولى من العصر العباسي. وكانت أوراق البردي على شكل لفائف، ولم يتحول الكتاب العربي من اللفافة إلى الشكل الدفتری الا في زمن أبي العباس السفاح^(٧).

وقد امر عمر بن عبد العزيز في خلافته بالاعتقاد في استعمال القراطيس. وكانت كتبه لا تتجاوز الشبر^(٨). أما الورق او الكاغد فهو اختراع صيني منذ القرن الثاني للميلاد ثم نقل صناعته أهل سمرقند في اواخر الدولة الأموية، ثم انشأت صناعته في بغداد في عهد الرشيد كما صنع في بلاد اسلامية أخرى. وينسب إلى الرها: الورق الجيد من ورق المصاحف^(٩). ويصنع الكاغد (أو الورق النباتي) من القنب والحبال البالية التي تقتل منه^(١٠).

وفي القشيري: واخرج الينا القراطيس... فكتبنا منها أوراقا^(١١).

والفضل بن يحيى البرمكي هو اول من اشار بصناعة الكاغد وصنعه، وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه، واتخذ الناس من بعده صحفا لمكتوباتهم السلطانية والعلمية (ابن خلدون: المقدمة ص ٤٢١-٤٢٢) وكان خالد بن برمك اول من جعل الحساب في دفاتر، وكان قبل ذلك في ادراج من كاغد ورق (القليشندي صبح الأعش ١ / ٤٢٣).

حدث التغير الجذري من البردي إلى الكاغد في اخر القرن الثامن مع جعفر البرمكي الذي ادخل استعمال الورق في الدواوين الرسمية. واسباب هذا التجديد، تعود إلى تدني كلفة هذه المادة وخصوصا إلى عدم امكانية محو كلمة او غسل ورقة بغير اثر باق وهو مما يسمح به البردي او الرق. فمع الورق أصبح المستند صحيحا وموثوقا به اما المداد المستعمل، فكان اجوده الصيني، ثم المداد الاسود الذي يصنع في بلاد فارس وقد سبق العرب والمسلمون الغرب إلى صناعة الورق واستعماله بحوالي خمسة قرون انتقلت هذه الصناعة إلى الغرب في القرن الثالث عشر. (الحضارة العباسية - الخازن ٧٦) والذين لا يكتبون الكتب بخطهم يشترونها جاهزة من الوراقين او يوصونهم بكتابتها، ثم يقابلونها على الاصول ويقرؤونها على الشيخ الذي يسجل على نسخهم أنها قرئت عليه و اجاز لهم روايتها بموجب سماعة اباها على فلان ثم فلان... إلى ان تصل السلسلة إلى المؤلف وهذا من شأنه ان يضمن ان مثل هذا الكتاب صحيح نسبته إلى المؤلف المنسوب اليه، وأنه خال من التحريف لا سيما أنه مكتوب بخط اليد وعلى يد النساخ.

والوراقون يقابلهم اليوم اصحاب المكاتب، وكان لهم دكاكين يعرضون فيها الكتب ويبيعونها او ينسخونها، وبعض الوراقين عمل في النسخ في المكتبات العامة، مثل علان بن الوراق الذي كان ينسخ في بيت الحكمة^(١٢). او لدى الأمراء كابن البواب وكان اصله مزوقا^(١٣). وكالوراقين عند جعفر ابن الفضل بن خنزابة اذ كان في خزائنه عدة من الوراقين^(١٤). وقد دفع الامام الشافعي مئة دينار ليجمع الوراقين على كتب محمد بن الحسن لينسخوها له^(١٥). واجر الناسخ زهيد نسبيا، ولكنه يرتفع اذا كان الكاتب من العلماء الموثوقين، اذ كان السيرافي ينسخ عشر ورقات يوميا يأخذ

عشرها عشرة دراهم يعيش عليها، أو كان الكاتب قد احتكر نسخ هذه الكتاب وكان أبو العباس الاحول يكتب كل مائة ورقة بعشرين درهماً^(١٦)

فالذين احتكروا كتب القراء كتبوا كل خمسة أوراق بدرهم^(١٧) وكذلك الذي احتكر كتابة كتاب المغازي يونس بن بكر بروايته^(١٨) وكسب الحسن بن شيان الكعبري (وهو متأخر مات سنة ٤٢٨هـ) خمسة وعشرين ألف درهم من كتابة ديوان المتنبّي وكتب الادب المطلوبة^(١٩) والظاهر أن رواجها هو السبب في ذلك وقد باع تلميذ كتبه بثلاثين دينار ليحج بها وعليها سماع^(٢٠).

واهدى الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك الزيات هدية نفيسة هي كتاب سيبويه بخط الكسائي وعرض القراء^(٢١) وكان يحيى بن عدي المنطقي تلميذ الفارابي وهو من النصارى يعقوبية في القرن الرابع قد نسخ نسختين من تفسير القرآن للطبري وحملها إلى ملوك الاطراف^(٢٢).

وللوراقين باع وافر في التأليف، وقد ألف وراق إسحاق بن ابراهيم الموصلّي وشريك له 'كتاب الاغانى الكبير' ونحله لإسحاق^(٢٣)، وكانت الاسمار والخرافات مرغوبا فيها ومشتهاة في أيام خلفاء بني العباس ولا سيما في أيام المقتدر، فصنف الوراقون وكذبوا، فكان ممن يفتعل ذلك رجل يعرف بابن دلان وآخر يعرف بابن العطار وجماعة^(٢٤).

وكان السري الرفاء ينسخ ديوان شعر كشاجم ويدس به شعر الخالدين ليدعي عليهما السرقة ويزيد حجم الديوان^(٢٥).

ويستحق ابن النديم (الوراق) تحية وتكريما خاصين على كتابه البليوغرافي 'الفهرست' على ما أظهر فيه من إحاطة بموضوعه وسعة اطلاع، وتجرد وانصاف، بحيث يمكن أن نعتبره ممثلا للحضارة العربية في القرن الرابع.

وكان سوق الوراقين موجودا في كل مدينة، وكانت (دكاكينه) منتدى للأدباء والفقهاء والعلماء يبحثون فيه عما ينشدونه من الكتب) ويتذكرون مع زملائهم ما يطيب لهم من الامور.

وكان لأبي نواس مجلس ببغداد في الكرخ في درب القراطيس، ومجلس بعسكر المهدي في الوراقين^(٢٦).

وكان الجاحظ يكتري دكاكين الوراقين ليقضي فيها الليل بطوله يطالع ما يحلو له^(٢٧).

وكانت دكان سعد الوراق، بالرها مجلس كل اديب^(٢٨) وكان الزجاج وابو الفرج الاصبهاني يجلسان في دكان الوراق والبقال الشاعر يجلس في دكان اخرى^(٢٩) وكان إسحاق بن نصير يرسل من مصر إلى وراق في بغداد الف دينار لأنه كان يجلس عنده عندما كان فيها^(٣٠).

وفي عام ٢٧٩هـ حلف الوراقون بمدينة السلام، وذلك بأمر السلطان ان لا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة^(٣١).

وقد ذكر القشيري في كتابه عدة وراقين في الرقة و منهم:

عمر بن يعقوب بن مردك أبو جعفر، وراق ايوب الوزان. وقد حدث عنه القشيري^(٣٢)

وابراهيم بن محمد بن ربيع وراق هلال بن الملاء وقد روي القشيري عنه أيضا^(٣٣) وابو عبيد الوراق^(٣٤).

والظاهر أنه كان لكل عالم او اديب من المؤلفين او ممن يقتنون الكتب وراق او أكثر يتعامل معه ينسخ مؤلفاته ليبيعه كما ينقل له ما يريد من كتب غيره، فكان للبخاري وراق^(٣٥) وللدارقطني وراق^(٣٦) ولداود بن علي الاصبهاني وراق^(٣٧) وللجاحظ وراق^(٣٨).

ولعل صناعة الكاغد أصبحت من بين الصناعات المنزلية أيضا ففي ترجمة احمد بن أبي خالد الوراق ابو العباس الزاهد المعروف بابن الطلاية: يقال ان والدته كانت تطلي الكاغد، عند عمله بالدقيق المعجون بالماء دقيقا، قبل صنعه، فاشتهرت بذلك (طلاية)^(٣٩).

الباب الثاني عشر

العلوم التقنية أو العلمية

- ١- مختصر ابن عساكر ٥٣/٩
- ٢- ن.م ١٢١/٩
- ٣- نشوار المحاضرة ٢٣٣/٣
- ٤- مختصر ابن عساكر ١١٠/١٠
- ٥- معجم الأدباء ١٧/٣، ٢٣
- ٦- ن.م ٢٥٥/١٦
- ٧- تاريخ الدولة العربية في العصر العباسي ٩٨
- ٨- البلاذري - فتوح ٥٨٣
- ٩- مختصر ابن عساكر ٢٠٣/١٠
- ١٠- ن.م ٤١٣/٦
- ١١- الطبري ١٥٧/٥
- ١٢- جمهرة نسب قريش - الزبير بن بكار ٧٤٠
- ١٣- مختصر ابن عساكر ٩٤/٥
- ١٤- الطبري ٢٩٠/١٠
- ١٥- مختصر ابن عساكر ٢٣٥/٦
- ترجمة الحجاج في المزي
- ١٦- البغدادي ١٩٠/١٢، أعلام النبلاء ٣٤١/٦
- ١٧- الطبري ١٧١/٩
- ١٨- مختار الأغاني ١٢٤/١
- ١٩- ن.م ١٢٥/١
- ٢٠- حسين مؤنس، عالم الإسلام ٢٢٨
- ٢١- المحبر ٤٧٨
- ٢٢- طبقات السبكي ٢٥٩/٣
- ٢٣- المعتزلة - لابن المرتضى ٦٣
- ٢٤- طبقات السبكي ١١١/٣، ١٣٧، متز (٢٥٣/١)
- ٢٦- ابن عساكر ٣٦٣/٢٨
- ٢٩- القشيري الفقرة ١٠٣
- ٣٠- القشيري الفقرة ١٠٣
- ٣١- القشيري الفقرة ١٠٨، مشاهير علماء الامصار ٤
- ٣٢- ابناء الرواة - القفطي ٢٥٦/٣
- ٣٣- ترجمة علي بن ميمون الرقي المزي
- ٣٤- ابن عساكر ٣٤/٢٦٤
- ٣٥- تاريخ بغداد ١٨٥/٥، تاريخ الإسلام للذهبي جزء ٢٨١-٢٩٠، ٣١١
- ٣٦- تاريخ الإسلام للذهبي جزء ٢٦١ - ٢٨٠ ص ١٠٨
- ٣٧- البغدادي ٣٦٠/٥
- ٣٨- الجزري ١٤٦/٢
- ٣٩- العبر ١٤٧/٢، معرفة القراء الكبار ١٩٨
- ٤٠- الجزري ٥٣٤/١، معرفة القراء الكبار ١٩٩
- ٤١- الجزري القراء الكبار ١٩٩، الجزري ٩٤١/٣
- ٤٢- الجزري ٦١٨/٢
- ٤٣- الجزري ١٧/١، ١٣٤
- ٤٤- القشيري فقرة ٣١٩
- ٤٥- عساكر ٢٨٩/٨ - ن.م فقرة ٣٦١
- ٤٦- ن.م فقرة ٢٧٤
- ٤٧- الجزري ١/١، ٤٢١
- ٤٨- الجزري ١/١، ٢٥٢
- ٤٩- ن.م ٣٩٧/٢
- ٥٤- صفين ١٤٦، اليعقوبي ١٧٨/٢
- ٥٥- الإصابة ١٧٥/٣
- ٥٦- القشيري الفقرة ٢٤
- ٥٧- الإصابة ٢٧٥/٢
- ٥٨- ن.م ٧٤٠/٤
- ٥٩- تهذيب ابن عساكر ١٠/٥
- ٦٠- البلاذري - انساب الأشراف ٢٩٧/٢
- ٦١- ديوان ابن قيس الرقيات برواية السكري ٩٧
- ٦٢- الإصابة ٥٤٣/٤، نسب قريش للزبيدي ٤٣٥
- ٦٣- ن.م ٥٠٩/٥
- ٦٤- ن.م ١٢٧/٣
- ٦٥- ن.م ٨١/٥

- ٦٦- سير أعلام النبلاء ٧١/٥، القشيري،
الشفقات للعجلي ١٧٣
- ٦٧- الطبري ٤٠/٧ حوادث سنة ١٠٧
- ٦٨- سير أعلام النبلاء ٣٢٦/٥، ابن عساكر
٣٢٤/٥٥
- ٦٩- المحبر ٤٧٦
- ٧٠- ابن عساكر ٣٢٥/٥٥، السنة قبل التدوين
- ٧١- القشيري فقرة ١٣٤
- ٧٢- ابن سعد ٤٧٤/٧ ابن عساكر ١٩١/٥٦
- ترجمة
- ٧٣- ابن عساكر ١٩١/٥٦ ترجمة
- ٧٤- معجم البلدان (الرصافة)
- ٧٥- ابن عساكر ترجمة ٤٦٤/٣٧
- ٧٦- القشيري فقرة ١٣٤
- ٧٧- سير أعلام النبلاء ٨٨/٦
- ٧٨- القشيري فقرة ٢١٣
- ٧٩- سير أعلام النبلاء ٨٠/٦، المزي ٨٠- سير
أعلام النبلاء ٣٤٦/٩
- ٨١- ن م ٣١٠/٨
- ٨٢- ن م ٨٩/ ١٣
- ٨٣- ن م ١٨٧/١١
- ٨٤- تذكرة الحفاظ ١٧٢/١
- ٨٦- شذرات الذهب ١٤٧/٢
- ٨٧- سير أعلام النبلاء ٣٠٩/١٣
- ٨٨- تهذيب التهذيب ٣٦٢/٢

الباب الثالث عشر
كورة الرقة

الباب الثالث عشر

كورة الرقة

- مدينة الرقة

تبدل اسم نيكفوريوم بعد الفتح وأصبح الرقة (ان لم يكن هذا اسمها العربي من قبل) وهو وصف لوضعها على شاطئ الفرات كما تقدم واختفت فيها الشوارع العريضة ذات الاسواق وفيها الاروقة والاعمدة والمنشآت الرومانية الكبيرة والمدرجات والملاعب، وزاد فيها عدد الحمامات، فقد ذكر ياقوت ان في باجروان وهي قرية حمامات كثيرة فكيف بالرقة وهي قاعدة الكورة.

وظهر المسجد الجامع في مركز المدينة وقرية دار الامارة، وإلى الجامع تتجه الاسواق. وبعد ان كانت المدينة مدينة الملاك الكبار والبيروقراطيين والحكام ورجال الادارة الكنسية، أصبحت المدينة مركزا تجاريا يحفل بما تتطلبه التجارة، وأصبح الجمل فيها واسطة النقل الاولى، واختفت العربية لضيق الشوارع، واختفت الملاعب، وحافظت الحمامات وميدان سباق الخيل على مركزها. واندمج المسلمون الفاتحون بالسكان القدامى اندماجا تاما.

وفي تاريخ الرقة للقشيري (ت ٣٢٤هـ) الاشارة إلى طاقات رومية بحذاء مسجد ابن الصباح، وذلك قرب باب الحجرتين، وقد هدمت وقام عليها منزل ليونس بن شبيب وربما كانت هذه الطاقات من البقايا الرومانية^(٢) وتخطيط المدينة العربية القديمة يقضي بأن الشوارع الرئيسية تتخللها مساحات واسعة مفتوحة لتنظيم حركة الهواء، كما ان الشوارع الفرعية تمتاز بالضيق للحصول على الظلال للتخلص من حرارة الجو العالية، واكتظاظ المساكن يعمل على زيادة الروابط الاجتماعية في ما بين السكان. وقد بنيت الشوارع الفرعية على شكل متعرج مراعاة لحركة الرياح كي تصد الرياح وتخلص من اكبر كمية من الرمال الهابة على المدينة في ذلك الجو الصحراوي.

وفي المدينة العربية القديمة. التدرج في الفضاءات والانتقال من الشارع الرئيسي العام إلى الشارع الفرعي إلى الرقاق (في المنطقة السكنية) الذي يوصل إلى باب الدار. وتعتبر الأزقة محلا للإحتكاك الاجتماعي (خاصة للنساء من سكان المنطقة) كما تعتبر ملاعبا للأطفال امام الدور السكنية.

وتمتاز الابنية السكنية بأنها افقية وبمستوى واحد تقريبا بحيث لا يمكن ان تشرف بناية على بناية اخرى لما تمثله خصوصية الفرد ضمن عائلته واسرته.

وان وجود الأزقة الملتوية والمتعرجة تجعل الدور متقاربة بعضها مع البعض الآخر لإعطاء تظليل للماشي في هذه الأزقة، إضافة إلى حجب الشمس عن الدور المحيطة. والتواء الأزقة يحد من اندفاع الرياح والعواصف الترابية^(٣).

قصدت القرامطة عام ٣٥٢هـ مدينة طبرية ليأخذوها من الإخشيد صاحب مصر والشام وطلبوا من سيف الدولة ان يمدهم بحديد يتخذون منه سلاحا، فقلع لهم أبواب الرقة وسد مكان الابواب^(٤) وأخذ كل حديد بديار مضر حتى صنجات البقالين والباعا^(٥). وبعد ان جمع سيف الدولة الحديد كتب اليه (الهجريون): أنا قد استغنينا عن الحديد فأخذ القاضي ابو حصين الأبواب فكسرها وعمل منها أبوابا لداره. ثم كتب الهجريون (نسبة لعاصمتهم هجر في البحرين) يلتمسون الحديد فأخذ الابواب التي عملها ابو حصين وسائر ما قدر عليه من الحديد وحمله في الفرات إلى هيت ثم منها اليهم في البر^(٦).

والقرامطة المشار اليهم هم قرامطة البحرين الهجريون وفي سنة ٣٥٣هـ المشار اليها حكم قرامطة البحرين احمد بن سعيد بن الحسن الجنابي واستمر حتى عام ٣٥٩هـ وتم تعيين ابنه الحسن الأعظم في القيادة، ويعتبر من اعظم القادة العسكريين في عصره وقد تمكن من احتلال فلسطين عام ٣٥٧هـ^(٧).

ان قلع أبواب الرقة وسد مكان الأبواب امر غريب، فقد كانت الرقة والرافقة عامرتين، وقد تقدم ان أبواب الرقة أغلقت في وجه الحسين بن حمدان عام ٣٢٢هـ، كما تقدم أيضا ان كلا من الرقة والرافقة كانت بيد شبيب بن وتاب النميري الذي توفي سنة ٤٢١هـ فورثت اخته مدينة الرافقة وزوجته

مدينة الرقة، وربما كانت الأبواب المذكورة - إذا صحت الرواية - أبواباً إضافية، ولكن هناك احتمال آخر. إذ سيجيء في 'خراب مدينة الرقة' أن بعض أسوار مدينة الرقة كانت قد خربت منذ منتصف القرن الثالث الهجري زمن المعتضد، وربما قبل ذلك عقب ثورة نصر بن شيب وتورته على المأمون.

(١) مقبرة الرقة

وجدت المقبرة في الرقة قبل الاسلام بدون شك، وكانت بالطبع خارج السور، وربما كانت بعيدة عن الفرات حتى لا تتأثر بفيضانه. وإذا قارناها بالمقابر الإسلامية في بقية المدن وجدنا مثلاً أنه كانت في دمشق مقبرة على كل باب من أبواب دمشق ففيها: مقبرة باب توما وهي أول مقبرة بدمشق للمسلمين^(٢٠) ومقبرة باب الصغير^(٢١) ومقبرة باب الفراديس^(٢٢) ومقبرة باب كيسان^(٢٣) وأنه كان في مقبرة باب الصغير 'حظيرة الصحابة' وفيها دفن عدد من الصحابة من بينهم: معاوية ابن أبي سفيان وفضالة بن عبيد، ووائل بن الاسقع، كما دفن في المقبرة نفسها عدد من الصحابة خارج تلك الحظيرة أيضاً^(٢٤) بل وحمل إليها جثث الصحابة من خارج دمشق، فبال مؤذن الرسول عليه السلام مثلاً نزل دارياً^(٢٥) فتزوج بها ومات فيها، وحمل حتى دفن في مقبرة باب الصغير مع صحابة الرسول ﷺ. وفي دمشق كان في المقبرة أو قربها يوجد أحياناً ((مسجد الجنائز)) كما هو الحال في مقبرة باب الصغير بسوق الغنم، وعلى الباب الشرقي وفي كل من المسجدين بئر^(٢٦) كما هو الحال في معظم المساجد، كما يلاحظ من قوائم ابن عساكر^(٢٧) وتكرر ذكر 'مسجد الجنائز' في دليل خارطة بغداد^(٢٨) وكذلك في الكواكب السيارة باسم 'مصلى الجنائز'^(٢٩) وفي ((مسجد الجنائز)) يصل على الجنائز ثم تدفن في المقبرة المجاورة^(٣٠).

إن الآثار الباقية من مقبرة الرقة - قبر اويس وربما قبور الصحابة تقع خارج سور الرقة (الرقة الأصلية، وليس الرقة الحالية أي الرافقة سابقاً) وفي الجنوب الغربي منها ومرجعها واضح على مخطط الرقة من الجو. ويذكر القشيري أن مقبرة الرقة كانت تقع عند باب الحجرين (أو باب الحجرتين) قرب الخندق^(٣١) كما أن عند هذا الباب أيضاً ((مسجد الجنائز))^(٣٢) أما الهروي وابن شداد فيشير إليه باسم 'مشهد الجنائز'^(٣٣) وهو تصحيف بلا شك، وكل ما نعرف عن هذا المسجد أو المشهد أنه كان موجوداً في عهد القشيري (مطلع القرن الرابع) وأن فيه المردى (المردى خشبة تدفع بها السفينة تكون في يد الملاح) ولعل المقصود هنا زورق مسطح هو الذي حمل عليه شهداء صفين في الفرات^(٣٤) ومعركة صفين جرت عام ٢٨ هـ. ومن شهداء صفين من الصحابة الذين دفنوا في مقبرة الرقة:

١. من انصار علي بن أبي طالب: عمار بن ياسر واويس بن عامر القرني^(٣٥). ويذكر الاصطخري صراحة أن عمار بن ياسر قبره في صفين^(٣٦) ويتابعه في ذلك ابن حوقل، ومع ذلك فقد ذكر تاريخ الاسلام للذهبي في وفيات سنة ٦٣١-٦٤٠ هـ، أن احمد بن يوسف ابن ايوب بن شادي الملك المحسن يمين الدين ابو العباس بن السلطان صلاح الدين توفي في حلب سنة ٦٣٤ هـ وحمل إلى الرقة فدفن بها بقرب قبر عمار بن ياسر^(٣٦). ويضيف ابن حوقل أن في صفين أيضاً قبور أكثر شهداء صفين من اصحاب علي^(٣٧) أما اويس فإن اختياره قليلة ومكررة وغامضة.

٢. من انصار معاوية بن أبي سفيان: حابس بن سعد الطائي^(٣٨) وكانت معه راية طي في معركة صفين^(٣٩) وفي الرقة 'الحبيس' وهو موضع بالرقعة فيه قبور قوم شهداء ممن شهد صفين مع علي بن أبي طالب عليه السلام^(٤٠) ويظهر أن كلمة ((الحبيس)) ليست اسم علم على المقبرة، بل هي اسم لجزء من المقبرة محصور بجائط أو حاجز ومدفون فيه بعض الصحابة، فهو يقابل ما تقدم عن 'حظيرة الصحابة' في مقبرة باب الصغير بدمشق.

وكان في مقبرة الرقة قبور لاشخاص توفوا أو قتلوا بعد معركة صفين، ومن بينهم:

- حجرة صمصمة بن صوحان العبدي صاحب علي بن أبي طالب^(٤١) وكان على عبد القيس في جيش علي في معركة صفين^(٤٢) شهد معركة الجمل مع علي، وتوفي بالكوفة في خلافة

معاوية (٤١ - ٦١هـ)^(٤٣). والحجرة: نظير البيت. فأنها اسم للقطعة من الأرض المحجوزة بحائط، ولذلك يقال لحظيرة الأبل: حجرة^(٤٤).

- قبر نافع بن هلال^(٤٥) الجمعي المرادي الشاعر، قاتل مع الحسين، وقتل بعده صبيرا عام ٦١هـ^(٤٦) ودفن فيما بعد في الرقة.

- سالم بن الجنيد، صاحب علي بن أبي طالب^(٤٧) ويظهر أن الاسم محرف وصحته: سالم بن أبي الجعد توفي عام ٩٧ أو ٩٨هـ أو بعد ذلك^(٤٨).

وفي عام ١١٧هـ توفي ميمون بن مهران فدفن في 'الحبيس الكبير' بالرقة^(٤٩) وقد توحى كلمة 'الكبير' هنا بأنه كان في المقبرة حبيس آخر يدعى 'الحبيس الصغير' مثلاً.

وفي عام ١٧٦هـ (وفي عهد الرشيد وكان قد استقر بالرقة) توفي يحيى بن عبد الله بن الحسن ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، فدفن في الرقة^(٥٠).

وفي المحرم سنة ١٩٠هـ توفي يحيى بن خالد البرمكي في حبسه في الرقة في عهد الرشيد أيضاً، ودفن بالرافقة على شاطئ الفرات وبني على قبره بناء عال. ثم توفي الفضل بن يحيى بن خالد في المحرم سنة ١٩٣هـ ودفن إلى جانب قبر أبيه^(٥١).

وفضلاً عن ذلك يذكر الهروي أن في مقبرة الرقة قبورا أخرى لأشخاص نجهل كل شيء عنهم ولآخرين نشك في صحة أسمائهم أو حتى في صحة وجودهم أو في صحة دفنهم في الرقة، ومن ذلك:

١- تسعة من أحوال النبي ﷺ أخوة حليلة السعدية (٥٤)، وتقول المحققة في هامش الهروي: أنه مكتوب في إحدى نسخ الزيارات للهروي النبي لم يكن له خال وهذا صحيح على حد علمي.

٢- ((حجرة السليميين)) وفي إحدى النسخ حجرة المسلمين^(٥٥) والرواية الأولى عندي أرجح، وهي نسبة إلى بني سليم إحدى القبائل التي سكنت الرقة منذ الفتح.

٣- هلال بن نافع^(٥٦) وهو مجهول إلا إذا كان ابن نافع بن هلال الذي تقدم ذكره.

٤- سالم بن أحمد، وفي الهامش أنه في إحدى النسخ ((سليمان بن حذيفة))^(٥٧). وقد ورد اسم سليمان بن حذيفة بن هلال بن مالك المزني، وأنه كان مع مطرف بن المغيرة بن شعبة حين خرج على الحجاج وعبد الملك بن مروان عام ٧٧^(٥٨) فلعله هو الشخص المقصود هنا.

٥- ابن كدام الدم^(٥٩). ذكر أن: حجر بن عنبس الكوفي أبو العنبس، وقيل أبو السكن، أدرك زمن النبي ﷺ وآمن به ولم يره، ويقال له: كدام الدم لأنه شرب الدم في الجاهلية. شهد مع علي صفين والنهروان، وقيل أنه قتل بصفين، وقبره بالرقة^(٦٠).

٦- حصن بن عدي الكلبي: ورد في كتاب نسب معد اسم: حصن بن عدي^(٦١).

٧- سكن بن برة^(٦٢) وهو مجهول لدي.

٨- المقداد بن الأسود الكندي. والصحيح أن قبر المقداد بالمدينة^(٦٣) وهو صحابي كبير توفي عام ٣٣ هـ (أي قبل معركة صفين) ودفن بالمدينة^(٦٤).

٢) مشهد علي بن أبي طالب بالرقة

ذكر الهروي (ت ٦١١هـ) أن في مقبرة الرقة مشهد علي بن أبي طالب^(٦٥) وذكر مثل ذلك فيما بعد ابن العديم (ت ٦٦٠هـ)، ويفهم من نصه الذي سيجيء فيما بعد أن هذا المشهد كان إلى جانب قبور الشهداء من الصحابة، وربما كان معهم في الحبيس. ومن المعروف أن الإمام علي مدفون في النجف، وإن ضريحه هناك يدعى أيضاً ((مشهد علي)) وهو كذلك مشهد حقيقي، أما مشهد الرقة فليس مشهداً حقيقياً أي ليس فيه جثة حقيقية، وربما كان مشهد رؤي أي في موضع رأى فيه أحدهم في حلمه الإمام علي هناك، أو مشهد مناسبة إذ من الثابت أن الإمام علي مر من الرقة واجتاز الفرات (إلى الضفة) على جسر قوارب نصبوه له قبيل معركة صفين كما تقدم. ومن المناسب أن أحاول إيضاح:

١. معنى مشهد .

٢. البدء باستعمال كلمة 'مشهد علي' الحقيقي.

٣. زمن استعمال كلمة 'مشهد علي' غير الحقيقي.

المشهد: المجمع من الناس، والمشهد: محضر الناس. ومشاهد مكة: المواطن التي يجتمعون بها^(٦٦) ويعتبر علي بن أبي طالب أول امام خفي قبره^(٦٧)، ويقال أنه هو الذي أوصى بذلك^(٦٨)، تم الكشف عن قبره في النجف في العراق في مطلع العهد العباسي^(٦٩)، وبنيت على قبره فيما بعد قبة في عهد الرشيد^(٧٠)، ثم انقلب العباسيون على العلويين، وفي سنة ٢٣٦هـ أمر الخليفة المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي في كربلاء وهدم ما حوله من المنازل والدور، وأن يحرق ويبذر ويسقى موضع قبره، وأن يمنع الناس من أتائه^(٧١)، ولم تكن كلمة مشهد مستعملة آنذاك - كما يبدو - للدلالة على ضريح علي أو على أي ضريح آخر كضريح الحسين، سواء كان ضريحا حقيقيا أو ضريحا رمزيا ولكن الثابت من أمر المتوكل أن ضريح الحسين بن علي كان مقدسا عند الناس ويقصدونه للزيارة والتبرك.

وقد شهر أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان (ت ٢١٧هـ) قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وجعل عليه حاصرا (أي سورا) منيعا، وابتنى على القبر قبة عظيمة مرتفعة الأركان من كل جانب لها ابواب، وسترها بفاخر الستور، وفرتها بثمين الحصر السامان. وقد دفن في هذا المكان المذكور جل أولاده وسادات آل أبي طالب خارج هذه القبة، وجعلت الناحية مما دون الحصار الكبير تريا لآل أبي طالب^(٧٢).

وفي سنة ٣٤٢هـ مات أبو الفضل العباس بن فسانج بالبصرة من ذرب لحقه (داء يعرض للمعدة) فلا تهضم الطعام ويفسد فيها فلا تمسكه، وحمل إلى الكوفة فدفن بمشهد أمير المؤمنين علي، وتقلد الديوان بعده ابنه أبو الفرج^(٧٣).

وفي عصر كان للدين والتقوى فيه شأن أي شأن، عمد الأمراء و الخاصة إلى تشييد المساجد والمشاهد والمراقد الخاصة بالأولياء وذوي الفضل. ونستطيع أن نستنتج أن الحمدانيين الشيعة عنوا أكبر عناية بإحياء ذكرى الأئمة العلويين وآل البيت عموما. ولا بد أن المراقد والمشاهد الكثيرة التي حفلت بها الموصل في ذلك العصر يرجع بعضها على الأقل إلى هذه الفترة التي حكم فيها الحمدانيون في الجزيرة. وهناك ضريح لزيد بن علي وآخر لعون بن الحسن، وثالث لابراهيم بن الامام جعفر الصادق، ومشاهد أخرى كثيرة، كمرقدي بنات الحسن وعلي الهادي وغيرهما. وواضح أن هذه ليست اضرحة أو مراقد حقيقية دفن فيها هؤلاء الأئمة والأولياء، بل هي مشاهد للتبرك تتصل أشد الاتصال بالتراث الديني الشعبي، وجاء بناؤها في كثير من المدن الإسلامية نتيجة تعلق العامة بهؤلاء الأئمة^(٧٤).

وفي سنة ٣٦٩هـ أصلح عضد الدولة البويهبي الشيعي (٣٧٢هـ) مشهدي علي والحسين (أي: قبريهما الحقيقيين)^(٧٥) ثم توفي سنة ٣٢٧هـ ودفن في مشهد علي^(٧٦) وصار هذا تقليدا اذ دفن في هذا المشهد شرف الدولة ابن عضد الدولة من بعده^(٧٧) ولا بد أنه ظهرت إلى الوجود قريبا من هذا العهد المشاهد غير الحقيقية ومنها مشهد علي في الرقة، وهو طبعاً مشهد غير حقيقي كما تقدم. والدليل على ذلك أنه لما توفي سعد الدولة بن سيف الدولة عام ٨١٢هـ في حلب، حمل تابوته إلى الرقة ودفن في مشهد علي ظاهر الرقة^(٧٨) فالحمدانيون كانوا يتبركون بالمشاهد والدفن فيها.

ومن المعروف أن كثيرا من الناس كانوا يشتهون أن يدفنوا في الكوفة بسبب وجود ضريح علي بن أبي طالب فيها، حتى أن عمرو بن ميمون بن مهران الرقي قال: ((بلغني أنه يحشر من ظهرها (ظهر الكوفة) سبعون الفا يدخلون الجنة بلا حساب، فأحب أن أموت بها)) فمات ودفن فيها^(٧٩) وحياته (٨٠ - ١٤٧هـ) وذلك قبل الاهتمام بالمشاهد غير الحقيقية. ومما يدل على

اشتداد الاهتمام بالأضرحة والشهداء والمجاهدين وغير الحقيقية وزيارتها مذكوره التوخي المتوفى سنة ٣٨٤هـ على لسان أبي الفرج الشاعر البغدادى المعروف (٢١٤ - ٣٩٨هـ): ((ان قبور الشهداء في الرقة، وهم جماعة ممن قتل بصفين مع علي بن أبي طالب، منهم عمار بن ياسر حملوا إلى ظاهر الرقة، فدفنوا بها، والحال في ذلك مشهور، والقبور إلى الآن مغطىة معمورة))^(٨٠) وكان الخليفة القادر بالله (٢٨١ - ٤٢٢هـ) يلبس زي العوام ويقصد الأماكن المعروفة بالبركة كقبر معروف وتربة ابن بشار... وعن الحسين بن هارون القاضي أنه جاء إلى قبر معروف فدعا الله أن يكفيه أمر ابن حاجب النعمان ثم جاء كذلك إلى قبر ابن بشار^(٨١).

وبصدد المشاهد غير الحقيقية خاصة، تنقل ما شاهده ناصر خسروي في رحلته في البصرة سنة ٤٤٣ هـ، اذ يقول: وفي البصرة ثلاثة عشر مشهداً باسم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب^(٨٢) وأطال في وصف البناء وما فيه من الأدوات الفضية والذهبية وذكر طواف الناس حوله مزدحمين، داعين، باكين، متوسلين ببركة التربة المقدسة^(٨٣) ثم يضيف: ما في القرافة من مشاهد أهل البيت وهي مشاهد أربعة عشر رجلاً وخمسة من النساء، وعلى كل منها بناء حافل فهي بأسرها روضات بدیعة الإقنات، عجیبة البنیان، قد وكل بها قومة يسكنون فيها، ويحفظونها، ومنظرها عجيب، والجرايات متصلة لقواميها كل شهر، ثم يصف مشاهد أخرى^(٨٤).

ومما يذكر هنا أن عماد الدين زنكي قتل عام ٥٤١ هـ وبقي وحده أمام قلعة جعبر، فخرج إليه أهل الرافقة (وكانت الرقة قد خربت) فغسلوه بقحف جرة ودفنوه على باب مشهد الامام علي عليه السلام وفي جوار الشهداء من الصحابة، وبنى عليه بنوه قبة، فهي باقية إلى الآن، كذا قال ابو المحاسن، وإنما دفن عماد الدين أولاً داخل مشهد علي بن أبي طالب، ثم نقل من ذلك الموضع إلى حوار الشهداء، وبنى عليه ولده نور الدين محمود حائطاً يقصر عن القامة، ولم يبن عليه قبة^(٨٥) ويبدو من أخراج نور الدين لجثة أبيه من المشهد عدم إيمانه بالمشهد. ولكن انصار تقديس المشاهد زعموا أن نور الدين نقل جثة أبيه خارج مشهد علي تنفيذاً لما أمره به الامام علي في الحلم^(٨٦) ومنه يبدو أن ظهور المشاهد غير الحقيقية بدأ في منتصف القرن الرابع. وتكررت رؤية علي ابن أبي طالب في الحلم مرة أخرى وقيل ذلك. كما زعم وخلاصة القصة أن أتاك زكي مر في صفين عام ٥٣٦ هـ فاعترضته حمى حادة ثم زالت ورأى في النوم كأن علياً يصف له دواءاً للحمى ودل على حجره. ولما أصبح سأل عن الحجر ف قيل له: ان علياً لما نزل الرقة شكاً له أهلها ما يلقون من السباع وكثرتها، فجاء إلى هذا الحجر وكتب عليه شيئاً ووضع خارج الرقة هاجر أتاك يحمل الحجر إلى حلب على ناقه، وفي المكان الذي توقفت فيه الناقة في حلب أمر أتاك بعمارة مسجد (هو مسجد غوث) هناك، ووضع الحجر فيه في بيت في غريبه^(٨٧).

وممن مات في الرقة أو دفن فيها

خريم بن قاتك الاسدي نزل الرقة ومات بها^(٨٨).

جشم بن نائل بن زياد التغلبي ويعرف بالسرطان كان مع علي بصفين وقتل معه ودفن بالرقة^(٨٩).

ابو سعيد الحرشي القاضي، كان من أهل بالس وسكن حلب ومات بالرقة سنة ٥٣١ هـ ودفن فيها^(٩٠).

أحمد بن النضر بن بحر، ابو جعفر العسكري. خرج إلى الرقة فمات بها سنة ٩٠^(٩١).

أحمد بن يوسف بن أيوب بن شادي بن مروان (الملك) توفي سنة ٦٣٤ هـ وأوصى أن يحمل إلى الرقة ويدفن بها بالقرب من عمار بن ياسر^(٩٢).

٢- مدينة الرافقة

هي المدينة التي بناها أبو جعفر المنصور إلى جانب مدينة الرقة في الجزيرة على بعد حوالي ثلاثمائة ذراع منها. يعود ميل العباسيين الأوائل إلى بناء المدن الجديدة إلى سببين:

أولهما: ان يشعر الخليفة أو الأمير بقوته واستقلاله عن ما قبله فحين أتم المتوكل بناء الجعفرية وانتقل إليها عام ٢٤٤هـ، جلس للناس واجازهم بالجوائز السنية، وتكامل له السرور وقال: الآن علمت اني ملك، لاني بنيت لنفسي مدينة سكنتها^(٩٢).
وثانيهما: الاطمئنان على نفسه بعيدا على الناس ووسط المخلصين له. فهي مدن السلطة وخاصة في مطلع حياتها.

نزل ابو العباس السفاح اول امره في الكوفة التي كانت مركز الدعوة، ثم خرج فعسكر بحمام اعين في عسكر أبي سلمة في الكوفة^(٩٤)، ثم نزل المدينة الهاشمية في الكوفة^(٩٥)، ثم انتقل إلى الحيرة^(٩٦) ثم إلى الانبار^(٩٧)، وبنى فيها مدينة^(٩٨) سماها الهاشمية أيضا^(٩٩) وفيها توفي سنة ١٣٦هـ^(١٠٠).
وحين افضى الأمر إلى المنصور بنى مدينة جديدة بأسم 'الهاشمية' أيضا غير التي بناها السفاح، وذلك نسبة لنسبهم بني هاشم، قبالة مدينة ابن هبيرة (إلى جانب الكوفة) ثم بنى فيما بعد مدينة يظهر الكوفة سماها 'الرصافة' فلما ثارت الراوندية في مدينته التي تسمى الهاشمية، كره سكنها ولم يأمن أهلها على نفسه فأراد ان يبعد عن جوارهم فبنى بغداد^(١٠٢).

موقع بغداد والرافقة

حين اراد المنصور بناء مدينة بغداد، ارسل من يرتاد مكانا يتوفر فيه: الامن من الداخل والخارج والماء والمناخ والخصب وسهولة وصول المؤن اليه^(١٠٢) فكان موقع بغداد يحقق ذلك كله، اذ ترده الميرة والطرائف في السفن على الفرات ثم نهر الصراة: من المغرب ومصر والشام والجزيرة، وعلى دجلة: من الصين والهند والبصرة وواسط وأرمينية والروم والجزيرة والموصل وهو موقع متوسط بين البصرة والكوفة، والموصل والسواد، وتقوم دجلة والفرات بمثابة خنادق لحمايته^(١٠٣).
وقد حقق موقع الرقة والرافقة معظم هذه الشروط وكان المنصور قد نفذ جميع خطة الحجاج في بناء واسط في بناء بغداد ثم الرافقة بل أنه أخذ أيضا ابواب واسط ووضعها في بغداد.

١) اسباب بناء الرافقة والهدف من بنائها

إلى جانب قرب موقع الرافقة والرقة من الثغور وصلاحيته لحشد الجيوش للصوائف والشواتي وتوسطه بين الشام والعراق وأرمينية وبلاد الروم فإنه يقوم كمركز متوسط لردع أهل الشام والجزيرة الذين يتهمهم العباسيون بأنهم انصار اعدائهم الأمويين^(١٠٤)، كما ورد على لسان المنصور والرشيد والمأمون وغيرهم، ولذلك بنيت الرافقة إلى جانب الرقة وحشدت بالخرسانية، فاذا ثار العرب أهل الرقة ضربوا بالخرسانية أهل الرافقة وبالعكس، وذلك بالضبط هو السبب الذي بنيت من اجله رصافة بغداد، بعد بناء بغداد وإلى جانبها وذلك ليضرب كل منهما بالآخرى عند الحاجة^(١٠٥) وإثارت النعرات بين مضر واليمانية في كليهما لتضرب إحداها الأخرى^(١٠٦).

واذا بحثنا عن كلمة ((الرافقة)) في اللغة وجدنا إلى جانب المعنى المعروف وهو: رفق به: لان له جانبه وحسن صنيعه، معنى آخر وهو: رفق البعير رفقا: شده بالرفاق. والرفاق: حبل يشد به عضد البعير اذا خيف ان يهرب^(١٠٧). وارى ان المعنى الثاني هو الذي قصده المنصور اذ اراد ان تكون الرافقة اداة لكبح جماح الرقة والجزيرة والشام عند اللزوم.

هذا وكان الحجاج قبل المنصور قد بنى مدينة واسط في جنوب العراق بنفس الشروط التي اتبعها المنصور فيما بعد، واسكن فيها الحجاج جيش الشام الذي كان جيش الدولة الرسمي الذي تتم به السيطرة على جميع المملكة الإسلامية أي ان واسط كانت مدينة السلطة مثل مدينة الرافقة فيما بعد.

٢) بدء التفكير ببناء الرافقة

يقال ان التنبؤ ببناء الرافقة يعود إلى أيام هشام بن عبد الملك وأنه سيبنها السفاح او المنصور ولا يسكنها بل يسكنها ابنه^(١٠٨)، وان المنصور خطط لبنائها في خلافة اخيه أبي العباس السفاح قبله^(١٠٩). وقيل ان المنصور قال لأبي العباس السفاح (قبل خلافته): وان افضى الأمر إلينا وصدقت الرواية لم تنتفع بالجزيرة الا اذا بنينا إلى جانب الرقة مدينة ونحيا بشيعتنا

الخرسانية) لقمع هؤلاء (أهل الرقة) وأن هذا لموضع مدينة واوماً إلى موضع الرافقة^(١١١) وكان هذا طبعاً إكمالاً لقتل الأمويين ونبش قبورهم.

٣) تخطيط مدينة الرافقة وبنائها

يقال أن ذلك تم حين ولي المنصور ل أخيه أبي العباس (١٢٢ - ١٣٦هـ) الجزيرة والموصل والثغور فأخط المنصور الرافقة وهندسها له ادهم بن محرر^(١١١).

فلما تولى الخلافة أبو جعفر (١٣٦ - ١٥٨هـ) وجه معاوية بن صالح ومعاذ بن مسلم، فخطا موضع السور برماد، وصيرا موضع كل برج علما وذلك في سنة ١٥٥هـ^(١١٢). ومما يذكر أن تخطيط بغداد قبل بنائها تم على هذه الصورة ولا بد أن المهدي حين بنى الرافقة صنع ما صنعه المنصور من قبله حين بنى بغداد والمعتصم بعده حين بنى سامراء فجلب الأخصائيين في كل مهنة وحرفة من جميع البلدان وجعل لكل مهنة وصناعة سوقاً خاصاً بها^(١١٣) و^(١١٤).

بناء الرافقة

ما أراد أبو جعفر بناء الرافقة عام ١٥٤هـ أي اثناء خروجه إلى الشام ومسيره إلى بيت المقدس، امتنع عليه أهل الرقة وأرادوا محاربته لكنه استعان براهب شهد بأن رجلاً اسمه مقلاص يبني هذه المدينة وزعم أبو جعفر أنه كان يدعى 'مقلاص' واقنع بذلك أهل الرقة^(١١٥). وهذه الحيلة سبق أن استعملها المنصور حين بنى بغداد^(١١٦) كما زعموا. وفي سنة ١٥٥هـ وجه المنصور ابنه المهدي لبناء مدينة الرافقة فشحخص إليها^(١١٧) ومعه أخوا خالد بن البرمك: الحسن وسليمان ابنا برمك^(١١٨) وظل فيها إلى أن غادرها وعاد إلى بغداد في شهر رمضان عام ١٥٨هـ^(١١٩) أي بعد ثلاث سنين من سفره إلى الرقة.

بنى المهدي مدينة الرافقة على مثال مدينة بغداد في ابوابها وفصولها، ورحابها وشوارعها، وسور سورها وخندقها^(١٢٠) لكن الرافقة كانت تختلف عن بغداد في السور وابواب الحديد والخندق المنفرد^(١٢١). وهناك اختلاف آخر في الشكل فالرافقة ليست مدورة كبغداد بل كهيئة الطيلسان^(١٢٢) فالجانب الجنوبي مستقيم ويطل على الفرات، وبقية الجوانب على شكل حدوة الحصان وهي مستدقة ومشوهة قليلاً، والسبب في ذلك أن بغداد بعيدة عن نهري دجلة والفرات ولذلك بقيت على شكل دائرة لئلا يكون الخليفة إذا نزل في وسطها إلى موضع اقرب منه إلى موضع آخر^(١٢٣) ثم وجد من انتقد بناءها بعيدة عن المياه واضطر المنصور إلى مد قناتين من دجلة إلى المدينة^(١٢٤) لكنه تدارك هذا في بناء الرافقة، إذ جعلها تستند على الفرات بضلعها الجنوبي وجعل بقية محيطها على هيئة القوس.

وان بناء المدينة على شكل دائرة (بغداد) او قوس (الرافقة) يجعل بناءها اقل كلفة والدفاع عنها أكثر سهولة وذلك:

١- ان محيط قطعة من الأرض على شكل دائرة او قوس أقل من محيط المربع او المستطيل المساوي لها (لأنه لا زاويا لها) فبنائها يكون اقل كلفة لذلك.

٢- ان الجنود المدافعين عن اسوار المدينة يحصلون على رؤية اكمل وأوضح مما لو كان شكلها مربعاً او مستطيلاً^(١٢٥).

٤) التحصينات وخاصة في الرافقة

تستند في الدرجة الاولى إلى درأسة بقايا سورها وما يتبعه. وإذا أراد الغازي ان يهاجم الرافقة عليه ان يجتاز:

١- الخندق الذي حول السور وعرضه ١٥,٩ م في الاعلى ويتناقص إلى ٩,٥ م في القاعدة وهو يحيط بالمدينة على شكل الطيلسان ما عدا القسم الجنوبي فيه الذي يقوم فيه نهر الفرات

مقام الخندق ولا يمكن اجتياز الخندق في وقت السلم الا بجسر او قنطرة. وفي حال الخطر يملأ هذا الخندق بالماء ويرفع الجسر او القنطرة وكان هذا الخندق يزود من مياه الفرات مباشرة، بحيث يصل عمقه إلى منسوب النهر^(١٣٦). وفي بغداد بنى بين الخندق والسور الخارجي الملاصق نه 'مسناة' وذلك لحماية اساس هذا السور من جهة وتجعل تسلق الخندق للخروج منه صعبا.

٢. وبعد الخندق يواجهنا الجدار الخارجي من السور وسماكته حوالي ٤,٥ م، ويرتكز على التربة الصخرية، وبقيت منه بوابة بغداد. والسور الخارجي في بغداد كان فيه أربعة مداخل منكسرة أي ان الباب المناسب في السور الداخلي لا يقع مقابل باب السور الخارجي تماما بل إلى يساره كما يضطر الداخل للوصول اليه كما يضطر الداخل منها إلى الانعطاف يسارا فينكشف يمينه ويسهل ضربه. وان سماكة هذا الجدار تؤدي إلى متانته وإلى صعوبة تثقبه من قبل العدو المهاجم، كما ان اسطح العلوي لهذا الجدار يمكن الجنود من السير عليه أثناء الخطر، ورمي المهاجم بالسهم والحجارة والنار وما اشبه ذلك.

١. وبعد الجدار الخارجي يأتي فصيل عرضه ٢٠,٨ م يحيط بالجدار الداخلي^(١٣٧) فإذا استطاع العدو الوصول اليه بعد اجتياو الخندق والجدار الخارجي، أمكن محاصرته والدفاع عن الجدار الداخلي.

٢. الجدار الداخلي أو الرئيسي: سماكته ٥,٨٥ م، ويرتكز على التربة الصخرية أيضا، ويتألف المداكن السفليان من حجر طباشيري أبيض يشبه الجص. ويبلغ ارتفاع ما بقي منه عشرة أمتار في بعض أجزائه الشمالية.

وبقيت بعض أقسامه بحالة جيدة (هذا الكلام قبل ترميمه حديثا) وهذا الجدار اعلى من الجدار الخارجي، وذلك كي يرى المدافعون، خارج المدينة بشكل افضل، كما يمكن لهم الدفاع عن سطح هذا الجدار، وتؤمن سماكة الجدار امكان السير فوقه.

وعلى هذا الجدار الداخلي أبراج بقي منها برج دائري عظيم في الزاوية الجنوبية الشرقية خلف 'باب بغداد' يبلغ نصف قطره حوالي ٧,٨ م، ويبدو وأنه كان اصما وكان ارتفاع ما بقي منه نحو ٧-٨ أمتار ويتألف من مركز من الاجر الطيني (اللبن غير المشوي) وطبقة خارجية من الاجر المشوي. وهذه الأبراج تقوم أولا بتدعيم الجدار الداخلي، ثانيا بتمكن المدافعين من الدفاع عن مواضع من السور يتعذر الدفاع عنها من اعلاها وذلك لان الأبراج مقوسة وبارزة عن سوية بقية السور.

وفي الجدار الداخلي من سور بغداد جعل فوق كل من ابوابه مجلس يصعد اليه على سلالم او غير ذلك ويمكن منه مشاهدة المنطقة خارج المدينة ومراقبتها. وربما كان هذا لم يصنع مثله في سور الرقة لأنه اقل سماكة من سور بغداد.

١. يلي الجدار الداخلي حسب مخطط مدينة بغداد الفصيل الداخلي وهو المنطقة السكنية وتقسم إلى سكك و دروب تعرف بأسماء لقواد والموالي. ويحيط بهذه المنطقة او الفصيل شارع من خارجها بينها وبين الجدار الداخلي، وشارع من داخلها بينها وبين سور الرحبة ويؤمن هذان الشارعان للمدافعين حرية الحركة للدفاع عن السور الداخلي او عن سور الرحبة كما يحكمان المرور من المنطقة السكنية إلى داخل قلب المدينة او خارجها كما كان للسكك الفرعية التي كانت تصب في هذين الشارعين دروب يحكم غلقها حين الحاجة ولا يوجد اثر لهذا الفصيل في بقايا الرافقة.

٢. يلي الفصيل الداخلي - حسب مخطط مدينة بغداد - سور آخر^(١٣٨) اقل شأنًا من السور المزدوج السابق ولا اثر له في بقايا الرافقة.

٣. يلي ذلك: الرحبة العظمى التي تشمل المسجد الجامع وقصر الإمارة ودواوين الحكومة ولا يزال كثير من أقسام هذا المسجد الجامع بما في ذلك المئذنة باقيا حتى الآن أما قصر الإمارة

وهو بناء من اللبن غير المشوي فقد زال تماما، وكانت بقاياها قبل إزالتها تشكل تلا عاليا من الرماد الأسود وبقايا الحرائق واللبن على بعد ٢٠٠ مترا تقريبا جنوب المسجد الجامع بالرافقة. وكان يطلق عليها محليا ' التل الأسود' (١٢٩).

والمفروض أن المسجد الجامع في الرافقة كان قائما وحده ولم يكن حوله أي سوق لأن الرافقة كانت مدينة السلطنة ومنع فيها اتخاذ الأسواق عندئذ. وأن سوق الصاغة (الذي ذكر المقدسي أن المسجد الجامع كان في وسطه) إنما أحدث فيما بعد أما قصر الإمارة فكان مقرا لوالي الجزيرة (١٣٠) كما سيجئ فيما بعد.

جعل مقر الخليفة (في بغداد) في وسط المدينة حتى لا يثير الحساسيات بين أهله وقادته في قريهم وبعدهم عنه، ويسهل في الوقت نفسه الدفاع عن أي جزء من أجزاء المدينة إذا تعرض للهجوم، ولذلك عين المنصور قوات خاصة يترأسها قادة عرب مهمتها الدفاع عن المدينة وبني في الرافقة حصنا أشير إليه في كتاب أخبار الدولة الحمدانية للأزدي ص ٥٣ (١٣٣).

٥) مراحل بناء الرافقة

بدأ الأمر أولا: بجعل العمال لبناء الرافقة كما جمعوا العمال لبناء بغداد من قبل (١٣٤) ثم هرقله (١٣٥) ثم الجعفرية (مدينة المتوكل) (١٣٦).

وقد بدأ بناء بغداد سنة ١٤٥هـ بحفر الخندق والسور الداخلي دون السور الخارجي والأساس والقسم الإداري داخل الرحبة العظمى (١٣٧) وفي عام ١٤٦هـ انتهى بناء القصر والجامع والدواوين (أي القسم الإداري) وانتقل المنصور إليها (١٣٨). وفي عام ١٤٩هـ (أي في السنة الرابعة) استتم بناء السور الخارجي والخندق وجميع أمور المدينة (١٣٩) وبذلك يكون بناء بغداد استغرق حوالي خمس سنوات وتم بناؤه قسما بعد قسم.

وفي الرافقة بدأ بناؤها على يد المهدي، وهو ولي العهد عام ١٥٥هـ، ثم غادر المهدي الرافقة إلى بغداد عام ١٥٨هـ (أي بعد ثلاث سنوات) وهي سنة وفاة المنصور ولم يذكر شيء عما تم بناؤه من الرافقة ويجب قياسا على بغداد أن يكون تم خلال ذلك بناء القسم داخل الرحبة العظمى والسور الداخلي أو الرئيسي. أما الجدار الخارجي من سور الرافقة فقد بناه هارون الرشيد فيما بعد (١٤٠) وهذا يفسر ما ذكره ابن شداد: 'ولما كانت سنة ثمانين ومئة خرج الرشيد من بغداد وسار إلى الرقة، فأخذها وطنًا، وبني سورها، واسمه مكتوب على باب السبال من الجانب الشرقي مثاله: أمر بعمارته أمير المؤمنين - هارون الرشيد - أطال الله بقاءه، بتولي الفضل بن الربيع مولاه (١٤١).

٦) مساحة الرافقة وأمنها

تشكل مدينة الرافقة حدوة حصان مستدقة ومشوهة قليلا يبلغ طولها حوالي ١٥٠٠م من الشرق إلى الغرب وكذلك من الشمال إلى الجنوب (١٤٢). يبلغ الطول الإجمالي للسور الرئيسي (أي الداخلي) بجميع أضلاعه ٥كم تقريبا يحصر ضمنه مساحة من الأرض تقارب ١,٤٩٨٠٠٠ متر مربع (١٤٣). كان دخول بغداد يحتاج إلى جواز مرور (١٤٤) وكذلك الأمر بالنسبة الرافقة (١٤٥) وقد طلب (١٤٦) المأمون وهو وأي العهد من أخيه الخليفة الأمين أن يسمح لرسوله بالجواز إلى الرقة ليحمل مال المأمون إليه وكذلك الحال في دخول المدن الأخرى مثل قزوين (١٤٧) وربما كان فرض إبراز الجواز يتم في بعض الظروف وليس دائما.

٧) أبواب الرافقة

المفروض أن أبواب الرافقة بنيت على منوال أبواب بغداد. وأبواب بغداد أربعة على كل من السورين الداخلي والخارجي. وعلى كل باب (أي فرجة الباب): باب حديد عظيم جليل المقدار كل باب فردان (١٤٨). وكانت هذه الأبواب في بغداد من القوة والمتانة بحيث لا يغلق الباب الواحد منها

ولا يفتحه الا جماعة من الرجال^(١٤٩) وكان بجوار كل باب من أبواب السور الداخلي الكبير، مصعد يصعد عليه الفارس إلى أعلى السور على الدواب، وعلى المصعد أبواب تغلق، وفوق كل باب منها غرفة عليا تشرف على المدينة، وذلك للمراقبة والحراسة والجلوس^(١٥٠).

أما مدينة الرافقة فكان لسورها الخارجي (حسب ما بقي من آثارها) أربعة أبواب وهي:

الباب الشرقي: وهو باب بغداد.

الباب الجنوبي الغربي: ويتجه منه طريق إلى مدينة مسكنة.

وكان البابان من الاجر، وكان بجانب كل منهما برج مستدير نصف قطره (٧٨٠م)، ولا يزال برج الباب الأول وقد زال برج الباب الثاني.

الباب الجنوبي: وهو المطل على الفرات.

الباب الشمالي: وكان يبدأ منه الطريق المتجه إلى حران^(١٥١).

والذي أوردته الروايات من أبواب الرافقة بابان:

الأول: باب السبال من الجانب الشرقي للسور الخارجي الذي بناه الرشيد وكتب اسمه عليه^(١٥٢).

الثاني: باب الجنان: وذلك لأنه يفضي إلى الجنان أي البساتين^(١٥٣) وهو في الزاوية الجنوبية الغربية.

والذي يظهر على صورة الرافقة من الجو أن لها خمسة أبواب:

١. الباب الجنوبي المطل المطل على الفرات.

٢. الباب الجنوبي الشرقي: باب بغداد.

٣. الباب الشرقي: باب السبال.

٤. الباب الشمالي.

٥. الباب الغربي.

وأبواب بغداد الثمانية لم يصنع منها لبغداد خصيصة غير باب واحد، أما الأبواب السبعة الأخرى فقد أخذت من أماكن أخرى^(١٥٤) وكذلك الحال من قبل في أبواب مدينة واسط الحجاج^(١٥٥) والحال فيما بعد في أبواب مدينة الرافقة.

كانت أبواب الرافقة أولا على سور عمورية، فلما فتحها المعتصم في سنة ٢٢٣هـ نقلها إلى سامراء لما شرع في بنائها سنة ٢٢١هـ ثم نقلت من سامراء^(١٥٦) لما خربت (خرج منها المعتضد وتخلّى عنها سنة ٢٨٩هـ) إلى الرافقة (هي الأصل: الرقة). ثم إن الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز محمد بن عبد الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب جدد باب قسرين في حلب عام ٦٥٤هـ ونقل إلى بنائه الحجارة من الناعورة (موضع بين حلب و بالس فيه قصر لمسلمة بن عبد الملك من حجارة، وبينه وبين حلب ثمانية أميال، من برج كان بها من أبرجة القصر الذي بناه سليمان بن عبد الملك فيها)، كما نقل أبواب الرافقة التي خربت سنة ٦٥٧هـ كما سيجيء). ثم لما استولى التتر على حلب كان باب قسرين أول ما خرب منها، ثم لما خرجت التتر عنها وملكها الملك الظاهر أبو الفتح بيبرس (سنة ٦٥٩هـ) نقض حديد المصنح به ومسأميره وحمل إلى دمشق ومصر^(١٥٧). ولم ير بشيء مثل أبواب الرافقة^(١٥٨).

يقول ابن العبري (٦٢٣-٦٨٥ هـ): ولما كنت أسقفا في حلب أتى بأبواب الرافقة، فالبابان (المصرعان) الكبيران كانا بكاملهما من الحديد، واستخدما لباب قسرين من أبواب حلب، أما البابان (المصرعان) الصغيران فلم يتح الوقت لوضعهما في مكانهما لأن المغول سرعان ما حاصروا حلب، وقلبوا أسوارها وخربوا أبوابها^(١٥٩).

يصف الغزي باب قسرين الواقع في جهة الجنوب من حلب اذ يقول أنه يتألف من أربعة أبواب: باب يلي المدينة، وباب يلي البرية، وبابان بينهما، وهو لضيق قلعة الشريف^(١٦٠) والذي

يلفت النظر في رواية ابن شداد أن مدينة الرافقة بنيت عام ١٥٨هـ أي قبل بناء مدينة سامراء (عام ٢٢١هـ) بأكثر من ستين عاما وإن هارون استقر في الرافقة منذ عام ١٨٠هـ، وأكمل بناء سورها الخارجي، فهل بقيت الرافقة طيلة المدة بين بنائها عام ١٥٨هـ وخراب سامراء (بعد ٢٨٩هـ) بدون أبواب رغم أن هارون الرشيد استقر فيها في هذه الفترة، أم كان لها أبواب ثم حل محلها أبواب سامراء، أم أن الأمر غير هذا وذلك.

وما دمنا وجدنا تشابها كبيرا بين مسيرة حياة مدينتي بغداد أو الرافقة ابتداء من بنائهما حتى خرابهما سواء في الخطط أم في السور أم في الأسواق أم في الأبواب التي نقلت في كل منهما من أماكن أخرى، فعلياً أن نتوقع لأبواب بغداد نهاية مماثلة لأبواب مدينة الرافقة. والواقع أنه في عام ٣٥٠هـ بنى معز الدولة البويهني داره بقصر فرج من بستان الصيمري، وهدم ما جاورها من العقارات، وابتاعها من أهلها... وقلع أبواب الحديد التي على مدينة المنصور والتي بالرصافة^(١٦١) وليس أبواب بغداد ونقلها إليها، وذلك قبل أن تنزع أبواب الرافقة بأكثر من ثلاثمائة عام.

ولعل السبب في نقل أبواب المدن الإسلامية يعود إلى فقر العالم الإسلامي بالحديد الذي كان يتم استغلاله في أغلب الأوقات ابتداء من رسوبات سطحية متفاوتة في تأكسها، ولكنها سهلة الاستغلال جداً، وهذه الأماكن معروفة منذ زمن طويل تقع في لبنان وفي أفريقيا الشمالية وفي إسبانيا، ومن ناحية أخرى كان الحصول على عشرة كيلو غرامات من الحديد الصافي يستدعي تأمين ١٥٠/ متراً مكعباً من الخشب، مع أن الخشب كان قليلاً في العالم الإسلامي، مما جعل صناعة الحديد فيه محدودة وضامرة. وقد اعتمد العالم الإسلامي في تأمين الحديد اللازم على الهند وعلى الغرب الهمجى في أوروبا بالدرجة الأولى^(١٦٢).

٨- أهمية مدينتي الرقة والرافقة

احتلت منطقة البادية بين العراق والجزيرة والشام منذ العهد القديم مكاناً مميزاً سواء بسبب أهميتها التجارية كطريق مواصلات، أم العسكرية، أم الأمنية بسبب إشرافها على القبائل العربية من كلب وغيرها. وتميزت تدمير في العهد الروماني كقاعدة لزنوبيا بنت حولها مملكتها. وفي صدر الإسلام تمركز أبو عبيدة في البلس. وفي ولاية مسلمة تملك الأراضي في البلس ومد أقيمية المياه فيها، وبنى حصن مسلمة، وكان أغلب سكّنه في الناعورة رغم أملاكه الواسعة، وبنى سليمان بن عبد الملك قصراً في الناعورة أيضاً. وأقام عمر بن عبد العزيز في خناصر، وأقام هشام بن عبد الملك في الزيتونة ثم في الرصافة وبنى الحير الشرقي، وكان استثماراً زراعياً ومحطة للقوافل، وطريقاً للقبائل. وفي عهد مروان بن محمد، تمركز الجند الشامي في الرصافة والحير الشرقي.

ولا شك أن المنصور، المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، بعد أن بنى مدينة السلام في مكان حاز رضاه بحيث تتأمن له الحماية والاتصال بالمشرق وسهولة المواصلات والتجارة والتموين، فكر في إنشاء مدينة الرافقة التي تشرف على الثغور والشام كي تحل محل الرقة والرافقة والحير الشرقي عند الأمويين وتؤمن تموين الجيوش العربية المتجهة إلى البلاد البيزنطية وأرمينية، كما تؤمن الاتصال ببلاد الشام ومصر والمغرب. وكان من رأي المنصور أن يستقر ولي العهد المهدي في الرافقة لولا ما جد من الظروف. وفي السنة التي مات فيها المنصور (١٥٨هـ)، عاد فيها المهدي إلى بغداد، وقد لجأ الرشيد فيما بعد إلى الرقة وأقام فيها مدة تزيد على المدة التي أقامها في بغداد.

تولى عبد الصمد بن علي من ابن أخيه السفاح ولاية الرصافة، وإليه لجأ أخوه عبد الله بن علي حين هزمه أبة مسلم الخراساني.

كانت الرقة زمن الرومان والبيزنطيين قاعدة عسكرية في وجه الفرس ومركزاً للتبادل التجاري معهم، ومركز مواصلات.

وقد توفر في كل من الرقة والرافقة :

- المياه العذبة من الفرات والبلخ.
- الميرة المستمرة على البر والنهر.
- اعتدال المكان.
- القرب من المراعي ومن الأخطاب.
- النهر الذي يحيط بها ويروي بساتينها ويحمل أثقالها وأقذارها.
- التحصينات من سور وأبراج وخندق وغير ذلك.
- الوقوع على طرق المواصلات البرية والمائية.

فكانت مدينة الرافقة بعيد بنائها مدينة ملكية محصنة، ومدينة إسلامية بما فيها من المسجد الجامع وغيره.

٣- المساجد في الرقة والرافقة

أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها (حديث^(١٦٣)) منع في بغداد الجلوس على الطريق والجامع على القصاصين والمنجمين^(١٦٤).

تميزت المدينة الإسلامية بالمسجد الجامع والأسواق، وهما مكان اجتماع الناس من كافة الطبقات ولكن المسجد أقرب إلى الله والسوق أقرب إلى الدنيا. والمسجد الجامع أينما كان ملك لجماعة المسلمين حتى ولوبيته الدولة، ولكل واحد منهم نصيب فيه وأغنى الأسواق واهدؤها تكون أقرب إلى المسجد الجامع وكلما قلت قيمتها أو ازداد ضجيجها أو كثرت أوساخها كلما ازداد بعدها عنه والمسجد الجامع وما حوله مما حوته الرحبة الداخلية من دار الإمارة والدواوين. كان أول ما خطط ونفذ حين بنيت واسط ثم بغداد ثم الرافقة. ويكون في البدء جامعاً واحداً يرد إليه الناس ليصلوا صلاة الجمعة من جميع القرى المجاورة ولذلك يكون في وسط المدينة ليكون قريباً من كل مكان فيها وتنتهي إليه كل الشوارع الرئيسية في المدينة آتية من أبواب المدينة كي يسهل الوصول على من يريد أن يقصد الجامع أو دار الإمارة أو الدواوين ومن المفروض أن يكون المسجد الجامع على درجة من اتساع بحيث يتسع لاستيعاب جميع المصلين من المدينة في صلاة الجمعة لأنه المسجد الجامع الوحيد في المدينة ويظل الأمر كذلك إلى أن تتوسع المدينة ويفتقر الفقهاء بجواز إشادة أكثر من مسجد جامع في المدينة أو في الرض الذي أصبح يعتبر مدينة قائمة بذاتها ومفصولة عن المدينة الأم بنهر أو سور أو غيره وقد حدث هذا في دمشق وفي بغداد وفي الرافقة. كان المسجد الجامع رمزا للدولة الإسلامية نظرا لكثرة ما يحمله من أعباء ففيه:

- يجتمع الناس لصلاة الجمعة بالدرجة الأولى لأنه لا تجوز إلا في المساجد ولذلك سمي المسجد الجامع.

- يجتمع الوالي بالناس ليلبغهم ما يريد أو يقرأ لهم كتاب الخليفة^(١٦٥).

- يجلس القاضي للنظر في القضايا المعروضة عليه وهو في أتم سكونية ووقار لأنه في بيت الله ولا سلطان عليه إلا الله، كما يجلس الفقيه للفتوى^(١٦٦) والقاص^(١٦٧) يقص القصص الدينية.

- يجلس فيه العلماء والادباء ويلتف حول كل منهم المريدون والمتعلمون، وكل من هؤلاء العلماء والادباء قد وصل إلى هذا المكان لا بأمر الخليفة بل بعلمه وأخلاقه التي شهدت له بها الجماعة، وعلى هؤلاء العلماء يتخرج علماء جدد فيسلكون الطريق التي سلكها شيوخهم من قبل وإذا لم تثبت جدارتهم سقطوا وجاء من هو أحق منهم. وفي مسجد وابصة في الرقة قرأ أحمد بن يزيع القرآن بقراءة عاصم على أبي سليم عبيد بن يحيى مولى بني أسد^(١٦٨).

- ينشد الشعراء أشعارهم كالفرزدق وجريز على سبيل المثال^(١٦٩).

- يتناقش فيه الناس في احوالهم.
- يقصده الغريب عند وصوله المدينة فيجد من يستضيفه، أو يساعده في محتته، أو يعينه في تجارتها^(١٧٠).

- يستريح الناس وخاصة من ليس له مأوى اذ كان ابو بكر محمد بن داود المتوفي سنة ٣٣١هـ ليس له بيت بل ينطرح في المسجد ويطوي فيه أياما^(١٧١). وقال ابن شهاب الزهري: العمائم تيجان العرب، والحبوة حيطان العرب، والضجوع في المسجد رباط المؤمنين^(١٧٢).

- وفي فناء الجامع يعرض الباعة بضاعتهم.

لقد كان الخلفاء، الاولون لا يقلدون الصلاة لغيرهم من الناس، وكذلك كان رجال الدولة الأموية من بعدهم، استثنأا بها واستعظاما لرتبتها. واستتاب الخلفاء العباسيون في الصلاة، لكنهم كانوا يستأثرون بها في بعض الاحيان في الصلوات الهامة كالعيدين والجمعة اشادة وتبويها^(١٧٣).

وفي المساجد كان يوجد أحيانا أهل الاهواء والفرق ويتكلمون حسبما يشاؤون ويستمتع اليهم من يريد^(١٧٤)، حتى ان منصور النمري (الرقبي) اعتنق مذهب الامامية الرافضة وهو يسمع كلام داوود الرقي الرافضي عند ساريتها في المسجد^(١٧٥).

وبدأ وجود المسجد الجامع عندما كتب به عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الاشعري وهو على البصرة، يأمره ان يتخذ للجماعة مسجدا، ويتخذ للقبائل مساجد، فاذا كان يوم الجمعة، انضموا إلى مسجد الجماعة وشهدوا الجمعة. أي ان عمر امر ان يتخذ في المدينة الواحدة مسجدا واحدا تقام فيه صلاة الجمعة ويحضرها جميع القادرين من المسلمين في تلك المدينة، اما المساجد التي لا تقام فيها الجمعة فلم ينه عمر عن الاكثار منها^(١٧٥).

وكمثال على المجالس في المساجد وتنوع ما يجري فيها ما ذكره القشيري (الفقرة ١٧١):

كان لنوفل بن فرات بن مسلم (ولاه المنصور على مصر وعزله ثلاث مرات بين عامي ١٤١-١٤٣هـ) مجلس في مسجد حلب يجلس اليه أهل الادب، وكان فيمن يغشى مجلسه رجل من أهل السوق، فكان اذا طلع الرجل، قال (نوفل) لجلسائه: اعطوا اخاكم حظه من المجلس. فاذا جاء أقبل عليه فقال: كيف اسعاركم؟ ثم يسأله عن اصناف التجارة، ثم يقول لأصحابه: خذوا في حديثكم^(١٧٦).

١) المسجد الجامع بالرقعة

تقدم ان عياضا بن غنم لم يبق في الجزيرة بعد ان فتحها بل سارع للذهاب إلى حمص بسبب قاهر، وهناك فارق الحياة، وولى عمر بن الخطاب الجزيرة سعيد بن عامر بن حذيم فبنى في الرقة المسجد الجامع من الآجر واستخدم في بنائه انقاض الرخام من المدينة القديمة (الرقعة البيضاء). وقد خرب المسجد الجامع مع خراب الرقة. وكان موقع الجامع خصب المقدسي في البزازين (بائعى البز أي الثياب أي في مركز المدينة) وكان فيه شجرتا عناب وشجرة توت. وفي المتحف الوطني بدمشق، تيجان واعمدة يظن أنها من العهد البيزنطي، لكن احدها مؤكد أنه بيزنطي، وكان على وجهه صليب، نحت البناء الذي استعمله الذؤابة العليا من الصليب فقط فصار وكأنه وردة تزيينة.

ولا زالت اثار مأذنة المنير في خرائب الرقة القديمة شاهدا على المدينة المنثرة الواقعة شرقي الرافقة (الرقعة القديمة حاليا) (مجلة الحوليات الاثرية السورية، المجلد ٧ ص ٥٨ ابو الفرج العشي). وسعيد بن عامر بن حذيم والي الجزيرة المشار اليه كان قد شارك في جيش الفتح على ميمنة عياض بن غنم ولم يقبل فيما بعد أي راتب عن امارة الجزيرة واكتفى بعهائه كجندي ومات عام ٢٠ او ٢١هـ.

٢) بعض أئمة المسجد الجامع بالرقعة

نعرف من الذين تولوا الامامة بالمسجد الجامع بالرقعة الأئمة الآتية اسماؤهم.

- ابو سعيد بن عبد الله الرقي.
- اجلح^(١٧٧).
- وهب بن راشد^(١٧٨).
- احمد بن الربيع بن طلحة الرقي يتولى ربيعة مات قبل سنة ٢٥٠هـ^(١٧٩).
- ابن كهمس^(١٨٠). لعله قريب لمحمد بن يحيى بن كهمس الاسدي الذي توفي بالرقعة سنة ٢٣٧هـ^(١٨١).
- سعد بن يحيى ابو عبد الله^(١٨٢) خلفه في امامة المسجد جعفر التالي اسمه.
- جعفر بن محمد بن عمر بن عبد الحميد الميموني ابو عبد الله إمام مسجد الجامع بالرقعة بعد سعد بن يحيى وكان منزل فياض بن محمد بن سنان (توفي بعد المائتين) ملاصقا للمسجد بالرقعة^(١٨٣).
- محمد بن أسد ابو طاهر الاشعري، إمام جامع الرقة. روى عن أبي سهل بن زياد والخلدي، وقرأ بالروايات على النقاش وأبي طاهر عبد الواحد بن أبي هاشم. روى عنه: ابو سعد الماليني، وابو نصر السجري، توفي قبل الأربعمائة هجرية (تاريخ الإسلام الذهبي ٣٨١-٤٠٠هـ).
- ٣) المساجد بالرقعة (أي التي تقام فيها الصلوات العادية باستثناء صلاة الجمعة).**
- مسجد معلق على عمود بالقرب من المجد الجامع^(١٨٤) ومعناه مسجد في الطابق العلوي يقوم على أعمدة او قناطر وكان هذا النوع من المساجد (وليس الجوامع) منتشرا في العالم الإسلامي^(١٨٥) مثل مسجد الكشك في دمشق 'ابن عساكر ٢/٢٢٠ ومسجد السقطيين بدمشق أيضا وكان له سلم حجارة و سلم خشب آخر (ابن عساكر ٢/٥٥) وكتب المحقق هامش (ابن عساكر ٢/٢٣٦) اذا كان المسجد في طباق أي طبقة فوق فهو علو او معلق.
- مسجد بني وابصة قرأ فيه احمد بن بزيع القرآن بحرف عاصم على أبي سليم عبيد بن يحيى قبل المائتين^(١٨٦).
- مسجد ابن الصباح: وكان قرب باب الحجرين او الحجرتين (أي في غربي المدينة وقرب سورها) وبجذائمه طاقات رومية هدمت وفيها منزل يونس بن أبي شبيب^(١٨٧).
- مسجد قريش: بناه رجل يسمى قريشا، فنسب اليه، وهو عند دار الرماح^(١٨٨).
- مسجد ربيعة الرقي: انتهى جوارى المهدي ان يسمعن ربيعة الرقي، فوجه اليه المهدي من أخذه من مسجده بالرقعة، وحمل على البريد حتى قدم على المهدي^(١٨٩).
- مسجد الجنائز: ورد باسم الجنائز في بعض المراجع^(١٩٠)، ولكنه ورد مسجداً باسم مسجد الجنائز في دمشق^(١٩١) وفي بغداد مسجد الجنائز، يصلى فيه على الموتى^(١٩٢). ومسجد الجنائز في الرقة يقع عند باب الحجرين أي خارج السور، وكان يعمره ابو عبد الله الزينبي ويسكن قلاية قرب باب الحجرين إلى جانب المقبرة^(١٩٣).
- ٤) مساجد الرافقة التي صار اسمها (بعد خراب الرقة) مدينة الرقة.**
- المسجد الجامع بالرافقة: هو في الصاغة^(١٩٤) هكذا وصفه ابن حوقل والمقدسي كما عرفاه في القرن الرابع ، ونحن نعرف أنه حين بنيت الرافقة لم يكن داخلها أي سوق وكان داخل الرحبة مخصص للأمير والدواوين فقط كما جرى الحال من قبل في بغداد ولذلك فان سوق الصاغة المشار اليه آنفا إنما احدث حين لم يكن الخلفاء والأمراء يقيمون داخل الرافقة بل في قصور بنوها خارجها. وكانت منارة مسجد جامع الرافقة قرب قبر وابصة^(١٩٥) عمر محراب هذا المسجد الجامع ابو الاخنس فروخ مولى وابصة بن معبد الاسدي^(١٩٦).

١٤) المسجد الجامع في مدينة الرافقة (الرقعة القديمة حاليا)

يقع هذا المسجد الجامع في قلب مدينة الرافقة، يعود تاريخ بنائه إلى عهد تخطيط وتأسيس مدينة الرافقة أيام الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور عام ١٥٥هـ، وقد بني على شاذلة جامع المنصور في مدينة بغداد. ويلاحظ أن المساجد العباسية الكبيرة في هذا الدور يغلب عليها مظهر الحصون، حيث زودت بالأبراج الدائرية.

للمسجد محيط مستطيل طوله ١١٢م وعرضه ٩٨م، وقد بني من اللبن في بداية عهده، ثم جددت بعض أجزائه بالأجر أيام الخليفة هارون الرشيد.

رعم المسجد السلطان السلجوقي نور الدين محمود بن زنكي عام ٥٦١هـ، وقد أرحت الترميم لوحة كتابية قائمة على قنطرة حرمه الوسطى، وفي واجهته المطلية على الصحن.

للمسجد سور يحيط به عشرون برج، وتبدو أبراج الزوايا الأربعة أكثر فخامة من بقية الأبراج وندى الكشف والتقيب في برج الزاوية الشمالية تبين أنه يحيط بدرج يرتقي إلى النهايات العليا لجميع الأبراج الأخرى.

من الخصائص المميزة للمسجد الرواق المزدوج إذا أن أروقته الثلاثة في الشمال والغرب يتألف كل منها من صفين من البوالتك، وهي متهدمة في الوقت الحاضر.

نشاهد من آثاره حاليا، واجهة الحرم ذات الإحدى عشرة قنطرة كلها مشيدة بالأجر وتعود إلى عهد نور الدين، الذي أصلح الجامع الكبير عام ٥٦١هـ، ومن هذا البناء الواسع بالأجر بقيت الواجهة الشمالية من حرم الصلاة بطول ٦٥م والمئذنة بارتفاع ٢٥م وجذعها اسطواناني بدون زخرفة، وتستند إلى قاعدة مكعبة (من الحجر الكلسي). وهذا الطراز من المنارة وجد أيضا إلى الشمال من الرقعة في قلعة جعبر وصفين وبالس، ويبدو أنه يجتاز وادي الفرات (اليسيف ٧٧١/٣) و(١٩٧).

٥) المسجد الجامع في رضى الرافقة (١٩٨)

أبو العباس محمد بن علي بن سلام توفي سنة ٢٨٨هـ (١٩٩) ولعله هو نفسه أبو العباس الرافقي إمام الرافقة والخطيب الذي ورد ذكره في تاريخ الموصل وهو يحدث عن أيوب الوزان (الذي توفي ٢٤٩هـ) (٢٠٠). أحمد بن عبد العزيز بن محمد بن حبيب السلمي، أبو الطيب المقدسي الواعظ، إمام جامع الرافقة سافر إلى البلاد وسمع الحديث وكان يعظ الناس. توفي سنة ٥٣١هـ (٢٠١).

٤- فنادق الرقعة وخاناتها

انتشرت في الأندلس الفنادق للتجار الغرباء وأخذها المشرق بعد ذلك عنها فشاعت خاصة منذ العصر الصليبي في القرن السادس الهجري وما بعده، وإذا كانت القيسارية في طابقتها الأرضي سوق فالفندق في طابقه الأرضي مخزن لبضاعة التجار الذين ينزلون في طابقه العلوي. والكلمة آتية عن اللفظ اليوناني pandoklan وكان يعرف في الدولة البيزنطية باسم ميتاتا ويعرف في الإيطالية بكلمة fondal (والتي أخذ عنها اللفظ العربي) وكان التجار يفلقون غرفهم عليهم بأقفال رومية.

وجدت الخانات مع الفنادق، وهي ابنية للدولة تخصص لشركة أو مجموعة من التجار أو لبضاعة معينة تقوم فيها أعمال بيع هذه البضاعة غير أنها أكبر في المساحة وأكثر دقة في التخطيط، وقد عرفت مصر منذ القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي، وعلى أي حال فقد كانت الفنادق والخانات والوكالات تبني لخدمة التاجر الركاض الذي ينتقل من بلد إلى آخر ويهمه أن يجد السكن والأمن في المدينة التي ينزل بها. وكانت كل مؤسسة من هذه المؤسسات مكتملة المرافق ففيها مخازن لايداع البضائع والأموال، وغرف النوم والراحة، وحمامات للاستحمام، كما أن فيها قاعة لعجن العجين وفرنا للخبز وأماكن للمزاب وأخرى للأسر، ومواضع (إسطبل) للدواب (٢٠٢).

٥- حاذات الرقة

وكان يتبع الكنائس، فنادق وحوانيت وابنية مماثلة (ميخائيل ٧٤١٣)، كما كان يلحق بالاديرة
اماكن لاستقبال المسافرين والزوار وتأمين نومهم وراحتهم.
- حانة ام مريم في الرقة في العهد الأموي.

قال الأخطل :

إذا الرقة البيضاء لاحت فزوجها فدى كل عطار بها أم مريم

فزوجها: نواحيها

حانة أم مريم: خمارة جعل الاخطل خمرها أطيب مما عند كل العطارين^(٢٠٣).

ومما نجد في العهد العباسي: الخمارات التالية:

- حانة بشرة في الهني والمري: وكان لبشرى بنت من احسن الناس وجهها، فكان إسحاق
ابن ابراهيم الموصللي يألف تلك الحانة وبتغزل ببنت بشرة ويصنع فيها الالحان^(٢٠٤) وورد ذكرها
في الاغاني ٢١٩/٥.

- حانة لم يرد اسمها: حين كان إبراهيم الموصللي مرافقا للرشييد بالركة يقصد خمارا
يعرفه فأما ان يشتري منه شرابا حسنا ويأخذ معه او يشرب في حانته فيملأ له في الدن باطية
(أي إناء من الزجاج) ويضعها بين يديه^(٢٠٥).

- حانة توما في الرصافة: قصدها إبراهيم الموصللي بعد ان وصف له خمارها بالظرف
والنظافة وأقام عنده ثلاثا ثم أوصله إلى الخليفة الرشيد بعد ان قص قصته عليه فأكرمه
الرشيدي^(٢٠٦).

- حانة في تل عزاز في الرقة: غاب فيها إسحاق الموصللي ثلاثة أيام خفي خبره أثناءها
عن الرشيد فسقته الخمارة شرابا لم ير مثله حسنا وطيبا في بيت مرشوش وريحان غص،
وخدمته بنت للخمار لم ير أطرف منها ولا أفتى، فعمل فيها لحنا شرب عليه فيما بعد الرشيد
وندماء ليلة ونهارا^(٢٠٧)، وتل عزاز هذه في الرقة كما ذكر ياقوت نقلا عن كتاب أبي الفرج
الاصبهاني في كتاب الأديرة^(٢٠٨)، وهي غير عزاز حلب.

وقد وصف ربيعة الرقي حفلة سكر فقال:

قد سقطني وسقته قينة ذات عمة صاص

ففي اباريق لجين لا اباريق رصاص^(٢٠٩)

ولدينا اذكن الجلدة كالأزنجي شاصي

اذكن الجلد: كناية عن زق الخمرة. شاصي: من شصت القرية أي ملئت ماء، والزق اذا ملئ
خمرا فارتفعت قوائمه وشالت. والزق: وعاء من جلد يعجز شعره ولا ينتف، للشراب وغيره، اذكن:
يضرب إلى الغبرة بين الحمرة والسواد. عقص الشعر: ضفره ونيه على الرأس. والعقاص: خيط
تشد به اطراف الذوائب.

٦- الاديرة والكنائس والكهنوت

الدير: مقام الرهبان يتعبدون فيه اعتزالا للناس وانقطاعا لله بالعبادة والتأمل متسكين،
زاهدين، متزهين عن النساء وعن اكل ذوات الارواح، وما يخرج منها الا العسل والسبك ويكون
الدير كبيرا كثير المرافق والمحاريب فإذا كان صغيرا يقال له 'الصومعة' ويقال للرهبان ساكن الدير
'ديار' و'ديراني' وللرهبنة 'ديرية' و'ديرانية'. والرهبان والرواهب يلازمون لبس المسوح وخدمة

الدير ولكل دير رئيسه القيم عليه. والاديرة على خلاف الكنائس لا تكاد تكون في الامصا، بل أكثر ما تكون بعيدة عن العمار، في ظواهر المدن وفي رؤوس الجبال، وتقام في اجمل المواقع وانزه البقاع. **والكنيسة:** هي مجتمع عامة النصارى للصلاة وليس في ارتفاع بنائها طبقات. والبيعة أصغر منها ورجال الكنيسة من شمامسة وقساوسة او اساقفة ليسوا كالرهبان في التوحيد والتسك، وهم موكلون^(٢١٠) بخدمة الناس في امور العبادات واقامة الصلوات ومناولة القرى وما شاكل ذلك. وكان البطاركة والاساقفة ينتخبون دائما من بين الرهبان. ويجئ بالترتيب الكنسي بعد البطررك الاساقفة الذين كانوا يرسمون من قبل البطررك.

تقسم الكنيسة إلى أبرشيات، على رأس كل منها مطران يعينه البابا (في الكنيسة الكاثوليكية) وفي كل أبرشية عدة كنائس يديرها كهنة (رعاة) لخدمة المؤمنين. ويدير البابا الكنيسة الكاثوليكية بواسطة الكرادلة في روما، والمطارنة في جميع انحاء العالم. ويدرس الكهنة قبل اطلاقهم بمهتهم العلوم الدينية خمس اوست سنين ويدربون على عملهم في معاهد دينية خاصة تحت ادارة المطارنة (٢١١). **هيكل:** موضع في صدر البيعة يصلي فيه الاكليروس عند تقدمه القرى. وربما أطلقه البعض على بناية البيعة بأسره او صحنها^(٢١٢).

(١) الاديرة او الديارات

الدير: كلمة سريانية الأصل، ويدعى في العراق العمر أيضا، وهي كلمة لا يعرف أصلها وبأستثناء الاديرة البعيدة التي قد لا يزيد احدها عن كونه صومعة، يتألف الدير عادة من عدة مباني منها: الكنيسة او البيعة، والقلايات او القلالي (جمع قلية: كلمة سريانية الأصل) ومبان ملحقة مثل الدكاكين والخانات.

كان الدير يؤلف في الواقع مركزا زراعيا متطورا ويكسب من الأراضي التي يزرعها - كالكروم وأشجار الزيتون وأشجار النخيل - عائدات يسد بها حاجاته، وكانت تجعل حصينة بأن يبني لها تحصينات او بأن يختار لها مواضع منيعة (كجانب جبل او نفق صخري) وبذلك يكون المدخل اليها غير عادي. وقد تقدم في بحث (التركيب الطبقي في المدن السورية) ان الاساقفة السوريون كانوا يملكون قرى بأكملها. وكانت الاديرة بمثابة حصون محاطة بالبساتين والأشجار المثمرة. ومنذ القرن الرابع الميلادي أخذ المؤمنون المسيحيون الذين لا وريث لهم يوصون باملأهم للكنائس والاديرة. كانت الاديرة المسيحية مراكز للحياة الدينية والعقلية في السنوات الأولى للإسلام (فقد وضعت في دير الأعلى في الموصل مثالا قواعد الطقوس الدينية التي اعتمدتها الكنيسة النسطورية في القرنين الثالث والرابع للهجرة)، كما لعبت دورا هاما في نشر الأعمال الاغريقية الكلاسيكية اذ جرت ترجمتها عموما إلى السريانية أولا ثم إلى العربية، وكان في بعض الاديرة مكتبات هامة كمجموعة دير كاترين.

وفضلا عن ذلك فان بعض الاديرة (العراقية مثلا) والجاليات المسيحية التابعة لها كانت مصدرا هاما لكتاب الدواوين في العهد العباسي الذين اشتركوا في الإدارة ووصل بعض من اسلم منهم إلى مرتبة الوزارة.

كانت الاديرة أيضا عاملا هاما في الحياة السياسية والاجتماعية للعالم الاسلامي، وكانت ابوابها مفتوحة دون تمييز لجميع المسافرين بما فيهم عليا القوم، والواقع أنها كثيرا ما كانت محطة أكثر امنا من غيرها وذلك مثل دير زكي في الرقة أيضا ودير الانبار حيث توقف فيه هارون الرشيد وحاشيته سنة ١٨٧هـ وفيه قتل جعفر البرمكي.

وكانت الاديرة تجتذب الزوار المسلمين بسبب ما ألحق بها من الحانات التي كانت تتيح لهم ان يعبوا ما شاؤوا من الخمر، وكان لكل دير عيد يحتفل به كل عام. وكانت مباني الدير تحف بها اماكن

التسلية بل والفسق أيضا، وخاصة اذا كان الدير قريبا من احدى المدن الكبرى، ولذلك وردت الديرية في شعر الخمریات والمجون، وكثرت القصص حول السلوك المريب لبعض سكان حاناتها^(٢١٥). وقد شغف عدد من أهل الامصار بالتطرح في الديارات على تعاقب العصور. قال الشاعر في زمن المعتصم حين نزل دير عاقول على شاطئ دجلة:

اقمت بالدير حتى صار لي وطننا من أجله، وبست المسح والصلبا
وصار شماسه لي صاحباً واخا وصار قسيسه لي والداً وأباً^(٢١٦)

وألف ادباء القرنين الثالث والرابع للهجرة كتباً كاملة عن تلك الديرية جمعوا فيها ما قيل فيها من شعر وقصص، ومن بينهم هشام الكلبي وأبو الفرج الأصفهاني والسري الرفاء الشاعر والخالديان والسهمياني (٢٧٢-٤٥٢هـ) والشابشتي وقد وصلنا كتاب الشابشتي واسمه الديارات.

وكتب جيران تروبو مقالا عن الديارات المسيحية في الادب العربي ألخصه فيما يلي:
يظن بعضهم أن الديرية المسيحية كان يرتادها من المسلمين عليه القوم والعاطلون والفاسقون ولكن هذا ليس صحيحا إذ كان روادها من جميع الأوساط حتى البسيطة منها ويرتادونها بكل حشمة وأسباب ذلك على نوعين أسباب دنيوية، وأسباب دينية.

الأسباب الدنيوية:

١. النزهة بسبب موضع الديارات البهيج فهي خارج المدن وعلى ضفاف الأنهار او الاقنية وسط الحدائق التي يزرع فيها الرهبان الخضار والنباتات العطرية والازهار من كل صنف، وتحيط بالديرية بساتين الاشجار المثمرة واشجار الزيتون والنخيل والكروم.
٢. التمتع بالخمور لأن زراعة الكرم كانت احدى اوجه النشاط الزراعي الهام للرهبان وبالقرب من بعض الديرية كان يوجد حانات تديرها نوادل مسيحيات وربما رهبان أيضا وكان المسلمون يرتادونها ومعهم موسيقيون ومغنون.
٣. الاستمتاع بكرم الضيافة، فالغالب ان الديرية تقع قرب الطرق العظمى فتشكل الديرية منازل ينزل فيها المسافرين ويتوقفون طوعا وتمتلك عدة اديرية فندقا مستقلا عن باقي الدير وممن يحظى بهذه الضيافة أيضا الصيادون الذين يمرون قرب الدير.
٤. التمتع بعاطفة الحب والرغبة في تأمل جمال الفتيات المسيحيات غير المحجبات والمتزينات بأجمل الحلي.

الأسباب الدينية

١. شهود الاعياد المسيحية لأنها أكثر عددا من اعياد المسلمين، ويسبب جمال طقوسها.
٢. تقديس القديسين وتقديس النذور إذ اشتهر بعض القديسين بشفاء بعض الأمراض والمسلمون أقل زيارة لهذا السبب.
٣. شهود بعض المعجزات او العجائب وان كان المسلمون أقل تصديقا لذلك من المسيحيين^(٢١٧).
وإذا نحن ذكرنا ان الخمر طلق عند النصارى مرخص بها، وان الخمر فوق ذلك تدخل عند النصارى في أسرار القربان المقدس ومرأسمة (القربان المقدس: خبز يقدم في القداس عند الكاثوليك الأرثوذكس تصنعه الكنيسة من دقيق صاف على هيئة قرص)^(٢١٨)، لم نعجب لهذا الذي نراه من عناية الديرية وبتوفير الكروم فيها، واتخاذ المعاصر لها، والخبرة بصناعة الخمر واحكام تصنيفها حتى كان أفراد النصارى انفسهم ومع ما في قصورهم من الشراب الجيد، لا يضيعون فرصة للشرب من خمر الديرية كلما أمكن.

يشتمل الدير على عدد من الأبنية، وحوله في غالب الاحوال كالحصن (سور منيع يطيف به ..) وفي المقدمة من الدير دار الضيافة، وبها يلم المسافرون المجتازون، وفيها بيوت الاضياف النازلون يوما او بضعة أيام. ولكل من طرق الدير من الناس ضيافة قائمة على قدر المضاف لا يخل بها. وإلى جانب دار الضيافة بيت القيم على الدير والكنيسة^(٢١٩).

ومن وراء ذلك جميعه يأتي مسكن الرهبان. وهنا تنقسم الاديرة نوعين على حسب ما يجري عليه الرهبان في معيشتهم. فإن كانوا على نظام المعيشة المشتركة. وهي الشائعة إلى زماننا في الاقطار المسيحية. فمسكن الرهبان مبنى واحد في مؤخر الدير مشترك بينهم لا ينفرد واحد منهم بشيء، فلهم جميعا بيت للطعام وبيت للنمام وخزانة كتب للتفقه في الدين وفيها يشغل بعضهم بنسخ الاسفار الدينية القديمة، وجملة حجرات تعرف بالقلالي للعمل اليومي يزاولون فيها إلى جانب أعمال الزراعة. ما يحتاج اليه من الصناعات اليدوية الصغيرة. ولهذا المسكن العام فناء يدور حوله طوار^(٢٢٠). لمشي الرهبان ساعة او بعض ساعة من النهار. واذا كان الدير للرهبان والرواهب كان فيه مسكنان: احدهما للنساء والآخر للرجال. ومن وراء المساكن: مرافق الدير المختلفة من مخازن غلاته ومعاصر كرومه وغيرها.

واما الاديرة التي كانت تجري على غير نظام المشاركة المطلقة، وكانت كثيرة في الشرق على ما يظهر. فإننا نجد في معظم ماورد الشابشتي وياقوت وابن فضل الله العمري في اوصاف الاديرة أنه كان حولها للرهبان قلالي كثيرة، وهي قلالي منفصلة عن الدير قد انفرد كل راهب بواحدة منها. والقلية (ويقال القلاية) بناء مرتفع دقيق الاسفل كالمنارة ينفرد الراهب بها والسور محيط بها جميعا وقد لا يكون لها باب ظاهر والصومعة دونها. ويتبع كل قلية بستان فيه البقول والرياحين والاشجار ذات الثمار، يقوم الراهب على تعهد زراعتها، والارتفاق ببيع غلتها. وقد ذكر الشابشتي ان الرهبان كانوا يتبايعون هذه القلالي بينهم وبلغت في بعض الاحيان الف دينار، وهذا الثمن للقلية منظور فيه إلى ارتفاع الغلة وقتئذ حتى ليبلغ مئتي دينار^(٢٢١). وقد جاء في معجم البلدان لياقوت ان الرهبان الذين لا قلالي لهم كانوا يسكنون بيوتا صفارا يقال لها الاكراخ والواحد كرخ^(٢٢٢) وكان من الرسوم المصطلح عليها مع المسلمين ان يضيف النصاري من يمر بهم من المسلمين اذا لزم الحال أياما. ولا شك عندنا في ان معظم ما يروى لنا من نوادر ماجنة وحكايات شائعة على أنها وقعت في الأديرة إنما وقعت في دار الضيافة التي يقع فيها معظم القصف والعزف والسكر والعريضة ووقائع المجون والجنون^(٢٢٣).

وكان بعض الرهبان اصحاب القلايات في الأديرة يتخذون من قلاياتهم مشارب للخاصة من أهل الفن والاصدقاء او السادة الوجهاء. والخمر التي يقدمها صاحب القلية هي بطبيعة الحال من كروم بستانه، وقد تولي تعتيقها في زقاقه ودنائه، ثم هو متجهز لقصد الشراب عنده بالآنية اللطيفة النظيفة، وكانت أكثر مجالس الاصحاب عنده على سطح القلية يجلون الناظر والخاطر بما يشرفون عليه من مناظر و يشربون على قراءة الرهّابين في الكنيسة وقرع النواقيس^(٢٢٤).

٢) حانات الأديرة

ولقد كان من شأن هذا الإقبال على خمر الأديرة ان اتخذت الأديرة حانات تباع فيها خمرها، لتحفظ على بيوت العبادة عزلتها وتصلان لها حرمتها. ولما كان الدير تحفه البساتين المزدهرة بالرياحين ويجمع عنده الشجر والنخيل. وعرائش الكروم وفي ظلها المعاصر، فقد اتخذوا بين هذه المنتزهات في ناحية المعاصر حانة ملحقة بالدير تابعة له. وعلى ذلك جرت معظم الديارات، وان لم يخل الأمر مع هذا من ديارات غيرمتسعة الرقعة ولا كثيرة الطراق كانت تباع الخمر فيها لمن شاء الميرة منها.

وكانت هذه الحانات في معظم الأحيان تعقد إدارتها للقساوسة او الرهبان. وكثيرا ما كان يعين الراهب الخمار على الخدمة وتقديم الشراب بعض الفتيان من الرهبان، وهم في مسوح

الرهبانية (المسح: ج امساح ومسوح، الكساء من شعر، ما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفاً وقهراً للجسد) وعليها سود المدايع (مدايع جمع مدرعة: جبة مشقوفة المقدم من صوف خشن).

ولما كان القساوسة في الشرق يتزوجون، فقد كان القس اذا تولى الحانة من هذه الحانات استعان ببعض أهل بيته، فتارة امه وتارة زوجه وتارة ابنته الجارية الجميلة، وفي غالب الاحوال ابنه الأمرد الشماس (الشماس: دون القسس) والقس او القسيس من كان بين الاسقف والشماس يتخذ منهم الخازن والوزان والصيرفي والساقي، ولا بدع فهم موضع ثقة والمؤمنون على ماله وهم عياله وشركاؤه لا يتكلف لهم من الاجر ما يكلفه اجراؤه.

وهناك اديرة النساء أيضاً كدير العذارى وبعض الاديرة كان يضم بين جدرانها الجنسين لكل ناحية مفردة له مختصة به وكانت حانات الاديرة يطرقها السكاري أحياناً في الليل. وكانت حانات الاديرة اعمر ما تكون في الآحاد وفي الاعياد خاصة. وقد كان لكل دير عيد في وقت من السنة، عدا الاعياد المسيحية العامة^(٢٢٥).

٣) دير مار زكي

يقع في شمالي الرقة بين نهري البليخ والنيل (الذي حضره الرشيد)^(٢٢٦). في انزه البقاع، بين بساتين وأنهار وتلال وضياح^(٢٢٧). يقول الصنوبري:

كان عناق نهري دير زكي اذا اعتنقا عناق مقيمين
وقت ذاك البليخ يد الليالي وذاك النيل من متجاورين
اقام كالسوارين استدارا على كتفيه او كالدملجين^(٢٢٨).

(الدملجين، الدملج: سوار يحيط بالعضد)

وهو على باب الرقة المدعو باب الرها، أي الباب الشمالي.

وهو من احسن الديارات نوعاً، وانزهها موضعاً. وكانت الملوك اذا اجتازت به نزلته وأقامت فيه، لأنه يجتمع فيه كل ما يريدونه من عمارته ونفاسة أبيته، وطيب المواضع التي فيه، ونزهة ظاهرة لان له بقايا عجيبة. وبناحيته من الغزلان والارانب ومما شاكل ذلك مما يصطاد بالجارج، من طير الماء والحباري واصناف الطير. وفي الفرات. بين يديه مطارح الشباك للسمك، فهو جامع لكل ماتريده الملوك والسوقة، وليس يخلو من المتطربين لطيبه، سيما أثناء الربيع، فإن له في ذلك الوقت منظراً عجيباً^(٢٢٩).

وينفل محقق الديارات عن مار اغناطيوس برصوم أفرام الأول برصوم ان دير زكي من اديار السريان الكبرى المشهورة، وأنه شيد على الارجح في المئة الخامسة للميلاد، ويذكر بعض أسماء من تخرجوا منه^(٢٣٠).

يؤخذ من قصة رواها ياقوت (في معجم الادباء) نقلاً عن كتاب الديارات للشاشني. وهي غير موجودة في النص المطبوع أنه في زمن الصنوبري (المتوفي عام ٣٣٤هـ) كان في دير زكي قلايات، ينقطع اليها المترهبون لقاء مبلغ من المال وان دير زكي تحيط به البساتين^(٢٣١) ويقول مار اغناطيوس افرام ان رهبان الدير المذكور كانوا يومئذ مائتي راهب، وقد نزل هارون الرشيد في الدير^(٢٣٢).

يقع دير مار زكي فوق تل كما يظهر من شعر الصنوبري:

فالدير ذي التل المـ زرباشقـائق والبهـاء
والعمـر بالذات معـ مور الدسـاكر والديـار

والتيسل يجري فوق رضى — راض من الجزع ظفاري (٣٣)

الجزع : الذر ، الظفاري : نسبة إلى بلد ظفار ، العمر : الدير ويراد به هنا دير مار زكى
رضى : الحصى الصغار في محاري المياه .

كان دير مار زكى، أو دير زكى كما سماه العرب، مركز الزراعة والبساتين زمن البيزنطيين، وكان يقع شرقي الرقة باتجاه البليخ، وطالما ذكره الكتاب. ويسمى المكان حالياً "البينة" وكان حتى القرن العاشر مركزاً مسيحياً للعلم يسر المسلمين قصده للضيافة التي يلقونها فيه، وللسمعة الطبية التي تتمتع بها حقوله ومروجه وبساتينه المعنى بها^(٣٣٧).

ويُدعى دير مار زكى باسم العمر لأنه الاسم الذي يطلق على المواقع التي يتعبد فيها الرهبان والتي فيها مساكن للرهبان وتكون قريبة من العمران^(٣٣٨).

وقد تقدم في الأعياد عند المسيحيين الكلام عن عيد الصليب في دير مار زكى.

بستان زكى

بأزاء دير مار زكى والصالحية وهو بستان موصوف بالحسن كان منتزهها للرشد وفيه سروتان قديمتان، وقد ذكرهما عبد الله بن مظاهر في شعره إذ مر بدير مار زكى ومعه أخ له. فنزلاً فيه وشرباً ثم خرجا إلى مصر، فمات أخوه بمصر، وعاد هو فنزل بهذا الدير فقال:

أيا سروتي بستان زكى سلمتما ومن لكما أن تسلمنا بضمنا

ويا سروتي بستان زكى سلمتما وقال ابن أمي نائب الحدائق^(٣٣٩)

وذكر الصنوبري أيضاً السروتين وذكر معهما الكرخ ودير مار زكى :

حبذا الكرخ حبذا العمر لا بل حبذا الدير حبذا السروتان^(٣٤٠)

ولعل كلمة بستان زكى ترمز أيضاً إلى دير مار زكى.

وأذكر هنا: دير قتي للمقارنة بينه على صغره وبين دير مار زكى.

دير قنى

هذا الدير كان يقع على مسافة ستة عشر فرسخاً من بغداد، منحدرًا في الجانب الشرقي بينه وبين دجلة ميل ونصف وهو دير حسن، نزه عامر. وفيه مائة قلالية للرهبان والمنتبتين فيه، لكل راهبة قلالية. وهم يتاعون هذه القلالية بينهم من ألف دينار إلى مائتي دينار إلى خمسين دينار. وحول كل قلالية بستان فيه من جميع الثمار والنخل والزيتون، وتباع غلته السنوية من مائتي دينار إلى خمسين دينار. وعليه سور عظيم يحيط به، وفي وسطه نهر جاري وعيده الذي تجتمع الناس عليه عيد الصليب^(٣٤١).

أنشئ دير مار زكى في القرن الخامس وبدأ التعليم فيه في صدر المئة السادسة ودام على هذا المنوال حتى المائة العاشرة^(٣٤٢).

من رهبانه: مار يوحنا التلي بن تسورسوس الرقي النبيل (- ٥٢٨هـ)، ولد في مدينة الرقة من أسرة ثرية عام ٤٨٣هـ ونشأ منشأً صدق وحاز أدبي اللغتين السريانية واليونانية، ثم ولع بالزهد في الدنيا فترهب في دير مار زكى سنة ٥٠٦ هـ حيث اضطلع بالعلوم اللاهوتية والفقهية ورسم قسا، وسنة ٥١٦ هـ رقى إلى اسقفية تلا وهو معدود عند السريان من أفضل القديسين^(٣٤٣).

ومار قرياقس مطران آمد (+ ٦٢٣) ترهب وتأدب في دير مار زكى^(٣٤٤).

وكان رهبان دير مار زكى يدرسون علوم الدين ويتفقهون بها ومن أشهر أساتذته الملفان الريان تاودورا.

ماروثا التكريتي

رحل إلى دير مار زكي طلباً للعلم من أعلام بيعة الشرق فأقام فيه عشر سنين يدرس العلوم
الالهية ويتخرج باللسان اليوناني على الريان ثاودور توفي سنة ١٤٩ (٢٤٥).

الراهب ايثالا

وكان الراهب ايثالاها راهباً قسا في دير مار زكي في المئة السابعة (٢٤٦).

يوحنا الرابع (٨٧٣ م)

قرأ العلم وترهب في دير زكي، ورسم قسا. وفي شباط عام ٨٤٦ م اختاره المجمع المقدس

في (دير مارشيللا) بقرب سروج ورسم بطريكة لأنطاكية (٢٤٧).

وفي دير مار زكي سيم العلامة البطريرك ديونيسيوس الاول التلمحري قسيساً في أ ب ٨١٨ م.

ورسم البطريرك الانطاكي اغناطيوس الثاني (٨٧٨ - ٨٨٧ م) (٢٤٨).

نشأ في دير مار زكي أساقفة درسوا فيه وعملوا في الرقة أو خارجها وقد أورد ميخائيل لوائح
عامه (٢٤٩) استخرجت منها مايلي عن البطارقة ومن رسموا:

٤) مطارنة الرقة / الثلاثة / الذين درسوا في دير مار زكي

- قرياقس مطران الرقة سامه البطريرك يوحنا الرقي الرابع، رسم قسا في دير مار زكي ثم

بطريكة في دير مارشيللا توفي سنة ٨٧٣ م.

- اثنا سيوس مطران الرقة سامه البطريرك يوحنا بن عبدون من ملطية.

- بطرس مطران الرقة سامه البطريرك يوحنا بن عبدون من ملطية.

٥) اساقفة درسوا في الرقة وعملوا فيها

- البطريرك قرياقوس من دير العمود سام باسيليوس أسقف الرقة

- البطريرك يوحنا الرقي (الرابع) في دير مارسام جبرائيل مطران الرصافة، رئيس ديرمار

زكي، رسم فيه قسا ثم بطريكة في دير زكي

(مارشيللا). (ت ٨٥٣ م) (الدر المنتور ٣٤٦)

- البطريرك ديونيسيوس (ت ٦٠٩ م) سام زكريا أسقف الرقة (الدر المنتور).

٦) اساقفة درسوا في الرقة وعملوا خارجها

- البطريرك قرياقس (٨٤٥ م+) من دير العمود سام يعقوب اسقف قرقيسيا بالرقة.

بالرقة

- البطريرك ديونيسيوس، من دير قنسرين سام يوحنا اسقف العربية

رسم في مدينة الرقة، وضع عليه يده وساويرا مطران انازريا.

- ثاودسيوس مطران الرقة

- البطريرك يوحنا الرابع الرقي من

دير مار زكي (٨٢٣ م+) سام كلا من جبرائيل مطران الرصافة ورئيس دير مار زكي

اندرأوس اسقف سجستان

اغناطيوس اسقف حدث

هارون مطران انازريا

طيثماوس اسقف أرزونا

يوحنا اسقف العربية

فليكسنسيوس مطران الرصافة

- البطريرك يوحنا من دير العمود سام سرجيس مطران الرصافة من دير زكي في
في قور زحيل

- البطريرك حنان توحيد من سام كلا من متى اسقف ارزونا
الجيل الأسود ابراهيم اسقف حدث يعقوب مطران منبج

(٧) عملوا في الرقة ورسموا خارجها

- البطريرك قرياقس من دير العمود سام ثاودوليوس اسقف الرقة رسم في حران.

- البطريرك يوحنا الرقي من دير العمود سام ساويرا اسقف الرقة رسم في دير مار حنانيا
في قور زحيل ويعقوب مطران الرقة رسم في الرها

- البطريرك ديونيسيوس من قرثحيل سام يوحنا مطران الرقة رسم في دير ترميل

- البطريرك اثا سيوس الصلحي سام موسى مطران الرقة رسم في دير يوحنا من (الؤلؤة ٣٦٣) ملطية

- البطريرك يوحنا بن عبدون من ملطية سام بطرس مطران الرقة رسم في دير ايدهار

- البطريرك ديونيسيوس يحيى رئيس دير

دير لعازر بمنطقة ملطية سام غريغوريوس مطران الرقة رسم في دير جاجي . البطريرك
يوحنا بن شوشان الملطي سام غناطيوس مطران الرقة رسم في حران (الؤلؤة ٣٦٧)

- البطريرك اثاسيوس ابو فرج الآمدي سام ايوانيس اسقف الرقة رسم في كنيسة بالس

(الؤلؤة ٣٤٧) وايوانيس مطران الرقة رسم في دير عرنش

- البطريرك اثاسيوس يشوع برقظري سام ايوانيس مطران الرقة رسم في آمد شماس ملطية

- البطريرك ميخائيل السرياني الكبير سام يوحنا مطران الرقة رسم في دير الشماطين

بمنطقة ماردين

- بطريرك أنطاكية (الؤلؤة ٣٩٤) سام باسيليوس، مطران الرقة راهب من كورة أنطاكية

المرجع: ميخائيل ٤١٠٣-٤٦٠

دير الرصافة : هذا الدير في غرب الفرات، في رصافة هشام بن عبد الملك التي بينها وبين
الرقة مرحلة للحمالين ورأيت أنا (أي ياقوت) هذا الدير، وهو من عجائب الدنيا حسنا وعمارة،
وأظن ان هشاما بنى عنده مدينته، وفيه رهبان كثيرون، وقلالي كثيرة، وهو في وسط البلد (أي
الدير في وسط بلد الرصافة) وقد اجتاز ابو نواس بهذا الدير وقال فيه شعرا^(٢٥٨).

دير الرمان: وهي مدينة كبيرة، ذات أسواق للبادية، موقعها بين الرقة والخابور، تنزلها
القوافل القاصدة من العراق إلى الشام عبر البادية^(٢٦٠).

دير القائم: لم يرد هذا الدير في كتب البلدان بل في كتب التاريخ، وهو يقع بالتأكد، قرب
الرقة، وذلك بناء على النصوص التالية:

١. لما أقبل ابو العباس وابو جعفر المنصور من الشراة بالشام، يريدان الكوفة، نزلا بدير
القائم قال فسمعت ابا جعفر يقول: 'إن أفضى الأمر إلينا، لم ننتفع بالجزيرة الا اذا بنينا إلى
جانب الرقة مدينة. وان هذا لموضع مدينة' وأوماً إلى موضع الرافقة^(٢٦١) وفي كتاب الازدي ورد
نفس هذا الخبر مضافا اليه: 'منزلا بدير القائم غربي الرقة'^(٢٦٢) وهو تحديد صريح.

٢. ذكر الطبري عن نكبة البرامكة: وكل (الرشيد) الفضل ومحمد وموسى بني يحيى.
حفظة من قبل هرثمة بن اعين إلى ان وافى بهم الرقة، وحبس يحيى بن خالد مع الفضل ومحمد
في دير القائم^(٢٦٣).

٣. يذكر الطبري وفاة الفضل بن يحيى في الحبس بالرقعة^(٢٦٤).

٤. ويذكر ابن خلكان ان حبس البرمكيين كان في الرافقة^(٢٦٥).

وهذا كله يدل على ان دير القائم في الرقة.

وقد يلتبس اسم هذا الدير باسم دير آخر ولكنه مختلف ويدعى 'دير القائم الأقصى' وهو على شاطئ الفرات من الجانب الغربي في طريق الرقة من بغداد. وانما قيل له القائم لأن عنده مرقبا عاليا كان بين الروم والفرس يرقب عليه على طرف الحد بين المملكتين^(٢٦٦). ويظهر دير القائم الأقصى على خارطة 'اثر روما في بادية الشام شرقي عانة.

ينقل محقق كتاب الديارات عن حبيب الزيات: ان القائم منارة عالية كالمرقب وأحيانا شبه صومعة تتخذ إلى جانب بعض الأديار ليسكن أحد النساك المعتزلين فيه^(٢٦٧).

دير العمود: هاجر الرهبان الذين كانوا في دير قدر 'قرب رأس العين لدى الفتح الإسلامي عام ٢١ هـ، ٦٤٢م، وبعدها بقليل جاؤوا إلى بقعة كان فيها معبد فيه عمود كانت الإمبراطورة تيودورا (٥٠٠ - ٥٤٨ م) قد شادته، فوسعو ذلك المعبد وقطنوه فدعى دير العمود^(٢٦٨). وهو قرب الرقة^(٢٦٩). ويقع على الضفة اليسرى من الفرات في مدينة الرقة امد الكنيسة ببطريك وعشرة أساقفة حتى سنة ٩٦٥ م^(٢٧٠).

وفيما بعد قام نصر بن شيث وزميله عمرو بإحراق دير العمود حين أشعلوا النار في الريض والرافقة خلال ثورتهم عام (١٩٦هـ)^(٢٧١).

قال ابو الفرج العشي أنه يظن ان دير العواميد (كذا) هو المسجد المعلق على عمود الذي ذكره المقدسي^(٢٧٢). وهذا خطأ لأكثر من سبب اذ قال المقدسي وبالقرب (من المسجد الجامع بالرقعة) مسجد معلق على عمود^(٢٧٣) أي ان المسجد داخل سور الرقة بينما دير العمود كما تقدم في خبر نصر بن شيث والخبر قبله خارج مدينة الرقة وربما في الريض. ودير العمود يدعى هكذا على الأرجح لأنه قامت فيه أيضا عليّة مرفوعة على عمود عال يعتكف فيها أحد الرهبان. أما المسجد المعلق على عمود فهو يعني أنه في الطابق الأعلى مقام على أعمدة او قناطر وقد وردت امثلة كثيرة على امثال هذا الجامع (الجزء الثاني من تاريخ ابن عساكر الذي تكلم فيه عن دمشق)، كما أنه لم يحدث من قبل أبدا أن أخذ المسلمون ديرا وحولوه إلى مسجد. وفي ميخائيل نقلا عن ديونيسيوس أنه سيم شماسا diacre في دير العمود، وقسا في دير زكي. وفي يوم الأحد ١٢٩/٨/١١يو (٨١٧م) وسيم منصب الحبر الأعظم في الكنيسة الكاثوليكية لمدينة الرقة^(٢٧٤)^(٢٧٥) وهذا حدث على اثر مجمع الرقة عام ١٢٩يو وحضره ٤٥ أسقفا^(٢٧٦).

دير رشيان: يقع على عين ماء غربي نهر البليخ، بناء الرهبان الذي هاجروا من دير البنات قرب رأس العين، بعد ان احتل العرب تلك المنطقة عام ٩٤٢ يونانية^(٢٧٧).

دير القلايات: كانت الإمبراطورة تيودورا ٥٠٠ - ٥٤٨ م' كما يزعم ميخائيل. من دامان، وكان أبوها قسا، وكان يقودها في صغرها إلى ذلك الدير لتلقى بركات القساوسة، ثم تزوجت الإمبراطور البيزنطي جوستيان الاول (٤٨٣ - ٥٦٥م) وأصبحت الإمبراطورة فأرسلت المال وعملت على إعادة بناء هذا الدير وأصبح اسمه دير مارجان^(٢٧٨).

٨) منتزهات الرقة

يقول ياقوت: قال الخالديان (عن الصالحية): قرية قرب الرقة، عندها بطياس ودير زكي^(٢٧٩). ويقول البكري عن دير زكي: أنه على باب الرها معروف، بإزائه تل يقال له 'تل زفر' وفيه ضيعة يقال لها الصالحية^(٢٨٠).

ومعروف أن باب الرها هو الباب الشمالي لمدينة الرقة الذي يتجه منه إلى مدينته الرها .
وعلى هذا فإن كلا من دير زكي وتل زفر ، وبطياس ، وضيعة الصالحية كل ذلك قريب من بعضه
وواقع شمالي شرقي مدينة الرقة (حاليا) .

تل زفر

قال أبو يحيى : وقد رأيته وهو أحسن ظهر رأيته^(٢٨١) . سمي باسم زفر بن الحارث لأنه نزل عليه^(٢٨٢) .
بطياس :

وهي غير بطياس من قرى حلب^(٢٨٣) بل بالصالحية خارج مدينة الرقة حاليا (شمالي
شرقيها) . يقول الصنوبري أنها تشتهر بالزيتون والورد والآس .
إني طربت إلى زيتون بطياس بالصالحية ذات الورد والآس^(٢٨٤) .

الصالحية

ذات قصور وورود ، وهي قرب البليخ والفرات أي قرب دير زكي في أنزه البقاع بين البساتين
والأنهار والتلال والضياع^(٢٨٥) . وفيها قصور المهدي^(٢٨٦) والرشيد كما سيجيء . ذكرها الصنوبري
واشجع السلمي والبحتري . وقد اختطها عبد الملك بن صالح الهاشمي وأنها قرية تقع في تل زفر
بن الحارث الكلبي الذي يقع إزاء دير زكي^(٢٨٨) . وجلس فيها جعفر بن يحيى اليرمكي وتعرف
حاليا باسم ((صويلج)) .

ولأسجع السلمي فيها : قصور الصالحية كالعداري لبسن حلين ليوم عرس
ويتلو ذلك أبيات أخرى :

وللبحتري في مطلع قصيدة : أخذت ظهور الصالحية زينة عجبا من الصفراء والحمراء
ويتلو ذلك أبيات أخرى

الكرخ

ذكر مع بستان زكي ، وكرخ بغداد هو الحي التجاري فيها . والكرخ مأخوذ من كلمة أرمينة
((كركا)) أي سوق^(٢٨٩) .

القلس

موضع بالجزيرة^(٢٩٠) ولكن شعر عبيد الله بن قيس الرقيات يدل على أنه بين الرقة ودير زكي :

أقفرت الرقتان فالفلس فهو كان لم يكن به انس
فألديرا أقوى إلى البليخ كما أقوت محارب آفة درسوا

المحارب : الغرفة أو القصر . الدير هو دير زكي .

يرى موزيل ص ٢٣٠ أن الدير المشار إليه هو حتما دير استونا أي دير العمود (ميخائيل ٤/٤١٤) وهو
مستبعد والأقرب إلى الصحة أن يكون دير مار زكي .

ويرى موزيل أيضا أن ((القلس)) قد تكون تحريفا شعريا لاسم كالينيكيوم ، وهو غير صحيح
أيضا لأنه حينئذ يكون داخلا في كلمة الرقتان المذكورة قبلها ، بينما يدل قول ((الرتقتان فالفلس)) ،
القلس موقع ثالث غير الرقتين .

ذكر الصنوبري في شعره بعض مواضع النزهة واللهو في الرقة ومنها المصلى (وقد تقدم الكلام
عنه في المساجد) والرصيف والخرارتين ، فقال في الخراتين التي يذهب إليها ليلا مع رفاق اللهو :

كم لي إلى الخراتين ن ممن ادلاج وادكار

في فتية مثل البدو والاسد الضواري^(٢٥٠)

والخرارة: عين الماء الجارية، سميت لخرير مياهها .
وفي القسطينة يقول :

دريت على القسطينة الـ حـسـنـاء اخـلاف العـشـار
فيها بحار النـهـوقـد اريت على كل البحار^(٢٥١)

إخلاف جمع مفرده خلف : ضرع الناقة. العشار : جمع عشراء وهي الناقة مضى لحملها عشرة

اشهر

قسطنطينا Constantina

ينقل (موزيل ٣٢٨) عن ثيودوسيوس ان قسطنطينا تقع بين الرقة والرها، وبينهما وبين الرقة ٦٠ ميلا وبينها وبين الرها ٨٠ ميلا. والقسطنطينة موجودة على خارطة (أشر روما. في بادية الشام) شمالي رأس العين وشرقي الرها. واسمها باللغة التركية فيران شهر^(٢٥٢).
ويستعرض الصنوبري ما تقدم من المنتزهات، ويضيف اليها بساتين النقار، والحيير (حديقة الحيوانات). والميدان (ميدان سبق الخيل)، والجوشن، وهرقلة ، والمرج فيقول:

اختال في طرق الهوى	نشوان مسحوب الإزار
بين الهني إلى البليخ	إلى بساتين النقار
فالرقة السوداء ذات الـ	المجتنى غرض الثمار
فالدير ذي التل المـؤ	زربالش قائق والبهار
فالحيير حير الوحش والـ	ميدان ميدان الجواري
فالجوشن المحفوف بالـ	شرفات من أعلى انحدار
فهرقلة ذات المـز	هروالقناطر والسواري
فالمرج في تلك الوهاد	او الثمار او الغمار ^(٢٥٣)

ويذكر الهني فيقول :

لا اري القصف بالهني هنيـا او تقضي في عمره الأعمار^(٢٥٤) .

الجوشن : حسب ياقوت : جبل غربي حلب ولكنه لا يناسب هنا - القصف : اللهو واللعب ،
القصف : الإقامة في الأكل والشرب عمر : الدير

وكانت مواضع الانس واللهو متوفرة حتى في صحراء الرقة، فكان إسحاق الموصلي يخرج هو
والزبير بن دحمان إلى صحراء الرقة، كي يأكلا ويشربا على الفرات^(٢٥٥).

المرج هنا يقصد به مرج الضيائن الذي قال عنه معجم البلدان أنه: بالقرب من الرقة
منسوب إلى الضيائن بن معاوية صاحب الحضرة^(٢٥٦)، كما ذكره عبيد الله بن قيس الرقيات^(٢٥٧).
وذكره الصنوبري مفتخرا .

اذا مرجنا مرجست روضه فما مرج راهط ؟ ما راهط ؟

مرجت الإبل: ترعى بلا راعي ، ومرج اللهب: ارتفع.

٧- خراب الرقة بين عامي ٤٤٩-٥٣٨هـ

دب الخراب إلى مدينة الرقة بصورة تدريجية فجرى عليها ما جرى على غيرها من المدن مثل سامراء وغيرها.

ونلاحظ أولاً أن المؤرخين حتى القدامى منهم كالطبري والأزدي كثيراً ما ذكروا الرافقة وهم يريدون الرقة أو العكس، وذلك لأنهم اعتبروا الرافقة هي ريف الرقة مثلاً:

- سنة ١٨٠هـ وفيها شخص هارون من الموصل إلى الرافقة فنزلها وأوطنها^(٢٩١).
- سنة ١٨١هـ ومنها أوطن الرشيد الرافقة وغزا منها... وغزا هارون (الرشيد) هذه السنة من الرقة^(٢٩٢).

- سنة ١٨٢هـ لما نزل هارون (الرشيد) الرقة فأوطنها، وقدم معه أبو البختري^(٢٩٣).

ويذكر اسم شخص ويقال عنه مرة الرقي ومرة الرافقي. قد يظهر أن خراب الرقة حدث تدريجياً، ولم يكن دفعة واحدة أو بفعل احتياح كما حدث لمدينة الرافقة فيما بعد حين اجتاحتها التتر سنة ٦٥٧هـ، إذ نقل ياقوت الحموي في معجم البلدان مادة الرافقة عن أحمد بن محمد بن مروان ابن الطبيب السرخسي وهو عالم حكيم أديب قرأ على الكندي وعلم الخليفة المعتضد ونادمه ومن بين مؤلفاته كتاب السالك والممالك ويظهر أن ياقوت كثير النقل عنه، وقد نقل عنه قوله: الرافقة بلد متصل البناء بالرقة وهما على ضفة الفرات، وقد خرب بعض أسوار الرقة قتل (القاتل ياقوت) هكذا كانت أولاً فأما الآن فإن الرقة خربت وغلب اسمها على الرافقة وصار اسم المدينة (أي مدينة الرافقة) الرقة ١٠هـ^(٢٩٤) فإذا علمنا أن أحمد بن الطبيب هذا توفي سنة ٢٨٦هـ كما في الأعلام للزركلي ومعجم المؤلفين لكحالة عرفنا أن أسوار الرقة امتد إليها الخراب قبل ٢٨٦هـ، وربما حدث في نهاية القرن الثاني في الفتنة بين الأمان والمأمون في القتال بين الأبناء والزواجيل في الرقة سنة ١٩٦هـ أو في خروج نصر بن شيب في الجزيرة ومعاركه مع عبد الله بن طاهر (١٩٦-٢٠٩هـ) بعد القضاء على تمرده حين خرب عبد الله بن طاهر الأسوار بين الجزيرة ومصر وجميع الحصون في جميع ديار الجزيرة (البلاذري) أنساب العرب قسم ٣ ص ١٥١) كي يقضي على الثورات التي انتشرت فيها زمن المأمون^(٢٩٥). وهذا تصرف طبيعي ومعتاد، كان الرشيد من قبل أمر بهدم سور الموصل بسبب خروج العطاف بن سفيان الأزدي (الطبري ٢٦٦/٨) وقد تقدم ذكر ذلك حيث تم سنة ١٨٠هـ والرشيد في طريقة للإقامة في الرقة. وفي تاريخ ميخائيل ٧٥٣: أمر المأمون بتخريب أسوار قدموس وقنسرين وجميع الحصون في جميع ديار الجزيرة. وكان المنصور قد فعل ذلك (تخريب السور) بعد ما قتل منصور بن جعونة (الأغاني ٣٨٢/١٦). هذا عن أسوار الرقة أما عن الرقة المدينة فإن آخر مرة ورد ذكر الرقة والرافقة معا هو سنة ٤٤٩هـ حين تسلمها منيع بن شبيب كما تقدم^(٢٩٦).

وفي تاريخ الرقة للقشيري (ت ٢٣٤هـ) إشارات إلى بعض الخراب في الرقة إذ يذكر وجود طاقات رومية مهدمة داخل الرقة. استخدمت للسكن^(٢٩٧) أو قلاية كان يسكنها أبو عبد الله الزينبي خارج السور عند باب الحجرين إلى جانب المقبرة^(٢٩٨) ولعلها من أطلال دير أصابه الخراب.

وفي سنة ٣٢٢هـ طرأ تخريب جديد على مدينة الرقة إذ قلد ناصر الدولة أبا عبد الله الحسين ابن سعيد بن حمدان أخا الأمير أبي فراس الحمداني حلب وأعمالها وديار مضر والعواصم وكل ما

يفتحه من بلاد الشام فتوجه في أول رجب سنة ٣٣٢هـ ودخل الرقة بالسيف لأن أهلها حاربوه مع أميرها محمد بن حبيب البلزعي فأسره وسجنه، وأحرق قطعة من البلد، وقبض على رؤساء أهله وصادرهم^(٣٩٩). ويجدر بالذكر هنا أنه أورد في صدر كتاب الرقة للقشيري أن المؤلف القشيري حدث بكتابه المذكور بالرقعة سنة ٣٢٤هـ وبمنزله.

- وفي عام ٣٥٣هـ نزع سيف الدولة أبواب الرقة وأرسلها إلى القرامطة كما ذكر عند الكلام على أبواب الرقة ولعل هذا يؤيد أن أسوار الرقة كانت في بعض أجزائها على الأقل قد خربت كما تقدم عن السرخسي ومع ذلك فقد بقيت مدينتا الرقة والرافقة مأهولتين ومتميزتين إذ تحدث عنهما المقدسي الذي ألف كتابه بين عامي (٣٧٥-٣٨٥هـ) أي في الربع الأخير من القرن الرابع^(٤٠٠).

- وفي عام ٣٨١هـ بعد أن قتل سعد الدولة الحمداني يكجور سار سعد الدولة إلى الرقة فنزل عليها^(٤٠١).

- وفي عام ٤٤٩هـ قام معز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس بتسليم الرقة والرافقة إلى منبع ابن شبيب بن وثاب النميري^(٤٠٢) وكانت هذه آخر مرة نقرأ فيها عن وجود الرقة والرافقة معا كمدينتين.

- وفي عام ٥٣٨هـ كانت الرقة قد خربت إذ قام السمعاني (ت ٥٦٢) برحلته الحديثية إلى الشرق بين عامي ٥٣٤ - ٥٣٨هـ^(٤٠٣). وذكر السمعاني أنه أقام بالرافقة ليلتين في توجهه إلى حلب وكتب بها عن جماعة وأن الرقة كانت بجنبها فخرت، فقالوا للرافقة 'الرقة'، ويعود فيؤكد هذا بعبارة أخرى فيقول: والتي يقال لها 'الرقة' الساعة هي الرافقة، هكذا سمعت بعض أهل المعرفة بالشام^(٤٠٤) وهذا يسري على استعمال كلمة 'الرقة' في عهدي زنكي وابنه نور الدين إذ يراد بها الرافقة التي انمحي اسمها وصار اسمها الرقة واكبر دليل على هذا أنه يذكر أن نور الدين جدد مسجد الرقة وبنى فيها مدرستين.... الخ^(٤٠٥). مع أن هذا حدث في الرافقة التي عرفت في ذلك الحين وحتى الآن باسم الرقة إذ يقول الأديسي (٤٩٣-٥٦٠هـ)^(٤٠٦). الرقة البيضاء على شاطئ الفرات. استولى عليها الخراب^(٤٠٧) وقد ذكر ياقوت مثل ذلك^(٤٠٨) والخلاصة أن الرقة القديمة قد تم خرابها وزوال اسمها بين عام ٤٤٩هـ وعام ٥٣٨هـ. وقد حدث مثل هذا من قبل إذ بنيت مدينة نيكفوريوم وبنيت بعدها مدينة كلينيكوم بالقرب من الأولى، وبعد عدة قرون انتهت نيكفوريوم كمدينة واستمرت كلينيكوم في ازدهارها.

١٠- خراب الرافقة (التي صار اسمها الرقة) سنة ٦٥٧-٦٥٩م

بقيت الرافقة نشطة إلى ما بعد خراب الرقة وحملت اسم الرقة كما تقدم، ولكن الخراب كان قد دب إليها أيضا وتناقصت أهميتها عاما بعد عام فأصبحت مدينة هامشية بعيدة عن الصليبيين وبيد لها الولاة مثل نور الدين وصلاح الدين هي وغيرها من المدن الهامشية مقابل المدن المحاربة للصليبيين فقد ذكر ياقوت الحموي في معجم الأدباء ترجمة عيسى بن المعلّى بن مسلمة الرافقي النحوي الشاعر الذي توفي سنة ٦٠٥هـ فقال أنه ((أحد أدباء عصرنا)) اخمل من ذكره خمول قطره، كان مؤدبا بمدينة الرقة (التي كان اسمها قبل ذلك الرافقة) التي على الفرات^(٤٠٩).

وفي عام ٦٥٤هـ جدد الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب، باب قسرين في حلب، ونقل إليه أبواب الرافقة^(٤١٠) كما تقدم، وهذا دليل عظيم على قلة أهمية الرافقة وخراب أسوارها من قبل، فما نفع الأسوار والأبواب مفتوحة. وبعد أن اقطع الملك الناصر المذكور صاحب حلب، الرافقة أكثر من مرة، استعادها سنة ٦٥٥هـ، ولم يقطعها بعد ذلك، وبقيت في خاصته إلى أن انقرضت دولته بعد ذلك، واستولى التتر على البلاد،

فخربوا الرقة (او الرافقة سابقا) ولم يسكن بها احد بعد ذلك إلى عصرنا الذي وضعنا فيه هذا الكتاب^(٣١١). هذا ما قاله ابن شداد وكان وضع كتابه عام ٦٧٩هـ^(٣١٢).

وكان هجوم التتر المذكور - وعلى رأسهم هولأكو - واحتلالهم الجزيرة سنة ٦٥٧هـ فملكو حران وبقية الجزيرة، وقاومتهم ميفارقين فترة من الزمن^(٣١٣). وبذلك يكون خراب الرافقة بعد خراب الرقة (وذلك قبل سنة ٥٢٨هـ) بأكثر من ١١٩ سنة.

وقد نزح الكثيرون من أهل الرقة وبقية أنحاء الجزيرة إلى بلاد الشام ومصر وغيرها.

وتحدثنا كتب التراجم عن بعضهم مع عائلاتهم وأولادهم ونذكر منهم ما يلي:

- رشيد الدين كامل الرافقي الرقي الفقيه الشافعي مولده في الرقة سنة خمس وعشرين وستمائة ووفاته في حماة سنة ٧١١هـ (أي كان عمره حين غزو التتر للرافقة ٣٢ سنة)^(٣١٤).

- اسماعيل بن إبراهيم الرقي (ت ٧٠٩هـ) وله ٧٢ سنة^(٣١٥) كان عمره ٢٠ سنة حين غزو التتر.

- الشيخ إبراهيم بن أحمد الرقي الحنبلي مات بدمشق عام ٧٠٣هـ عن نحو ستين سنة^(٣١٦) وكان عمره حوالي ٤١ سنة لدى غزو التتر^(٣١٨).

- سليمان بن أبي الدر: هو سبط الرقي صاحب القبة التي بآخر سوق الجبل وينزل منها إلى طريق عين الكرش (في دمشق توفي في شوال وقد نيف على السبعين (سنة ٥٩٥هـ)^(٣١٩).

- محمد بن القاضي السديد أبي الفضل معالي بن فضل الله بن معالي بن بركات بن محمد بن أبي نصر الملاق أبو عبد الله الرقي الكاتب بدمشق في ديوان السكر. ولد سنة ٦٢٢هـ بالرقعة وسكن دمشق من أول الدولة الظاهرية سمع من البرزالي وغيره ومات عقيب التتر بدمشق عام ٦٩٩هـ تولى أبوه القضاء والوزارة بالرقعة وهم بيت قديم بالرقعة. وجدهم أبو النصر بن الملاق نقله المتعصم من بغداد إلى الرقة وولاه الخطابة بها^(٣٢٠).

- محمد بن علي بن محمد بن الملاق الرقي الفقيه القاضي، بدر الدين الحنفي. أجاز للدماشقة سنة ٦٩٧هـ، وفيها مات في رمضان ومولده في أول سنة ٦١٩هـ^(٣٢١).

- أبو بكر بن حياة بن يحيى الإمام بهاء الدين الشافعي. معيد العادلية الصغرى مات في ذي الحجة عام ٦٨٧هـ سمع منه البرزالي وقال عنه: وكان حسن الخلق مطرح التكلف^(٣٢٢).

- الشيخ بدر الدين محمد بن أبي الفنائم بن أبي الحسن الرقي الحنبلي أمام المدرسة الزنجبيلية ظاهر دمشق، توفي سنة ٧٢٧هـ ودفن بمقبرة باب توما. وكان شيخا كبيرا تعدى الثمانين (أي كان عمره عند الغزو التتري تجاوز العاشرة)^(٣٢٣).

- المعمر الصالح الزاهد شمس الدين محمد بن الحليم الرقي الحنفي النقيب مات سنة ٧٥٠هـ عن عمر تسعين سنة وكان عمره حين غزا التتر على الرافقة حوالي ثلاثة سنوات فهاجر به أهله^(٣٢٤).

- سلامة بن سليمان الشيخ بهاء الدين الرقي النحوي. كان من علماء العربية. أقرأ جماعة بمصر و مات وقد ناهز الثمانين سنة ٦٨٠هـ^(٣٢٥).

- غازي بن سليم الرقي: أجاز البرزالي وعاش ثمانية وثمانين سنة مات عام ٦٧٧هـ في دمشق^(٣٢٦).

- محمد بن حياة بن يحيى: القاضي الإمام الزاهد تقي الدين الشافعي الرقي. كان من خيار القضاة وصلحائهم. ولده الملك الظاهر قضاء حمص ثم نديه لقضاء حلب مات سنة ٦٧٧هـ^(٣٢٧).

وهناك من ولد لأبائهم بعد نزوحهم عن الرقة، حافظ أولادهم على لقب الرقي او الرافقي في مهجرهم مثل:

- محمد بن أحمد بن علي بن عبد الغني بن بركات شمس الدين الرقي الحنفي. الأعرج شيخ القراء بدمشق. إمام كامل ناقل مع الثقة. ولد بعد سنة ٦٦٠-٧٤٢هـ (أي ولادته بعد غزو التتر بثلاث سنين) وولى مشيخة أقرأ دار الحديث الاشرفية في الإقراء بعد الشيخ محمد الحصري^(٢٢٨).

- محمد بن علي بن أبي بكر بن شهاب الدين أبو عبد الله الرقي الفأخوري أبوه ثم الدمشقي الشافعي (٦٧٣-٧٣٦هـ)^(٢٢٩). أي كانت ولادته بعد خراب الرافقة بستة عشر عاما في دمشق.

- المعدل الخير كمال الدين أبو بكر محمد بن عبد الله الرقي أبوه الفارقي الدمشقي توفي بدمشق عام ٧٥٤هـ^(٢٣٠).

وبعد القرن الثامن اختفت نسبة 'الرقي' أو 'الرافقي' من كتب التراجم وبقيت مدينة الرقة (أي الرافقة مخربة زمنا طويلا شأنها شأن بقية أنحاء الجزيرة إذ يقول أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ): والرقة في زماننا مدينة خراب وكانت حران مدينة عظيمة، أما اليوم فخراب.. وسروج بلد خراب^(٢٣١) وحصن منصور خراب^(٢٣٢). ويقول صفى الدين بن عبد المؤمن (ت ٧٣٩هـ): دخلت الرافقة أو الرقة بعد أيام التتر إلى الآن^(٢٣٣). (أي إلى عهده. ويذكر الظاهري (٨١٣-٨٧٣هـ) وأما إقليم الجزيرة ففيه قرى عديدة وغالب أهلها عريان والرها مدينة كبيرة تشتمل على سور وغالبها الآن خراب^(٢٣٤) ولا يشير بأية كلمة إلى الرقة أو الرافقة.

هذا وإن جميع من تقدم ذكرهم من المهاجرين أو اللاجئين هم من رجال الدين الذين وجدوا لهم ذكرا في كتب التراجم، ولكن كان بين المهاجرين كثير من غير أهل الدين فلم يجدوا لهم مكانا في مثل هذه الكتب مثل الفنانين على سبيل المثال. وقد اشار سوفاجية المستشرق الافرنسي إلى ان مصنعا بدمشق لصنع أو ان فخارية غير ملمعة للزجاج، وهي مما تميز به مصنوعات وأدي الفرات ولا سيما مدينة الرقة، ولذلك ينبغي ان نعد هؤلاء الفخارين من الذين هاجروا من تلك المنطقة واستقروا في عاصمة بلاد الشام بسبب الغزو المغولي خاصة^(٢٣٥).

واتفق أنه في ربيع الاول من عام ٦٩٠هـ أي بعد ثلاث وثلاثين سنة من خراب الرافقة (أو الرقة) كان هناك بدمشق مجلس يتصدره الشيخ شمس الدين أبو محمد عبد الواسع الابهرى يقرأ عليه يوسف بن الزكي بن عبد الرحمن بن يوسف المحدث المؤرخ الشهيد صاحب كتاب تهذيب الكمال في أسماء الرجال يقرأ على الابهرى كتاب تاريخ الرقة للقشيري، وكان بين حاضري السماع من يدعى شمس الدين عبد الله بن علي الرقي^(٢٣٦).

كان خراب الرقة (قبل عام ٥٣٨هـ) ثم خراب مدينة الرافقة (التي دعت عندئذ باسم الرقة) سنة ٦٥٧هـ سببا في ان تعبت أيدي الأعراب بما في هاتين المدينتين من المنشآت والأسوار وتتهب كل ما يمكنها الاستفادة منه وحين بدء انتعاش الرقة وبدأ السكان يرددونها أخذوا يشيدون المنازل مستخدمين كميات الآجر واللبن التي سحبت من أسوار الرقة وأبراجها وأخذت الرقة تنهض على حساب الخرائب القديمة... ويمكن القول ان جميع الدور قبل العقد الرابع من القرن العشرين كانت موادها الأولية من الخرائب حتى ان السور الجنوبي للرقة والبرج الغربي والباب الغربي وكل ذلك قد زال تماما وقامت الدور الهزيلة مكانها^(٢٣٧).

١٠- هرقة

مدينة ببلاد الروم. وكان الرشيد غزاها بنفسه ثم افتتحها عنوة بعد حصار وضرب شديد بالصخور ورمي بالنار والنفط حتى غلب أهلها... سنة ١٩٠هـ ثم قدم الرقة في شهر رمضان وكان

في السبي من هرقله ابنة بطريقها، وكانت ذات حسن وجمال، فتودي عليها في الغنائم، فزاد عليها صاحب الرشيد، فصادفت منه محلا عظيما، فنقلها معه إلى الرقة، وبني لها حصنا بين الرافقة وبالس على الفرات وسماه هرقله، يحكي بذلك هرقله التي ببلاد الروم، وبقي الحصن عامرا مدة حتى خرب، وأثاره إلى وقتنا هذا باقية، وفيه آثار عمارة و أبنية عجيبة، وهو قرب صفين من الجانب الغربي^(٢٣٨). يقول ميخائيل: ان الرشيد بنى أعلى الرقة مدينة دعاها 'هرقله' باسم امرأة أسرها من اسرة هرقل، وقد جمع لذلك عمال كثيرون فبنوا فيها أبنية مرتفعة^(٢٣٩) ثم يقول: مات هارون فتوقف العمل في بناء مدينة هرقله^(٢٤٠).

كان فتح هرقله في شوال سنة ١٩٠هـ^(٢٤١) وفي عام ١٩٢هـ وافى الرشيد من الرقة في السفن مدينة السلام يريد الشخصوص إلى خراسان لحرب رافع^(٢٤٢) وفي ثلاث خلون من جمادى الآخرة من عام ١٩٣هـ مات الرشيد في طوس^(٢٤٣) ومنه يتبين ان هرقله بدأ بناؤها عام ١٩١هـ وتوقف العمل فيها بسبب سفر الرشيد في مطلع عام ١٩٢هـ ثم وفاته عام ١٩٣هـ.

هذا ومن المستبعد جدا ان يبني الرشيد مثل هذا المبنى العظيم... او كما سماه بعضهم حصن او مدينة من اجل عيني سببه ولم نسمع أي خبر عن هذه الجارية فيما بعد بينما تفيض الكتب بأخبار جوارى الرشيد وغيره، وهذا لم يحدث، أضف إلى هذا ان الطبري يروي ان نقفور أرسل إلى الرشيد يستهدي جارية لم يذكر اسمها في الخبر، سببت من هرقله كان قد خطبها لابنه فأجابه الرشيد إلى طلبه سنة ١٩١هـ أي ان الرشيد لم يحتفظ بالجارية المفروض ان اسمها هرقله او أنها من هرقله.

يبتعد نهر نهر الفرات عن موقع هرقله حاليا مسافة أكثر من كيلو متر لكن الصورة الجوية ترينا سريرا قديما للنهر على مسافة قريبة جدا من جنوبي الموقع . وان القناة السطحية التي تخترق سور هرقله قد تكون نهر النيل الذي مده هارون الرشيد لارواء الاراضي إلى الشمال من الرقة^(٢٤٣).

ذكر الصنوبري هرقله في شعره فقال :

فالحير حيراثو حش واثـ	ميسان ميسان الجـوارى
فالجوشن المحضوف بالـ	شرفات من أعلى انحدار
فهرقله ذات المـز	اهرو القناطر والسـوارى
فالمرج في تلك الوها	د او الثمار او الغمار ^(٢٤٦)

السارية: الاسطوانة. الحير: شبه الحظيرة او الحمى. الجوشن: جبل مطل على حلب في غربها
الشرفة: أعلى الشيء. القناطر: جمع مفردة قنطرة، الجسر. الوهاد: الوهد و الوهدة: المطمئن من الأرض والمكان المنخفض كأنه حفرة. الغمار: الغمر: الماء الكثير .

١١- قصر هرقله على بعد ٨ كم غرب الرقة على جانب الجزيرة من الفرات

وهي عبارة عن بنيان مربع بطول حوالي المائة متر، معزز بأبراج مربعة في زواياه، ويخترق منتصف كل ضلع من أضلاعه الأربعة إيوان ضخيم يطل نحو الخارج يحيط بهذا البنيان سور مستدير معزز بأبراج أربعة وتتقدمه أربع بوابات في الجهات الرئيسية الأربعة.. وكل بوابة تقابل احد ايوانات البنيان المذكور آنفا. يبلغ قطر السور حوالي ٥٠٠م، ويبلغ بروز كل بوابة عن السور مقدار حوالي ٢٠م. تأخذ كل بوابة في تصميمها الداخلي شكلا هندسيا مغايرا عن الاخرى . فالبوابة الشمالية مستديرة، والجنوبية مربعة، والشرقية مثمثة، والغربية مسوسة وتبين ان البنيان المربع في وسط السور ليس الا قاعدة عالية (صرح)، وان المنشأة لم يخلص بناؤها، بل توقف

البناء فيها فجأة، ولعل بنيانا ما كان مرسوما لإقامته فوق تل القاعدة^(٣٤٥). وفي تاريخ ميخائيل الترجمة الفرنسية ١٦١٣، ان الذي شرع ببنائه كان مدينة باسم هرقله التي كان الرشيد قد اسرها في الحرب وأنها كانت من اسرة هرقل وان بناء هرقله قد توقف بسبب موت الرشيد. واذا صح ان هارون الرشيد خلد انتصاره على هرقله ببناء آبدية هرقله، فان المتوكل - وهو الذي برع في بناء القصور - قد حاول ان يخلد انتصاره على البجاة - لا ببناء قصر او حصن - بأن سك درهما فضيا محفوظا في متحف الفن بمدينة فيينا: وفي وجه الدرهم يبدو نقش للخليفة المتوكل على الله مرتديا ملابس فاخرة للإحتفال (ويعتقد أنها بردة الرسول ﷺ ونقش حوله كتابة بالخط الكوفي هكذا: بسم الله ، محمد رسول الله ، المتوكل على الله أما الوجه الثاني فقد حمل في الوسط نقشا لرجل يرتدي ملابس قصيرة، ويعتمر برأسه قلنسوة، ويمسك بيده جملا، ومن المرجح ان يكون هذا الرجل هو علي بابا ملك الجبابة عندما جاء يطلب الصفيح من الخليفة العباسي المتوكل على اله . وعلى الطوق نص كتابي هو: سنة إحدى وأربعين ومائتين. المتوكل على الله. (المسكوكات وكتابة التاريخ د. ناهض عبد الرزاق (ص ٥٠) وصورة المسكوكة في صفحتي ٨٥، ٨٦ من الكتاب المذكور).

الباب الثالث عشر

مدينة الرقة

- ٢- سس
٨٣- رحلة ابن جبير ١٣
٨٤- ن. م. ٥٥
٨٥- بغية الطلب ٢٨٥٥/٧
٨٦- بغية الطلب ٣٨٥٧/٨
٨٧- ابن شداد ١٢١/١/٣
٨٨- بغية الطلب ٣٢٠٧/٧
٨٩- ن. م. ٤٢٣٨/٩
٩٠- ن. م. ٤٤٦٧/١٠
٩١- ن. م. ١١٨٦/٣
٩٢- ن. م. ١٢٥٩/٣
٩٣- ن. م. البلدان لليعقوبي ٣٦٧
٩٤- الطبري ٤٣١ / ٧
٩٥- الطبري ٤٣١/٧، ٤٤٩، البلاذري ٣٥١/٢
٩٦- الطبري ٤٤٣ / ٧
٩٧- ن. م. ٤٦٤/٧
٩٨- البلاذري ٣٥١ / ٢
٩٩- البلدان لليعقوبي ٣٢٧
١٠٠- الطبري ٤٧٠ / ٧
١٠١- ن. م. ٦١٤/٧
١٠٢- ن. م. ٦١٤/٧
١٠٣- ن. م. ٦١٦/٧
١٠٤- كلمة الرشيد في الطبري ٣١٧/٨
١٠٥- ن. م. ٣٧/٨
١٠٦- ن. م. ٣٩/٨، لطف التدبير ٦٥
١٠٧- لسان العرب والمعجم الوسيط رفق
١٠٨- اليعقوبي ٣٧٥/٢
١٠٩- ن. م. ٣٥٨/٢
١١٠- تاريخ الموصل ٣٢٣، كتاب المتوارين الذين اختفوا خوفا من الحجاج - الازدي ٧٥
١١١- اليعقوبي ٣٥٨/٢
١١٢- تاريخ الموصل ٢٢٤، الطبري ٤٦/٨
١١٤- الطبري ٦١٨/٧ سنة ١٤٥
١١٥- ن. م. ٤٤/٤، ٦١٨/٧
١١٦- ن. م. ٦١٧/٧
١١٧- ن. م. ٤٦/٨
- ٤٦- الطبري ٢٤١/٥، رجال الطوسي ٨٠
٤٧- الهروي ٦٣
٤٨- المزي: ترجمته، خليفة ٤٣٣/١، ابن الاثير ٥٩١/٤
٤٩- القشيري فقرة ٣٣، ابن عساكر ميمون بن مهران
٥٠- الهروي ٦٣، رجال الطوسي ٣٣٢، الجهشياري ١٤٥
٥١- الجهشياري ٢١٠
٥٤- الهروي ٦٣
٥٥- الهروي ٥٦٦٢ - ن. م. ٦٣
٥٧- ن. م. ٦٣
٥٨- الطبري ٦ / ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩٢
٥٩- الهروي ٦٣
٦٠- بغية الطلب ٢١٣٢/٥ الاصابة ١٦٨/٢
٦١- كتاب نسب معد ٦٦٧
٦٢- الهروي ٦٣
٦٣- الهروي ٦٣
٦٤- ابن سعد ١٦٣/٣ المزي ترجمته، خليفة ١٧٩/١
٦٥- الهروي ٦٣، ابن شداد (ت٦٨٤) ٧٥/١/٣
٦٦- لسان العرب 'شهد'
٦٧- سعاد ماهر ١٢
٦٨- سعاد ماهر ١١٩
٦٩- ن. م. ١٢٣
٧٠- ن. م. ١٢٨
٧١- الطبري ١٨٥/٩
٧٢- ابن حوقل ٢١٥
٧٣- ابن الاثير ٥٠٦/٨
٧٤- الدولة الحمدانية - السامر ٣٥٢
٧٥- ابن الاثير ٣٠/٨
٧٦- ن. م. ١٨/٩
٧٧- ن. م. ٦١/٩
٧٨- القلانسي ٦٧
٧٩- القشيري فقرة ١٢٠
٨٠- الفرج بعد الشدة ٣١٣/٢
٨١- المنتظم ١١١/٧
٨٢- سفرنامه ٩٧

- ١١٨- تاريخ الموصل ٢٢٤
١١٩- الطبري ٥٧/ ٨
١٢٠- ن . م ٤٦/ ٨
١٢١- ن . م ٦١٨/ ٧
١٥٩- تاريخ ابن العبري نقله عنه شايو مترجم
تاريخ ميخائيل ٥٢٦/ ٢
تاريخ الزمان لابن العبري ٩
١٦٠- الفخري ١٧/ ٢
١٦١- تكملة تاريخ الطبري ١٧٩
١٦٢- لومبار- الجغرافية التاريخية
٢٣١- ٢٢٣
١٦٣- مختصر عساكر ٢٦٩/ ١٠
١٦٤- الطبري ٢٨/ ١٠
١٦٥- القشيري فقرة ١٥٩
١٦٦- البغدادي ١٣٩/ ٦
١٦٧- ابن سعيد ٤٢/ ٧
١٦٨- القشيري فقرة ٣١٩
١٦٩- الأغاني ٥٢/ ٨
١٧٠- مختار الأغاني ٢٢٠/ ١
١٧١- طبقات السلمى ٤٤٨
١٧٢- أعلام النبلاء ٣٤٣/ ٥
١٧٣- مقدمة ابن خلدون ٣٨٩/ ٣٨٨
١٧٤- ابن عساكر ٢٨٣/ ١٠
١٧٥- جمهرة انساب ابن حزم ٣٠٢
١٧٦- ابن عساكر ٦٥ ، ٩٤/ ٢
١٧٧- القشيري فقرة ٢٦١
١٧٨- ن . م فقرة ٢٥٠
١٧٩- ن . م فقرة ٣٣١
١٨٠- ن . م فقرة ٣٢٦
١٨١- ن . م فقرة ٣٣٠
١٨٢- ن . م فقرة ٣٥٤
١٨٣- ن . م فقرة ٢٩٧
١٨٤- المقدسي ١٤١
١٨٥- ابن عساكر ٥٥/ ٢ تحقيق صلاح الدين المنجد
١٨٦- القشيري فقرة ٣١٩
١٨٧- ن . م فقرة ٢٨٨
١٨٨- ن . م فقرة ٢٨٦
١٨٩- الأغاني ٢٥٥/ ١٦
١٩٠- الاغلاق الخطيرة ٧٢/ ١/ ٣ ، الزيارات
- ١٢٢- الروض المعطار: الرافقة
١٢٣- الطبري ٦٥١/ ٧
١٢٤- الشيال ٣٣ ، ٣٤
١٢٥- كريزول العميد عن بغداد
١٢٦- الجملة الاخيرة من مرهف الحلف
الندوة ١٧٢
١٢٧- بعض المعلومات عن كريزول
وبعضها عن المدينة الإسلامية
١٢٨- المدينة الإسلامية ١٥٥
١٢٩- الندوة هامش ص ٣٨
١٣٠- البغدادي ١٢٤/ ١٢
١٣٣- الدولة العربية الإسلامية في العصر
العباسي/ عبد الجبار ناجي ورفقاه ٤٢
١٣٤- اليعقوبي ٢٤٠
١٣٥- ميخائيل ١٦/ ٣
١٣٦- الطبري ٢١٢/ ٩ سنة ٢٤٥
١٣٧- ن . م ٦١٩/ ٧
١٣٨- النيسوي ١٣٠/ ١
١٣٩- الطبري ٦١٥/ ٧
١٤٠- ميخائيل ٢٦/ ٢
١٤١- ابن شداد ٧٠/ ١/ ٣
١٤٢- كريزويل ٢٤٦
١٤٣- مرهف - الندوة ٧٢
١٤٤- الطبري ٢٨٢/ ٨
١٤٥- طبقات ابن سعد، رحلة الواهدي إلى الرقة
١٤٦- الطبري ٢٨٢/ ٨
١٤٧- نشوار المحاضرة ٣٢٠/ ١ ، التدوين في اخبار
قزوين
١٤٨- البغدادي ٧٥/ ١ ، العميد ٢٤١
١٤٩- اليعقوبي البلدان ٣٣٠ (الكتاب منشور مع:
الاعلاق النفيسة)
١٥٠- اليعقوبي التاريخ ٣٧٣/ ٢ ، البلدان ٢٤٠
١٥١- - سليم عبد الحق مجلة الاقلام البغدادية ٢٧
١٥٢- الاعلاق الخطيرة ٧/ ١/ ٣
١٥٣- يافوت ٠٠٠
١٥٤- الطبري ٦٥١/ ٧
١٥٥- البلاذري ، الفتوح ٧٥٦/ ٢
١٥٦- انتقل المعتمد ٢٧٩- ٢٨٩ / من سامراء
إلى بغداد فخرت سامراء
١٥٧- ابن شداد ٢٠/ ١/ ١
١٥٨- ميخائيل ٥٢٦/ ٢

- ١٩٤- ابن حوقل ٢٠٣ ، المقدسي ١٤١
 ١٩٥- القشيري فقرة ٦ اسد الغابة (وابصة)
 ١٩٦- القشيري فقرات ١٥٠ ، ١٥١
 ١٩٧- روائع العمارة الإسلامية في سورية
 احمد فائز الحمصي ٣٥ الآثار الإسلامية
 الاولى - كريزويل ٢٥٢
 ١٩٨- الروض المعطار 'الرافقة'
 ١٩٩- القشيري الفقرة ٣٥٢
 ٢٠٠- تاريخ الموصل ٣٠٦
 ٢٠١- مختصر ابن عساكر ١٥٧/٣ الوافي
 بالوفيات ٧٢/٧ بقية الطلب ٩٨٨/٢
 ٢٠٢- المدن الإسلامية شاكر مصطفى ٥٠٠/٢
 ٢٠٣- ديوان الاخطل ٥٧٧/٢
 ٢٠٤- المحب، والمحبوب للسري الرفاء ٣٤٣/٤
 ٢٠٥- الاغاني ٢٤٣/٥
 ٢٠٦- الاغاني ١٧٦/٥، المحب والمحبوب ٣٥٢/٤
 ٢٠٧- الاغاني ٣٨٣/٥
 ٢٠٨- معجم البلدان : تل عزاز
 ٢٠٩- ديوان ربيعة الرقي ٨١
 ٢١٠- الحان الحان ٤٣
 ٢١٢- الموسوعة العربية الميسرة (كهنوت)
 ٢١٣- ن . م . الكنيسة الارثوذكسية الشرقية
 ٢١٤- كل هذا الجدول منتخب من المؤلف
 المنشور صفحة ١٩٧
 ٢١٥- نقول بتصرف عن دومينيك سوردل في مقال (دير)
 في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الثانية
 ٢١٦- سوانح مسيحية وملاحم اسلامية -بشر فارس ٣٩
 ٢١٧- المجلد ١/ ٢٦٥
 La Nouvelle Revue de Caire
 ٢١٨- الموسوعة العربية الميسرة : القرين المقدس
 ٢٢١- الديارات للشابشتي ١٢١
 ٢٢٢- ياقوت: كرح
 ٢٢٥- الحان الحان ٥٨ - ٦٤ باختصار
 ٢٢٦- معجم البلدان: التل، المرصد: الذيل،
 ديوان الصنوبري ٤٩٤
 ٢٢٧- مسالك الابصار ابن فضل الله العمري
 ٢٦٥/١
 ٢٢٨- ديوان الصنوبري ٤٩٤
 ٢٢٩- معجم ما استعجم (دير زكي)
 ٢٣١- الديارات الشابشتي ٢٣٩
 ٢٧٢- مجلة الحوليات الاثرية مجلد ٧ عام ١٩٥٩ صفحة ٦٦
 ٢٣٢- ن . م . ٢٤٣

- ٢٢٣- معجم الادباء ١٤٩/٤
٢٢٤- الديارات ٢٤٤
٢٢٥- ديوان الصنوبري ٥٤
٢٢٦- ن. م. ٥٧
٢٢٧- وقائع الندوة لتاريخ الرقة ٢٨ شتورم
٢٢٩- مرآصد الاطلاع (دير)، معجم ما
استعجم ٥٨٣/٢
٢٤٠- ديوان الصنوبري ٤٩٧
٢٤١- الديارات الشايبستي ١٧١
٢٤٢- اللؤلؤ المنشور ٢٠
٢٤٣- ن. م. ٢٢٦
٢٤٤- ن. م. ٢٧٥
٢٤٥- ن. م. ٢٨٠
٢٤٦- ن. م. ٢٨٦
٢٤٧- ن. م. ٢٤٦
٢٤٨- الدارات ٢٤٣
٢٤٩- لوائح في تاريخ ميخائيل الترجمة
العربية ٤١٠/٣ - ٤٦٤
٢٥٠- ديوان الصنوبري ٥٨
٢٥١- ن. م. ٥٨
٢٥٢- ديوان الصنوبري ٥٤
٢٥٤- ن. م. ٧٨
٢٥٥- الاغانى ٣٠١/١٨
٢٥٦- ياقوت: مرج الضيائن
٢٥٧- ديوان ابن الرقيات ١٠٦ ، ١٠٩
٢٥٨- ديوان الصنوبري ٢٩٨
٢٥٩- ياقوت دير الرصافة
٢٦٠- ياقوت: دير الرمان
٢٦١- تاريخ الموصل ٢٢٣
٢٦٢- كتاب المتواريين الذين اختفوا خوفا من
الحجاج ٧٥
٢٦٣- الطبري ٢٩٦/٨ سنة ٢٩٦
٢٦٤- ن. م. ٣٤١/٨
٢٦٥- ابن خلكان ٢٢٧/٦
٢٦٦- معجم البلدان: دير القائم الأقصى
٢٦٧- الديارات ١٩٧
٢٦٨- ميخائيل ٤١٩/٢ ، ٤٢٠
٢٦٩- ميخائيل ٤٢/٢ ، ٤١/١
٢٧٠- اللؤلؤ المنشور ٥١٢
٢٧١- ميخائيل ٢٦/٣
٣١٥- معجم الشيوخ للذهبي ٢٤٢/١
- ٢٧٣- المقدسي ١٤١
٢٧٥- ميخائيل ٤٣/٣
٢٧٦- ميخائيل ٣٧/٣
٢٧٧- ميخائيل ٤١٩/٢ ، ٤٢٠
٢٧٨- دير مار جان
٢٧٩- معجم البلدان : الصالحية
٢٨٠- معجم ما استعجم: دير زكى
٢٨١- ن. م. دير زكى (بحاشية)
٢٨٢- القشيري فقرة ١٧
٢٨٣- معجم البلدان : الصالحية
٢٨٤- ديوان الصنوبري ١٨١
٢٨٥- مسالك الابصار ٢٦٥/١
٢٨٦- معجم البلدان: الصالحية
٢٨٧- الاحوال الاجتماعية في بلاد الدزيرة د. سوادي عيد
محمد ١٠٧
٢٨٨- الخزل والبدال - ياقوت ٥٨/٢
٢٨٩- لومبار الجغرافية التاريخية ١٧٠
٢٩٠- معجم البلدان : القلس
٢٩١- تاريخ الموصل ٢٨٩
٢٩٢- ن. م. ٢٩٠
٢٩٣- ن. م. ٢٩١
٢٩٤- معجم البلدان : الرافقة
٢٩٧- القشيري فقرة ٣٦٠
٢٩٩- ابن العديم ١٠٥/١، ابن الاثير ٤١٧/٨
٣٠٠- المقدسي ١٤١
٣٠١- القلانسي ٦٤
٣٠٢- ابن العديم ٢٧٣/١
٣٠٣- طبقات الشافعية للمسبكي ١٨٠/٧
٣٠٤- الانساب للسمعاني : الرقي
٣٠٦- كراتشكوفسكي ٢٨٠/١
٣٠٧- نقل ذلك عن الادريسي ، ابن شداد ٦٩/١/٣ وهو
غير موجود في نزهة المشتاق المطبوع
٣٠٨- ياقوت : الرافقة
٣٠٩- معجم الادباء ١٥١/١٦ القفطي ٣٨٠/٢
٣١٠- الاعلاق الخطيرة ٢٠/١/١
٣١١- ابن شداد ٨٢/١/٣
٣١٢- ن. م. ٢٤٤/١/٣
٣١٣- ابو الفداء ١٠٦ ابن الوردي ٢٠١/٢ الحوادث
الجامعة ٢٤٠
٣١٤- تالي وفيات الأعيان للصفاي ٣٣
٣٢٧- ن. م. ٢٤١/

- ٣١٦- ن . م ١٧٠/١
 ٣١٧- ذيول العبر ٢٨٠
 ٣١٨- معجم المؤلفين ، كحالة ٩٨ ، ذيول
 العبر ٢٣ ، معجم الذهبي ١٢٧/٨
 ٣١٩- تاريخ الإسلام . الذهبي جزء ٦٩١ .
 ٧٠٠ ص ٢٥٦ تاريخ حوادث الزمان ٢١٢
 ٣٢٠- تاريخ الإسلام جزء ٦٩١ — ٧٠٠ ص ٤٥١
 ٣٢٢- ن . م ٢٢٠
 ٣٢٣- تاريخ حوادث الزمان لابن الجوزي
 ٢٢٤/٢
 ٣٢٤- معجم المؤلفين لكحالة ٩/١ ذيول العبر ٢٣ ،
 معجم الذهبي ١٢٧/١
 ٣٢٥- تاريخ الإسلام جزء ٦٧١ — ٦٨٠ صفحة
 ٣٥٢
 ٣٢٦- تاريخ الإسلام للذهبي جزء ٦٧١ . ٦٨٠ ،
 صفحة ٢٧٧
- ٣٢٨- القراء الكبار ٥٩٩/٢
 ٣٢٩- معجم الشيوخ . الذهبي ٢٥٠/٢
 الدرر الكائنة ١٧٨/٤
 ٣٣٠- الوفيات لابن رافع السلمي ٣١٤/١
 ٣٣١- تقويم البلدان ٢٧٧
 ٣٣٢- ن . م ٢٦٨
 ٣٣٣- مراصد الاطالع : الراقفة
 ٣٣٤- زبدة كشف الممالك ٥٠
 ٣٣٥- كتاب الوحدة والتنوع . كرونيانوم هامش صفحة ١٥٩
 ٣٣٦- السماع على الأنهري
 ٣٣٧- الحوليات الاثرية المجلد ٧ سنة ١٩٥٧ ، الرقعة من
 خلال التاريخ — أبو الفرج العس ٧١

المقاييس الإسلامية

المسافات

الميل = ٤٠٠٠ ذراع مرسلة = ٢٠٠٠ ذراع هاشمية = ١٨٤٨ متر
 الفرسخ = ٣ أميال = ٥,٥٤٤ كم
 البريد ٤ فرأسخ = ٢٢,١٧٦ كم
 اليوم وحدة قياس المسافة التي تقطعها قوافل الإبل المحملة بالأثقال في يوم واحد متوسط
 ٨: فرأسخ = ٢ بريد = ٤٤,٣٥٣ كم
 المرحلة ٦ فرأسخ = ٢٣,٢٨ كم (الطريق - إلى دمشق - احمد عادل كمال ٢٥٤)
 وفي تقدير نلليو أن الميل يعادل ١٩٧٣,٢ م (احمد سوسة - الشريف الادريسي ١١٢/١)
 فحسب نلليو يعادل الفرسخ = ٢,٢ × ١٩٧٣,٩ = ٥٩١٩,٩ مترا

المكاييل

النصاع = ٢,٧٥ لتر
 انقسط = ١,٣٧ لتر
 القفيز = ٢٣ لترا = ٢٤,٣٠ قسط = ١٢ صاع
 الكيلة = ١٣ كغ
 الوسق = ١٠ كيلات = ١٣٠ كغ = ٦٠ صاع = ٣٢٠ رطلا = ١٦٥ لترا
 الإردب = ١٢ كيلة = ١٥٦ كغ
 الكر = ١١٠ أردب = ١٥٦٠ كغ
 القفير = ٦٤ رطل والرطل يعادل ٤٠٨ غ
 الجريب = ٢٠٨ كغ
 او ٨ × ٦٤ = ٥١٢ رطلا (٨) اقفة
 او ٨ × ٣٣ = ٢٦٤ لترا
 او ٨ × ١٢ = ٩٦ صاعا
 او ٨ × ٤٨ = ٣٨٤ مترا

الأوزان

النصاع = ٥,٣/١ رطل
 الرطل البغدادي = ١٢٨,٧/٤ درهم
 النصاع = ٥,٣/١ رطل × ٧/٤ = ١٢٨,٧/٤ درهم من القمح
 نسبة ثقل الماء إلى القمح ٧٩/١٠٠ ، فنسبة ما يسعه الصاع من الماء
 ٧,٦٨٥ × ٧٩/١٠٠ = ٩,٨٦٧ درهما من الماء .
 الرطل البغدادي ٧/٤ = ١١٢٨ × ١٧,٣ = ٤٠٨ غرام (الرئيس ٣٢٥ - ٣٢٨)

المساحة

الجريب = ٠٤,١٣٦٦ م
 القفيز مساحة = عشر الجريب أي ٦,١٣٦ م
 الفدان المصري الحالي ٤٢٠٠ م

الذراع طول ٦,٦١ سم (انريس)

التاريخ السلوقي

ادخل السلوقيون التقويم السلوقي ونقطة بدايته اعتبارا من إعادة احتلال بابل من قبل

سليوق الاول عام ٣١٢ قبل الميلاد . فلتحويل السنة السلوقية إلى سنة رومية نطرح منها (٣١٢) .

أباطرة الروم

٢١٨-٢٢٢ إيلاجا بالوس	٢٧ق م - ١٤ م أوغسطس
٢٢٢-٢٢٥ الكسندر سيفيروس	١٤ق م - ٢٧ م تيريوس
٢٢٥-٢٢٨ مكسيموس	٣٧-٤١ جايوس
٢٢٨ جورديان أو ٢	٤١-٥٤ كلوديوس
٢٢٨ بلبنوس ويوينيوس كسيموس	٥٤-٦٨ نيروز
٢٢٨-٢٤٤ جورديان الثالث	٦٨-٦٩ جاليا
٢٤٤-٢٤٩ فيليب العربي	٦٩-٦٩ أوتو
أسرة جستنيان	٦٩-٦٩ فيتيليوس
٥١٨-٥٢٧ جوستين الاول	٦٩-٦٩ فيسبآسيان
٥٢٧-٥٦٥ جوستين الاول الكبير	٧٩-٨١ تيتوس
٥٦٥-٥٧٨ جوستين الثاني	٨١-٩٦ دويتيان
٥٧٨-٥٨٢ تياريوس الثاني	٩٦-٩٨ نيرفا
٥٨٢-٦٠٢ موريس	٩٨-١١٧ ثراجان
٦٠٢-٦١٠ فوكاس (مغتصب للعرش)	١١٧-١٢٨ هادريان
أسرة هرقل	١٢٨-١٦١ انطونيون بيوس
٦١٠-٦٤١ هرقل الاول قنسطنطين	١٦١-١٦٩ ماركوس اوريليوس
٦٤١-٦١٣ الثالث	١٦٩-١٧٧ ماركوس اوريليوس
٦٤١-٦٤٨ هراقلوناس	١٧٧-١٧٥ أفيدوس كاسيوس (شرق)
٦٤٨-٦٤١ قنسطنطين الثالث	١٧٥-١٨٠ ماركوس اوريليوس
٦٤١-٦٤٨ هراقلوناس	١٨٠-١٩٢ كومودوس
٦٤٨-٦٦٨ قنسطنطين الثاني	١٩٢-١٩٣ اوريليوس كومودوس (
٦٦٨-٦٨٠ قنسطنطين الرابع ابن قنسطانز	١٩٣-١٩٣ برتيناكس
٦٨٠-٦٩٠ ديكوس	١٩٣-١٩٣ ديدوس جوليانوس
٦٩٠-٦٩٥ جالوس وثوليسيان	١٩٣-١٩٨ سبتيمس سيفيروس
٦٩٥-٦٩٠ فاليريان وجالينيوس	١٩٨-٢٠٩ سبتيموس سيفيروس
٦٩٥-٦٩٠ جالينوس	٢٠٩-٢١١ وكراكلا
٦٩٥-٦٩٠ كلوديوس	٢١١-٢١٧ سبتيموس سيفيروس
٦٩٥-٦٩٠ كوينتيلوس	٢١٧-٢١٨ وكراكلا وجيتا
٦٩٥-٦٩٠ اوريليان	٢١٨-٢١٧ وكراكلا وجيتا
٦٩٥-٦٩٠ تاكلتوس	٢١٧-٢١٨ وكراكلا وجيتا
٦٩٥-٦٩٠ فلوريان	٢١٨-٢١٧ وكراكلا وجيتا
٦٩٥-٦٩٠ برزيوتس	٢١٨-٢١٧ وكراكلا وجيتا

۲۸۳-۲۸۲ کاروس	۱۷۶-۱۷۱ ق م فراتیس ۱
۲۸۳-۲۸۴ نومیریان (شرق)	۱۷۱-۱۲۸ ق م متراداتس ۱
۲۸۴-۲۸۵ دیوقلیتیان (شرق)	۱۲۸-۱۲۸ ق م فراتیس ۲
۲۸۵-۳۰۵ دیوکلیتیان	۱۲۸-۱۲۴ ق م ارتباتوس ۲
۳۰۵-۳۰۸ جالیریوس (قیصر :	۱۲۴-۸۷ ق م متراداتس ۲
ماکسیمینوس	۹۱-۸۱ ق م غوتارزیس ۱
۳۰۸-۳۱۱ جالیریوس	۸۰-۷۷ ق م اورودیس ۱
وماکسیمینوس	۷۷-۷۶-۷۰ او ۶۹ سناتروسیس
۳۱۱-۳۱۲ ماکسیمینوس	لخز ۷۰ او ۶۹-۵۸ / ۵۷ ق م فراتیس
۳۱۲-۳۲۴ لیکینیوس	متراراتس ۲
۳۲۴-۳۲۷ قسطنطین الاول (الکبیر)	۵۷-۳۷ ق م اورودیس ۲
۳۲۷-۳۶۱ قسطنطیوس انفررد	۳۸ ق م باکوروس ۱
بالحکم بعد / ۳۵۱ /	۳۸-۳۲ ق م فرایتس ۴
۳۶۱-۳۶۲ جولیان (یولیان) المرشد	۳۰-۲۵ ق م تریداتس ۲
۳۶۲-۳۶۴ جوفیان	۲ ق م - م - ۴ م فرایتس ۵
۳۶۴-۳۷۸ فالنز	۴-۶ / ۷ م اورودیس ۳
اسرة ثیودوسیوس	۸ / ۷-۱۲ ق م فونونس ۱
۳۷۹-۳۹۵ ثیودوسیوس الاول	۱۲-۳۸ ارتبانوس ۳
الکبیر، رد حکم بعد ۳۹۲	۳۶ - تریداتس ۳
۳۹۵-۴۰۸ ارکادیوس	۳۷- بیثاموس
۴۰۸-۴۵۰ ثیودوسیوس الثاني	۳۹- او ۴۴- ۵۱ غوتارزیس ۲
۴۵۰-۴۵۷ مرقیان	۳۹-۴۸ / ۴۷ ق م قبادانوس
اسرة لیو	۵۱ فرنونس
۴۵۷-۴۷۴ لیو الاول	۵۱ / ۵۲ - ۷۹ / ۷۰ فولوجاینوس ۱
۴۷۴ لیو الثاني	۷۸-۱۱۵، ۱۱۶ باکوروس ۲ رتبانوس ۴
۴۷۴-۴۹۱ زینون	۱۰۹ / ۱۱۰ - ۱۲۸ / ۱۲۹ اوزردیس
۴۹۱-۵۱۸ انستاسیوس الاول	۱۱۷ یارثاماسیاتس
ملوک فارس	۱۰۵ / ۱۰۶-۱۴۷ / فولوجایزس ۲
۲. البارتیون	۱۴۷ / متراداتس ۴
حوالی ۲۵۰ - ۲۴۷ ق م ارشاک	۱۴۸-۱۹۲ فولوجایزس ۳
حوالی ۲۱۱ ق م تریداتس	۱۹۱-۲۰۸ / ۲۰۹ فولوجایزس ۴
حوالی ۲۱۱ ۱۹۱ ق م ارثبانوس ۱	۲۰۸-۲۲۸ / ۲۲۹ فولوجایزس ۵
۱۹۱-۱۷۶ ق م بریاباتیوس	۲۱۲ / ۲۱۳-۲۲۴ ارتبانوس ۵
	۲۲۸ ارتافازوس

ملوك الساسانيين

هزيمة ارتبانوس (اردفان) ٢٢٤ .

اردشير ١	٢٤١-٢٢٦
سابور الاول	٢٧٢-٢٤١
اورميزد ١	٢٧٣-٢٧٢
بهرام ١	٢٧٦-٢٧٣
بهرام ٢	٢٩٣-٢٧٦
بهرام ٣	٢٩٣
نوسيس	٣٠٢-٢٩٣
اورميزد ٢	٣٠٩-٣٠٢
سابور ٢	٣٧٩-٣٠٩
اردشير ٢	٣٨٣-٣٩٧
سابور ٣	٣٨٨-٣٨٣
بهرام ٤	٣٩٠-٣٨٨
يزدجرد ٢	٤٢٠-٣٩٠
بهرام ٥	٤٣٨-٤٢٠
يزدجرد ٢	٤٥٧-٤٣٨
اورميزد ٣	٤٥٧-٤٥٩
فيروز	٤٨٤
بلاش	٤٨٤-٤٨٨
قباد ١	٤٨٨-٤٩٦
جاماسب	٤٩٦-٤٩٨ او ٤٩٩
قباد الاول (المرّة الثانية)	٤٩٨ او ٤٩٩ - ٥٣١
كسرى ١	٥٣١-٥٧٩
اورميزد ٤	٥٧٩-٥٩٠

كسرى ، برويز (المرّة الاولى)	٥٩٠
بهرامين	٥٩٠ - ٥٩١
كسرى ٢ برويز (المرّة الثانية)	٦٢٨ - ٥٩١
بسطام (متمرد في ميديا)	٥٩٦ - ٥٩١
قماز ٢	٦٢٨
اردشير ٢	٦٢٨ - ٦٣٠
شهروراز	٦٣٠
بوران	٦٣٠ - ٦٣١
ايرميزد ٥	٦٣١ - ٦٣٢
نيزدجرد ٣	٦٣٢ - ٦٥١



أبو عبدو البغل